رسالة ماجستير

بعنوان

صورة الصليبيين في الأدب العربي

إعداد

عبد القادر شريف عبد الله أبو شريفة

١٩٧٧ / ١٩٧٨

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب في الجامعة الأردنية.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(مقدمة)

قُسِّمَ الأدب العربي تقسيما تاريخيا الى عصور مختلفة ، كل قسم يُدْرَسُ من خلاله فترة قائمة بنفسها ، لها ميزاتها وخصائصها الفنية ، بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث .

وقد كان لهذا التقسيم أثر غير محمود في فهم الأدب العربي ، إذ جُمِّدَ في أطر تاريخية منفصلة ، تبدأ بسنة كذا وتنتهي بسنة كذا ...

وفي اطار هذا التقسيم التاريخي للادب ، وصفت بعض العصور بالقوة والازدهار ، ووصفت عصور أخرى بالجمود والانحطاط ،ولو حاولنا معرفة السبب في هذه الاحكام ، لكان في تصور من قالوا بها - مرتبطا في الغالب بالاوضاع السياسية للدولة الاسلامية .

هذا الربط بين السياسة والأدب هو الذي كان من وراء بعض التصورات الخاطئة وهو الذى أبعد أدب الحروب الصليبية عن منطقة الضوء ، علما بأن أدب هذه الفترة أدب خصب ، ذو أهمية خاصة نظرا لما يرتبط به من صراع طويل مرير بين أمتين وحضارتين .

وهنا نتساءل ، حتى لو سلمنا بأن هذا العصر عصر تمزق سياسي ، هل كل ضعف سياسي ينتج عنه ضعف في الانتاج الادبي ؟ والجواب - بالطبع - لا ، ويمكن تقديم الشواهد على ذلك من أدب الشرق وأدب الغرب على السواء .

والحقيقة ، أن الذين وصفوا هذا العصر بالجمود ، أنما أطلقوا أحكامهم بناء على تصور نظري ،ولم يعنوا أنفسهم بأحتمال مشاق البحث والتثبت ، حتى كأن الظاهرة أشهر من أن تعلل أو يبين لها سبب ، ولو رجعوا الى ما وصلنا من أدب هذه الفترة لتبينوا ما في أحكامهم من خطأ ، وذلك لأنهم أصدروا حكما دون التثبت من صحته مخالفين أصول المنهج العلمي السليم ، مما نتج عنه تصور بقي مقبولا حتى وقت قريب .

وقد كان للجامعة الأردنية الفضل في طرح مساقات يُدَرَّس فيها أدب هذه الفترة وذلك منذ عام ١٩٧٣ ، حين أعتمد قسم اللغة العربية تدريس مادة : أدب الحروب الصليبية " ضمن المواد الادبية التي يدرسها . وقد لاقت هذه المادة اقبالا جيدا من الطلاب وذلك لأنها مادة جديدة ، ومرتبطة بأوضاع قائمة في زماننا هذا . وتبين من دراسة هذه المادة خصب الانتاج الادبي في هذه الفترة ما جعل الطلاب يتمنون أن تضاء جوانب الحياة فيها ، لتنال من العناية ما نالته الفترات الاخرى .

وبعد دراسة تاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين ، وما دار فيهما من صراع مرير ،وجدت رغبة ملحة في نفسي - لا سيما بعد نصيحة أستاذي :

الدكتور عبد الكريم خليفة ، والدكتور محمود ابراهيم ـ بأن استقصي صور هذا الصراع ، صورة المحتلين ، فكانت هذه الدراسة بعنوان : " صورة الصليبيين في الادب العربي " .

ومما قوى هذه الرغبة في نفسي ، هذا التشابه بين الاوضاع القاسية التي مرت بها أمتنا ، والاوضاع التي تمر بها حاليا ، فقد تعرضت الامة فيما مضى لغزو استعماري استيطاني استهدف الارض والانسان ، وحاول بكل ما أوتي من قوة وجبروت ، أن يخلع جذور هذه الامة من الارض المقدسة ، وقد أحرز فعلا نجاحا كبيرا فيما حاوله ، فاحتل أجزاء كبيرة من أرض المشرق الاسلامي ، وبقي خطره يتفاقم الى أن بدأت ردة الفعل الاسلامية للغزو ، التي انتهت بخروج الصليبيين نهائيا من ديار الاسلام .

وفي الزمن الحاضر ، غرس في مشرقنا الاسلامي ، كذلك ، جسم غريب ، ابتلع أرض فلسطين ، ثم تجاوزها الى أرض عربية أخرى ، وما زالت أطماعه التوسعية تبدو في كل تصرف من تصرفاته .

على أن عاملا آخر قد شجعني على دراسة هذه الفترة أيضا ، ذلك هو أنها لم تحظ بدراسات كافية شاملة في وقتنا الحاضر ، وقد يكون من المفيد أن أقدم استعراضا سريعا لهذه الدراسات لكي يتبين موقع هذه الدراسة منها :

الدراسة الأولى ، هي دراسة الدكتور عبد اللطيف حمزة بعنوان "أدب الحروب الصليبية " وقد بين المؤلف في مقدمته أن الكتاب جاء استجابة لرغبة المجمع الملكي للغة العربية في مصر سنة ١٩٤٨ " إذ دعا الكتاب والمؤرخين الى الكتابة في هذا الموضوع الجليل " . وقد احتوى هذا الكتاب عرضا تاريخيا لمراحل الحروب الصليبية ، ثم ركز على دور مصر في هذه الحروب ، وقد أثبت المؤلف عددا من القصائد قيلت في المعارك المشهورة ، وهذا يعني أن المؤلف قد سار على النهج التقليدي في كتابة التاريخ الأدبي ، وقد قام المؤلف نفسه ، كذلك ، بدراسة أخرى أسماها " الادب المصري من قيام الدولة الايوبية الى مجيء الحملة الفرنسية " (٢) وجاء هذا الكتاب ملخصا للكتاب الأول ، ولكنه تجاوز الفترة الى ما بعد الحروب الصليبية حتى الحملة الفرنسية على مصر .

والدراسة الثانية ، هي : كتاب محمد سيد كيلاني ، " الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام " (٣) ، وقد احتوى الكتاب عرضا تاريخيا موجزا ، ودراسة بسيطة عن الحالة الاجتماعية المتولدة عن هذه الحروب في مصر والشام ، ثم تعريفا موجزا بأشهر شعراء هذه الفترة وكتابها .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

(٢) د . عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ، ؟

(٣) محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

وفي هذا الكتاب أستنتاجات لا تستند الى دليل ، ومنها ما هو مغالطات تحتاج الى برهان (١) ، ولكنه مع هذا ينقل مادة أدبية غزيرة ولو أنه لا يذكر مصادرها .

والدراسة الثالثة ، قدمها د . محمد كامل حسين ضمن كتابه " أدب مصر الفاطمية " (٢) وقد أشار أشارة سريعة الى دور الفاطميين في هذه الحروب .

والدراسة الرابعة ، قدمها ، د . أحمد أحمد بدوى بعنوان : " الحياة الادبية بمصر والشام " (٣) وفيها عرض للحياة الادبية والسياسية والاجتماعية في مصر والشام ، والمامة بسيطة بحياة الصليبيين جاءت تحت عنوان : " تصوير الفرنج " وقد أعتمد على كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، فذكر الصفات التي أوردها أسامة بأختصار شديد .

والدراسة الخامسة ، قام بها ايضا د . محمد كامل حسين بعنوان " دراسات في الشعر في عصر الايوبيين " (٤) وفيها تركيز على الأدب في مصر زمن الايوبيين ، ودور مصر في الحروب ، مع أثبات نصوص شعرية ونثرية عن المعارك التي جرت مع الصليبيين .

والدراسة السادسة قام بها ، د . عبد العزيز الأهواني بعنوان " أبن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر " (٥) ، وقد وصف هذا العصر بالجمود ، معللا أياه بأسباب عامه قد لا تنطبق كلها على العصر ، ومنها ما لا ينطبق حتى على شعر ابن سناء الملك نفسه .

والدراسة السابعة ، قام بها ، محمود مصطفى ، بعنوان " الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي الى نهاية العصر الأيوبي " (٦) وفيها ميل عاطفي يتمثل بالإعجاب المفرط بالأدب في هذه الفترة ، وابراز دور مصر فيه .

---

(١) الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام ٩ ، ٢١،٣٩،١٦ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ١٠١ ، ١٠٤ ...

(٢) د . محمد كامل حسين ، أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٥٠

(٣) د . أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية بمصر والشام ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ١٩٥٤

(٤) د . محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ، دار الكتاب المصري مصر سنة ١٩٥٧

(٥) د . عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٦٢

(٦) محمود مصطفى ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، مصر ، سنة ١٩٦٧

والدراستان الثامنة والتاسعة قام بهما د . محمد زغلول سلام ، بعنوان " الأدب في العصر الأيوبي "(١) و " الأدب في العصر المملوكي "(٢) وقد تحدث فيهما عن النواحي السياسية والإجتماعية ، وحالة الأدب والأدباء ، وأورد تعريفات سريعة ببعض الادباء والشعراء .

والدراسة العاشرة قام بها د . عمر موسى باشا ، بعنوان " الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك "(٣) وهي دراسة مسطحة شاملة لفترة الحروب الصليبية وما واكبها من شعر أو نثر من تقويم فني لهذا الأدب .

والدراسة الحادية عشرة قام بها فاروق جرار ، بعنوان " محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره " (٤) وفيها ترجمة للشاعر ودراسة لقصائده .

والدراسة الثانية عشرة قام بها د . محمود ابراهيم ، بعنوان : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني "(٥) وفيها تحليل لشعره ، ونظر مستقص في فنه الادبي .

والدراسة الثالثة عشرة قام بها هادي نهر ، بعنوان : " معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية " (٦) وهي رسالة ماجستير لم تطبع بعد ، وفيها دراسة للشعر الذي مجد نور الدين محمود في حروبه مع الفرنج من نظر سريع في السمات الفنيه لهذا الشعر .

مما مضى يتبين أن مجموع الدراسات التي تناولت الفترة بلغ ، فيما أعلم ، ثلاث عشرة دراسة ، كان معظمها يركز على دور مصر في الأحداث ، في حين عرض بعضها للمادة الادبية في أطار الاحداث التاريخية . وقد ركزت هذه الدراسات على تصوير الجانب الاسلامي ، أما الفرنج فلم تفرد لهم دراسات خاصة ، بأستثناء اشارات غير مستقصية .

وقد يتبادر الى الذهن أن أدب هذه الفترة قد رسم صورة قاتمة للصليبيين ، لأن العلاقات التي كانت قائمة بين المجتمعين هي علاقات دموية ، يسودها الحقد والكره والالم .

---

(١) د . محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الايوبي ، دار المعارف، مصر ١٩٦٧ .

(٢) د . محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠ .

(٣) د . عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام ، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٦٧ .

(٤) فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ، المطبعة التعاونية عمان سنة ١٩٧٤ .

(٥) د . محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان سنة ١٩٧١ .

(٦) هادي نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، جامعة القاهرة، رقم ٩٠٣ سنة ١٩٧٥

ولكن ، بعد دراسة المادة ، ظهر لي أن هذا الصراع الدموي ، الذي صوره أدب هذه الفترة قد قدّم في صور متعددة ، منها ما يتعلق بمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للغزاة ، ومنها ما يتعلق بالعلاقات بينهم وبين المسلمين خلال فترات الهدن المؤقتة التي كانت تعقد بين الطرفين .

وبعد جمع المادة الشعرية والنثرية من المصادر الأساسية قمت بدراستها وتحليلها ثم تصنيفها الى فروع تشكل الاطار الكلي لصورة الصليبيين في الأدب العربي .

ولما كانت المادة واسعة ، والشواهد كثيرة ، فقد أوردت بعض الشواهد وأحلت القارئ الى مصادر الشواهد الاخرى خشية الاطالة .

وقد قسمت الرسالة الى ثلاثة أبواب وخاتمة ، أما الباب الاول فقد تحدثت فيه عن الشرق الاسلامي قبيل الغزو الصليبي وأوضحت فيه الحالة السياسية في العراق وبلاد الشام ومصر ... ودور كل منها في الحروب الصليبية ، كما أوجزت أوضاع الغرب الأوربي قبيل الغزو ، والاسباب التي دفعتهم الى مهاجمة الشرق الاسلامي ... وحددت في هذا الفصل المناطق التي تعرضت للغزو ، وما نتج عن هذا الغزو من آثار . وأما الباب الثاني فقد بينت فيها النظرة الاسلامية للصراع ، ووجدت أنها نظرة دينية لصراع حربي ، أسهب الأدب في توضيح عناصره ، فوصف الجيش الصليبي وقوته وأعداداته ، وأسلحته ومعداته ، وقلاعه وتحصيناته ، ومعاركه وخططه ... كما أوضح خطر هؤلاء الغزاة على الاسلام والمسلمين والبلاد الاسلامية جميعها .

وقد صور الادب كذلك ، حياة الصليبيين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكانت صورة الحياة الاجتماعية فيه أوضح من صورة الحياتين السياسية والاقتصادية .

وأما الباب الثالث فقد أشتمل على دراسة فنية للشعر والنثر ، وما أحتوياه من خصائص ثم مقارنة بين أسلوبي الشعر والنثر في تقديم صورة الغزاة . وأما الخاتمة فقد لخصت فيها نتائج البحث وما توصلت اليه من حقائق ، ثم أتبعتها بعدة ملاحق :

١ . ملحق شعري : وقد رتبته حسب وفيات الشعراء ما أمكن ، وإن تعذرت معرفة سنة الوفاة كنت أدون الشعر حسب السنة التي قيلت فيها القصيدة أو القصائد . وفي أطار هذا النظام أوردت القصائد مرتبة حسب القوافي ترتيبا أبجديا .

٢ . ملحق بمعاني المصطلحات الحربية المستعملة آنذاك .

٣ . قوائم بحكام المسلمين والصليبيين في فترة الصراع .

٤ . جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية .

٥ • الخرائط وهي أربع : توضح الاولى منها الحروب الصليبية بشكل عام ، وتوضح الثانية الإمارات الصليبية الاربع ، وتوضح الثالثة ممتلكات الصليبيين بعد معركة حطين ، وتوضح الرابعة أسماء الاماكن التي جرت فيها المعارك أو التي ورد ذكرها في الشعر أو النثر •

أما المصادر التي أعتمدت عليها في هذه الرسالة فهي كثيرة ، بسبب طول الفترة وأتساع ميدان الصراع ، ••• ولذلك سأقتصر على المهم منها ، والباقي يجده القارئ في فهرس المصادر والمراجع :

أ • الدواوين الشعرية :

١ • ديـــــوان ابن الخياط : ـ ٥١٧ هـ وفيه قصيدة تسجل الاحداث الاولى للحروب الصليبية •

٢ • ديـــــوان ابن القيسراني : ـ ٥٤٨ وفيه عدد من القصائد التي تصف الحياة الاجتماعية وما زال الديوان مخطوطـــا •

٣ • ديـــــوان طلائع بن رزيك ـ ٥٥٦ ، وفيه قصائد عن حروبه مع الفرنج ، واستحثاث لنور الدين محمود على تعاون مصر والشام في الصراع القائم ضد الغزاة •

٤ • ديـــــوان أسامة بن منقذ ـ ٥٨٤ هـ وفيه مراسلات بينه وبين طلائع بن رزيك حول الحروب ، والحث على التضامن بين مصر والشام •

٥ • ديـــــوان ابن الساعاتي ـ ٦٠٤ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الدين

٦ • ديـــــوان ابن سناء الملك ـ ٦٠٨ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الديـــن •

٧ • ديـــــوان فتيان الشاغوري ـ ٦١٥ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الديـــن •

٨ • ديـــــوان ابن النبيه ـ ٦٢٠ هـ وفيه قصائد عن معركة دمياط زمن الملك الكامل ابن العـــادل •

٩ • ديـــــوان ابن مطروح ـ ٦٤٩ هـ وفيه قصيدة عن حصار دمياط سنة ٦٤٧

١٠ • ديـــــوان ابن دنينير ـ ٦٥٠ هـ وفيه عدة قصائد عن حصار دمياط سنة ٦١٤ وما زال الديوان مخطوطا في المكتبة الظاهرية بدمشق •

١١ • ديـــــوان البهاء زهير ـ ٦٥٦ هـ •

١٢ • ديـــــوان البوصيري ـ ٦٩٦ هـ وفيه قصائد طويلة تحمل طابعا دينيا وأضحا هذا بالاضافة الى ثمانية دواوين أخرى أشير اليها في قائمة المصادر والمراجع •

ب. المصادر الأدبية والتاريخية مرتبة حسب وفيات أصحابها :

١. الاعتبار لأسامة بن منقذ ـ ٥٨٤ ، وقد صور فيه بعض النواحي الاجتماعية في حياة الصليبيين والمسلمين في عصره ، وتمتاز كتابته بالصدق والواقعية ، نظراً لمعاشرته للفرنج مدة طويلة .

٢. الفتح القدسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ـ ٥٩٧ ، وقد حوى تاريخ سبعة أعوام ابتداء من عام ٥٨٣ وفيه وصف دقيق لبعض عادات الفرنج بلغة بديعية مزخرفة .

٣. خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ـ ٥٩٧ وتقع في عدة مجلدات مقسمة على بيئات مختلفة منها الشام ، ومصر والعراق ، وتحتوي هذه المجلدات تراجم أدباء القرن السادس ممن عاصروا المؤلف ، ومنتخبات من أنتاجهم .

٤. رحلة ابن جبير ـ ٦١٤ وقد وصف فيها حال بعض بلدان الشام زمن صلاح الدين ، ما كان منها في حكم المسلمين ، وما كان منها تحت الاحتلال الصليبي وأورد وصفا حيا لبعض عادات الصليبيين كما شهدها في الأرض المحتلة .

٥. الكامل لابن الاثير ـ ٦٣٠ ويحتوي تاريخا لأحداث الحروب الصليبية ، وبعض القصائد التي قيلت في الحروب .

٦. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لبهاء الدين بن شداد ـ ٦٣٢ هـ وقد ألفه عن صلاح الدين ، وقسمه الى قسمين : الاول : في مولده ومنشئه وخصائصه والثاني : في تقلبات الاحوال به ووقائعه ، وفيه وصف للصليبيين وأدواتهم القتالية وخططهم الحربية .

٧. زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ـ ٦٦٠ هـ ويحتوي تاريخا لاحداث الحروب الصليبية .

٨. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين وكتاب الذيل على الروضتين لابي شامة المقدسي ـ ٦٦٥ هـ ويحتويان مادة شعرية ونثرية خصبة جدا ... ويعتمد المؤلف في أخباره على المؤرخين الذين سبقوه وعلى دواوين الشعراء ، وقد حفظ كثيرا من النصوص من الضياع .

٩. الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية للملك الامجد الحسن بن داوود ـ ٦٧٠ هـ وهو مخطوط في دار الكتب المصرية ، ويحتوي عدة رسائل لوالده ، ومنها تلك التي بعثها الى الملك الصالح أيوب يحرضه على قتال الفرنج .

١٠ • تشريف الايام والعصور لابن عبد الظاهر ـ ٦٩٢ ، وهو في سيرة الملك المنصور وفيه توضيح للسنوات الاخيرة من الحروب الصليبية •

١١ • مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ـ ٦٩٧ هـ ويقع في أربعة مجلدات ،يتحدث فيها عن الملوك من بني أيوب ، وفيه شعر مرتبط بالاحداث الهامة •

١٢ • نهاية الارب للنويري ـ ٧٣٢ هـ وهو في ثلاثين مجلدا وقد أعتمدت على الاجزاء التالية : الخامس ، والسابع ، والثامن ،وهي مطبوعة والجزء السابع والعشرين وهو مخطوط ، وفي هذه الاجزاء بعض الرسائل والمعاهدات المرتبطة بالحروب الصليبية •

١٣ • تاريخ ابن الفرات ـ ٨٠٧ هـ وهو في عدة مجلدات ،وفيه تاريخ للحوادث وذكر للاشعار التي ترتبط ببعض هذه الحوادث •

١٤ • عقد الجمان للعيني ـ ٨٥٥ هـ وهي أجزاء كثيرة ما زالت مخطوطة بدار الكتب وفيها ، بعض القصائد التي لا توجد في المؤلفات الاخرى

هذه بعض المصادر الاساسية التي أعتمدت عليها ، ويجد القارئ مجموعة كبيرة في قائمة المراجع والمصادر ، وهناك مصدران فرنجيان معاصران للحروب الصليبية ، لا بد من الاشارة اليهما وهما كتاب مؤرخ مجهول حققه د • حسن حبشي وفيه وصف لبعض الاحداث والكتاب الثاني هو مذكرات كتبها جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الفرنسي في حملته على مصر •

ومما يجدر ذكره أن المصادر العربية تتميز بصدقها ودقتها وقد نوه كل من هاملتون جب وفليب حتي بدقة هذه المصادر •

هذا ،وقد أعترضتني بعض الصعوبات في هذه الدراسة ، أهمها : أنها تشتمل الشعر والنثر معا ، وتستغرق فترة الحروب الصليبية كلها في بلاد الشام ومصر مع أن الزمن المحدد يضيق عن الوفاء بما تتطلبه دراسة واسعة كهذه ، لا سيما أن بعض المخطوطات لم يتيسر لي الحصول عليها في الأردن ، مما أضطرني الى السفر الى سوريا ولبنان ومصر ، وكان من فضل الله علي أن اقترن السعي بالتوفيق فلله الحمد على ذلك •

ولا يفوتني أن أشكر أستاذى الفاضل د • محمود ابراهيم الذى أشرف على هذه الرسالة ، فأبدى توجيهاته وأرشاداته وأمني العثار والزلل ، وقدم لي بعض المصادر التي تعذر الحصول عليها لولاه •

وأخيرا ، أقول ما قال العماد : " إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده ، لو غُيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يُستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذه أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

فأحمد الله إن أصبت ، وأعتذر للقارئ ان أخطأت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ...

عبد القادر أبو شريفة
الجامعة الاردنية
١٩٧٧ / ١٩٧٨ م

الباب الأول

توطئة تاريخية

الفصل الأول : الشرق الإسلامي قبل الغزو الصليبي

الفصل الثاني : الغرب الأوروبي قبل الغزو الصليبي

الفصل الثالث : الصراع : ميدانه وزمانه

الفصـــــل الأول

الشرق الاسلامي قبيل الغـــزو الصليبـــي

شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، صراعا عنيفا بين الروم والمسلمين تمكن الروم خلاله من السيطرة على أجزاء من بلاد الشام ، ولو لم تقف الدولة الفاطمية في وجه الغزو البيزنطي لاحتلوا بلاد الشام حتى القدس (١) ، وقد ساعد على وقف هذا الغزو كذلك انشغال الامبراطور البيزنطي باسل الثاني بشؤون أرمينية ، إذ كانت تمر بمرحلة ضعف أغرى الامبراطور بها ، فضمها الى ممتلكاته ، وأقام فيها الحاميات وأنفق عليها الاموال الطائلة ليجنبها مخاطر القوى الاسلاميــة ، ولكن مساحتها الشاسعة ، وضعفها الذى ساعد على تمكن الروم من احتلالها جعلا هذه المنطقة غير محمودة العواقب بالنسبة الى الدولة البيزنطية ؛ فقد ظهرت مخاطر تهدد كيان الدولة البيزنطية من الشمال بسبب الغارات المتكررة التي قام بها البلغار ، مما سبب هجرة المواطنين في البلقان ، وترك الاراضي الزراعية ، فجرد الامبراطور عدة حملات ليوقف هجمات تلك القبائل (١) . وفي الوقت نفسه ظهرت قوة أخرى في المشرق من أخلاط القبائل التركية ، كانت تعتمد في معيشتها على الاغارة والنهب ، حتى دخلت ديار الاسلام فأسلم زعيمهم سلجوق بن دقاق * ، وأقام بنواحي بخارى حتى مات ، فخلفه أبنه ميكائيل ** ، وبعد موته تولى الأمر أبنه طغرلبك (٢) .

انتهز طغرلبك تصارع القوى في فارس والعراق ، فمال نحو الغزنويين لقربهم إليه ، ضد البويهيين ، وقد حقق الغزنويون انتصارات وسعت مملكتهم ، لكن طغرلبك لم ينله منها شيء ، فعمد الى استمالة التركمان في نواحي خراسان مما زاد من قوته ، وحدثته نفسه بالانفصال عن الغزنويين ، فأحس السلطان مسعود الغزنوي خليفة السلطان محمود الغزنوي هذه النوايا ، وجهز جيشا لايقاف الاعتداءات السلجوقية على مملكته ، فالتقى مع السلاجقة في دانـدانقان (٤٣١ هـ/١٠٤٠ م) ، وكانت الدائرة عليه ، فاستولى السلاجقة على معظم أملاكهم (٤) ، وانحصر نفوذ الغزنويين في أفغانستـان (٥) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، [illegible] ط ٣ مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة سنة ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ ، ص ١١٦

* كان له من الابناء : أرسلان ، وميكائيل ، وموسى ، أنظر السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٣٠

** كان له من الابناء : بيغو ، طغرل ، ينال ، جغرى بيك داود ، أنظر المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٣٠

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٦ ص ٢٩٣

(٤) الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية تحقيق محمد أقبال ، لاهور سنة ١٩٣٣ ص ١٩٤

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٧٦

اندفع السلاجقة حينئذ بزعامة طغرلبك يتوسعون على حساب دولتي المسلمين والبيزنطيين ، اللتين كانتا تعيشان مرحلة تفكك وصراع داخلي ، بينما أجتمع للسلاجقة عدة محركات ، منها القيادة الطموح ، والقوة الضاربة ونشوة الانتصارات المتتالية .

وحدث أن تجبر البويهيون وأرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة مما أدى الى الفتن في العراق (١) ، فأسرع طغرل الى بغداد وأزال دولة بني بويـــه ، وقدم الولاء الرمزي للخليفة الذي أنعم عليه بلقب أمير المسلمين ونائب وصي أمير المؤمنين (٢)

وبعد أن أستقر الأمر في بغداد توجه الى نصيبين " وديار بكر " ، فضمها الـى ملكه ، واستولى على الموصل وولى عليها أخاه (ينال أبراهيم) (٣) ، وكان قد سيطر علـى أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق ، واتخذ أصبهان عاصمة له (٤) .

لكن أنصار بني بويه في بغداد لم يقفوا مكتوفي الأيدي بعد تدمير دولتهم ، إذ قام أحد قادتهم ويدعى " البساسيري " بتكوين جماعة تدعو الى الثورة على الخليفة العباسي واتصل مع الخليفة الفاطمي كي يساعده في اعلان الحكم الفاطمي في بغداد .. وحـــين أنس في نفسه القدرة عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي ، فسادت الفتنة الـى بغداد (٥) .

وحين علم طغرلبك بفتنة البساسيري ، قدم ثانية الى بغداد وقضى عليه ســـنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأعاد الخليفة العباسي الى كرسي الخلافة ، مما جعل الخليفة ينعم عليه بلقب ملك الشرق والغرب ، كما دعاه بالسلطان مكافأة له على ما أسداه من معروف (٦) لكن طغرلبك كان بعيد النظر ، فأراد أن يسبغ على حكمه شرعية أكثر ، فطلب من الخليفة أن يزوجه ابنته ، وما كان الخليفة ليستطيع أن يرد طلب الحاكم الفعلي لبغداد حتى في المسائل الشخصية ولكن موت طغرل أنهى أحراج الخليفة وعادت ابنته من " الري " بعـد وفاة طغرل سنة ٤٥٥ هـ (٧) .

وبعد موت طغرلبك بالري خلفه ابن أخيه ـ عضد الدولة أبو شجاع محمد ألـب أرسلان* وقد سار على نهج عمه طغرلبك في التنظيم الداخلي والفتوحات الخارجيـــة .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، دار صادر ، ودار بيروت سنة ١٩٦٦ ج٩ ص ٥٩٣

(٢) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، بين القرنيين الحادي عشر والخامس عشر ، المكتبة العصرية ، صيدا سنة ١٩٦٩ ص ١٧

(٣) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٩٣٤ ج ١ ق ١ ص ٣٢

(٤) المصدر السابق ص ٣٢ (٥) الكامل ١٠ / ٦٤٠ ـ ٦٤٢

(٦) علاقات بين الشرق والغرب ص ١٨

(٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٣ ، وانظر ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٦٧ ج ١ ص ١١٥ ـ ع

* ألب أرسلان هو ابن جغري بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وسبب توليته هو أنجـاب طغـــرل وريثـــا .

مستفيدا من قوته التي ازدادت بسبب الفتوحات السابقة وضعف البلدان المجاورة • كما تابع فتوحاته في أرض أرمينية فأحتل "آني" و"قارس" وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية مما جعل الطريق مفتوحة الى الأناضول ، كل ذلك وأمبراطور بيزنطة قسطنطين العاشر دوقاس لا يحاول صد الهجمات (١) مما أتاح الفرصة للسلطان ألب أرسلان لأن يوطد قدميه في المناطق التي يحتلها مخالفا بذلك ما كان يحدث في عهد سلفه من الأباطرة •

وفي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م تولى العرش البيزنطي أمبراطور جديد عمل على تقوية الجيش وإمداده بالمرتزقة من التركمان والنورمان أملا في أن يستطيع درء الخطر السلجوقي الذى أضحى يهدد عاصمة بلاده ، وقد تمكن الامبراطور رومانوس ديوجين الرابع من ذلك فصد الهجمات السلجوقية ، بل وتمكن من استرجاع بعض المدن (٢) مما شجعه على الاستمرار والمضي قدما لاسترجاع أرمينية ، فخرج بجيش قوامه مئة ألف مقاتل (٣) وفي تلك الاثناء كان الامير ألب أرسلان منهمكا في مواصلة ضم الاراضي في بلاد الشام حيث أخضع حلب ، وأمّر عليها صاحبها محمود بن نصر المرداسي ، ثم بعث جيوشه بقيادة "اتسز" فأستولت على القدس والرملة وأنتزعتهما من أيدى الفاطميين (٤) ، كما واصلت زحفها لتستولي على مكة والمدينة بينما قام بمحاصرة دمشق بنفسه (٥) ، وفرض عليها معيشة أقتصادية سيئة ، فقطع عنها الميرة ورعى الزرع وأزداد غلاء الاسعار فيها ونزح أكثر سكانها عنها (٦) ،ولكنه حينما سمع بتحركات الامبراطور البيزنطي كرّ راجعا الى أرمينية ، والتقى الجيشان السلجوقي والبيزنطي في " ملاذكرد " ،وكان أن انسحبت الفرق التركمانية من الجيش البيزنطي ، مما نتج عنه ضعف روح البيزنطيين المعنوية ، لكن ذلك لم يوهن من عزيمة الامبراطور بل بقي مصمما على القتال الى أن دارت الدائرة عليه ، وقتل معظم جنده وتمكن أرسلان من القبض عليه أسيرا (٧) •

وقد كان لهذه الموقعة آثار متعددة : منها تردّي الروح المعنوية عند الروم مما اضطرهم الى الاستنجاد باللاتينيين (الفرنج) رغم ما بينهما من عداء ، وهذا كانت سببا مباشرا من أسباب الحروب الصليبية (٨) ،ومنها ، تدخل السلاجقة في شؤون الدولة البيزنطية ، ومنها ،ازدهار دولة السلاجقة واتساعها ، وقد نتج عن هذا الاتساع فيما بعد انقسامها الى ثلاث دول هي: دولة سلاجقة الروم ، ودولة سلاجقة الشام، ودولة سلاجقة فارس

---

(١) الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٢ (٢) الكامل ج ١ ص ٦٠

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٥

(٤) الفارقي ،تاريخ الفارقي ، ت بدوى عبداللطيف ، بولاق ، القاهرة ١٩٥٩ ص٤٧٣ وانظر أبو الفداء ،مختصر في تاريخ البشر ، المطبعة الحسينية مصر ، ؟ ج٢ ص١٨٧

(٥) تمارا تالبوت رايس ، السلاجقة ،تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخورى وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٨ ص ٢٣

(٦) ابن القلانسي ،ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الاباء اليسوعيين ،بيروت ١٩٠٨ ص٩٨-٩٩

(٧) الكامل ٦٦/١٠

(٨) The Ency. of Islam, Malazgerd

وقد أزدهرت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه بن ألب أرسلان حتى بلغت الـذروة بفضل هذا الملك وبفضل وزيره نظام الملك الذي عرف بحسن إدارته وسعة أفقه ، فعمل علـى أيجاد نهضة علمية وعمرانية لم تشهدها المنطقة منذ مدة طويلة .

أما ملكشاه فقد نذر نفسه لاستكمال الفتوحات ، حتى بلغ به الطموح أن يفكر بتقسيم أقاليم الدنيا (١) ، ولذلك أعتمد على قادة أقوياء أوكل لكل منهم منطقة معينة ، فجعل الأمير برسق لمنطقة الروم ، فغايقها وأقرّ على قسطنطينية جزية بلغت " ثلاثمئة ألف دينار للسلطان وثلاثين ألف دينار يؤديها الرومي بالصغار والهوان " (٢) كما جعل أخاه تاج الدولة تتش مسؤولا عن أقاليم الشام يساعده في ذلك أمير الرها " بوزان " ، وأمير حلب " آق سنقر " حتى اذا استكملوا أقاليم الشام توجهوا نحو ديار مصر ثم بلاد المغرب (٣) .

ولعله فعل ذلك بناء على تصور لماضي العالم الاسلامي زمن هرون الرشيد ، فأراد ان يعيد مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية على يد قادته العظام ، ومن الناحية العمرانية على يد وزيره نظام الملك (٤) .

أما عن توسعات السلاجقة في الجهات الغربية من أرض الروم (٥) ، فقد تولاهـا " سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق " أحد أقاربه بحيث أصبحت الدولة السلجوقية تضم ما يقرب من ثلاثة أرباع آسيا الصغرى وأمتدت دولة السلاجقة بذلك في منطقة تقع ما بين حدود الصين شرقا الى بحر مرمرة غربا (٦) .

وأتخذ سليمان بن قتلمش مدينة نيقيه مركزا له ، وضم اليها ولاية نيقوميديا ، ومنها راح يهاجم أرض الروم ، يساعده في ذلك أمير أزمير ، وقد أستطاع بعد أن انشأ أسطولا أن يهدد القسطنطينية وأن يحتل بعض الجزر القريبة من شواطئ آسيا الصغرى ، ومما سهل على سليمان هذا التوسع التمزق السياسي الذي كانت تمر به الدولة البيزنطية ، حتى بلغ الامر ببعض الاباطرة ان يستنجدوا بالسلاجقة مقابل السكوت عن ضم بعض الأراضي البيزنطية (٧) .

---

(١) البنداري ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ١٩٠٠ ص ٦٥
(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ، ٦٦
(٣) المصدر السابق ص ٦٦
(٤) رشيد الجميلي ، دولة الاتابكه في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة / بيروت ١٩٧٠ (ص ٣١٢)
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٧
(٦) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول لابن هارون الملطي ، المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٥٨ ص ١٨٦ ، أنظر حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية مكتبة الشباب القاهره ١٩٧١ ، ج١ ص ٩٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٦ ، ٩٠

إلا أن هذا التوسع حمل معه بذور التمزق السياسي ، فقد تشكل من البيت السلجوقي ثلاث دول هي : دولة سلاجقة الروم بقيادة سليمان بن قتلمش ، ودولة سلاجقة الشام بقيادة تتش بن ألب أرسلان ، ودولة سلاجقة فارس بقيادة ملكشاه بن ألب أرسلان .

وفضلاً عن هذا الانقسام فقد دب الخلاف بين أمراء السلاجقة ، اذ أتجه سليمان بن قتلمش الى التوسع على حساب أبناء عمومته في الشام ، فاصطدم مع تتش قرب حلب ، حين أراد سليمان ضمها الى ممتلكاته ، فاستنجد صاحبها بتتش ، فانجده وتمكن من قتل سليمان سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م (١) ، وقد كان مقتل سليمان بداية أضمحلال لسلاجقة الروم ، إذ انه ترك طفلاً صغيراً اسمه قلج أرسلان ، لا يقدر على أعباء الحكم ، وحين تقدم ملكشاه ليتسلم حلب من أهلها أخذ معه هذا الطفل وعاد الى فارس ، ليبقى تحت رقابته ، مما أتاح الفرصة لبعض أمراء التركمان للظهور (١) .

ومن الامارات التي ظهرت : أمارة نيقيه ، وأمارة أزمير ، وأمارة كبادوكيا وقد حاول أمير نيقية التوسع على حساب سلاجقة فارس ، فجهز له ملكشاه حملة تأديبية فاستنجد بأمبراطور الروم " ألكسيوس كومنين " الذي أغتنم الفرصة ليزيد الفتنة أشتعالاً وبالتالي يخلو له الجو لينتقم منهم جميعاً ويستعيد بلاده ، حتى بلغ به الأمر أن رفض عرضاً من سلاجقة فارس، يقضي بأن ترد له بعض الاراضي على أن يتخلى عن مساعدة أبي القاسم أمير نيقية (٣) ، ولما لبث النزاع أن نشب بين سلاجقة فارس والشام ؛ وسبب ذلك أن أهل حلب أمتنعوا عن تسليم بلدهم لتتش بعد أنتصاره على سليمان بن قتلمش ، وأنما أرسلوا الى ملكشاه ، فتسلمها منهم ، ومنحها لحاجبه قسيم الدولة آقسنقر ، ثم تابع سيره الى أنطاكية وتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ، وولى عليها مؤيد الدولة ياغيسيان وبقيت الرها تحت أمرة تابعه القائد بوزان ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين التي كان يحكمها الأمير أرتق ، ثم أبنه سكمان الأول (٤)

ولما أدرك تتش أن الصدام المسلح لن يجدي ، ذهب الى أخيه ملكشاه في بغداد سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١ م ، وسأله التوسع في بلاد الشام على حساب الفاطميين فابقاه ملكشاه مع أمراء حلب وأنطاكية والرها (٤)، ولم يتوقف الخلافات عند هذا الحد ، اذ ان وجود السلطان ملكشاه خفف من حدتها ليس إلا ، اذ أنه عمل على أرضاء أخيه تتش ، كما عمل على أستقطاب أبناء عمومته في الاناضول ، ولكن تفكك الدولة السلجوقية تهدد السلطان بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م

---

(١) أبو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ١ ص ٨٩٥ ،

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٣ ،

(٣) المصدر السابق ص ١١٥

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥

وخلف ملكشاه أربعة أبناء هم محمود وبركيارق ومحمد وسنجر ، وقد تمكن بركيارق من الاستيلاء على معظم أجزاء الدولة(١) .

وعندما علم تتش بموت أخيه ملكشاه طمع في أن يكون له نصيب في تركته ، فتجهز نحو حلب ، وفيها الامير آقسنقر ، فسلمها اليه وحذا حذوه كل من امير انطاكية باغيسيان وأمير الرها بوزان ، ثم جهز جيشا وسار به شرقا يريد أرض فارس التي يحكمها أبن أخيه ، وفي طريقه أخضع بعض المدن ، ثم دخل أرض فارس ، وهناك تعرض له بركيارق ، وكان ان انحاز كل من أمير حلب والرها الى جيش بركيارق مما أضطر تتش الى العودة الى الشام لمعاقبة الأميرين ، وحاول بركيارق أن ينجد الاميرين بجيش كان على رأسه كربوغا ، لكن تتش تمكن من ايقاع الهزيمة بهم (٢) .

وبعد أن أخمد تتش هذه الحركة الانفصالية ، أعاد الكرة الى فارس ، واستولى في طريقه على الجزيرة ، وديار بكر وخلاط ، وطلب الخطبة في بغداد (٢) ، ثم تابع زحفه الى فارس فاحتل همذان والري ، فتصدى له بركيارق ، وقد انضم اليه جيش أخيه محمود ، واستطاع أن ينزل بجيش تتش هزيمة ساحقة وتمكن من قتله هو وخواصه(٣)، وبعد مقتل تتش تردت الأحوال في الشام ، وسبب ذلك أن تتش خلف ولدين هما رضوان ودقاق ، فأخذ الاول حلب (٤٨٨/١٠٩٥ ـ ٥٠٧/١١١٣) وأخذ الثاني دمشق (٤٨٨/١٠٩٥ ـ ٥٠٨/١١١٤) لكن رضوان حاول أخذ دمشق أيضا فعمل على تكوين حلف يستطيع بمقتضاه تحقيقه ، ونتيجة لهذه المنازعات انقسم الشام الى ست دويلات هي : حلب وأميرها رضوان ، دمشق وأميرها دقاق ، القدس وأميرها سكمان بن الارتق ، وانطاكيا وأميرها باغيسيان وهذه الامارات سلجوقية ، وطرابلس وأميرها القاضي ابن عمار الذى أستقل عن الفاطميين ، وشيزر وأميرها علي بن منقذ وقد أسسها سنة ٤٧٤ /١٠٨١ م .

وتشكل من هذه الامارات نتيجة الصراع بين الاخوين حلفان متصارعان ، تزعم الحلف الاول حلب بقيادة رضوان ، والتف حوله أراتقة ديار بكر وقبائل بني كلاب ، وأمارة شيزر ، وتزعم الحلف الثاني دمشق بقيادة دقاق ، والتف حوله أراتقة القدس ، وباغيسيان أمير انطاكية ، وبينما هم على وشك الالتقاء عند شيزر كانت طلائع الحملة الصليبية الاولى قد شارفت الشام ، فانسحب رضوان الى حلب وباغيسيان الى انطاكيه ليشرف على العمليات العسكرية ، أما دقاق فلم يكترث للقوات الغازية ، بل راح يهاجم ديار بكر كما أنتهز الفاطميون أنشغال السلاجقة بعضهم ببعض فاحتلوا القدس ، وقد خطب رضوان للمستعلي بامر الله الفاطمي أربع جمع ، ثم خشي عاقبة ذلك فقطعها وأعاد الخطبة العباسية (٤) .

---

(١) الكامل ج ١٠ سنة ٤٨٥ ص ٢١٤
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ وأنظر الحسيني أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٥ ، أبو الفداء ، المختصر ج ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ابن الوردى ج ٢ ص ٨ ، ٩
(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٠٤
(٤) ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٦٨ ، ج ٢ ص ٦

وهكذا نجد أن السلاجقة أمدوا الدولة العباسية بفترة نشاط بلغت نصف قرن تقريبا، لكن تقسيم الدولة على الورثة وما تبعه من منازعات أغتنمها الامبراطور الكسيوس كومنين جعل الاوضاع تتردى ، وتهيء الظروف المواتية للغزو الخارجي •

ولم يكن التمزق الذى أصاب بلاد الشام بأقل من التمزق الذى أصاب الدولة العباسية والدولة الفاطمية ••

أوضاع الدولة العباسية :

خضعت الدولة العباسية للبويهيين مدة قرن تقريبا (١)، عملوا خلالها على أضعاف سيطرة الخليفة حتى أصبح أسما لا مضمون له ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل نهجوا المذهب الشيعي ، وقهروا الرعية ، وبذلك عمت المصيبة ، فلا قيمة للخليفة ولا للرعية، مما أدى الى أشعال نار الفتنة ، فجرت أحداث جسام كان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤٤، فلما كانت سنة ٤٤٥ هـ عظم الشر (٢)، وكان قد ظهر في فارس قوة تركية ، تمكن زعيمها محمود الغزنوى (٤١١ / ١٠٣٠) من أحتلال أقليم خراسان كما أنتزع من البويهيين جزءا من عراق العجم ، حتى شملت رقعة مملكته المساحات الممتده من آسيا الوسطى شرقا حتى العراق غربا ومن بلاد فارس شمالا حتى الهند جنوبا (٣)•

لكن السلاجقة تمكنوا بقيادة طغرلبك من السيطرة على معظم مملكة الغزنويين ونظروا الى الاحداث الدائرة في العراق ، اذ كان أمير الامراء البويهي الملك الرحيم خسرو فيروز (٤٤٠ /١٠٤٨ ـ٤٤٧/ ١٠٥٥) قد أرخى للقادته العنان ، فجاسوا خلال الديار ، حتى فكر البساسيرى بأن يقضي على الخلافة العباسية ويعلن الخلافة الفاطمية في بغداد لتكون تابعة للفاطميين في مصر (٤)، كما سبق أن أوردنا ، وحينئذ ، تدخل طغرلبك رسميا ، وقضى على ثورة البساسيرى ، وأعاد الخليفة ثانية الى كرسي خلافته ، فأغدق عليه الخليفة الالقاب التي لا يملك غيرها ، مما أتاح الفرصة لطغرل أن يمكن جذوره في بغداد لا سيما بعد ما أحرزه من نصر معنوي ، إذ ازدادت ثقة الرعيه به لاعادته الخليفة لما للخليفة من أحترام ديني ، فأعلن أسمه في الخطبة ، وتدم أبنة أخيه الب ارسلان زوجة للخليفة ثم طلب يد أبنة الخليفة لتكون زوجة له(٥)، لكن موته أوقف نفوذه وخططه فأكملها ألب أرسلان (٤٥٥ /١٠٦٣ــ ٤٦٥ /١٠٧١) الذى سار على نهج أخيه فعمل على ترسيخ السلطة في يده بحيث لم يعد للخليفة حكم (٦) •

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٧٧
(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ سنة ٤٥٥ ص ٥٩٣
(٣) تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ص ٣٢
(٤) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٩٣
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢١ ، ٢٦
(٦) الفارقي ، تاريخ الفارقي ص ١٥٥ وانظر ابن الاثير جـ ١٠ ص ٢١ ، ٢٦

وفي عهد ملكشاه قوى سلطان السلاجقة وتنفذوا في بغداد وغيرها ، حتى أن الخليفة شكا عميد العراق الى السلطان ملكشاه(١) ، وقد أتخذ السلطان المذكور بغداد مقرا شتويا له ، بينما جعل مقره الصيفي في أصفهان ، ومن خلال هاتين العاصمتين أدار ملكه ، وأتصل باتباعه وقواده في الشمال والغرب ، حتى أتسعت دولته وقويت شوكتها وعرفت مملكتها وأستولت في الواقع على الخلافه(٢)، ويلاحظ هنا أن ملكشاه قد طور نفوذ السلاجقة ، فلم يعهد عن سلطان من قبل أنه أتخذ عاصمة له ، بل فعل ملكشاه أكثر من ذلك ، اذ حاول نقل الخلافة الى واحد من نسله(٣).

وبموت ملكشاه تفككت الدولة السلجوقيه – كما بينا – وظهرت مخاطر ، جديدة ، وقوى قبلية ، نخرت جسم الدولة العباسية ، وحالت دون أضطلاعها بدورها في الحياة الاسلامية. أما المخاطر الجديدة ، فهي ما حصل بين السلطان بركياروق، وأخيه السلطان محمد ، فبعد أن هدأت الفتنة بموت تتش في الري ، سيطر بركياروق على فارس والعراق ثانية ، لكن أخاه محمدا لم يعجبه ما ناله من أرض اذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل(٤)، فثار على أخيه وتمكن من الانتصار عليه في سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م ولكن بركياروق ، جمع جموعا عظيمة وأوقع باخيه محمد هزيمة قاسية ، مما أضطره الى الصلح سنة ٤٩٨ /١١٠٤ .

وكان العراق وفارس مسرحا لهذه العمليات ، مما أدى الى أنتشار الفساد والأوبئة والخراب ، وزاد في فقر الناس وعدم تحملهم للمطالب التي جابهتهم من قدوم الحملة الصليبية الاولى التي وصلت الى الرها . وأما القوى القبلية ، فقد ظهرت منها قوتان ، أولاهما قوة بني مزيد وهي قبيلة عربية عاشت على الضفة الغربية لنهر الفرات ، وقد تزعمها صدقة بن منصور ابن دبيس بن مزيد الأسدي ، وأتخذ من منزلة الحلة التي بناها سنة ٤٩٥ هـ /١١٠١ م مقراً له ، وفيها أعلن انفصاله عن الدولة السلجوقية التابعة لبركياروق وأخذ يتوسع في غمرة الأحداث على حساب الدولة العباسية والدولة السلجوقية ، حتى أمتدت دولته من هيت الى الكوفه وواسط(٥).

وكثيرا ما وقعت الفتن في العراق حتى وصل بهم الأمر فيما بعد الى أن استنجدوا بالصليبيين للمحافظة على كيانهم.

---

(١) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، ج ٢ ص ١٩٤
(٢) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٢
(٣) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٩٦
(٤) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧
(٥) سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٢

والقوة الثانية هي قوة الاسماعيلية* ، وزعيمها الحسن بن صباح ، وقد تفاقم خطرها في عهد المستظهر فاستولت على الحصون والمعاقل بخراسان ، واتصل زعيمها بالفاطميين في مصر ، وعملت على تهيئة الناس للثورة في بغداد ، وقد استفاد الاسماعيليون من حالة الفوضى التي تمر بها الدولة العباسية والدولة السلجوقية وأخذوا يهاجمون الضياع ويبثون الخوف في نفوس الناس ، يقول الحنبلي (١) في أحداث سنة ٤٩٤ " كثرت الباطنية بالعراق والجبل ، وملكوا القلاع وقطعوا السبيل وأهم الناس من شأنهم واستفحل أمرهم لاشتغال أولاد ملكشاه بنفوسهم " ، ويقول في موضع آخر (١) " وعظم الخطب بهؤلاء الملاعين ، وخافهم كل عالم وأمير لهجومهم على الناس " ، وهذا يدل على أنهم لم يخصوا بأعمالهم الإجرامية الحكام فحسب ، بل هددوا كل من خالف دعوتهم ، ولذلك كانوا عونا لم يكن مثله للصليبيين في تهيئة الاوضاع وهذا ما عبر عنه • ستيفن رنسيمان • بقوله(٢) : " انهم أصبحوا عاملا في السياسة الإسلامية لهم من المسيحيين أنفسهم لا تقديره " ويبين أنهم تصدوا لكل محاولة اسلامية من شأنها جمع شتات الامة ، وذلك بعدة طرق أهمها أغتيال القادة وهو من أهم أسلحتهم •

هذا مجمل لما كان عليه الوضع في العراق والشام ، خلاف مستمر ، وحروب وفساد ، وخوف الولاة بعضهم من بعض ، مما نتج عنه أهمال الرعية ، وزيادة تجزؤ بلاد الشام حتى ليخيل للمسافر أن كل بلدة منها تشكل دولة •

وفي هذه الاوضاع المتردية قدمت الحملة الصليبية الأولى ، ولكن كيف كانت الحالة في مصر ؟ ، وما هو دورها في التصدي للحملة الاولى ؟ ، هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الصفحات القادمة •

(*) الاسماعيلية : فرقة تدين بمبادئ الشيعة المتطرفة ، وتنتسب الى مؤسسها الحسن بن صباح ، وكانت تنادي بأمامة أسماعيل بن جعفر الصادق ، فعرفوا بالإسماعيلية ، وكذلك أطلق عليهم أسم الحشيشية لاستعمالهم بالحشيشة في حوادث القتل ونشر مذهبهم استولوا على قلعة ألموت وهي من أحصن قلاعهم ثم ظهروا في مناطق مختلفه من بلاد الشام مثل حلب ، دمشق ، طرابلس ، بانياس ، •• وقد تعرضوا لعدة عمليات أبادة لسوء أفعالهم (أنظر : المختصر في تاريخ البشر ج٤ ص١٢٠ ، ودولة الاتابكة في الموصل لرشيد الجميلي ص٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج١ ص٤٢٢ و ٢٧٥

(١) الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ؟ ٣/٤٠٠

(٢) المصدر السابق ج٤ ص٤

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص١١٤

(٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص١٤٠

(٥) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص١١٠

أوضاع الدولة الفاطمية :

بسط الفاطميون نفوذهم في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على مناطق واسعة من بلاد الشام ، تمتد من دمشق الى جنوب فلسطين ، وحاولوا احتلال حلب التي كانت تحت أمرة الحمدانيين فاتصل أميرها سعد الدولة بالدولة البيزنطية وبين لهم خطر الفاطميين عليهم اذا احتلوا حلب ، مما جعلهم يتحمسون لمساعدته ضد أية محاولة من جانب الفاطميين لاحتلال حلب (١)، وقد كان لسعة الدولة الفاطمية وضعف السلطة المركزية وظهور قوة جديدة في الشرق الاسلامي ، أثر كبير في توجيه الاحداث وأضعاف الدولة الفاطمية ، إذ من المعروف أن السلاجقة قد سيطروا على فارس والعراق ثم تحركوا نحو بلاد الشام وأمتلكوا معظمها ، وقد خضعت حلب بعد الحمدانيين لسيطرة بني مرداس، الذين حافظوا على استقلالهم مدة نصف قرن ، وبعد أن استولى عليها السلاجقة أستطاع صاحبها " أتسز بن أوق " أن يستولي على الرملة والقدس ومعظم فلسطين وما جاء عام ٤٦٧/١٠٧٥ حتى استولى على دمشق (١) ، لكن الفاطميين لم يسكتوا عن أعماله ، لأنها أقلقت الحكم الفاطمي من فلسطين وهددت كيانهم في مصر ، فوقف بدر الجمالي أمير الجيوش في وجه هذه القوة الجديدة ،وقد نجح فعلا في أقصاء صاحب حلب عن فلسطين ، كما حاول ضربه في دمشق ، لكن صاحب حلب ، وقد كان من أتباع السلطان ألب أرسلان ، استنجد بالحاكم السلجوقي تتش فقدم الى دمشق في الوقت الذي كان بدر الجمالي يحاصرها ، فآثر بدر الرجوع عنها ، وتسلمها تتش من صاحب حلب ، ثم ما لبثت حلب نفسها أن وقعت في يد الامير مسلم ابن قريش صاحب الموصل وأنطاكية ، وحين حاول سليمان بن قتلمش احتلال أنطاكيه ، هب الامير مسلم ابن قريش لانجادها لانها له ، فوقع صدام بينهما ٤٧٨/١٠٨٤ كانت نتيجته مقتل الامير مسلم وسقوط أنطاكية بيد سليمان ، ومنها تابع سيره نحو حلب التي كان فيها نائب الامير مسلم الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي(٣) ، فاستنجد بتتش، فأنجده وقضى على محاولة سليمان . وبذا قويت شوكة تتش وتوسع على حساب الفاطميين في الجنوب ، وولى على القدس أرتق التركماني ،وبقيت بيد الاراتقة حتى سنة ٤٩١ / ١٠٩٨ م حيث قام الفاطميون بانتزاعها منهم ، بعد أن أقتتل السلاجقة فيما بينهم .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ ، ٩٩ وأنظر ،

Stanley Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages: Frank Cass and Co. LTD. 1968. P. 161

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، من تاريخ حلب ، سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٩١

ولم يكن الخليفة الفاطمي بأحسن حالا من الخليفة العباسي ، فكلاهما لا كان حول له ولا قوة ، وكلاهما أنحسر نفوذه ، فلا يستطيع التصرف حتى في الشؤون البسيطة ، وسبب ذلك تنفذ الوزراء ، وما يدل على ذلك أن الخليفة الفاطمي المستنصر أوصى لابنه نزار ، لكن الأفضل بن بدر الجمالي لم يعجبه ذلك فأوصى للمستعلي بالله بدل أخيه ، ما أدى بالتالي الى فتنة عامة سنة ٤٨٨/١٠٩٥ أنتهت بمصرع نزار (١)

وقد عمد الوزراء الى تولية الخلفاء الأحداث ، حتى تكون السيطرة لهم تامة ، وقد ظهرت آثار هذه السياسة على الديار المصرية والشامية معا : أما بالنسبة الى الديار الشامية فقد أنقطعت دعوتهم فيها ، وتعددت امارتها حتى بلغت ستا ، فضلا عن القوى الاخرى ، وأما بالنسبة الى الديار المصرية ، فقد أختلت دولتهم وضعف أمرهم (٢) .

وبعد ما تبين من الحال الذي كانوا عليه ، ليس من الغريب أن يكون دورهم بسيطا في التصدي للحملة الصليبية الاولى ، وان تكون عملياتهم تجريدة ـ كما يسميها ابن تغري بردي " لا يتجاوز عدد رجالها ثلاثمائة الى أربعمائة "(٣) .

وليس هذا فحسب ، بل تذكر بعض المصادر أن الفاطميين في مصر أرسلوا الى الصليبيين يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين ، ويذكر رنسيمان أنهم أرسلوا سفارة اليهم بتقسيم أملاك الدولة السلجوقية فيما بينهم (٤) .

ومن هنا لا نستغرب الحملة الشعواء التي شنها بعض الشعراء على الفاطميين(٥) .

---

(١) الكامل ، ج ١ ص ٢٣٧
(٢) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٣٠٢
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٤
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٣ ، وأنظر الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٣١٦
(٥) ابو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين النوريه والصلاحيه ت ، محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ج ١ ق ٢ ص ٤٦٦

الفصـــل الثانـــي

الغرب الأوروبي قبـل الغزو الصليبـــــــي

تبين لنا فيما مضى ، كيف أن معركة ملاذكرد قد دفعت أباطرة الدولة البيزنطية الى التوجه نحو أوروبا رغم العداء المذهبي والتاريخي بين الجانبين(١) ، اذ جرت مفاوضات فـي عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (٤٦٤/١٠٧١ ـ ٤٧٢/١٠٧٩) مع البابـــا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع امبراطور الامبراطورية المقدسة ، وكادت المفاوضات تنجح لولا أختلاف البيزنطيين واللاتينيين حول أتحاد الكنيستين الشرقية والغربية(٢) ، إلا أن البابا نبه الرأى العام الاوروبي الى ضرورة أنجاد الامبراطورية البيزنطية التي تقف وحيدة أمام خطر السلاجقـــة .

بقي الخلاف مستحكما زمـن ميخائيل السابع وخليفته الامبراطور نقفور الثالث ولكـــن بعد أن خلع الاخير ، وتولى العرش ألكسيوس كومنين " ٤٧٤/١٠٨١ ـ ٥١٢/١١١٨ " ، أتخذت المفاوضات طابعا حماسيا ، لما عرف عن ألكسيوس من حنكة سياسية حاز بسببها علـى رفع قرار الحرمان الذى كان البابا ، أوربان " قد أصدره بحقه ، مما أدى الى تقارب بيـــن الكنيستين ، تبعه مفاوضات بين الطرفين ، كان أهمها سفارة أرسلها الكسيوس ٤٨٩/١٠٩٥ الى البابا أوربان يحثه فيها على أنجاد الدولة البيزنطية ضد أعداء المسيحية ، الذين باتوا يهددون روما فضلا عن القسطنطينية(٣) ، فأستجاب البابا الى طلبه وحث على العمل لانجاده .

وقد جاءت هذه الدعوة أنقاذا لما تعانيه أوروبا من مشاكل وتحقيقا لما ترجوه من آمال أما المشاكل التي كانت تعانيها أوروبا فمنها أنها كانت تعيش وفق نظام أقطاعي * دمر الحياة الاجتماعية والسياسية معا ، فعندما نجح الامراء الاقطاعيون في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، تحكم هؤلاء الامراء بالناس فجعلوهم خدما وأقنانا ..

---

(١) فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، نقله محمد مصطفى زيادة والباز العريـــني ط ٥ دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ ، جـ١ ص ٢٧٩ .

(٢) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٢٨

(*) خدم نظام الاقطاع أوروبا خدمة جليلة في أول عهده ، اذ لم يستطع نظام الاباطـــرة الوقوف أمام غارات الغناريين الذين أوغلوا في وسط القارة حتى شرق المانيـــا ، فكان نظام الاقطاع الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الغارات ، إذ أعطى كبـــار الفرسان أقطاعا يدافعون عنه .. وكان الرجل العادي إما أن يصبح جنديا يدافع مع غيره عن الاقطاع ، وأما أن يصبح قنـــا يعمل في الارض .
أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٠ وسعيد عاشور ، حضارة ونظـــم أوروبا ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٤ ص ٣٨١

ولم يلبث رجال الدين أن انجرفوا مع التيار الاقطاعي ، فاعتمدوا على الفرسان وجعلوا لهم قدرا عظيما يظهر في طقوس تأهيل الفارس ، اذ يجرى تطهيره في الكنيسة بماء مبارك ، ثم يتناول العشاء الرباني ، ويترك ليحيي ليلته بالصلاة ، فما ينتهي منها حتى تغفر له ذنوبه (١).

وقد انقسم المجتمع في ظل هذا النظام الى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة النبلاء الفرسان ، وطبقة الفلاحين ، وعلى الطبقة الأخيرة كانت تقع أعباء هذا النظام. أما طبقة رجال الدين ، فقد انغمس أفرادها في ملاذ الحياة ، وانخرطوا فيها ، مما نتج عنه مشكلات جديدة ، اتخذت مظهرين : مظهر صراع داخلي في الكنيسة بين رجال الدين أنفسهم ، ومظهر صراع خارجي بين الكنيسة والسلطة الزمنية ، وأما طبقة الفرسان والنبلاء فقد دفعتهم حياة الترف والهدوء الى البحث عن مصادر للدخل تضمن المعيشة التي يتوقون اليها ، مما أدى الى الصدام بين الاقطاعيات ، فاهتم الامراء ببناء الحصون والقلاع ، وحشدوا فيها العبيد والأتباع ، تحسبا لأى هجوم أو استعدادا للهجوم .

وقد استنزفت هذه الحروب الداخلية طاقة الامراء والاباطرة ، وكذلك طاقة رجال الكنيسة مما جعل غوستاف لوبون يصف هذه الفتره بأنها أشد أدوار تاريخ أوروبا ظلاما (٢)، وخشية الكنيسة أن تتفاقم الامور وتخرج من يدها ، ولذا حرمت الحروب الداخلية في أوقات معينة أطلقت عليها أسم " هدنة الله "(٣) ، لكن ذلك لم يكن ليحل المشكلة ، فاغتنم البابا أوربان الثاني دعوة الدولة البيزنطية لحرب المسلمين ، وراح يخطط لتشكيل حملة واسعة تستهدف القضاء على المسلمين في المشرق ، وتنهي كما اعتقد ، مشكلات أوروبا ، ولذا فقد سلك كل الطرق لانجاحها أما الطرق التي سلكها فهي: أنه استغل الدعايات التي نشرها الحجاج المسيحيون الغربيون عن معاملة المسلمين القاسية لهم ، إذ قيل إن الفاطميين منعوا قسما منهم من الدخول الى كنيسة القيامة ، وطردوا عددا آخر من البيت المقدس ، فاتخذ البابا من هذه الاقوال ذريعة لبث روح العداء والانتقام ، ووعد بالمغفرة كل من سافر الى فلسطين ليقاتل المسلمين ، علما بأن قوانين التوبة كانت صارمة وثقيلة ، وقد خاطبهم بقوله " ... إن القدس تناشدكم الآن المساعدة ، فاقصدوها بكل شوق تغفر لكم ذنوبكم وجزاؤكم دار الخلود (٤)" ، كما استغل حماس الفرسان وراح يحرضهم على الثأر ، ويسود قلوبهم بالحقد ، يقول " ... يا أمة الفرنج ، يا أبناء السلالة التي أحبها الله واصطفاها ، وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية أنباء مفجعة ، مفادها أن أمة من الأمم اشتطت عن السبيل فعاثت في الديار المسيحية سلبا وحرقا وقتلا ... على من تقع تبعة الثأر واستعادة الديار ؟ ألا تنهضوا أنتم بهذا الامر(٥)؟ " .

---

(١) فيشر، تاريخ أوروبا ، ج١ ص ١٨١
(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢
(٣) سعيد عاشور حضارة ونظم أوروبا ص ٢٦٦
(٤) مكسيموس مونرند ، من تاريخ الحروب المقدسة ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، القدس ، ١٨٦٥م ج١ ص ١٧ وأنظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥ وانظر معاملة المسلمين لهم في كتاب احمد عبدالمجيد الدومي ، صلاح الدين الايوبي ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت /صيدا ؟ ص ٨٦
(٥) علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥

إلا أن المنطق الذي أقنع به عامة الناس لم يكن ليفلح كثيراً في أقناع الخاصة ، لذلك طلب منهم ببلاغته وقوة ألفاظه أن يوجهوا السلاح ضد المسلمين ، فذلك خير من أستخدام بعضهم السلاح ضد بعض وقال لهم : " أربأوا بأنفسكم عن الضغائن ، وأنتزعوا الحقد من قلوبكم وأسلكوا سبيل الله(١) " .

وإذا كان قد أستولى على عقول العامة والفرسان ، فلا بد أن يقنع النبلاء ليكونوا قادة لهذه الحملة ، وما يتبعها من حملات ، فأستغل الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها أوروبا (٢) ، ووعدهم بالارض التي تفيض لبنا وعسلا ، قال " خلصوا الاراضي المقدسة من أيادي المغتصبين ، وأنتم المالكوها لذواتكم ، فهذه الارض حسب الفاظ التوراة ، تفيض لبنا وعسلا ، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسما وميراثا (٣) " .

ومن الآمال الكبار التي كانت تراود الكنيسة الغربية ، أخضاع الكنيسة الشرقية ، فلا بد أن كان من ذلك في نفس البابا رأيه كثيراً ، يحقق فيه رسالته ، ويرضي حب التعالي المغروز في نفوس اللاتينيين تجاه البيزنطيين (٤) ، لذلك تحرك رجال الدين ، بل حرضوا أبناء ملتهم في أنحاء أوروبا على المشاركة وقد أفلح البابا في تكوين رأي عام ، أشترك فيه الامراء والنبلاء والفرسان ورجال الدين ، وعامة الناس من العبيد والاتباع الذين راحوا يهتفون " ... إنها إرادة الرب ... (٥) " وبذا خُيّل للعبيد أنهم سيتخلصون من ظلم الاشراف ، في حين طمع الاشراف في أراض جديدة يمتلكونها ، وأمل البابا أن يحقق هدفه في ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية .

ولكن المسافة بين الشرق والغرب بعيدة ، وتفصل ما بينهما مياه البحار ، فلا بد للغزاة من سفن تقلهم ، ولذا أقترح أمير تولوز على البابا أن يستعين بسفن مدينة جنوا ، فلبى الجنويون الدعوة مسرعين ، آملين أن تفتح لهم أسواق الشرق فتنشط حركتهم التجارية .. ثم شاركهم في حماسهم وآمالهم تجار مدينتي بيزا والبندقية .

وبذلك تهيأت الظروف المادية والمعنوية ، لانطلاق الحملة الصليبية الأولى ...

---

(١) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥
(٢) من تاريخ الحروب المقدسة ج ١ ص ١٨
(٣) المصدر السابق ، ج١ ص١٣ ، ١٤ ، ٧١
(٤) فيشر ، تاريخ أوروبا ص ١٧٩
(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٣١

الفصـــل الثالـــث

الصراع : ميدانه وزمانـــــــــــــــه

لم يعالج المؤرخون القدماء من المسلمين ظاهرة الحروب الصليبية معالجة شمولية تتناول جميع عناصرها ، ولم يربطوها بالأحداث في الشرق الإسلامي ، وانما جعلها ابن الاثير ، امتدادا للحروب بين المسلمين والفرنج في الاندلس (١) ، ولكنه لا يجيب عن سبب تركيزهم للغرب القريب على أسبانيا ، وهو الذي شكل الخطر على دولتهم هناك بعد انهاء الحكم الاسلامي لها ، وقد ظهر هذا الخطر غير مرة ، زمن المرابطين والموحدين ، لذا فان من المفيد أن تورد هنا أسباب أعمق من الاسباب التي أوردها ابن الاثير للحروب الصليبية ؛ فالخطر الذي هدد الدولة البيزنطية هو السبب الاول ، ورغبة البابا في السيطرة على الاراضي المقدسة وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية هو السبب الثاني ، يضاف الى ذلك الاطماع الاقتصادية وأشباع النفسية الاقطاعية في أوروبا ..

وإذ كانت الحروب نابعة من أوروبا النصرانية ، واذ اتخذ الصليب شعارا لها فقد سميت بالحروب الصليبية * ، بينما لم يطلق على حروب الاندلس مثل هذه التسمية رغم أنهما مقدمة لهذه الحروب ** .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ١٤٢ ، وانظر صفحات ١٥١ ، ١٥١ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٦ ، ٢٧ يهزأ محمد سيد كيلاني برأي ابن الاثير في كتابة الحروب الصليبية ص ٨ ، مع أنه رأي له ما يبرره ، أنظر الحركة الصليبية ، سعيد عاشور ١ / ٦٩ ـ ٧٢ .

* لم تكن هذه التسمية معروفة عند المؤرخين المسلمين آنذاك ، وأنما هي ترجمة لكلمة Crusades الانجليزية (حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الاسلاميه / ١١٥)

** أختلف المحدثون في تحديد الحروب الصليبية ، فقد أعتبرها بعضهم حلقة من حلقات الصراع بين الاسلام والمسيحية (سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٨ وانظر حامد غنيم الجبهة الاسلاميه ص ١١٣ ـ ١١٧ وانظر سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية ١ / ٢٢ ـ ٢٦) وأعتبرها كمال توفيق ، وزكي المحاسني استمرارا لأعمال الامبراطورية البيزنطية قبل مائة عام (عمر كمال ، مقدمات العدوان الصليبي ، زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ٦٨ ، ٢٦٥) بينما غالى زكي النقاش (العلاقات الاجتماعيه ص ٨ فارجعها الى العلاقات بين الشرق والغرب منذ أيام التاريخ الاولى أي في الالف الاولى قبل الميلاد واعتبرها شاكر أحمد أبو بدر (الحروب الصليبية والاسرة الزنكيه ص ١٤ ـ ١٦) حربا دينية لأنهم وضعوا شارة صليب على أمتعتهم وتصدوا للمسلمين بالذات واعتبرها بارتو (أنظر كتاب عبده عبد اللطيف حمزه ، أدب الحروب الصليبية ص ٢٥) بمثابة حج كبير يحميه السلاح .

ذكرنا فيما مضى أن نداء الكسيوس قد أحدث صدى واسعا في أوروبا ، خاصة بعد أن تبنى البابا " أوربان " مشروع إنجاد الدولة البيزنطية ، فعقد عدة أجتماعات كان آخرها مجمع كليرمنت في أواخر صيف ١٠٩٥ / ٤٩٠ هـ وقد حضره ثلاثمائة من رجال الدين ، وجموع حاشدة من عامة الناس ، وقد بين البابا الأخطار التي تعترض سبيل الحجاج ، كما بين ضعف أخوانهم في الشرق أمام السلاجقة الأقوياء (١) ، فالتهب حماس الجماهير ، ودوى النفير " هكذا أراد الله " وقد كانت البساطة مسيطرة على عقول العامة فصدقت أقوال المحرضين وراحت تحتشد من كل أصقاع أوروبا (١) يقودها النوغائي بطرس الناسك ، ثم أتجهت هذه الجموع في فورة حماس، متقدمة الى الشرق عن طريق قسطنطينية ، والاراضي البيزنطية ، وعند ما دخلت أرض السلاجقة ، واجهها السلطان قلج أرسلان وكانت قد أشرفت على مدينة نيقية بعد مسير أيام ، فقضى على رجالها قضاء ظن معه أن لن تقوم لهم بعده قائمة ، إذ لم يستطع الهرب الا ثلاثة آلاف من أصل خمسة وعشرين ألفا (٢) ، ولكن ما لبثت الحملة المنظمة (حملة الامراء) أن وصلت بعد ذلك الى نيقيه ، بعد أن تخلصت من مصاعب جمة في القسطنطينية ، وفي الطريق (٤) ، ثم حاصرت الجيوش الصليبية نيقيه حصارا شديدا ، فصمدت في وجوههم ولكن هذا الصمود أصبح متعذرا بعد أن حاصرها الكسيوس من البحر والجيوش الصليبية من البر فاستسلمت المدينة ، وسيقت زوجة السلطان وبناته أسيرات الى القسطنطينية .

احدث سقوط نيقية أصداء واسعة في أوروبا بما قام به العائدون من دعايات أعلامية فذكروا "أن الشرق بحاجة الى محاربين ومستعمرين ليواصلوا عمل الله ، وأن في الشرق من الثروة والضياع الكثيرة ما ينتظر قدوم المغامرين " وفعلا جاءت حملة مكونة من الفرنسيين والالمان يرأسها ريموند (٥) .

وقد تابع الصليبيون سيرهم بمشقة بالغة ، بسبب تعرضهم لهجمات السلاجقة ، ولكنهم نجحوا في السيطرة على منطقة واسعة من الاناضول وارمينية ، كما نجح بلدوين ، أحد قادتهم في تأسيس أول أمارة للصليبيين في الجزيرة الفراتية سنة ٤٩٢ / ١٠٩٨ ، وهي أمارة الرها ، وبعد ذلك ، اتجهت الجيوش الصليبية الى أنطاكية ، وطال حصارهم لها وقد حاول صاحبها ياغي سيان أغتنام الفرصة ليدفعهم عنها ، ولكنه لم ينجح ، وبعد حصار سبعة أشهر دخلها الفرنسج سنة ٤٩١ / ١٠٩٨ وفعلوا بالمسلمين الاعاجيب (٦) ، "اذ هجموا على البيوت والازقة يقتلون المسلمين خلوا من أستثناء " (٧) .

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ / ١٦٦

(٢) مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ج ١ ، ٦٤ ، ٦٥

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ١ / ١٢٦

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ٢٧٤ (٥) رنسيمان ، الحروب الصليبية ج ٢ / ٣٧

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ / ١٣٥ وانظر ابو الفداء المختصر ٢ / ٢١٠ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١٠

(٧) ميشو مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ / ١١

وسقوط انطاكية لنفتح الطريق أمام الصليبين الى بلاد الشام ، فاتجهوا الى معـــرة النعمان ، فاستنجد أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة صاحب حمص فلم ينجداهم فدخلها الفرنج وأعملوا فيها السيف فقتلوا ما يزيد على مائة ألف (١) ، أحدثت هذه الاعمال الوحشية حالة ذعر عند المسلمين ، ولكن هذا الذعر لم ينتج عنه أتحاد ومقاومة ، ولذلك لم يكن مـــن الصعب على الغزاة متابعة سيرهم الى أن وصلوا شمال طرابلس ، وفيها جاءتهم رسل صاحـــب طرابلس ، ثم أحتلوا طرطوس (٢) ، مما سهل عليهم مهمة الامدادات الخارجية من أوروبــــا ، بالاضافه الى ما تحويه المنطقة من خيرات (٣) ، وعلى أثر ذلك ، تدهر موقف المدن الإسلامية وأسرعت كل مدينة تعلن أستسلامها ، ومن تخلفت عن ذلك أتلفت مزارعها ، وقتلت أنعامها ، ومن وجدوه من أهلها فتكوا به كما حدث مع صور ، وهكذا تابع الصليبيون سيرهم الى قيسارية ثم أرسوف والرملة واللد وأحتلوا بيت لحم (٤) .

واحاطت الجيوش الصليبية بالقدس ، وجاءتهم أمدادات من أوروبا عن طريق ميناء يافـا فاصبحت القدس منقطعة عن أمدادات الدولة الفاطمية التي كانت قد سيطرت عليها سنـــة ٤٩٨، ونصب الفرنج عليها برجين ، وتمكنوا منها ، ولو لم ينشب خلاف بينهم حول ملكية القـــدس لاحتلوها في مدة تقل كثيرا عن المدة التي أستغرقها الحصار وهي (...) أثنان وأربعـــون يوما (٥) ، وبعد الاستيلاء عليها قام الغزاة بمذبحة رهيبة لم تفرق بين زاهد وعالم ، فقد قتلوا ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم (٦) ، كما قاموا بعملية سطو على الصخرة فأخذوا نيفا وأربعين قنديلا فضة ، ونيفا وعشريـــن قنديلا من ذهب (٧) .

ويذكر مونرو نقلا عن تقرير رايموند ده أجيلاس ، أحد المرافقين للحملة ، أن الجامع قــد طاف بالدماء حتى أحتضن الدم تحت القناطر عند بابه ، وعلا الى حد الركب بل الى حد لُجُم الخيل (٨) .

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ / ١١ ، ابن الاثير ١٠ / ٢٧٨ ، الأنس الجليل ١ / ٣٠٧
(٢) المختصــر ٢ / ٢١٦
(٣) مرآة الجنان ٣ / ١٧٢ ، ابن الاثير ١٠ / ٤٧٥ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٧٩
(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٣٦٥ ، المختصــر ٢ / ٢١٤ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ٣٦١
(٥) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦ ، تاريخ مختصر الدول ١٩٧
(٦) الكامل ١٠ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، الانس الجليل ١ / ٣٠٧
(٧) الشذرات ٣ / ٣٩٧
(٨) من تاريخ الحروب المقدسة ، ص ١٧١

ويقول غوستاف لوبون " ولم يبد سلوك الصليبيين في الحملة الثانية بأحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الاولى ، ويؤكد قوله بما يرويه عن الكاهن " انكتيل " " فلما يوجد صليبي يسير بوحي ديني ، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضربا من قطع الطرق ، وفضائح مزرية الا أقترفوها "(١).

وهام المسلمون على وجوههم يبكون ويبكون ، ويستصرخون الخلافة في بغداد ، فأجتمع أهلها في الجوامع ، وبكوا ، حتى أنهم أفطروا من عظم ما جرى لهم ، وقال ابو المظفر الابيوردي* :

مزجنا دماء بالدموع السواجم — فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه — اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها — على هفوات أيقظت كل نائم(٢)

وفي هذا الجو المكفهر أستقرت أمور الغزاة في بيت المقدس ، وأقيمت الصلوات والايدى ملطخة بالدماء البريئة ... وأنتخب جودفرى حاكما للقدس ، بعد أن حاز على ثقة الكنيسة والامراء معا لما يتصف به من ميول دينية ، ولم يرض أن يسمى ملكا وأنما أسمى نفسه حامي القبر المقدس(٣) ، ولكن أنتخاب جودفرى وفشل البطارقة كان يعني أنتصار السلطانية على الكنيسة ، وقد كان هذا لصالح المملكة الجديدة ، ولو كان الامر غير ذلك لما أستطاعت الكنيسة حماية هذه المملكة من الهجمات الاسلامية (٤).

وبدأت الدولة الجديدة – وهي الامارة الصليبية الثالثة – تمارس حياتها السياسية فتكون في القدس فرقتان دينيتان عسكريتان أسموها *Templars* أي فرسان الهيكل وعرفت عند المسلمين بالداوية ، وأخرى أسموها *Hospitalers* أي فرسان المستشفى وعرفت عند المسلمين بالاسبتارية (٥) ، ثم أخذت هذه الدولة بالتوسع حتى أستطاعت في سنوات قليلة أن تضم معظم أجزاء فلسطين(٦) ، وكان بأمكانها السيطرة على فلسطين جميعها لولا المنافسة بين ريموند الصنجيلي وجودفرى .(٧)

---

(١) حضارة العرب ، ص ٣٢٩ ، وأنظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ١/ ٤٠٤

* أخذناه عبد القادر اليوسف في أسم الشاعر ، أنظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٢

(٢) المختصر ٢/ ٢١١ تاريخ ابن الوردي ٢/ ١١ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٢ ، الكامل ، سنة ٤٩٢ ، ١٠/ ٢٨٥

(٣) رنسيمان ، الحروب الصليبية ١/ ٤١٦

(٤) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٣ ، والحياة السياسية الاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، أعداد عبد الحفيظ محمد علي سنة ٩٧٥ ، ص ٨ ، ١٠

(٥) عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ١٩٥١ ص ٧٥

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠/ ٣٦٥

(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١/ ٢٤٩

وبعد أن توفي جودفري ، تولى أخوه بلدوين حاكم الرها القدس، وقد استطاع أن يتغلب على كثير من المشكلات والصعاب ، كما فرض احترامه على أمراء الحملة الصليبية ، وأخذ يواصل عملية ضم المناطق الساحلية ، حتى إذا علم أن الافضل يعد حملة لاسترجاع القدس ، التقى معه في الرملة ، وهزمه هزيمة منكرة، واستولى على غنائم كثيرة وقتل ما يزيد على عشرة آلاف نفس(١) وقد مدحه أحد الشعراء بقوله(٢) :

نصرت بسيفك دين المسيـــــــح فلله دراك من صنجيـــــــل
وما سمع الناس فيمــــــا روي بأقبح من كسرة الأفضـــــل

ولم يلبث الافضل أن تمكن من هذا الشاعر الخائن وقتله ، وفي سنة ٥١٤ قصد الفرنج الديار المصرية بقيادة بلدوين (بردويل) ووصلوا الى غزة وخربوها وأحرقوا مساجدهـــا ، لكن موت ملكهم في الطريق ثناهم عن قصدهم (٣) .

أما ردود الفعل الاسلامية فلم تزد عن البكاء والتحريض ، وتجريد الحملات الـــتي كان يسيطر عليها الخلاف ، فترجع مهزومة أو فاشلة ، وبامكاننا أن نتصور الاوضاع في العالـــم الاسلامي كما يلي :

حاول الافضل الانتقام من الفرنج ، فجهز جيشا كبيرا ، وأرسله الى الرملة مرة ثانيـــة حيث استطاع أنزال الهزيمة ببلدوين ، وأستولى على الرملة وحاصر يافا ، ولكن بلدوين أعـاد ترتيب الجيش واستغل فرصة مرور الحجاج القادمين من أوروبا ، والتقى مع الجيش الفاطمـــي وكسره ، وحين علم الافضل بذلك أرسل نجدتين : أحداهما بحرية والاخرى برية وأمرهمـــا بالتعاون ، ولكنهما تنازعا فعادتا فاشلتين (٤) ، وهذا ما دعا ابن تغري بردي لأن يستغرب من سلوك الفاطميين وتقاعسهم فيقول عن الافضل " وما أدري ما كان السبب في عدم خروجـــه مع قدرته على المال والرجال "(٥) ويقول عن الخليفة الآمر بأحكام الله : وكان فيه تهاون عـــن أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه (٦)" .

أما في بغداد فقد عمت الثورة فيها وكسر الناس منبر مسجد السلطان ، فرأى الخليفة استرضاء الثائرين ، فأوعز الى السلطان محمد أن يعمل على دفع الفرنج ، فأرسل السلطان الى تابعه أمير الموصل أن يخرج لقتالهم (٧) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧
(٢) الانس الجليل ، ج ١ / ٣٠٨
(٣) الانس الجليل ج١ / ٣٠٩
(٤) الكامل ، أحداث سنة ٤٩٦ وانظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٨
(٥) النجوم الزاهرة ٥ / ١٤٧
(٦) النجوم الزاهرة ٥ / ١٨٨
(٧) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر أباد ١٣٣٨هـ ١٧٢/٣

وأما حلب فقد حكمها بعد وفاة صاحبها رضوان ابنه ألب أرسلان حتى تتسلسل سنة ٥٠٨/١١١٤ ، وعندئذ تولاها بدر الدين لؤلؤ (٥٠٨ هـ/١١١٤ ـ ٥١١هـ/١١١٧) وقد تعرضت خلالها لهجوم من الفرنج ، فضايقوها وقاسموها على أملاكها ولكنهم لم يحتلوها كما وهم ابن كثير (١) .

وازاء هذه التحديات قام أيلغازي صاحب ماردين بهجوم على الفرنج ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقد مدحه الشعراء ومنهم العظيمي في قصيدته ، منها :

قل ما تشاء فقولك المقبـــول وعليك بعد الخالق التعويـــل(٢)

وقد انقسمت الدولة الأرتقية بعد وفاة أيلغازي،فأخذ ابنها الأكبر الجزء الشمالي من ديار بكر وميافارقين ، وأخذ ابنها الثاني الجزء الجنوبي منها وماردين ، وبقيت حلب تحت أمرة سليمان بن عبد الجبار .

وحاول الفرنج اغتنام الفرصة ، فقام بلدوين الثاني بهجوم على الأراتقة في الجزيرة الفراتية لينقذ جوسلين ولكنه هزم وأسر .

وقد تعرضت حلب فيما بعد لهجوم مشترك من الصليبيين وبعض المنشقين من المسلمين ولكنها صمدت لهذا الهجوم والحصار الذى رافقه،بعد أن تلقت نجدة من صاحب الموصل(٣) .

وكان خطر الباطنية تدازداد في حلب بسبب اعتماد الملك رضوان بن تتش عليهم، فتنفذوا في البلاد ، فسخط عليهم ابنه الذى تولى الحكم بعده،وحاول القضاء عليهم،فتوجه من نجا منهم الى دمشق حيث اقطعهم وزيرُ طغتكين المزدغاني حصن بانياس، ، ولكنهم قاموا بأعمال تخريبية هناك (٤) .

ومن أبرز أعمالهم التخريبية،ما قاموا به في شيزر سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م ،فتملكوا الحصن وأخرجوا أهله منه (٥) ، وفي سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م قتلوا صاحب حمص،جناح الدولة (٦)، وفي سنة ٥٠٤ /١١١١ حاولوا قتل طغتكين ، وفي سنة ٥٠٦/١١١٣ قتلوا مودود أتابك الموصل ،(٧) كما قتلوا آقسنقر سنة ٥٢٠/١١٢٠ ،وراسلوا الفرنج بتسليم دمشق على أن يأخذوا صورَ بدلها ، وقد كان من المتوقع أن يبدأ تنفيذ المؤامرة وقت صلاة الجمعة ،فلما علم تاج الدولة بوري بن طغتكين المؤامرة قتل الوزير وعددا كبيرا من أصحابه ، ولكن الباطنية اغتالته في النهاية سنة ٥٢٦ /١١٣٢ (٧) .

---

(١) ابن كثير ،البداية والنهاية ،مطبعة السعادة ،مصر ١٣٤٨ هـ ، جـ١٢ ص ١٨٤

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /٢٥

(٣) الكامــــل ١٠/٦٢٤

(٤) عبد القادر اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ، ٩٤

(٥) اسامة بن منقذ ،الاعتبار ،حرره فليب حتي ،مطبعة جامعة برنستون ،الولايات المتحدة ١٩٣٠ ص ٧٧

(٦) المختصـــر ٢/٢١٦

(٧) ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ، ٢٢٢

ويصور ابن الاثير قوة الفرنج حين تولى عماد الدين زنكي البلاد فيقول " وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسجستان الى عريش مصر ، ولم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يُبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، ثم يصف البلاد الاسلامية فيقول " وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار واستضعاف وانتظار ثم يبين خطورة توتهم " .. وانقطعت الطرق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفاوز تعبا ونصبا ... وأما حلب فانهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى في الرحى التي على بابها الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين (١) .

إلا أن هذا الظلام انبثق منه الفجر ، منذ أن ظهر على مسرح الأحداث عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، وهو حاكم اجتمعت له صفات حميدة ، فقد عرف عنه حبه للجهاد (٢) وإخلاصه وشجاعته ، فبدأ عملية توحيد القوى الاسلامية ، فانتزع جزيرة ابن عمر من مماليك البرسقي ، ثم استولى على مدينة اربل سنة ٥٢١ ، ثم سار الى نصيبين فتسلمها من صاحبها حسام الدين تمرتاش ابن ايلغازي واستولى على الخابور وسنجار وحران ثم استولى على الاثارب ثم على حلب (٣) ، فأصبح الطريق مفتوحا أمامه الى الشام (٤) .

لقي هذا السعي أعجابا من السلطان السلجوقي محمود فمنحه تفويضا بحكم الموصل والجزيرة والشام (٥) ، مما شجعه على الاستمرار في عملية ضم البلاد الإسلامية وتوحيدها فبعد أن استولى على حلب سنة ٥٢٢ (٦) ، أعلن أمير شيزر سلطان بن منقذ وأمير حمص تبعيتها له ، وفي سنة ٥٢٣ ضم حماة الى ملكه (٧) وبذلك تم له ملك الشام تقريبا ، ولم يبق أمامه الا دمشق التي كان يحكمها بورى بن طغتكين (٨) ، فاتصل معه بشأن الغزو للجهاد.

وقد أثارت انتصارات زنكي الروم فتحالفوا لكسر شوكته ، وأرادوا الاستيلاء على حلب سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ ، فساروا اليها ولكنهم انشغلوا بحصن بزاعة ، بين حلب ومنبج (٩) مما جعل زنكي يأخذ الحيطة ويُفشل حصار الروم والفرنج فتوجه هؤلاء الى شيزر (١٠) ، فأنجدها زنكي بقواته القليلة ، وبعث السلطان مسعود السلجوقي وفداً يحثه على ارسال المدد

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ت. عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٩ - ٣٤ ، وانظر ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ ورقة ٦١

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ت. جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ١٩٥٣ ، ١/ ٢٦٦ ، ٢٢٩ ، زبدة الحلب ٢/ ٢٨٣

(٣) مفرج الكروب ١/ ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، زبدة الحلب ٢/ ٢٨٣ ، الباهر ٣٩ ، الكامل ١٠/ ٦٥٨

(٤) ابن الاثير ، الباهر ٣٦ ، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٨ ، الكامل ١٠/ ٦٥٨

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢/ ٢٤٤

(٦) المقريزي السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٦ ، الباهر ٣٧ - ٣٨

(٧) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٤ (٨) المختصر ٢/ ١٤٠ (فيه توري بدل بوري)

(٩) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٠ (١٠) الاعتبار ١١٣ - ١١٤

ولكنه تقاعس عن ذلك ، فاغتنم الوفد وقت اجتماع الناس لصلاة الجمعة واستغاثوا " واستنفروه والدين محمداه " ، فتعهد السلطان بارسال حملة عاجلة ، كما أرسل الامير داود الارتقي خمسين ألفا من التركمان (١)، ثم نجح زنكي في التفريق بين الروم والفرنج ، بأن شكك كل فريق بنوايا الآخر(٢) ، فانسحب الفرنج وتركوا ملك الروم وحده ، واستغل زنكي النزاع بين الروم والفرنج فهان عليه أمر الفرنج ، إذ صاروا يتمنون أن يحفظوا ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في البلاد (٣) ، فاستولى على عدد من الحصون المهمة مثل حصن بارين ، كما استولى على معرة النعمان وكفر طاب وأعمالها ، وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة (٤) ، وفي ذلك يقول ابن القيسراني (٥) :

حذارِ منّا وأنّى ينفعُ الحَذَرُ ... وهي الصوارمُ لا تُبقي ولا تَذَرُ

وبعد أن قويت شوكة زنكي حاول مرة أخرى أن يستولي على دمشق ، ويسطو حاكمها جمال الدين محمد بن بوري حمص وبعلبك فرفض (٦) ، وبذا لم يبق أمام زنكي سوى استخدام القوة ، فحاصر دمشق لكن معين الدين أنر الذي زاد نفوذه بعد وفاة جمال الدين استنجد بالفرنج في القدس (٧) ، مبينا لهم خطورة الموقف اذا سقطت دمشق بيد زنكي " فإن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام (٨) "، ثم أغراهم بأن يقدم لهم نفقات الجيش الصليبي (٩)

وتقدم الجيش الصليبي بين القدس وطبرية وأشرف على دمشق ، فانسحب زنكي ، بينما قام الفرنج باحتلال بانياس التابعة لزنكي وأعدثوا فيها مذبحة شنيعة (١٠) ، ولم يكتف معين الدين بهذا العمل بل ذهب الى القدس ومعه أسامة بن منقذ (١١) ليقدم الشكر للفرنج ويقوى أواصر الصداقة بينه وبينهم ، وبذلك يقضي على نشاط زنكي في المنطقة بل سمح لهم ببناء قلعة صفد ، وغيرها من المعاقل في جنوب فلسطين مثل الكرك والشوبك(١٢)

---

(١) المفرج ١/٧٩ ـ ٨٠
(٢) ابن الاثير ، الكامل ١١/٥٧
(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٠/٦٦٣
(٤) ابو شامة ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٥) ابو شامه ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٦) ابن الاثير ، الباهر ٥٩
(٧) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ١٣٦
(٨) ابن الاثير ، الكامل ١١/٧٤
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٢
(١٠) المصدر السابق ٢٧١
(١١) الاعتبار ١٣٥
(١٢) الحركة الصليبية ١/٦٠١

لكن ملك بيت المقدس توفي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م بعد أن ثبت أقدام الفرنج في فلسطين فانفسح المجال لزنكي كي يسترد الرها ، وقد أستولى عليها فعلا سنة ٥٣٩/١١٤٤م دون أن يستخدم الاسلوب التخريبي الذى أستخدمه الفرنج بل أعاد ما غنمه الجيش ، ولم يفقد الا الشاذ النادر (١).

وتابع زنكي فتوحاته في شمال الرها ... ثم أتجه الى قلعة جعبر التي يحكمهما بنو عقيل ليصفي الجزيرة من هذه الامارات المتناثرة ويتجه نحو دمشق ويجاهد الفرنسج (٢) ولكنه وقع فريسة الاغتيال عام ٥٤١ هـ وبعد مقتله ، أتصل الارمن من أهل الرها بجوسلين الثاني ، وطلبوا منه القدوم لتسليمه المدينة ، إذ أن الحامية السلجوقية فيها قليلة ، وعماد الدين زنكي قتل ، فأسرع جوسلين اليهم وتسلم المدينة ، وبقي يقاتل الحامية المستحكمة في القلعة ، ولكن نور الدين تمكن من الوصول اليها قبل أن تيأس حامية المدينة ، فأصبح جيش جوسلين محاصرا من الداخل والخارج ، ففضل الانسحاب بجيشه على البقاء في الخطر فدخلها نور الدين ، وطارد جيش جوسلين وقتل معظمه ومنهم حاكم مرعش ، أما جوسلين نفسه فقد جرح (٣).

من ذلك يتبين لنا قدرة نور الدين المعاينة على الاضطلاع بالحكم ، اذ يعتبر عمله أستمرارا طيبا لمسيرة والده ، فاذا كان عماد الدين زنكي "جبارا عسوفا ينكباء النكبات عسوفا نمرى الخلق ، أسدى الحنق ، لا ينكر العرف ولا يعرف العرف (٤)" فان نور الدين أخذ الجانب المضيء من صفاته * ، واستبدل بالجانب الخشن التقوى فهو كما وصفه الشاعر :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب

وقد عمل نور الدين على أرضاء أخيه سيف الدين غازى حاكم الموصل (٥) ، كما عقد أتفاقا مع معين الدين أنر وتزوج بأبنته (٦) ، وتفرغ لمهاجمة أمارة أنطاكية ، وأستطاع أن يحرر معظم الاراضي الواقعة شرقي نهر العاصي (٧).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/٤٠
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٧
(٣) مفرج الكروب ١/١١١ ، ابن القلانسي ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الباهر ٨٧
(٤) الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهره ١٣١٨ هـ ص١٨٦
(٥) النويري ، نهاية الارب في فنون الأدب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامه جـ٢٥ ورقة ٨٠ ، مفرج الكروب ١/١١١-١١٢ ، الروضتين جـ١ ق١ ص١٢٢
(٦) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون القاهره ١٩٤٨ ص٤٣
* أنظر صفاته في تاريخ الحروب المقدسة ، ١/٦٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٦١٤

ومما يدل على عظمته ، تصديه للحملة الصليبية الثانية التي جاءت لتستعيد الرها ، ولكنها انحرفت عن هدفها الى دمشق " فتوجه نور الدين نحو سرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته ووفور عدته (١) " ثم سار الى بصرى فانهزم الفرنج ، وحين عادت الجيوش الفرنجية ومعها الامدادات الكثيرة ، استنجد صاحبها معين الدين بنوابه ، كما أرسل الى سيف الدين غازي وأخيه نور الدين ، في حين ظل يتصدى للقوات الصليبية التي احتلت المزة والربوة (٢) ، متخذا كثرة الاشجار فأوقع فيهم خسائر كبيرة ، مما جعلهم ينتقلون الى الجهة الشرقية (٣) ، فصادفوا الماء مقطوعا (٤) ، في حين وصلت النجدات الاسلامية من الموصل وحلب ، فآثروا الانسحاب على البقاء ، لا سيما بعد أن أغراهم معين الدين بحصن بانياس (٥) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية ولم تحقق لها أي هدف ، وإنما رفعت معنويات المسلمين الذين كانوا يخشون قدوم مثل هذه الحملة ، واستغل نور الدين حالة الضعف التي تمر بها الامارات الصليبية ، على أن يعود في وقت مناسب ، فأوقع بالفرنج كسرة قبيحة في يغرى (شمال شرق بحيرة العمق) ، وأرسل الى الخليفة العباسي والى أخيه بعض الغنائم ، ثم أغار سنة ٥٤٤ / ١١٤٩ على حصن حارم وحاصر قلعة " أنب " وقتل ريموند ، ثم تفرغ نور الدين لدمشق ، وحكامها الذين لم يجاهدوا ، ولم يسمحوا لنيوشهم بالجهاد ، وقد كان حرص نور الدين على الاستيلاء على دمشق ناشئا عن كونها تقع بين أراضيه وبين الفرنج ، فكان كلما حاول التصدي للفرنج وجد من الصعب السيطرة على الموقف لتعاون معين الدين أنر مع الفرنج ، وقد بقي الامر كذلك حتى توفي أنر سنة ٥٤٤ ، وخلفه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وكان ان ملك الفرنج عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وهي مدينة فلسطين حصنا ومناعة .. ولما كانوا يحاصرونها ، كان يتلهف على أنجادها ولا يقدر على ازعاجهم لأن دمشق في طريقه (٦) .

ولم يرتدع أبق عن أعماله المشينة فملك الفرنج في دمشق وتابعوا الغارات عليها ، وأكثروا القتل والنهب والسبي ، وجعلوا على أهلها ضريبة سنوية ، يأخذونها بأنفسهم فخلع الناس طاعته واتصلوا مع نور الدين (٧) .

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٢٠

(٢) ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق ، حققها د. صلاح الدين المنجد ص ١١ وأنظر الباهر ٦٧

(٣) الحركة الصليبية ٦٣٦/١

(٤) الحركة الصليبية ٦٣٩/٢

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٢/٢

(٦) العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ، جـ ١٢ ق ١ ورقه ٢٥٠

(٧) المصدر السابق جـ ١٢ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٩٦

وقد عمد نور الدين الى الايقاع بين أبق وأمرائه (١) ، ثم فرض حصارا اقتصاديا على دمشق واستمال حرسها في حين استنجد أبق بالفرنج ، ولكن سرعة نور الدين فوتت الفرصة عليه (٢) ، وفي تلك الفتن يقول المرقلة : ...

ذرة الأتراك والعرب ـــــــ وكن في حزب من غلب ـــــــ
بل لقد أصبحت فتنـ ـــــــ تجر الويل والوصب ـــــــ
لئن تمت لنا أسف ـــــــ ولم تخرب لنا عجب ـــــــ

وقد أشرفت دمشق على الخراب ، ولكن نور الدين جنبها ذلك حين ملكها سنة ٥٤٩ هـ (٤) فصفت الممالك بالشام له (٥) ، وامتد ملكه من الرها شمالا حتى حوران جنوبا ، ومن حد النوبة الى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج (٦) ، وبعد أن استقر ملكه عمر الشام ، وبنى الاسوار والمدارس حتى أصبحت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية ، وبنى الجوامع والابراج على الطرق وجعل فيها من يحفظها وصنع الحمام الهوادي (٧) وأحسن الى الجند والرعية فاحبه الناس لتواضعه وحسن سيرته (٨) .

بعد هذا الاستقرار توجهت أنظاره الى الفرنج ، وحدث أن غدر بلدوين الثالث بالتركمان الذين يعيشون في منطقة بانياس بعد أن أمنهم فقتل بعضهم وأسر آخرين واستاق خيلهم (٩) ، وفي هذا يقول باركر " فاذن صبر المسلمون على قيام دولة من المشركين فانهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص في أراضيهم " (١٠) ، فجهز نور الدين جيشا ، وأخذ بانياس ، مما جعل الفرنج يجتمعون من القدس وطرابلس وأنطاكية لاحتلال حلب بينما كان نور الدين مريضا (١١) ، ولكن المدينة صمدت أمامهم ، فاتجهوا نحو شيزر واستولوا (١٢) ،

---

(١) عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٦٦
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٥ ـ ٣٢٦
(٣) عقد الجمان ، ق ١ ج ١١ ورقة ١٦
(٤) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ١١ الباهر ١٠٦
(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ١٢٨
(٦) الباهر ١٥٩
(٧) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط ورقة ١٩ ، ٢١ الباهر ١٥٩
(٨) الدر الثمين ١٧ ، ١٨ ، عقد الجمان ق ٣ ج ١٢ ص ٥٤٥
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ ، ٣٢٨
(١٠) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٦٦٧ نقلا عن باركر في الحروب الصليبية ص ٨٩
(١١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩
(١٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠

وحين أبل نور الدين من مرضه هاجم منطقة صيدا والجليل، فوقعت معركة بين الطرفين قرب بحيرة طبرية ربحها الفرنج ، فتقدموا نحو دمشق ، فتصدى لهم نور الدين وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم جماعة قيل فيهم :

ما رأينا فيما تقدم يومـــــــــــا كامل الحسن غاية في البهـــــــــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهـــــــم ذلة الاسر والبلى والفنـــــــاء (١)

وحين لم يفلح الفرنج في حروبهم مع نور الدين اتجهوا نحو الدولة الفاطمية التي أصبحت تعاني الضعف والتمزق بعد مقتل وزيرها طلائع بن رزيك * ثم ابنه العادل ، إذ تولى الامر شاور سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ لكن ضرغام نافسه وانتصر عليه(٢) .

وفي هذه الاثناء قام عموري (مري) بغزو مصر سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ ، فوصل الى بلبيس وحاصرها ولكن فيضان النيل لم يمكنه من احتلال مصر ، فعاد ليجهز حملة كبيرة ليحتل بها مصر بعد أن رأى كثرة خيراتها (٣) .

وتوجه شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين بأن له ثلث اموال مصر ان مكنه منها ، فأرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ فقضى على ضرغام الذي استنجد بالفرنج ، وسيطر على الوقت قبل وصول الفرنج ، ولكن ما لبث شاور ان تنكر لأسد الدين ، فاحتل أسد الدين بلبيس والشرقية ، فاستنجد شاور بالفرنج ، فتقدم جيش عموري واشترك مع جيش شاور في محاصرة أسد الدين في بلبيس ، وإذ ذاك قام نور الدين بهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام(٤) ، فاثر عموري الرجوع من مصر ، حيث جهز جيشا عظيما من الفرنج والروم والأرمن لقتال نور الدين ، ولكن نور الدين أوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة سنة ٥٦٠/ ١١٦٤ (٥)، وأسر عدة من أمرائهم واستولى على حارم وبانياس ثم على شقيف تيرون وحصن المنيطرة فمدحه الشعراء ومنهم ابن القيسراني بقصيدة مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب (٦)

---

(١) عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٢٨٣
(٢) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ٣ / ٤١
* ساءت أحوال الدولة الفاطمية في حين سيطر الوزير عباس الصنهاجي على دار الخلافة وقتل الخليفة الظافر وأخويه ، فحدثت فتنة عظيمة بالقاهرة ، ثم أتاها طلائع بن رزيك وقام جيشه بعدة غارات ظافرة كما طلب من نور الدين أن يغزو الفرنج ، لكن اختلاف مذهبيهما لكون الاول شيعيا والثاني سنيا حال دون اتفاقهما على ذلك .
(الديوان جمع بدوي ص ٦٥ ، وديوان أسامه بن منقذ ص ١٧٧)
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٦٨١
(٤) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٦٧
(٥) مفرج الكروب ١ / ١٤٤ ، عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٣٦٦ وانظر ابن الاثير، الكامل ١١ / ٢٠٨
(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٢ والباهر ١٠٦

لم ينس نور الدين مصر وطمع الفرنج فيها وضعف شاور ، ولكنه تحين الفرص ، فحين دعاه العاضد ليخلصه من أستبداد شاور لم يتأخر في تلبية دعوته ، فأرسل شيركوه وصلاح الدين للمرة الثانيه (١) ، فأستنجد شاور بالفرنج ثانية ، فلبوا دعوته وعقدوا معه أتفاقا يخولهم الدخول الى القاهرة ويضمن لهم الاموال الكافية ، ثم سار الجيشان الفرنجي والمصري لمهاجمة شيركوه ، فانسحب الى جهة الصعيد في الصحراء ، وهناك تمكن من هزيمة الفرنج وشاور (٢) ، فعاد الفرنج الى الفسطاط بينما سار شيركوه وصلاح الدين الى الاسكندرية ، فرحب به أهلها (٣) ، وأبقى شيركوه فيها صلاح الدين ، ثم عاد الى الصعيد (٤) .

اتحد كل من شاور والفرنج بقيادة عموري لمهاجمة الاسكندرية ، فصبر أهلها وذاق صلاح الدين الأمرين في هذا الحصار (٥) ، فأستنجد بعمه سنة ٥٦٢/١١٦٧ ، بينما قام نور الدين بمهاجمة مملكة طرابلس وبيت المقدس (٦) ، ولما علم الفرنج ذلك خافوا على ممتلكاتهم في بلاد الشام ، وآثروا المهادنة بعد أن عقد شاور معهم أتفاقا مهينا يدفع بموجبه مالا سنويا لهم ، لكن شاور تثاقل عن دفع المال وكان نتيجة ذلك ان طمع الفرنج في ملك مصر ، وقد وجدوا الفرصة ملائمة لتحقيق أهدافهم ، فهم يعرفون ضعف مصر ، من جهة وأنشغال نور الدين في حلب من جهة أخرى ، وعلموا أن تأخر ذلك يعني وقوع مصر في يد نور الدين وقائده أسد الدين شيركوه ، وإن صار فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج ونهايتهم من أراضي الشام (٧) ، فقدم الفرنج سنة ٥٦٤ بأعداد هائلة وأحتلوا مدينة بلبيس ، وجاءوا القاهرة من باب الشرقية ، بينما قام بعض الاعراب بالهجوم على البر الغربي وساقوا المواشي والابقار وحاصروا البلاد أشد حصار ، وكما جاء في كتاب القاضي الفاضل " فلا نهضتم الى النصرة ولاقعدتم عن المضرة (٨) ، فأمر شاور بحرق مدينة بلبيس ، ثم سار الى القاهرة (٩) ، فأرسل العاضد يستنجد بنور الدين وضمّن الكتاب شعر نسائه ، فأنجده على وجه السرعة خوفا على مصر (١٠) ، فعاد الفرنج الى بلادهم فاشلين (١١) .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٨
(٢) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين ١٣٠
(٣) الروضتين جـ١ ق ٢ ص ٣٦٦ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٩
(٤) السيوطي ، حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره ، ط ، ادارة الوطن مصر ١٢٩٩ هـ جـ٢ / ٢٣
(٥) ابن الاثير ، الكامل سنة ٥٦٤
(٦) الروضتين جـ١ ق ٢ ص ٣٧٤ والنوادر السلطانية ٣٨
(٧) تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع مطبعة حداد البصرة ١٩٦٧ ، مج٤ جـ١ ص ١٩ - ٢٠
(٨) محي الدين بن عبد الظاهر ، الدر النظيم ، ت ، أحمد بدوي مطبعة الرسالة ، مصر ١٩٥٩ ص ٣٤
(٩) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ١ ص ٢٤
(١٠) الروضتين جـ١ ق ٢ ص ١٣٩ خطط المقريزي جـ١ ط ١ بولاق ص ٦٣
(١١) تاريخ ابن الفرات جـ١ ص ٢٣

وقد أثار تلاعب شاور بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الجند فأتفق صلاح الدين مع الجند على قتله ، وكان ذلك سنة ٥٦٤/ ١١٦٨ ، فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه بالمنصور ، وبضم مصر عمليا الى دولة نور الدين ، أصبح أمل المسلمين كبيرا بفتح القدس (١) ، وما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين من وزارته فخلفه صلاح الدين (٢) ، وقد عظم مركز نور الدين بفتوحاته ، وعمله للوحدة (٣) ، حتى كان ذلك بداية انهيار للامارات الصليبية ، وقد طلب من صلاح الدين أن يعلن عودة مصر الى الخلافة العباسية ، لكن صلاح الدين رأى أن ينظم الأمور في مصر أولا ، فقضى على ثورة الجند السودان سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ (٤) ، وبسط نظامه على مصر ، فأقض هذا العمل مضجع الفرنج في بيت المقدس ، وعلموا أن وحدة مصر والشام تعني القضاء عليهم ، فاستنجدوا بقومهم في أوروبا وعرفوهم ما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس" (٥) ، ثم طلبوا العون من الدولة البيزنطية ، فاجتمع الجيش الفرنجي والبيزنطي وحاصروا دمياط ، لكن صلاح الدين شحنها بالسلاح والمال والذخائر ، فعاد البيزنطيون وتبعهم الفرنج دون أن يحققوا نجاحا (٦)

وبعدها أعاد نور الدين الطلب من صلاح الدين اعلان الخلافة العباسية " وألزمه بذلك الزاما لا فسحة فيه (٧) " فأعلنها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العاضد على فراش الموت ولم يعارضه أحد " ولم ينتطح فيه عنزان " (٨) .

وبذلك أصبحت مملكة نور الدين تشكل "فكي كماشة" على الفرنج ، وما لبث نور الدين أن توفي ، فأغتنم الفرنج موت نور الدين وحاولوا احتلال بانياس ، لكن ابن المقدم وصي الملك أسماعيل بن نور الدين خرج اليهم وراسلهم ولاطفهم وقدم لهم عروضا مغرية ، وبين لهم خطورة أستعانته بصلاح الدين فتركوها (٩) ، وعندما علم صلاح الدين بهذا العمل ساءه سلوك أبن المقدم وأرسل الى الملك الصالح وأمرائه يقبح لهم ما فعلوه (١٠) .

ثم قدم الاسطول الصقلي الى الاسكندرية في ستمائة قطعة ما بين شيني وطرادة وبطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا (١١) ، وضايقوا الثغر وأتلفوا السفن التجارية ولكن أهلها قاوموا النازين ، حتى جاء المدد صلاح الدين ، فانسحب الفرنج وخرج أهل البلد يحرقون خيامهم ويقتلون من ظفروا به فعادوا خائبين (١١) .

---

(١) الروضتين جـ١ ق٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤
(٢) ابن الاثير ، الباهر ١٤١ ، الأنس الجليل ١/ ٣١٣ (٣) الباهر ، ١٦٠
(٤) الروضتين جـ١ ق٢ ص٤٩٢ ، المفرج ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧ (٥) ابن الاثير ، الباهر ١٤٣
(٦) ابن الاثير ، الكامل ١١/ ٣٥١ (٧) مفرج الكروب ١/ ٢٠٠
(٨) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥٦ ، الأنس الجليل ١/ ٣١٣
(٩) مفرج الكروب ٢/ ٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٣ ص ١٢
(١٠) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٥٨٩
(١١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ت ، جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر ، ١٩٦٤ ص ٤٨ـ٤٩ ، مفرج الكروب ٢/ ١٢ ، النويري ، كتاب الالمام بالاعلام ، ت ، د ، آتين كومب وعزيز عطية ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر ابساد ، ١٩٦٨ جـ١ ص ٢٩٣

وبعد ذلك تفرغ السلطان لأمور الشام ، فحين حدث نزاع بين الاوصياء على الملك الصالح ، أتصل أحدهم وهو أبن المقدم بصلاح الدين ، حتى يقضي على الطامعين من الفرنج فرصة ضعف الشام (١) ، فلبى صلاح الدين الدعوة ، ورحبت به دمشق أجمل ترحيب ، قال وحيش الاسدى :

رأيت جلق شنوا لا نظير له فجئتها طامرا منها الذي خرمه
نادتك بالذل اذ قل ناصرها وأزمع الخلق من أوطانها هربا (٢)

أزال صلاح الدين ما كان فيها من البدع والمنكرات ، والضرائب التي ظهرت بعد موت نور الدين كما أصلح من أحوالها ، وأعاد الحقوق الى أصحابها (٣) ، ثم أتجه الى حلب ، فأستنجد المتنفذون فيها بالفرنج ، فأنجدهم صاحب طرابلس (ريموند الثالث) ، وهاجم حمص وحماه فاضطر صلاح الدين الى الرحيل (٤) ، ثم وقع مصاف بينه وبين الزنكيين من الموصل وحلب ، عند قرون حماة سنة ٥٧١/١١٧٥ ، أنتصر فيه صلاح الدين وضم بعض بلادهم (٥) ، وقد حاولت الباطنية قتله أكثر من مرة ، كانت أولاها أثناء حصار حلب سنة ٥٧١/١١٧٥ والثانيه اثناء حصار حصن عزاز التابع لحلب سنة ٥٧٢/١١٧٦ ، والثالثة أثناء حملته على ديارهم في العام نفسه (٦) لكنه نجا فخرب ديارهم وأحرق بلدهم (٧) . ووجه صلاح الدين بصره الى الجناح الثاني من دولته ليقوم بالتحصينات اللازمة ، فبنى حول القاهرة ومصر سورا عظيما (٨) ، وكذلك أهتم بالاسكندرية (٩) ، ثم قام بأعمال حربية هجومية على جنوب مملكة بيت المقدس ، وتمكن من حصار ملكها بلدوين الرابع وجيشه في غزة ، ثم أنتشر في رقعة واسعة من فلسطين ، هاجم خلالها الرملة واللد ، ووصل الى جهات نابلس ، ثم أتجه صوب الساحل ، فأعترضه نهر عليه تل الصافية ، فلم يتمكن من أجتيازه الا بصعوبة لتزاحم الجنود ، وأثناء ذلك فوجئ بجيش مجهز من الفرنج (١٠) ، تمكنوا به من المسلمين فقتلوا منهم جماعة كبيرة ، ثم عاد الى القاهرة وقد حاول الشعراء أن يهونوا أمر هذه الكسرة عليه .

---

(١) أنظر الخريدة ، قسم الشام ص ١٢ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٣ ص ٣٩٢ ، الشذرات ٤/٢٣٦ ، أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ٨٣-٨٥
(٢) عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقة ٥٧٠
(٣) العماد الاصفهاني ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام والامراء من بني أيوب ص ١٣
(٤) ابن الوردى ، تاريخه ٢/٨٣ ، الكامل ١١/٤١٧
(٥) تاريخ ابن الوردى ١٠/٨٦
(٦) عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ١٢٨
(٧) تاريخ ابن الوردى ٢/٨٧
(٨) تاريخ ابن الوردى ١٠/٨٧ ، مرآة الجنان ٣٠/٣٦٧ ، الشذرات ٤٠/٢٤١
(٩) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧
(١٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٠

اغتم الفرنج هذا النصر ، فقاموا ببناء قلعة عظيمة قرب بانياس تعرف ببيت الاحزان * ، لتراقب التحركات الاسلامية وتعقبها ، فعاد السلطان الى الشام لتدارك أمر الاسلام ،ثم قام بهجوم على بانياس وكان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب(١) فقتل عددا من الفرنج ومنهم صاحب بانياس (٢) ،ثم هاجم حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ ، وغنم جميع ما فيه اذ كان فيه مقدار كبير من السلاح بلغ مائة الف قطعة ، كما كان فيه مؤن كثيرة ،وأسر سبعمائة مقاتل ، فأثنى الشعراء والكتاب عليه لما قام به من حفظ الديار الشامية (٣) ، كما كتب اليه الخليفة تقليدا بالبلاد المصرية واليمنية ، سهلا وجبلا ، مع ما تحتويه من جند ورعية ، وأضاف اليها بلاد الشام باستثناء ما كان بيد ابن نور الدين اسماعيل (ـ٥٧٧) الذي كان يحكم حلب وأعمالها (٤) ، وقد كتب ابن التعاويذي اليه قصيدة أرسلها من بغداد مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطيّ برملتي يبرين **

ومنها :

أضحت دمشق وقد حللت بجوها ... مأوى الطريد وموئل المسكين

---

* جاء في معجم البلدان ، مادة بيت " بلد بين دمشق والساحل .. وكان الإفرنج عمروها ،وبنوا به حصنا حصينا،قال النشوبن نقادة فيه :

هلاك الفرنج أتى عاجلا ... وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد أتى حينها ... لما عمرت بيت أحزانها

(١) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي ،مضمار الحقائق وسر الخلائق دار الهناء ، القاهرة ، سنة١٩٦٨ ، ت،حسن حبشي ، ص٢

(٢) الروضتين٢ / ١١ ، ٢ / ٢ ، ٢ / ١٠

(٣) الروضتين٢ / ١١ـ١٣ ،ابن الوردي ٢ / ٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٣٠٣

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ٢ / ٢٧

(٥) الروضتين٢ / ١٠ ، مضمار الحقائق ٢٢

** في الروضتين (٢ / ١٠) بيرين ولم يذكر هذا الموضع في معجم البلدان ، وفي المضمار (بيرين) ولعل الصحيح (يبرين) لان الشاعر قصد الارض الكثيرة الرمل وهذا المكان هو يبرين ولعله بيرين ، وهو من أصقاع البحرين ، (معجم البلدان مادة بيرين ، يبرين)

وأزاء هذه الانتصارات المتتالية ، طلب بلدوين الرابع عقد هدنة ، فوافق صلاح الدين سنة ٥٧٦ / ١١٨٠ وبذلك تفرغ لمهاجمة طرابلس ، فاضطر صاحبها (ريموند الثالث) الى عقد هدنة في العام نفسه ، مما أتاح له فرصة طيبة لتوحيد العالم الاسلامي ، إذ بدأ أنتباهه واضحا بحلب لأنها مركز الحكم وقاعدته (١) ، لكن خطرا جديدا أخذ يهدد قلب مملكته ، اذ اتخذ أرناط (رينودي شاتيون) حصني الكرك والشوبك مركزين لمهاجمة قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز ، وكان أرناط قد تولى الاردن بعد فكاكه من أسر مكث فيه مدة طويلة تغيرت فيها أحوال المسلمين نحو الافضل ، ولكنه بقي على لؤمه وغدره ، فخرق هدنة صلاح الدين مع ملك بيت المقدس ، وقام بالهجوم على قافلة ذاهبة الى مكة سنة ٥٧٧ / ١١٨١ ، فارسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس يطلب منه أعادة ما نهب ولكن أرناط تمادى في غيه ولم يذعن لأحد (٢) ، وقد حاول صلاح الدين أن يضغط عليه بالاسرى الحجاج الذين تذفهم البحر عند دمياط ـ رغم كثرتهم ـ فلم يرتدع (٣) ، وفي هذه الاثناء شاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم ، اذ نهبوا وسبوا عددا كبيرا ، بينما رسول حلب يقوم بالتفاوض مع الفرنج ويستنجد بهم ويغريهم (٤) ، وما كان "المواصلة" بأحسن حالا منهم ، وأما الخليفة فمشغول بأن لا تكون السفينة المعروفة (بالزبزب) بدجلة أزاء التاج الشريف لترقب من يموت ... لأنه كلما رآها تكدرت عليه الحياة (٥) .

وأستغل صلاح الدين الهدنة المعقودة بينه وبين الفرنج في أستكمال الوحدة الاسلامية ، فعاد لمحاصرة حلب ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها ، فذهب الى الموصل ، وحاصرها أياما ، لكن لم يفلح في فتحها ، اذ كانت محصنة ومحاطة بقلاع لا سبيل اليها إلا بأخذ هذه القلاع وما حولها من البلاد (٦) ، فعاد الى حلب حيث أرسل الخليفة يأمره بترك أمر الموصل وحلب ، فرد عليه صلاح الدين بأنه لا يمكنه الجهاد والتفرغ للعدو دون حماية وطمأنينة وإلا فالأولى أن يتنازل عن أملاكه لهؤلاء على أن يقوموا بواجب الجهاد ، ثم حاول أن يقنعه ويغريه بأن حكام حلب والموصل أعاقوا متابعته للجهاد ، وبين له ان الهدنة ما عقدها مع الفرنج إلا بسببهم (٧) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٣ / ٢٠ ـ ٢٥ ، الكامل ١١ / ٤٦٦

(٢) Stanley Lane Pool. A History of Egypt in the Middle Ages p. 207

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١٤٥ ويذكر ان عددهم ألف وستمائة وتسعون .

(٤) الروضتين ٢ / ٢٣

(٥) الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهنا ، القاهره ، ١٩٦٨ ص ٥٩

(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية ٥٧

(٧) الروضتين ٢ / ٢٣

وعاد السلطان الى الجزيرة الفراتية ،وعمل على ضم كثير من البلاد اليه(١) ثم عبر الفرات سنة ٥٧٩ وسير العسكر الى حلب ، فناجزها وحين علم صاحبها (عماد الدين زنكي) أن لا قبل له به ، أتصل به على أن يسلمه البلد مقابل أعطائه سنجار وبذلك قضى على معظم الممالك الضعيفة والملوك الذين يقول فيهم ابن اسعد الموصلي :

ملوك جلهم مغرى بظلـــــم ومشغول بلهو أو مــــزاح

أو ما قاله فيهم ابن سناء الملك :

ممالك لم يدبرها مدبرهـــا الا برأى خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت من الفساد كما صحت من الوصب (٢)

وبذلك أيضا ضمن قوة كبيرة يقف بها أمام الفرنج ،فكان فتح حلب بداية فتح القدس كما أشار الى ذلك ابن الزكي قاضي دمشق قبل فتح القدس (٣) :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفـــر مبشر بفتوح القدس في رجب (٣)

* * *

وكان أن اقدم أرناط على مشروع خطير ــ دون أن يفكر بالعواقب ــ وهو أنه جهز اسطولا وأوكل له مهمتين : الاولى : نهب السفن الاسلامية التجارية ، والثانية : أحتلال المدينة المنورة ونقل جسد الرسول الكريم الى بلادهم ليدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل (٤) .

ولذا عمر العادل أخو صلاح الدين أسطولا ارسله مع حسام الدين لؤلؤ ، وأوقع بمحاصري أيلة هزيمة نكراء ،ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة ، فأدركهم بساحل حوراء ، فقتل أكثرهم وأسر الباقين (٥)، ولم يكتف أرناط بهذا بل غدر بالمسلمين ، بعد ان أمنهم ، فهاجم قافلة قادمة من مصر الى الشام ،وحين ذكره صلاح الدين بالعهد ، وطلب منه اطلاق الاسرى والقافلة رد بقوله " قولوا لمحمد يخلصكم " (٦)

زالت العوائق التي أعترضت صلاح الدين في تأديبه لارناط على أعماله ، وبالأضافة الى ذلك تدهورت أوضاع مملكة بيت المقدس ،اذ توفي بلدوين الرابع ، وخلفه " جاى لوزجنان " فراسل صلاح الدين وطلب منه المساعدة على أهل ملته (٧) .

---

(١) أنظر مضمار الحقائق ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ، ١١٠ ــ ١١٥ والكامل ١١ / ٤٨٢ ــ ٤٨٨ ، وزبدة الحلب ٣ / ٢٠ ــ ٢٥

(٢) الروضتين ٢ / ص ١٧ ، ٤٣ ، ٤٤

(٣) الانس الجليل ٣١٧ ، وأنظر مضمار الحقائق ٩٢ ، تاريخ ابن الوردى ٢ / ٩٣

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٤٩١ ، ١ ــ ٩ الانس الجليل ٣١٦

(٥) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٩٢

(٦) مفرج الكروب ٢ / ١٩٤ ، ابن شداد ٧٨

(٧) الروضتين ٢ / ٧٤

وهنا أمر صلاح الدين بتعبئة العساكر من حلب ومصر والجزيرة ، ووكل أبنه الافضل باستقبالها في منطقة التجمع بدمشق ، بينما قام بغارة على الكرك والشوبك دمر خلالها أرباضها وقطع أشجارها (١) ثم عاد الى الشام فوجد أمورها مهيأة ومنظمة فجهز الجيوش وسيرها يريد دخول الساحل ، وعندما سمع الفرنج باجتماع كلمة المسلمين ، أجتمعوا وتصالحوا ثم أقاموا في صفورية بجيش قوامه خمسون ألفا ، فاستهدف صلاح الدين أزاحتهم عن مراكزهم حتى يصلوا اليه متعبين ، فضلا عن أنه بهذا العمل يحرمهم من الماء بأحاطته ببحيرة طبرية ، ولكنهم بقوا حيث هم ، فاحتل طبرية لعلمه أنهم لن يهدأوا لذلك ، فلما وصلهم الخبر ثارت ثائرتهم ، فسر السلطان ، وقال : "جاءنا ما نريد ، ونحن لهم بالمرصاد ، فلا قبل لهم بنا ، فاذا هزمناهم فنأخذ طبرية وجميع الساحل" (٢) ،

عسكر الفرنج على سطح جبل طبرية بعيدين عن الماء ، فاشتد بهم العطش وأندفعوا الى ماء طبرية غير مرة ، ولكن المسلمين كانوا يردونهم ، ولم تزل الحرب تستعر ويشتد أوارها حتى دارت الدائرة على أهل الشرك ، إذ ان المسلمين قد أشعلوا النيران في الاعشاب فازدادت عليهم الحرارة اللاهبة ، حرارة التنور وحرارة النار والحديد الذي به يتخوذون ويدرعون إضافة الى العطش الشديد ، فكانت الغلبة للمسلمين بفضل الخطط الحكيمة لقائدهم صلاح الدين . ولما رأى صاحب طرابلس أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه بادر الى الهرب ثم أصابته ذات الجنب ، فكانت سببا في هلاكه بمشيئة الله (٣) .

أما بقية الجيش فقد أشتد قتالهم حين أيقنوا بالهلاك ، لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فقتل منهم عدد كبيرا ، كما أسر الكثير ، وقد عامل المسلمون الاسرى معاملة كريمة ، وأحضر السلطان الماء المثلج لملكهم ، أما أرناط فقد تم قتله وفاء بنذر السلطان (٤) .

تابع صلاح الدين فتوحاته ، فتوجه نحو عكا ، بغية القضاء على قواعدهم البحرية بينما قامت بعض الفرق باحتلال الناصرة ، وقيسارية وحيفا وصفورية ... وغيرها كما أحتل بيروت وجبيل ، ثم سار نحو عسقلان ، وفي طريقه الى القدس تسلم مواضع كثيرة كالرملة ، ويبنا والداروم ، كما تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال (٥) ، ثم أتجه الى بيت المقدس ولم يلبث من فيها أن استسلموا ، وسمح لهم بمغادرة القدس بسلام مقابل فدية بسيطة (٦) وهنا نلاحظ الفرق الشاسع بين معاملة المسلمين ومعاملة الفرنج .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٧٤ ، ٧٥ ، الروضتين ٧٥/٢

(٢) المصدر السابق ٧٦ ، ٧٧ ، وابن الاثير ، الكامل ٣٥/١١

(٣) النوادر السلطانية ٧٨

(٤) مفرج الكروب ٢٠٢/١ ، حسن المحاضرة ٣٤/٦ ، النوادر السلطانية ٨٠

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٨٠ ، الكامل ٥٤٠/١١ - ٥٤١

(٦) ابن الاثير ، رسائل ابن الاثير ، ت أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٥٩ ص ١٥٤

بهذا الفتح العظيم تحسنت أحوال المسلمين ، بينما انحسر ظل الصليبيين، وقد مجد الشعراء والكتاب هذه الفتوحات ، وطالبوا باستكمال الفتح ، كما عملوا على تحريك الهمم لطرد الغزاة ، ولم يبق أمام المسلمين الا صور ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وميناء السويدية ، وحصن المرقب ، وقد حاول صلاح الدين احتلال صور ولكنها أمتنعت عليه لحصانتها الطبيعية ، وكثرة من فيها من الفرنج الذين جاءوا من المناطق التي احتلها المسلمون (١) .

* * *

أحدث سقوط القدس صدى هائلا في أوروبا ، لا سيما بعد أن وصل بعض الرهبان يحملون صورا للمسيح وقد أدماه العرب ، فهرع الفرنج الى فلسطين بأعداد هائلة ، اذ خرج ملك الالمان بمائتي ألف وتيل مائتين وستين ألفا (٢) ، وقد وصلت هذه الجموع الغفيرة الى القسطنطينية ، تريد البلاد الاسلامية ، بالاضافة لمن جاء عن طريق قبرص أو من صور .

واذ ذاك أرسل صلاح الدين ابن شداد الى الخليفة ببغداد ، وصاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب اربل ، يطلب منهم الخروج الى الجهاد (٣) ، فوعده كل منهم خيرا ، كما قام بطلب الجند من مصر والشام للوقوف في وجه الهجوم القادم .

وقد كان لتحسن العلاقات بين المسلمين والروم أثر مهم في وقوف صلاح الدين على أخبار الحملة الالمانية ، فقد بعث ملك القسطنطينية له برسالة أخبره فيها عن اقترابهم من القسطنطينية ووعده بأن لا يمكنهم من العبور (٤) ، وحين وصلت الحملة أرض القسطنطينية وضع العراقيل أمامها ، لكن كثرتهم أرغمته على تخلية سبيلهم، أمام قد رسم المجهول عبر الاناضول ، كما ارسل الى صلاح الدين يخبره عن خسائرهم (٥) ، وقد تابع الالمان زحفهم عبر آسيا الصغرى يخربون وينشرون الرعب ، فخافهم السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) ، فقدم لهم الادلاء حتى وصلوا أرض الارمن ، فاستقبلهم ابن لاون (لاون) وزودهم بالمؤن والادلاء حتى وصلوا الى طرسوس ، فاقاموا على نهر ، أصيب ملكهم عنده بمرض بعد أن سبح فيه فكانت نهايته (٦) .

ضاق الخناق على المسلمين ، اذ أصبحت الحملة الالمانية على مشارف الشام ، والحملة الفرنسية والانجليزية ترابط في صقليه تنتظر هدوء البحر ، تحفزا للهجوم ، وفرنج صور يهاجمون عكا والمسلمون يقتلون منهم العدد الكثير ، لكن ما أن يقضي على مجموعة حتى تظهر مجموعات آتية من البحر (٧) .

---

(١) الانس الجليل ١/٣٤٣ ، الفتح القسي ٨٢٧/٣ ، الكامل ٢١/١٢

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ١١٥

(٣) لاحظ قول د . بدوي محمد فهد ، أنه لم يطلب العون من الخليفة ، وانظر ابن شداد ١١٥

(٤) الروضتين ١٥١/٢

(٥) النوادر السلطانية ١٢٣

(٦) النوادر السلطانية ١٢٤ ـ ابن العديم ١١٤/٣

(٧) الروضتين ١٥٧/٢

لكن الاخبار وصلت بموت ملك الالمان ومعظم جيشه بسبب الامراض التي فتكت بهم(١) ولذلك طالب السلطان من أمراء الجند منعهم من وصول عكا ،ولم ينتظر وصول أمدادات القوات الاسلاميه،وانما قام بهجوم على الجيش الصليبي قتل فيه عددا كبيرا منه ، فانتشر الوباء بينهم مما أضطر صلاح الدين الى الرحيل عنهم ، بينما اتيح لهم المجال لمزيد من الاستمدادات ، وفي هذه الاثناء وصلت الحملة الفرنسية والانجليزية ، وأحكم الفرنج الحصار على عكا ولم تنلح محاولات صلاح الدين لامدادهم بالميرة والسلاح (٢) ، فخرج حامي المدينة الى الفرنج ، وتفاوض معهم بالتسليم ،ولكن الفرنج ـ كعادتهم ـ غدروا بالمسلمين ، وقتلوا الاسرى البالغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، صبرا ،ثم احتلوا حيفا وقيسارية بعد أن أخلتهما الحامية الاسلامية ، ثم ساروا نحو أرسوف ، وهزموا المسلمين فيها ، فاسرع صلاح الدين الى عسقلان وخربها وسط جو غامر بالحزن والبكاء (٣) .

لكن الفرنج توقفوا بسبب ما نشب بينهم من نزاع على ملكية الاراضي المفتوحه والقدس بعد احتلالها ،مما أتاح لصلاح الدين ان يحصن القدس، وان يسمم الآبار على الطرقات وحين وصلت الحملة مشارفة القدس، ورأت ما فعله صلاح الدين فضل ريشارد التوقف عن مهاجمة القدس، والدخول معه في مفاوضات ، لا سيما بعد ما علمه من ثورة أخيه ضده في أنجلترا (٤) فاقترح على صلاح الدين تزويج أخته بالعادل أخي صلاح الدين ، وقد دامت المحادثات طويلا ولكن دون جدوى ،وأخيرا عقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ / ١١٩٢ ، ونودى في الناس : " ان الصلح قد أنتظم ، من يشاء (هكذا) من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل (٥) .

وتوفي المجاهد الكبير صلاح الدين سنة ٥٨٩/١١٩٣ تاركا مملكة واسعة وأمانة ثقيلة تحملها أبناؤه من بعده ، بالاضافة الى أخيه " العادل " ، وقد تولى أبنه الافضل على" دمشق والساحل وبيت المقدس ،، وأخذ " العزيز عثمان " مصر ثم أخذ "الظاهر غازي" حلب أما أخوه العادل فقد تولى أمارة الاردن والكرك ، ولم يلبث الخلاف أن دب بين ورثة صلاح الدين الايوبي وأستمر فترة من الزمن (٦) .

---

(١) مفرج الكروب ٢ /٣٢٢ ، النوادر السلطانية ١١٨
(٢) النوادر السلطانية ١٥٦ ـ ١٥٧ ، ١٦١
(٣) الروضتين ٢ /١٩٢
(٤) مفرج الكروب ٢ /٣٧٥ ، الروضتين ٢ /١٩٦ ، وأنظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ٢ /٨٨٥ .
(٥) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ٢ /٣٢ ـ ٣٣ ، ٨٦ ، الروضتين ٢ /٢٠٤
(٦) ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ٣ /٨٧ ، الروضتين ٢ /٢٢٨

وبعد أن هدأت الأمور في البيت الأيوبي وانتهت مدة الهدنة ، أرسل الفرنج حملة جديدة ، فانتشروا في الساحل وكثروا فيه واعتدوا على بعض المسلمين في منطقة القدس واسروا وغنموا (١) ، فتصدى لهم العادل من أمراء بني أيوب وكسرهم بمرج عكا ثم احتل يافا بالسيف ، لكن الفرنج احتلوا بيروت بعد أن هرب عنها واليها عز الدين أسامه ، ثم عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، عمل العادل خلالها على توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته ، وقد تمكن من بسط سيطرته على مصر فأصبح سلطان المسلمين في مصر والشام ، واعتمد في تصريف أمور الولايات على أبنائه بينما يتنقل هو بين هذه الولايات (٢) .

* * *

وبعد أن فشلت الحملة الصليبية السابقة في استرداد بيت المقدس رأت البابوية أن تضرب مصر أولا ، باعتبارها السبب الاكبر في سقوط مملكة بيت المقدس (٣) ، وقد تقرر ذلك فعلا ، وبقي أمر نقل الجند اليها ، فتعاقد الفرنج مع أسطول البندقية لنقلهم ، ولكن استنجاد ألكسيوس الثاني البيزنطي بهم لاخماد الثورة الداخلية ، أطمعهم في السيطرة على الطريق الذي عانى منه الفرنج قديما ، كما أطمعهم في اخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية (٤) . ولذا فقد استولى الفرنج على القسطنطينية سنة ٦٠٠ / ١٢٠٤ ، واعملوا السيف في أهلها ثلاثة أيام ، وقتلوا الاساقفة والرهبان الذين خرجوا اليهم وبأيديهم الأناجيل والصلبان ، يتوسلون بها ليُبقوا على حياتهم ، فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة (٥) .

ثم وصلت بعض جموع الفرنج الى الشام ، وقاموا بعدة عمليات لم تكن حاسمة كان منها هجومهم على حماة ، وقد هزموا فيها ، يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى النجاري في ذلك (٦) .

عاجلتَهم بالمنايا والحتوف فلم	تترك لهم أجلاً يُبقي الى أجل
تأكسر صليبهمُ عن صلب جمعهمُ	وأرض لمجدك أعلاماً على جبل

---

(١) مفرج الكروب ٣ / ٧٤

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر مفرج الكروب ٣ / ٧٨ ، واورنشتين ٢ / ٢٢٥ ، ٢٣٣ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١١٣ وابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٥ ، وسعيد عاشور الحركة الصليبية ١ / ٢٢٦ .

(٣) Stanley Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 217, 241

(٤) فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ق ١ ص ٢٤١

(٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٨ ، ابن الساعي ، الجامع المختصر نشر مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد سنة ١٩٣٤ ج ٩ ص ٤٧ ـ ٥٠

(٦) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ومجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤

وازاء هذا الفشل ، اجتمع عقلاؤهم وأشاروا بقصد مصر أيضا ، وهكذا وصلت الحملة الى عكا ، وانتشر افرادها في الساحل يقتلون وينهبون حتى اذا استراحوا ، انطلقوا الى مصـــر مخلفين وراءهم الرعب والتدمير (١) .

وأخيرا وصلت الحملة الى دمياط سنة ٦١٤ بعد مشقة بالغة بسبب ما أتخذه الكامل من احتياطات في مدخل النيل ولكنهم حطموا تلك السلاسل ، وصنعوا مركبا عظيما شحنــــوه بالرجال والسلاح وأجروه في البحر ، ومنه وثبوا الى سور دمياط (٢)، وتوفي العادل ، وبقي ابنه الكامل يرقب الموقف ، ولكن أحد قادته حاول الثورة وأحدث الفوضى ، مما أضطر الكامـــل أن يتراجع عن المدينة ، وبذا أنفتحت أمامهم (٣) ، وأرسل الملك الكامل الى أخيه يحثـــه على سرعة الحضور ، وصدّر الكتابة بقوله :

يا مسعدي إنْ كنت حقا مسعفـــــــي	فانهض بغير تلبث وتوقـــــــــف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفـــــــا	بتجشم في سيرها وتعسّـــــــــف

وقبل أن ينجده أحد من أخوته تمكن الفرنج من الاستيلاء على دمياط ، وارتكبوا فيها الجرائم، إذ غدروا بأهلها بعد أن أمنوا من بقي منهم(٤) ، ثم أتجهوا مع النيل داخل مصـــــر ، والمسلمون لا يلوون على شيء ، فأتخذ الكامل المنصورة مركزا للدفاع ، وعرض عليهم كل مـــا فتحه صلاح الدين بما في ذلك القدس ، على أن يغادروا الاراضي المصرية ، فلم يقبلوا بذلك وطلبوا أموالا طائلة لبناء أسوار القدس .

ثم تجمع لدى الكامل جيش عظيم ، وأخذت الأمدادات تصله تباعا من أخوته الاشرف موسى والمعظم عيسى ، وتمكنت البحرية الاسلامية من قطع النيل عنهم ، وأغرقت سفنا فرنجية محملـــة بالسلاح والميرة ، وكان أن فاض النيل ، ففتح المسلمون السدود والقنوات ، وأصبح الفرنـــج محاصرين ، يقيّد الطين حركتهم ، بالاضافة الى محاصرة الجند المسلمين لهم .. فوقعـــوا بين أسير وقتيل بعد أن وصلوا الى المنصورة (٥) .

وأجتمع الكامل محمد وأخوته بعد هزيمة الفرنج في ليلة سمر ، قال فيها الشعـــراء شعرا وغنوا فيما لحملة وأعمالها ثم هزيمتها ومن جميل شعرهم قول الشاعر راجح الحلبي :

أعباد عيسى أن عيسى وحزبـــــــه	وموسى جميعا ينصران محمــــدا *

---

(١) الشذرات ٥/٦٥ ـ ٦٦

(٢) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، دار بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص ١٩٤

(٣) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٥ ، ج١ ، ص ١٤٦ ـ ٢٤٩ ، المختصر في أخبار البشر ٣/١١٧

(٤) الشذرات ٥/٦٦

(٥) المختصر في أخبار البشر ٣/١٢٥ ، ابن الفرات مجلد ٥ ج١ ص ٢٤٩ تاريـــــخ ابن الوردي ٢/١٤٢

* في البيت تورية باسم عيسى وهو المعظم أخو الملك الكامل وموسى هو الاشرف ومحمد هو الكامل. للمزيد من التفاصيل انظر الذيل على الروضتين ١١٩ ـ ١٢٠

ونشب النزاع ثانية بين الأخوة من البيت الأيوبي ، بل وصلت الأمور الى حد استنجاد بعضهم بأعداء المسلمين ، اذ استنجد بعضهم بالخوارزميين وبعضهم الآخر بالملك فردريك ملك صقلية (١) وقد قدم الجيش الفرنجي بالتوالي الى عكا سنة ٦٢٥ /١٢٢٨ ، وأخذ يبني التحصينات في عكا وغيرها ، استعدادا للهجوم ، ريثما يصل الامبراطور ، وكان أن مات الملك المعظم فاحتل الكامل القدس ونابلس ، واتفق مع أخيه الاشرف على أخذ دمشق من الناصر داود بن المعظم الذي كان مقيما بنابلس ثم رحل الى دمشق سنة ٦٢٦ /١٢٢٩ (٢)

ووصل فردريك الى الشام في وقت لم يعد فيها الكامل الذي كان قد استنجد به في حاجة اليه ، فطلب الامبراطور من الكامل أن يسلمه ما كان وعده به من التنازل عن كل ما احتله صلاح الدين مقابل القضاء على المعظم ، فراسله الكامل ولاطفه ، فلجأ فردريك الى الحكمة والدهاء ، وانتهى الامر بتسلمه القدس وبيت لحم ، والناصرة ، وغيرها على أن تضع الحرب أوزارها مدة عشر سنين ابتداء من ٦٢٦ /١٢٢٩ (٣) .

وقد أستاء المسلمون لهذه الهدنة ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وكان نتيجة ذلك ان ازداد تمزق البيت الايوبي ، اذ اتجه الكامل والاشرف الى دمشق لاخذها من الناصر ، فكرههما الناس وأوغرت عليهما الصدور ، وقد تولى الكامل حصار دمشق ، وقطع الانهار ونهب البساتين (٤) ، ثم أخذها صلحا .

وحين أوشكت الهدنة التي عقدت بين الكامل وفردريك على الانتهاء شعرت البابوية على بيت المقدس ، فدعت الى حملة صليبية جديدة ، هدفها حماية القدس ، وترميم الاسوار ، وبذلك تكون قد خرقت الهدنة التي تقضي بعدم تجديد البناء ، فاستغل الناصر داود الفرصة وهجم على الفرنج وطردهم منها ، وردا على ذلك ، نظم الفرنج حملة أخرى بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أرسى بعكا وأنهب أصحابه في بلاد الساحل ، فصادف الفقر وغلاء الاسعار على القدس والاماكن الاخرى ، وقد قال الناصر داود في ذلك * :

أيا ليت أمي أيّم طول عمرها	فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت	تشدّ الى الشد قمبات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم	ولم أر في الاسلام ما فيه من خلل (٥)

---

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر الحركة الصليبية ١ /٦٦٨

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /١٥٠ ، مفرج الكروب ٤ /٢٣١ ، الشذرات ٥ /١١٨

(٣) السلوك ق ١ ج١ ص ٢٢٨ تاريخ ابن الوردي ٢ /١٥٠

(٤) ابن الاثير ١٢ /٤٨٣ وأنظر الذيل على الروضتين ١٥٤
ومفرج الكروب ٤ /٢٥٩ ، ٢٦٤

* ذكر ابن الوردي في تاريخه أن هذه الابيات للمعز بن عبد السلام ، وهي للملك الناصر داود وقد رواها ابنه الملك الامجد في كتابه " الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية (أو رسائل الملك الناصر ورقة ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٥) الملك الامجد ، الفوائد الجليله في الفرائد الناصرية مخط ، ورقة ٢٠٤ ـ ٢٠٥

الا أن الحملة أتجهت الى مصر ، لانها القاعدة الحربية الهامة للمسلمين ، فأرسل لويس التاسع الى ملك مصر يتهدده بكثرة جيشه وقوة فتكه ، فرد عليه الملك الصالح نجم الدين ملك مصر بأنه لا يخاف الكثرة ولا القوة ، لان المسلمين هم أرباب السيوف ، وهم أصحاب الارض وليسوا طارئين وقد أخذ يتوعده بقوله" ... فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا .. لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(١) " .

وأشرف الملك الصالح رغم مرضه على تحصين دمياط ، وعززها بالمقاتلين من قبيلة كنانة لكن الحملة كانت في غاية القوة والاستعداد فحطمت العوائق التي تعرقل مرور السفن في نهر النيل ، مما أثار الخوف في نفوس بعض أمراء دمياط ، فولوا الادبار وتبعهم كثير من الناس ، فقبض الصالح عليهم ، وأعدم منهم خمسين أميرا شنقا (٢) ، ولكنه توفي ، فقامت زوجته " شجرة الدر " مقامه ، وأرسلت الى ولده تورانشاه ليتولى أمر مصر ، في حين وقع الفرنج في الخطأ الذي وقع فيه أسلافهم ، وقد استطاع تورانشاه أن يأسر الملك الفرنسي وأخاه ، كما استولى على عساكر الفرنج ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف فارس ، وأسر من الخيالة والرجالة ما يناهز مائة ألف ثم جيء بالملك الفرنسي وأخيه الى المنصورة واعتقلا في دار فخر الدين بن لقمان(٣) ، وقد قال الشاعر بن الصرصري من بغداد يصف كثرة قتلاهم :

تركنا من الأعلاج بالسيف مطعمنـــا	ثلاثين ألفا للقشاعم والأسْـــد
ومنهم ألوف آخرون بأسرنــــا	فكم ملك في قبضنا صار كالعبــــد (*)

وقد أطلق سراح ملكهم وباقي الجند على شرط أن لا يعودوا الى مصر ، وأن يدفعوا فدية كبيرة وحين عزم لويس على مهاجمة مصر مرة ثانية ، قال ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئتــــه	مقال صدق عن قؤول نصيـــح
آجرك الله على ما جـــرى	من قتل عباد يسوع المسيــح
أتيت مصرا تبتغي ملكهـــا	حسبت أن الزمر يا طبـــل ريح

وآخرها :

دار ابن لقمان على حالهــــا	والقيد باق والطواشي صبيــــح

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ ، المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ١٤٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢٧ ورقه ١٠٠

(٣) تاريخ ابن الوردي ١٨٧/٢ ، القديس لويس جوانفيل ، ترجمة حسن حبشي ١٤٠–١٤٢ نهاية الارب ج ٢٧ ، ١٠١ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٥٩ ، رنسيمان ٤٦٥/٣

(٤) حسن المحاضرة ٣٩/٢

* في البيت الاول " مطعنا " لعلها " مطعما " والثاني ورد مكسورا " قبضتنا "

(٥) النويري ، الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ج ١ ص ١٢٤

وهكذا فشلت جميع محاولات الفرنج للاستيلاء على مصر ، فوجهوا أنظارهم نحـــو التتار ، لعلهم يجدون فيهم سندا لهم في تحقيق أهدافهم ، وقد كان من الممكن لهم ضرب المسلمين لولا التفاني فيما بينهم بحروب داخلية كان أشدها ما حدث بين البنادقه والجنوية (١) واستغل المسلمون فرصة هذا النزاع الموقوف أمام الغزو المغولي الذي اكتسح العراق، ومعظم بلاد الشام وهدد مصر (٢) ، اذ أرسل هولاكو الى قطز يطلب منه الاستسلام ، فجمع قطـــز جيشا قويا ، والتقى مع المغول في عين جالوت وهزمهم سنة ٦٥٨/١٢٥٩ *، ثم تبع الظاهـــر بيبرس فلولهم بينما سار قطز الى دمشق ، فاستقبله أهلها استقبال المخلص من أعمال التتـــار الوحشية .

* * *

وبعد ذلك تولى بيبرس حكم مصر والشام ، فهيأ الأمة للجهاد ، ثم انتقل من مصر الى الشام ، وقام بهجوم على أنطاكية لمحالفة حكامها للمغول ، ثم هاجم مملكة بيت المقدس ، فاستولى على قيسارية وأرسوف ، وقلعة صفد قاعدة الفرسان الداوية ، مما أضعف من شوكتهم وحطــــم معنوياتهم ، فعقدوا معه هدنه (٤) ، وفي سنة ٦٦٦/١٢٦٧ استولى على يافا ، وحصــــن الاكراد ، ونازل حصن عكا وملكه بالامان ، وقد حفز الشعراء على القضاء على عاصمة الصليبيــين (عكا) ، فقال أحدهم (٥) :

يا مليك الارض بشــــــرا	لك قد نلــــــــت الارادة
إن عكـــا يقينـــــــا	هو عكا وزيــــــــــادة

وبعد وفاة بيبرس تابع قلاوون عمله في القضاء على المغول والفرنج ، فبعد أن أنـــزل بالمغول هزيمة حاسمة رغم كثرتهم في حمص سنة ٦٨٠/١٢٨١ ، بدأ يوجه اهتمامه نحو الفرنـــج فاحتل حصن المرقب سنة ٦٨٤/١٢٨٥ ، وهو حصين منيع ، ولم يبق للفرنج سوى عكـــا وطرابلس وصيدا وصور وعتليت وما حولها (٦) .

---

(١) الحركة الصليبية ٢/١٠٧١ ــ ١٠٨٠ ، رنسيمان ٣/٤٨٧ ، أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ١١٠ ، عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ٢٦٦

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، وتاريخ ابن الوردى ٢/٢٠٧

* يزعم رنسيمان (الحروب الصليبية ٣/٥٧٨) ان قطز تحالف مع الفرنج لمقاتلة العـــدو المشترك ، والحقيقة أنهم عرضوا عليه المساعدة ، فرفضها لأنه لا يستعين بكافر على كافر وسبب الرفض هو أن المغول قربوا النصارى الشرقيين ، وعاملوهم بخلاف معاملة الفرنج الغربيين مما أثار تخوفهم (الحركة الصليبية ٢/١١٣٢) .

(٣) بدائع الزهور ١/١٠٥

(٤) شذرات الذهب ٥/٣١١ ، وانظر أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ١٦٣

(٥) تاريخ ابن الوردى ٢/٢١٥

(٦) عقد الجمان جـ٢٠ ق ٤ ص ٦٧٢ ، ٦٧٦ تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١٧ ، تشريف الايام والعصور ص ٤٣

في سنة ٦٨٨ / ١١٨٩ ، احتل قلاوون طرابلس ، وبذلك انحصر وجود الفرنج في الساحل فاستنجدوا باوروبا ، فجاءت حملة أيطالية ، أنتهت بالفشل وانقلبت عليهم بالوبال ، فقدهاجم رجالها المسلمين ، التجار منهم والمزارعين في منطقة عكا ، دون أن يقيموا للهدنة المعقودة بين قومهم وبين المسلمين وزنا ، فطالب السلطان قلاوون بتسليمه المجرمين ، فأعتذروا له عن أعمالهم وأنهم ليسوا من رعايا المملكة ، فلم يجد عذرهم قبولا ، وجهز جيشا لمهاجمة عكا (١) ، ولم يكد السلطان يفرغ من أعداد الجيش حتى وافته المنية ، فتولى الامر من بعده أبنه الأشرف خليل ، وامر أن يستعد المقاتلون في دمشق ليلتقوا مع أخوانهم من مصر للتوجه نحو عكا ، فخرج أهل دمشق يعدون الجيش بما يستطيعون ، وقد أشترك في ذلك كل فئات الاهالي اذ خرج الناس من فقهاء ومدرسين وعلماء وصلحاء يحملون ويجرون الالات والمجانيق ... وحاصر السلطان عكا ، ورغم تفاني الفرنج الذين بلغوا ما بين ثلاثين وأربعين الفا في الدفاع عنها إلا أن الاشرف خليل تمكن من أحتلال المدينة ، ففر الفرنج وقتل منهم خلق كثير ، والسعيد منهم من أتيحت له فرصة الوصول الى المراكب للهرب (٢) .

وقد جاء سقوط عكا زلزالا دمّر الكيان الصليبي في بلاد الشام ، فأستسلمت معاقلهم الواحدة بعد الاخرى صور ، وصيدا ، وأنطرطوس ، وعثليث (٣) ، وبذلك تكاملت فتوحات جميع البلدان الساحلية للاسلام ، وقد وصف الشعراء هذا الفتح العظيم ، وقال القاضي شهاب الدين محمود (٤) :

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحييت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك عند البر من أرب

* * * *

وهكذا أنتهى الوجود الصليبي في ديار الاسلام بعد صراع مرير دام ترابة قرنين من الزمان ، أحرزت في بدايته جيوش الفرنج نصرا مؤقتا ، في ظروف مواتية لها ولكن تبدل الظروف في بلاد الاسلام ، ثم نضوب الامدادات التي كانت تأتي من أوربا للإبقاء على الجسم الغريب في المنطقه آلا بهذا الجسم الغريب الى الموت المقدر المحتوم .

---

(١) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٠ ، رنسيمان ٣ / ٦٩١ ، تشريف الايام والعصور ١٦٧
(٢) محمد ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقه ٤٠ ، ٤٢ ، مخطوط وأنظر وصفهم في حصن التوسل الى صناعة الترسل ص ٤٦ وانظر الحركه الصليبية ٢ / ١١٨١
(٣) المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١٢٥ ، تاريخ ابن الوردي ٢ / ٣٢٦
(٤) المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١٥ ، البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣ ، البصائر ج ١ ق ٣ ، ص ٧٦٧
(٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ٣١٩ - ٣٢٠

الباب الثاني

الفصل الاول : النظرة الاسلامية للصراع

القسم الاول : صراع بين عقيدتين

القسم الثاني : صراع بين حضارتين

القسم الثالث : الصراع العسكري

أولا : الجيش الصليبي

ثانيا : الاسلحة والمعدات العسكرية

ثالثا : التحصينات

رابعا : التخطيط العسكري

خامسا : الحرب النفسية

سادسا : المعارك البرية والبحرية

القسم الرابع : الخطر الصليبي

أولا : على الارض الإسلامية

ثانيا : على المسلمين

ثالثا : على الاسلام والتراث الاسلامي

الفصل الثاني : أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية

ثانيا : الحياة الاقتصادية

ثالثا : الحياة السياسية

الفصـــل الاول

النظرة الاسلامية للصراع في الأدب العربـــي

القسم الأول : صراع بين عقيدتين :

أتخذ الصراع بين المسلمين والصليبين طيلة القرنين اللذين دارت خلالهما الحـــروب الصليبية أشكالا مختلفة ، منها الصراع العسكري ، وذلك أمر طبيعي منتظر ، لان أحد الجانبين كان غازيا ، في حين كان الجانب الآخر مغزوا في بلاده ، مهددا في كيانه ، ومنها صراع العقائد الذي يعتبر المحرك المعلن للصراع كله ، ولذا فانه يستحق من الباحث اهتماما خاصا ، ويستوجب القاء الاضواء عليه ، والجدير بالذكر أن صراع العقائد بين دولة الاسلام والدول النصرانية تمتد ابتدأ منذ معركة مؤته ، ثم بعد أن افتتح المسلمون بلاد الشام ، وقد مرت فترات كان الصراع فيها على نطاق واسع ، ولكنه كان أحيانا يتخذ طابعا محليا ، كما كانت الحال زمن الحمدانييـــن ، فالحمدانيون يهاجمون الثغور البيزنطية ، والبيزنطيون يردون على الهجوم ، ويهاجمون الثغـــور الاسلامية وبلاد الشام من ورائها ،

أما في هذه الفترة ، فقد اختلفت طبيعة الصراع وحدته ، إذ اشترك فيه من جانـــب مجموعة من الدول الاوروبية بالاضافة الى الدولة البيزنطية ، ومن جانب آخر مجموعة من الامارات الاسلامية قبل أن تتوحد هذه الامارات زمن نور الدين ثم زمن صلاح الدين ،

وقد هـــدفت الجموع الفرنجية والبيزنطية الى احتلال القدس وطرد المسلمين من المنطقة وهذا ما أدركه ابن الاثير في معرض حديثه عن متابعة الفرنج لحرب المسلمين في أفريقيا ، اذ قال لهم ملك صقلية " اذا عزمتم على جهاد المسلمين ، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلصونه من أيديهم ، ويكون لكم الفخر " (١) ،

وهذا ما أشار اليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فهم كانوا يرون أن الحرب دينية هدفها احتلال الارض المقدسة وما حولها من بلاد ، ولذلك نبهوا الى خطورة الوضع وحثوا على الوقوف في وجه المحتلين ، وتمثلوا الرسول يستصرخ كل مسلم وعربي لكي يدافع عن الدين لانه بسقوط الارض المقدسة ، اصبح الدين واهي الدعائم ، يقول ابو المظفر الابيوردي في ذلك :

يكاد لـهن المستجن بطيبـــة * ينادي باعلى الصوت يا ل هاشـــــم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدى * رماحهم ، والدين واهي الدعائـــــم (٢)

---

(١) الكامل ١٠ / ١٤٧

(٢) نهاية الارب ٥ / ٢٢٦ ، ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٥٨٥ ، النجوم الزاهره ٥ / ١٥١

* المستجن بطيبة : أي المدفون في المدينة ، وهو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام

وقال شاعر آخر (١) ، يصف ما أحدثه التتار (الفرنج) بالاسلام والمسلمين من قتل وتشريد وهتك للاعراض :

أحل الكفر بالاسلام ضيمـــــا ... يطول عليه للدين النحيـــــب
فحق ضائع وحمى مبـــــاح ... وسيف قاطع ودم صبيـــــب
وكم من مسلم أمسى سليبـــــا ... ومسلمة لها حرم سليـــــب

ويقول ابن الخياط (٢) محذرا ومنذرا :

الى م وقد زخر المشركـــــون ... بسيل يهال له السيل مــــدا
تراخون من يجترى شـــــدة ... وتنسون من يجعل الحرب نقـــــدا *
أتوما على مثل حد الشفـــــاة ... ونزلا وقد أصبح الامر جـــــدا **

وقد تجاوزت أطماع الغزاة بلاد الشام ، فأحتاوا الرها ، وتطلعوا الى غيرها من ديار الاسلام فيما وراء بلاد الشام ، من أجل الاحتلال والاستيطان ، وتغيير صبغة البلاد الحضارية والدينية ، وما دام هذا هو هدفهم ، فمن الطبيعي أن يغضبوا اذا سمعوا الاذان ، وأن يضربوا الناقوس غيظا ، حتى عندما يكونون في أحرج الاوقات ، فحين أستولى صلاح الدين على القدس جمعهم ليخلي سبيلهم بعد دفع الفدية ، فحان وقت صلاة الجمعة ، فلما سمعوا الاذان أزدادوا غيظا الى غيظهم (٣) ، وبعد أن تم نقلهم الى صور ، وطهرت البلاد منهم ، وأقيم الاذان ، ثارت ثائرتهم ، وأوفدوا الى الغرب من يحرضهم على القتال (٤) .

وقد أعتبر المسلمون غزو الفرنج لديارهم حربا دينية منذ البداية ، فطالبوا بالوحدة والجهاد ، وظهرت ردة الفعل هذه في الادب العربي ، فهذا عرقلة الكلبي يمدح حاكم دمشق (مجير الدين ابق بن محمد بن بوري من طغتكين) ويعتبره المقاتل الوحيد عن الدين ضد الفرنج الغزاة (٥) ، :

من قاتل الافرنج دينا غيـــــره ... والخيل مثل السيل عند المشهـــــد

فقتال المسلمين للفرنج أتخذ طابعا اسلاميا شاملا ولم يعد قتالا محليا ، وقد اشترك فيه مسلمون من البلاد المختلفه ، وها هو طلائع بن رزيك الوزير الفاطمي يفتخر من مصر بقتاله الفرنج فيقول (٦) ، :

وما نحن بالاسلام المشرك هـــــازم ... ولكننا الايمان الكفر هـــــادم

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ ـ ١٥٢ ، لم تذكر المصادر اسمه

(٢) ابن الخياط ، ديوانه ص ١٨٤

(*) تنسون : من نسأ بمعنى أجل ، النقد : النغم الضعيفة .

** قال خليل مردم في هذه القصيدة لعلها أول قصيدة قيلت في الحروب الصليبية ، وقد قيلت سنة ٥٠١ كما جاء في الديوان ص ١٨٢ وأرى أن قصيدة الابيوردي وقصيدة الشاعر المجهول قد قيلتا قبلها : اذ قيلتا بعد سقوط القدس ٤٩٢ هـ .

(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٧

(٤) رسائل ابن الاثير ، جمع أنيس المقدسي ص ٥٤

(٥) صبح الاعشى ٦ / ٥٢٨

(٦) ديوان عرقلة الكلبي ص ٣٦

كما وقف ابن منير في دمشق يمدح نور الدين ويفخر بأعماله ضد الفرنج مرات كثيرة ، ومن هذه المواقف قوله :

أخلى ديار الشرك من أوثانهـــــا ، حتى غدا ثالوثهن مكسيرا

وفي بغداد امتدح ابن التعاويذي صلاح الدين الذي هب ينافح عن الدين حتى غادر الاعداء ما بين قتيل وجريح وخائف يترقب الموت يقول :

وغضبت للدين الحنيف ولم تـــزل ، في الله ترضى مذ كنت وتغضب
غادرت أهل البغي بين مجــدل ، لقى الحسام وخائف يترقب (١)

وترددت هذه الاصوات على مر السنين معلنة ان الشام للاسلام ، ومهما ظهر للباطل من سطوة وغلبة ، فان الحق يدفعهما ، يقول ابن سناء الملك :

الشام للاسلام دار القـــرار ، وكان من قبل طريق الفرار
فيا أمان الكفر لا تأمنـــوا ، بالدار ، فالشام لكفر بــدار (٤)

وفي الفترة الاخيرة من قتال الفرنج حين تم النصر المؤزر للمسلمين ، يقول شمس الدين محمد بن الحسن الغزاري مخاطبا الاشرف خليل بن قلاوون في فتح عكا :

واعدتها للمسلمين ولم يكــن ، منهم ترى التطهير الا بالـدم (٥)

وفي طرد آخر جندي صليبي من ديار الشام يقول شهاب الدين محمود :

الحمد لله زالت دولة الصلـب ، وعز بالترك دين المصطفى العربي (٦)

هذه مجرد أمثلة توضيحية ، تدل على أن الصراع كان دينيا لدى الطرفين ، وان تشكك بعض الادباء والمؤرخين في أدعاءات الفرنج فيما يتعلق بأهدافهم الدينية في المنطقة ، لانهم باسم المسيح دمروا البلاد وخربوها ، وباسم الصليب ذبحوا الالاف في كل بلدة دخلوها ، مما أثار الشكوك حول تمثلهم لمبادئ دينهم ، يقول ابن القيسراني :

سروا لينتهبوا الاعمار فانتُهِبـوا ، قتلا ، ويغتنموا الاموال فاغتُنِمـوا (٧)

ويذكر ابن الاثير (٨) أنهم أجتمعوا لقصد مدينة حماة طمعا في النهب والغارة ، فخربوا القرى ونهبوها وأحرقوا وأسروا ..

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ص ١٤١ — (٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٠٦
(٣) ديوان سبط بن التعاويذي ص ٢٤ — (٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٢/٨٣
(٥) جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقة ٤٨ مخطوط
(٦) المصدر السابق ورقة ٥٩
(٧) الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٤١
(٨) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٤٥٠

هذه الاعمال وغيرها لو قُدّر للمسيح عليه السلام أن يراها لما رضي عنها ، كما يقول طلائع بن رزيك في أعمالهم في المسجد الاقصى :

نزلت وسطه الخنازير والخمر ويباري الناقوس فيها الصليب (م)
لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منسوب (١)

ويقول جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الذي غزا مصر سنة ٦٤٧ عن بعض رجاله بأنهم ذهبوا الى أرمينية للمشاركة في الاسلاب والاسهام في القتال (٢)

الا ان ذلك كله ، لا يعني غياب الروح الدينية بين الصليبيين وقد أبرز الادباء معتقدات هؤلاء الغزاة ، وأحاطوا بها لطول الفترة التي استغرقتها الحروب وما تخللها من مهادنات أتاحت للمسلمين فرصة لتعرف على أحوالهم وممارساتهم (٣) ، يقول الملك الامجد : " ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الذي تنزه عنه الله الاحد الواحد (٤) " .

وقد تعرض الادباء لفكرة الاقانيم الثلاثة لاسيما الاقنوم الثاني وهو الابن ، لأنه سبب الخلاف ، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح عبد لله ، بينما يعتقد النصارى أنه ابن لله ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ حين كان من الامير معين الدين أنر (وصي دمشق) عند الصخرة فجاءه فرنجي وسأله : " تريد تبصر الله صغيرا " (هكذا) ؟ قال نعم ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : " هذا الله صغير (هكذا) (٥) .

ويقول العماد في معرض حديثه عن صفد : " وطالما مكث فيها المشركون ، وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن وتنشق الارض وتخر الجبال هدا " (٦) .

وهم يعتقدون أن عيسى عليه السلام - قد صلب في كنيسة القيامة ، ودفن بعد الصلب ، ثم قام بعد ثلاث من القبر ، وصعد الى السماء ، وقد مثلوه على خشبة مصلبة ، وأخذوا يعبدونه ويتقربون به الى الله ، يقول ابن الاثير في رسائله " ولطالما أبتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فليحظوا منه في معرفة الانتصار (٧) " وفي معركة حطين ، وقع الصليب الذي كان الفرنج

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣
(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ص ٨٩ ، ترجمة حسن حبشي
(٣) صبح الاعشى ١٣ / ٣١٣ ، وابن الفرات ٧ / ٢٢١
(٤) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩١ مخطوط
(٥) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ص ١٣٥
(٦) العماد ، الفتح القدسي ص ٢٦٩ ، وأنظر المغني ٢ / ٢١١ ، العماد في الفتح ١١٨-١١٩ وعقد الجمان ق ١ ج ١٧ ص ٩٣
(٧) ابن الاثير ، رسائله ص ١٥٢

يرون أنه الصليب الحقيقي ، في أيدي المسلمين وفي ذلك يقول ابن سناء الملك :

ظل معبود هم لديك أسيرا … مستضاما ، فأجعل له النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم … من رئي بعد صلبه قط أغنى (١)

بل لقد تحداهم ابن مطروح بان يعودوا الى مصر ، فيلقوا مصيرهم المحتوم ، ومصير قائدهم لويس التاسع ، واذ ذاك سيسر عيسى عليه السلام :

ردك الله الى مثلها … لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا … فرب غش قد أتى من نصيح (٢)

وقد ذكر ابن منير (٣) ، قبل ذلك أن عيسى عليه السلام يستنجد بنور الدين ليخلصه من شرور الغزاة ؛

حتى نرى عيسى من القدس قد … لجا الى سيفك مستنصرا

وكثيرا ما يعرض الشعراء المسلمون لموقف الصليبيين من السيد المسيح وعقيدتهم منه ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك : ابعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب " .

ويقول راجح الحلي في تسميتهم بعباد عيسى :

أعباد عيسى ، ان عيسى وحزبه … وموسى جميعا يخدمون محمدا (٦)

والجدير بالذكر ، أن عيسى وموسى المشار اليهما هما أخوا الملك الكامل محمد ، المذكور في نهاية البيت ، ويقول ابن مطروح مخاطبا الملك الفرنسي لويس التاسع :

آجرك الله على ما مضى … من قتل عباد يسوع المسيح

ويقول الشهاب محمود (٧) :

أغضبت عباد عيسى اذ أبدتهم … لله أي رضى في ذلك الغضب

وأما تسميتهم بعبدة الصليب ، فقد جاءت عند العماد في معرض كنيسة اللاذقية يقول " :
" وزينت لاخوان الشيطان ، وعبيت لعبدة الصلبان (٨) " ، كما جاء في عقد الجمان في معرض حديثه عن ملك فرنسا ، حيث وصل الى هنا في ست بطس ، ملعونة ، بعبدة الصلب مشحونة (٩) "
وجاءت في كتاب فاضلي الى صلاح الدين يحثه على قتالهم " والى أن يصرعهم على الجذوع صلبا فيكونوا عبدة صلبان كالصلبان والى أن يحرقهم في دعائمهم في طوفان (١٠) " .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٨١٦ (٢) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٣) مفرج الكروب ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٢٠٦ (٤) ديوان طلائع بن رزيك ٦٢
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ / ٩٥ ، وفي السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٦
(٦) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٧) جواهر السلوك ورقة ٦٠ مخطوط ابن الفرات ٨ / ١١٦
(٨) الفتح القسي ص ٢٢٨ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٨٣ ، ٢١٥
(٩) العيني ، عقد الجمان ق ٨ ج ١٧ ، ق ١ ورقه ١٠٦ مخطوط
(١٠) ابن نباته ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٦٦ مخطوط

وقد وردت هذه التسمية في الشعر أيضا ، يقول فتيان الشاغوري في مدح صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاشـــــا وأباد من عبد الصليب وغاشـــا (١)

وقد سموهم أيضا عباد الأصنام ، ومن ذلك ما جاء في تقليد العادل أخي صلاح الدين حكم مصر والشام وحثه على قتال المشركين " إذ في ذلك حسم لمادة الأطماع في بلاد الاسلام ، ورد لكيد المعاندين من عبدة الاصنام (١) .

وقد أبرز الادباء المسلمون تعظيم الفرنج لكل ما يتعلق بالسيد المسيح كما يعتقدون فيه حسب رأيهم ، وكذلك تعظيمهم للصليب ، والاماكن التي ترتبط بعقيدتهم .

أما تعظيم للصليب ، فقد أطال الأدباء الوقوف عنده ، لأنه مرتبط بعقيدة النصارى عامة ، فهو رمز للخشبة التي صلب عليها السيد المسيح ، كما يرون ، وله عندهم قيمة كبيرة فاذا كانوا في معركة ، التجأوا اليه يستنزلون النصر من عنده ويرجون منه الفوز .

يقول الفاضل في معرض حديثه عن أسر ملك القدس " .. وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصلة بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت (٢) " ، ثم يذكر أهميته لديهم في المعركة فيقول " .. فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه " (٣) .

وقد أورد العماد هذا المعنى في معرض حديثه عن معركة عكا وذلك حين يقول " وأصبح الفرنج ... وقد رفعوا الصلبان ، وزحف أسودهم في غاب المران ، ومالوا نيرانا عقبانا على عقبان " فيحفون عن الصليب " .. ويقفون دونه الفرج ويطلبون به الفرج " (٤) ولذا فلا غرابة في اعتنائهم به ، واطاعتهم لحامله ، وللذي يحمله ، بل ان مصابهم به أعظم ، يقول العماد : " وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ... فاذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا اليه وانثالوا عليه ، ولا يسع لاحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك (٥) .

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٦٦

(١) صبح الاعشى ١٠/١١١

(٣) صبح الاعشى ٦/٤٩٩ ــ ٥٠٠ و ٨/٤٨٦ وانظر الروضتين ٢/٧٩ ، ٨٩ ، ١٨٦ وانظر الانس الجليل ١/٣٤٢

(٤) الفتح القسي ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٤٨

(٥) الفتح القسي ، ٢٨٨ ، ٣٩٧ ، ٤٨ ، وانظر حملهم للصليب في الروضتين جـ١ ق ١ ، ١٥١ وانظر الكامل ١١/٥٣٥

وأما رفعه على الأماكن، فقد كانوا يختارون المكان المشرف ليشاهد فيه، وفي هذا تعظيم له، وقد ذكر ابن شداد في فتح القدس أنهم وجدوا الصليب على قبة الصخرة وكان شكلاً عاليا (١)، وهذا ما حدث فعلاً حين دخلوا مدينة الجسر، فصلّم كل واحد منهم صليبه على دار، وركز عليها رايته، والراية عندهم قطعة قماش بيضاء ملمعة بالصلبان الحمراء، ومن دلائل تعظيمهم للصليب، أيضا، أنهم يحلفون به بعد الله والمسيح، ثم يكررون الحلفة بعد الاقانيم الثلاثة، وقد جاء ما يثبت ذلك في نسخة يمين حلف عليها الفرنج وهي "والله، والله والله، وبالله، وبالله، وبالله — وتالله، وتالله وحق المسيح ... وحق الصليب وحق الصليب، وحق الصليب، وحق الاقانيم الثلاثة من جوهر واحد، (٣)، المكني بها عن الاب والابن والروح القدس، اله واحد، وحق الصليب الكريم الحال في الناسوت ..."

وقد أشار الشعراء الى هذا التعظيم، ومنهم ابن القيسراني الذي عاش بينهم فترة من الزمن، خبرهم خلالها، وتبين بعض عاداتهم، ومنها تعظيم الصليب، يقول (٤) :

أمعظمةَ الصليب وددتُ أنّي ... ودين الله عندكمُ صليب
إذا أقبلتُ تقبلني حبيب ... أسرّه وعانقني حبيب

وقد عظموا كذلك المكان الذي اعتقدوا أنه صلب فيه، وهو كنيسة القيامة، لأنهم يعتقدون ان المسيح صلب فيها، وحل اللاهوت بالناسوت فيها أيضا، يقول العماد نقلا لما كانوا يعتقدونه في تلك الكنيسة "وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم (٥)

ومن الأسباب التي جعلتهم يعظمونها، اعتقادهم بان النور ينزل من السماء فيها، وقد روى ابن واصل أنه شاهد هذه "الشعلة" في كنيسة القيامة بعد يوم الفصح، ويقول "ويزعمون أنها تقع في كل سنة في هذا المكان، وفي كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصحهم (٦)" وكذلك اعتقادهم أنها مكان القبر، يقول العماد على ألسنتهم" ... فهذه قمامتنا فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصح ندامتنا ..."(٧)

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية ٨٢
(٢) الاعتبار ص ١٨٤
(٣) صبح الاعشى ١٣ / ٣١٢، وأنظر الفتح ٥٥٦
(٤) ديوان ابن القيسراني، ورقه ٦٤ مخطوط
(٥) الفتح القسي ١١٨
(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١
(٧) الفتح القسي ١١٨

ومما جعلهم يعظمونها أيضا ، احتواؤها على مجموعة من الصور الدينية " ففيها صور الحواريين في حوارهم ، والأحبار في أخبارهم ، والرهابين في صوامعهم ، والاقساء في مجامعهم" ، وقد أضافوا اليها بعض التماثيل ، وملؤوها بصور ومنها صور الأنعام المرسومة في الرخام (١).

لذا لم يكن مستغربا أن يبذل الأفرنج ما بذلوه للمحافظة عليها ، والدفاع عنهـــا ، لأنهم يعتقدون أن كرامتهم من كرامتها ، وسلامتهم من سلامتها ، واذا ما تخلوا عنها " لزمت لآمتنا ، ووجبت ملامتنا "(٢) بل لم تطب نفوسهم بفراقها حين استعادها صلاح الدين وقالـــــوا " دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا تفوت (٣) " .

ومن الطبيعي بعد هذا التعظيم أن يقدسوا ترابها ، ويستنصروه في أوقات المحـــن ، يقول ابن الأثير ، " فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم ، وتشيل نعامتهم ، ولطالما أبتهلـــوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار (٤) "

وقد أضفى الفرنج هذه القدسية على بيت المقدس عامة ، لأنه "بيت معبود هم ، ومحل تجسد ناموسهم كما زعموا بلاهوتهم (٥) " وفيه كنيسة القيامة التي يعتقدون ان المسيح دفن فيها بعد صلبه ..

ولم يكن تقديس الفرنج للقدس وقفا على من تقدم منهم ، بل لقد عظمها الفرنج في صقلية وفي أوروبا ، واشتروا قطعا من صخرتها بوزنها ذهبا كما قيل (٦) .

وقد استنصر الفرنج بالقدس وكنيسة القيامة ، واستغاثوا بها بعد أن كسرهم صلاح الدين في موقعة حطين ، فاجتمع اليها " كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها من الله شافعتهم (٧) .

وهم لهذا يفدونها بأنفسهم ، بل يرون أن الموت أيسر عليهم من أن تقع في قبضـــة المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يدور حول المدينة خمسة أيام لاختياره المكان المناســـب للهجوم ، ولكنه لم يجد ثغرة يدخل من خلالها ، وأخيرا جاءه وفد من الفرنج يطلب منـــه السماح لهم بمغادرتها بسلام ، وهددوه ان لم يجب دعوتهم ، وقالوا كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرة بمئتين " (٨) .

---

(١) الفتح القسي ١١٩
(٢) الفتح القسي ١١٨ ، الروضتين ٢/ ٩٢
(٣) الفتح القسي ١١٩
(٤) ابن الاثير ، رسائله جمعها أنيس المقدسي ، ١٥٦
(٥) مفرج الكروب ٢/ ٢١١ ، الكامل ١١/ ٥٤٧
(٦) الانس الجليل ١/ ٣٣٩ ، الروضتين ٢/ ١١٢
(٧) صبح الاعشى ٦/ ٥١٥ ، ٨/ ٢٨٤ ، وأنظر الانس الجليل ١/ ٣٤٢
(٨) الروضتين ٢/ ٩٤ ، وأنظر مفرج الكروب ٢/ ٢١١ ، الكامل ١١/ ٥٤٧ ، الانس الجليل ١/ ٣٣٩

وقد عظّم الفرنج بعض المدن الاخرى مثل : عكا والرها ، يقول القاضي الفاضل عن عكا " وهي قسطنطينية الفرنج ، ودار كفرهم ، أبدلها الله أسلاما ، وخلع عنها الشرك البالي، وخلع عليها من التوحيد أعلاما (١) " ووصفها العماد بأنها مركز ملكهم ، ومحور تجمعهم من البر ومن البحر .

وأما الرها فهي من أشرف المدن عند النصارى ، وأحدى المراكز الهامة عندهم ، وقد قاتلوا فيها قتالا شديدا وما أستطاع عماد الدين فتحها الا بنارين الحرب والخديعة كما يقول ابن القيسراني :

فأضرمها نارين : حربا وخدعة ... فما راع إلا سورها وانهدامه (١)

وحين سقطت بيد عماد الدين ثم بيد أبنه من بعده ، كانت مفتاحا لفتح البلاد الأخرى يقول أبن القيسراني :

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ... ممالكها إن البلاد بلاده (٢)

ويقول الشهرزوري :

فتح الفتوح مبشرا بتمامه ... كالفجر في صدر النهار الأيسر (٣)

ويقول ابن منير :

وغدا يلفي على القدس لها ... كلكل يدرسها درس الدرين (٤)

وما يتصل بمعتقداتهم تعظيمهم لرجال الدين : البابا ، والبطرك ، والقس ، والرهبان وقد بين الادب أهمية بعضهم ، فالبابا يخطط لغزو البلاد الاسلامية في الشرق ولو أزهقت الارواح وأنفقت الاموال ..

ورام باباهم أمورا ... فما خلفت ظنه المقادر (٥)

وأما البطرك فله شأن خاص لأنه مرافق للجيوش ، ومطبق للدين ، فهو معظم أيما تعظيم كما يروي ابن واصل (٦) ، فقد ذكر أنه شاهد مجموعة من الفرنج تعكف على القبة الصغيرة التي فيها القبر .. حتى كان وقت الظهر أو بعده ، فوصل البطرك القبة وأخرج شمعة موقدة ، وزعم أنها من القنديل الذي أشتعل بالنور المنزل من السماء ، وقام الموجودون بأشعال الشموع المهارق من تلك الشمعة ، دون أن يسمحوا لانفسهم بالتفكير في النور النازل من السماء ، دون أن يروه وكيف يسمحون لانفسهم بذلك وهو عندهم بمنزلة تفوق منزلة الملك (٧) .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٤
(٢) الروضتين ج١ ق ١ ص ٩٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨
(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠٢
(٥) فوات الوفيات ١ / ٨٤
(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١
(٧) المصدر السابق ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٥٤٧

ويلتقي دور البطاركة مع دور القساوسة في التحريض على القتال والسير أمام المسلمين ، وقد ظهر هذا الدور بجلاء في حصار عكا سنة ٥٨٦ ، اذ قام المصورون برسم صورة قبر المسيح وعليه فارس مسلم يطؤه ، وعمد رجال الدين الى أظهار هذه الصورة " وراء المحرفي الاسواق والجامع ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح " (١) وقد أثرت هذه الصورة في نفوس النـــاس تأثيرا كبيرا ، فهاج بذلك خلائق كثيرة ،وتجهزوا في جميع مناطقهم بالمراكب والكتائـــب ، وخرج الاساقفة طاعة لقسيسهم ، وأمثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم وتحرقا على قمامتهم"(٢) " .

ومما قدمه رجال الدين للحركة الصليبية ، ما قام به أحدهم في أنطاكية سنة ٤٩٢ هـ والمسلمون محدقون بهم ، اذ اخفى حربة وأخبرهم ان الحربة المقدسة مدفونة قرب أنطاكية وأنهم ان وجدوها فسيكون النصر لهم ،وحين وجدوا تلك الحربة ، عادت اليهم ثقتهـــم، وحاربوا المسلمين وهزموهم . (٣) .

وحين أسر صاحب شقيف أرنون مع من أسر من الملوك في معركة حطين ، قام صـــلاح الدين بمحاصرة بلده ، وأصطحبه معه ليأمر من بها فيسلمها الى صلاح الدين مقابل اطـلاق سراحه " فخرج اليه قس قاسه باسر عن باس ، فحادثه بلغته ، وناقشه في كارثه بغلتـــه وتحاوروا في السر ، وتشاوروا في الشر ، وكأنما أمره بالتجلد ، وصبره على التشدد (٤)

وأما الرهبان فقد قام بعضهم بدور عسكري ،وانقطع آخرون الى الرهبنة ، ويصـــف ابن الاثير في رسائله جماعة منهم فيقول " ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها ، وخصصت الشعر عن أوساط رؤوسها ، وتوحشت بالرهبانية حتى أرتاعت من أشكالها ولبوسها (٥)

هكذا وصف الأدب العربي معتقداتهم ، فهم يعتقدون بالأقانيم الثلاثـــــــة ويعظمون ما يتصل بها من أشياء وأماكن وأشخاص ، ولهذا وصفهم الادباء العرب بالشرك في مواطن كثيرة جدا حتى لا يكاد يوجد ديوان يخلو من هذا الوصف تصريحا أو تلميحا ، يقول ابن الخياط في معرض مدحه أحد مقدمي دمشق

الى م وقد زخر المشركـــــــون ... بسيل يهال له السيل مـــــــدا(٦)

ويقول ظافر الحداد في مدح الامام الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ)

لا بد للشرك من يوم تميد لــه ... فيه سيوفك فعل الريح في عاد (٧)

---

(١) الروضتين ١٧٢/٢ (٢) المصدر السابق ١٦١/٢

(٣) الكامل ٢٧٧/١٠ ، من تاريخ الحروب المقدسة ١٢٢/١

(٤) الفتح القسي ٢٨٨

(٥) رسائل ابن الاثير ، جمع انيس المقدسي ص ١٥٤

(٦) ديوان ابن الخياط ١٨٤ وانظر ٢٢٩

(٧) ديوان ظافر الحداد ١١٣

يقول ابن القيسراني :

حتى اذا ما احاط المشركون بنـا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلـم
وأقبلوا لا من الأقيال في عـدد ... يؤد حاسبه الاعياء والسأم (١)

ويطول المقام لو توقفنا عند كل مثل *• وكما وصفوهم بالشرك وصفوهم بالكفـر، وقد جاء هذا الوصف في مواطن كثيرة أيضا ، منها قول ابن دنينير :

بدد ت جمع الكفر وهو مؤثـل ... منهم بحزم في الأمور رشيـد (٢)

وقوله :

وأمحق الكفر حتى ذل جانبـه ... والأرض قد آذنت منه بإلحـاد (٣)

وقول ابن سناء الملك مادحا صلاح الدين :

أقام بدار الكفر تجبى له الجـزا ... وتودى له القتلى وتسبى لها الجنى (٤)

وقوله :

لقد أصبح الاسلام والكفر كلمـا ... بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنـا (٥)

ويقول أسامة مخاطبا طلائع على لسان نور الدين ، ذاكرا فتوحاته ، وانتصاراته على الفرنج :

فلما استمدناها من الكفر عنـوة ... ولم يبق في أقطارها لهم أثـر
رددنا على أهل الشآم رباعهم ... وأملاكهم فانزاح عنهم بها الفقر (٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١

* وأنظر ما يلي عقد الجمان ج ٢٢، ق ١ ، ص ١١٦ ، وديوان ابن القيسراني ورقة ٧١ مخطوط ، والروضتين ٢ / ١١٦ ، والخريدة قسم مصر ج٢ ، ١٧١ وديوان ابن دنينير ص ٢٠ ، ١٥ ، ١٧٤ وانظر ديوان ابن التعاويذي ٢٤ ، وديوان علم الدين ايدمسر المحيوي ، ١٥ ، وديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ، ص ٣٩٦ وديوان ابن فتيان الشاغوري ٦٩ ، ٢١٨ ، ٤٢٨ ، وديوان ابن الدهان ٢٢ ، وانظـر الروضتين ج١ ق ١ ص ١٤١ ، ١٨٠ ، ٢١٦ ، ج١ ق ٢ : ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٤٠٤ ، ٥٢٩ ، ٦٤٣ ، ٦٩١ ، ٧٠٣ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣٢ وانظر الخريدة قسم شعراء دمشق ٢٨ : ٤٠ ، ٩٦ ، ٥ ، شعراء الشام ج١ ، ١٧٩ ، ٢٧٧ ، ج ٢ / ٢٨٣ وانظر قسم مصر ٢ / ٢٣٢ ، وانظر ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ١ ، ٣٩٢ ، ٤٥ ، ٥ مجلد ٤ ج ٢ ، ٢٥٧ وانظر الفتح ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ابن الاثير ١١ / ٤٥٥

(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٠ (٣) المصدر السابق ورقة ٨ وأنظر ١٧٦٥

(٤) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٨

(٥) المصدر السابق ص ٧٥٩ ، انظر ٢٨٣ ، ٢٥ ، ٥٤٦

(٦) ديوان اسامة بن منقذ ٢٠٥ وانظر ٢٠٣

وتقول طلائع من رسالة شعرية بعثها الى أسامة طالبا منه حث نور الدين على الجهـــــاد :

وأهم الأمور أمر جهـــاد الكفـــر فاسمع فعندنا التحقيـــــق
واصلتهم منا السرايا فاشجاهم بكور منا لهم وطـــــروق (١)

وتقول ابن عنين في رثاء الملك المعظم عيســـى :

أجليت ليل الكفر عنها فانطــــوى — وأنرت في عرصاتها فجر الهــــدى
ولقد شهدتك يوم قيساريــــة — والشمس قد نسج القتام لهـــا ردا
والكفر معتصم بسور مشـــرف الأبـــرا — ج أحكم بالصفيح وشيـــدا
فجعلت عاليها مكان أساســـها — وألنت للأخشاب فيها الجلمـــدا (٢)

ويقول بهاء الدين زهـــير :

بلم أهتز عطف الدين في حلل النصـــر — وردت على أعقابها ملة الكفـــر (٣)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح آخر معقل لهم وهو عكا :

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربـــت — في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٤)

ويقول البوصيري في المنصور قلاوون :

لقد جعلت داوية الكفر بأســـه — وغيرهم بالمسلمين غـــرور (٥)

وقولـــه :

قد أخذ المسلمون عكـــا — وأشبعوا الكافرين صكـــا (٦)

ويقول شرف الدين الأنصاري :

من بعد ما حاد أملاك الطوائف عــن — حفظ البلاد وألقوا بالمقاليـــد
رجا بنو الأحد الكفار عودهـــم — بالفوز عن رب إخلاص وتوحيـــد (٧)

وأما في النثر فثمة أمثلة كثيرة أيضا ، ومنها قول العماد " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا " وقوله أيضا عن رتشارد " ولما حضر الكافر عقر وكفر ، وتروى ساعة وتفكر " . " وقوله في فرنج جبلة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في التحين الى التحصين .. " (٨) ، والأمثلة كثيرة يصعب احصاؤها (٩) .

---

(١) ديوان طلائع ١٠٣ ، وانظر ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٤
(٢) ديوان ابن عنين ص ٦١ — (٣) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٢١
(٤) جواهر السلوك ص ٩٥ ، ٢٢١ — (٥) ديوان البوصيري ص ٦٦
(٦) ديوانه ص ٢٢١ — (٧) مفرج الكروب ٤/٣٠٥
(٨) الفتح القسي ٧٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٣
(٩) انظر على سبيل المثال المصادر التاليه : ديوان ابن النبيه ٦٦ وديوان ابن مطروح ١٨٢ وديوان ظافر الحداد ٣٦ ، ١١٧ ، ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٢٠٥ ، ٢٨٢

وما دام شأنهم كذلك ، فقد تبرأ الادب من عقيدتهم هذه بألفاظ التنزيه لله عز وجل (١) ، واستخف آراءهم ، وبين أخطاءهم بالحجة الدامغة والأدلة المقنعة ، وطالبهم بإثبات الأدلة على أقوالهم ، لأنه بإمكان كل فرد أن يقول ما يشاء ، ولكن هذا القول لا يصدق إلا بدليل مقنع، يقول البوصيري :

والدعاوى ما لم تقيموا عليهـــــا	بيّنات أبناؤها أدعيـــــاء
ليت شعري ذكر الثلاثة والـــــوا	حد نقص في عدكم أم نمـــاء
كيف وحدتم إلهاً نفى التوحـــــيد	عنه الآباء والابنـــــاء
أإله مركب ما سمعنـــــا	بإله لذاته أجـــــزاء (٢)

فهو يستند الى تاريخ عقيدتهم حيث كان آباؤهم يؤمنون بأن الله تعالى مكوّن من أجـزاء بينما هم يوحّدون هذه الاجزاء ، ثم يستند الى دليل منطقي في أثبات خطئهم ، وهـو أن الله لا يجزأ ، ولا يجوز عليها النقص ، وبذلك لا يكون إلهاً ، ثم يجادلهم في قولهم ، ليرى الى أي حد ينتهون ، فيسألهم بأسلوب شعري سهل ، عن توزيع الملك بين أصحابه ، ان كانوا صادقين ، يقول :

ألكلٍّ منهم نصيب من المـــلك	فهلّا تميّز الأنصبـــــاء
أم هم حملوا بها شركـــة الأشـ	ـراك أم هم لبعضهم كفـــاء
أتراهم لحاجة واضطـــــرار	خلطوها وما بغى الخلطـــاء
أم هو ابن لله ما شاركتـــــه	في معاني النبوة الانبيـــاء

ثم يبين تناقضهم بين أمرين ، فهم يقولون إن السيد المسيح إله ويقولون في الوقت نفسه إنه قتل ، فكيف يجوز هذا ؟ .

قتلته اليهود فيما زعمتـــــم	ولأمواتكم به أحيـــــاء

← وأنظر ديوان ابن الساعاتي ١٤٥/١ ، وعقد الجمان جـ٢ق ٤ ،ورقة ٧١١ مختصر الخريدة : (شعراء دمشق ٤١٤ ، ٩٩ ، شعراء الشام ٢٣٥ ، ٤٩٥ ، شعراء مصر ٦٩/١ ، ١٠٥ ، ٢٤٣ ، شعراء العراق ١٤٧/٢) ، الروضتين جـ١ ق ١/١٥١ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ ، وجـ١ ق ٢ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٦٦ ، ٥١٩ ، ٥٧٩ ، ٦٩٥
مفرج الكروب ٥٧/٢ ، ٧٧/٣ ، ٢٢١/٤
الكامل ٦٣/١٠ ، ١٣٤/١١ ، ٣١٨ ، ٤٧٠ ، ٥٣٣
الباهر ٢ ، تاريخ ابن الفرات مجـ١١٤/٨ ، ١١٨ ، الفوادر السلطانية ٢٢
السلوك جـ١ ق ٣ ، ٣ ، ٧٦٦ ، الاعتبار : ٣٦ ، ١٢٥
النكت العصرية ٢٦٩ ، ٣٠٠ ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ٦٧
تاريخ ابن القلانسي ، ٣٤٣٥ ، العماد ، الفتح القسي ، ٥١ ، ٧٨ ، ١٠٩ ، ١٧٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٧١

(١) الاعتبار ١٢٥
(٢) ديوان البوصيري ١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢

ويتابع البوصيري حجاجهم فيسأل إن كان المسيح قد قتل حقا ، فمن ذا الذي يدبر الوجود ؟

يا ليت شعري حين مات بزعمهم ... من كان بالتدبير عنه كفيلا

هل كان هذا الكون دبر نفسه ... من بعده أم آثر التعطيلا ؟

والملاحظ أن البوصيري قد استند الى أدلة عقلية وتاريخية ودينية في جدله ومحاوراته . وفي المقابل أتهم الفرنج المسلمين بأنهم وثنيون ، ويلاحظ ذلك من قصة التاجر نور الدين علي ومريم الزنارية (١) ومع ذلك فقد وردت أوصاف لهم بأنهم يتسترون بالدين بل يتلاعبون بالنصرانية ،ومن ذلك ما يورده العيني عن الملك غرديك بأنه كان دهريا يتلاعب بالنصرانية (٢) ،ويؤكد هذا القول وصف فيشر له بأنه شخصية ملؤها التقلب والحيلة ، اذ كان يصطنع المسلم واليهودي وكان يظهر بمظهر الرجل الشرقي ، علما بأنه ألف كتابا أسمه :الادعياء الثلاثة (٣) ، وقصد بهم الانبياء موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم .

ولم يتوقف أدب هذه الفترة الخاص بصراع العقائد عن الوصف المجرد ، بل تعدى ذلك الى السخرية والاستهزاء ، لا سيما بعد أن توالت الهزائم على الفرنج ، كما وصفهم الادباء بالحمق والكذب في تعاملهم مع الناس في شؤون العقيدة ، وقد عقب ابن واصل على اعتقادهم بنزول النور من السماء بقوله " ولقد كذبوا وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس مع بطاركهم ، يغوي به ضعاف العقول ،ويستدرجهم الى ضلالتهم وغيهم " (٤) * ،ومن هذا القبيل تعليل العماد لاستجابتهم للرهبان والقساوسة الذين يحملون صورة قبر المسيح عليه فارس عربي يقول " وللصور عمل في قلوبهم ، فانها أصل دينهم (٥) .

على أن النظرة الى معتقدهم تبرز بشكل واضح حين تقارن مع العقيدة الاسلامية ، وهذا ما حرص عليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فقد علل العماد سبب فظاظتهم وشناعتهم بأن الشيطان تولاهم " فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ،واستشعروا لبوس البوس ، فلم يلبسوا وجها الا مزوود الشفاه على القطوب بلا بشر ولا فرح .. قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها الى غروبهم (٦) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٦ ، ص ٢٣٢ ، والقصة في ج ٦ / ١٩٩ ـ ٢٥٣ ، ج٧ ص ا-٣٠
(٢) عقد الجمان ج ١٨ ق ١ ورقه ٨٣ (٣) فيشر ، تاريخ اوربا ج ١ ص ٢٥٠
(٤) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١ ، ٢١١
* لمزيد من الامثلة أنظر الخريدة (شعراء مصر) ٢ / ١٧١ ، ديوان ابن سناء الملك ٢٥ الكامل ١١ / ٤٤٧ ، ١٢ / ٣٣٠ ، الروضتين ٢ / ٧٢ ، ٣٦ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٩٤ ، ج١ ق ١ / ١٤١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، الفتح ٣٧١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٠ ، ٥٨٠ ، مفرج الكروب ٤ / ٩٧
(٥) الروضتين ٢ / ١٦٠
(٦) الفتح القسي ٥١

ومن المقارنات بين المعتقدتين قول العماد في بشرى الى الديوان العزيز ببغداد " فالحمد لله الذي أعاد القدس الى القدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان غير النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحيًا ذل أمس، وأمكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال ...(١) " *. ومن ضلالهم وجهلهم اتخاذ المسجد الاقصى أسطبلا للخنازير ، ومأوى للخنا والقذارة، يقول العماد في ذلك " وكان الاقصى لا سيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء ، مملوءا بما أحدثوا من البناء "(٢) ففي حين إنه لم ينقل عن المسلمين أعمال مقابلة بالنسبة الى أماكن المسيحيين المقدسة بعد أن استعادوا القدس ، فلا غرابة اذن في أن يصف الادباء العرب الفرنج بالأمم الطاغية ، وأن يتيمموا علاقات مشابهة كثيرة بينهم وبين الامم الطاغية القديمة ، مثل قوم فرعون وقوم ثمود ، وقد جاءت المقارنة بين الفرنج وهذه الامم من ناحية الطغيان والتعدي على الآخرين ، وعدم الاتعاظ بما سبق من أحوال الماضيين ، وكذلك في النتيجة ، فكما أن أتباع فرعون وثمود كانت نتيجتهم التدمير فان الفرنج كانت نتيجة أعمالهم الدمار ، وكما أن نتيجة الانبياء النصر فان نتيجة أعمال القادة المسلمين مثل نور الدين وصلاح الدين وغيرهما هي النصر أيضا .

ومن أمثلة تشبيههم بفرعون قول ابن دنينير ، وقد انتصر المسلمون في دمياط :

فرعون كفرهمُ طغى فأتاهمُ ... موسى لاغراقٍ ببحر جنود (٣)*

وقول ست الفخر مغنية الاشرف ، تمدحه وتذكر كسرة الفرنج :

ولما طغى فرعون عكا وقومه ... وجاء الى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا ... فغرقهم في اليم بعضا على بعض (٤)

---

(١) الروضتين ٩٧/١ (٢) الروضتين ٩٦/١

* لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان ابن دنينير : ورقه ١٠ ، ١١ ، ٤٠ ، ٤١ ديوان ظافر الحداد ص ٢٦ ، ديوان ابن الخياط ٧٥٩ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٣ ، ١٤٧، ١٥١ ، ديوان ابن عنين ٦١ ، الخريدة (قسم الشام ١٥٥/١ ، ١٨٧ ، ٤٢٢ .

الفتح القسي : ٥١ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، ٢١٤ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ قسم شعراء دمشق ٥٩/١٩ ، قسم مصر ١٠٦ ، الروضتين ١٠٠/١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ عقد الجمان ج ٢١ ، ق ١ ورقه ١١٦ ، الذيل على الروضتين ١٢٩ ، ١٣٠ الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٥٤ ، ج ١ ق ٢ ، ٧٠٢ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ١٢٩

(٣) ديوان ابن دنينير ورقه ٢٠

(٤) نفح الكروب ١٠٥/٤ ـ المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٠٩

وهنا نلاحظ علاقة مشابهة أخرى وهي المكان ، فالمعروف أن فرعون هو حاكم مصر الذي بغى على قومه وأذلهم ، وحارب نبي الله موسى عليه السلام ، فجعله الله عبرة للناس، إذ أغرقه وتوسمه ثم قذفه البحر وحده .

وتشير الأبيات السابقة الى هذا المعنى تقريبا ، فقد شن الفرنج من عكا الى دمياط وقاتلوا المسلمين وحولوا المساجد كنائس، ثم عرض عليهم الكامل تنازلات كثيرة فأبى فرعونهم قبول تلك التنازلات فكانت نتيجته الهزيمة الساحقة .

وهناك علاقة أخرى وهي التشابه في الاسماء ، فالمنتصر زمن فرعون هو النبي موسى عليه السلام ، والمنتصر زمن فرعون عكا هو الملك الاشرف موسى ، ولعل هذا التشابه سوغ للشعراء المصريين ذكر كلمة فرعون ، في حين لم أجد في شعر الشام من يشير الى فرعون ، وانما شبهوا الفرنج بثمود ، وشبهوا قائدهم بالرجل الذي عقر الناقة ، ومن ذلك قول ابن منير في مدح نور الدين بعد انتصاره على جوسلين :

ما زلت تنصم وهو يكفر عاتيـــــا   والله يهدم ما بنى الكفـــــار

حتى أناخ لقومه ما جــــــره   لثمود من عقر الفصيـــل قدار (١)*

وبعد أن وصف الادباء الفرنج بالشرك وبالكفر وشبهوهم بالأمم الطاغية ، بينوا جزاءهم في الآخرة ، فهم مطرودون من رحمة الله ، مستحقون لعذابه ، ويصفهم العماد بأنهم ملاعين، يقول : " وهؤلاء ــ يشير الى الفرنج الذين احتلوا عكا سنة ٥٨٧ ثم ساروا الى القدس ــ الملاعين قد أنفذوا القصد ، وأعدّوا لورود ورده (٢) واللعنة تعني الطرد من رحمة الله ، والمطرود من رحمة الله مصيرها النار . وقد تحدث الشعراء والكتاب عن مصير الفرنج الى النار ، ومن ذلك قول العماد فيما فعله نور الدين بالفرنج :

وملأت بالنيران أربع أهلهـــــا   فتعجلوا الاحراق بالنيــــران (٣)

* ورد في شعر ابن منير تشبيه نور الدين بموسى عليه السلام ، وذلك في معرض مدحه سنة ٥٤٧ حيث فتح انطرطوس، يقول :

ان الالى أمنوا وتاعهم بعدها   غروا وقد ركبوا الاغر غرورا

الق العصا فيمن أدال ومن عصى   منهم ومن أوضعهم قد سيرا

لا يلهمهم ان قد هنت وشتتهما   شعواء تصلي الكافرين سعيرا

فالمقصود هنا القاء موسى عصاه على حيات السحرة ، ودلالة ذلك أن الفرنج على باطل كما ان السحرة على باطل ويشتركون في الهزيمة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢١٧) .

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ / ١٩٠

** لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٨٦ ، ٢١٧ جـ ٢ / ١٦٦ ، الخريدة ٤٩

(٢) الفتح القسي ٥٧٨ وأنظر ايضا ص ٣٩٠ ، ٥٢٨

(٣) الخريدة (شعراء الشام) ٥٩

وقوله أيضا في وصف ملك الالمان " فأنه عام في الماء البارد ، وتورط منه في أصعب الموارد ، وخرج وبقي مريضا الى أن خرج من ثوب البقاء ، وتحول الى فناء الفناء ، وتلقاه مالك بالزبانية ، وحملوه الى نار الحاطمة الحامية (١) . ويقول في ابنه " وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار ، وأبصر في جهنم مصاير أمثاله من الكفار (١) " .

ومنه أيضا قول علاء الدين علي بن القاضي محي الدين الزكي في فتح صفد سنة ٦٦٤هـ على يد الظاهر بيبرس " ورأيناها والحصن وقد تزعزعت أركانه ، والكفر قد انهدم بنيانه ، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .. والمجانيق تزور حماهم ، وتلك الزيارة لشقائهم ، وتدمر بحجارتها عليهم تدميرا ، وتريهم من بأسها يوما عبوسا قمطريرا ، وتصير بهم الى الهلاك ، وتعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا " (٣) .

كما وصفوهم بالرجس لأنهم مشركون ، والمشرك نجس ، كما جاء في قوله تعالى : " إنما المشركون نجس " (٤) .

وقد جاءت هذه الصفة في الشعر والنثر * ومن ذلك ما وجد مكتوبا على عضادة محراب في مسجد بعد فتح الرّها :

أصبحت صفرا من بني الأصفر — أختال بالاعلام والمنبر
دان من المعروف حالي بما — نأى عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني — لولا جمال الدين لم أطهر (٥)

وجمال الدين هذا هو وزير حران ، وقد حثّ عماد الدين زنكي على فتح الرها وتم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ ومنه أيضا وصف ابن جبير لعكا بأنها " تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وقذرة " (٦)

ومثل ذلك وصف العماد للفرنج القادمين من أوروبا عن طريق البحر .. " وألقى على تياره بسط البطش ، وحملوا على البحر أوزار النجس ، وتبّا لهم وتعسا ، فأنهم زادوا على رجسهم رجسا " (٧) .

---

(١) الفتح القسي ، ٣٩٠ — (٢) الفتح القسي ، ٤٦
(٣) ابن جبير ، رحلة ٢٧٦ — (٤) سورة التوبة ٢٨
* لمزيد من الامثلة أنظر تاريخ ابن الوردي ٢/١٧ ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل مخطوط ورقة ٣٦ ـ صبح الأعشى ٧/٦٦ ـ الفتح القسي ٥١ ، ١٥٤ ، ٣٠٦ ، ٤٠٣ ، ٤٦٠ ، ٥٠٠ ، ٥٨٩ ، ٦٠٨ ـ الروضتين ١/٨٧ ـ نهاية الارب ٥/١٥١ ومن ان جهنم مصير الكفار والمشركين كما جاء في آيات كثيرة ومنها " إنّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها " ، إلا أنهم دعوا الله أن يجعل عظامهم وقودا لها ، يقول القاضي الفاضل " وكان الكفر مفقودا والاسلام مولودا وجعل الله ضلوع الكافرين لنار جهنم وقودا " . صبح الأعشى ٦/٣٤٩
(٥) زبدة الحلب ج ٢ / ٢٧٥ — (٦) رحلة ابن جبير ، ٢٧٦
(٧) الفتح القسي ٢٦٨ ، وأنظر ٥٨٠

من أجل ذلك طالب الادباء بتطهير المناطق من رجس المحتلين ، منذ أن بدأت ردة الفعل الاسلامية ، يقول ابن منير محرضا نور الدين على تطهير القدس :

آثارهم نجس أذ آل المسجد الأ ... (م) قصى فضمن ما دنسوه وطهر (١)

وقال الحافظ ابن عساكر مهنئا نور الدين سنة ٥٦٤ ومحرضا أياه على فتح القدس :

فطهر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والاشراك والصلب (٢)

وقد رأى بعض الشعراء أن تطهير القدس من رجس الغزاة لا يكون الا بدماء الاعداء أنفسهم يقول العماد :

فسروا فتح القدس واسفك به ... دماء متى تجرها ينظف (٣)

وبعد أن تم ذلك فعلا تنفس المسلمون الصعداء ، وكأنه حلم تحقق ، يقول الشريف النسابة الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي ... بزواله وزوالها يتطهر (٤)

ويقول القاضي الفاضل " وأضحت الارض المقدسة الطاهرة ، وكانت الطامث والرب المعبود الواحد ، وكان الثالث (٥) ، ويقول ابن النبيه في مدح صلاح الدين :

طهرت بيت القدس من رجسهم ... وكان مأوى للخنازير (٦)

وفي فتح دمياط يقول ابن عنين مادحا المعظم عيسى :

وطهرها من رجسهم بحسابه ... همام يرى كسب الثنا المغنم الاسنى (٧)

ولما أخذ الملك الناصر داود القدس من الفرنج قال ابن مطروح :

فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا (٨)

وفي طرد آخر جندي صليبي من عكا قال شمس الدين الفزاري :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن ... منهم ترى التطهير الا بالمدى (٩) *

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ، ١٩٦ وانظر جـ ١ ق ١ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥ ، الخريدة /قسم شعراء الشام ١ / ٢٧٧ ولمزيد من الامثلة انظر الروضتين جـ ١ ق ٢ ، ٤٤٤ ، ٥٢٣ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤ مفرج الكروب ٢ / ٢٢٢

(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ، ٦٦١ (٤) مفرج الكروب ٢ / ٢٢٣

(٥) صبح الاعشى ٦ / ٤٤٩

(٦) تاريخ ابن الفرات مج ٥ جـ ١ ، ١٢٥ مفرج الكروب ٢ / ٢١٧ وانظر ديوان ابن النبيه ٦٦

(٧) ديوان ابن عنين ٣١

(٨) ديوان ابن مطروح ٤٨ (٩) جواهر السلوك ، ورقة ٤٨

* لمزيد من الامثلة أنظر ديوان ابن سناء الملك ٣٥٨ ، ٥٦٧ ، جواهر السلوك ٦١ ديوان البهاء زهير ١٢١ ، الروضتين جـ ٢ ، ٤٩ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٥٠

القسم الثاني : صراع بين حضارتين :

أدى الاختلاف بين الحضارتين : الاسلامية والاوروبية الى تناقض ظاهر بين السلوكين الاسلامي والفرنجي ، وسنسلط فيما يلي أضواء الادب العربي في هذه الفترة على الغزاة القادمين من أوروبا ، لنرى تصويره لاخلاقهم وعقليتهم وسلوكهم .

أما أخلاقهم فقد كانت تختلف عن أخلاق المسلمين في طبيعتها ، لاختلاف الثقافة والتنشئة في كل من المجتمعين ، ومما استرعى أنظار الادباء المسلمين في هذه الفترة ، المرأة الفرنجية ، باعتبارها عنصرا مهما في حياة المجتمع .

فالمرأة الفرنجية كانت سافرة فاتنة ، بخلاف المرأة المسلمة المتنقبة التي تخفي محاسنها إلا ما ظهر منها ، والتي تبتعد عن مواطن الفتنة ، بينما كانت المرأة الفرنجية تبرز محاسنها للرجال سواء أكانوا من قومها أم من غيرهم ، يقول ابن القيسراني ، وقد خالطهم وعرف طباعهم :

سمحن بمن سكنّ بيوت شعر ... فأبرزن المحاسن في الشعور
وأرخين النواظر في وجوه ... منزهة الخدود عن الشرور
تريك الحسن غير مرقعات ... ألا ما في البراقع من غرور (١)

فهو ـ بغض النظر عن أعجابه بالفرنجيات يسجل انطلاق المرأة الفرنجية وعدم تحرزها في أظهار محاسنها ، فأن كانت العربية تسكن بيت الشعر ، وتحتجب عن الرجال متنقبة بالبرقع ، فالفرنجية تفتخر باظهار شعرها وجمال وجهها ، وتمشي الى حيث الرجال ، بل تتعمد أن تخرج اليهم ، دون أن تخفي شيئا من جمالها ، مما جعل الشاعر يفتتن بها ويظهر أعجابه بهذا الجمال ، وحين تبرز الفرنجية الجميلة معطرة ، يقول ابن القيسراني فيها :

لقد فتنتني فرنجية ... نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم ... وفي تاجها قمر مشرق (٢)

ومثل هذه المعاني وردت في النثر ، ففي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ، وصف الفرنجيات بأن من عادتهن الخروج والمشي في الاسواق بلا نقاب (٣) ، واما العماد فقد أفرد للمرأة الفرنجية فصلا تحدث فيه عن جوانب متعددة فيها ، ومنها تبرجها ، يقول " وترافدن على الارفاد والارقاد وتلهين على ... من كل ... متغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نارية ملتهبة ، متنقشة متخضبة ، تائقة شائقة فائقة رائقة ... " (٤) ، ويقول مبينا لباسها وتأنقها " تسحب غفارتها وتسحر بغضارتها نظارتها ، وتتثنى كأنها غصن ، وتتجلى كأنها حصن ، وتتهادى كأنها قضيب ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦
(٢) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦ .
(٣) ألف ليلة وليلة ج ٧ ص ٤ وانظر رحلة ابن جبير ص ١٧٨
(٤) الفتح القسي ، الباب ص ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ ، والاقتباس من ص ٣٤٧
(٥) الفتح القسي ص ٣٤٧ ، وانظر الحروب الصليبية ج ٢ ص ٥٠٩

واذا كانت الفتاة الفرنجية تخرج سافرة فاتنة من بلاد الى بلاد دون أذن واستئذان ، فأن نظام الاسرة سيختل وينحل ويوءذن بالنهاية . . كما يتضح من حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية(١)
واذا كان هذا السلوك غريبا ، فان الاغرب منه أن تخرج المرأة الفرنجية من بلادها الى المشرق الاسلامي لتقدم نفسها للفرنج ، معتقدة أن هذا العمل هو عبادة لله ، يقول العماد " وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تَعَبّدوا بترك النخوة والحمية"(٢) .

ومثل هذا السلوك ، جعل أسامة بن منقذ (من قبل) يحكم أن ليس للافرنج غيرة جنسية يقول " يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر ، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث"(٣) ، ثم يروى مشاهدات عديدة عن مثل هذا السلوك (٤)، ولم يكن هذا الوضع الا لاختلاف أنماط الحياة بين المجتمعين: الاسلامي والفرنجي ، وقد كان التحلل في العلاقات الأسرية في المجتمع الفرنجي من أسباب ضياع مملكة الفرنج في الشرق الاسلامي ، وهذا ما تقرره أحد الكتاب المحدثين حين قال " ان رذائل المسيحيين (يقصد الفرنج) في الأراضي المقدسة لها أثر كبير في ضياع مملكتهم في فلسطين إن لم يكن السبب بعينه (٥) ، وهذا ما لاحظه أبان الحروب الصليبية نفسها أحد مرافقي الحملة الفرنسية على دمياط وهو جوانفيل في مذكراته عن القديس لويس التاسع يقول: " أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات حتى لقد حدث بعد عودتنا من الاسر ان عزل الملك الكثير من رجاله(٦) .

ويعضد هذا الرأى ما ذكره أمبرواز (Ambroise) ، عن المرأة الفرنجية "وهن يجررن أذيال الفجور في تصرفهن الشائن ، ثم يقول " رحماك اللهم ، أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب (٧) .

وأما تصوير الادب لسفليتهم ، فقد أبرز تخلفهم الحضاري عن المسلمين وذلك بالحديث عن سذاجتهم الى الامور ، او عن غبائهم وحمقهم ، أو عن خشونتهم وفظاظة سلوكهم.

فمن مظاهر سذاجتهم إحراقهم كنيسة أتخذوها من خيش حين عسكروا على بانياس، وفرشوها بالحلفاء والحشيش ، فلما كثرت فيها البراغيث ، فكّر الشمّاس بحرق الحشيش ليتخلص من البراغيث ، فأرتفعت السنة اللهب ، وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا (٨) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٧ ص ٤
(٢) الفتح القسي ص ٣٤٨
(٣) الاعتبار ص ١٣٥
(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر الاعتبار ص ١٣٦
(٥) أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ص ١٦ ،
(٦) جوانفيل ، القديس لويس التاسع ص ٩٩ وانظر ٤٤ ٢
(٧) انظر زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعيه ص ١٥٢
(٨) الاعتبار ٨٦ .

ومنها ما حدث من أسامة حين طلب فرنجي منه أن يأخذ ابنه معه الى أوروبا ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، كي يتعلم " العقل والفروسية " ويعقب أسامة على ذلك بقوله " ما يخرج (أي ذلك الكلام) من رأس عاقل ، إذ لو أسر ما بلغ به الأمر أكثر من أن يذهب الى بلاد الفرنج (١) " .

واما غباؤهم وحمقهم فيتمثلان في تأخر طبهم ، وعدم الاقتناع بطب العرب مع أنه كان يستند على التشخيص والعلاج ، ودليل ذلك ما يذكره أسامه من أن صاحب المنيطرة الفرنجي طلب من صاحب شيزر طبيبا يداوي مرضى من أصحابه ، .. فما غاب الطبيب العربي عنه عشرة أيام ثم عاد ، فسأله أهلها عن سبب عودته مبكرا ، فقال : " أحضروا فارسا قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ... " ، ولكن طبيبهم الفرنجي خيّر صاحب الدملة بين أن يموت برجلين أو يشفى على أن تقطع رجله ، ففضل المريض أن يشفى ويعيش برجل واحدة .... فأحضره وأحضر فارسا وحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، فضربها فما انقطعت ، فضربها ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، واما المرأة فقال إن في رأسها شيطانا قد عشقها ، ثم أمر بحلق شعرها ، وسمح لها ان تأكل ما تشاء كالثوم والخردل ، فزاد بها المرض ، فأحضر موسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس ، وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها (٢) .

ويعقب الطبيب العربي على هذه الزيارة بقوله " وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه " ومن ذلك ما رواه أسامة عن صاحب طبرية ، أن قسا كبيرا أحضر ليداوي فارسا كبير القدر ، فلما رآه طلب شمعا ثم أذابه وصنع منه مثل عقد الإصبع ، ووضعها في جيوب أنفه ، فمات الفارس ، فقال له الحضور ، قد مات ، قال : نعم ، كان يتعذب ، سددت أنفه حتى يموت ويستريح (٣) .

واما خشونتهم وجفاء خلقهم ، فيبدوان في كثير من أعمالهم ، منذ أن دخلوا أرض الشام وفعلوا بأهلها ما فعلوه من ذبح وتشريد ، وانتهاك للحرمات ، وتدنيس لدور العبادة فمن ذلك ما أقدم عليه الفرنج الذين هاجموا حلب سنة ٥١٨ هـ ، إذ نبشوا قبور موتى المسلمين ، وسلبوهم أكفانهم ، وعمدوا الى الموتى الذين لم تنقطع أوصالهم بعد ، وربطوها بالحبال وجعلوا يصيحون " هذا نبيكم محمد ، وهذا عليكم " ، وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر المدينة وقالوا ، وقد جعلوه ثفرا للبرذون : " يا مسلم أبصر كتابكم " ثم جعلوا يتضاحكون (٤) .

---

(١) الاعتبار ١٣٢
(٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الاعتبار ١٣٧
(٤) زبدة الحلب ٢ / ٢١٤ وانظر تاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٥ وابن كثير البداية والنهاية ١٢ / ١٨٤

ومن مظاهر خشونتهم وقسوتهم وسذاجتهم ، تلك المحاكم التي كانت تتكون من عدة أشخاص ، لكن أحدا منهم لم يكن يهتدي الى أبسط قواعد القضاء ، إذ اعتمدوا في أدانة المتهم على اشياء لا تمت بصلة الى التهمة ، ومن ذلك ما حاكموا به متهما بقتل الفرنج في القدس ، فاحضروا بقينة عظيمة وملاؤها ماء ، وعرضوا عليها دفة خشب وربطوه على الخشبة ورموه في البقية لاثبات الجرم عليه ، فان كان بريئا غاص في الماء ، وإلا فلن يغوص فيه ، وقد حاول المتهم أن يغوص في الماء فما قدر ، فوجب عليه حكمهم وفقأوا عينيه (١)

ومن هذه المحاكمات تلك المبارزة بين الشيخ المتهم والشاب الحداد ، وقد أعتقدوا ان الشيخ سينتصر على الشاب إن كان بريئا ، وإلا فسيلقى جزاءه ، وهو الموت ، ومات الشيخ في هذه المبارزة فعلا[1].

وقد سجل الادب هذا السلوك الفظ لا سيما عند الذين خرجوا حديثا من بلادهم كما يقول أسامة " فهم أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا (صاروا بلديين) وعاشروا المسلمين"(٢) .

وقد جاء ما يثبت ذلك في تسجيل التاريخ لسلوكهم ، ومن ذلك ما جاء في الكامل والأنس الجليل ، وزبدة الحلب ، وذيل تاريخ دمشق ، وزبدة كشف الممالك وغيرها ... عن الإجرام الدموي في إنطاكية ومعرة النعمان والقدس وعكا وعسقلان (٣) .

ويؤكد ذلك أيضا ما رواه مؤرخ مجهول عن أعمال الفرنج في القدس يقول " واشتد سرور رجالنا حتى بكوا من فرحتهم ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ... وفي اليوم التالي ، تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساءً ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وطرحت جثثهم أمام الابواب وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا (٤) " .

كما أكد ذلك بعض المؤرخين الاوروبيين بما أعتمدوه من أخبار المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ومنهم غوستاف لوبون ، الذي يقول " ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال (٥) ، ثم يستند في حكمه هذا على أقوال المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية مثل الراهب روبرت الذي يقول " كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبوءات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ، ويقطعونهم إرْبا إرْبا ، وكانوا لا يستبقون أنسانا ، ويشنقون اناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ... وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية "ثم يعقب على ذلك بقوله: "فيا للعجب ويا للغرابة ... فيا للشره وحب الذهب (٥)" .

---

(١) الاعتبار : ١٣٩ ، ١٣٨ (٢) الاعتبار ١٣٤
(٣) أنظر الكامل ١٠ / ٢٧٣ ، الانس الجليل ١ / ٣٠٧ ، زبدة كشف الممالك ١٩٠ ذيل تاريخ دمشق ١٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١ / ١٣٠ ، تاريخ مختصر الدول ١٦٧
(٤) أعمال الفرنجة ١١٩ (٥) حضارة العرب ٣٢٥ وانظر ٣٢٢

ولم تبعد هذه الاقوال عما قرره الأدباء العرب في شعرهم ونثرهم ، ونذكر فيما يلي ما كتبه الملك الأمجد عن أبيه الملك الناصر حين هاجم الفرنج مدينة نابلس " تتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال" (١).

وما يرتبط بذلك معاملة الاسرى من المسلمين ، والسكان الذين كانوا يقعون تحت قهر الاحتلال ، وقد لاحظ هذه المعاملة الخشنة ابن جبير في رحلته وهو في عكا ، يقول :
" ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم ، اسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد" (٢) .

ويوضح الادب جانبا آخر من هذه الفجائع التي يعانيها الاسير ، وهو ان الفرنج يقيدون الأسير ثم يرمونه في غياهب السجون التي تكون إما منارة او جُبّا عميقا ، فهذا أسامه ابن منقذ يستعطف ابن عمه الامير تاج الدوله ليفدي ابن عمّه أخا اسامة ، فيبين تلك الحالة المهينة التي يعيشها في الأسر ، يقول :

هذا ابن عمك في أسر الفرنج لـــــه حول تجرّم في الاغلال والظُلَـــــم (٣)

وقد تفنن الفرنج في ايقاع العذاب بالاسرى ، ومن ذلك ما يذكره أسامة بن منقذ عن أحد الأسرى المسلمين يقول " وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دكنون لعنه الله ـ أقلعوا عينه اليمنى ، حتى إذا حمل الترس ، استترت عينه اليسار ، فلا يبقى يبصر شيئا ، فقلعوها (٤) " .

ومن أنواع التعذيب عندهم ما فعلوه مع ابن والي الطور الذي خرج للصيد حيث حبسوه في جب وحده ، وطالبوه بألفي دينار فدية ، دون أن يسمحوا له بالاتصال مع أحد حتى مر عليه عام كامل ، يقول " فأنا في بعض الأيام في الجب ، واذا قد رفع عنه (الجب) الغطاء ، ودُلي إليّ رجل بدوي ، فقلت من أين أخذوك ، فقال : من الطريق ، علما بان للمسلمين والتجار حقا متعارفا عليه آنذاك ، ومن ذلك أسر البدوي مع ابن والي الطور ، وقد طلب الاكثر من الفرنج ان يخلوا سبيل البدوي ليخبر أهله فيدفعوا فدية للفرنج (٥)

هذا وقد تميزت معاملة الاسرى المغاربة بشدة أكثر من أسرى المشارقة لانهم تركوا أوطانهم وجاءوا يحاربون مع المسلمين في الشرق كما يبين ذلك ابن جبير (٦) .

وأما معاملة السكان المسلمين ، فقد تمثلت بها الشدة والإهانة ، ويقول ابن جبير عن معاملة الفرنج لأهل عكا " إنّ المسلمين يعانون أهوالا ومشقات منها الذلة والمسكنة ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير (٦) .

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقه ٩٥
(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠
(٣) ديوان اسامه بن منقذ ١٤٩
(٤) الاعتبار ٦٦
(٥) الاعتبار ٨٠ ، ٨١
(٦) رحلة ابن جبير ٢٨٠ ، ٢٧٤

ويتضح الفرق في المعاملة ، حين نقف على معاملة المسلمين للفرنج سواء الأسرى منهم أو السكان في المدن التي أستعيدت ، ولا يسع المرء حين يرى سلوك المسلمين وترفعهم عن القتل او الثأر ، او ضبطهم لأنفسهم في جو نشوة النصر ، إلا أن يعجب بمسلكهم ، ويتبدى هذا الامر في كثير من المواقف ، منها يوم فتح الرها ، إذ أمر زنكي العساكر برد ما غنموه من أمتعة ومن وقع في أيديهم من نساء وأطفال ، فردوها عن آخرها (١) ، ومنها يوم فتح القدس ، اذ أشهم صلاح الدين على أنفسهم ، وخيرهم بين الاقامة والظعن(٢)، أما معاملة المسلمين للاسرى ، فقد كانت تدل على رقي حضاري ، فابن شداد يذكر أن مجموعة من الفرسان المسلمين أسرت مجموعة من الفرنج ، وكان منهم مقدم العسكر ، فخلع عليه صلاح الدين فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، لان البرد كان شديدا ، وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته ... واذن لهم ان يراسلوا أصحابهم ، وان يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه .(٣)

ومن هذه المعاملة ، معاملة أسير فرنجي طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ... فرق له السلطان وأطلقه الى معسكره (٣)

وقد شعر الفرنج أنفسهم بهذه المعاملة ، فأستأ من خلق عظيم منهم بسبب الجوع زمن حصار عكا ، فأمنهم وأعانهم(٣) كما شعروا برحمة صلاح الدين ، فنصحوا المرأة التي فقدت أبنتها ان تذهب اليه في معسكر المسلمين ، فرق لها وأمر برد أبنتها* وعيناه تدمعان (٣) ، ويعقب ابن شداد على القصة بقوله " فأنظر الى شهادة الاعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة " :

ومليحة شهدت لها ضراتهـــــا والحسن ما شهدت به الضـــــــر (٤)

هذا الفرق الواضح بين المعاملة الانسانية والمعاملة الوحشية لم يكن خافيا على الفرنج ، كما أسلفنا ، ولم يكن أيضا خافيا على المسلمين ولا على أدباء المسلمين ، يقول الشاعر ابن عنين :

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمـــرا فالقوا بأيديهم إلينا فأحسنــــــا
وما بين الاحسان منا سجيــــــة ورثنها عن صيد آبائنا الأبنـــــا

---

(١) الكامل ١٠/٩٩ ، النجوم الزاهرة ، سنة ٥٣٩
(٢) الكامل ١١/٥٣٩ ، وأنظر ١١/٥٥٠ - ٥٥١
(٣) ابن شداد ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٤ ، ٣١ على الترتيب
* ورد في النوادر ص ١٥٩ أن المفقود طفل ذكر بينما ورد في صفحة ٣١ منه أنهـــا طفلة(بنت)
(٤) النوادر ١٥٩ ، ١٥٦

منحنا بقاياهم حياة جديـــــدة — فعاشوا بأعناق مقلدة مُنَنــــا
ولو ملكوا لم يأتاوا في دمائنـــا — ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنــا (١)

هذا وقد لجأ الفرنج الى المكر والغدر ليشفوا غليلهم من الدماء البريئة ، ويرووا حقدهم بالدم المسفوح ، ولهذا أكثر الادباء عن التحدث عن غدر الفرنج ، وبينوا أنهم مفطورون عليه ، قال الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان الحراني في انتصار صلاح الدين سنة ٥٧٥ هـ وتحطيم حصن بيت الاحزان :

فلا ترض منهم بعدها بذل طاعــة — فما خلقوا إلا على شيمة الغـــدر (٢)

وقال ابن منير في مدح نور الدين سنة ٥٤٧ ، حين فتح أنطرطوس وهزم جوسلين :

ما زال يغدر ثم يغدر قـــادرا — حتى أتاه بجامع أصحابــه (٣)

وقد لاحظ العماد ذلك بقوله "... فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في غرائزهم مغروز" (٤) ، ووصفهم بأنهم أناس لا يفون بعهدهم ولا يبرون بوعدهم .

وحين حاول صلاح الدين اقتحام القدس هددوا بقتل الأسرى ، وكان المعروف يقضي بالمحافظة على الأسير ، فاضطر صلاح الدين الى الدخول في مفاوضات معهم انتهت بتسليم المدينة ، وخروجهم منها ، وفي هذا الوقت يقول العماد " وعرف أن جهلهم يحملهم على كمل مكر شنيع ، وانهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع (٥) " ، كما يتحدث عن أعمالهم في موضع آخر فيقول " فرعوا بقتل أسارى المسلمين وهم الالوف ، وعرفنا أنهم لا يقصرون في الشرغان جهلهم معروف (٤)"

ولم تكن ملاحظات العماد هذه من باب التزيد ، وتضخيم الصغائر ، اذ ان الحديث عن غدرهم حديث متواتر ، ردده كتاب المسلمين وشعراؤهم على السواء ومن ذلك قول طلائع بن رزيك

فقولوا لنور الدين : ليس لجائف الجراحات إلا الكي في الطب والبسط
تأمل فكم شرط شرطت عليهم — قديما وكم غدر به نقض الشـــرط (٦)

وقول العماد في ملك الالمان " ولما وصل الى بلاد الارمن غدر بالداخلين وساقهم محولين مع الظماء (٧) ، وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ ، ضعفت البلد ، وخرج أهلها للتفاوض مع الفرنج فأمنوهم ، ولكنهم حين تسلموها لم يلتزموا بما تعهدوا به من شروط ، بل احتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم في المعتقلات ، ولم يكتفوا بذلك الغدر وانما أوثقوا أسرى المسلمين بالحبال وقتلوهم بأجمعهم (٨)

---

(١) ديوان ابن عنين ، ٣٠ ـ ٣١
(٢) الروضتين ١ / ١٢
(٣) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢١٩
(٤) الفتح القسي ٦٠٨
(٥) الروضتين ٢ / ٩٧ ، ٩٨
(٦) ديوان أسامة بن منقذ ١٧٧
(٧) الفتح القسي ٣٩٠
(٨) الروضتين ٢ / ١٨٨

وقد غدر الفرنج بالمصريين في بلبيس ودمياط ، وتكرر هذا الغدر مرات ومرات * مما أوحى الى أذهان الشعراء تشبيههم بالذئاب لا سيما في شعر ابن القيسراني ، فمن ذلك قوله مخاطباً عماد الدين زنكي :

فلا تحفلن بصول الذئـــاب   وقد زأر الأسد الباســـل (١)

ويقول في جوسلين أحد أمرائهم :

أخو الليث لولا غدرة نزعت بـــه   الى الذئب ، إن الذئب شيمته الغدر (٢)

وهناك فرق بين الغدر والخدعة ، إذ إن الاول نكث بالعهد ، وفي هذا المعنى يقول العماد في وصف الحال بعد موت صالح الدين " وقد أستمرت الحال الى الان على الهدنة ، وهم لا يؤمنون اذا أحسوا بالمكنة (٣) " .

ويقول أسامه بن منقذ في وصف جوسلين :

دعته الى نكث اليمين وغـــدره   بذمته النفس الخسيسة والمكــر (٤)

وأما الخدعة فهي مفاجاة العدو دون ان يكون عهد بين الطرفين ، ولذلك فقد أمتدح الاسلام الخدعة الحربية ، بل جعل قوام الحرب الخدعة ، كما جاء في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الحرب خدعة " .

هذا وقد أمتدح الادب تخطيط الفرنج الحربي وأمثلة ذلك كثيرة * ، وأما الغدر فهو مذموم ينحرف بصاحبه الى الخيانة والكذب والنفاق كما ذكر الشعراء ، ومنهم أسامة بن منقذ الذي رد على طلائع بن رزيك على لسان نور الدين زنكي بقوله :

ونحن كسرنا " البغدوين " وما لمـــن   كسرناه أبناك يُرَجَّى ولا جَبْـــر
غسله اللعين الحائن الخائن الـــذى   له الغدر دين : ما به عنه الغـــدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبهـــا   فلم ينجه برّ ، ولم يحمه بحـــر
أفي غدره بالخيل بعد يمينـــه   بإنجيله بين الأنام له عـــذر
دعته الى نكث اليمين وغـــدره   بذمته ، النفس الخسيسة والمكـــر (٤)

---

* أنظر الروضتين ج ١ ق ١ : ١٥٣ـ١٧٦ـ١٩٠ـ١٧ ، ٢١٧ ، الروضتين ج ٢ : ١٠٢ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ـ٢٠٥ ، الذيل على الروضتين ١١٧ ، النوادر السلطانية ٣٨ ، ١٢٤ ، الاعتبار ٣٤ ، ٣٥ ـ ٦٦ ـ ٨١ ، ديوان أسامه : ١٧٩ـ١٨٠ـ١٨١ـ١٨٣ـ١٨٧ـ١٩٢ـ١٦٩ وأنظر ابن الاثير ١٠ / ٣٧٢ ، الكامل ١١ / ٣٧٣ـ٤٦٦ـ٤٩٠ـ٨١ ، الكامل ١١ ـ ٦٧ـ٦٨ ، ابن القلانسي ١٣٦ وأنظر الف ليلة وليله ج ٦ + ج ٧ حكاية نور الدين علي ومريم الزنارية .

(١) الخريدة ، قسم الشام ١ / ١٠٨

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٨٦ وانظر ١ / ٦٨ وانظر ٢ / ١٠٢

(٣) الفتح ٦٠٨   (٤) ديوان اسامة ٢٠٣

* أنظر لمزيد من الامثلة الاعتبار ٦٤ ، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ١٩ وأنظر عقد الجمان ج ٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ١٠ / ٤٦٠ ، ١١ / ١٥٤ ، ٥٥٥

وبالرغم عن المواثيق التي قدمها ملك القدس (بلدوين ـ بغدوين) إلا أنه غدر، مثلما غدر أمير أنطاكية الذي تنكر للصنيع على حد قول ابن القيسراني :

خان الصنيعة غير محقوق بهـــا ... والخير يهدم ما بنى الختـــار
ذئب إذا ما غبت أقدم عاتيـــا ... إقدام من لم يدن منه تـــرار
أضحى السائح على عدواه بغيضـه ... بالغدر يطعن في الوغى الغـدار (١)

ويلاحظ اقتران الوصف بالاستهزاء في الابيات السابقة ، لكن شعراء العرب بينوا في معرض الاستهزاء ما يلاقيه الفرنج من عقاب رادع جزاء غدرهم ، يقول الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان الصراتي في صلاح الدين :

فما تبدت منهم يد الغدر قطعـت ... أناملها الا على صفقة الخسـر
فلا ترضىَ منهم بعدها بذل طاعـة ... فما خلقوا إلا على شيمة الغـدر (١)

ويقول أسامة بن منقذ :

فتى ينصر على الكفار إنهـم ... يرديهم المهلكان : الغدر والأشر (٣)

ويقول فتيان الشاغوري :

جحدوا وكان الغدر بذرهم فقـد ... درسوا وذروا بأوشم بيـدر
ما إن ترى الا مساكنهم ودمـ ... صرعى الصوارم بالوهاب المقفـر (٤)

والشواهد على ذلك كثيرة * .

ونلاحظ من خلال الشعر ان رد المسلمين على غدر الفرنج كان يأتي قويا ، كما في قول ابن قسيم الحموي :

أيلتمس الفرنج لديك عفـواً ... وأنت بقطع دابرها زعيـم
وكم جرعتها غصص المنايـا ... بيوم فيه يكتهل الفطيـم (٥)

أما قائدهم فلا يستطيع المواجهة فيولي هاربا :

أراد بقاء مهجته فولــى ... وليس سوى الحمام له حميـم (٥)

وهذا القائد كأي قائد آخر خاتمته إما الموت أو الذلة جزاء غدره ، يقول ابن منير في مدح نور الدين يوم أنب سنة ٥٤٤ (٦) :

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٧٦ (٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٥٤٦
(١) الروضتين ٢ / ١٢ (٤) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥
* لمزيد من الأمثلة أنظر الخريدة شعراء الشام ٢٨ والروضتين ٢ / ٨٢ ، ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٤٠١ والروضتين جـ ١ ق ١ / ١٥١ وعقد الجمان جـ ١٦ ق ١ ص ١٩٩
(٥) الخريدة / الشام ١ / ٤٧٠
(٦) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٨ ـ ١٩

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلـــــــة ... بالروح مما قد جنت غدراتـــــــــه
وطأت أطراف السنابك هامـــــــه ... تفاقت بسيوفها قذفاتـــــــــه

ويقول العماد في مدح نور الدين وقد هزم الفرنج في حوران سنة ٥٦٨ :

تمت توصهم رداء مـــــن ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنـــــــان
وملكت رق ملوكهم وتركتهـــــم ... بالذل في الاتياد والاسجـــــان
وجعلت في أعناقهم اغلالهـــــم ... وكببتهم نوما على الاذقـــــان (١)

ثم يسخر منهم ، ويبين ان ظنهم قد باء بالفشل لانهم واجهوا قائدا متيقظا (١)، يقول :

يا خيبة الافرنج حين تجمعـــــوا ... في حيرة وأتوا الى حـــــوران
جاءوا وظنهم يعجل ربحهـــــم ... فأعدتهم بالخزي والخســـــران
وظنونهم وقلوبهم قد أيقنـــــت ... للرعب بالاخفاق والخفقـــــان
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهـــم ... لما صرعت بصوارم البرهـــــان
وعزمتهم بالرأي قبل لقائهـــــم ... والرأي قبل شجاعة الشجعـــــان
راحوا ثباتوا تحت كل مذلـــــة ... وضربت منهم فوق كل بنـــــان *

* * * *

ومن المعالم التي سجلها الادب عن الصليبيين طرائق تحريضهم للقتال ، وغالبا ما يكون ذلك في وقت الملمات ، كسقوط مدينة ، أو التعرض لهزيمة ساحقة ، ويمكن حصر طرق التحريض عندهم بأربع طرق .

١ . الصور : فقد رسموا صورة القدس في ورقة عظيمة ، وأظهروا فيها صورة القيامة وقبر المسيح بزعمهم ، وصوروا فارسا مسلما يطأ قبر المسيح بفرسه وقد بال الفرس على القبر (٢) كما صوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا معه صورة عربي يضربه بالعصا ، والدماء تنزف منه (٣) وقد كان لهذه الصور أثر بالغ في نفوس الفرنج لان الصور مرتبطة بدينهم ، ويبين ابن شداد انه هاج لذلك خلائق لاتحصى ، وأرسلوا الامدادات المتواليه الى عكا ... (٤).

٢ . الرؤى والاحلام : وكان لها أثر في نفوسهم ، كما حصل خلال محاصرتهم أنطاكية بعد أن أشرفوا على الهلاك المحقق جوعا وقتلا بسبب حصار المسلمين لهم ، كما كان لهما أثرها في تسيير الحملة الاولى ، فمن المعروف ان بطرس الناسك كان عاملا أساسيا في تحريض الفرنج ، وان هذا العمل من بطرس ، بناء على رؤيا أدعى أنه سمع خلالها صوتا سماويـــا

---

(١) الخريدة ، شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٥٥

* لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين ج ١ ق ١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ١٥٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، الكامل ١١ / ٣٣٠ ، رسائل ابن الاثير ١٥٤

(٢) النوادر السلطانية ١٢٦ ، الروضتين ٢ / ١٦٠ ، مفرج الكروب ٢ / ٣٢٦

(٣) مفرج الكروب ٢ / ٨٨ ، الكامل ١٢ / ٣٢

(٤) النوادر السلطانية ١٢٦

يخاطبه بقوله " انهض يا بطرس،وأسرع منذرا عن شقاء شعبي ، فقد آن الحين الذي فيه خدامي يحصلون على الاماكن المقدسة(١)٠

واما أثرها في معركة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، فقد أدعى بعضهم أنه رأى كتيبة من السماء وعليها هالات قدسية من النور تقدمت صفوفهم، وتسلقت السلالم والاسوار المحيطة بمدينة أنطاكية ورمت المسلمين(٢)٠

ولئن كان لهذه الرؤيا المدعاة أثر في تقوية معنويات الجند ، فإن الحربة المقدسة التي أدعاها أحد الرهبان ، كان لها هي الاخرى أثر كبير في تحقيق النصر لهم يومئذ ، وتفصيلها أن راهبا داهية مطاعا رأى حصار المسلمين الشديد لأنطاكية ، وما نتج عنه من أنعدام الاقوات وتحطم قوتهم المعنوية ، فلجأ الى حيلة دينية ، إذ بشرهم بأن المسيح لن يتخلى عنهم ان وجدوا الحربة المقدسة المدفونة بالقسيان (وهو بناء ديني عظيم) ، ثم أمرهم أن يصوموا ويكون بذلك قد جمل الجوع الذي يتضورون منه صوما يؤجرون عليه ، بينما قام بعضهم بالبحث عن الحربة ، فوجدوها فعلا ، لانه كان قد دفن حربة صدئة في المبنى المذكور (٣) وتصادف أنه في هذا الوقت ، دب النزاع بين الفرق الاسلامية ، التي تواعدت للقتال ، بينما قام الفرنج بهجوم يائس أنتصروا فيه على المسلمين ٠

٢ ٠ قرارات الحرمان وصكوك الغفران : وقد لجأ اليها البابا في روما بعد سقوط القدس رغم كل الامدادات التي تدفقها أوروبا للمحافظة على ممتلكات الصليبيين ، وقد قصد البابا بهذه القرارات أمرين : الاول أخذ الاموال لتمويل الجيش الصليبي والثاني ، دعم الجيش الصليبي بالمقاتلين ، يقول القاضي الفاضل : " وقد حرم باباهم كل مباح ،وأستخرج منهم كل مذخور وأغلق دونهم الكنائس ،ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة(٤) " ويقول العماد من كتاب الى بغداد : ان البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال " من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندي محرم لا منكح له ولا مطعم " ٠

والحرمان عندهم كاللعنة عند المسلمين - يعني الطرد من مغفرة الله وكل عمل يعمله المحرم لا يقبل منه ، ولذلك فهم يتهافتون على الورود ويتهالكون على يومهم الموعود (٥)٠

---

(١) مونروند ،من تاريخ الحروب المقدسة ١ /٣
(٢) حسن حبشي ،الحرب الصليبية الاولى ١٥٠
(٣) الكامل ١٠ /٢٧٢ ومونروند ١ /١٢٢
(٤) الروضتين، ٢ /١٥٧ ، صبح الأعشى ٧ /١١٨
(٥) الروضتين ٢ /١٦٢

وأما الغفران فهو دافع مهم للحروب ، لأنه بمقتضاه تُغفر الذنوب مهما كانت ، وقد أعتمدت عليه البابوية في إرسال الحملة الأولى ، وما تبعها من حملات ، وحين خمد هذا الدافع في نفوس الفرنج ، وعرفوا أن صكوك الغفران لا تسمن ولا تغني من جوع ، فشلت الحملات لقلة المشتركين فيها ، رغم النداء المستمر الذي كان يرسله أهالي عكا ، يقول العماد عن تحريض الاماقفة ، بأنهم "نادوا في نواديهم أنه من شخص من بيته مهاجرا لحرب الإسلام ، وهبت له ذنوبه وقد نبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر ، سفر بعدته وثروته إن قدر ، فجاؤوا لابسين الحديد بعد ان كانوا لابسين الحداد" (١) ، وجاء منهم المدد للحرب ، وهذا المدد أنما كان بعد سقوط القدس ، وأما بعد أن سيطر المسلمون على معظم الساحل وتغلبوا على الجموع الوافدة ، ولم تفلح البابوية في مد الفرنج الذين بعكا بجموع كبيرة فقد سقطت في أيدي المسلمين .

٤ . الاثارة العاطفية : لجأت البابوية الى كل الوسائل التي من شأنها أن تلهب حماس الحكام والناس لمد الكيان الفرنجي في الشرق الاسلامي بما يحفظه من الذوبان في المجتمع المسلم ، فأثارت عاطفة الابوة عند الابناء ، كما أثارت غريزة حب المال والنفس ، ويتجلى ذلك مما حدث مع ملك الالمان حين أنحصر الوجود الصليبي في صور ، فكاتبه أهلها بأن عظام أبيه التي الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج ، وكأنه أسير ينتظر أن يفرج عنه ، فانه لا يقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص ، والآن ما كان فلا منه أسترخص ، فان المسلمين قد أشتغل بعضهم ببعض ، والتهوا عن كل واجب (٢) ، وفي هذا اشارة الى أنفراط عقد الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين ، وفيه أنّ الطمع حركهم للاستيلاء على البلاد المقدسة مرة أخرى .

كما أثاروا عواطف الجماهير بلبس الحداد حزنا على سقوط القدس ، يقول القاضي الفاضل عن البابا بأنه قد لبس الحداد وطلب منهم لبس الحداد وحكم عليهم ان يستمروا كذلك أو يستخلصوا المقبرة (٣) .

ومن وسائل أثارة الجماهير أيضا خروج القسس والرهبان يحملون صورة قبر المسيح، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور .

ويقول العماد بأنهم قد "نادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبادهم الاسلام وأبادهم" (٥) ، وفعلوا ذلك في غير بلد أوروبي .

---

(١) الروضتين ٢/١٤٩ والفتح القسي ٣٢٨

(٢) الروضتين ٢/١٢٣ وانظر ص ٦٠

(٣) المصدر السابق وصبح الاعشى ٧/١٢٨

(٤) الروضتين ٢/١٦٠ وابن شداد ١٣٦ والطرق ١/٣٣٦

(٥) الكامل ١١/٣٢ مفرج الكروب ٢/٢٨٨

ومن وسائل أثارة المقاتلين عندهم رفع الصليب الذي يرمز عندهم الى التضحية ويظهر ذلك في مواقف عديدة منها حين نزلوا على دمشق سنة ٥٤٣ ، اذ خرج أمامهم قسيس كبير طويل اللحية ، يعتقدون به ، فركب حماره ، وجعل في يده صليبين وفي عنقه ثالث ، وعلق في عنق حماره صليبا رابعا ، وحمل الاناجيل والصلبان ، فلم يتخلف عنه أحد (١) ، كما ان العجائز تمد وروالتحريض في المعركة بما كنّ ينشدنه من أشعار ، وبما كن ينخين بها الرجال (٢) .

هذه طرق التحريض عندهم ، وهي تختلف عن طرق التحريض عند المسلمين في معظمها لأن التحريض مرتبط بنوع العقيدة ، فبينما كان الفرنج يعتقدون بالمسيح والصليب ، أعتقد المسلمون بالله إلها واحدا طالبهم بالجهاد والدفاع عن الارض والنساء والاطفال ، ومن هنا نجد صور الادباء على وضع الاستنهاض في قالب ديني ، فمن ذلك قول الامير جمال الدين الكناني مخاطبا الملك الكامل حين حاصر الفرنج دمياط :

وأذخر ليوم البعث فعلا صالحـــــا   الله ضامن أجره وكفيلـــــــــه (٣)

ويقول طلائع مخاطبا نور الدين :

فاغتنم الجهاد أجرك كسي تلـــــــ   ـــقى رفيقا له ونعم الرفيـــــق (٤)

ويقول ابن سناء الملك في مدح الملك العزيز :

أرضيت ربك في حراسة دينـــــــه   وسررت عيسى إذ نصرت محمـــــدا (٥)

وقد بين الشعراء أنّ الله يمدّ المجاهدين بعونه ونصرته ، إذ ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، يقول طلائع بن رزيك ، مخاطبا نور الدين قلج ارسلان صاحب الروم :

أما فكم من يتقي الله وحــــــــده   أما في رعاياكم من الناس مسلـــــم ؟
تعالوا لعل الله ينصر دينـــــــه   إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـــــم
وننهض نحو الكافرين بعزمــــــة   بأمثالها تحوى البلاد وتقســـم (٦)

ويقول ابن دنينير في حث الامراء والاجناد على القتال حين نزل الفرنج على دمياط سنة ٦١٥ :

أتيموا عمود الدين لله تصمــــدوا   فقد جاءكم عيسى وهذا محمـــــد *
فريق الهدى ، والله يظهر دينـــه   على دين من قد أشركوا وتمردوا (٧)

ونلاحظ أن هذه المعاني قد وردت في القرآن الكريم " وإذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا " (٨) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق) ٣٠٠
(٢) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٣٦٢
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ، ١٩٦
(٤) ديوان طلائع بن رزيك ٣ ١٠
(٥) ديوان ابن سناء الملك ١٥٦ وانظر عقد الجمان ج ١١ ق ١ ورقه ٥٨ مخط
جواهر السلوك ورقه ٦٠ مخط
(٦) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ وانظر المزيد من الأمثلة الروضتين ١ / ١٩٠ ، ٢٣٣
* المقصود بعيسى ومحمد أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين
(٧) ديوان ابن دنينير ورقة ٤ .   (٨) سورة الانفال ١٢

ومن طرق التحريض عند المسلمين تهوين أمر الفرنج ، وبيان ضعفهم ، وقد كان ذلك بعد بدء الانتصارات عليهم ، وبعد الاتجاه نحو الوحدة الاسلامية ، يقول ابن القيسراني محرضا نور الدين زنكي :

فسر وأملأ الدنيا ضياء وبهجة — فبالأفق الداجي الى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لافل حده — وأقصاه بالاقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا — وليس سوى جاري الدماء له طهر (١)

ويقول ابن منير محرضا نور الدين أيضا :

رد الكنائس كنسا للهدى فخبت — نار الضلال ، ووارتها أثافيها (٢)

ومنها ما كتبه القاضي الفاضل الى صلاح الدين " فشمر عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا ، وأحلل عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى ، وأسل الوهاد بدماء العدا (٣) .

ومنه قول ابن التعاويذي محرضا صلاح الدين سنة ٥٨٠ :

ورح الصدى منها بأدهم رائع — يعنو لعزته الصباح الاشهب
وبراية سودا فقلب الشرك منـ — ـذ عقدت لملكك مستطار مرعب (٤)

وقول القاضي رشيد الدين بن النابلسي محرضا صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا مالك الارض مهدها فما أحد — سواك من قائم للهدى ينتظر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة — فيها لأعدائك الآيات والنذر (٥)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا وطرد آخر صليبي :

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها — لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهض الى الارض فالدنيا بأجمعها — مدت اليك نواصيها بلا نصب (٦)

وهكذا استمر الأدب محرضا على قتال الغزاة ، منذ أن وطئت أقدامهم أرض المسلمين في المشرق الاسلامي حتى طرد آخر جندي صليبي ، لاكما يقول محمد سيد كيلاني من أن التحريض كان مرتبطا بالقدس فقط ، حتى اذا ما فتحت القدس فتر التحريض (٧) ، والصحيح أن ادباء العرب قد نظروا الى الفرنج على أنهم طارئون مغتصبون يجب طردهم واستئصالهم حتى تم ذلك فعلا .

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٤٦ (٢) الروضتين ج ١ ق ١ ، ٢٣٠
(٣) صبح الاعشى ١٠ / ٩٧ وانظر ١٠ / ١٤٩ ونهاية الارب ٨/٤
(٤) ديوان ابن التعاويذي ٢٤
(٥) الروضتين ١٠٢/١ ، عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ مخط
(٦) جواهر السلوك ، ورقة ٦١ ، ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٧ - ١١٨
(٧) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص ٢٥ ، ٢١٦ وانظر صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٥٠

وفي كل خطوة نحو الوحدة الاسلامية كان الادباء يحرضون على طرد الفرنج ، يقول العماد في تهنئة أسد الدين شيركوه :

فتحت مصر وارجو أن تصير بهـا   ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من   فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد في بسالته   والدين من عزمه في جحفل لجب (١)

ويقول ابن الزكي محرضا صلاح الدين على فتح القدس حين فتح حلب :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب (٢)

ونلاحظ ان كل فتح قبل استعادة القدس كان يذكّر الشعراء بفتح القدس ، سواء كان الفتح في صورة توحيد للبلاد الاسلامية ، كما يظهر مما سبق أم في صورة استعادة المدن التي وقعت تحت الاحتلال الصليبي ، يقول القيسراني :

فان يك فتح الرها لجة   فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا   ر أن المقيم بها راحل * (٣)

وقد استغل الادباء المناسبات الخاصة والعامة أفضل استغلال ، فنفذوا الى قلوب الحكام ، وحرضوهم على تحرير الارض وتطهيرها من دنس الغزاة ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك في رسائله التي بعثها الى الشاعر أسامه بن منقذ ، وفيها يطلب منه أن يحث نور الدين على قتال الفرنج :

ألق عنا رسالة عند نور الـ   دين ما في القائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليه   من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للد   ين شهاب وللحروب شبيب (٤)
والذي لم يزل قديما عن الا   سلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج اذا لا   قوه يوم من الزمان عصيب
ان يوم نزت حقد هم فلا   بد من قناه في كل قلب قليب (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ، ابن الفرات ، تاريخه مجلد ٤ ج ١ ، ٤٥٦
(٢) الروضتين ٢ / ٤٦ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٧٠ ، وديوان عرقلة الكلبي ٣٠ وديوان طلائع ١٢٦
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٧
* لمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ج ١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
(٤) ديوان طلائع ٦٤ ـ ٦٥
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ٦٤ ـ ٦٥

ومنه قول العماد في تهنئة نور الدين بالعيد وظهور ابنه محرضا اياه على تقليم أظافر الفرنج :

يا أعظم الناس قدرا ... وقل لنصيرك قدر
ما أعقبت الاوفاء ... وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو ... للمشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم ... للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر ... الى أبتسامك ثغر
روم بمصر وفرنج ... في شغلهم لك وتر
حرب عوان وفتح ... على مرادك بكر
بنو الأصيفر من خشيـة أنتقالك صفر
لم يبق للكفر ظفر ... لا كان للكفر ظفر (١)

وقول الحافظ أبي القاسم ابن عساكر حين أعفى نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالخشب :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا ... للأجر ، جوزيت أجرا غير محتسب
والاجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
فالجد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والإدراك بالطلب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر الى حلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والأشراك والصلب (٢)

ونلاحظ أن الادباء قد أستغلوا المدح الشخصية بالاضافة الى المناسبات للمطالبة بتطهير المقدسات من دنس الغزاة ، كما شخصوا الاماكن المحتلة وأنطقوها وبثوا فيها الحياة في مثل قول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى :

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت اليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي مدنس (٣)

ومن ذلك قول عمارة اليمني محرضا على فتح القدس :

وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه اليك التشوق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه ... قريبا والا رائد ومطرق
هو البيت أن تفتحه والله فاعل ... فما بعده باب من الشام مغلق (٤)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٥٧٨
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥
(٣) الانس الجليل ١ / ٣١٨ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٢٩
(٤) الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ٤٦٩

وقول ابن النبيه محرضا الأشرف موسى :

فما وصورا الى رؤياك عاطشة ... فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها اذ تسيّره ... إليك فهو سلام أو تحيات (١)

وقول الأمير جمال الدين الكناني في حصار دمياط :

والثغر ناظره اليك محدق ... ما إن يمل من الدموع همولـه
والسفن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته وبان ذبولـه (٢)

ومن مظاهر التحريض والاستغاثات ، وصف الصراع بين المسلمين والفرنج في حججه المنطقي وبيان أن حسمه لا يكون إلا بالقوة .

يقول ابن النبيه محرضا السلطان الاشرف موسى على قتال الفرنج حين اتحدوا مع الروم وهاجموا المسلمين في حلب ومصر :

الق العدا تلاقت كلما سنحوا ... ولا تقف ما حبال القوم حيات
فأنت بجيشك لا تحفل بكثرتهم ... فانهم ابغاث الطير أقوات
أنت السيل فمزق ليس كفردهم ... واصبر ورابط فالأعداء نيات
زلزل بغارتك الشعواء دارهم ... شقيقة النجب الغر الاغارات
بوادر ودنوا من موعد بهم ... فكيف لو قد أتت منها النهايات
ثق يا أبا الفتح بالفتح المبين فلم ... تنسب لغير أبيك الفتوحات (٣)

ويقول ابن دنينير مخاطبا الجند والامراء في حصار دمياط :

فلا تجزعوا من حادث جاء قاصدا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد
فشنوا لدين الكفر غارات معشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد
فذا الدين ما أرسى قواعد حتى ... لدى الناس الا ذابل ومهند
فحزبكم حزب الإله وأنتم ... هم الغالبون الشراة والعود أحمد (٤)

---

(١) ديوان ابن النبيه ٦٧
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ١ / ١٦٧ وانظر الروضتين ٢ / ٨٥ ،
جـ ١ ق ١ / ١١٦
(٣) ديوان ابن النبيه ص ٦٦
(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٤

وقد تراوحت دعوات الاستثارة هذه بين الشدة والشعور بالثقة حين يكون المسلمون في مركز القوة ، وبين التفجع والتألم حين يكونون في حالة ضعف ، ولكن الادباء حتى في الحالة الاخيرة ، لم تضعف ثقتهم وايمانهم بان النصر النهائي سيكون للمسلمين ، وبامكاننا ملاحظة نوعي الاستثارة في كثير من الادلة الشعرية السالفة ولا بأس من أن نذكر مثلا واحدا هنا على كل منهما ، يقول ابن دنينير في مدح الملك قلج أرسلان بن الملك المنصور بن شاهنشاه أيوب

فانهض الى نصر دين الله في جذل ... في جحفل شرق بالخيل ذي زجل
جيش يجيش بأبطال اذا برزوا ... قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلب في عرنينة شمم ... نجم الدسيعة مرد غير متفسل (١)

ويقول جمال الدين الكناني في حصار الفرنج دمياط مخاطبا الكامل :

ولئن قعدت عن القيام بنصرة ... جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... صلبانه وتلي به أنجيله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه ... وخفى على سمع الورى تهليله (٢)

وقد تبين بوضوح مما سبق أن التحريض عند المسلمين أتخذ طابعا مرتبطا بعقيدتهم مثلما كان للتحريض الفرنجي طابع مرتبط بعقيدتهم .

ومن الصور التي قدمها الادب العربي للوجود الفرنجي في المشرق الاسلامي ، صورة المدن المدمرة بعد الاحتلال ، يقول ذحية بن عبدالله بن نصر في المعرة حين خربها الفرنج :

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ ... ـه عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وابك من كان بها من ... شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها ... فهي كانت منازل الاحباب (٣)

ويؤكد قول ذحية هذا قول أبي بشر بن الحوارى ، وقد وقف على داره بالمعرّة بعد هجوم الفرنج عليها فقال :

أهذه بين أنكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملامحها ... عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فصحت أسألها والدمع منسكب ... والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الايام قد حكمت ... فينا وفيك بحكم الجائر الجاني (٤)

ومثله قول أبي سلامة محمود بن علوي :

أنا من بلدة قضى اللـه يا صا ... ح عليها كما ترى بالخراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعا ... من شيوخ وصبية وشباب (٥)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقه ٢٣ (٢) السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٩٦

(٤) الخريدة ، قسم الشام ٢ / ٨٧ (٥) الخريدة ، قسم الشام ٢ / ١٠١

ولم تكن المعرة بالطبع البلد الوحيد الذي تعرض لهذا التخريب والإفساد بل إن بلدانا أخرى في الشام قد تعرضت لما تعرضت له المعرة ، يقول العماد في تدمير الفرنج للاذقية " ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت " (١)

ويقول ابو المعالي بن المهذب في وصف العدو والوباء الذي انتشر في الشام نتيجة التقلقل وانصراف الناس عن شؤونهم الخاصة :

ولقد حللت من الشام بقعـــــــة — أعذر بساكن ربعها المسكيـــــن
وبُثت وجاوزها العدو فأهلهـــــا — شهداء بيـــن الطعن والطاعـــون (٢)

وكيف بعد ذلك ينصرف الناس إلى أعمالهم بطمأنينة ، والفرنج يهددونهم في معيشتهم وممتلكاتهم يقول ابو الحكم الجلياني :

أتانا صائتـــــا الـــــــف — تديــــدًا أو يـــزيد ونـــــا
فيمضهـم من أنـــــد — ويمضي من فلسطينـــــا
ومـــن عكا ومن صـــــور — ومن صيـــــدا وتبنينـــــا
اذا أبصرتهـــــم أبصـــــر — ت أتوامـــا مجانينـــــا
ولكن حرقوا غـــــي عـــــا — جل الحال البساتينـــــا (٣)

وبعد وفاة صلاح الدين عاد النزاع بين الحكام المسلمين من جديد ، وعادت بعض السيطرة للأعداء ، فعاثوا في الديار وخربوا القدس بعد أن أصلحها (٤) ، وخربوا بعض المناطق الاخرى القريبة من حصونهم ، إذ قام الاسبتاريون من حصن المرقب بإفساد المناطق المجاورة وتهديد أصحابها ، حتى ضاقت على أهلها فأصبحوا كأنهم يعيشون داخل قبور أو سجون ، كما يقول صاحب تشريف الايام والعصور (٥) .

ولو قارنا بين المدن قبل أن دخلها الفرنج وبينها بعد أن خرجوا منها ، لوقفنا على حقيقة أفسادهم ، فهذا الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) زار بلاد الشام قبل نصف قرن من الغزو الصليبي ، ووصف عدة مدن زارها ، منها طرابلس ، وقد قال في وصفها " ... وحول المدينة المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج ، والموز والليمون ... وشوارعها وأسواقها جميلة ، ونظيفة حتى لتظن كل سوق قصر مزين ، وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام وفي وسطه نافورة من النحاس الاصفر " (٦) وقد أحدث الفرنج في هذه المدن تدميرا غيّر معالمها ، كما غيّر معالم غيرها من المدن ، فأصبحت الآثار تنبئ عما كانت عليه من عمران (٧) .

---

(١) الروضتين ١٢٨/٢ — (٢) الخريدة ، قسم الشام ٢ / ٢٦٦
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ / ١٣٩ ، عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ١٨٠
(٤) الشذرات ٦٥/٥
(٥) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ٦٧
(٦) سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ص ١٣
(٧) أحمد بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٩١ نقلا عن :
Barker, The Crusades p. 28.

وقد فرض الفرنج إبان سيطرتهم الخراج على البلدان المجاورة ، فضاقت أحوال الناس حتى أعتبر القاضي الفاضل أن من شهق في هذه الايام فما واسى المؤمنين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من أخوة المؤمنين (١) .

ويقول الملك الناصر داود من كتاب الى عز الدين بن عبد السلام حين هاجم الفرنسيس مدينة نابلس واستولوا على ما كان مدخرا من الاموال والغلال فيها ، وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال " فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون وسجعت على القلوب من أسماعها ، فودت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذت قبل سماعها مكانا قصيا ... أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢) " .

وقد ران على المسلمين حزن عميق بعد سقوط القدس ثانية في أيدي الفرنسيس ، لأن سقوطه في المرة الأولى كان في وقت عصيب حين كانت الأمة الإسلامية مجزأة ضعيفة ، أما في المرة الثانية فان العالم الاسلامي كان في وضع أفضل ، فكيف تسلم المدينة المقدسة بهذه السهولة ؟ ، ولهذا امتزجت الدموع بالنقمة على الذين فرطوا في القدس ، يقول قاضي الطور الشيخ مجد الدين :

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع وأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه ... وشمر عن كفي لئيم مذمم *
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (٣)

ويقول ابن المجاور :

أعيني لاترقي من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها ... وتشكو الذى لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه في أكرم الحجرات (٤)

* * * *

هذه صورة عن الصراع الحضاري بين الوافدين من الغرب ، وأهل هذه المنطقة من الشرق الاسلامي .

---

(١) الدر الثمين ، لابن قاضي شهبة ورقة ٦١ مخط وأنظر الروضتين ٢/١٦٦

(٢) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، ورقة ٩٥ مخط

* المقصود بالعلج الملك المعظم عيسى بن العادل

(٣) الشذرات ٥/٦٦ ، ذيل الروضتين ١١٦

(٤) الروضتين ٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦

القسم الثالث : الصراع العسكري :

توجهت الدويلات الأسلامية بالحروب الصليبية ، فأستيقظت من سباتها العميق علــــى تهاوي المدن الواحدة تلو الأخرى بيد الفرنج ، وقد صور الأدب حزن المسلمين وتفجعهم ... ولكنهم ـ كما قلنا ـ لم ييأسوا وإنما تقبلوا التحدي منذ أول لحظة وحرضوا القادة على صد الغزاة وطردهم ، وعلى الرغم من الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الصليبيون الا ان الشعراء يبينوا ان النصر ممكن اذا اتحدت الأمة ، فهذا ابن الخياط يستهزئ بالفرنج ويجعل أنتصارهم نتيجة غفلة من الزمان ويبين أن عضب الدولة أمير دمشق سيوقفهم عند حدهم فيقول :

أنكرتم أن الزمان أجزكـــــــــــم ... لولا بنيكم الوخيم المرتـــــــــــع
لا تأمنن صريمــــــــة عضبيــــــــة ... من أن تقيم الحـــــق عند المقطــــــع
يثنا لنير رداكـــم لم تمتقـــــــل ... وظبى لنير بواركـــــم لم تلمـــع (١)

وقد بقي التحدي قائماً بسبب استمرار الغزو الصليبي ، وبقي معه الصراع الحربي مستمراً لـــــم يتوقف حتى في وقت الهدن ، لأن الهدنة كانت تعني ترك الحرب مؤقتاً مما يتيح المجال أمام الفريقين لان يعملا على تعزيز الجهود للجولات المقبلة ، وقد ظهر هذا التحدي حتى بعـــــد المعارك التي هزم فيها المسلمون ، كما ظهر بطبيعة الحال بعد المعارك التي هزم فيهــــــا الفرنج ، وقد أتاح هذا الصراع الطويل للشعراء أن يعطوا صورة واضحة عن التجهــــــيزات العسكرية عند الفرنج ، وهي صورة تناولت الجيش وأسلحته وقادته وحصونه وتخطيطه ومعاركه ، وعقد مقارنة بينه وبين الجيش الاسلامي ، وسنتابع فيما يلي أجزاء هذه الصورة كما رسمها الادباء

أولا : الجيش الصليبـــــــي :

كان هدف الفرنج أحتلال أراض واسعة في بلاد الشام منها القدس ، ولذلك تحركــــت الجيوش الهائلة لتغطي عملية المد الواسعة ، كما تغطي عملية الانتشار في الاراضي المحتلــــة ، وقد شاركت فيها دول أوربا وأهمها فرنسا وألمانيا وأنجلترا كما شارك فيها الرجال والنساء حتى الاطفال (١) ، يقول ابن عنين :

فكـــم أمرد خط الحســــــام عــــــــذاره ... وكم أشيب كان النجيع خضابـــــــــه (٢)

وبعد أن استقرت لهم الامور في مملكة بيت المقدس ، وجه الفرنج أنظارهم الى البلاد المجـــــاورة مما دعاهم الى طلب المزيد من النجدات وأنشاء فرق دينية عسكرية كان لها أثر فعال في الحروب الصليبية وأشهرها كما أسلفنا ، الاسبتارية Hospitalars وهم فرسان المستشفـــــــى ، والداوية Templars فرسان المعبد *

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٨
(١) النوادر ١٠٨ ، الفتح القسي ٣٠٦ ، الحركة الصليبية ١/ ٦٥٤
(٢) أحمد بدوي ، عمر بن أيوب المعظم عيسى ص ٧٦
* انظر رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ٧٨ ، عارف العارف ، تاريخ القدس ص ٧٥

وقد قام فرسان المعبد بأعمال كثيرة أقضت مضاجع المسلمين، حتى أصبح الظفر بهم من الأعمال العظيمة التي يفتخر بها ، وقد كان لاعتداءاتها على المسلمين أثر في أثارة حفيظة السلطان الرحيم صلاح الدين إذ جعل جائزة قيمة لكل من يسلمه فارسا من هؤلاء ليقتله مع أنه تحفظ كثيرا في قتل الاسرى ، ولذلك علل سلوكه هذا بقوله على لسان ابن شداد "... لما جرت عادتهما بالمفادات ولا يقلعان عن المعاداة ، ولا يخدمان في الأسر ، وهما أخبث أهل الكفر "(١).

وقد كثرت الفرق المحاربة بسبب طول فترة الحروب وبسبب كثرة المشتركين فيها ، ومنها فرق البيازنة والجنوية وفرق أخرى ألمانية وفرنسية ، والفرقتان الاوليان فرقتان تجاريتان أخذتا المظهر الحربي لحماية القوافل ، ثم ما لبثتا أن اشتركتا مع الفرنج في قتالهم من المسلمين ، يقول العماد في وصف سفن صلاح الدين التي هاجمت صور : " فأنشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج ، وقرنصت بزاة البيزانية ، وتقلصت جفاة الجنوية ، وكثرت أدواء الداوية ، وكثرت أسواء الاستبارية ، وزادت آلام الالمانية ، وعادت أسقام الافرنسيسية ..." (٢)

وقد أنضاف اليهم عدد آخر في حصار عكا سنة ٥٨٧ هـ حيث جاءت الامدادات الكثيرة من أوروبا " في كل ذئب أمعط ، وسيد قد تورط ... وباروني طالب للبوار ، وأستبارى راغب في التبار وداوي معضل الداء ، وتركبولي غير تارك للبلاء ، وسرجندي كرار ، وفريري غير فرار ، وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل الفرسان الابطال ..."(٣)، ولكن كثرة هذه الفرق، وتفوقها على نفسها ، وخروجها عن العهود المعقودة مع المسلمين ، جعلها وبالا على الفرنج أنفسهم بعد أن كانت جمرة لهم ، ولم يغفل مؤرخو هذا العصر ذلك ، فهذا ابن عبد الظاهر يصف الاستبارية وأعمالهم التخريبية من حصن المرقب فيقول : " وكان بيت الاستبار الذين فيه قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم في حبس بل في رمس " (٤) ، ولم يعد بوسع المسلمين السكوت عن هذا التعدى ، لا سيما أن المماليك قد سيطروا على المراكز المهمة للفرنج ، فقام المنصور قلاوون بتحطيم هذه الحصون، وتتبعهم لتكثير أعتدائهم ثم تلاه ابنه في طردهم نهائيا من بلاد الشام (٥).

هذا وقد دخلت المرأة الفرنجية المعركة ، فشجعت المقاتلين ، وقاتلت معهم ، وقد لاحظ الادباء ثلاثة أنواع من النساء هي : المرأة الحاكمة ، والمرأة المقاتلة ، والعجائز ، وقد قام كل نوع منهن بدور في الحرب .

أما المرأة الحاكمة فقد أصطحبت معها الفرسان وأمدتهم بالسلاح والمال ، وقاتلت معهم في الميدان ، يقول العماد الاصفهاني : " ووصلت في البحر أمرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر وهي في بلدها مالكة الامر ، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها وتثبت ثباتها لثباتهم ... (٦)

---

(١) الروضتين ٢/٧٩ (٢) الفتح القسي ١٦١

(٣) الفتح القسي ٣٠٢ (٤) تشريف الايام والعصور ٧٧

(٥) أنظر القديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ٢٦٦ ـ ٢٢٧

(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الروضتين ٢/١٦٦ ، ١٨٣/١

وأما المرأة المعادية المقاتلة فقد لفتت أنظار المسلمين بشجاعتها وقوة بأسها ، وكأنها رجل في هيئتها ولباسها ، يقول العماد في وصف هذا النوع " وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وتوانس ، ولكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ٠٠٠ " (١) ، ويصف مجموعة أخرى بينهن تمكن المسلمون من تقتلهن في معارك فيقول : وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن من لينهن قسوة ، وليس لهن سوى السوابغ كسوة "(٢)، ويقدم العماد وصفا آخر لهيئة المرأة المقاتلة وهي صورة لا تختلف عن صورة المقاتل الفرنجي يقول : وذوات القناع من الفرنج مقنعات مدارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات " (٣)،

ويوضح ابن شداد هذه الصورة فيقول : " ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك(٤)، ويؤكد ابن الاثير ما ورد عند العماد وابن شداد فيقول : فانهم (الفرنج) كان منهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران "(٥)، أما العجائز فقد تمن بدور يناسب وضعهن ، فهن لا يقوين على القتال الا اذا استدعى الأمر ذلك ، وغالبا ما كن يحرضن الفرسان على القتال ، يقول العماد : وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز ، وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ٠٠٠(٦)٠

تلك هي أهم الجماعات الصليبية التي تحدث عنها الادباء وكان الغرض منها أظهار اندفاع جميع قطاعات المجتمع الفرنجي للمشاركة في الحروب ، وفيما يلي صور تقدمها الادب العربي عن الجيش الصليبي :

أ . وصف الامدادات الكبيرة :

قاد بطرس الناسك أعدادا ضخمة من المتحمسين في أول عملية للاستيلاء على بلاد الشام ، ولكن السلاجقة حطموا حملته وأفشلوا مخططاتها ، ولم تكد فلول العائدين تصل الى القسطنطينية ، حتى التقت بحملة الامراء التي تميزت بالنظام ، فانضم هؤلاء الفارون الى الحملة الجديدة ، وساروا جميعا الى بلاد الشام ليؤسسوا مملكة بيت المقدس ، وقد تهيأ لهم ذلك كما تهيأ لهم تأسيس امارات أخرى ٠

وما أن نجح الفرنج في تأسيس هذه الامارات حتى عاد بعض الحجاج مشوبين أهلهم وقومهم بالفتوح العظيمة التي حققتها الجيوش الفرنجية ، فتوالت الامدادات بدافع المشاركة في الغنائم والمشاركة في اعلاء راية الصليب على البلاد المقدسة ، على أن ما يلفت النظر في أمر هذه الامدادات ارتباطها بأوضاع الصليبيين ، فإذا ما تعرض هؤلاء لضغط قوي من المسلمين فان الامدادات كانت تتوافد عليهم من كل جانب ٠

---

(١) الفتح القسي ٣٤٩ (٢) الفتح القسي ٣٤٩ وأنظر الروضتين ٢ / ١٦٦
(٣) الروضتين ٢ / ١٦٦ (٤) الروضتين ٢ / ١٨٦ (٥) الكامل ١٢ / ٣٥
(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الفتح القسي ص ٣٢٩ ، ٤٠٦ ، والأنس الجليل ص ٣٦٦ والروضتين ٢ / ١٥٨

أما وصف الادباء لهذه الامدادات فيظهر جليا في عدد من الاحداث التاريخية الهامة : ففي سنة ٥٦٩ هـ اجتمع عدد من دعاة الدولة الفاطمية وكاتبوا الفرنج بالقدوم للقضاء على صلاح الدين ، فجاءوا بأسطول يحمل المدد العظيم للمتآمرين ، " كانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس وكانت عدتهم الف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد * ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني * وفي كل شيني مائة وخمسون راجلا ، وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكان عدة المراكب برسم حمل الازواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الرجال المتفرقة وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته ما يتم خمسين ألف راجل ... " (١) ، وقد توقع المسلمون حين هزموا الفرنج في حطين قدوم الامدادات الكثيرة ، فهذا القاضي الفاضل يخبر سيف الاسلام اخا صلاح الدين في اليمن بالفتوحات وتوقفها عند صور فيقول : ولهم في هذا الجانب الا صور ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وحطامها قصد اذعن ...ثم يقول : " وأنهم ـ لعنهم الله ـ أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ... وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية وصاحب قسطنطينية والثغور المغربية ينذرون بان العدو قد أبرم أمرا وحاول نكرا ... " (٢) ، وقد صدقت توقعات قادة المسلمين ، فقد جاءت أمم لا تحصى من كل حدب وصوب :

فكم عليك لهم شق البحار سرى	ليبصر القبر والأقدار تخذله
وكم ترحّل منهم فيلق بفنا	الى الصوامع ألقاه ترحّله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم	واستكثروا المال والهيجاء تثقله
كم قد أمدوا ، وكم قد فلّ جمعهم	من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في	جيش العدو فيسبيهم تخيله (٣)

ومع ذلك فقد تدفقوا الى عكا بأعداد وصفها العماد الاصفهاني والقاضي الفاضل أبلغ وصف ، يقول العماد في وصف تدفقهم على عكا بالرغم من خسائرهم : " فما أثر ذلك في نقصهم ، ولا أرث إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر وجميع من ديار الكفر ... " (٤) ، ويقول القاضي الفاضل في وصف تكالبهم على عكا : " ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه ، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يحجز بالكر مواصفه ، فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بعث البحر عوضه ألفا ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفا ، فالزرع أكثر من الجراد ، والثمرة أنمى من الحصاد ... " (٥) .

* الطريدة هي سفينة برسم حمل الخيل
* الشيني : السفينة الحربية الكبيرة

(١) مفرج الكروب ١٢/١
(٢) صبح الأعشى ٢٥/٧ ، الروضتين ٢ /١٢٦
(٣) الروضتين ٢ /١٥١
(٤) الروضتين ٢ /١٤٩
(٥) صبح الأعشى ٧ /١٢٧ ـ ١٢٨

ثم يقول في وصف الاجناس المختلفة التي أجتمعت في جيشهم "وأجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغريبة، والالسنة الاعجمية، من لا يحصر معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمــــــة فما يفهم الحداث الا التراجـــم

حتى أنه اذا أسر الاسير واستأمن المستأمن أحتيج في فهم لغته الى عدة تراجم، ينقل أحد عن آخر، ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان ... (١)، وفي وصف الامدادات البحرية يقول القاضي: "فلم يبق طاغية من طواغيتهم ولا أثفية من أثافيهم الا الجم وأسرج، وأجلب وأرهـج، وخرج وأشرج، وجاد بنفسه أو بولده وبمدده وبمدده وبذات صدره وبذات يده، وبكتائبه بـرا ومراكبه بحرا ... كل خرج متطوعا وأهطع مسرعا، وأتى متبرعا ودعا نفسه قبل أن يستدعى، وسعى الى حتفها قبل أن تستسعى، حتى ظننا أن في البحر طريقا يبسا وحتى تيقنا أن البحر قد غلا وعسا ... " (٢)، ويقول: فانبرى ملكا افرنسيس وانجليتره وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والالة، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ... " (٣)، هذه أمثلة قليلة من شواهد كثيرة*، نلحظ من خلالها اعجاب الادباء بحماس الفرنج وجلدهم رغم باطلهم، ومن هنا اتخذوا مواقفهم هذه أداة تحريض للمسلمين: القادة منهم والرعية، يقول العماد: "فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين؟ وما ينقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه، وتظاهره في اتساع ملكه، واتساق سلكه، وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم، وتمتضلهم في تعاضدهم، وانحلال عقود تعاقدهم، فلا ملبي فيهم لمناد ولا مثقف لمناد ولا موري منهم في اجابتداح لزناد، فانظروا الى الفرنج أي مورد وردوا وأي حشد حشدوا، وأية ضالة نشدوا وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال هزموها وأنفقوها، وجدات جمعوها، وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ... " (٤)، ولا يتبادر الى الذهن ان هذه دعوات يائسة، وتسليم بالواقع، وانما هو نوع من الاثارة، فعبارات العماد تعني أن الفرنج مجتمعون بالرغم عن كونهم على باطل، وأن المسلمين متفرقون بالرغم عن كونهم أصحاب حق وكان الاجدر بهم أن يجتمعوا، وهذا ما ذكره القاضي الفاضل بعد كسرة المسلمين في عكا: يقول: "وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ويخرجـــون فنناجزهم ... " (٥).

---

(١) الروضتين ٢/ ١٨٥، وانظر النوادر السلطانية ١٢٦

(٢) صبح الاعشى ٦/ ٥٢٨ (٣) الروضتين ٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩

* للمزيد من الامثلة أنظر: الفتح القسي ٢٩٨، ٣٠٧، ٣٢٤، ٥٩٣، صبح الاعشى ٧/ ٣٦٨، ١٣/ ٨٨، ١٤/ ٦٠، النوادر السلطانية ١١٤، ١١٨، الانس الجليل ١/ ٣٥٩، الروضتين ١/ ٢٣٤، ٢/ ١١٧، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٤، مفرج الكروب ٢/ ٢٨٨، ٣/ ٢٤٥، زبدة الحلب ٢/ ١١٣، ١٣٠، الكامل ١٠/ ١٢٩، ٢٧٩، ٧/ ٥٢، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٧١، الاعتبار ٣٣٠، ابن الفرات ٤/ ٨٣، النويري الالمام بالاعلام ١٦٣، موزون تاريخ الحروب المقدسة ٦٧، مذكرات جوانفيل ٨٣، ١٤٢

(٤) الفتح القسي ٣١٦ (٥) الروضتين ١/ ١٨٩

ب- وصف المتعاونين من العدو :

من الطبيعي أن يفكر الفرنج في طريقة تضمن بقاءهم في منطقة غريبة عنهم ، فاستغلوا الظروف السائدة في الدويلات الإسلامية وتحالفوا مع بعض قادتها ، ومنهم أتابك دمشق معين الدين أنر ووزير مصر شاور السعدي ، يضاف اليها بعض القبائل البدوية التي كانت تعيش في منطقة الحدود ، كما أنهم اعتمدوا على الأرمن والتتار والروم من سكان المنطقة .

ومن الغريب أنّ أحد الشعراء وقف موقف المادح لهؤلاء الغزاة وأتباعهم ، بالرغم من كل الافعال الوحشية التي ارتكبوها ، فقد قال هذا الشاعر في مدح القائد الصليبي حين كسر الافضل بن بدر الجمالي : نصرت بسيفك دين المسيح فلله درك من صنجيل
وما سمع الناس فيما روي بأقبح من كسرة الأفضل (١)

ويأتي العرقلة الكلبي بعده بخمسة عقود تقريبا فيمدح الفرنج حين استعان بهم الامير معين الدين أنر ضد صلاح الدين الياغيسياني صاحب حماة بقوله :

غدا تطلع الشام الفرنج بخيلهم ... مسوّدة أبطاله للمصائب
رجال اذا قام الصليب تصابت ... رماحهم في كل طاغٍ وراكب
لها الليل نقع والأسنة أنجم ... فما غير أبطال وغير جنائب (٢)

وفي مصر مدح عمارة اليمني شاور ويذكر الفرنج حين اتحدوا مع جيشه ضد أسد الدين شيركوه ، فيقول :

تولوا عن الافرنج فادح ثقلها ... ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تحمين ليلة ... ثيابا لهم ما بدّلت بثياب (٣)

على أنه لم يمدح الفرنج الا قبل وحدة مصر مع الشام تحت حكم نور الدين ، هذا وقد لقي الشاعر الذي شمت بهزيمة الافضل جزاءه الحقّ إذ توصل الافضل الى قتله ، وأما العرقلة فقد مدح أمير دمشق المتخاذل في زمن كانت الأمة فيه مفككة ، ولكن ما لبث ان عاد الى الصف حين توحدت الامة ويشهد على ذلك مواقفه الكثيرة التي يشيد فيها بأعمال القادة المسلمين وجهادهم ضد الفرنج (٤) وأما عمارة اليمني فانه لم يمدح الفرنج في شعره بل وجه مدحه للجيش الفاطمي وعزز على تعاون الفرنج مع الفاطميين (٥) ، وقد عقد الشعراء مقارنة بين الحكام المخلصين الذين يتصدون للغزاة واولئك الذين انصرفوا الى اللهو ، يقول المهذب بن اسعد الموصلي في مدح صلاح الدين وقد غزا حلب سنة ٥٧٦ :

ملوك جلهم مغرىً بظلم ... ومشغول بلهو أو مزاح
اذا ما جالت الابطال ولّت ... ويقدم نحو جائلة الوشاح (٦)

---

(١) الانس الجليل ١ / ٣٠٨ (٢) ديوان عرقلة الكلبي ص ٥ ، الروضتين ١ / ٩٥
(٣) الروضتين ١ / ١٣٢ ط دار الجيل (٤) أنظر ديوان العرقلة ص ٢٦ ، ص ٣٠
(٥) الروضتين ١ / ١٣٢ (٦) مضمار الحقائق ٤٧

ويقول ابن سناء الملك في هذا المعنى :

مالك لم يدبرها مدبرهـــــــا ... الا برأى خصي أو بمقـــل صبـــي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحـــت ... من الفساد كما صحت من الوصـــب (١)

ويقول العماد مادحا صلاح الدين يوم حطين :

فرح النبي بالظبى في الحروب يطربـــه ... لا قينة صَنجُها اللحن مطـــــربـه (٢)

وقد مدح بهاء الدين اسعد بن يحي البخاري صاحب حماة بهذا المعنى فقال : *

جاهدت في الله طوعا والملوك غـــدوا ... يستهترون بذات الحلي والحلـــل (٣)

هذا وقد تعاون الفرنج مع بعض الاشخاص الاعراب الذين أتخذوهم أدوات يستخدمونها للقيام بأعمال النهب والتخريب ، ومن ذلك مساعدتهم لعمارة اليمني حين حاول اعادة الحكم الفاطمي في مصر ، يقول القاضي الفاضل في وصف جماعة عمارة : " ... وكان أكثر ما يتصلون بـــه ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة ، والدراسات المتقاطرة الى الفرنج — خذلهم الله — التي يوصفون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والقظائع ، ويزينون لهم الاقـــدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عـــن اجابتهم ، الا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم ... " (٤) ، وقد لقي عمارة جزاءه وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

عمارة في الاسلام أبدى جنايـــــة ... وبايع فيها بيعة وصليبـــــا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمـــد ... فأصبح في حب الصليب صليبـــا
وكان خبيث الملتقى ان عجمتـــــه ... تجد منه عودا في النفاق صليبـــا
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجلـــــه ... ويُسقى صديداً في لظى وصليبـــا (٥)

وقد استمال الفرنج بدو الاتراك لأهمية المنطقة التي يعيشون فيها اذ تقع في طريق المواصلات بين مصر والشام ، وكذلك بين الديار المقدسة والشام ومصر ، ولذا فقد طالب القاضي الفاضـــل صلاح الدين بترحيلهم ، وجعل ذلك من وسائل قص أجنحة الأعداء فيقول : " علم المملوك بما يؤثره المولى بان يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويفلل أسلحتهم ويقطع مواد شرهم ويخـــرب بلادهم ، وأكبر الاسباب المبنية على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم احدا من العربان .. وأن ينقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان ، ومما أجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده

---

(١) الروضتين ٤٤/٢ (٢) الروضتين ١٠٢/٢

(٣) مفرج الكروب ١٤٤/٣

* للمزيد من الامثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ١٠٠ ، ومفرج الكروب ٢٠٢/٤ ، الروضتين ٤٤/٢ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، عقد الجمان جـ ١٨ ق ١ ورقه ١١٦ ، ديـــوان ابن عنين ص ٢٣

(٤) الروضتين ٢٠٢/١ — ٢٢١ (٥) الروضتين ٢٢٦/١

من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص في تبديل دارهم ، الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا ...(١)

هذا فيما يتعلق بتعاون الفرنج مع المنحرفين من المسلمين ، أما تعاونهم مع سكان المنطقة من غير العرب ، فقد أشرأبت نفوسهم للتعامل أولا مع الأرمن ، ثم فيما بعد مع التتار حين غزا هؤلاء بلاد المسلمين ، وقد كاد الفرنج يوقعون المسلمين بين فكي (كماشة) باتحادهم مع التتار ، ولكن الوقفة الشجاعة التي وقفها قطز هدمت هذه الامال ، وقربت نهاية الطرفين .

ومن الادلة على تعاون الارمن مع الفرنج ضد المسلمين ، ما أورده العماد بشأن ملك الالمان الذي جاء بجيش عرمرم لانقاذ القدس وغيرها ، فما كان من الارمن الا أن أتصلوا بصلاح الدين يخبرونه بالجيش الجرار ، وكان قصدهم من ذلك اثارة الفزع في نفوس المسلمين ، يقول العماد : " ولا شك أنه الى جنسه النجس مائل وبعلاة أهل ملته قائل ..."(٢) وهذا ما جعل الشاعر الجمال الواسطي بن الخطاب المقري يهاجم في شعره ملك الارمن " ابن لاون " وذلك اذ يقول :

أزرت ابـــــن لاون لاواءه	فأضحى به خبرا من عيان
ودان من الـــذل لا يرعوى	حذارا من الراعفات اللدان
فلا قدم عنده للثبــــات	وليس له بسطاكم يدان(٣)

وقد تعاون التتار مع الارمن لنصرة الفرنج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادى) ، وأجتمعت قوات هذه الاحلاف بأعداد هائلة وهاجموا حمص ، ويصف ابن عبد الظاهر تعاون تلك الاحلاف فيقول عن ملك الارمن أنه " كان يحمي سرحهم ويمرد صرحهم ، ويستنطق هتف التتار ويسترجع مدحهم ، وتمتز طرابلس الشام بأنه خال ابرنسها الكافر ، ولسان مشورته السفير ، ووجه تدبيره السافر ، وطالما غر وأغرى ، وجر وأجرى ، وضر وأضرى ..." (٤)

وقد عبر عن ذلك شعرا بقوله :

وأستجمع المغل والتكفور وأتفقوا	مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم	لأرض حمص فكان البعث والنشر(٥)

ولكن أتحاد مصر والشام ثانية زمن المماليك مكن المنصور قلاوون من ايقاع الهزيمة بهم ، فكانت بداية لطردهم من الشام كما يقول أحد شعراء دمشق .

هلك الكفر في الشام جميعا	وأستجد الاسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الار	وع سيف الاسلام عند نهوضه(٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ (٢) الروضتين ٢/١٥٠
(٣) الروضتين ٢/١٦
(٤) نهاية الارب ج ٥ / ١٥٧ ، وللمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ١ ق ٢ ، ١ /٣٧ وأحمد بدوي في صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ص ٥١
(٥) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ مخط ، وانظر عقد الجمان ٢٠ /٣ ورقه ٤٨٥ ، ٤٩٧ والقديس لويس ص ١١٢
(٦) الروضتين ١ /١ /١٢٩

ج- وصف قوتهـــــــم :

أبرز الادباء تكالب الفرنج على احتلال الشام واعادة الوسائل لذلك ، ومن هذه الوسائل ضخامة الجيوش ، اذ لم يدخلوا معركة كبيرة في عدد يسير قط منذ ان دخلوا بلاد المشـــرق الاسلامي ، يقول ابن الخياط ، وقد عاصر الاحداث الاولى للحروب الصليبية :

إلام وقد زخر المشركـــــــون بسيل يهال لها السيل حـــــــدّا
وقد جاش من أرض أفرنجـــــــة جيوش كمثل جبال تـــــــردّى (١)

وحين هاجموا دمشق زمن مجير الدين ابق كانت الخيل مثل السيل كما يصفها العرقلة الكلبي :

من قاتل الافرنج دينا غفـــــيره والخيل مثل السيل عند المشهـــــر (٢)

ويقول أبو الحكم الاندلسي في ذلك :

أتانا مائتـــــــا ألـــف عديـــدا او يزيدونـــــــا
فبعضهمُ من أندلـــــــس وبعض من فلسطينـــــــا (٣)

وحين حاصروا دمياط سنة ٥٦٥ جاءوا بألوف مؤلفة لم يعرف للبحر ساحل لكثرتها ، ويقـــول فتيان الشاغوري في ذلك :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميـــــا وليس له من كثرة القوم ساحـــــل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهـــم ألوف ألوف خيلهم والرواجـــــل
رأوا دونها أسدا بأيديهم القنـــــا وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقـــــل (٤)

وفي وقعة حطين الفاصلة ، زمن صلاح الدين يقول العماد : " وخرجوا عن العدد والاحصاء وكانوا عدد الرمل والحصا ، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ، ويكيدون وما يكيدون ، قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد ، وهم هناك مقيمون ، لا يريمون ... " (٥)

وفيهم يقول ابن سناء الملك :

جمعوا كيدهمْ وجاءوك أركــــــانا فمن قدّ فارسا قدّ ركنــــــا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـــــــــ ـــك لاقيتهم بلادا ومدنـــــــا
كل من يجعل الحديد له ثوبـــا وتاجـــــــا وطيلسانا وردنـــــــا (٦)

---

(١) ديوان ابن الخياط ١٨٤
(٢) الروضتين ١/١/١٣٦ عقد الجمان ١٢ ق ١ ورقة ١٨١
(٣) الروضتين ١/١/١٣٩
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٨
(٥) الروضتين ٢/٧٦
(٦) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤

وحين فتح صلاح الدين القدس بعد ذلك " رأى ملكاً كبلاد وجمعاً كجو التناد ، وعزائم تسد تآلفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بمنصته ... " (١) وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ جاءت الجيوش الفرنجية من كل صوب " ندبوا بواغي راجل كرجل الدبا وخيل أعنت الوهاد والربى ... " (٢) ويقول القاضي في وصفهم : " فإنهم خذلهم الله أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ، وراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ، ويطلع في كل مدينة كسبا ... " (٣) ، وحين هاجموا دمياط زمن الملك الكامل بن العادل جاءوا بأعداد لا تقل عن الاعداد التي جاءوا بها في المرة الاولى ، يقول قاضي غزة هبة الله بن محاسن في ذلك :

ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا

أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلاً كما سل الحسام مجردا (٤)

ويقول ابن دنينير في ذلك :

إلا م التمادي والفرنج بجمعهم ... على جيد دمياط كما انتظم العقد (٥)

ويقول ابن عنين في وصف الجموع الفرنجية :

قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ... ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا

عليهم من الماذي كل مفاضة ... دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا (٦)

وحين هاجموا مصر في المرة الثالثة سنة ٦٤٧ زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم توران شاه كانوا في عدد عظيم ، فزع منه أهلها وظنوا أنهم قد أحيط بهم ، ولكن توران شاه استغل فيضان النيل وهاجمهم هجوماً شل قدرتهم وأوقف تقدمهم ، بل جعلهم يتراجعون ثم يستسلمون ، تقول رسالة صدرت عن المعظم توران شاه الى نائبه في دمشق : " فإن كان قد استنفد أمره (أمر لويس التاسع) واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله ... " (٧) ، وفي معركة حمص زمن المنصور قلاوون اتحد الفرنج والأرمن والتتار فكونوا جيشا جرارا يذكر عدده ابن عبد الظاهر فيقول :

جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لا يحصر مكان البحث والنشر (٨)

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥٠٥
(٢) الروضتين ٢/١٦١
(٣) صبح الأعشى ٧/٢٤
(٤) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/٢٠٩
(٥) ديوان ابن دنينير ورقة ٤
(٦) ديوان ابن عنين ص ٣٠
(٧) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١ مخطوط
(٨) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ورقة ٦٧٨

وأخيرا في معركة عكا سنة ٦٩٠ تجمع الفرنج من جميع المناطق ودافعوا الملك الاشرف عنها ولولا تصفه لها وحصاره المستمر لما أستطاع استعادتها (١)٠

هذه أمثلة سريعة * تلمح من خلالها بيان الادب لاستعداداتهم وتشددهم واحتمالهم المشقات من أجل الوصول الى الهدف ، واذا كان أدباء الحروب قد نوهوا بصبر الفرنج وشجاعتهم ** فانما أرادوا بذلك استنهاض همم المسلمين ، وكان الادباء أرادوا المقارنة بين موقف الصليبيين الذي يثير الاعجاب وموقف المسلمين الذين لم يقذفوا بقوتهم كلها في الميدان ، وليستنفذوا الطاقة في دفع العدو عن بلادهم ، على أن لتعظيم العدو شيء لا يخلو من هدف آخر وهو تعظيم نصر المسلمين ، فكلما كان العدو قويا ٠٠ كانت قيمة النصر أعظم ، وهذا ما أشار اليه الشاعر عمارة اليمني حين خاطب شاور السعدي بقوله :

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى   تعظيم شأنك ، فاعذرني ولا تلم (٢)

صورة الجيش الصليبي وحركته :

استرعى الجيش الصليبي المنظم أنظار الادباء ، فوصفوه كلا متكاملا في حالة الثبات والحركة والهجوم ، وهو في هذه الحالات كلها لا يخرج بعضه عن بعض ولا يتأخر فريق عن فريق ، وبذلك يحمون أنفسهم من أي هجوم اسلامي على جزء منفصل منه٠

---

(١) أنظر جواهر السلوك ورقة ٤٠ وما بعدها

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١/١/٥٣ ، ٢/١١٧ ـ ١١٨ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١ ديوان البهاء زهير ١٢٢ ، عقد الجمان ج١١ ق ٢ ورقة ٤٦ ، ٤٥٧ ، ج١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ ، الباهر ٣٣ ، ٥٦ الفتح القسي ٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٩٠ ، ٤٣٩ ، ٥١١ ـ ٥١٢ ، ٥٧٨ ، الكامل ١١/٥٩ ، ٤٥٦ ، ١٢/٢٩ ، مفرج الكروب ٢/١٤٨ ، ٣٠٠ ، ٣/١٤٥

** أنظر الروضتين ١/١/٣٩ ، ٢/١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، الاعتبار ٤٨ ، صبح الاعشى ٧/١٢٨ ، النوادر السلطانية ٩٧ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، مفرج الكروب ٢/٢٨٣ ، الكامل ١٠/٦٢٢

(٢) الروضتين ١/٢/٥٧٧ ، وفيات الاعيان ٢/١٥٩

ونجد هذه الظاهرة عندهم منذ بداية الحروب الصليبية حتى منتهاها ، فحين حاصر عماد الدين زنكي حصن الاثارب " اهتموا بجمع الفرسان والاجناد واحضروا من أطراف البلاد وجمعوا الداني، والقاصي ، والمطيع والعاصي ، وأقبلوا في جموعهم المحشورة وعساكرهم المجرورة وأعلامهم المنشورة، وصلبانهم وبنودهم وكنودهم ، وجاء اليه وقد غص بهم من الارض جنوبها وأخذ منهم شمالها وجنوبها ..." (١) ونشاهد مثل هذا التحرك الجماعي زمن نور الدين ، يقول ابن منير :

اجاءوا الارماح لهم شهبا	بحيث النور ملتطم العباب
مشوا متساندين الى صليب	يبرقع شهوة الصم الصلاب (٢)

وقد ظهرت هذه الصورة بشكل أوضح في معارك عكا لأن الفترة التي استغرقتها دامت سنتين ، تعرف المسلمون الفرنج عن كثب ، يقول العماد في وصف هجوم فرنجي على المسلمين : " خرجوا يوما قبل العصر ، في عدة كالليل خارجة عن الحصر ، قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا ، وتقدموا وأقدموا للطوارق حاملين وللسيوف مجردين ، ... " (٣)، ويصف وصول جيشهم الى أرض المعركة في " جمع شاك ، وجمر ذاك ، وقنطاريات طائرات ، وسابريات سابغات ... " (٤) .

هكذا ركز الأدب على اظهار حركتهم بشكل جماعي إذ يخرج فارسهم وراجلهم بشكل جماعي،اذ يخرج فارسهم وراجلهم وملوكهم وتماثيلهم وكنودهم ، ويشكلون في أرض المعركة مقدمة وميمنة وميسرة وقلبا ، وفي هذا الاطار نجد التنسيق الدقيق ، فالرجالة محدقون بالفرسان والفرسان يحيطون بالعلم المرتفع ، فان كانوا في حالة أنتقال من مكان الى مكان ، سار الجيش دون أن يستجيب لاستفزازات المسلمين الا حين الضرورة ، بل إنه يتحمل السهام الغزيرة ولا يقدم على معركة لا تناسبه ، حتى اذا ما أحس جانب من الجيش بالارهاق جاء جنود من الجانب الآخر وحلوا محل الجند المحاذين للمسلمين ، حتى يصلوا المكان المقصود ، يقول ابن شداد : "وثم قسم آخر من الرجالة مستريح ، يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو اثخنتهم الجراح ، قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم المقاتل. هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير ... وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم يسير أيضا في وسطهم كالمنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال .." (٥)

---

(١) الباهر ٤٠ وأنظر الكامل ١١ / ٣٠١
(٢) الروضتين ١ / ١ / ٢٢٩
(٣) الفتح القسي ١٦٤
(٤) نفسه ٦٢
(٥) الروضتين ٢ / ١٩٠

وان كانوا في حالة هجوم فإنهم يهجمون بشكل منظم وبأقصى قوة مستطاعة ، يقول العماد : " وللداوي دوي وللاستباري هوى ، والهاروني يقدم على البوار ، والتركبوني يلقي نفسه على النار (١) وأما إن كانوا في حالة سكون فمن الصعب استثارتهم ، بل يبقى تركيبهم كما هو : الرجالة تحمي الخيالة ، والخيالة تحيط بالعلم ، يقول العماد : " ووقفوا على صهوات الخيول الى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالاسوار ، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، وعلى مواطئهم نابتون ، كالبنيان المرصوص ما فيه خلل والحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق ، وكالجبل الاشم ما فيه متعلق ..." (٢) ، ويقول أيضا فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم ، وأتعب قتالهم ، واذا انبثوا تعذر حصدهم ، واذا اثبتوا تعسر تصدهم ، واذا التصقوا ببطن الارض صاروا كالقراد ، واذا حلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم ، وعند الانحصار يمكن احتياطهم ... " (٣) .

هذه أمثلة عن صورة الجيش المتكامل* ، أما الفارس الصليبي ، فهو يتصف بالشجاعة والإقدام ، ويضحي بنفسه ليكون سورا للآخرين ، ومما يدل على ذلك ما يرويه ابن شداد عن شاهد عيان " أن فارسا وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال " (٤) وما يقوله العماد في وصفهم بأنهم " قد التأموا واستلأموا وأنفسوا وأنتظموا وتقدموا وأقدموا ... " (٥) وما يقوله في وصف أفرنجي " كأنه جني مستشيط ، للشيطان نجي ، وهو يداقع ويمانع ويكافح عن تلك الثغرة ويقارع ... " (٦) .

ولم تقل شجاعة نسائهم عن شجاعتهم ، فقد وجد العماد نساء مقتولات وكأنها فوارس في هيئتها وشجاعتها ، ولم يكن بأمكان المسلمين تبين هويتها الا بعد تعريتها من الدروع ، مما جعل العماد يقول : " وفي الفرنج فوارس لهن دروع وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ... " (٧) ** .

ويظهر من الادلة السابقة صفة أخرى هي الصبر وتحمل المصاعب ، يقول ابن عنين :

لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا	طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرا	فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا	لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجنا (٨)

(١) الفتح القسي ٦٢ (٢) نفسه ٢٦٩ (٣) نفسه ٢٩٦

* للمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ٢٩٨ ، ٢٩٥ ، ٣ الخريدة قسم الشام ٣٥/١ ، ديوان ظافر الحداد ٣٧٥ ، الروضتين ١٧٩/٢ ، ١٩٠ ، النوادر ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٠ ، الكامل ٥١/١١ ، ٥٣ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٣٢/١٢ ، ٣٧

(٤) النوادر السلطانية ١٦٧ ، وأنظر ١٦٦ ، والفتح القسي ٢١٢

(٥) الفتح القسي ١٦٤ (٦) نفسه ٥٠٤ (٧) نفسه ٣٤٩

** لمزيد من الامثلة عن الشجاعة انظر : الاعتبار ٦٤ ، النوادر السلطانية ٢٢٣ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ٣٥٤/١١ ، ٥٥٥ ، الباهر ٤١

(٨) ديوان ابن عنين ٢٠٥

ومن الصفات الاخرى التي وصف بها الجيش الفرنجي اغتنام الفرص ، سواء باستغلال التمزق السياسي عند المسلمين أو باستغلال الظروف الطارئة ، فحين استنجد بهم شاور من مصر ضد أسد الدين شيركوه ، أتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها (١) ويظهر هذا الطمع في قول مري لاصحابه : " ان نور الدين بحلب ، وعساكره متفرقة ، ومتى وصلنا الى مصر لم يكن لنا من يصدنا عنها فاجابوه الى مراده " (٢)، ويبدو من قوله هذا أهتمام الفرنج بعزل مصر عن العالم الاسلامي لاهميتها في تقديم الاموال والرجال ، ولانها تشكل مع الشام فكي (كماشة) تحبط تطلعاتهم التوسعية .

هذا وقد وصف الادب لباسهم في المعركة وأشكالهم ، فهذا العماد يصف لباس فارس بقوله : " قد أتخذ طارقته لجسمه صدفا ، وصار لسهام المنية هدفا ، وهو كأنه مما نشب فيه من النشاب القنفذ ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ (٣)، وقد أتكأ الشاعر المصري ابن سارة الاشبيلي على هذه الصورة في معرض وصفه لبركة فيها سلاحف ، اذ شبهها بالجيش الفرنجي على رؤوس جنده الخوذ وعلى أكتافهم الطوارق يقول :

لله مسجورة في شكل ناظرة	من الأزاهير أهدابها وطرف
فيها سلاحف ألهاني تقاسمها	في طاشها ، ولها من عرمض لحف
تنافر الشط الا حين يحضرها	برد الشتي فتستدني وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها	جيوش النصارى على أكتافها الجحف

ويعقب الرشيد بن الزبير على قوله هذا بقوله : هذا معنى بديع لا يفطن لحسنه الا من رأى فرسان الفرنج في طوارقها ورؤوسهم أشبه الاشياء برؤوس السلاحف لما عليها من التشانيق (٤)

ويصفهم ابن شداد بقوله : " وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيها النشاب ولا يتأثرون ... " (٥) ، ثم يقول : " ولقد شاهدتهم وينشرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ... " (٦) .

هذه هي هيئة المقاتل الفرنجي ، الراجل منهم أو الفارس ، وقد وصف ابن شداد صورة الفرس التي يركبها الفارس ومقدار تأنقهم في تزيينها بالزرد حتى الحوافر يقول : " وكان عليه لبس لم ير مثله (٧) .

---

(١) الكامل ٣١٤/١١ (٢) ابن الفرات مج٤ ج١ ص ١٩

(٣) الفتح القسي ٥٠٤

(٤) الخريدة / قسم شعراء مصر ج ٢ ق ٤ ص ٢٧٨ وأنظر ابن القلانسي ص ٣٢٨

(٥) النوادر ١٧٩ ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٣

(٦) النوادر ١٧٩

(٧) نفسه ١٥٠

ومع أن تلك الصفات استأثرت بإعجاب الادباء بهم إلا أنها كانت تنطمر أو تكاد لافتقار الفرنج الى النزعة الانسانية إذ إن الشجاعة العظيمة ترتبط عادة بسمات انسان كريم ، كالتسامح ونبل الاخلاق والتواضع عند النصر ، ولكن الفرنج لم يتحلّوا بهذه الصفات ، مما جعل أسامة بن منقذ يقول فيهم : " اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل " (١) ، فلا عجب إذن أن يُصْدِرَ أدباء العرب أحكاما قاسية عليهم ، حتى وان أشادوا بشجاعتهم وشماسهم وصبرهم ، وبما وسم به الفرنج على ألسنة أدباء العرب ، الغرور والغدر والوحشية والحقد والجهل والتعدي على الآخرين ... وقد ذكرنا أدلة كثيرة مضت في معرض الحديث عن الصراع الحضاري ، لكن لا بأس أن نذكر مثلا جامعا للصفات في وصف المركيس صاحب صور يقول : " وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه وأضرى سراحينه ، وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه ، وأغوى أعوانه ، وأخون اخوانه ، وأبخس بغاثه ، وأجفى جفاته ، وأرعى حماته ، وأحمى رعاته ، وشر شراره ، وأنكر نكاره ، وأفجر فجاره ، وأروغ ثعالبه ، وأسب عقاربه ، وأحنث معاهديه ، وأنكث معاقديه ... " (٢) *

وقد قدم الادباء في مقابل ذلك صورة للبطل المسلم بعيدا عن الطيش والغرور شجاعا تقيا عادلا متواضعا ، يقظا كريما ، مرعبا للظالمين ، قريبا الى قلوب الناس الذين يحكمهم * * .

---

(١) الاعتبار ٦٤ ، ٩٧

(٢) الفتح القسي ١٠٦

* لمزيد من الامثلة : النوادر ١٦٩ ، الروضتين ١ / ١ / ١٨٢ ، ٢ / ١١٧ ، الفتح ١٠٦ ، ١١٠ ، ديوان أسامة ٢٠٣ ، الكامل ١١ / ١٢٩

* * أنظر أمثلة على نقد الصفات : الروضتين ١ / ق ٢ / ٤٢ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ج ٢ ق ٢ / ١٣ ، ٢٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٠ .

ثانيا : الأسلحة والمعدات العسكرية :

ميز الادب بين نوعين من الاسلحة التي أستعملها الصليبيون ، وهما الاسلحة الخفيفة ، وهي غالبا ما تكون أسلحة فردية يحملها الجندي الصليبي ، والأسلحة الثقيلة وهي التي يعتمد عليها الجيش الصليبي في مجموعه ، وتستعمل في الهجوم والدفاع .

أما الاسلحة الخفيفة فهي الاسلحة الضرورية لكل مقاتل كالترس والدرع والسيف والقــوس، والسهام والرماح ، يقول ابن سناء الملك واصفا الجندي الصليبي (المدرع) :

حملوا كالجبال عظما ولكـــــن ... جعلتها حماتنا كثيـــبا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركـــانا ... فمن هدّ قارسا هدّ ركنــا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـــ ... ـك لاقيتهم جبالا ومدنـا
كل مَنْ يجعل الحديد له ثـوبـــ ... ـا وتلجا وطليسانا وردنـــا (١)

وقد ذكر العرقلة صورة طريفة لأتراس الفرنج وطوارقهم ، فشبه الطاطلج المصنوع من العجين (نوع من الحلوى يصنع من طبقات رقيقة جدا من العجين) وفيها السيخات بالطوارق (الاتراس) الفرنجية التي علقت فيها السهام التركية يقول :

الارب طاه جاءنا بعد فـــترة ... بأطباق طاطلاج أشفه من الثلـــج
وقد غارت السيخات فيها كأنهـا ... نبال ترك في طوارق أفرنـــج (٢)

وقد جاء ذكر الطوارق عند ابن القيسراني قبل ذلك في معرض حديثه عن أنتصار نور الدين علــى الفرنج في موقعة أنب ، وقد وهم محقق الروضتين اذ ظنها رماحا (٣) ، والمعنى بها لا يستقيم ، فابن القيسراني يصف انقلاب السلاح الذى بأيديهم من سلاح قتال بالمسلمين الى سلاح قتال بهم ، حتى إن الاتراس (الطوارق) التي كانت تقيهم الرماح والسهام أصبحت تثور تحتها المصائب وذلك بأن تسمح للسهام والرماح بأن تنفذ منها حاملة الموت للأعداء فيقول :

كانت سيوفهم أوحى حتوفهـــم ... يا رب حائنة منجاتها العطـــب
حتى الطوارق كانت من طوارقهـــم ... ثارت عليهم بها من تحتها النـــوب (٤)

وجاء في ذيل تاريخ دمشق أن نور الدين زين قلعة دمشق بالطوارق الفرنجية وأنواع الاسلحة (٥) كما جاء في الخريدة (قسم شعراء مصر) أن الشاعر ابن سارة الاشبيلي وصف بركة ماء وفيهـــا سلاحف بصورة الجيش الصليبي الذى يلبس أفراده الخوذ ويضع كل منهم الترس على كتفه (٦) .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٢) الخريدة / شعراء الشام ١ / ١٩٠
(٣) أنظر الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤ وقد ذكرت الطوارق بمعنى الترس في هامش رقم (٥) من كتاب النوادر السلطانية ص ١٢٧
(٤) الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤
(٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨
(٦) الخريدة / قسم شعراء مصر / ٢ ق ٤ / ٣٧٨

وبالاضافة الى الترس والسيف فقد أستعملوا الدروع الحديدية الواقية لهم ولخيلهم ، يقول ابن شداد عن ابن ملك الالمان إنه " عرض عسكره في أثنين وأربعين مجفجفا ٠٠٠ "(١) وجاء في المعجم الوسيط أن التجفاف آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس أو الانسان ليقيه في الحرب ، كما أستعملوا النشاب والجرون * وقد ذكر ذلك أبن الوردي الذي شارك في معركة عكا الأخيرة سنة ٦٩٠ هـ (٢) .

وأما الآلات الثقيلة ، فقد أظهر الادب أنواعها وصورها بشكل مفصل ، وذلك لتصوير قوة الجيش الفرنجي وكثرة عدده ، وقد كان بعض هذه الآلات يصنعها الفرنج في أرض المعركة مثل الأبراج والدبابات والمجانيق والجسور ، وكان بعضها يأتي مصنوعا من بلادهم ، وأخصها القطع البحرية .

وقد أستخدمت القطع البحرية ، في نقل الجنود والسلاح والميرة من أوربا الى المشرق الاسلامي ، كما كانت تستعمل أيضا في عمليات الهجوم ضد المدن الساحلية . يقول ابن الفرات في تاريخه " إن الفرنج نزلوا على دمياط سنة ٥٦٥ هـ في عالم عظيم ٠٠ وكان وصولهم في ألف ومئة مركب ما بين شيني ومسطح وطريدة " (٣) ، ويقول العماد في حديثه عن ملك الانجليز " وكان معه من الشواني خمس وعشرون قطعة كل واحدة منها تشاغي تلعة وتوازي قلعة ، واحدث في القلوب روعة وأورث في النفوس لوعة " (٤) ، وفي حصار دمياط سنة ٦١٥ هـ وصل للفرنج مركب عظيم " يسمى " مرمة وحوله عدة حراقات يحمونه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه" (٥) ، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يصنعوا مراكب في الأرض التي أحتلوها ، فقد ذكر ابن الأثير ان البرنس أرناط عمل أسطولا فأنزله في بحر أيله ، وأفترقوا فرقتين الاولى على حصن ايله وهو للمسلمين والثانيه على عيذاب" (٦) .

والأمثلة على استعمال السفن في الهجوم على المدن المحصنة كثيرة ، ومنها ما ذكره ابن الفرات أيضا من " ان الفرنج أتخذوا مركبا يعلو سور دمياط وشحنوه من الرجال والسلاح وأجروه في البحر الى أن وصل سور دمياط فوثبوا منه الى السور وفتحوها (٧) .

---

(١) النوادر ١٢٦ ، وأنظر الكامل ١٢ /٤٦

* الجرن - نوع من الاقواس الرامية التي يرمى عنها النشاب أو النفط .

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /٢٢٥ ، ابو الفداء / المختصر في تاريخ البشر ٤ /٢٥

(٣) تاريخ ابن الفرات مج٤ ، ج ١ ، ص ٨٣ ، وانظر المراكب في ابن القلانسي ١٧١

(٤) الفتح القسي ، ٤٨٤ .

(٥) مفرج الكروب ٤ /٩٥ .

(٦) الكامل ١١ /٤٩٠ .

(٧) تاريخ ابن الفرات مج٤ ، ج ١ /٨٢ وانظر آثار البلاد للقزويني ١٩٤ ، ٢٢٢ وتاريخ ابن الفرات مج ٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٠

ومن المدن الساحلية التي تعرضت لهجوم بالمراكب مدينة عكا ، فقد ذكر ابن شداد أن الفرنج " أعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا الى المكان الذى ينقلب عليه فتمشي عليه المقاتلة " (١) ، كما وصف العماد أحد المراكب التي هاجمت عكا فقال : " وأخذ تلك المراكب قد ركب بين على رأس صارية لا يطاوله طود ولا يباريه ، وقد حشي بالنفط والحطب وضيق عطنه لسعة المطلب " (٢) ، وقد اعتمد الفرنج على مثل هذه المراكب في حربهم للمسلمين في عكا سنة ٦٩٠ ، فيروى ابن الوردى وقد اشترك في المعركة ، أنه شاهد " مراكب مقبية بالخشب الملبس بجلود الجواميس ، ويرمي الفرنج منها بالنشاب والجروخ والقتال من قدامهم من جهة المدينة ومن يمينهم من البحر ، وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي على الحوييين ... " (٣) .

ومن الآلات الثقيلة التي صنعوها ، الابراج ، ونلاحظ أنهم اعتمدوا عليها في وقت مبكر من الحروب الصليبية ، اذ استخدموها في حصار صيدا سنة ٥٠٤ هـ ، فعملوا برجا وزحفوا به على سورها ، ويذكر ابن القلانسي هيئته بأنه " ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط ، وكانوا اذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحته في عدة أيام متفرقة " (٤) . وقد زاد اعتمادهم على الابراج في حصار عكا ، وذلك حتى يصلوا الى سورها فينقبوه أو يرتقوه ، ولما احتاجوا الى المواد الاولية استوردوها من أوروبا ، وتحملوا في نقلها المصاعب الكثيرة ، يروى ابن واصل أن " الفرنج قد شرعوا في بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ونقلوا في البحر آلاتها ، وأخشابها الجافية وقطع الحديد ، وتمموا فيها سبعة أشهر ، فصلت كأنها أطواد ، ونصبت في ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، وملئت طبقاتها بالعدة والعدد وكل برج منها في أركانه أربع أسطوانات عاليات طوال ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر " (٥) ، ويصف ابن شداد مساحتها وسعتها فيقول : يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق " (٦) .

ويلخص العماد بلغته المؤنقة ما ذكره ابن شداد وغيره مبينا أن البرج يتكون من عدة طبقات فيقول : " ... وركّبوها من الاخشاب الطوال الأطوال ، والعُمُد الثقال ، وبنوّضوها وقذفوها ، ونصبوها وأحكموها ، وسقفوها طباقا ، وسمّروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا ، ولبّسوها بالسلوخ وملأوها بالجروخ ، وزحفوا بها الى السور وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور" (٧) .

---

(١) النوادر ١٤١ (٢) الفتح القسي ٣٦٧
(٣) تاريخ ابن الوردي ٢٣٥/٢ ، ابو الفداء تاريخ مختصر البشر ٢٥/٤
(٤) ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، وانظر زبدة الحلب ١٤٦/١
(٥) مفرج الكروب ٣١٥/٢ (٦) النوادر السلطانية ١٢٠
(٧) الفتح القسي ٣٦٧ ، وانظر ص ٣٧٠ ، لوصف الدبابات ، انظر تحقيق الشيال للنوادر السلطانية هامش ص ٤٢

والآلة الثالثة الثقيلة التي أستخدمها الفرنج هي الدبابة ، وقد جعلها القاضي الفاضل شبيهة بالبرج ، مع أن هناك فروقا بين الآلتين يقول أنها " تشبه الابراج في جفاء أشخاصها وأرتفاعها ، وكثرة مقاتليها واتساعها " (١) ، والحقيقة أنها أقصر منها لان من أعمالها هدم الاسوار عن طريق دفعها بالكبش ولذلك يجب أن تكون أقصر من السور أو أعلى منه قليلا ، بينما يكون البرج كما ظهر من الادلة السابقة أعلى من السور . أما أنها تشبه البرج في الضخامة ، فربما كان ذلك صحيحا ، لان البرج يتكون من طبقات يعلو بعضها بعضا ، وأما الدبابة فهي مقسمة ولا تتكون من طبقات مرتفعة ، على أن هناك فرقين آخرين بين الدبابة والبرج هما :

أولا : ـ أن الدبابة تتكون من عدة طبقات متداخلة مما يجعلها أقوى من البرج (٢) ،

ثانيا : ـ أن البرج يختلف عن الدبابة في الشكل وفي المحتويات كما سيتضح من وصف الدبابة فيما يلي ، وقد تفنن الفرنج في صنع هذه الدبابات مع مرور الايام لا سيما حين تمكن المسلمون من حرق بعضها في عكا ، فجعلوها " بأربع طبقات : الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور* ، وتركب فيها المقاتلة "(٣) ويصفها العماد بقوله : وكان الفرنج قد أتخذوا دبابة عظيمة هائلة ، قد أظهرت لها في الشر طائلة ، ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق ، ولها من الاحكام بازوليا من ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس " (٤) ثم يصف أثرها في إثارة الرعب لدى المسلمين يقول : " وبلي البلد منها بكل بلية ، ورزى بكل رزية ، وكانت هذه الدبابة على العجل ، ليقربوا بتقريبها أسباب الاجل ، فباتت القلوب منها على الوجل ، وكاد أصحابنا يطلبون الأمان ، وخضع كل أبي وأستكان ، فقارعوا عندها أشد قراع وما صحوا أشد صاح "(٥) .

ولما كان سور عكا مانعا ، والدفاع الاسلامي عنها شديدا ، فقد أضاف الفرنج الى الدبابات اضافات أخرى ، مما جعل شاهد العيان ابن شداد يسميها " بالالات العجيبة والصنائع الغريبة " (٦) ، ومن هذه الاضافات رأس عظيم طويل مدبب لهدم الاسوار ، يقول ابن شداد في ذلك : فاتخذ الفرنج من الالات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد (عكا) .. فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة ، ويدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم ، برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها " (٦) .

---

(١) الالمام بالاعلام ، ١٦٥ (٢) أنظر الكامل ١٢/٤٥

* يعني هذا القول أن الأصل فيها أدنى من السور ولكن هذه الدبابة ركب عليها بسرج خشبي جعلوها تعلو السور ، أنظر النوادر السلطانية ص ٤٥ هامش رقم (١)

(٣) النوادر السلطانية ص ١١٦ (٤) الفتح القسي ٤٨٧

(٥) نفسه ٤٨٧ (٦) النوادر السلطانية ١٤٠

ويصف العماد هذا الكبش وعمله فيقول : " واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة ، وآلة للغوائل غائلة ، في هيكلها رأس عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان في طول رمحين كالعمود يهدمن الفليلين ، أثقال الاسوار بها تفض ، فكم سور اذا نطحته طحنته ، وكم معقل حصنه الدهر حصنه وهجنته ٠٠٠ " (١) ، وحتى تقلع هذه الدبابة في اضعاف ضم المسلمين من جهة وتقاوم القدور النفطية التي كانت تقذف عليها اتخذوا بنائها ، وألبسوا كبشها الحديد والنحاس ، يقول العماد : " ٠٠٠ وقد سقفوها وكبشها بأعمدة الحديد ، وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد ، ولبسوا رأس الكبش بصد الحديد النحاس ، وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس ، فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للمطلب عليها دليل (٢) ٠

وقد أحدث الفرنج آلة أخرى تشبه الدبابة أو القبو سماها ابن شداد بالسنور ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس الكبش مدور وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ٠٠ " (٣) ٠

والالة الرابعة الثقيلة هي المنجنيق* ، وهو آلة من الآت الحصار والهجوم في قلعة الحصر ، وقذائفه من الحجارة جلبها الفرنج معهم مرة من صقلية وقذفوا بها الاسكندرية ، يقول القاضي الفاضل : ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة استصحبوها من صقلية ، وتعجب الناس من أثرها وعظم حجرها ٠٠٠ " (٤) ٠

ومما يلفت النظر في هذا الجانب أن الادباء أمعنوا في وصف الدبابات والابراج ولكنهم لم يقدموا صورة دقيقة للمجانيق الفرنجية ، وانما وصفوا المجانيق الاسلامية ، يقول شهاب الدين محمود : ونصبت المجانيق (الاسلامية) فلم ترجحق جنسها (الفرنجية) وسلطت عليها ، فأصبح غدها في التحامل أبعد من أمسها ، واستنهضتها المدا فأعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، وسطت أنفسها امارة على الاذعان ورنحت أصابعها : إما إجابة ان تذل للتشهد وإما إنابة الى طلب الامان "(٥)

ويقول أيضا :

كأن المجانيق التي قمن حولها رواعد سخط وبلها النار والصخر (٦)

---

(١) الفتح القسي ٢٣٢

(٢) المصدر السابق ٢٣١

(٣) النوادر السلطانية ١٤١

* عن المنجنيق أنظر النوادر السلطانية ١٤٤ - ١٢٦ وصبح الأعشى ٢ / ١٤٤

(٤) الإلمام بالأعلام ١٦٥ ، وأنظر تفاصيل الحصار في الكامل ١١ / ٤١٣ ، ابن شداد النوادر السلطانية ٤١ - ٤٦

(٥) صبح الاعشى ٨ / ٢٦٦ ، حسن التوسل ١٤٥

(٦) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٩

ومما يرتبط بالاسلحة الثقيلة بعض الادوات المساعدة في الحروب في الجيشين الفرنجي والاسلامي مثل أدوات اطفاء الحريق، او اتقاء النفط ، فقد كانوا يستعملون الستائر التي يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والخمر ، يقول العماد في وصف عملية اطفاء الحريق "وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالزقاقات (براميل صغيرة) يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات " (١).

ومن هذه الادوات السلالم والجسور ، ففي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ استعملوا السلالم الكبيرة الهائلة ، كما استعملوها في التسلق على قلعة الطور ، لولا أن رماهم المسلمون بالنفط (٢). وأما الجسور فقد ذكرها عمارة اليمني في معرض مدحه لأسد الدين شيركوه :

لئن نصبوا في البر جسرا فانكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر (٣)

وفي سنة ٦٠٥ هـ أغار الفرنج على باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا خشبيا (٤) ، صنعوه من الاخشاب القوية التي تتحمل مرور جيش كبير عليه ، وقد أشار الادباء الى طول المدة التي يقضيها الفرنج في عمل هذه الالات ، كما ذكروا تكاليفها الباهظة ، يقول العماد : " ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الالات ويستسهلون عليها الغرامات ، حتى أقاموا أبراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها ، وقربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها " (٥). كما يذكر أن الكندهري أنفق على أحد المنجنيقات ألفا وخمسمائة دينار (٦).

---

(١) الفتح القسي ٤٢٣ ، وانظر النوادر ١٤١ ، ومفرج الكروب ٢ / ٣٠٣ ، ٣١٥
(٢) الذيل على الروضتين ١٠٧
(٣) الكامل ١١ / ٣٠٠
(٤) الذيل على الروضتين ٦٧
(٥) الفتح القسي ٢٧٢ ، وانظر ٢٧٧ وابن القلانسي ١٧٩
(٦) الفتح القسي ٤١٦ .

ثالثا : التحصينـــــــــات :

اتخذ الصليبيون التحصينات الدفاعية ، تحسبا لأي هجوم اسلامي عليهم لأنهم يعلمون أنهم طارئون على أرض المسلمين ، ولذلك أعتمدوا في حياتهم على عاملين أساسين : الأول الامدادات الخارجية ، وقد مر ذكرها : والثاني : التحصينات.

وقد صور الادب ، ولا سيما النثر ، أنواع هذه التحصينات ، فذكر أربعة أنواع لها :
(١) الحصون (٢) القلاع (٣) المغادر (٤) الاســوار .

أما الحصون فهي كثيرة ومنتشرة في الأماكن ذات التجمع السكاني أو ذات الموقع " الاستراتيجي " ولذلك ذكر الادباء نوعين من الحصون : برية وبحرية ، ومن الحصون البرية حصن كوكب وبيت الأحزان والكرك والشوبك والمرقب وبرزية ، وأما الحصون البحرية فمنها : مرقية والاذقيـــة ، ومما يدخل في ذلك أيضا ، المدن الحصينة كالرها والقدس وعكا وصور .

وتشترك هذه الحصون سواء في ذلك البرية منها أو البحرية ، أو المدن الحصينة في صفات القوة والمنعة ، يقول العماد في وصف كوكب : " وجئنا الى كوكب فوجدناها في مناط الكوكب ، كأنها وكر العنقاء ، ومنزل العواء ، وقد نزلتها كلاب عاوية ، ونزعت بها ذئــاب عاوية " (١).

وفي بيت الأحزان تجمع الفرنج لمراقبة تحركات صلاح الدين ، فجهز جيشا لمحاربتهم فاحتموا فيه لاعتقادهم أنه يحميهم ، لكن صلاح الدين خيّب ظنهم ، ودمّر حصنهم ، وفي ذلك يقول عمادة الضرير الحمصي :

فناهيك من جيش نهضت بجيشــــه ... فأقعدتَ ، لمّا أنْ نهضتَ به ، العــدى
وزرتَ بها الحصن الذي لو تحصّنـــت ... فوارسه بالنجم أوردته الـــــردى
تمنت به سلب الصليب ورهطـــــه ... وشيّدته لما غدا فتشيّـــــدا
هبتْ اليه هبة يوسفيـــــــــة ... تعيد هباء كل ما كان جلمدا (٢)

وقد أتخذ الفرنج حصني الكرك والشوبك مركزا مهما لمهاجمة القوافل الاسلامية ، ولمنع أي اتصال بين الشام ومصر ، فضلا عن تهديد الاماكن المقدسة ، ولذلك وصفه القاضي الفاضـل بأنه " شجا في الحناجر ، وقذىً في المحاجر ، قد أخذ الآمال بمخنقها ، وقعد بارصاد العزائم وطرقها ، ورصد الطرقات المسلوكة ، وخير في السبل المسكوكة ، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ... وجعل من هام الاسلام فكان عاتقــه ، وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفسا يصعد من تهامته ، فواديه من مسائل المسائل بمجرمها وظله من نجوم الأسنة بمطلعها ، وهو والشوبك ، يسّر الله الآخر (فتحه) كبيت الواصف للأسدين :

ما مرّ يوم إلاّ وعند همــــا ... لحم رجال أو يولغــــان دمــا (٣)

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦ (٢) الروضتين ٢ / ١٢
(٣) ابن بناتة المصري : الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٢٥ هـ

وكفى إشارة إلى أنه مكان الغزاة ومقرّها ومستودع الفريضة ومستقرها ... "

وقد قصد القاضي بهذا الوصف تحريض صلاح الدين ، وبالفعل حرك صلاح الدين جيشه لتأديب صاحبه ، وقد تراءى له أن من اليسير عليه امتلاكه ، لبعده عن أمدادات الفرنج ، ولكن موقعه الحصين جعل صلاح الدين يتريث ويحتال لامتلاكه . يقول العماد : " ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة ، بل هو واد من الأودية ، واسع الأفنية ، لسهل المفرع ، وهجم الموضع ، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق ، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق " (١) ، وينقل القاضي الفاضل صورة امتلاكه ، ومن خلالها نلمح منعة هذا الحصن وقوته ، يقول : " وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظاهرة ، وحجارتها على من فيه متاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وأسلبت قناع الستائر ووجوهها المتبرجة ... " (٢) ، ونتيجة لهذا القصف العنيف انهدم الجزء المقابل للمنجنيقات مما سهل السيطرة عليه ، يقول العماد : " فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه ، وانهدت قواعده وأركانه ... (٣)

إلا أن هذا الحصن لا يقارن بحصن المرقب ، وقد قدم شهاب الدين محمود صورتين طريفتين له ، إحداهما شعرية والأخرى نثرية ، يقول في الأولى مادحا المنصور قلاوون :

أوردتها المرقب العالي وليس سوى ... ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه ... ونثر تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت ... منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف ... والقلب قلب وسود الدجى طرر
تعلو الرياح إليه كي تحيط به ... خبرا ، وتدنو وما في ضمنها خبر
وليس يروى بماء السحب معمدة ... إليه من فيه إلا وهو منحدر
وأضرمت حوله نار لها لهب ... من السيوف ومن نبل الوغى شرر
وللنقوب دبيب في مفاصله ... تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به ... نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر (٤)

ويقول في الثانية : " وحوله من الجبال الشم كل شامخ ، تتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح خدما دون التوقل في هضابه ... قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ، ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ،

---

(١) الروضتين ٢/ ٥٦

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥٥

(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٥

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٧ ، ٣١٩

وظن من سما الى السماء أنه ذبالة في سراجه ، فكم من ذي جيوش تدمات بنصته ، وذي صلوات أعمل الحيل فلم يخز من نظره على البعد بفرصته ، لا يعلوه من مصص الطير سوى نسر الفلك ومرزمه ، ولا يرق متبرجات أبراجه غير عين شمسه والدقل التي تدارك من أنجمه ... " (١)

ولئن كان في هذا الوصف مبالغة ، فان ابن عبدالظاهر يصفه وصفا واقعيا بسيطا فيقول :

حصن عظيم القدر في سيـــــرة	لمن مضى قبلك لم يكتســـــب
اذ بدا والنجم من حولــــــه	تقول : نجم لاح في غيهــــــب
وان تلح للعين أبراجـــــه	يقال هذا موكب الكوكــــــب (٢)

ويطول بنا المقام لو استعرضنا بقية الحصون البرية * ، ولذلك ننتقل الى النوع الثاني منها وهو الحصون البحرية :

تفنن الصليبيون في صنع هذه الحصون ، كما تفننوا في صنع الابراج والدبابات ، فأقاموها في البحر ، دون أن ينظروا للصعوبات التي تواجههم ، مما يدل على تقدمهم في فن الحروب ، يقول ابن عبدالظاهر في وصف حصن مرقية : " ... عرضه قريب من طوله ، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعا ونصف بالعمل ، وعرض سوره سبعة أذرع ، وهو سبع طباق ، وبني على مراكب غرقت في وسط البحر ، فيها أحمال كثيرة من الحجارة تحت كل قطر منه مغرق تسعمائة مركب فيها حجارة ، وبين كل حجرين في أسوارها قضيبان من الحديد متصلان (في الأصل قضيبين من الحديد متصلين) وعليها شبك الرصاص ، وداخله صهريج عظيم ، وفوق الصهريج قبو ، وفوق القبو أخشاب ، وفوق الأخشاب حصى صغار ، وفوق الحصى خيش ، وفوق الخيش حبال قنب مشددة ، حتى اذا نصب المنجنيق من البر ورمي به لا يبلى ما يرمى فيه ، ويقع الحجر من أعلاه في الماء ، وفيه مائة مقاتل ، ولا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بمضايقة ... " (٣)

ويظهر مما مضى مقدار المهارة وحسن التأني في صنعه ليكون حاميا لهم في الملمات ومركزا دفاعيا اذا داهمهم المسلمون ، ولكن الرعب خرّب هذا الحصن كما خرّب الزلزال حصنا آخر هو برج اللاذقية ، ويصف ابن عبدالظاهر هذا البرج البحري لا من حيث طريقة البناء ، وانما يسلط الاضواء على أثره في المسلمين ، وأهميته للفرنج ، يقول : " وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات ، وآفة عليها من أكبر الآفات ، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلوب المسلمين ، وذخيرة لاعداء الدين ، وذلك أنه في وسط البحر لا تسلك اليه طريق من بر ، ولا ينقب له سور وكيف وخندقه البحر وكان يحتمي به للفرنج مال كثير من مينا اللاذقية التي هي مثل مينا الاسكندرية " (٤) .

---

(١) حسن التوسل ١٤٥ ، صبح الاعشى ٢٦٤/٨ - ٢٦٥

(٢) تشريف الايام والعصور ٨١ ، تاريخ ابن الفرات مج ٨ ، ١٧٦

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٥٦/٢ ، ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، صبح الاعشى ٢٨/٧ ، ابن جبير ٣٧٦ ، الفتح ٢٢٣ ، البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٧/١ ، ٤٣ ، الكامل ٣٤/١١ ، ٣٠٨ ، ٤٢٨ ، ٤٥٣

(٣) تشريف الايام والعصور ٨٨ (٤) المصدر السابق ١٥١

هذا ما بناه الصليبيون ليحافظوا على أنفسهم ، ولكنهم حين احتلوا بعض المدن الاسلامية أضافوا اليها التحصينات الكثيرة ، وأضافوا الى حصانتها السابقة مزيدا من الحصانة ، فها هو ذا ابن القيسراني يصف مدينة الرها بأنها مدينة افك تعجز السيوف عن اقتحامها كما عجز الملوك عن افتتاحها ، حتى جاء عماد الدين زنكي، يقول :

لقد كان في فتح الرهاء دلالـــة | على غير ما عند الملوك اعتقاده
مدينة إفك منذ خمسين حجـــة | يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الابصار حتى لو أنهـا | ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادهـــا | الى أن ثناها من يعز قياده (١)

ويؤكد ابن منير الطرابلسي مناعة المدينة وإباءها ، ويشبهها بالنجم البعيد الذي لا يناله انسان ، ولكنها من ذلك هي نجم دان لعماد الدين زنكي ، كما ان النجم يبصره المبصرون بسهولة يقول :

ولكم من ملك حاولهـــا | فتحلى العين وشمسا غير الجبين
هي أخت النجم إلا انهــا | منه كالنجم لرأي المبصرين (٢)

ومن هذه المدن أيضا طبرية ، التي بقيت بيد الفرنج حوالي تسعين عاما ، تتمنع على كل من يريد استرجاعها ، حتى جاء صلاح الدين فلانت من بعد قسوة ، يقول ابن الساعاتي :

وما طبرية الا هـــــدي | ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء | وسل عنها الليالي والسنينا
تسمت حتى رأت كفؤا فلانت | وغاية كل قاس أن يلينا (٣)

وقد أضاف الفرنج الى المدن الساحلية تحصينات عظيمة ، بالاضافة الى موقعها الطبيعي الحصين يقول شهاب الدين محمود في عكا :

كانت تخيلها آمالنا فترى | أن التفكر فيها أعجب العجب
سوران : بر وبحر حول ساحتها | دارا وأدناهما أنأى من القطب (٤)

ويقول بدر الدين محمد بن أحمد المنبجي مادحا الملك الاشرف :

وكم فتحت حصونا طالما رجعت | لبأس عنها الملوك الصيد في خجل
حررت من عكة الغراء ما عجزت | عنه الملوك بعزم غير منتقل
عقيلة المدن أمست من حصانتها | وصونها من ليالي الدهر في عقل (٥)

---

(١) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٩٧
(٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٩٩
(٣) الروضتين ٢ / ٨٤
(٤) جواهر السلوك ورقة ٥٩
(٥) تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٤

ومن هذه المدن البحرية مدينة صور ، ويقول العماد في وصفها " هذا بلد حصين ، ومكانه في الارض مكين ، في البحر ثلاثة أرباعه ، وفي السماء أرتفاع يفاعه ، والطريق المسلوك من البر اليه ، قد أحاط بها البحر من جانبيه ، وقد قطعوه بخندق في عرضه ، وعمقوه ونزلوا في أرضه " (١)

ومنها طرابلس التي يصفها ابن عبد الظاهر بقوله : " لها خطار وليس لها من البر الا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد انحط ، أو وعل استعواء قد شذ عن الشط ... " (٢)،

ويلاحظ أن الادباء قد عمدوا الى اظهار مصير هذه الحصون بعد المبالغة في وصفها أحيانا ، وغالبا ما يصفون سيطرة المسلمين عليها ، أو هروب الفرنج منها ، أو تهدمها بسبب الزلازل التي كانت تضرب المنطقة ، يقول سبط بن التعاويذي مهنئا صلاح الدين بأنتصاره على الفرنج في موقعة مرج عيون سنة ٥٧٥ هـ :

قذفت أهلها الحصون المنيعا ت حتى غوّضتهم بالسجون
وأراهم رب الصما باسينا (؟) ما لم يخل لهم في ظنون (٣)

ويقول الامير نجم الدين محمود بن نبهان العراقي :

ظنوا بناء الحصن صونا لملكهم فاصبح بالشعواء مُنتهَكَ الستر (٤)

وحين فتح الاشرف خليل قلعة الروم مدحه شهاب الدين محمود بقوله :

فان رمت حصنا سابقتك كتائب من الرعب أو جيش تقدمه النصر
ففي كل قطر للعدا وحصونهم من الخوف أسياف تجرد أو حصر
فلا حصن الا وهو حصن لاهله ولا حُجُب الا لارواحهم قبر (٥)*

---

(١) الفتح القسي ١٥٧
(٢) الاعشى ٢٦٨/٧ ، نهاية الارب ١٥٨/٥ ـ ١٥٩
(٣) الروضتين ٩/٢
(٤) المصدر السابق ١٢/٢
(٥) البداية والنهاية ٣٢٦/١٣

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١١٠/١/١ ، ١٣/١ ، ١٣١ ، ١٦٦ ، ١٥٧ ، صبح الاعشى ١١٢/٧ ، الكامل ٤٥٥/١١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ٣٣١/١٢ النوادر ٩٠ ، ديوان أسامة ابن منقذ ١٠٣ ، ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ١٢٥/١ مخطوط ، عقد الجمان ج ٢٠ ق ٢٢٢ ، ج ٢١ ق ١ ، ١٨٠ مذكرات جوانفيل ١٠٦/١ ، ١١١ ، ١١٢

وهكذا يصور الأدب العربي هذه الحصون وقد تحولت الى سجون ، ويصور الخنادق وقد تحولت الى قبور ، يقول البوصيري في مدح المنصور قلاوون :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه … وغرهم بالمسلمين غرور
فلا يركنوا من اخوة ، ان أمهم … وان كثرت فيها البنون نزور
يظنون خيل المسلمين بعدها … عن الغدو في أرض العدو دثور
أما زلزلت بالعاديات وجاءها … من الترك جم لا يعد غفير
فذاقوا به مر الحصار فأصبحوا … لهم ذلك الحصن الحصين حصير
يصيحون أعلى السور خوفا كأنما … نفى عنه نوم القاطنين صفير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه … من الخيل سور والصوارم سور (١)

وفي فتح عكا يقول شهاب الدين محمود :

ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم … فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب (٢)

ويقول فتيان الشاغوري مخاطبا صلاح الدين :

ليحفروا تلك الخنادق حولهم … الا لتجعلها لهم أجداثا (٣)

هذه هي حصونهم . أما قلاعهم ، فهي أبنية عالية قد تكون داخل الحصن ، لتشرف على تحركات أعدائهم ، وقد بالغ ابن عبد الظاهر في وصف قلعة حصن المرقب ، فجعلها تستظل بسدرة المنتهى لعلوها ، فيقول : " وهذه القلعة لها بالنجم مناط ، وبالسحاب ارتباط ، ولها على الدهر اشتراط ، ولبروجها ببروج السماء اختلاط واختلاط ، كم يسمو اليها السهى ، ولولا المغالاة — واستغفر الله — لقلت تكاد تستظل بسدرة المنتهى ، كأنما الرياح لجيدها منطقة والنجوم لخصرها منطقة ، ... " (٤) ، وليست هذه القلعة هي القلعة الوحيدة التي تتصف بهذه الصفات ، فهذا العماد يصف قلعة الشقر بأنها مرتفعة لا تصل اليها المشاة ولا يستطيع الذر أن يتسلقها لوعورتها ، فكأنها تملصت من الجبل ، يقول : " وهي قلعة شامخة ، [illegible] أعلى الفلاة ، على شعبة منقطعة ، عالية مرتفعة ، ومن نواحيها واد ، شائف من العمق غير باد ، في أعماق ووهاد ، وقد تملصت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها ، وأخذ من السواد وثقها ، فما اليها طريق ، ولا عليها طروق ، ولا فيها للطمع علوق ، ولا للسهم اليها مروق ولا للزحف فيها مطمع ، ولا الذر نحوها مسالك ... " (٥) ، وقد رماها صلاح الدين بالمنجنيقات فلم يؤثر فيها ، لولا أن دب الرعب في قلوب أهلها فجاءوه يطلبون الامان . ومثل هذه القلعة قلعة غزة ، التي هي كرسي " الداوية " ، ومهبط رؤوسهم ، ومحط نفوسهم .

---

(١) ديوان البوصيري ٩٧ ، وأنظر القصيدة من ص ٩٦ ـ ٩٨
(٢) جواهر السلوك ٤١
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٦٩
(٤) تشريف الايام والعصور ٨٥
(٥) الفتح القسي ٢٤٥

وقد جاء في وصفها أنها " قلعة أنفها شامخ في الهواء ، وعنانها جامح عن عطفة اللواء ، قد أوغلت في الجو مرتفعة ، وأومضت في الليل ملتمعة ، وبرداء السحاب ملتفعة ، قد عاقبتها أيدي الانام بالسلامة من قوارعها ، وهادنتها حوادث الايام من روائعها ، الى ان أتيح لهما من أتاح لها الحين ، وقيض لها من أقتضى منها الدين " (١) * .

وأما النوع الثالث من التحصينات فهو الاسوار والابراج ، فقد اعتمد الصليبيون عليها أشد اعتماد ، لانها تحميهم من الهجوم المباغت ، واما الابراج المنتشرة في جهات معينة من الاسوار فهي تكشف تحركات أعدائهم ، ولذلك فقد اهتموا ببنائها ، وأنفقوا عليها الاموال الطائلة ، يقول القاضي الفاضل في وصف سور حصن بيت الاحزان " وقد عرض حائطه الى أن زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، الا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس ، الذي اذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصار جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه " (٢)

وقد أستخدم الفرنج هذه الخبرات في بناء الاسوار حول المدن المهمة ، رغم حصانتها الطبيعية مثل عكا ، فأنشأوا سورا من الحجارة والصخر ، بالاضافة الى السور البحري الذي كانت تنعم به مدينة عكا ، ولذلك بقيت آخر معقل للفرنج في فلسطين ، ولم يستطع قلاوون ولا من قبله أن يفتتحوها ، حتى جاء الاشرف خليل بن قلاوون وجمع الجنود من مصر والشام وحاصروها حصارا شديدا وقصفها بالمجانيق قصفا حطم بعض الاسوار ، فأستسلمت المدينة ، وأستسلم على أثرها مدينتا صور وصيدا ، وبذلك أنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، يقول شهاب الدين محمود :

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها	في البحر للشرك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر اذ خربت	في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٣)

وقد وصف شهاب الدين في قصيدته هذه سور عكا وصفا دقيقا مبينا مادة بنائه ، وعلوه وارتفاعه ، وقوته وثقة أصحابه فيقول :

---

(١) صبح الاعشى ٧/٢٣

* لمزيد من الامثلة عن القلاع أنظر ابن شداد ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، صبح الاعشى ٨/٤٠١ ، ٤٠٦ ، الروضتين ٢/١٦٨

(٢) الروضتين ١/١٣

(٣) ابن الفرات مج ٨/١١٦ ، جواهر السلوك ورقه ٥٩ ، فوات الوفيات ١/٥٣

كانت تخيلنا آمالنا عسنري ... أن التفكر فيهما أعجب المعجب
سوران : بر وبحر طول ساحتها ... دارا وأدناهما أنأى من القطب
خرقاء أمن سورها وأحصنه ... غلب الكماة وأقواه على النوب
مضمخ بصفيح حولها أكم ... من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمامة تهدي من صواعقها ... بالنبل أضعاف ما تهدي من السحب
كأنما كل برج حوله فلك ... من المجانيق ، يرمي الارض بالشهب
فاجأتها جنود الله يقدمها ... غضبان لله ، لا للملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب (١)

ومما ساعد في أهمية الاسوار وسور عكا خاصة ، تلك الابراج التي أشار اليها شهاب الدين محمود والتي أضطلعت بمهمتين : الاولى قصف الجيش الاسلامي ، والثانية الاشراف من خلالها على تحركات جند المسلمين ، وفي المهمة الثالثة للابراج يقول ابن عنين في معرض رثائه للمعظم عيسى بن الملك العادل :

ولقد شهدتك يوم تيساريه ... والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الايوان أحكم بالصفيح وشيدا (٢)

وأما النوع الرابع والاخير من هذه التحصينات فهو الخنادق ، وقد استفاد الفرنج من طبيعة المنطقة فحصنوها بالمباني العالية ثم حفروا حولها الخنادق وعمقوا الاودية ان كانت محاطة بأودية .

وقد احتوى النثر الادبي على وصف هذين النوعين من الخنادق : الصناعية المحفورة والطبيعية المعمقة ، يقول العماد : " وشرع الفرنج في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر الى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر ، وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأمهلناهم بل أهملناهم ، حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور ، وملأوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر ، وبنوه وأسسوه ، وستروه وترسوه ، ورتبوا عليه رجالا ، ولم يتركوا اليه لسوانا مجالا ، وتركوا فيه أبوابا وفروجا ، ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ... " (٣) ، ويقول شهاب الدين محمود في وصف الخندق المحيط بحصن المرقب : وحوله خنادق لا تعلم منها الشهور الا بأنصافها ، ولا تعرف فيها الأهلة الا بأوصافها ... " (٤) ، ونلاحظ اهتمامهم بالخنادق في الفترة المتأخرة أكثر من أهتمامهم بها في الفترة الاولى من وجودهم في المشرق الاسلامي ، ويلاحظ ذلك من وصف شهاب الدين محمود السابق لسور عكا * .

(١) جواهر السلوك ص ٥٩ ، ابن الفرات ٨/١٦٦ ، فوات الوفيات ١/١٥٣
(٢) ديوان ابن عنين ٦١ (٣) الفتح القسي ٣٦٥
(٤) صبح الاعشى ٨/٢٩٤ ، حسن التوسل ١٦٥
* لمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ١٥٧ ، الروضتين ٢/٥٥ ، ١٤٤ ، ١٧٠ ، زبدة الحلب ٢/١٣٢ ، صبح الاعشى ٦/٥٢٢ ، مفرج الكروب ٤/١٨

رابعا : التخطيط العسكري :

والمقصود بالتخطيط العسكري ، وضع الخطط المدروسة قبل وقوع المشكلات ، ومواجهة المشكلات لدى وقوعها ، وقد صور الادب تخطيط الفرنج من الناحية الحربية في حالتي الضعف والقوة عندهم ، والوسائل التي اعتمدوها في التخطيط .

أما مواجهتهم للمواقف القتالية في حالة ضعفهم فهي تتسم بالحذر والتحرز من جهة ، والمكر والمخادعة من جهة أخرى ، فها هو ذا أسامة بن منقذ يصفهم وصف مباشر لهم بأنهم " أكبر الناس احترازا في الحرب " (١) ، وقد ذكر العماد ما يؤكد هذا المعنى حين قال : " وعرف الفرنج مشاق خوضهم ، واشفاق سعيهم ، فاحترزوا من المهلكة ، وما عادوا الى مثل تلك الحركة ..." (٢) ، ويقول : " وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وأرادوا يناصلونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون فيجهلون ، فنتمكن من تحصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ..." (٣) ، ولم يبتعد ابن شداد عن هذا المعنى حين قال : " وكانوا قد جعلوا رجالتهم سورا لهم ، يضرب الناس بالزنبورك * والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم .. فانه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم ولم يظهر منهم أحد ..." (٤) .

ومن المواقف التي تسترعي الانتباه ، موقف الملك فردريك الذي طلب الملك الكامل مساعدته ضد أخيه صاحب دمشق ، وحين جاء الى الشرق وجد الواقع قد تغير اذ كان صاحب دمشق قد توفي ، فلجأ الملك فردريك الى السياسة والدهاء ، وأقنع الكامل بأن يفي بوعده ويعطيه القدس ، وكان من جملة ما كاتبه به قوله : " أنا عتيقك ، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج ، وأنت كاتبتني بالمجيء ، وقد علم البابا والملوك بانتظاري ، فأن رجعت خائبا انكسرت حرمتي ..." (٥) فتنازل له عنها .

هذه أمثلة تدل على تخطيطهم ومواجهتهم المشاكل ، وكانوا دائما يغتنمون الفرصة للايقاع بالمسلمين ، لا سيما اذا علموا بتفرق المسلمين أو ضعفهم ، فهذا ابن شداد يقول : " علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد وأن الميمنة قد خفت لان معظم من كان بها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، فخرجوا ..." (٦) ، ومن هذا الجانب تقربهم للجياع حين حصلت المجاعة سنة ٥٩٧ هـ ، يقول العماد : " ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم ، تسترق الجياع باللقم " (٧) .

---

(١) الاعتبار ١٧ ، وأنظر ٥٨ ، ٦٧ ، ١٥١ (٢) الروضتين ٢ / ١٧٩
(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٩
* الزنبورك هو : نوع من القسي ترمى عنها السهام
(٤) نفسه ١ / ١٧٩ ، ١٦٠ (٥) الشذرات ٥ / ١١٨
(٦) الروضتين ٢ / ١٥٨ ، النوادر ١٤٨
(٧) الروضتين ٢ / ٢٤٤ ، ولمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ / ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، الفتح القسي ٤٤٣ ، عقد الجمان ج ١٨ ق ١ ، ٨٢٦ ، ابن الفرات مج ٤ ج ٢ / ٢٥٥

وحين يكون المسلمون أقوياء ، كان الفرنج يسلكون طرائق الحيطة والحذر ، فحين اجتمع لديهم عدد ضخم سنة ٥٨٦ في عكا " أقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ورفعوها بالأخشاب ، وتالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف علوة سهم ..." (١) .

ومن مظاهر تخطيطهم البارع للقتال ما اتخذوه من آلات تناسب ظروف المعركة ، كما فعلوا وهم محاصرون لعكا اذ " عمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مقالا كأنه سلم ، وهو غير مقدمها مركب مقدم ، وقد جعلوها بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شراريفه ، وصعد الرجال اليه في تجاويفه ، وتعبوا في ذلك أياما ، وأشبعوه توثيقا واحكاما ، حتى اذا التصق بالبرج الملتقت به قوارير النفط ، وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجا ثانيا في أكبر مركب ، وحشوه بالحطب ، وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه المزراق ، وقدموه الى برج الذبان ، وسلطوا على جوانبه النيران ، فأذهب الله من مهب لظاه نكباء نكبت الناس عن البرج المحروس ، وكتب الفرنج على الوجوه والرؤوس ..." (٢) ، وقد عمدوا الى الهجوم المفاجئ على المسلمين ما وسعهم ذلك ، فقد أنشأ البرنس أرناط اسطولا في بحر أيلة ، ونهبوا ما وجدوه من المراكب ، ومن فيها من التجار ، وبغتوا الناس ، لانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ..." (٣) ، وحين مروا بنابلس زمن الناصر داود بن المعظم عيسى " وجدوا فيها فرصة فانتهزوها ، وجهزوا اليها خيلهم ورجلهم من كل أوب فأجهزوها ..." (٤) .

ومن المعروف أن الحرب لا تنتظر الفرص العارضة ، ولذلك هيأوا هم الظروف المواتية لانجاح أعمالهم العسكرية ، اما بالكمائن التي تعترض جيشا صغيرا للمسلمين ، واما بايهام المسلمين بابتعادهم عن الميدان ، واما بكبسهم في ساعة غفلة ونوم ، والامثلة على ذلك كثيرة ، اما عن الكمائن فيروي أسامة أن قدرا من الفرنج جاء على شيزر وسألوا البواب من خلال الباب " ما اسم هذا البلد ؟ " فأخبرهم عنه ، فعادوا .. وأراد أسامة اللحاق بهم فنهاه عمه وقال : " هذه مكيدة " وأثبت له وجود كمين لهم .." (٥)

---

(١) الروضتين ٢/١٨٥
(٢) الروضتين ٢/١٦٣ ، وانظر الفتح ٤٧٧ ، والنوادر ١٢٩
(٣) الكامل ١١/٤٩٠ .
(٤) الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية ورقة ٦٢
(٥) الاعتبار ٥٦ ـ ٥٧ .

ويصف سبط بن التعاويذى مكائد الفرنج في محاولتهم ايقاع صلاح الدين وجيشه في كمين ، ولكنهم فشلوا وخسروا حصنهم الذى كان مركز انطلاقهم ، يقول :

كاد الاعادى أن يصيبك كيدهـــا ... لو لم تكدك برأيها المأمـــون
كمنوا ، وكم لك من كمين سعادة ... في الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وتنى لهـــم ... بالنحس طائر جدك الميمـــون (١)

وقد ذكر العماد أن الفرنج أوهموا المسلمين أنهم بعيدون عن طريقهم ، بل أشاعوا أنهم تحركوا الى منطقة بعيدة ، فركن الجيش الاسلامي الى الراحة ، ولما كان وقت الغروب هاجموهم ونالوا منهم ، يقول : رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها الى عمران ، وهم نازلون بظاهرها ، جائلون في مواردها ومصادرها ، فرأى الانكليتيرى دخانا على بعد فتصده ، وكان ثم جماعة من الاسدية ... وهم غارون عما دهمهم ، فوصل اللعين اليهم وتمت المضروب فوق عليهم ... " (١)، وفي صور ، كبس الفرنج سفن المسلمين القادمة من عكا ، وكان الفرنج يرقبونهم ، حتى اذا ناموا هاجموهم وهزموهم ، يقول العماد : " وأنس أصحابنا بخلو الامر وخلو البحر ، وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف ، ... وسهروا الى أن شارفوا المنار ، وكل منهم لما أستأنس نعس ، وقاس في النوم ما تنفس ، فما أنتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ، ونيرانهم محرقة ... " (٢).

وقد استقى الفرنج المعلومات عن المسلمين بعدة طرق : منها عن طريق البدو والجواسيس المندسين في المعسكر الاسلامي* ، وقد سبق بيان ذلك ، أو عن طريق الرسل الذين كانوا يرسلونهم للتفاوض مع المسلمين بشأن الصلح أو غيره ، يقول ابن شداد : " وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا ... " (٤)، ويقول القاضي الفاضل عن عدتهم من الرسائل : " وتعددوا نظرة من شدة ، وأنتظارا لنجدة " (٥) **، وهذا يدل على خبرتهم في شؤون الحرب ، وحسن رأيهم فيها ولا عجب بعد ذلك أن نجد الادب يثني عليهم بهذه الصفة ، فيصف الهنفرى بأنه " يضرب المثل به في الشجاعة والرأى في الحرب " (٦) ، وكذلك جوسلين (٧) وغيرهما .

---

(١) ديوان سبط بن التعاويذى ٤٢٢ (٢) الروضتين ٢ / ١٦٦

(٣) الفتح ١٦١ ، وأنظر الفتح ١٧٨ ، والنوادر ٢١٤

* أنظر جوانفيل في مذكرات عن القديس لويس ١٢٢ ، ١٢٩ ، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٢ ـ ٢٠٣

(٤) النوادر السلطانية ١٦٦ ، ١٨٦ ، ١٩٥

(٥) صبح الاعشى ٦ / ٥٠٢

** المزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ / ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ابن الفرات مج ٤ ج ٢ / ٢٥٥

(٦) الكامل ١١ / ٤٥٣

(٧) عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ٢٠٦ ـ ٢٠٧

ومما يدل على حسن رأيهم في الحرب ، أيضا ، تلك الخطط التي قصدوا منها فتح عدة جبهات عسكرية لتشتيت عساكر المسلمين ، ومن ذلك ما ذكره العماد عن " الانكتير الذى تعذر عليه أخذ القدس ، ففكر في حصار بيروت " لان أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه ، وخلا القدس من جمة كتائبه وجمرة مضاربه " (١) ، ومنها أيضا ، ذلك القصف المستمر للمدن التي يريدون فتحها ، وقد عمدوا — لتحقيق ذلك — الى تقسيم الجيش الى فرق تعمل بالتناوب ، يقول ابن شداد : " ولما أحس العدو في نفسه بقوة بسبب توالي النجد عليهم ، اشتد طمعهم ، وسلطوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل ليلا ولا نهارا " (٢) ويقول : " وانقسموا أقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح ، وأقام غيره مقامه " (٣) ، ومن هذا القصف المركز المستمر ، لجأوا الى خطة أخرى ، وهي أنهم أطبقوا الحصار على البلد اطباق الشفاه على الثغور ، فمنعوا الداخل اليها والخارج ، حتى تسنى لهم السيطرة عليها . وهناك أدلة تشير الى أن الفرنج لجأوا الى هذه الخطة منذ وقت مبكر ، ومنها ما جاء في وصف فتيان الشاغوري للفرنج الذين أحاطوا بدمياط سنة ٥٦٥ :

دارووا بها في البحر من كل جانب ومن دونها ستر من الموت حائل (٤)

ويؤكد ابن شداد هذا المعنى في حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦ اذ يقول : أدار الفرنج مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها الى الطعام والميرة . . . " (٥) ، ويسوغ العماد هذا القول بألفاظ مؤنقة فيقول : " واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التمرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج " (٦) ، وبعد هذا التخطيط ، وهذا العمل الدؤوب ، استخدموا خطة مناسبة للهجوم ، فطموا الخنادق المحيطة بالبلد ، واستعملوا من أجل ذلك جثث موتاهم مع أنهم يحرصون على دفنهم ، بالاضافة الى جثث الحيوانات ، يقول العماد في حصارهم لعكا : " وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات ، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم " (٧) .

---

(١) الفتح ٥٦٧ ، ٦٠١ ، الكامل ١١ / ١٨٥ ، ومضمار الحقائق ٢٤
(٢) النوادر السلطانية ١٣٤ ، ١٢٦
(٣) المصدر السابق ١٦٧ وينظر ١٧٩
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٨ ، عقد الجمان ١٢ ق ٢ / ٤٥٧
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤
(٦) الفتح القسي ٢٦٩ ، وينظر المثل السائر ١ / ٤٠٧
(٧) الفتح القسي ٤٨٣ ، وانظر للمزيد ابن الوردي ٢ / ٣٥ ، ابن الفرات مج ٤ ج ١ / ٢٢٨

خامسا : الحرب النفسية :

أعتمد الصليبيون في حربهم للمسلمين على الجيش والحصون ، كما أعتمدوا على الحرب النفسية التي من شأنها اضعاف عزيمة المسلمين ، وتشكيكهم بقوتهم بأنفسهم وبقادتهم ، وقد اتبعوا في ذلك سبلا عدة منها :

١ . التهديد بالكثرة : ويتضح ذلك بعد الانتصارات العظيمة التي حققها صلاح الدين في أرض فلسطين ، اذ توجه الى اللاذقية واحتلها ، فجاءتها نجدات من عقلية ، فطالب مقدمهم من صلاح الدين ارجاع هذه المناطق للفرنج ، ثم هدده قائلا ما مؤداه : " والا جاءك من وراء البحار في عدد الامواج أمواج بعد أمواج ، وسار اليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقاليم ، وهؤلاء أدون منهم ، فاتركهم واصفح عنهم ...." (١) ويقول العماد في ذلك على لسان قائد الفرنج : " وان أبيت غير الخيرة والاباء ، ودمت على ارهاق الدهماء ، واهراق الدماء ، جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق ، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الافاق ..." (٢) وعلى أثر استعادة صلاح الدين للقدس هب الغرب الاوروبي لنجدة قومهم في فلسطين ، وجاء ملك الالمان بأعداد هائلة ، وبعث مقدم الارمن يخبر صلاح الدين بهم ، ولم يكن دافعه في ذلك الحرص على مصلحة المسلمين ، وانما اضعاف نفوس المسلمين ، ويقرر العماد هذا المعنى فيقول : "ولا شك أنه الى جنسه المتعصب مائل ، وممن أهل ملته قائل ، ولما وصل هذا النبأ ، وقيل انه عظيم ، وورد هذا الخبر ، وقيل انه أليم ، كان الناس يضطربون ، على انهم يصدقون ويكذبون ، ومن طرف كل معتل من الرأي يجذبون ..." (٣) ، واستمر هذا الاسلوب في الحروب بعد وفاة صلاح الدين ، ومع صاحب حلب الملك المنصور ، اذ جاءه رسول الداوية ، واخبره بكثرة الفرنج المتجهين الى اللاذقية وجبلة ، ويعقب الراوي على هذه الحادثة بقوله : " وانما قصدت الداوية بهذه الاخبار الارهاب ليصالح الملك المنصور بيت الاستبار ، فانهم سألوا الداوية التوسط بينه وبينهم ..." (٤) وقد تكرر هذا السلوك زمن الكامل بن العادل (٥) ثم زمن الصالح نجم الدين أيوب (٦) ، ولكن ما مدى نجاح الفرنج في هذه الحرب؟ وهل أدت الى اضعاف همم المسلمين ؟ ، ان تلك الروايات نفسها تحمل الجواب ، فبعد كل حادثة يعقب الكاتب موضحا نفسية المسلمين ، وهي في جميع الحالات نفسية مؤمنة بالنصر قوية لا تخشى الكثرة ، ولا تخاف الهزيمة ، فها هو ذا صلاح الدين يرد على

---

(١) الروضتين ٢ / ١٩٩

(٢) الفتح القسي ٢٤٠ ، وانظر الحادثة في الكامل ١١ / ١٠

(٣) الفتح القسي ٣٢١ والروضتين ٢ / ١٥٠

(٤) نفس الكروب ٤ / ١٤٦ ، ابن الفرات مج٤ ج٢ / ٢٥٥

(٥) نفس الكروب ٤ / ٩٨ ـ ٩٩

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق ٢ ، ٣٤٧

قدم جيش الفرنج بقوله : " قد أمرنا الله بتمهيد الارض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الارض ، ذات الطول والعرض ، لتوكلنا على الله في اللقاء ، ولم نبال بأعداد الاعداء " (١) .

أما جواب الملك المنصور الايوبي لرسول الداوية فهو " انا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ، ولو أنهم أضعاف ذلك لما جزعتهم " (٢) ، وأما جواب الكامل فكان رغم تهديدات الملك فردريك ، رغم ضعف الدولة الايوبية حينذاك وانقسامها ... " (٣) .

١ . إثارة الفتن : وقصد الفرنج بذلك اختلاق الشائعات ، واظهار ضعف القائد المسلم ، يقول العماد في مدح صلاح الدين ، وقد هزم الفرنج في الاسكندرية :

ولكم أرجف الاعادي فقلنـا ... ما لما تذكرونه تأثيـر
ورأينا كالعيد عوداك فأيـو ... م به الانام عيد كبيـر (٤)

وقد قال ابن القلانسي قبل هذا حين مرض نور الدين وأرجف بموته :

تروعت القلوب من البرايـا ... وصار شجاعها مثل الجبـان
وثارت فتنة يخشى أذاهـا ... على الاسلام في قاص ودان (٥)

٢ . التهديد بالقتل وسفك الدماء ، واظهار القوة والآلات : ويتجلى ذلك في رسالة الملك لويس التاسع للصالح نجم الدين أيوب التي يقول فيها ما معناه : أما بعد ، فانه لم يخف أني أمير الامة العيسوية ، كما اني أقول انك أمير الامة المحمدية ، وانه غير خاف عنك أن أهل جزائر الاندلس يحملون الينا الاموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء والبنات ، ونخلي منهم الديار .... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك ... " (٦) وقد كان جواب الملك الصالح على الرسالة يتضح بالثقة بالنفس اذ قال : " أما بعد ، فانه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن الا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك ، أيها المغرور ، حد سيوفنا وعظم حروبنا ... لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا ، وآخره عليك فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون "(٧) .

٤ . اخفاء الخسائر : ومن مظاهر الحرب النفسية اخفاء الفرنج قتلاهم عن المسلمين ، حتى اذا رأى المسلمون ما تقتله الفرنج منهم استكثروا ذلك ، ولم يجدوا ما يعزون به أنفسهم من قتلى الفرنج ، يقول العماد : " وكلما جرح منهم قتيل حملوه وشدوه ، وطموا مدفنه وطمروه ، حتى يخفى أمرهم ، ولا يصح لدينا كسرهم ... " (٨)

(١) الروضتين ١/ ٢٦ (٢) ابن الفرات مج ٤ ج٢ ، ٢٥٥ ، وأنظر مفرج الكروب ٤/ ١٤٦
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ١/ ٢٢٨ (٤) الروضتين ج١ ق ٢/ ٣٢٢
(٥) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠ ، الروضتين ١/ ١٤٦ ط دار الجيل وأنظر مثلا آخر الباهر ١٦
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢/ ٣٤٧ وانظر أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزه ١٠٤
(٧) السلوك ج١ ق ٢ ص ٣٤٧ (٨) الفتح القسي ص ٤٤٤ وأنظر النوادر السلطانية ٦٥

سادسا : المعارك البرية والبحرية :

تجلى الصراع واضحا بين المسلمين والفرنج منذ أن احتل الصليبيون الاراضي الاسلامية ، ولئن كانت ردود الفعل من جانب المسلمين ضعيفة أول الامر ، الا أنهم لم ييأسوا من استرداد البلاد المحتلة في يوم من الايام ، وهذا يعني امتداد الحرب بين الفريقين ، اذ انه كلما استعاد المسلمون مدينة ، كان الغرب الاوربي يمد الفرنج بالمال والرجال حتى كانت وقعة حطين ، حين استعاد المسلمون معظم البلدان المحتلة ، وهددوا ما تبقى منها .

وقد تعرض الادب لوصف المعارك المتطاولة بين الطرفين ، وأظهر قوة الفرنج في حالتي النصر والهزيمة ، ولكنه هون نصرهم حين ينتصرون ، واستهزأ بهم حين تكون الغلبة للمسلمين ولهذا نجد الادب يركز على نتيجة المعركة لا على تفاصيل الاحداث الجارية فيها ، وان أراد التفصيل ، فلا يكون في الاحداث ، وانما في قوة الجيش أو كثرته ، أو وصف الآلات أو وصف القتلى والنصوص المرتبطة بالمعارك في هذه الفترة كثيرة ، وان كان ينقص معظمها دقة الوصف والواقعية ، ومن هذه النصوص ، وصف العماد لوقائع معركة حطين نثرا كما يلي :

" وسهر السلطان تلك الليلة ، حتى عين الجاليشية * (١) من كل طلب ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، .. حتى اذا اسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي وغنت الاوتار ، ... واليوم ذاك ، والجيش شاك ، وللقيظ عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض ، وقد وقد الحر ، واستشرى الشر ووقع الكر والفر ، والسراب طافح والظمأ لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق ، ولاولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالتعيث عيث ، وفي ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشرارها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ... وقد تقطعت على الفرنج طريق الورود ، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود ، فوقفوا صابرين صابرين ، مكابرين مضابرين ، فكلبوا على ضرواتهم ، وشربوا ما في أداواتهم ، وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع ، واسترفهوا حتى ماء المدامع ، وأشرفوا على المصير السيء المصارع ، ودخل الليل وسكن السيل ، وباتوا حيارى ، ومن العطش سكارى ، وهم على شفا البحيرة بحيرة ، وقووا أنفسهم على الشدة ، واستعدوا بالعزائم المحتدة ، وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ، ونقاضيهم الى القواضب التواضي ، فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء ، وأما عساكرنا فانها اجترأت ، ومن كل ما يصوتها برئت ، فهذا لعنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم مفوق ، وهذا شهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ، وهذا تاج للسعادة ، وهذا راج للشهادة ، فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة ، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة ، والسلطان قد وثق بنصر الله فهو يمضي بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ، ويغري المئين بالالوف ... وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس ، حمل في أول الناس ، وكان حصانه قوي الراس ، فأبعد عن اخوانه ، ولم يتابعه أحد من أقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فاثبت في مستنقع الموت رجله ، وقاتل الى أن بلغوا قتله ، فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان ، وانتقل الشهيد الى جوار

---

* الجاليش : مقدمة القلب في الجيش أو الطليعة منه

(١) ديوان فتيان الشاغوري

الرحمن ، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجَلَده وجلاده ، حميت حميتهم ، وخلصت للمسلمين نيتهم ، وأصبح الجيش على تعبئته ، والنصر على تلبيته ... وبرز بالفرنج المصاف وأبت عثرتها أن تنتعش ، وكان النسيم من أمامها ، والحشيش تحت أقدامها ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش ، فتأجج عليهم استعارها ، وتوهج أوارها ، فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلاء والاصطلام في نار الضرام ونار الأوام ونار السهام ..."(١).

وقد عرض ضياء الدين بن الأثير وصف هذه المعركة بصورة موجزة فقال : " وبرزت خيل القوم ولها زي فرسانها ، وهي مشتقة الى طرادها ، كاشتياقها الى ميدانها ، وما منهم الا تناود القناة من يده ملهذ بين ، وتشتمل الروع منه ومن جواده بين ملهمين ، فجرت المغاوير الى المغاوير ، وتلاقت الرياح بالأعاصير ، وكان الطعن منهم عناقا واللبث وناقا ، وسبق السم الموت ألم الجراح ، ونفذت منتدبة لسرعتها أسنة الرماح ...(٢).

ومن المعارك الأخرى التي وصفها الأدب معركة دمياط سنة ٦١٩ ، حين رأى الفرنج ان خير سبيل لاسترجاع القدس هو فصل مصر عن بلاد الشام ، فوجهوا قواتهم الى دمياط واحتلوها ، ثم جاءت الامدادات الاسلامية فاسترجعتها ، يقول ابن عنين في ذلك :

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذيّ كل مفاضة ... دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... الينا سراعا بالجياد فأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى ... وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا ... طويلا فما أجدت دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا(٣)

ومنها في وصف معركة زمن السلطان قلاوون ، كانت نتيجتها فتح حصن صافيتا ، يقول ابن عبد الظاهر : " واشتد الامر على الكفار ، فقاتلوا قتالا أقض مضاجع الاسلحة ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة ، وأضحى يشجو النصول المترنمة على غصون السهام المترنحة ... هذا وأهل الايمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهدا ، وأقدام يتلقى الحديد بأكباد ما زالت الى موارده تمدا ... والبلاد الفرنجية قد غضت منها الابصار ، وشخصت القلوب واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهذه تود لو أكنتها البحار تحت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الريح المواصف عليها ذيول عجاجها ... "(٤).

---

(١) الروضتين ج ٢ / ص ٧٦ ـ ٧٧ وأنظر الكامل ١١ / ٥٢٨ ـ ٥٣٥
(٢) محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الاثير ص ٧٥
(٣) ديوان ابن عنين ص ٢٠
(٤) صبح الاعشى ٧ / ٢٥٥

ويصف ابن عبد الظاهر معركة حمص، **شعرا**، فيقول :

جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لا رأي مختلفان البحث والنظر
وأتى الفرسان في يوم الفخور نجح ... وأشهدت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركعوا لا علام رافعة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تهتدى الا على جثث ... والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تشهد في الاجفان من مهج ... والسمر، نسأخبك، يا ما يفعل السمر (١)

ولدى **الوقوف** عند هذه النصوص يلحظ المرء أنها تصف المعارك البرية وصفا سريعا تظهر من خلاله الحركة، اما سريعة فتسجل نتيجة المعركة، واما بطيئة مثقلة بالزخرف اللفظي فتطفو حرارة الجو وقد تمثلت هذه الحركة في اشكال مختلفة : اما بحركة الجيش في الكر والفر، أو بانطلاق المسار حركات الخيل، أو بالتمثيل والتشبيه والمقارنة، كتشبيه انطلاق الرمح بومض النجوم أو تمثيل حركة الجيش بحركة موج البحر .. وحدد بعض الادباء، كابن عبد الظاهر مكان المعركة وزمانها بشكل تقريري، وانتهى الى وصف القتلى، فجعل السهل وعرا من رؤوسهم .

ذلك وصف الادب للمعركة البرية، أما وصفه للمعارك البحرية، فلا يختلف كثيرا في الاطار العام من حيث الاهتمام بالنتائج ... ولكن أدوات المعركة تختلف باختلاف ساحة المعركة وظروفها، يقول العماد في وصف معركة بحرية بين الاسطول المصري والفرنجي، " وصدمت شوانية شواني الفئاة، فبادت مراكبهم وهي نواكص، وطارت غربانا بين أجنحة الكفر اعداء الاسلام ناعبة، وأطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لاغبة، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة، والهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مستعمرة، وانقطعت طرق الافرنج البحرية، فاستطالت اساطيلنا فذهبت وجاءت، وعملت ما شاءت، وبهجتهم مرارا وبالغنائم فاءت، فضاقت بها السداة ذرعا، ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى ... " (٢) .

وبعد أن خلا الجو للمسلمين بعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين، انحصر الفرنج في صور، فتحركت السفن المصرية لامداد بيروت بعد أخذها من الفرنج، فقامت سفن الفرنج بالتصدى للمصريين، ونشبت معركة بحرية بين الطرفين، يقول العماد في وصفها : فابصر ملاحوها شواني الفرنج لمبارزتها مبرزة، وللاجهاز وراءها مجهزة، وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعة، وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعة، فتواقعوا الى المساء، وشاقوا على دمائهم في الدأماء، وخرجوا الى البر على وجوههم، وشاقوا مكرهم في مكروههم وغروا وغاروا وطاروا وثاروا ... هذا والمنجنيقات ترميهم، والمفوقات الموثقات تصميهم وتصميهم، والقتال قائم، والنزال دائم، والصخور تغلق، والصدور تقلق، والاحجار تتقلقل، والاسوار تتخلخل، والاوداج شاخبة كالعيون البواكي، والابصار دامية من الزنبوركات والنوكيات النواكي .. " (٣) .

---

(١) عقد الجمان جـ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ (٢) الفتح القسي ١٨١ ـ ١٨٢
(٣) . المصدر السابق ١٦١ ـ ١٦٦

ومن وصف الشعراء لمعركة بحرية ما قدمه أسامة بن منقذ في وصف لمعركة بين المصريين بقيادة طلائع بن رزيك والفرنج ، يقول :

غزوتهم في البحر حتى كأنما الا ... ساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر ، فوق دهم كأنها ... على الماء طير ما لهن قوادم
يعرفها فرسانها بأعنة ... جرت ، حيث لم توصل بهن الشكائم
اذا دفعوها قلت : فرسان غارة ... سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج اليهم ... حمام ، وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر حمر سوائم ... ونامهم في البر سحم جواثم
فلم ينج في نجح من الارض هارب ... ولم ينج في لج من الماء عائم
وعاد الاسارى مردفين وشقنهم ... تقاد ، كما قاد المهارى الخزائم (١)

هذه الصور الكثيرة من نصوص كثيرة لتكون شاهدا على وصف المعركة ، ولكن مع أنها مختارة لم نجد فيها الوصف الدقيق للمعركة ، من حيث تطور الاحداث وتفصيلها ، ولو اتخذنا نصوصا أخرى لوجدنا اشفاق كثير من الادباء في نقل جو المعركة . بل قد يجمع بعضهم فيقدم المعركة في صور لا ترتبط عادة بالجو القتالي ، وذلك هيا منهم وراء الزخرف البياني ، يقول ابن الساعاتي مثلا :

اذا ما تغنى السيف في الهام والطلى ... خفينا تثنى رمحه وهو نشوان
تثنى القوم بعضه راضيا ببلائه ... وكم مر دهر دونه وهو غضبان (٢)

ويقول العماد : " ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل ، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل " (٣) ، ويقول شهاب الدين محمود :

ونت البيض في الاعناق فارتقصت ... أبراجها لبنا منهن بالقصب (٤)

وقد يقال أن بين الاعراس والمعارك بعض مشابهة بما في كليهما من حركة واضطراب ، ربما ... ولكن وصف الحرب يتطلب كل ما يوحي بالقوة والشدة والعنف ، يستوي في ذلك الالفاظ والاصوات والاخيلة والصور . وقد حد من دقة وصف الادباء للمعارك ، وأعطاء صورة واقعية عنها ، ما انصرفوا اليه من زخرف لفظي ولغوي قد يصل الى حد الحذلقة ، ومثال ذلك قول النسابة الصوري الجواني :

نثر ونظم طعنة وضرابه ... فالرمح ينظم والمهند ينثر (٥)

---

(١) ديوان أسامة ٢١٦ وأنظر أيضا ص ٢١٧
(٢) ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٢٩
(٣) الفتح القسي ٥٠٨
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ١١٧ ـ ١١٨ ، وأنظر جواهر السلوك ورقه ٦٠
(٥) الروضتين ١ / ١٠٥

وقول العماد :

تنثر الهام كالحروف فما أشبه هذى السيوف بالاقلام

في محاريب حرية البيض صلت وركوع الظبى سجود الهام (١)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا :

وحطمنا بالمجانيق التي وقفت ازاء جدرانها في جحفل لجب

دروعها نسبوا أصنافها غضبا للكسر والحطم منها كل منتصب (٢)

ومن النثر قول شهاب الدين محمود يصف مجانيق الفرنج التي عجزت عن الصمود أمام مجانيق المسلمين : " فاعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، بسطت أنفها المارة على الاذعان ، ورفعت أصابعها اما ابانة أن تذل للتشهد ، واما انابة الى طلب الامان " (٣) ، فهذه الاخيلة تبعد عن الجو الواقعي للقتال ، وان احتوت على أنماط جديدة غير مألوفة من التشبيهات والاستعارات ، ومن عوامل الافتقار الى الوصف الواقعي الدقيق للمعركة ، التركيز كما أسلفنا على النتائج ، دون تتبع مجريات الاحداث ، ففي حديث القاضي الفاضل عن حصار الفرنج لعكا ، يركز على انتصار المسلمين في مرحلة من مراحل الحصار ، على النحو التالي : " فنازلت الفرنج تغر عكا في اسطول ملك بحره ، وبحر سلك بره ، فنهضنا اليه ، ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب معنا مصاف ، تقلت فيه فرسانه وشجعانه ، وعقدت صلبانه (٤)

وقد يتبادر الى الذهن أن الادباء الذين تحدثوا عن المعارك كانوا بعيدين عن ساحة القتال ، ولكن هذا الامر لا يمكن تعميمه على أدباء العصر جميعهم ، لان بعضهم شاهد المعارك غير مرة ، ومن هؤلاء العماد الذي شاهد هجوم الفرنج على المسلمين في عكا ، وانهزم من الجيش ، يقول : " وكنت في جماعة من أهل الفضل ، وقد ركبنا في ذلك الهجوم ، ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ، وننتظر ما يكون من القوم ، وما ظننا أن القوة تهي ، وأن الوقعة الينا تنتهي ، فلما خالطونا في المخيم ، وباسطونا في المجثم ، وكنا على بغال بغير أهبة قتال ، أستدركنا أمرنا وأخذنا حذرنا ، ورأينا العسكر موليا والمنهزم عما تركه من ثيابه ورحله متخليا ، فوافقنا في الاندفاع وألفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع " (٥) ، على أنه يظن فهم رواية العماد هذه ، على أنها دليل على أن الادباء ، أو معظمهم على الاقل ، لم يمارسوا المعاناة الحقيقية التي مارسها المقاتل ، ولذلك وصفوا المعركة وصفا جزئيا ، وهذا ما يفهم من قول العماد " وكنا على بغال بغير أهبة قتال " فهم كالصحفيين الذين يراقبون المعركة ويصفونها وصفا ظاهريا ، ولكنهم يعجزون عن وصف دقائقها ومعاناة المقاتلين فيها ،

---

(١) الروضتين ٢ / ١٢١

(٢) جواهر السلوك ورقه ٦٠ وأنظر تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٧

(٣) صبح الاعشى ٨ / ٢٩٦ ، وأنظر حسن التوسل ١٤٥

(٤) صبح الاعشى ٦ / ٥٢٩

(٥) الفتح القسي ٣٠٩ وأنظر ص ٧٨ ـ ٨٣ ، ١٦٥

وبذلك يتغلب الوعي والعقل على الشعور والاحساس، فيكون وصف المعركة من الخارج ، لا من الداخل .

وقد يعود انصراف الادباء عن وصف تسلسل الاحداث الى أنهم أهتموا باعلان أنباء المعركة على الملأ في وقت قلت فيه وسائل الاعلام . ويضيف الدكتور محمود ابراهيم سببا آخر في مجال حديثه عن ابن القيسراني ، يمكن تعميمه على أدب هذه الفترة وهو اتكاء الشعراء في وصف معاركهم على التراث الشعري السابق (١) ، وخاصة قصائد أبي تمام وقصائد المتنبي الحربية .

ومع ذلك ، فان الادباء لم يغفلوا وصف المعركة كلية ، بل تناولوا أجزاء منها ، كوصف قوة الاعداء ، وقوة المسلمين ، وأدوات المعركة ، والجو العام لها ، ثم التركيز على النتيجة ... ، وفيما يلي تفصيل ذلك ..

١ . وصف قوة الاعداء : أهتم الادباء باظهار قوة العدو ، وكثرة عدته ، قبل الدخول في المعركة ، لكي يفسحوا لخيال السامع حتى يكون صورة ضخمة عن قوة العدو ، وكثرة عدده ، وبالتالي عن عظمة الانتصار عليه ، يقول القاضي الفاضل في حصار دمياط زمن صلاح الدين : " فانهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مائتي ألف فارس وراجل ، وحاصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصليه الصليب ، والقراع الذي ينادي به من مكان قريب .. (٢) ، وفي ذلك يقول فتيان الشاغوري :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا	وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم	ألوف ألوف خيلهم والرواحل (٣)

وفي زمن الكامل بن العادل ، حاصر الفرنج دمياط بقوات هائلة ، فقال علم الدين أيدمر المحيوي في ذلك :

وأتى بما ملأ البسيطة كثرة	والله ربك هادم ما شيدوا
جيش اذا مسحت يداه بقمة	جف المياه بها وذاب الجلمد
كالسيل الا أنه لا ينقضي	والليل الا انه يتوقد (٤)

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١٢٧
(٢) صبح الاعشى ١٢ / ٨٣
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٩
(٤) ديوان علم الدين أيدمر المحيوي ص ١٥

وفي وصف قوتهم البحرية يقول العماد : " فسيّر الفرنج اسطولا ، وصفّ شوانيه على البحر عرضا وطولا ، وقدّر أنه يلاقي الاسطول المنصور ، ويحظر بسد الطرق عليه وصدها ، العبور ... (١) ، ويقول ابن دنينير في وصف قوات الفرنج البحرية التي حاصرت دمياط :

فالبحر من تحتهم آذيّه وعلى ... رؤوسهم منك نار الحرب تستعر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتة ... وبين سمر القنا ، والموت منكسر
فللرماح قلوب منهم أبدا ... وللسيوف الطلى والهام والقصر
أمّوا العبور الى دمياط تحضنهم ... وما دروا أنه عبرٌ به العبر (٢) *

٢ • وصف قوة المسلمين : وقد قصد الادباء من ذلك اظهار قوة المسلمين أمام قوة الفرنج للدلالة على شدة المعركة ، ولرفع معنويات المقاتلين ، فان كان النصر لهم أظهروهم بمظهر القوي الذي تغلب على ند قوي ، وأن كان النصر عليهم قدموا بين أيديهم عذرا مقبولا وهو انهم أعدوا ما أستطاعوا ، فان خسروا معركة فما خسروا المعارك ، ولا خسروا الأمل بالنصر ، وأدلة ذلك كثيرة ** ، فمن أمثلة انتصار المسلمين الاقوياء على الفرنج الأنداد لهم ما جاء في الروضتين تحت باب القدسيات (٣) ومنها قول ابن دنينير في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

أتيت دمياط إذ أعيت رياضتها ... كلّ الورى وتناءى البدو والحضر
فكنت إذ زرتها مفتاح مقفلها ... فالحق منتصر والشرك منذعر
صدمته بخميس لو صدمت به ... وجهَ البسيطة كادت منه تنفطر
من بعد ما كانَ في آمالهم طمول ... يوم الكفاح وفي أخطر ثم قصر
أوردت أنفسهمُ خوض الردى غمدا ... وورد ثم بارتواءٍ ما له صدر (٤)

---

(١) الفتح القسي ٣٨٥ (٢) ديوان ابن دنينير ورقه ١٥

* لمزيد من الامثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، الروضتين ج١ ق١ ص٥٣ ، ٢٧١ ، ٢٧١ ، البداية والنهاية ١٢ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٢ ، ومجلد ٥ ج١ ص٢٣٠ ، تشريف الايام والعصور ٧٨ عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ ، ٧١١ ، ج ١٨ ق ١ ورقه ٥٨ ، ج ١٢ ق ١ ورقه ١٨٢ ، الفتح القسي ١٢٤ ، ٢٨٩ ، ٣١١ ، ٣١٤

** لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ١٧٦ ، ٢٠١ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٦ ، الفتح القسي ٢٧١ ، الروضتين ١ / ١٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٦١ ، خريدة القصر/قسم شعراء الشام ١ / ١٥٥ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٠ ، ٢ / ٣٨٦ ، قسم شعراء العراق ١٤٧ ، مفرج الكروب ٢ / ١١١ ، عبد اللطيف حمزة ، الادب المصري ٦٨ .

(٣) الروضتين ٢ / ١٠٣ ـ ١٠٧ ، ١١٥ ـ ١١٩

(٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢

ويقول ابن النبيه في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

لله من ثغر دمياط وبرزخهـــا | فتح له تفتح السبع السمـــوات
يوم على الروم يمشي ريحه سحبـا | أمطارهن صبيات صيبـــات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمهـا | ليث له في جيوش الشرك هجمـات
فللرماح كلاهم أوصدورهـــم | وللصوارم أعناق وهامــات (١)

ويقول الرشيد النابلسي ، في فتح العادل لحصن كوكب سنة ٦٠٩ هـ :

لقد رأى كوكب في نفسه عجبـا | وكاد كوكبه الدري ينكـــدر
أضرمت جذوة بأس في جوانبـه | أنفاسها في نفوس الشرك تزدفـر
طوقته بمجانيق يلين لهــا | قلب الحديد ولا يستمسك الحجـر
(هوت) عليه بمثل الشهب قاذفة | فشده بصعيد الارض منفطــر (٢)

ومن النثر قول العماد في وصف المصاف يوم عكا : " ... ووافى الانجاد عسكر الشرق ماشي الشرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشعلنا منه وهو مستشيط ، وأحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلهـا ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يحملوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها ... " (٣) ،

والأمثلة على انتصار الفرنج على المسلمين أقل من أمثلة انتصار المسلمين على الفرنج ، وذلك لأن الادب كان يصمت منتظرا النصر ، وان كان لا بد من القول ، فالتعزيــة والتهديد بالثار وغرس الأمل في النفوس ، مع الاستعانة بالصور الدينية ، وأحداث التاريخ الاسلامي ، هذا العماد يعزي صلاح الدين بسقوط عكا فيقول له : " ... هذه بلدة ما فتحه الله ، قد استعادها أعداه ... وان ذهبت مدينة فما ذهب الدين ، ولا ضعف في نصر الطالبين " (٤) ، ويقول القاضي الفاضل : " فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتـم الاعلون والله معكـم ، وهذا الدين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار اللـه تعالى له أرباب النيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلـف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وأشتدي أزمة تنفرجـي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ٦٦
(٢) عقد الجمان ج ١٧ ق ٢ ورقة ٣٢٨
(٣) الفتح القسي ٢٩٩
(٤) الروضتين ٢/١٨٨
(٥) المصدر السابق ٢/١٦٧

ويقول ابن دنينير عقيب هزيمة دمياط ، وقد وصل المعظم عيسى لنجدة أخيه الكامل محمد :

أتيموا عمود الدين لله تسعدوا — فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
أرى الآية الكبرى من النصر قد جرى — بها الفأل فالافراح فيها تجدد
عسى الله أن يأتي بموسى فإنني — أرى كبدي شوقا اليه توقد
ليظهر أن الحق حق محمد — وكل نبي بالذي قلت يشهد
فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا — فذا الدين للرحمن في نصره يد
فمنوا لدين الكفر غارات معشر — لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فإنكم — متى تتركوها آن للنار تخمد
فذا الدين ما أرسى قواعد حقه — لدى الناس إلا ذابل ومهند
هل الدين مقبوض الجميل وشبحه — ينيلكموها اليوم أو يسعف الغد ؟ (١) *

٣ • وصف الجو العام للمعركة وذكر النتيجة : وقد أعتمد الادب في اظهار الجو العام للمعركة على تقديم صور خاطفة لالتقاء الجيشين ، ثم ما تلبث المعركة أن تنتهي باعلان هزيمة الفرنجة ، يقول عمارة اليمني في مدح الملك الناصر بن الصالح :

نهدت الى الافرنج تزجي كتائبا — تغلّ بها أعناقهم وتشال
فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم — سباسب حالت دونهم ورمال
وأتبعتهم ركضا على كل سابح — اذ الريح كلّت لم يصبه كلال (٢)

ويقول في مدح صلاح الدين يوم دمياط :

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم — عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدا — ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على الافرنج كل ثنية — وقلتم لأيدي الخيل مري على (مُرّي) **
وأزعجه من مصر خوف يلزه — كما لزّ مهزوم من الليل بالفجر (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١ / ٥٨ ، ٢ / ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ ، صبح الاعشى ٧ / ٢٥٥ ، ديوان علم الدين آيدمر ص ١٥ ، وانظر محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٠ الخريدة قسم الشام ١ / ٢٩ ، ديوان ابن الخياط ١٨٤ .

(٢) النكت العصرية ٢٠٧

** مري هو ملك القدس الافرنجي

(٣) المصدر السابق ٢٦٩ ، الروضتين ١ / ١ / ١٢٤

وثمة أمثلة كثيرة تصور لقاء الجيشين بأعداد كثيرة وعدد متنوعة ، وقد اتكأ الادبـــاء لاظهار هذا الجو على الجرس الموسيقي القوي المرتبط بجو الحروب ، فكثرت الألفاظ التي تشير الى الضرب والحركة ، واستعملت البحور الطويلة التي تتناسب مع جدية الموقف .

ومما يتعلق بوصف الجو العام وصف نتائج القصف ، وقد قدم القاضي الفاضل وصفـــا دقيقا لتهديم سور القدس بعد قصفه بالمنجنيقات يقول : فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربة الاحراق الدال على لطافة أنمله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخــراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ... " (١) ، كما وصف ابن دنينير غبار المعركـــة فلا يرى من خلالها سوى وجه المدوح (المعظم عيسى) أو لمع الأسنة والسيـــوف ، يقول :

عاد النهار لهم ليلا بقسطلـــــة دحت ، ووجهك في ظلمائها قمـــــر (٢)

وصور الأدب في معرض وصف الجو العام للمعركة حالة الفرنج النفسية في موقفي الضعف والقوة ، وقد سبقت الاشارات الى مواطن القوة عندهم حين تصلهم الامدادات أو بعــد النصر ، وأما ضعف نفوسهم فيكون بعد الفرار من هزيمة أو حين يشعرون بقســـوة المسلمين ، وأمثلة ذلك وافرة ، منها ما حدث زمن عماد الدين زنكي حين حاصر حصن الأثارب ، فاجتمع الفرنج من كل مكان ، ولكنهم مع كثرة عددهم أحسوا بقوة عماد الدين ، فلم يقدروا على الهجوم بل زهقت نفوسهم وظلوا ينظرون ، يقول ابن الاثير : " هذا ، والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، ويقدمون في سيرهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن القاءهم ـــــم أولى وأحرى ، ولكن آجالهم تسوقهم الى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنمـــا يساقون الى الموت وهم ينظرون ... " (٣) ، ويصف أسامة بن منقذ حالة الفرنج لا سيما بعد وين وقد انتصر عليهم نور الدين :

وقد ضاقت الدنيا عليهم برحبهـــا فلم ينجه بر ولم يحمه بحــــــــر (٤)

وينفي المهذب بن الزبير أن تكون الارض قد زلزلت ، وإنما شعر الفرنج بحركة الارض نتيجة خوفهم فيقول :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهليها من الخفقـــــــان (٥)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٠
(٢) ديوان ابن دنينير ٢٢ ، وأنظر مثلا آخر في الروضتين ١ / ٥٤
(٣) الباهر ٤٠
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٣
(٥) الروضتين ١ / ٢ / ٣٧٦ والخريدة قسم شعراء مصر ١ / ٢١٠

وقد صوّر ابن سناء الملك حالتهم النفسية بعد سقوط القدس حين قال :

غدا بادويلٌ وهو يلعن نفســــــه ... وحق لتلك النفس أن تربع اللعنــــــا
يروعه الصبح المنير اذا بـــــــدا ... ويوحشه الليل البهيم اذا جنـــــا (١)

ويؤكد الرشيد النابلسي هذا المعنى فيجعلهم كالوحش لشدة الخوف والحسرة يقول :

تراهم من التشاؤم كالوحــــــــــم ... وكانوا تلك المناكب ضـــــــــنكا (٢)

كما نجد هذا المعنى عند ابن عبد الظاهر زمن المنصور قلاوون حين فتح حصن المرقب ،
يقول :

حصن به الكفار قالوا تُســــــرى ... من بعد هذا أي شيء بقـــــــي
وقال كل منهمُ ليتنـــــــــــا ... لمثل هذا اليوم لم نخلـــــــق (٣)

ويقول العماد في وصف حالة الفرنج الذين تحصنوا بحصن الاكراد " وخاف الكفر وطاف الذعر ، وقال نَفَرُ الشرك نَفِرّ ولا نستقر ، .. فكأنهم في حصونهم أموات ، لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات .. "(٤) ، ويقول علاء الدين بن القاضي محيي الدين بن الزكي في وصف فرنج صفد، وقد هاجمهم بيبرس سنة ٦٦٤ : "وواغادنا والحصن قد تزعزعت أركانه ، والكفر قد أنهدم بنيانه ،وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .. "(٥) *
وقد كان للاحداث الجارية ورجحان كفة المسلمين أثر في شعور الفرنج بأن مصيرهم الموت بعيدين عن مواطنهم الاصلية ، يقول القاضي الفاضل : " والفرنج يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال يُحرِم السيف حتى يحلوا ، حتى أنا لما جاوزناهم في الأمر القريب (دمياط سنة ٥٦٤) وعلموا أن المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب استشعروا بفراق بلادهم ،وتهادوا التعازي لأرواحهم بأجسادهم .. "(٦)
ولقد وفق الادباء حين قدموا لنا صورتين للافرنج ، إحداهما خلال فترة قــــــوة واستعلاء ، ما لبثت أن انقضت ، والأخرى خلال مواجهة طويلة مع جيوش الاسلام ، انتهت بخروجهم من المشرق الاسلامي ، ولعل الابيات التالية التي قيلت بعد أن انتصر نور الدين على الفرنج قرب طبرية سنة ٥٥٢ تعطي فكرة عما كان عليه الفرنج في فترة القوة

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩
(٢) عقد الجمان ج١٧ / ق / ١٧٦
(٣) تشريف الايام والعصور ٨٢
(٤) الفتح القسي ٢٢٥
(٥) نهاية الارب ١٥٢/٥
* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١ / ٢ / ٢٧٦ ، ٣٧٤ ، ٤١٢ ، ج ١ / ٣٨ و ١٥٦ ، ٢٢٠ ، ٢٧٤ ، ج ٢ / ١٢ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٨ ، والفتح القسي ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٣ ، ٣٧١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، صبح الأعشى ٣٥٦/٧ ، ٣٩٨/٨ نهاية الارب ١٥٧/٥ـ١٥٨ ، ١٩٢ الكامل ١٢/١١ ، ٤٥٧ تشريف الايام ٧٩ رسائل ابن الاثير ١٥٢ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٧ ، ٣١٨ النوادر ٧٧ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ ، ١٤٨ .
(٦) صبح الاعشى ٩٠/١٣

والاستعلاء ، وما آلوا اليه بعد ردة الفعل الاسلامية القويـــة :

ما رأينا فيما تقدم يومـــا كامل الحسن غاية في البهـــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ذلة الاسر والبلا والفنـــاء
وراياتهم على السيس نكســوا بين ذل وحسرة وعنـــاء
بعد عزهم وهيبة ذكـــر في مصاف الحروب والهيجـــاء (١)

وفي عهد صلاح الدين ، بعد أن اتحدت البلاد الاسلامية ، أصبحت أرض الفرنج كما صورها الشاعر العربي سبيلا سهلا لكل سالك رغم كثرتهم ، بعد أن كانت حمى لا يضام ، يقـول ابن الدهان الموصلي :

وكانت حمى أرض الفرنج فأصبحت سبيلا لابناء السبيل مذلـــلا
خشوا أن يلاقوا جحفلا كل فـــارس يعدونه منه خميسا وجحفـــلا
وهابوك حتى الفارس الشهم من رأى بجيشك نارا أو تأمل قسطـــلا
ولو أنهم كالرمل أو عدد الحصـــى لما بينوا اذ عاينوك كلا ولا (٢)

ويشير ابن عبد الظاهر الى تحول خطير في نفسية الفرنج ، ساعد على استئصالهم ، وهو تكالبهم على الحياة ، بعد أن كانوا لا يخافون الموت ، فخيل لهم الرعب أشياء لا واقع لها رغم حصانة الموقع الذي يعيشون فيه ، وذلك حين حاصر المسلمون حصن المرقب الحصين ، وبعد جهد كبير لم يستطع المسلمون السيطرة على الحصن ، ففضلوا الرجوع على اضاعة الوقت ، واذا رسولهم يأتي يطلب الامان ، يقول : " فسقط في أيديهم وحل الخذلان في ناديهـــم ، وتحققوا أنهم تتلى بغير شك ، وأن أسيرهم لا يفك ، وطلبوا الحديث في الامان ، والمعاملة بالعفو والاحسان ، وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة ، صاروا يؤثرون الحياة علـى الموت ، وتحققوا أنهم ان غفلوا عن أنفسهم فاتهم الفوت" (٣) ، ومما أتحفه الادباء فـي وصف المعركة وصفا مجزأ ، تقسيم جيش الفرنج بعد الهزيمة الى هاربين أو أسرى أو قتلى *.

(١) الروضتين ١/ ٢/ ٢٧٢ ، وانظر ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ ، عقد الجمان جـ١٦ ق٢ ورقة ٣٨٢
(٢) ديوان ابن الدهان الموصلي ٤٣
(٣) تشريف الايام والعصور ٧٩ ، وللمزيد انظر الروضتين ١/ ٢/ ٥ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، صبح الاعشـــى ٦/ ٩٩ ، ديوان ابن الدهان ٤٣ ، ديوان شرف الدين الانصاري ٣٨٢ ، ٤٠١ ، الخريدة قسم الشام ٢/ ٢٨٢

* يقول الرشيد النابلسي :
فقتيل معفر ليس يودى وأسير مكبل لن يفكا (عقد الجمان جـ١٧ ق١ ورقه ١٨٠)
ويقول الصاحب شرف الدين الانصاري :
فالقوم بين قتيـــل وبين عاف وهـــارب (ديوانه ٩٦ وانظر ص ٤٠١)
ويقول ابن مطروح :
خمسون ألفا لا يرى منهم غير قتيل أو أسير جريح (المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٦ ديوان ابن مطروح ١٦٦ ، ديوان ابن دنينير ١٧٤)

وقد أعطوا صورة واضحة لكل نوع من هؤلاء ، حسب نتيجة المعركة ، فهذا ابن القيسراني يقدم صورة الهاربين أمام تاج الدولة بوري سنة ٥٢٣ ، اذ لم يستطيعوا الفرار بين وقع حبات المطر على أجسامهم ووقع السهام لشدة خوفهم ، يقول :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا كالليل يلتهم الدنيا ، له ظُلَم
والنصر دان وخيل الله مقبلة ترجو الشهادة في الهيجا ، وتغتنم
صابَ الغمام عليهم والسهام معا فما دروا أيما الهطالة الديم (١)

ويقول ابن منير :

خافوا بأنفسهم ما ألمّ بهم فهم يظنون ربما أنها رصد (٢)

ويلاحظ أن الادباء ربطوا هزيمة الفرنج بعقيدتهم وشعائرهم الدينية ، بالاضافة الى وصف بلادهم بأنها خراب ، يقول ابن عبد الظاهر في رسالة أرسلها الى البولس بيمند ملك طرابلس وانطاكية " ... فلو رأيت خيالك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار والماءة وكل أربع منها تباع وتشترى من مالك بدينار ، ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق .. لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا ...(٣) * .

أما الأسرى فقد قدم لهم الادب صورة ممتزجة الاطياف ، من حزن وخوف وحسرة واستهزاء يقول ابن القيسراني في فتح الرها :

لا أين يا أسرى الممالك بعدها ضاق الفضاء على نجاة الهارب (٤)

ويقول :

الى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وعز رشاده (٥)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤١
(٢) ديوان ابن منير ورقة ١٧ وأنظر ورقة ١٤
(٣) صبح الاعشى ٨/٣٠١ ، وأنظر ٦/١٩٥
* للمزيد من الامثلة على التشفي أنظر : الروضتين ج١/٣٨ ، ٤٩ ، ٦٢/١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١١ ، وعن الاذلال والتحقير أنظر الروضتين ٢/١٢ ، ١٦ ، ٤٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، وعن ارتباط الهزيمة بالعقيدة أنظر ديوان ابن منير ص٢٢ ، وديوان ابن الساعاتي ٢/٣٢٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ديوان ابن الدهان ص٤٥ والروضتين ١/١/٥٣ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١/٢/٣٥٧ ، ٣٧٢ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ وأنظر : الكامل ١١/١٤٥ ، ٣٠٠ ، ٤٥٧ ، ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩ ، ديوان شرف الدين الانصاري ١٢٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠١ ، ديوان فتيان الشاغوري ٢١٦ الخريدة قسم الشام ١/٤٢٧ ، ٤٧٠ ، الفتح ٢٧١ ، ٢٩٠ ، صبح الاعشى ٦/١٩٥ ، ٢٧٥ ، ٧/٢٥ ، ٨/٢٥٠ تاريخ ابن الفرات مجـ٤ ج٢ /٢٥٢ ، مفرج الكروب ٤/٩٧
(٤) الروضتين ١/١/٩٩ (٥) الروضتين ج١ ق١/٩٨

ويصف ابن القلانسي وصول الاسرى الى دمشق ، وقد رتبوا على كل جمل فارسان من أبطالهم ، ومعها راية من راياتهم منشورة ، ويذكر قول بعض الشعراء :

ما رأينا فيما تقدم يومـا ... كامل الحسن غاية في البهـاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ... ذلة الاسر والبلا والشقـاء
وراياتهم على العيس زفوا ... بين ذل وحسرة وعنـاء (١)

ويقدم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير مثل هذه الصورة يوم حطين إذ صفد الاسرى بحبال الخيام ، وجيء بهم بين يدي السلطان ، يقول القاضي الفاضل : " فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الاسارى يساقون بها مقرنين ، لحمدت الذى سخر لنا هذا وما كنا لمقرنين ... " (٢) .

ويقول العماد : " وجاءوا بالاسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الاقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الاعناق والسوق .. " (٣)

ويقول ضياء الدين بن الاثير : " وجيء بالاسرى مقرنين في الاصفاد ، موقنين ان رؤوسهم عوارٍ عن تلك الاجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ، ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره ... " (٤)

ولم يكن هذا المآل للجنود فقط ، وإنما شاركهم فيه ملوكهم ، يقول ابن سناء الملك :

وحوى الأسر كل ملك يظن الد(م) ... هر يفنى وملكه ليس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسـير ... يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النوم يقظة ويظن الشـ ... ـخص طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه ... فتمنى لونه أنه ما تمنى (٥)

ومن الواضح أن ذكر الملوك الاسرى جاء ليظهر عظمة النصر ، وقدرة الاسر ، فصح أن الاسير مليك عظيم إلا انه وقع في أسر المسلمين ، ولولا قوة القائد المسلم لما تمكن من أسر هذا الملك العظيم ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين :

من باتت الأسد أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغلب إلا من له الغلب (٦)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، وانظر الروضتين ١/١/٢٧٢ ، ومفرج الكروب ٣/١٤٩ ، وعقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣

(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ١٠٠

(٣) الفتح القسي ٩٣

(٤) ضياء الدين ابن الاثير ٧٥

(٥) ديوان ابن سناء الملك ٨١٩

(٦) الروضتين ١/١/١٥٤

وقد سلط أدباء العرب سياط السخرية والاستهزاء على قادة الفرنج الأسرى ، يقول ابن دنينير :

يمشون همسا ، وإيماءً حديثهم ... فيها لخوفك إن قالوا وإن ذكروا
نهاهمُ الرعب عن عَوْد لمنقصة ... إن قيل عودوا ، نَعُدْ بالسيف ننتصر (١)

ويقول ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن لسان فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها ... حسبت أن الزمر يا طبل ريح (٢)

وكثر عدد الأسرى حتى أصبح القيد غاليا لشدة حاجة المسلمين إليه ، يقول الشاغوري :

أغلى الأداهمَ مَنْ أَسَرْتَ وأرخصتْ ... بيض الصوارم من نسهاب العسكر (٣)

ويقول العماد :

يباعون أسرابا شرائح أحبل ... كشلة عصفور من الريش جُرِّدا (٤)

ويقول :

سبايا بلاد الله مملوءة بهم ... وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها ... لكثرتها ، كم كثرة توجب الوكسا (٥) *

هذا ، وقد صور الأدب القتلى ودماءهم ، ومصير تلك الجثث المنتشرة هنا وهناك لكثرتها ، كما رسم صورة رهيبة لرأس الجندي الصليبي القتيل وهو يعلو الرمح ، وكأنه ثمرة من ثماره مع أن الرمح لا يثمر ، يقول ابن القيسراني :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة ... برأسه ، إن إثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه ... أنبوبه في صعود أصلها صبب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا ... بدا لثعلبها من نحره سرب (٦)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٢) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، والإلمام ١/ ١٦٩
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ١٦ ، والروضتين ٢/ ٨٤
(٤) الروضتين ٢/ ١١٨ — (٥) المصدر السابق ٢/ ٨٣
* للمزيد من الأمثلة عن الأسرى أنظر : الروضتين ١/١/ ٢٠٦ ، ١/٢/ ٤٤٤ ، ج٢/ ٤٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١٦٩ ، حسن المحاضرة ٣٩ تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥١ ، فوات الوفيات ١/ ١٥٧ ، المواعظ والاعتبار ط • بولاق ٢٢٣
(٦) الروضتين ١/١/ ١٥٤

ولم يكن رأس القائد هو الرأس الوحيد الذى رفع على رمح ، وإنما استطالت رؤوس الفرنج كأنما هي زرع قد أخصب ، وحين شهدها السيف الاسلامي أغرته بقطفها ، فنادى سيف المسلمين لتشارك في حصاد الزرع البشري ، يقول ابن القيسراني أيضا :

وطالت أرؤس الأعلاج خصبا ... فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا ... ولا طعنٌ هناك ولا طراد
وللإبرنز فوق الرمح رأس ... توسد والسنان له وساد (١)

ويقول القاضي الفاضل في فتوح صلاح الدين : " وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا ، وقد أجتنوا ثمراتها ، وبأرواحهم في صدر الظبى ، وقد أطفأوا بمائها جمراتها ... " (٢) ، وفي معركة دمياط سنة ٦١٥ يقول ابن دنينير :

ما أنبت الخط طول الدهر من أسل ... غادرته وله من هامهم ثمر (٣)

وقد فصّل الشعراء صورة أنفصال الرأس عن الجسد ، فجعلوه يركض نحو البطل المسلم ليقدم الطاعة والتحية إليه ، أو يطير الى السماء من القناة ثم يهبط الى الارض لشدة الضربة ، يقول ابن القيسراني :

أتى رأسه ركضا وغودر شلوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر (٤)

ويقول ابن منير :

تمشي القناة برأسه وهو الذى ... نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته ... لأراك هامد خفضه إخباته (٥)

بل قد تبلغ الضربة لشدتها حداً ترفع معها جثة القائد الصليبي فتلقيه مسبل اليدين لا من نعاس ، وغائرها لا من سهاد ، يقول ابن القيسراني :

ترجل للسّلام ففرسوه ... وليس سوى القناة له جواد
غضيضَ المقلتين ولا نعاس ... وغائرها وليس به سهاد (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤٦
(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ٩٨
(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢
(٤) الروضتين ١/١/١٨٦
(٥) المصدر السابق ١٥٨
(٦) المصدر السابق ١٤٦

وقد تصل الضربة الى رأسه فتحطمه بحد أن تكون قد حطمت التاج الذى عليه ، يقول ابن منير :

حللت التاج عنه وعل تاجا نكانَ المتد من عقد الكعاب (١)

وفي مقابل ارتفاع الرأس في الجو ، فان الضربة تغرس الجسم في الأرض، حيث تبدو وكأنها أشجار والرماح تحمل الثمر ، يقول العماد :

لقد بغت فئة الافرنج فأنتصفت منها بأقدامك الهندية البتر
غرست في أرض مصر من جسومهمُ أشجار خط لها من هامهم ثمر (٢) *

وبالإضافة الى هذه الصورة ، فقد قدم الادب صورا أخرى لجثة القتيل الفرنجي ، فهي إما ملقاة على الأرض تعلوها الدماء كما يقول ابن الصياد في مدح طلائع بن رزيك حين تمكن من قتل مقدم خيل الفرنج :

هو ملبس جثث العدا في الحرب من حلل النجيع مجاسدا ورياطا
فجياده تشكو مزاحمة القنا وترد خرصان الرماح سياطا (٣) *

وإما ملقاة بالعراء ، يقول ابن منير في صاحب إنطاكية :

والآن ملقى بالعرا يقتاته ما كان قبل بصيده يقتاته
أوطأت أطراف السنابك هامه فتقاذفت بمنيفها قذفاته (٤)

ويقول ابن شداد في وصف قتلى الفرنج يوم عكا : " وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحين ، على التلال والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر بهم حتى شبعت ... " (٥) ، ويقول راجح الحلي في قتلى دمياط سنة ٦١٥ هـ :

فلم ينج الا كل شلو مجندل ثوى منهم أو من تراه مقيدا (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/٢٢٩
(٢) المصدر السابق ٢٧١
(٣) الخريدة/ قسم شعراء مصر ١/٢٤٣
* الابيات منسوبة خطأ الى ظافر الحداد ، انظر ديوان ظافر ص ٢٧٥ والرياط الاثواب الرقيقة
(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٨
(٥) النوادر السلطانية ١٣٠
(٦) ابن كثير / البداية والنهاية ٩٥

وفي قتلى معركة حمص زمن قلاوون يقول بدر الدين المنبجي :

أجريت فيها بحارا من نجيعهمُ ... فكل سابحة سبحا الى اللبب
لم تطلع الشمس فيها بعد ذاك على ... غير الشلايا من القتلى ولم تغب (١)

وهذه الجثث المتناثرة على الأرض كثيرةُ العدد ، لأن الجيش الفرنجي يضم أعدادا كبيرة ، يقول ابن الاثير في وصف قتلى حطين : " فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم (المسلمين) أسروا واحدا ، ومن يرى الاسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ... ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد ، منها المجتمع ومنها المفترق ، هذا سوى ما جرفته السيول وأكلته السباع ... " (٢) ، ويقول فتيان الشاغوري :

فالخيل لا تمشي بها إلا على ... هام منضدة وشعر أشقر (٣)

وقد أعطى الأدب صورة لأعداد القتلى، ربما كان مبالغا فيها ، يقول العماد في قتلى الفرنج أثناء حصار عكا : " ولم يفلت من الاعداء الا أعداد ، ولم ينج من الآلاف إلا آحاد ، وأمست (تلك الاجساد) لنار الحرب فَراشا ، ولارض المعركة فِراشا ... " (٤) ، ويقول ابن النبيه في مدح الملك العادل :

كم لك في يافا وفي الغور من ... وقائع غرّ مشاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم ... ما بين مقتول ومأسور (٥)

ويقول ابن مطروح في وصف قتلى الفرنج في موقعة دمياط سنة ٦٤٧ هـ :

خمسون ألفا لا يرى منهمُ ... غير قتيل أو أسير جريح (٦)

ويقدر الملك تورانشاه عدد القتلى في الموقعة السابقة بثلاثين ألفا ، يقول في كتاب الى نائبه في دمشق : " ولما كان الليل ، تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في أثرهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في

---

(١) عقد الجمان ٢٠ ق ٤ / ٧٢٢
(٢) الكامل ١١ / ٥٣٧ ـ ٥٣٨
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥
(٤) الفتح القسي ٢١١
(٥) ديوان ابن النبيه ١٢
(٦) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٨٦

أدبارهم عامة الليل ، ويحل فيهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا نهار الاربعاء ، قتلنا منهم الثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ... (١) *.

هذا وقد صور الأدب مآل هذه الجثث ، وتسموها بين بطون الوحوش وحواصل الطيور ، لا إكراما لهم ، وإنما لان الارض رفضت احتواء جثثهم لوجسهم ، يقول العماد في وقعة حطين مادحا صلاح الدين :

كسرتهم إذ صح عزمك فيهم ونكستهم اذ صار سهمهم نكستها
بواقعة رجت بها الارض جيشهم دمارا كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الارض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا (٢)

ولهذا أكثر الأدباء من وصف جيوش الطير فوق الجيش الاسلامي ، متوقعة سقوط القتلى من الفرنج ، يقول فتيان الشاغوري :

خميس له الرايات ظل ، وفوقه من الطير ظل يحجب الشمس سادل (٣)

ولكثرة الطيور فوق الجيش الاسلامي أخذ بعضها يصادم بعض ، يقول العماد في مدح صلاح الدين :

تركت مصارع للمشركين يطاون القشاعم فيه قبور
تزاحم فرسانها الضاربات فتصدم فيها النسور النسور (٤)

وقد قاسمت الطيور الجارحة في فرائسها الوحوش الضارية ، واشتركت جميعا في أكل تلك الجثث ، مع أن الطيور تنفر عادة من الوحوش ، يقول فتيان الشاغوري :

فالقوم نهب للسباع تنوشهم من كل ذي ناب وصاحب منسر (٥) **

---

(١) نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١٠١ ، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٧

* لمزيد من الأمثلة عن القتلى أنظر : الخريدة قسم شعراء مصر ١/ ٢١٢ ، صبح الاعشى ٧/ ١٢٧ ، مفرج الكروب ٣/ ١٥٠ ، ديوان فتيان الشاغوري ٤٥٧ ، ٥٠٩ ابن الاثير الكامل ٥٧ ، ١١١ ، ١٧٤ ، الروضتين ١/ ٢/ ٤٦٦ ، الروضتين ٢/ ١٠/ ٧٨ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٢

(٢) الروضتين ٢/ ٨٣

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٧

(٤) الخريدة/ قسم شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٢٨

(٥) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٤ ، وأنظر ١٤٥

** للمزيد عن مآل الجثث للطيور والسباع أنظر : ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ديوان ابن النبيه ٧٦ ، أعلام النبلاء ٢/ ١٦ الفتح ٢٩٠ ، الخريدة قسم الشام ١/ ١٥٧ ، قسم العراق ٢/ ١٤٧ ، قسم مصر ١/ ١١ ، الروضتين ١/ ١/ ١٨٦

هذه حالة جثث القتلى ، أما دماء القتلى فقد جاء وصفها في الادب لتدل على ما دلت عليه متابعة الطير للجيش الاسلامي، من كثرة قتلاهم سواء في البحر أو البر، فها هو ذا شهاب الدين محمود يصف الخيل الإسلامية تخوض في دمائهم في البر ويصف الرماح تنثر دمهم على الاسوار ، وتمد البحر ببحر من الدماء ، يقول :

وخاضت البيض في بحر الدماء فما أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص رزق القنا في زرق أعينهم كأنما شطأن تهوى الى قلب
أجرت الى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح ، اذ غرقاه كالحبب (١)

ويبالغ ابن القيسراني في كثرة قتلاهم ، اذ يجعل مياه نهر العاصي حمراء لكثرة الدماء التي أهرقت فيه يقول :

غداة كأنما العاصي احمرارا من الدم عبرة الجفن القريح (٢)

ويقول فتيان الشاغوري في مدح الملك الأشرف موسى الذى قتل من الفرنج يوم دمياط ما قتل :

فبسيفه مج الفرنج دماءهم في البحر حتى الماء منه أشكل (٣) *

وقد نظر الادباء الى هذا الدم على أنه ماء مطهر للأرض التي دنسها الفرنج ، فدماؤهم الطاهر الوحيد لرجسهم ، يقول ابن القيسراني :

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طُهْر (٤)

ويقول ابن سناء الملك :

وكانت بهم تلك البلاد تنجست فناب دم منهم عن الماء في الغُسْل (٥)

ويقول العماد في نكوص الفرنج عن عكا والقدس سنة ٥٨٣ هـ " ... بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد السلام بدماء الشرك ما كان يتخللها ، فلا ضرر ولا ضير ... " (٦) ، ويقول القاضي الفاضل في ذلك أيضا : " فلله الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهر ما طهر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ... " (٧) ، وحين تم طرد الفرنج نهائيا من بلاد الشام قال شمس الدين الفزارى :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن منهم ترى التطهير الا بالدم (٨) **

---

(١) جواهر السلوك ٦٠ ، ابن الفرات ٨/١١٧-١١٨ (٢) أعلام النبلاء ٢/١٦
(٣) ديوان فتيان الشاغورى ٣١٤
* لمزيد من الأمثلة عن صورة الدماء أنظر : ديوان ابن سناء الملك ٨١٤ ، ٥٦٦ ، ديوان ابن النبيه ٦٧ ، الروضتين ١/١٤٧ ، ١/٢/٣٢١ ، الخريدة قسم شعراء الشام ١/١٥٨ قسم شعراء مصر ١/٢١١ ، عقد الجمان ٢٠/٤/٧٢٢
(٤) الروضتين ١/١/١٨٦ (٥) ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ (٦) صبح الأعشى ٦/٥١٩
(٧) المصدر السابق ٦/٥٢٨ (٨) جواهر السلوك ورقه ٤٨
** ذكر محمود سليم هذا البيت من قصيدة ابن الصائغ في فتح عكا ولم يشر الى المصدر وهي للفزاري / أنظر عصر سلاطين المماليك جـ٨/٥٧

وبالاضافة الى كون دمائهم المطهر الوحيد للارض ، فان لها فائدة أخرى وهي أنها تروى الارض والبطاح والسيوف العطشى ، وقد تفنن الشعراء في تقديم هذه الصور للتشفي بالعدو المنهزم ...

* * *

تلك هي صورة الصراع العسكرى الذى أنتهى بعد عناء مرير أستمر مدة قرنين من الزمان ، ولكن ما الوظيفة التي أضطلع بها الادب خلال هذا الصراع ، وما الغاية التي استهدفها الادباء ؟ .

لقد أضطلع الادب بمهمة جليلة كان لها الأثر البعيد في مسيرة الصراع ، وفي حفز قادة المسلمين على القتال ، والسير به الى أن انتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي وذلك أن الأدب نظر الى الفرنج على أنهم غرباء طارئون على البلاد الاسلامية وعلى أهلها ، ومن ثم فقد حرضوا على مقاومتهم والتصدى لهم ، مهما بلغت التضحيات ، ومهما طال الزمان ، ولم يخل ديوان من دواوين الشعراء الذين عاشوا خلال أحداث الحروب الصليبية من التحريض على قتال الغزاة ، ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بوضوح في الاحداث التي سجلها الادب ، وقد استغل الادباء لاسيما الشعراء انتصار القادة المسلمين ، وأوضحوا للناس أن الفرنج طارئون وهم ينتظرون أحد المصيرين : الرحيل أو القتل والتدمير ، كما استغلوا المدح الشخصية وأضفوا على الممدوحين صفات ترتبط بمعظمهم من أجل طرد الغزاة ، ويتجلى هذا الموقف بصورة أكثر وضوحا في فتوح صلاح الدين ، اذ أجمع الادباء على أن القدس وغيرها من البلاد الاسلامية قد أحتلت في حالة ضعف المسلمين ، وأن قادة المسلمين يعملون الآن لاسترجاعها لتعود الى سابق عهدها بما فيه من طهر وفرح وأمن ، يقول العماد : "وكان الاسلام غريبا فرجع الى وطنه ، وسكن فيه التوطن في مسكنه ، وزالت مخاوفه ، وعاد الى مأمنه ..." (١) ويقول : " ورد الاسلام الغريب الى بيته المقدس ، ونفى الكافر عنه كاسف البال راغم المعطس" (٢) ولم تغب فكرة الطروء عن أذهان القادة ، فهذا صلاح الدين يخطب في الجيش الاسلامي وهو قبالة العدو في عكا ، ويعلمهم أن هذا العدو الطارئ قد وطئ أرض الاسلام ، فيجب قتاله يقول : " أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد وطئ أرض المسلمين ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ، ... والرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده " (٣) .

وحين حاول الملك ريتشارد قلب الأسد مفاوضة صلاح الدين رد عليه بقوله : القدس لنا ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فلا يتصور أن ننزل عليه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف ما كان بها من المسلمين في ذلك الوقت " (٤) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٩٨

(٢) الروضتين ٢ / ١٠٠ وأنظر أيضا ٢ / ٨٩ أوصبح الاعشى ٦ / ٥١٧ (٣) الروضتين ٢ / ١٤٦

(٤) ابن شداد / النوادر السلطانية ١٩٤ ، وأنظر ديوان ابن مطروح ١٨٢ ومحمد زغلول سلام / ضياء الدين بن الاثير ٨٠ ، الخريدة / الشام ١ / ١٥٨

وهكذا نجد حرص الأدباء والقادة على إظهار العدو بهذا المظهر عبر تاريخ الصراع معه ، وحتى قضي عليه نهائيا ، وأخرج من ديار الإسلام .

* * *

وقد حاول الفرنج نيل الأعتراف بهم من المسلمين ، باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ، وعن طريق المفاوضات أو المهادنات ، ولكن ذلك كله لم يفته الى ما يريدون ، ويظهر ذلك من رد صلاح الدين الآنف الذكر ، ولذا فقد لجأوا الى القوة ، وهددوه كما روى العماد ما مضمونه " وأن أبيتم غير النخوة والإباء ، ودمت على إراقة الدماء وإحراق الدماء ، جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبق الطباق ، وأطاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق ، وثار الروم لروم الثأر ، وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار(١) ولكنه لم يكترث لهذا التهديد ، ورد عليهم بالعزم الذي لا يعرفون سواه ، فقال للترجمان " أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وامتثال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكثرت الآحاد بكثرة النقاد * .. (١) .

وقد لجأوا الى الخديعة وصرف الناس عن الحرب ، وذلك بالمراسلات المتكررة من أجل الصلح لتستمرئ نفوس المسلمين الراحة ، وتكره القتال ، فأرسل ملك الانجليز عدة رسائل يطالب في بعضها من السلطان الكف عن القتال ، وأنه لا يجوز أن يُهلك المسلمين في القتال ، كما لا يجوز له أن يُهلك الفرنج ، ثم تودد اليه بأن يتنازل السلطان عن القدس والساحل وعسقلان (٢) ، فرفض السلطان ، فأعاد الكرة ثانية وبطريقة جديدة ، إذ طلب من السلطان أن يزوج أخاه العادل بأخته ، ثم يتنازل كل منهما للزوجين عن الساحل والقدس ... وطالت السفارات ، ولم تسفر عن شيء ، ومع ذلك بقي السلطان وجنده متهيئين للقتال (٣) ، ولما شعر بالحاح ملك الانجليز ، وقد ضجر العسكر الإسلامي من ملازمة القتال عدة سنوات قبل المهادنة ، لأنه خشي أن يستمر المستبد الفرنجي في حين أزداد الضجر في الجيش الاسلامي ، فتكون العاقبة وخيمة ،

---

(١) الفتح القسي ٢٤٠
(*) النقاد جنس من الغنم الصغيرة الأرجل .
(٢) النوادر السلطانية ٢١٩ ـ ٢١١ وللمراسلات أنظر ابن شداد / النوادر ٢٠١ ـ ٢٠٣
٢١٨ ـ ٢٢٠ ، ٢٢٧ ـ ٢٣٠
(٣) الروضتين ٢/ ١٠١ ، ٢٠٣

وهذا ما يؤكده ابن شداد حين قال : " إن الصلح لم يكن من إيثاره " (١) ، وكأنه أحس بأن الهدنة بالرغم عن مدتها القصيرة تشكل خطرا على القضية ، فيصارح ابن شداد بقوله : " أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة " المسلمين " قد قعد في رأس تلة ، وقال لا أنزل ، ويهلك المسلمون " (١)

وإن الناظر في بنود الصلح يدرك أنه كان لصالح المسلمين ، لأن سأم الجند الاسلامي بلغ حدا كاد يصل الى حد التمرد على أوامر صلاح الدين ، فكان هذا الصلح تجديدا لنشاطهم ، ومن ناحية أخرى فإن خوف صلاح الدين من المستقبل قد تحققت فعلا ، إذ توفي بعد الصلح بفترة تقل عن السنة ، ولو أنه مات والقتال مستمر لتحققت مخاوفه من أن يكتسح العدو البلاد وقادة المسلمين متفرقون ، كل في البلد الذي يحكمه ، وهذا ما عبر عنه ابن شداد في تعقيبه على قول صلاح الدين بقوله : " وكان كما قال " (١) ثم إن مدة الصلح تشعر بأن الحروب مستمرة ، اذ قد تجدد القتال سنة ٥٩٣ هـ أي بعد انتهاء الصلح بسنتين (٢) .

ولو سرنا مع التاريخ الى عصر بيبرس وقلاوون لوجدنا الهدنة في صالح المسلمين بشكل واضح ، إذ كان من شروطها مقاسمة الفرنج في انتاج الأرض ، ومنعهم من استعمال الامدادات كما منعوهم من تعمير الأسوار والقلاع ، وهذا يدل على أن الهدن لم يصاحبها شعور بانتهاء حالة الحروب ، وقد ساعد هذا العامل النفسي المسلمين على استرجاع الاراضي المحتلة (٣) .

والدارس لتاريخ هذه الفترة وأدبها يجد فيها تركيزا على غرس الكره في نفوس المسلمين ضد الفرنج ، لأنهم محتلون ، وقد أفلح هذا الكره في تصميم المسلمين على تحرير الأرض ، ومن الادلة التي تثبت شعور المسلمين الدائم بالكره للمحتلين ما سبقت الاشارة اليه هذا الكلام من تعريض المسلمين ضدهم ، وما ورد في النثر من دعاء بتدمير المدن التي يسكنونها واستنزال اللعنة والخذلان عليهم (٤)

---

(١) النوادر السلطانية ٢٣٥

(٢) الذيل على الروضتين ١٠

(٣) صبح الاعشى ١٤/٣٣ ، ٣٩ـ٤١ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠

(٤) انظر الاعتبار : ١٠ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ابن شداد ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٨ ، الكامل ١٠/٣١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ١١/١٠٦ ، ١٥٤ ، ٤٥٣ ، ١٢/٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٢٦ ، رحلة ابن جبير ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، الروضتين ٢/١٧٣ .. الخ

وقد أبرز الادباء هذا الشعور بطريقة قوية مؤثرة حين ربطوا بين كراهتهم للغزاة ، وكره الله لهم ، ورفض البلاد المحتلة لوجودهم ، يقول القاضي الفاضل في وصف فتوح صلاح الدين :

" وقد أظفر الله بالعدو الذي تشذبت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة من الله ليس لصاحبها يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ... " (١) .

أما بالنسبة الى الأرض فقد صورها الادباء تتململ تحت الاعداء ، بل صوروها تلفظهم وتذمهم ، يقول ابن منير في فتح فامية :

فاليوم أضحت تستذم مجيرها ... من جوره ، وغدت تذم جوارها (٢)

ويقول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى شاكيا الظالم الذي يحيا فيه :

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس

جاءت اليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس (٣)

وقد صور الشعراء العوامل الطبيعية وكأنها تعمل على استئصال الفرنج ، يقول العماد في وصف زلزلة :

سطوة زلزلت بسكانها الأر ... ض وهدت قواعد الأطواد

أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي

آية آثرت ذوي الشرك بالهلـ ... ك وأهل الايمان بالارشاد (٤)

---

(١) صبح الاعشى ٦ / ٤٩٩

(٢) الروضتين ١ / ٦٣

(٣) الانس الجليل ٣١٨ ، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري ٢٠

(٤) الخريدة بداية قسم الشام وشعراء دمشق ص ٤٩

في حين حرص الأدب على تدعيم الصورة المقابلة لهذه الصورة ، فصوروا الأرض تطيع القادة المسلمين وتلقي بأيديهم حصون الاعداء ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين حين تمكن من قتل أمير أنطاكية :

وألقت بأيديها اليك حصونـــــه ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر (١)

ويقول شهاب الدين محمود مخاطبا الأشرف :

فسر حيث ما تختار فالأرض كلهـا تطيعك والأمصار أجمعها مصـر (٢) *

والحل الذى طرحه الأدباء دائما لتحقيق النصر هو الوحدة الحقيقية بين البلاد الإسلامية ، والجهاد المستمر ، وقد أسهمت الحرب نفسها في ايجاد الوحدة وتقوية عزائم المجاهدين ، يقول ابن القيسراني مخاطبا نور الدين حين حاول أن يوحد إمارة دمشق مع البلاد التي كان يحكمهـا :

إذا ما دمشقُ ملكتك عنانهـا تيقَّن من في إيليَّا انه الذبـح (٣)

وفي هذا البيت إشارة واضحة الى أن اتحاد الاقطار الاسلامية يُهنئ عليه القضاء على الفرنج الذين كانوا يحتلون القدس اذ ذاك ، ويقول العماد في مدح أسد الدين شيركوه وصلاح الدين :

غداً يشبان في الكفّار ناراً وغصـناً بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصرٍ ونصرُ المؤمنين غـداً تحظى النفوس بتأنيس وتأنيب (٤)

---

(١) الروضتين ١/١/١٨٦ ، الخريدة قسم الشام ١/١٥٨
(٢) البداية والنهاية ١٣/٣٢٩
* صبح الاعشى ٧/٣٥٤ ، ٦/٥١٨ ، الروضتين ٢/٨٩ ، ١٠٠ ، ديوان ابن مطروح ١٨٢ ، ديوان بهاء الدين زهير ١٢١ ، النجوم الزاهـــــرة ٧/٢٢٠ ضياء الدين بن الاثير ٨١
(٣) الروضتين ١/١/١٨٠
(٤) الروضتين ١/٢/٣٦٩

ويقول في مدح أسد الدين شيركوه حين وزر في مصـــــر :

فتحتَ مصْرَ وأرجو أن تصير بهــــا ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (١)

وبعد أن ضم صلاح الدين حلب والموصل قال العماد مهنئا إياه :

فكأنني بالساحل الاقصى وقــد ساحت ببحر دم الفرنجة ساحـــه

فاعْبُرْ الى القوم الفرات ليشربـــوا (م) الموت الاجاج فقد طما طمّاحه (٢) *

وهكذا إنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي بعد جهود مضنية متواصلـــة دامت قرابة قرنين من الزمن ، وقد شارك في هذه الجهود المقاتل بسلاحه ، والشاعر بشعره والكاتب بنثره ، فكان الادب في المعركة طليعة امتدادها يستخدم عن وعي ومعرفة لاحـــراز النصر ، ويترك أثره في نفوس تهتز للكلمة البليغة ، وتتوق الذكر الحسن ، وتخشى أن يقال فيها ما يســـوء .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٠٣

(٢) مفرج الكروب ٢/٤١

* لمزيد من الأمثلة على أثر الوحدة أنظر ديوان ابن الساعاتي ٢/٢٨٢ ، ديـــوان طلائع ١٢٦ ، ديوان أسامة ٢١٧ ، الروضتين ١/٤٩ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢/٦ ، ١٣ ، ١٧٠ ، تاريخ ابن الفرات ٨/١١٠ ، تاريخ ابن العديم ٣/٢٠ ــ ٢٥ ، الكامل ١١/٣١٨ ، رونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ١/١٨١ أحمد بيلي المصري حياة صلاح الدين ، مطبعة السعادة سنة ١٩٢٦ ص ٦٨ ، لمزيد من الامثلة على الاستنصال ، أنظر ديوان الشاغوري ٥٣ ، ابن النبيه ٦٦ ، ابن سناء الملك ٢٨٣ ، ٧٥٨ ، ابن الساعاتي ١/١٧٢ ، ديوان طلائع ١٠٣ ، ١٤٢ ، ١٧٢ ، ديوان البوصيري ٨٨ ، ديوان شرف الدين الأنصـــاري ٢٠٥ ٤٠١ ، ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، وأنظر الروضتين ١/١٥٦ ، ١/٢/٣٩٦ ٦٩١ ، ٢/١١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٥٠ ، ١٩٤ ، ١/١/٩٩ ، ٢١٦ جواهر السلوك ٩٤ ، ٥١/٥٩ ، ٤٢ ، نهاية الأرب ٥/١٩٢ ، ٨/١٤ ، صبح الأعشى ٦/٥١٨ ، ٨/٢٥٠ ، ١٠/١٤٢ ، مفرج الكروب ٢٢٢

القسم الرابع : الخطر الصليبـــــــي :

شكل الصليبيون بغزوهم المشرق الاسلامي خطرا على البلاد الإسلامية وأهلهـــا ومعتقداتها ، وقد أظهر الأدباء هذا الخطر ونتائجه القريبة والبعيدة ، ليكون ذلـــك استنهاضا للهمم من أجل الوقوف في وجه الخطر أولا ، ثم القضاء عليه في النهاية .

وقد تابع الأدب في مجاليْ الشعر والنثر الاحداث الكبار التي شهدها المشـــرق الإسلامي إبّان الوجود الصليبي فيه وأحسن الادباء العرب تصوير هذا الخطر وعرضه ، فلم يقدموه الى الناس بصورة تدعو الى تجاهله وعدم التفكير فيه ، وهذا يفسر تركيزهم علـــى إظهار الخطر في مناسبات النصر أو المدح أو تبيين المعركة ، حين تكون همم المقاتلـــين عالية ، وأن يتحفزوا للقتال باعتباره السبيل الوحيد لدفع الخطر عن الأمة والبلاد .

ولم يجد الباحث في أدب هذه الفترة ـ على طولها ـ سوى موقف واحد ظهر فيـــه اليأس وعدم الاكتراث ، وذلك حين قام الفرنج بالهجوم على دمياط سنة ٦١٥ وأعلن الملك الكامل النفير العام ، في القاهرة ومصر ، وبين مخاطر الغزو الصليبي لمصر ، وأنّ ملِـــكَ الفرنج قد أقطع مصر لأصحابه فقال أحدهم :

يهدّدونا بأهل عكـــــــا أن يملكونا وأهل يافـــــــا

ومن لنا أن يلوا علينـــــــا فالروم خير من الريافـــا (١) *

ويلاحظ أن سبب هذه الدعوة اليائسة هو عدم اظهار الخطر الصليبي اذ ذاك بالحكمة التي أظهرها الادب طيلة الحروب الصليبية ، مما نشأ عنه نتائج سيئة ، فقد أظهـــر الافرنج بصورة الاقوياء القادرين على الاستيلاء على مصر دون شك ، مما أوهن عزائم الناس

(١) السلوك ج ١ ق ١/ ٢٠٢

* في البيت الأول الاصل : يهددوننا حذفت النون خلافا لقواعد اللغـــــة ، وفي البيت الثاني الريافا : أهل الريف .

وأدخل في قلوبهم الرعب • ولو قابلنا هذه الصورة من صورة حصارهم لعكا سنة ٥٨٦ لوجدنا أن قوات الفرنج كانت تزيد أو تقارب أعداد الفرنج الذين حاصروا دمياط • ولكن طريقة اظهار الخطر اختلفت • فمنذ حصار عكا ارتبط الخطر باستثارة عزيمة المسلمين • بالرغم عن كثرة الفرنج والحاحهم لاقتحام عكا • يقول القاضي الفاضل من كتاب الى سيف الاسلام أخي صلاح الدين في اليمن : " ••• فالبدار البدار • فإنْ لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار • والجنة الجنة • فانها لا تُنال الا بايقاد الحرب على أهل النار • والهمّة الهمة فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار • والملوك الكبار لا يقف في وجوهها الا الملوك الكبار •••" (١) • هذا ويمكن تقسيم صورة الخطر الى ثلاثة أجزاء :

أ • الخطر على الأرض الإسلامية
ب• الخطر على جماعة المسلمين
جـ• الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

* * *

الخطر على الأرض الإسلامية :

أقام الصليبيون إماراتهم على حساب البلاد الاسلامية • فكانت الامارات الأربع • وأولاها الرها • وهي في الجزيرة الفراتية • أي في عمق البلاد الاسلامية • مما جعل لها أثرا كبيرا في اعاقة الوحدة الاسلامية • وتهديد العراق والشام معا • وأما الامارات الثلاث الاخرى فقد كانت ممتدة على ساحل البحر الابيض المتوسط من شماله الى جنوبه متوغلة توغلا عميقا في بعض المناطق الاسلامية • حتى أصبح بوسعها تهديد حلب ودمشق ومصر غير مرة •

وقد يميز الادباء في مجال الحديث عن خطر الفرنج على الارض الاسلامية نوعين من البلاد : تلك التي تعرضت للغزو وأثر الغزو عليها وعلى ما وراءها • وتلك التي لم تتعرض للغزو • ولكنها كانت مهددة به إن لم يقف المسلمون جميعا لصده •

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦

وأما عن البلاد التي تعرضت للغزو ، فيمكن تحديدها ببلاد الشام والجزيرة ومصر ، وقد أوضح الأدب خطورة الفرنج عليها عامة ، وعلى بعض البلدان المهمة خاصة ، كالقدس ودمياط والرها ، فهذا ابن الأثير يصف خطر الفرنج الذين في منطقة الرها فيقول : " وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين ، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ... وانقطعت الطرق الى دمشق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ثم زاد الأمر وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوه ، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن ، وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود الى أهله أخذوه ، ... وناهيك بهذه الحال ذلة للمسلمين وأما أهل حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى الرحى التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين " (١) .

ويبين طلائع بن رزيك في رسالة بعثها الى أسامة بن منقذ حسرته لخلو القدس من أهلها فيقول :

لهف نفسي على ديار من السكـا (م) ن أقوت فليس فيها عريب (٢)

ولم تقف الخطورة عند هذا الحد ، بل وصل الأمر بالفرنج أن غيروا معالم المدينة ، فبنوا على الصخرة كنيسة ومذبحا وجعلوا فيها الصور والتماثيل (٣) ، ولذلك صور العماد القدس مشتاقة طيبة حين خلصها صلاح الدين من هذه الخطورة يقول :

الآن ثاب الى البيت المقدس كالـ ... بيت المحرم إحرام ومعتمر (٣)

---

(١) الباهر ٣٤ ، وانظر ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين ورقة ٦١

(٢) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣

(٣) الأنس الجليل ١/ ٣٣٩

ويؤكد ابن الساعاتي قول العماد ، لأن صيانة القدس تعني صيانة الحجـــاز ثم يبين عمل المعظم عيسى بن العادل في حماية القدس وأهلها من خطر الفرنج فيقول :

حمى القدس من زرق الأعادي بسمرها | فما تجد الخطيّ إلا تحطّمـــا
شكا أهلها دائيْ محول وخيفـــة | فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ربّها ماء النجيع سيوفـــه | ففي غيرها لا يستجيز التيمّمـــا
فلم يبق في ساحاتها غير مسلـــم | ولولاه لم يبق الفرنجة مسلمـــا
وما صانها دارا تحلّ وأختهـــا | ولكنه صان الحطيم وزمزمـــا (١)

واهتم الأدباء كذلك بدمياط ، وركزوا على أهميتها من جميع النواحي (٢) ، فهـــي مفتاح مصر ، وقد احتلها الفرنج عدة مرات للعبور منها الى داخل مصر ، ولكنهم كانـــوا يفشلون في النهاية ، وفي حصار الفرنج لها سنة ٦١٥ كتب الأمير جمال الدين الكتاني الى الكامل رسالة شعرية ، ورطها اليه في نشاب ، وقد جاء في تلك الرسالة :

هذا كتاب موضح من حالـــتي | ما ليس يمكنني لديك أقولـــه
أشكو اليك عدوّ سوء أحدقـــت | بجميعه فرسانه وخيولـــه
فالبرّ قد منعت اليه طريقـــه | والبحر عزّ لنصره أسطولـــه
فخضوعه باد على أبراجـــه | وحنينه وبكاؤه وعويلـــه
ولو استطاع لأمّ بابك لا شـــذا | لكنه سُدّ تحليه سبيلـــه
ورسوله في أن تجيب دعـــاءه | دينُ الإله وخلقه ورسولـــه
فقد انتهت أدواؤه وتحكمـــت | علاته ونحـــا عليه نحولـــه (٣)

ولكنه مع هذه الحالة الحزينة لم ينقطع أمله ولا رجاؤه بل هو يستثير همة الكامـــل لتحقيق رجاء البلد الحزين فيقول :

وبقي له رمق يسير يرتجــــى | أو يشتفى لما دهاه عليلـــه
فاعرس حماك بحزم تشفي بهـــا | داء لمثلك يرتجى تعليلـــه
فالله أعطاك الكثير بفضلـــه | ورجاه من هذا الكثير قليلـــه
فالمذر في نصر الإله ودينـــه | ما ساء عند المسلمين قبولـــه
والثغر ناظره اليه محـــدّق | ما إن يملّ من الدموع همولـه (٤)

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٧٨
(٢) انظر ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٢ ص ٨٠ و ٧٨ عن تنيس
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ١٩٩
(٤) المصدر السابق ١ / ١ / ١٩٩

وحين جاءت الامدادات من الأشرف موسى والمعظم عيسى ، انتصرت القوى الإسلامية الموحدة على الفرنج ، فقال ابن دنينير مخاطبا الاشرف موسى ومبينا خطورة وجود الفرنج على عقيدة أهل دمياط :

وطريدة الاسلام أنت أعدتهـــــــا   من بعد طول تشرُّد ونـدود (١)

ومع أن الخطورة كانت بصورة خاصة على بعض المدن الهامة ،إلا إنها كانت تعني أن البلاد كلها كانت مهددة بالخطر ، وقد بين الشعراء بالفعل خطورة الفرنج على جميــــع أرض مصر والشام ، فيقول العماد مثلا في تعاون شاور مع الفرنج مبينا خطورة هذا العمل علـــى مصر بلد الاسلام :

هو الذى أطمع الافرنج في بلد الا (م) سلام حتى سموا للقصد والطلب (٢)

ولما تكررت هجمات الفرنج لاحتلال مصر ،والمسلمون في حالة لا تمنهم على التصدى للفرنج تضرع الشاعر عمارة اليمني لله أن يحفظ مصر من المصير السيء والفتن التي تتوهـــج كالجمر فقال :

يا ربّ إني أرى مصرا قد انتهبـــت   لها عيون الليالي بعد رقدتهـــا
فاجعل بها ملة الاسلام باقيــــة   واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير بــــه   من فتنة يتلظّى جمْرُ وقدتِهـــا (٣)

ويقول وحيش الأسدي مبينا خطورة الفرنج على الشام لولا صلاح الدين :

والشام لو لم يدارك أهله اندرســـت   آثاره وعَفَتْ آياته حقبــــــا (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في مدح قلاوون بعد انتصاره في معركة حمص سنة ٦٨١ :

هذا المقام الذى لو لـم تحلّ بــــه   لم يبق والله لا شامٌ ولا مصر (٥)

وقد وفق الأدباء في ربط هذه البلاد التي تعرضت للخطر الصليبي بالبــــلاد الإسلامية البعيدة لاقناع البعيدين عن أرض المعركة بأن وقوع بلد من بلاد الاسلام فـــي أيدي الاعداء يعني وجوب الجهاد على كل فرد وان ابتعد وطنه ، وإلا فإن تلك البـــلاد البعيدة معرضة للمصير نفسه ، ولذا حرص الادب على ربط البلاد المعرضة للخطر بالبلاد الاخرى ، وهذا يدل على بعد نظر وعمق تفكير ، كان من أهم آثاره انجاح العمل مـــن أجل الوحدة والجهاد لطرد الغزاة .

---

(١) ديوان ابن دنينير ٢٠
(٢) عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣
(٣) خريدة القصر : قسم الشام ١/٢٤٠ والنكت المصرية ١٩٠
(٤) الخريدة/ قسم الشام/١/٢٤٣ وانظر مثلا آخر في عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣
(٥) عقد الجمان ٢٠/٤ ورقة٦٧٧

وأول ما يلاحظه المرء في هذا الصدد ربط البلاد المغزوة بالأماكن الدينية في مكة والمدينة المنورة ، وقد كان هذا الارتباط ماثلاً في تفكير نور الدين محمود ، حتى تمثلت له رؤيا في نومه أكثر من مرة واحدة ، فقد روى ابن قاضي شهبة ، أن نور الدين رأى النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٥٥٧ يقول له : " يا محمود أنقذني من هذين الشخصين ، يشير الى رجلين تجاهه ، وقد تكررت هذه الرؤيا ثلاث مرات في ليلة واحدة ..."(١) .

وبعد سنة ٥٥٧ هـ بعشرين عاما جمع الفرنج خيلهم ورجلهم وقصدوا تيماء التي يقول فيها العماد : " وهي دهليز المدينة " (٢) ثم قام أرناط في السنة التالية بتجهيز جيش بري وبحري لغزو الحجاز وأيلة من الكرك ، يقول القاضي الفاضل : " وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر: الخوض في هذا البحر الذي تجاوزه بالادهم من ساحله "(٣) . وقد نجحوا في الوصول الى أعماق الجزيرة ، ولكن صلاح الدين علم بذلك فأرسل الى أخيه العادل بتحريك الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وتمكن منهم وهم على بعد ليلة من المدينة فقتل من قتل وساق الاسرى الى القاهرة ، فكتب صلاح الدين الى العادل " بضرب رقابهم ، وقطع أسبابهم بحيث لا يبقي منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف ..." (٤)

ومن المواقع التي اتخذها الفرنج لتهديد الأراضي المقدسة في الحجاز حصن الكرك ، وقد سبق الحديث عنه ، وأما خطورته فقد تحدث عنها القاضي الفاضل بقوله : " وجلس (حصن الكرك) من هام الإسلام مكان عمامته ، وجثم على أنفاس الحجاز ، فلم يدع نفسا يصعد من تهامته ..." (٥) ، ويقول عن قلعة الكرك : " وكانت على الاسلام آية مضرة ، بل كانت لكعبة الله (زادها الله شرفا) أيضرّة ..." (٦).

ومن هنا نجد إشارة الادباء الى اطمئنان البيت الحرام بعد امتلاك المسلمين للكرك ، أو حتى حين يهزمون الفرنج هزيمة تقص أجنحتهم وتفل شوكتهم ، يقول العماد : واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتيمم بمحل هذا البيت (حصن الكرك) أمن البيت الحرام " (٧) .

---

(١) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ٤٨ ـ ٤٩

(٢) الروضتين ٢/ ٢٣

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٧

(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٦

(٥) ابن نباتة المصري ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ٢٥

(٦) المصدر السابق ورقة ١٠١

(٧) الفتح القسي ٢٢٦

ويقول أيضا في انتصارات صلاح الدين :

الآن قرت جنوب في مضاجعها ونام من لم يزل حلفا له السهر
الآن ثاب الى البيت المقدس كـ ـال بيت المحرم إحرام ومعتمر (١)

ويقول أبو الحسن الذروي في حسام الدين لؤلؤ :

كفيت أهل الحرمين الـعـ ـدا وذدت عن أحمد والكعبـة (٢)

وحين جاء ملك الانجليز ، أراد احتلال القدس ، فقام صلاح الدين بتحصينها وتسميم الآبار التي في طريقها ، فصد الفرنج عنها ، ولجأ ملكهم الى المفاوضات والصلح على صلاح الدين ، حتى عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ ، ويقول ابن الساعاتي مبينا خطورة الفرنج على البلاد المقدسة :

لولاك أم البيت غير مدافـ ـع ولسال سيل نداه في بطحائه
ومكت جفون القدس ثانية دمـ ـا لترنم الناقوس في أثنائه (٣)

ولئن كان للحجاز من القيمة الدينية ما جعل الادباء يصورون خطر الفرنج عليهما ، فان الأدب أبرز خطورة الفرنج على العالم الاسلامي كله ، فقد بعث الملك المعظم عيسى كتابا ختمه ببيتين من الشعر الى الخليفة العباسي يطلب منه التدخل الفعلي في المعركة ضد الفرنج ، وبين له خطأ الظن بأن أرض بغداد بعيدة عن ميدان المعركة ، فإن انفتاح الطريق من الشام يعني سقوط بغداد أو تهديدها ، والبيتان للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي وهما :

قل للخليفة لا زالت عزائمـ ـه لها على الكفر ابراق وارعـاد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلـوا لا تغفلن ، فأرض الطور بغداد (٤)*

وقد تنبه ابن منير الى خطورة الفرنج على البلاد الاسلامية قبل ذلك بكثير ففي سنة ٥٤٧ هـ افتتح نور الدين حصن انطرسوس ، فأنشده ابن منير قصيدة بحلب منها :

ولو لم تمترق** وتشم لأمسـ ـى وأصبح لا عراق ولا شـآم (٥)

---

(١) عقد الجمان ١٧/١/١٨٠
(٢) الروضتين ٣٦/٢
(٣) تاريخ ابن الفرات مج٤ ج٢/ ٨٦
(٤) نهاية الارب ج٢٧ ورقة ٢٢ والذيل على الروضتين ١٠٣

* في نهاية الارب :

إن الفرنج بأرض القدس قد نزلت لا تغفلن ، فأرض القدس بغداد

وهو غير متفق مع الأحداث التاريخية اذ ان القدس سنة ٦١٤ لم تكن قد أعطيت للفرنج .

** في الاصل تعترف ، ولا معنى لها هنا ، فالمقصود الدخول في العراق والدخول في الشام

(٥) الروضتين ١/١/٢٢٠ وانظر ج١ ص ٩٣ ـ ٩٤ ط دار الجيل

كما تنبّه الى ذلك عمارة اليمني سنة ٥٦٤ اذ جعل حكم صلاح الدين لمصر تأمينـــا لقبر الرسول عليه الصلاة والسلام من خطر الفرنج ، يقول :

بكم آمّن الرحمن أعظم يـــــثرب ... وآمن أركان الثنية والحجـــــر
ولو رجعت مصرٌ الى الكفر لانطوى ... بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شدد تم أزره بـــــوزارة ... غدا لفضلها يشتق من شدّ تا الازر (١)

وقد ربط الشعر البلاد الاسلامية بعضها ببعض ، لتقف في وجه الخطر الصليبـــي فهذا العماد يجعل حماية مصر حماية لبلاد الاسلام ، فيقول في مدح أسد الديـــن شيركوه سنة ٥٦٣ :

وبلاد الاسلام أنقذ تهـــا أنـ ... ـت من الشرك أيما أنقـــاذ (٢)

ويقول البهاء زهير في مدح الملك الكامل محمد بعد أن طرد عدو وأعداء الفرنج مـــن دمياط سنة ٦١٥ :

ولو لم يقم بالله حق قيامـــه ... لما سلمت دار السلام من الفعـــر
وأقسم لولا همة كامليـــــة ... لخافت رجال بالمقام وبالحجـــر
فمَنْ مبلغٌ هذا الهناءَ لمكـــة ... ويثربَ تنهيه الى صاحب القبـــر
فقل لرسول الله إن سميــــه ... حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر (٣) *

* * *

ثانيا : الخطر على المسلمـــين :

أظهر الادباء الخطر الصليبي على المسلمين أفرادا وجماعات كما سبق أن بينـــا ، وفي هذا الباب نبين مظاهر أخرى للخطر تحدث عنها الادباء ، أما الخطر على الافـــراد فقد صوره عرقلة الكلبي أصدق تصوير ، وبيان ذلك أن صلاح الدين كان قد وعده بألـــف دينار إن ملك مصر ، فلما ملكها كتب اليه قصيدتين يطالبه بتحقيق وعده بارسال الدنانير والا فانه لن يستطيع الذهاب الى مصر ، لأن الفرنج في طريقه كالسياج المانع الــذي يلاقي من يجتازه الموت أو الاسر . يقول في الاولى :

---

(١) الروضتين ١/٢/٤١٢
(٢) المصدر السابق ١/٢/٣٨٤
(٣) ديوان البهاء زهير ١٢١ ومفرج الكروب ٤/١٠٣
* للمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ١/٢/١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ٢١٦ ، خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ١/٢٩ ، زبدة الحلب ٢/٩٦ ، ١٥٠ـ١٥١ تاريخ ابن الوردي ٢/٥٥

قل للصلاح معيني عند إعساري — يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم — وما تفي جنة الفردوس بالنار (١)

ويقول في الثانية :

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي — زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدي — بها في يدي قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بيني وبينكم — سياج ، قتيل دونه وأسير (٢)

ويصف سبط بن الجوزي حالة الذعر التي نشرها الفرنج ، وما نتج معه تقطع المواصلات بين المدن الاسلامية ، يقول : " وجئنا الى عقبة أفيق ، والطير لا تقدر أن تطير من خوف الفرنج " (٣) ، وقد ظهر هذا الخطر العام على المسلمين منذ أن وطئ العدو الفرنجي أرضهم ، اذ احتل البلاد وشتت العباد ، وأشاع الفساد ، وأهلك الحرث والنسل ، وقتل الفتيات والاطفال ، دون أن يرعى حرمة أو يحفظ عهدا ، يقول ابن الخياط :

بنو الشرك لا ينكرون الفساد — ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا — ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت — تدق من الخوف نحرا وخدا (٤)

وقد نتج عن هذا الإهلاك والتشتيت أن عاش الناس في ظروف قاسية ، كانت سببا في تحرك نور الدين لانقاذ دمشق ، ولكن صاحبها مجير الدين استنجد بالفرنج ، فكتب إليه نور الدين معللا سبب نزوله في منطقة دمشق ، ومبينا له الاخطار المحدقة بها من الفرنج ، يقول : " انني ما قصدت بنزولي هنا طلبا لمحاربتكم ، وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله ــ تعالى ــ أن أقعد عن نصرة المسلمين مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ... " (٥) ، وقد تكرر هذا الخطر عندما كان الصف الاسلامي يصاب بالضعف أو التصدع ، فهذا ابن عنين يرثي المعظم عيسى مشيدا بأعماله التي كان منها حفظ البلاد والعباد من الفرنج ، يقول :

وديار مصر لو ونت عزماته — عن نصرها لتحكمت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائر أسهما — فيها سبايا ، والموالي أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة — تجتاب ما بين البقيع الى كدى (٦)*

---

(١) الخريدة/ قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨
(٢) الروضتين ١/ ٢/ ٤٤٩ الخريدة قسم الشام ١/ ٢٠٨ (وفيها : وأسير) وعقد الجمان ١٢/ ٦/ ١
(٣) الذيل على الروضتين ٧٠ (٤) ديوان ابن الخياط ١٨٤
(٥) الدر الثمين في سيرة نور الدين ٩٧ (٦) ديوان ابن عنين ٦١
* كدى / بلد قرب مكة

وينكر ابن دنينير على المسلمين أن يعيشوا في حياة مرفّهة ، وهم لا يأمنون على حياتهم والموت يتربص بهم ، فيقول :

أيطمع أقوامٌ بنعمة عيشةٍ ... متى عطشوا فالموت دونهم ورد (١)

وسبب هذه الحياة القاسية عدم استقرار الناس في ديارهم ، لا في بدو ولا في حضر ، ولذلك يمدح ابن دنينير الملك الصالح الذي أعاد الى ديار أهلها :

أتيت ديارًا اذ أعيت رياستها ... كل الورى وتناءى البدو والحضر (٢)

ويذكر الملك الامجد سببا آخر هو النهب الذي يقوم به الفرنج على حين غفلة من أهلها ، يقول عن عمل جماعة من الفرنج في نابلس بأنها : "قتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال ، وما جمعه المسلمون لأزمتهم في السنين الدوال" (٣) ، وقد أشار ابن أسعد الموصلي الى خطر آخر يتهدد الاحلاف الاسلامية ، إذ إن الفرنج حاولوا تمزيق المسلمين أو زيادة شقة الخلاف بينهم ، ولذلك فان من صفات القائد الاسلامي أن يقوم على نصرة أحلافه وانجادهم مهما كانت مخاطر العون والانجاد ، يقول في مدح صلاح الدين :

لم يثنه عن نصره حلفاءه ... عددُ العدو ولا بعاد الموضع
بجحافل مثل السيول تدافعت ... واذا السيول تدافعتْ لم تدفع (٤)*

* * *

ثالثا : الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

كان من أهداف الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي القضاء على عقيدة الاسلام وهذا ما سبق ذكره في الصراع العقائدي ، والجدير بالذكر هنا أن نشر مبادىء الغزاة شكل خطرا على الاسلام ، لا لأن هذه المبادىء تمثل فكرا يشكل خطرا على الفكر الاسلامي ، بل لأن القوة في بعض الفترات كانت الى جانب الغزاة ، فتراءى لهم أن القوة العسكرية وقوة العقيدة الدينية صنوان ، يقول الملك الامجد : "ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الذي تنزه عنه الله الأحد الواحد ، فاستفحل الشر وأعضل الداء ، وعز على اللديغ الشفاء ، وأقاموا بها (نابلس)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٣ .   (٢) المصدر السابق ورقة ٢٢

(٣) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٥

(٤) مضمار الحقائق ص ١٠٠

* للمزيد من الامثلة أنظر : صبح الأعشى ٧/٤٤ ، ديوان ابن الساعاتي ١/١٧٨ ، ديوان ابن دنينير ١٧٤ ، عقد الجمان ١٢/٣/٣٢٨ ، ٤٥٧ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/١٩٩ ، الاعتبار ١٢ ، ٣٤ ، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٧ ،

ثلاثا لاكمال فتكهم وإظهار إفكهم ... " (١)، وقد أدرك الأدباء هذه الخطورة، وبيّنوا تضايق الاسلام وحرجه من اعلان شعائر الفرنج، يقول حيص بيص في مدح سيف الدين غازي أخي نور الدين :

أثابك ان سميت في المهد غازيا ... فسابقة ممدودة في البشائر
وقيت بها والدين قد مال روقه ... وصدّقتها والكفر بادى الشعائر (٢)

ويقول عمارة في مدح شاور :

أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى الـ ... ناقوس في بلبيس وهو أذانها (٣)

وكتب القاضي الفاضل الى العادل سنة ٥٩٢ يخبره بوصول نجدات الفرنج الى بيروت، وخطورة ذلك على البلاد والدين يقول " ...و للاسلام اليوم قدم ان زلّت زلّ، وهمة إن ملت فان النصر منصل ... " (٤)، ويقول الصاحب شرف الدين الأنصاري :

فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم ... ما ليس يطمع في ابطاله قاض (٥)

وحين حاصر الفرنج دمياط كتب الأمير جمال الدين الكناني الى الملك الكامل :

ولئن قعدتَ عن القيام بنصره ... جفّت نضارته وبان ذبوله (٦)

ويقول ابن عنين في المعظم :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الاسلام عاد كما بدا (٧)

ويقول في الأشرف موسى :

لولاك لانفصمت عرى الاسلام في ... مصر وأخمل ذكره وتبدلا
وتحكمت منها الفرنج وغادرت ... أعلاجها محراب عمرو هيكلا (٨)

وفي زمن تورانشاه نزل الفرنج على دمياط وحاولوا تغيير صبغة المدينة لولا صمود تورانشاه، يقول علي بن عرام :

وقد كاد دين الله يخفت نوره ... ويرمى بتبديل وشرك وتقليب
فحصّنتموه بالأسنة والظبا ... وتصحيح آراء كفته وتصويب (٩)

ويلاحظ من الأدلة السابقة تركيز الادباء على أن الاسلام يواجه عدوا متسلحا بالقوة والعتاد،

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٣
(٢) عقد الجمان ١٩٢/١/١٢
(٣) النكت العصرية ٣٦٩
(٤) الروضتين ٢٣٢/٢
(٥) ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٢٨٣
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١٩٩/١/١
(٧) ديوان ابن عنين ٦١ ومفرج الكروب ٦٠/٤ ٢
(٨) ديوان ابن عنين ٦١، ومفرج الكروب ١٠٢/٤، وعقد الجمان ٤٢٠/٢/١٧
(٩) خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ١٧١/٢

يريد أن يقضي عليه ، ولم يقل أحد منهم إن الاسلام يواجه دينا أو تكرا يشكل خطرا عليه ، ولذلك أحس الادباء بعودة الحياة الى الاسلام ، بعد كسر الفرنج في حطين وغيرها ، لأن القوة التي تشكّل خطراً على الإسلام قد خضدت شوكتها ، يقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

أنت أحييته وقد كان ميتـــا ثم أعتقته وقد كان قنّـــا (١)

وهذا ما أدركه القادة المسلمون ، فهذا الكامل بن شاور يقول لأبيه الذي أراد الاستنجاد بالفرنج حين جاء شيركوه ... " ولئن نقتل ونحن مسلمون ، والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ... " (٢) ، وهذا صلاح الدين يصارح ابن شداد بأنه ان ترك الجهاد وبقيت مع الكفر حصون ... " اختل أمرنا الحصون لا سيما صفد وكوكب فانهما للداوية والاستبارية في وسط البلاد ، والثغور الاسلامية بهما واهية السداد ... " (٣) ، وقد كنّى الادباء عن خطورة الفرنج على الاسلام بخطورتهم على القرآن ، فهذا الأمير جمال الدين يصف حالة القرآن لصد نهوض المسلمين في الدفاع عن دمياط سنة ٦١٥ بينما يرتفع الصليب ويُتلى الإنجيل يقول :

ووهت قوى القرآن فيموّقت صلبانه وتلي به إنجليـــه
وعلا صدى الناقوس في أرجائه وخفى على سمع الورى تهليله (٤)

ويقول ابن النبيه في ذلك :

الله أكبر أن تمسي مزامرهم تتلى وتنسى من القرآن آيات (٥)

كما بينوا خطورة الفرنج على الاسلام باظهار خطرهم على الصلاة ، ولذا مدح الشعراء القائد الاسلامي الذى خلص المدن من الفرنج وأقام الصلاة فيها ، يقول ابن دنينير في مدح أسد الدين المهراني الذي فتح يافا سنة ٦٠٨ :

وأقمت الصلاة في ذلك الـدرب وقد كانت الصلاة مكـاء (٦)

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٢) الروضتين ١/ ١٥٦ ــ ١٥٧ مطبعة دار الجيل
(٣) الروضتين ٢/ ١٢٢
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ١/ ١٩٩
(٥) ديوان ابن النبيه ٦٧
(٦) ديوان ابن دنينير ورقة ١٢٢

وقد تحدث الأدباء العرب بحرقة عن تحويل المساجد الى كنائس ، ومن ذلك ما ذكره الرحالة ابن جبير عن عكا بقوله : " فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ... " (١) ويقول ابن عنين في جهاد الصحابة للفرنج الذين اتخذوا المساجد بيعا يعبدون فيها الصليب :

وشفى دمياط فكم من بيعة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عُبِدَ الصليبُ بها وكانت مسجدا (٢)

ويقول في الاشرف موسى الذي أبعد خطر الفرنج عن دمياط :

وتحكمت فيها الفرنج وغادرت ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أعلاجها محراب عمرو هيكلا (٣)

ويقول فيه :

لو لم يقم موسى بنصر محمد ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لعلا على درج الخطيب الأسقف (٤)

وقد مدح الأدب القائد الاسلامي في مدافعته عن المساجد حتى لايدنسها الغزاة ، يقول ابن القيسراني في مدح تاج الملوك بوري :

وحاولوا المسجد الأدنى فما عمرت ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم (٥)

كما أعلنوا فرحتهم بفرحة الاسلام بتخلصه من الاعداء ، يقول ابن دنينير :

فثم ترى الاسلام يسفر وجهه ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو (٦)

ويقول :

تهلل الدين والدنيا به فرحا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَر
لمخاطبي يثرب تثريبا لفادحة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ من بعده اذ سرت في ذكرها السور (٧)

ويقول آخر :

بمغدا الثغر للاسلام مبتسما ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بعد العبوس وفيه الله مذكور
بعد الأناجيل آيات القرآن به ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تتلى وقد نسخ الناقوس تكبير
يقول محرابه لو كان يسمعنا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ محمد ناصر والشرع منصور (٨) *

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) ديوان ابن عنين ٦١
(٣) المصدر السابق ١١ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ (٤) المصدر السابق ١٥
* للمزيد أنظر : الروضتين ٢/ ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٣ : الكامل ١١/ ٥٣٩ رسائل ابن الاثير ١٥٥ ، الاعتبار ١٥٥ ، مفرج الكروب ٤/ ١٨ ، القديس لويس حياته وحملاته على الشام ومصر (مذكرات جوانفيل ص ١٠٢
(٥) عقد الجمان ١٦/ ١/ ١٨٦ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ (٦) ديوان ابن دنينير ورقة ٢
(٧) المصدر السابق ورقة ١٤ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ (٨) عقد الجمان ١٧/ ٢/ ٤٢٠
* للمزيد عن فرحة البلاد أنظر : ديوان البهاء زهير ١٢١ ، ديوان ابن دنينير ٥ ، ١٤ عقد الجمان ١٢/ ١/ ١٨٢ ، ديوان ابن النبيه ٧٦

وكما شكل الفرنج خطرا على الاسلام ، شكلوا خطرا على التراث الاسلامي والقيم الاسلامية ، مما جعل الشعراء يمتدحون القائد الذى يحافظ على هذه الفضائل ، يقول ابن دنينير في المعظم :

فَلْتَشْكُرَنَّكَ بنو العباس بعدهم ... لابلْ قريشٌ تؤدي الشكر بل مضر
ألبستهمْ عزمةً ساد هرهُم ... من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا (١)

ومما امتُدح به القادة المجاهدون ، محافظتهم على الخلافة باعتبارها الوعاء السياسي الذى حوى الاسلام ، يقول عمارة اليمني في مدح صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ :

حميتمو من الافرنج سرب خلافة ... جريتم إليها مجرى الأمن من الذعر
حمى الله فيكمْ عزمة أسد يتة ... [illegible] الاسلام [illegible] الاسر (٢)

ويقول ابن دنينير في مدح الأشرف :

حفظت ملك بني العباس وانحفظت ... بك الشريعة اذ غيرتك الغير (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥

(٢) الروضتين ١ / ٢ / ٤١٢

(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٣

الفصل الثاني

أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية :

اطلع المسلمون بسبب الاحتكاك على ألوان من حياة الصليبيين الاجتماعية ، ولمسوا بشكل عام تركيب المجتمع الصليبي ، فتحدثوا عن الملك بأعتباره الرئيس الأعلى ، ثم عن الامراء وكبار الفرسان وطبقة التجار الاغنياء (١) ، وأخيرا طبقة الفلاحين (٢) ، وبذلك ميزوا بين ثلاث طبقات في الكيان الصليبي ، هي : طبقة النبلاء ، وطبقة التجار ، وطبقة الفلاحين .

وبالرغم عن أن الادباء المسلمين لم يفهموا لغة الفرنج " لأنهم لا يتكلمون الا بالافرنجي " (٣) ، الا انهم سجلوا ما رأوه وما سمعوه عن طريق التراجمة ، أو عن طريق الاختلاط بالفرنج الذين تعلموا العربية ، يقول العماد : " وأحضرنا الترجمان وأدى عنا البيان " (٤) .

وقد جاءت ملاحظاتهم عن المجتمع الصليبي متفقة مع ملاحظات المؤرخين الصليبيين أو المؤرخين المحدثين من الاوروبيين ، ويمكننا معالجة الحياة الاجتماعية الصليبية في اطار مجالات ثلاثة : ما يتعلق بالمعتقدات ، وما يتعلق بالحياة وقت الحرب ، وما يتعلق بالحياة العامة .

ما يتعلق بالمعتقدات :

وأول ما يسترعي النظر في عاداتهم الدينية الحرص على بناء الكنائس والاهتمام بها ولو كان ذلك خارج المدن ، فحين خرج الفرنج لحصار بانياس نصبوا خيمة كبيرة ، وجعلوها كنيسة يصلون فيها ، ثم فرشوا أرضها بالحلفاء والحشيش (٥) ، أما الكنائس التي في المدن فقد تأنقوا في بنائها ، وأقاموا فيها التماثيل ، وعلقوا على جدرانها الصور ، فكانت مثار

---

(١) أنظر أسامة بن منقذ ، الاعتبار ١١٤
(٢) انظر عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ٩٥-١١٢ (ستانسل) القاهرة ١٩٧٥
(٣) الاعتبار ٦٦ وأنظر ١٤٠ وديوان فتيان الشاغوري ٣١٨
(٤) الفتح القسي ٢٣٩ ، وأنظر النوادر السلطانية ٣٢ ، ٣٣
(٥) الاعتبار ٨٦

اعجاب الادباء ،يقول العماد في وصف كنيسة بنوها على الصخرة : " وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا ، وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منقبة ، وقالوا محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح ، وكانت فيها صور الأنعام مثبتة في الرخام ، ورأيت فيها التصاوير وأشباه الخنازير (١) " . ويروي الجزري عن الشهاب أحمد الحقيلي أنه رأى بعد خراب عكا على بعض أبواب كنائسها مكتوبا :

أدمى الكنائس ان يكن عبثت بكم | أيدي الحوادث أو تغيّر حالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكم | شم الانوف جحاجحٌ أبطال (٢)

ويصف النص عادة السجود بالانحناء حين دخول أبواب الكنائس ، وذلك تعظيما للصليب *.
وللقيسراني في شعرياته تجربة فريدة من نوعها ، وصف خلالها الكنائس وما يجرى فيها من قداس ديني ، وهو بذلك يؤكد ما وصفه العماد وغيره ، ويضيف صورا جديدة عما يجري داخل الكنيسة ، أما حديثه عن الصور في الكنائس ، فيظهر في وصفه للراهبة الساجدة لصورة معلقة ، يقول :

كم بالكنائس من مبتّلة | مثل المهاة يزينها الخَفَر
من كل ساجدة لصورتها | لو أنصفت سجدت لها الصور (٣)

كما يظهر في مناجاته لاحدى الراهبات ، إذ يطلب منها أن تعامله كالصورة المعلقة في الكنيسة ، يقول :

حبيني صورة يحنى عليها | أجيبُ اذا دُعيتُ ولا تُجيب
فليسمعْ بأطرف من فتاة | من الرهبان فوقتها أديب (٤)

ويقول :

فيا ليتني عندها دمية | تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو أنني أستطيع | تحولت صورة مرجرجس (٥)

وأما الصور الجديدة التي قدمها من خلال تجربته الشخصية ، فهي ما رآه في كنيسة بربارة وهي للفرنج خاصة دون غيرهم ، اذ رأى القس فيها يتلو قداسا في الليل ، وحوله الراهبات الجميلات يرتدين الملابس الثمينة يقول :

بدينك يا قسّ بربارة | وما بت تتلوه في المقدس

---

(١) الفتح القسي ١٤١ ، وأنظر ص ٩٥ و ٢٢٨
(٢) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، وأنظر ٤٩
* تبين فيما مضى أنهم يعظمون الصليب ويعتقدون به ، ومن الأمثلة الأخرى قول ابن القيسراني في راهبة :
أمعظمة الصليب وددت أني | ودين الله عندكم صليب (ديوانه ورقة ٦٤)
(٣) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ورقة ٦٤
(٥) المصدر السابق ورقة ٧١

أجرني من الصور الناطقـــــا ت متى قمن حولك في مـــــــدرس
اذا هن أقبلن وقت الصـــــلا ة في كل لون من الاطلـــــس
وجالت مناطق أوساطهـــــا وضاقت بها حلل السنـــــدس
وأجلسها ثقل أردافهـــــا فيالي من ذلك المجلـــــس
فلولا التحرج في ملـــــتي طلعت عليهن في برنـــــس
وقمت ألحن قداسهـــــن (م) غير بليد ولا أخـــــرس (١)

فهو لولا تحرجه الديني لقام مقام الأسقف في تلاوة القداس ، وارتدى برنسا كبرنسه.
ومن المعلوم أن لباس الأسقف يختلف عن لباس الآخرين من الفرنج ، كما أن لباس الفرنج عامة يختلف عن لباس المسلمين * ، ويظهر ذلك من الخطة التي اتبعها المسلمون للدخول الى عكا وهي محاصرة ، اذ تزيوا بزي الفرنج ..(٢) " وتصوروا رهبانا ومسحوا لحاهم ومسحوا حلاهم ، وتمططوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا ، وشدوا زنانـــير ، واستصحبوا خنازير " (٣) .

وفي هذا النص بيان لعادة أخرى غير اللباس ، وهي حلق اللحى ، ففي قـول العماد السابق " ومسحوا لحاهم ، و... وتمططوا " ما يؤكد اختلاف الفرنج عن المسلمين في هذا الجانب ، وثمة أدلة أخرى تثبت ذلك ، منها قول ابن شداد عن الهنفري : " إنه شاب حسن ، إلا انه محلوق اللحية ، على ما هو شعارهم " (٤) .

ولكن توجد أوصاف لبعض ملوكهم تشير الى أنهم أطلقوا لحاهم ، كما أن القساوسة كانوا يطلقون لحاهم كذلك ، وليس في هذا من تناقض مع قول ابن شداد ، اذ ان عامة الفرنج يحلقون لحاهم ، وأما الملوك فقد أطلقها بعضهم ، كما جاء في وصف ملك الالمان بأنه صاحب اللحية الحمراء " (٥) ، وحلقها آخرون كما جاء في وصف ملك الانكتير أنــه " قد أشفى من المرض ، وأشرف على الحفض ، حتى حلق رأسه ، حلق لحيته ، واستلقـى لانتظار منيته ..." (٦) ، وأما القساوسة فلم يرد نص يشير الى أنهم حلقوا لحاهم (٧)

---

(١) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٧١

* يقول ابن عنين في وصف لباس المقاتلين :
عليهم من الماذي كل مفاضة دلاص كقرن الشمس قد احكمت وضعا (ديوان ص٣٠)

ويقول نجم الدين محمد بن الخضر بن اسرائيل يوصف لباس الملك ترنسيس الذي ... ره تورنشاه وأهدى لباسه الى نائبه بدمشق :

ان غفارة الفرنسيس الذي جا ت حباء لسيد الامــــراء
كبياض القرطاس لونا ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء

نهاية الارب ٢٧ / ١٩١ وانظر الذيل على الروضتين ١٨٤ والبيت الأول فيها مكسور

(٢) زبدة الحلب ٣ / ١١٨ ، مفرج الكروب ٢ / ٣٢١ (٣) الفتح القسي ٤١٧
(٤) النوادر السلطانية ١٨٢ (٥) الاعتبار ٢٣٠ وأنظر ١٣٦ (٦) الفتح القسي ٤٩٧
(٧) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠

ومن عاداتهم الدينية اعتقادهم في رجال الدين ، كما اعتقدوا بنصرة الصليب لهم، يقول ابن القلانسي في نزول الفرنج على دمشق سنة ٥٤٣ " وكان معهم قسيس كبير طويل اللحية يعتقدون به " (١) ويؤكد ذلك قول أسامة عن صاحب طبرية وجماعة : أنهم جاءوا بقسيس ليطبب فارسا كبير القدر مع أنه لا يفقه بالطب شيئا ، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنه " اذا حط يده عليه عوفي " (٢) . وبعد هذا ليس من الغريب أن يذكر ابن الاثير أن قول البابا عندهم كقول النبيين (٣) .

التصليب على الوجه :

ويعني ذلك أن يرسم الفرنجي علامة الصليب على وجهه ، حين يسمع أو يرى شيئا مروعا ، وإنما يفعل ذلك التماسا لمساعدة روح القدس، يقول ابن القيسراني :

فيا حُسْنَ ذاك الوجه إذْ ريع روعةً فَعُوِّذَ فيها بتصليبة اليـــــد (٤)

ومن المواقف التي صلّب فرنجي فيها على وجهه ، حين عقد شيركوه الصلح مع الفرنج والمصريين ، فجاءه أحد الفرنجة الغرباء فقال له : " أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون، والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك ، ولا يبقى لكم بقية ، فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتلَ منهم رجال ... والله لو أطاعوني لخرجت اليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا "، فصلّب على وجهه وقال : "كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ، ومبالغتهم في صفتك ، وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم" (٥)

وحين أظهر صلاح الدين القوة والاستبسال بمقدم أسطول صقلية الذي هدده بجمعه قواته بأن قال له : " وإنهم إن خرجوا أذقناهم ما أذقنا أصحابهم من القتل والأسر " صلّب مقدم الاسطول على وجهه (٦) .

وفي زمن الملك المعظم عيسى ، استمال نساء خيالة الفرنج بالهدايا ، وكان أن اكتشف أحدهم الأمر ، وسأل زوجته عمن أرسلها ، فقالت :(الكريدي)، فصلّب على وجهه (٧) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠ (٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الكامل ١١/٥٣
(٤) ديوان ابن القيسراني ٧٥ ،وأنظر مذكرات جوانفيل ص ١٩٦ ، ٢٣٣
(٥) الكامل ١١/٣٠٠
(٦) الكامل ١٢/١٠ ، وأنظر الفتح القسي ص ٢٤٠ ، الروضتين ٢/١٢٩
(٧) نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٣٨

عدم الاختتـــــان :

ارتبط هذا الوصف بنوع من الشماتة والاستهزاء ، لأن الوصف جاء في جو حربي تمجد انتصار المسلمين على أعدائهم الفرنج ، أظهر الادباء شماتتهم ، وتقليل أهميتهم يقول ابن منير في فتح الرها :

يا لها مَتْشَفر أضحكــتْ من بني القُلْفِ ثغورَ الشامتــين (١)

ويقدم ابن المجاور صورة طريفة ، إذ إن رؤوس الفرنج تختتن بالسيف في حين إن نفوسهم تزهق وهم قلف غير مطهرين ، يقول :

سنّتْ سيوفك في الرؤوس ختانــةً ذ هبتْ بمهجةِ كلِّ علجٍ أقلــف (٢)

الأعيــــاد :

لم يتحدث الأدب عن أعيادهم ، أسمائها وأنواعها ، وإنما وصفوا أفراحهم في بعضها ، وقد اشتهر من الادباء في تسجيل ما شاهدوه من أعيادهم اثنان هما أسامة بن منقذ وابن جبير ، وأما الاول فيصف عيدا في طبرية ، حيث أجريت مسابقة بين عجوزين في ميدان كبير ، وفي نهاية الميدان خنزير جعلوه جائزة لمن تسبق أولا (٣) بينما يصف ابن جبير عيدا حل على الفرنج وهم مسافرون ، فاجتمعوا في المركب صغيرا وكبيرا وحملوا الشمع المضيء (٤) .

الـــزواج :

ظهرت المرأة الفرنجية في الأدب العربي سافرة منطلقة غير منضبطة ، تخرج دون إذن زوجها ، وتتزوج دون إذن وليها ، ومن ذلك أن زوجة ملك الفرنج بالشام أحبت رجلا من الفرنج الذين قدموا من اوربا فتزوجته ونقلت المُلك اليه (٥) .

وقد كانت تجرى مراسيم الزواج بحضور البطارك والقسوس ، وقد يحضرها جمع غفير من الفرسان ، إذ كان للزوجة مكانة خاصة ، كما يحضرها النساء ، وقد نقل ابن جبير صورة حية لعرس افرنجي في صور ، يقول : " ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى (يقصد الفرنج) رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير ، وجميع الالات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهى زي ، وأفخر لبـــاس ،

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠١
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٤ وانظر الروضتين ١ / ١ / ١٩٦ ، ومذكرات جوانفيل ١٤٥
(٣) الاعتبار ١٣٨ (٤) رحلة ابن جبير ٢٨٦
(٥) الكامل ١١ / ٤٩٠

تسحب أذيال الحرير الذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك متنظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والالات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ... " (١) .

ولا يملك ابن جبير الا أن يستعيذ بالله من فتنة المناظر ، ومن تلك الزخارف .

ومما أنكره الأدباء العرب على المرأة الفرنجية استهانتها بالعشرة الزوجية ، فهي لم تكن تعتد بعد وفاة زوجها ، وإنما تتزوج بعد وفاته بأيام قليلة حتى لو كانت حاملا يقول العماد عن الكندهرى بأنه " دخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته ، وادعى انه أحق بزوجته ، وكانت حاملا ، فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أفظع من سفاحها " (٢) ويقول في أخرى : " وقيل إنها كانت حبلى ولم تخل من حبالة الحبل ، فما شغلهم حرمة الرحم المشتغل " (٣) ثم يعقب على ذلك بقوله : " فأنظر الى استباحة هذه الطائفة المشركة "(٣).

ولم يكن هذا الأمر افتراء عليهم ، فهذا المؤرخ الصليبي جوانفيل يروى في مذكراته ما يؤكد وجود هذه الظاهرة ، اذ يقول إن امرأة منهم قد تزوجت ولما يمض على موت زوجها وقت طويل (٤) .

هذا فيما يتعلق بالزواج فيما بينهم ، وأما التزاوج مع المسلمين ، فقد كان ممنوعا ومستهجنا الا اذا تنصر المسلم أو هربت هي من عندهم ، ويظهر ذلك مما جرى من مفاوضات بين ملك الانكليز والعادل ، حين عرض الاول أخته على الثاني ، شريطة أن يتنازل صلاح الدين لاخيه العادل عن القدس وغيرها ، وهو يتنازل لاخته عن مناطق الساحل ، وحين علمت بالخبر " تسخطت من ذلك وأنكرته انكارا عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك " (٥) ، ويصف العماد الرأي العام الفرنجي في ذلك فيقول : فجبهوها بالعذل واللذع ، وأتجهوها بالقدح والقذع ، وقالوا لها كيف تفجعينا بأفجع ملم مؤلم ، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم ، فان تنصر تمصر ، وان تسرع فما تعسر ، وان أبى أبيناه وان أتى أتيناه ، فرغبت من بعد ما رغبت ، وطلت من بعد ما طلبت " (٦)

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٨ ـ ٢٧٩ (٢) الفتح القسي ٥٩٠
(٣) المصدر السابق ٤٩٤ ، وأنظر الكامل ١٢/ ١٢٨
(٤) القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ١٤٣
(٥) النوادر السلطانية ١٩٦
(٦) الفتح القسي ٥٥٦ ، وأنظر الاعتبار ٩٦ ، والروضتين ٢/ ١٩٣ ، ١٩٦

ويؤكد هذا ما جاء في قصة مريم الزنارية التي تزوجت من مسلم في مصر ، فلما اختطفها الفرنج وعادوا بها الى أوربا سألتها أمها عن زواجها ، فبينت لها أنها أجبرت على الزواج من المسلم (١) . وأما اذا رغبت الفرنجية في الزواج من مسلم فإنها تهجر أهلها كما دلت على ذلك قصة الصعيدي وزوجته الافرنجية (٢)

دفن القتلـــى :

ليس المقصود بدفن الموتى المراسيم التي كانت تتبع عند دفنهم ، وانما المقصـــود اهتمام الفرنج بدفن موتاهم حتى في أحرج الاوقات ، يقول ابن شداد : وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح رجل حملوه " (٣) ، ويظهر أن هذا العمل كان يتم في المعركة أما إن كانوا في حالة هجوم وابتعدوا عن مواقعهم فانهم يحملون قتلاهم ، أو يدفنونهم قبـل أن يغادروا أماكنهم ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ أن الفرنج كسروا على أبواب دمشـــق وقتل منهم خلق كثير ، فقطعوا رؤوسهم وحملوها في سموط الخيل (٤) ، وقد تم دفـــن القادة الاموات في القدس تكريما لهم ، ولو كان مكان موتهم بعيدا جدا عنها ، ولذلك عمدوا الى خطة يتم بها نقل الجثة أو العظام الى القدس ، وتدل هذه الخطة على ما عهدنـــاه عندهم من وحشية وغلظة ، فحين مات الملك بلدوين ملك القدس في طريق غزوه الى مصـــر شق أصحابه بطنه ، ورموا حشوته في منطقة ما تزال تحمل أسمه حتى اليوم ، وحملوا جثتـــه ودفنوها في قمامة (٥) ، وحين مات ملك الالمان في شمال الشام وهو في طريقه الى القدس سلقوه في خل وجمعت عظامه لتدفن في كنيسة القيامة ، يقول العماد : " وقيل إنهـــم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظامه ، وتهرى لحمه ، ثم جمعوا في كيس عظامه ، ورامو بذلك اكرامه واعظامه ، ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة ، ويدفنوه على ما كـــان أوصى به أو رامه ... " (٦) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ٦/ ٢٣٣
(٢) المصدر السابق ٧/ ٤
(٣) النوادر السلطانية ٢٥ وأنظر ١٤٨ ، والروضتين ٢/ ١٧٩
(٤) الاعتبار ١١٦
(٥) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠ والأنس الجليل ١/ ٣٠٩
(٦) الفتح القسي ٣٩٣ ، وأنظر الحادثة في النوادر ١٢٤ ، وزبدة الحلب ٣/ ١١٤ ، ويؤكد جوانفيل ما ذكره الادباء العرب عن دفن موتاهم في مذكراته ص ١٤٥ .

زيارة الاماكن المقدسة :

رأينا حرص الفرنج على دفن قادتهم في بيت المقدس ، كما رأينا حرص القادة على زيارة القدس وان لم ينسا في أجلهم فأنهم يوصون بدفنهم فيها ، كما قال العماد "ويدفنوه على ما كان أوصى به أو رآه " ، ولم يكن قادتهم بأكثر تحمسا من عامتهم للزيارة ، فقد أرسل صاحب انطاكية الى أسامة كتابا يقول فيه : " هذا فارس محتشم من الافرنج وصل وحج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن أسيره اليكم يبصر فرسانكم وقد نفذته فاستوصوا به . " (١) وذكر العماد أن صلاح الدين أسر شيخا طاعنا في السن فسأله عن سبب مجيئه وهو في هذا السن فقال : انما كان مجيئي للحج الى القيامة (٢) .

وقد كان لهم مواسم معينة يزورون خلالها الاماكن المقدسة في القدس وغيرها ، وقد استلزم ذلك تعيين فرقة للاشراف على هذه المواسم ، يقول العماد في معرض حديثه عن زيارة الفرنج لمشهد زكريا عليه السلام في سبسطية : " وهو متعبدهم المعظم ، والمشهد المكرم ، وقد حجبوه بالاستار ، وحلوه بالفضة والنضار ، وعينوا له مواسم الزوار ، وقومته من الرهابين فيه مقيمة ، ولا يؤذن في الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمة ... " (٣) .

الحياة الإجتماعية خلال الحروب :

تقدير الفارس :

لقد كان لتركيب المجتمع الصليبي أثر في ايثار الفارس والاهتمام به ، وقد لاحظ ذلك أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، فأفرد فصلا خاصا سماه " منزلة الفارس عندهم " وذكر أن الفرسان تميزوا بمنزلة عالية ويصفهم بأنهم " أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم " (٤) ويثبت ذلك بأدلة يوردها ، منها أن جماعة الفرسان حكموا في قضية جنائية فقضي بقضائهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله : وهذا الحكم ... ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ... (٤) .

كما أن الاحداث التاريخية نفسها تثبت ما ذهب اليه أسامة ، فما من فارس له قيمة أسر أو قتل في أرض المعركة الا تجد التعقيب على مقتله أو أسره يوحي بأهميته ، ومن ذلك التعقيب على أسر جوسلين بأنه " كان من أعظم الفتوح على المسلمين ... وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده ... " (٥) .

---

(١) الاعتبار ٦٩ (٢) الفتح القسي ١٥٦
(٣) الروضتين ٢/٨٨ (٤) الاعتبار ٦٤
(٥) الروضتين ١/١/١٨٣

الحزن والحـــداد :

وهما من المظاهر الاجتماعية المرتبطة بالحروب ، ويمكن أجمال أسبابهما بموت كبير أو فقد عزيز أو سقوط بلد أو تحطيم شعار ديني أو التعرض لهزيمة ... وقد أضفى الأدباء صورًا عربية على مظاهر حزنهم ، ومنها النوح والندب ولبس الحداد ، وحث التراب علــى وجوههم ، فهذا ابن الدهان يمدح طلائع بن رزيك ويبين ما أنزله بالفرنج من هزائم حتى خيم الحزن والنواح على كل صقع من ديارهم ، يقول :

وبات في كل صقع من ديارهـــمُ نوح على بطل لولاك ما شيكـــا (١)*

بل ادعى الادباء أن الحزن خيم على كل بيت فرنجي حين أفشل أسد الدين شيركـــوه مخططات الفرنج في التعاون مع وزير مصر شاور ، يقول العماد :

في كل دار من الافرنج نادبـــةٌ بما دهاهم فقد باتوا على نــــدب (٢)

وقد برح الحزن بهم ، حين عادوا الى بيوتهم فوجدوها خاوية من أهلها بسبب ما أحدثه صلاح الدين بههن هزيمة وقتّل في حصن الاحزان ، يقول العماد :

عادوا ، وحين رأوا خراب بيوتهم يئسوا من الأوطار والأوطـــــــان
باءوا بأحزان وخافوا هولهـــــا مما لقوا بمخافة الاحــــــزان (٣)

أما طرق تعبيرهم عن الحزن فهي البكاء ، وحث التراب ، ولبس السواد ، وتحريم الملاذ. ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي أسر ابنها فخرجت الى السلطان " متعرضـــة للخضوع ، متدرعة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة مراحم السلطان مستلينة ، رافعة عقيرتها بالابتهال ، شافعة في فك ولدها من الاعتقال ، معفرة خداً شأنــــه التصعر ، سافرة عن وجه من عادته التخدر ، حاسرة حسرى ، باسرة لحزنها بأسرى ." (٤)
ومن وصف ابن شداد لحزنهم حين علموا بمقتل رجل كبير منهم ، يقول : " فضربوا بنفوسهم الارض ، وحثوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن الدهان ٢٢٦
* شيكا : الشوكة : حمرة ترقى الجسد ، وقد شيك الرجل : أصابته هذه العلـــة (اللسان : شوك)
(٢) تاريخ ابن الفرات مج ٤/١/٤٦
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر / بداية قسم شعراء الشام ص ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/١/١٨٠
(٤) الفتح القسي ٢٠٥ ، وانظر ٢٠٦ ، والذيل على الروضتين ١٠٣
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤ ، وأنظر ١٤٣ والروضتين ٢/١٥٩

والطريقة الثانية للتعبير عن حزنهم هي لبس السواد ، ففي زمن نور الدين سنة ٥٦٥ ضرب زلزال مناطق كثيرة في الشام ، فأنزلت خسائر فادحة ، فقال العماد في ذلك:

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد (١)

وفي سقوط القدس لبس الرهبان والقسوس وخلق كثير من الفرسان المشهورين السواد وحرموا الملاذ ، وقاطعوا كل من خرج عن هذا العرف ، يقول ابن شداد : " قد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك حزنا على بيت المقدس " (٢) وقد نهج جماعة منهم طريقة ثالثة وهي خلع الثياب ولبس الحديد ، كناية عن الحزن ، وتلهفا للقتال لاسترجاع القدس ، يقول العماد : وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب ولزموا المصاب وداوموا الاكتئاب ... " (٣)

ومن طرقهم في التعبير عن حزنهم اشعال النار العظيمة ، فحين مرض ابن طلك الالمان حزنوا عليه حزنا شديدا " فأشعلوا نيرانا هائلة ، بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النار ان والثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كله نارا تتقد " (٤) *

المهادنـــات :

وتكون بعد اتفاق الطرفين على وقف القتال ، لمدة تختلف حسب الواقع ، ولها مراسيم خاصة يحضرها ممثلون عن الطرفين والأسقف ، وتؤدى فيها الايمان والمواثيق أما المسلمون فكانوا يقسمون بالله ثلاث مرات ، وأما الفرنج فيقسمون بالله ثلاث مرات وبالصليب كذلك ، وبالمسيح ... وبالاقانيم الثلاثة ... ثم تؤخذ خطوطهم عليهما بالفرنجي (٥) .

ويلاحظ أن المهادنات كانت في صالح المسلمين ، وقد اعتبر القلقشندى مصلحة المسلمين من شروط شرعيتها (٦) .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٦٩

(٢) النوادر السلطانية ١٢٦

(٣) الفتح القسي ٣٩٣

(٤) الروضتين ٢/١٨١

* لمزيد من الأمثلة على حزنهم أنظر : الفتح ٢٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ الروضتين ١/١/١٨٠ ، ٢/١٨٦ ، ديوان ابن عنين ٢١ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦

(٥) تشريف الايام والعصور ٩٢ ، صبح الاعشى ١٣/٣١٢ـ٣١٤ ، الفتح ٥٥٦

(٦) صبح الاعشى ١٤/٧

الرياضة والفرنـــج :

ان وجود الصليبيين في أرض بعيدة عن بلادهم ، وما تبع ذلك من صراع عنيف ، لم يجعلهم يقلعون عن عاداتهم في المرح واللهو ، بل لقد اتخذوا من بعض ألوان لهوهم تدريبا على قتال خصومهم من المسلمين ، فلا عجب أن يتخذ هذا اللهو أحيانا طابعـــا حماسيا عنيفا ، فهذا ابن جبير يصف ميدان عكا بأنه لا يوجد شبهه في المنطقة ، وقد اتخذه الفرنج ملعبا يتدربون فيه على ركوب الخيل ، بما فيهم صاحب البلد الذى يركب كل بكرة وعشية (١) .

ويصف أسامة بن منقذ عيدا للفرنج حضره في طبرية ، وكانت وسائل الترفيه فيه لعبة قام بها الفرسان بالرماح وفرح صنعه عجوزان فانيتان ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يحثونهما ، ثم وضعوا في نهاية الميدان خنزيرا لمن وصله أولا أخذه ، فجرت المسابقـــة بينهما وهم يضحكون لانهمـــا كانتا تقومان وتقعان كل خطوة (٢) .

وقد يدخل في لهوهم تلك المبارزة التي جرت بين صبيين مسلمين وآخرين فرنجيين ، وكان ذلك في وقت السلم ، فتغلب الصبيان المسلمان على الافرنجيين ، فأخذ اجائزه (٣)

ومن أنواع الرياضة التي اتبعوها للترفيه عن أنفسهم الصيد ، وقد مارســـوا هذه الهواية في أوقات السلم ، فكانوا يتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المجاورة لكـــل منهم (٤) ، هذا وقد اتخذوا البزة والصقور والشواهين والكلاب لتساعدهم في القبض على الصيد (٥) ، ومن الادلة الشعرية التي تشير الى ممارستهم الصيد ، قول ابن منير متشفيا بمقتل صاحب انطاكية :

والآن ملقىً بالعرا يقتاتـــه ما كان قبلُ بصيده يقتاتـــه (٦)

المرأة الصليبية :

سبق الحديث عن مشاركة المرأة الفرنجية في الحرب ، ولم يكن هذا هو الشـــيء الوحيد الذى استرعى انظار الادباء بالنسبة اليها ، فقد لفتهم جمالها وبعض عاداتهـــا .

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٣ (٢) الاعتبار ١٣٨
(٣) الروضتين ٢/١٤٣
(٤) زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية ١٤٨ ــ ١٤٩
(٥) انظر النوادر السلطانية ١٥٧ ، الفتح ٤٧٤ ، الروضتين ٢/١٨٣ ، الاعتبار ٢١٠ ، ٢٢٣
(٦) اعلام النبلاء ٢/١٩ ، الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٥٩

وقد تميز ابن القيسراني عن غيره في تجسيد محاسن المرأة الفرنجية ، وكان في تجسيده ينحو منحى الشاعر أبي نواس ، ولذلك سنترك الكثير من الامثلة التي تجرح الحياء ، ونذكر مثالا دالا على جمالها ، يقول :

وفي ذلك الزنار تمثال فضة — تنقل خديه العيون بمسجد
وقد غلب المصباح فيه على الدجى — سنا قمر في جنح ليل مجمد
فيا لي من وجه كقنديل هيكل — عليه من الصدغين محراب مسجد
لقد أسرتني حيث لا ابتغي الفدا — ثقل في أسير لا يمر بمفتقد (١)

ويصف العماد المرأة الفرنجية بأنها : ... حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء غناء لفاء ، زرقاء ورقاء .. (٢) .

وقد تحدث الادب عن انصراف بعضهن عن مناهج الحياة الى اقامة الصلوات ، يقول ابن القيسراني :

كم بالكنائس من مبتلة — مثل المهاة يزينها الخفر (٣)

ويقول :

يا هل سمعتم بدير سمعان — وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله — أم نبت من منابت البان ؟ (٤)

ويقول :

إذا هنَّ أقبلن وقت الصلا — ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق أوساطهن — وناقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافهن — فيالي من ذلك المجلس (٥)

عادات مستنكرة :

تحدث الادب عن كثير من صفاتهم وعاداتهم السيئة ، وقد ورد بعضها في مجال الحديث عن الصراع الحضاري ، ويضاف اليها ها هنا ما يلي :

الدعارة والفجور :

كان لتكوين المجتمع الصليبي العربي أثر في اشاعة الفاحشة بينهم ، فكثيرون منهم تركوا أوطانهم وأولادهم وجاءوا تلبية لنداء الكنيسة ، مما جعلهم يعانون مرارة العزوبية فندبت أوربا مجموعات من النساء لاشباع حاجات الفرسان ، ثم تطور الأمر الى أن أنشئت أسواق للنسوة الساقطات في بعض المدن (٦) .

(١) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٥ وانظر ورقة : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩
(٢) الفتح القسي ٣٤٧ (٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ٧٣
(٥) المصدر السابق ورقة ٧٠ (٦) الفتح القسي ص ٣٤٥

وقد عقد العماد فصلا خاصا ذكر فيه حال نساء الفرنج ، وتحدث عن هذا الجانب حديثا مفصلا ، وفيما يلي مقتطفات منه ، يقول " ... قد اجتمعن من الجزائر ، وأنتدبن للجرائر ، واغترين لاسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الاشقياء ، ترافدن على الارفاق والارفاد وتلهبن على السفاح والسفاد ، من كل زانية نازية ، زاهية سازية ، عاطية متعاطية ، حاذية خاطية ، متغنية متغنجة ، متبرجة ... فوصلن وقد سلمن أنفسهن ، وقدمـن للتبذل أصونهن وأنفسهن ... وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب ، وانضمت إليهـن أترابهن من الحسان الشواب ، وفتحن أبواب الملاذ ، وسهلن ما بين ... ونفقن سـوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق ... وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت عند مغربة وعزبة ... (١) .

وقد كان لانتشار هذه الفاحشة أن انتشر فيها القسوس ، يقول العماد : وما عند الفرنج على العزباء اذا أمكنت من الاعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس اذا كان للعزبـان المضيقين من ... فرج " (٢) .

ولم يتوقف هذا الداء عند العزباء ، بل ان المتزوجات كن يخُنَّ أزواجهن ، (٣)
ولو جاز لنا أن نتخذ حكايات ألف ليلة وليلة دليلا يعتمد عليه لوجدنا في حكاية الصعيدي [illegible] ما يؤكد ذلك (٤) .

وقد استرعى انظار الادباء العرب عدم غيرة الفرنج على نسائهم ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ في الاعتبار عن فرنجي في نابلس كان يبيع الخمر ، وجد رجلا غريبا في حجرة نوم زوجته ، فما زاد بعد حوار عجيب له مع ذلك الرجل على أن قال له : وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٥) وفي المعرة دخـل فرنجي عند حمامي من أهل المعرة ، ولم يتحرج من أن يعرض زوجته لتجربة غريبة ، تنبئ عن انعدام الغيرة والحياء معا ، (٦) .

ويروي أسامة كذلك قصة وقعت في صور ، يبين عدم غيرة الاباء على بناتهم (٧) ، لا عجب اذن أن يقول أسامة عن الفرنج انه " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكـون الرجل يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معهـا والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى" (٨)

---

(١) الفتح القسي ٣٤٧ ــ ٣٤٨ (٢) المصدر السابق ٣٤٩
(٣) انظر نهاية الارب ٢٧ ورقه ٣٨ ، وانظر المقري : نفح الطيب ٢/ ٢٩٧ والروضتين ٢/ ١١
(٤) ألف ليلة وليلة ٤/٧ وانظر الفتح القسي ٥٩٠
(٥) الاعتبار ١٣٦ (٦) المصدر السابق ١٣٦
(٧) المصدر السابق ١٣٧ (٨) المصدر السابق ١٣٥

ولا غرابة والحالة هذه أن يتخذ القوم من الاماكن المقدسة مكانا لممارسة فجورهم وفحشائهم ، فجعلوا من المسجد الاقصى المبارك موضعا يقضون فيه أوطارهم .. (١) *

الخمـــر :

اتخذ الفرنج للخمر أسواقا ، وباعوها بأثمان باهظة لأنها أصبحت سلعة تجارية تستورد من وراء البحر ، وقد وصف أسامة عملية بيعها بالجملة في نابلس إذ يقـــــول : " يأخذ (السمسار) الخمر في قنينة من النبيذ وينادي عليه ، ويقول : فلان التاجر فتح بتية من هذا الخمر ، من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا " ، وأجرته على ندائه ، النبيذ الذي في تلك القنينة (٢) .

وقد انتشرت الخمارات في أماكن كثيرة . ويصف ابن القيسراني إحداها وهي خمارة جسر الحديد في منطقة انطاكية فيقول :

ان كان لا بد من السكـــــر فمن يدي خمارة الجســـــر
خمارة تطلع من نحرهـــا خمارة بيضاء من نحـــــر (٣)

وقد أشتركت المرأة الفرنجية في تقديم الخمر ، ولذلك ربط العماد بين الخمر والنساء الفرنجيات في حديثه السابق ، يقول : " وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر " (٤) هذا ، وقد سجل الشعر هذه الصور ، وسخر من خلالها من الفرنج ومن ذلك قول الرشيد بن النابلسي يمدح صلاح الدين بعد الفتوحات :

كم قد سقيتهم لا فلا عجـــب إن عربدوا سفها ، فالقوم قد سكروا (٥)

جفاء أخلاقهم وقسوتهم:

سبق الحديث عن وحشيتهم وقتلهم للمسلمين العزل ، مما يدل على اعتيادهـــم المناظر الدموية ، حتى ولو كانت مخالفة للطبائع الانسانية ، فحين حاصر المسلمون كفر طاب رفضوا التسليم ، وقتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم (٦) .

---

(١) الفتح القسي ١٣٧
* للتأكد من صدق المصادر العربية أنظر مذكرات جوانفيل ٩٩ ، ٢٢٤ وغوستاف لوبون / حضارة العرب ٣٢٨ ، وزكي النقاش / العلاقات الاجتماعية ١٥٢
(٢) الاعتبار ١٣٦ ، وانظر جوانفيل في مذكراته ص ٨٣ ، ١٤٢
(٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٧
(٤) الفتح القسي ٣٤٨
(٥) الروضتين ٢ / ١٩٤
(٦) الكامل ١٠ / ٥١٠

وقد لاحظ أسامة ذلك حين اعتبر قريبي العهد بالبلاد الفرنجية أجفى أخلاقـــا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين (١) ، ثم يذكر دليلا على ذلك ، ملخصه أن أسامة كان يصلي في الأقصى فهجم عليه فرنجي ورد وجهه نحو الشرق ، وقال : كذا صلِّ ، فانتهره قومه وأخرجوه ، لكنه غافلهم ثانية ورد وجه أسامة ثانية ، فعاد الداوية وأخرجوه واعتذروا الـــى أسامة بأنه " غريب وَصَلَ من بلاد الفرنج في هذه الايام ... " (٢) .

ويمدح عمارة اليمني الوزير المصرى شاور بأنه هذب أخلاق الفرنج الجفاة فيقول :

وعصابة روميّة عاشرتهـــــــا فتأدبتْ وتهذّبتْ أذهانهـــــا (٣)

وقد ظهر هذا الجفاء وهذه القسوة في محاكماتهم ، فكانوا يُنزلون العقاب الاليم الذى يصل الى درجة الموت دون التأكد من صحة التهمة ، كما يتضح من رواية أسامة عن محاكمتهـــم شيخا كبيراً بتهمة التعاون مع المسلمين ، وذلك باجباره على مبارزة حداد شاب ، انتهت بموت الشيخ المتهم بصورة بشعة قاسية ، وسط هتاف القوم واستحسانهم (٤) .. ورجل آخر أتهموه وأمه بقتل الحجاج الفرنج ، ففقأوا عينيه دون أن تجرى له محاكمة تقدّم فيهـا الأدلة والشهود .. (٥) .

ويروى ابن شداد محاكمة أخرى لمتهم فرنجـي ، والتهمة هي أنه ضرب غلامه ضربـا جاوز فيه الحد ، فاجتمعت القسوس للحكم ، فقضوا بذبحه وتشفع بعضهم فيه لدى الملـك ، فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٦) .

النهب والسرقة :

تميزت عمليات الصليبيين في بداية الحروب الصليبية بالنهب والسرقة ، فقد نهبوا ما في طرابلس من أموال (٧) وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضـــة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة ، ومن الذهب نيفـــا وعشرين قنديلا (٨) وفي اللاذقية هجموا على مينائها ، ونهبوا اثنتين وعشرين قطعة فـي البحر (٩) وفي جبيل أعطى الفرنج الامان للمسلمين ، ولكنهم لم يفوا لهم بعهدهـــم .

---

(١) الاعتبار ١٣٤ (٢) المصدر السابق ١٣٤
(٣) شرح الكروب ١/ ١٤٢ (٤) الاعتبار ١٣٨
(٥) المصدر السابق ١٣٩
(٦) النوادر السلطانية ١٢٦ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧
(٧) الكامل ١٠/ ٤٧٦
(٨) المصدر السابق ١٠/ ٢٨٤
(٩) زبدة الحلب ٢/ ١٣٠

وأخذوا أموالهم ، واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب (١) ، وعند أن استقروا في بلاد الشام عملت نجدا تهم لصوصا احترفوا مهنة السلب ، ومن ذلك أن جماعة من "الحرامية أخذوا قافلة للمسلمين وعندهم بحليات ٠٠٠" (٢) وحين غادر أسامة مصر عائدا الى الشام عن طريق البحر ، نهب الفرنج مركبه والمراكب الاخرى بحجة أنها كسرت ، فكتب الى طلائع ابن رزيك يشكو أمره :

أذهبت تالدى وطار مـــــني الطاري فضاع الموروث والمكســـوب
فهو شطران بين مصر وعصــــر ذا غريق ، في ، وذا منهـــوب (٣)

ويصف ابن جبير شجرة عظيمة هي حد بين الامن والخوف لوجود حرامية للفرنــــج (٤)
وكان من شروط الناصر قلاوون على الفرنج ، وقد رجحت كفة المسلمين ، أن لا يمكنـــوا
" حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل الماء ٠٠٠" (٥) *

صفات خلقية :

نظر المسلمون الى صفات الفرنج الخلقية فلاحظوا أنهم شقر غريبون عن البــلاد التي احتلوها ، تمثل كالافاعي الخبيثة ، زرق أشداء ، ومن ذلك فيهم مثار استهزاء ، يقـول العماد : " خرجوا الى عكا من كل ٠٠٠ أزرق ، زرقة الموت الاحمر ، وأنمشي يمشي واليــوم أغبر ، وأشقر وهو أشقى ، وأبقع اذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى " (٦) ويقول أيضـا " شقرا كأنما لفحت النار وجوههم " وهم فيها كالدعون " زرقا كأنما عيونهم من حديد فهـم بقلوبهم وعيونهم يكافحون" (٧) ، ويقول في ملك الالمان : وأنه خرج في ثلاثمائة ألــف مقاتل ، فمن كل سالب باسل ، وطالب للباطل ، وجهم جهنمي ، وأشقر سقري ، وأنمش أفعواني " (٨) ، ومن مواطن استهزاء الادباء العرب بالفرنج وصفهم لملك الانجليز بأنه "أشقر أمعط ، في عينية ضعف ، لو كان عبدا ما يساوي مائتي درهم " (٩) .

(١) الكامل ٢٧٢/١٠ ، وانظر : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصـــر والشام ٢١
(٢) الاعتبار ١٤٠
(٣) ديوان أسامة ١٦٢ ، وأنظر ٢٢٤ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٤٨
(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٣
(٥) صبح الاعشى ٦٢/٦٠/٤
* للمزيد أنظر الخريدة/ الشام ٦٩/١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢ ، والاعتبار ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ١٨٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ومذكرات جوانفيل ١٨٦
(٦) الفتح القسي ٤٠٣
(٧) المصدر السابق ٥١
(٨) المصدر السابق ٣٢٩
(٩) عقد الجمان ١/١٨ ورقة ٨٣

وقد ركز الشعراء على وصف عيونهم الزرق ، التي يشمئز منها العربي ، بل يتطير بها ، يقول المهذب بن الزبير في الهرنس صاحب انطاكية :

وتعجّبوا من زرقة في ذارفـــه وكأنّ فوق الرمح نصلا ثانيــــي (١)

ويصور فتيان الشاغوري الخيل تمشي على جثثهم ، والطيور تنقر عيونهم الزرقاء ، ولا يخلو هذا الوصف من التشفي والاستهزاء ، يقول في مدح صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

فالخيلُ لا تمشي بها الا علـــى هام منضّدة وشعر أشقــــر
نهبتْ عفاة الطير من حدقٍ بها زرقٍ فصوصاً من نفيس الجوهـــر (٢)

وقريب من هذا المعنى ما ذكره شهاب الدين محمود في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ يقول :

وغاص زرق القنا في زرق أعينهـــم كأنها شطن تهوى الى قلـــب (٣)

عادات أخرى :

ومن عاداتهم أنهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمـــام (٤)
ومنها كشف الرأس عند الفرح (٥) .

اقتباس ... واعجاب :

أدى استقرار الصليبيين في المشرق الاسلامي الى تأثر بالفن الاسلامي بأنواعه ومن ذلك الفن المعماري وقد وصف بعض الادباء أبنيتهم ، ومن هؤلاء القيسراني الذى قال في وصف انطاكية حين كانت تحت الاحتلال الصليبي :

واحربا في الثغور من بلـــد يضحك حسنا كأنه ثغـــر
به قصور كأنها بيـــع ناطقة في خلالها الصور
هالاتَ طاقا تُهن آهلـــة يبسم عن كل هالة قمـــر (٦)

---

* قيل في هجاء خالد الفهرى :
فألفيته يهوى فـــترده عروق الى أخواله الزرق تنتمــي
اذا ايقظة نخوة عربيـــة الى المجد قالت أرمنيته نـــم
(ديوان ابن عنين ١٢٦)

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٦ ، وأنظر الخريدة قسم شعراء مصر ١ / ٣٨
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥ (٣) جواهر السلوك ورقة ٦٠
(٤) الاعتبار ١٣٦ (٥) تاريخ ابن الفرات ٤ / ٢ / ٢٥٥
(٦) ديوان ابن القيسراني ٦٣ ، وأنظر الخريدة / قسم الشام ١ / ١٠٠

ويصف ابن جبير عكا المحتلة بأنها " قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجوارى ... وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الاقدام " (١) ، ولكن الاحتلال شوه المدينة في نظر ابن جبير ، اذ يقول فيها بعد ذلك : " قذرة قذرة مملوءة كلها رجسا وعذرة " (١) ولذلك فضل عليها صور التي تنعم بالهدوء ، ويقل فيها التعصب ضد المسلمين .. (٢) .

وقد أتخذ البناء في المدن المحتلة طابعا فنيا من الجمال ما يتفق مع تاريخ المعمار الاسلامي قبل غزو بلاد الشام ، كما يظهر من كتابة الرحالة الفارسي ناصر خسرو . وقد أضاف الفرنج الى الاماكن الدينية زخرفا لم يكن فيها من قبل ، واستنبتوا الاشجار حولها ، يقول العماد في وصف اللاذقية : " ورأيتها بلدة واسعة الافنية ، جامعة الابنية متناسبة المغاني ، متناسقة المباني ، قريبة المجاني ، رحيبة المواني ، في كل دار بستان وفي كل قطر بنيان ، أمكنتها مخرمة ، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ودعائمها منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة ، وأماكنها مكمة ، ومحاسنها مبينة ، ومراتبها معنية ... " (٣) ، ويقول في كنيستها : " بأجزاء الاجزاع مرصعة وبألون الرخام مجزعة ... " (٤) .

وقد أفرغ الصليبيون جهدهم في تزيين القدس وكنائسها ، حتى أصبحت مثار اعجاب لكل من رآها ، يقول القاضي الفاضل " فانهم ـ خذلهم الله ـ عموها بالأسل والصفاح ، ومنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الدمية والاستبارية ، فيها كل غريبة من الرخام ، الذى يطرد ماؤه ، ولا يطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه ، الى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد ، فما ترى الا مقاعد للرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالاشجار لهما من التنبيت أوراق ... " (٥) .

ويتحدث ضياء الدين بن الاثير عن مشاهداته في القدس بعد أن استعادها صلاح الدين ، كما شاهد ذلك القاضي الفاضل ، ولكن ابن الاثير يسلط الاضواء على جوانب أخرى ، فيذكر تفنن الفرنج في الابنية التي أتخذوها من الحجارة ، بينما ذكر الفاضل تفننهم في زخرفة الحديد ، يقول ضياء الدين بن الاثير " ولا ينتهي الوصف الى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تسلب الصبابات ، وتستجلب الاذهان ، وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذى فطر الانسان ، ومن جملة ذلك ، تنوهي في حسنه من الهوع

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٧
(٣) الفتح القسي ٢٢٨
(٤) المصدر السابق ٢٢٨ ، وأنظر الفتح القسي ١٤١
(٥) صبح الاعشى ٦/٢٠٥ ـ ٥٠٣

والصوامع ، ذوات الأبنية الروائع ، التي روّضت بالزخارف ترويض الأزهار ، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي اليها بالأسرار ، وما فيها إلا ما يقال إنه إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تحيروا في توشيمها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب الاسماع والابصار ، وقيل فيها هذه روضات جنان لا أفنية ديار ... " (١) .

التأثر بالحضارة الإسلامية :

لم تتسم العلاقات الاسلامية الفرنجية دائما بالجفاف ، بالرغم عن الحروب الطويلة المستمرة ، فقد كانت العلاقات التجارية أحيانا طبيعية ، مما لفت نظر ابن جبير فقال : " ومن أعجب ما يحدّث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين " (٢) ويقول في عكا : " مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق " (٣) ثم يقول : وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة " (٤) .

هذا ما كان وسوق الحرب قائمة ، أما حين وضعت الحرب أوزارها ، فقد نادى المنادى في أسواق العسكر أن الصلح قد أنتظم ، من يشاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل " (٥)

وقد نتج عن هذا الاختلاط تعلم بعض الفرنج لغة العرب ، مما جعل التأثر بالحضارة الاسلامية أكبر ، ومن الادلة التي تثبت معرفة بعضهم اللغة العربية ما ذكره ابن جبير من أنهم " يكتبون بالعربية ويتكلمون بها " (٦) . وما ذكره ابن شداد عن صاحب شقيف أرنون بأنه عارف بالعربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث (٧) * وروى أسامة بن منقذ عدة مشاهدات في أماكن مختلفة يتكلم فيها الفرنج العربية ، منها أن

---

(١) أنيس المقدسي ، رسائل ابن الاثير ص ١٥٥ ، دار العلم للملايين ط بيروت ١٩٥٩

(٢) رحلة ابن جبير ٢٧١

(٣) المصدر السابق ٢٧٦

(٤) المصدر السابق ٧٣

(٥) تاريخ ابن الفرات ٨٦/٢/٤

(٦) رحلة ابن جبير ٢٧٥

(٧) النوادر السلطانية ٩٧ ، ومفرج الكروب ٢٨١/٢

* انظر الاعتبار ٦٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠

مجموعة منهم جاءت الى شيزر ،وسألوا البواب عن اسم البلد ، فقالوا : ايش اسم هذا البلد ؟ فقال شيزر (١) ... وحين دخل فردريك الى القدس زمن الكامل سأل قوام الصخرة عدة أسئلة بالعربية (٢) .. وفي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ما يؤكد معرفة المرأة الفرنجية للعربية ،فحين خيرها السلطان بين زوجها المسلم والفرنجي قالت : أنا قد أسلمت وتزوجت وحملت كما ترون (٣) ..

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت معرفتهم للعربية ، ما كان يجرى من مناظرات بين بعض المسلمين والفرنج ، ومثال ذلك قول ابن القيسراني في التناظر بينه وبين فرنجي في تحريم الخمر :

وعدا يناظرني بها عن دينه فقلت لياذاً بالجدال مكيشبا (٤)

ويقول ابن شداد في صاحب شقيف أرنون " وكان يناظرنا في دينه ، ونناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا في كلامه " (٥)

ومن الطبيعي الا يكون التناظر والتحاور الا باللغة العربية ، لأنه لم يعهد عن العرب آنذاك أنهم تعلموا اللغة الفرنجية ، بل كانوا يصفونها بأوصاف لا تخلو من الطعن مثل البربرة (٦).ومن المتوقع بعد هذا أن الجماعات الصليبية لم تستطع أن تحتفظ بعاداتها ومظاهر حياتها سليمة كما جاءت بها ،وإنما اضطرت بحكم انحطاط مستواها الحضاري الى ان تكتسب الكثير من صفات المجتمع الاسلامي وعاداته ، حتى بلغ الاكتساب حدا شكا منه المؤرخون الصليبيون ، فهذا فوشه Foucher كتب بعد انقضاء نصف قرن تقريبا يقول : "واحسرتاه ! بعد أن كنا غربيين صرنا الآن شرقيين تماما في هذه البلاد (الشام) وغدا الايطالي أو الفرنسي الذى يعيش في هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا لقد نسينا أوطاننا ، وصار معظمنا لا يعرف عنهشيئا (٧).

أما مجالات التأثر فهي كثيرة منها :

١. الاسلام :

فالبرغم من تعصب الفرنج الشديد لمعتقداتهم ،إلا أن بعضهم اقتنع بالدين الاسلامي وأسلم ، يقول العماد مشيرا الى اسلام بعض الفرنج بعد حطين :

---

(١) الاعتبار ٥٦ وأنظر ١٣٥ و ١٣٢

(٢) عقد الجمان ١٨/١/٨٣ ، ومفرج الكروب ٤/٤٤٢

(٣) ألف ليلة وليلة ٧/٤ وأنظر ألف ليلة وليلة ٦/٢٢٢

(٤) ديوان ابن القيسراني ٧١ (٥) النوادر السلطانية ص ٩٧

(٦) الاعتبار ١٤٠ وانظر ١٠٤

(٧) نقلا عن المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام مقالة الدكتور سعيد عاشور/عمان سنة ١٩٧٤ ص ٢٤٠

" وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم ، وتأكد بالدين عزامهم " (١) ويقول : وهرب خادمان من عند الفرنج ، وذكر أنهما لأخت ملك الانكتير ، وأنهما كانا يكتمان الايمان في سر الضمير ... " (٢) .

ويلاحظ المرء من حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية اذا اعتبرناها مصدرا يعتمد عليه ، أن هذه المرأة أسلمت عن قناعة كما يبدو من قولها : " وهذا سر دينك الصحيح ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ... " (٣)

٢ . **اللباس :**

تأثرت المرأة الفرنجية بزي المرأة المسلمة ، وراحت تقلدها في أتخاذ الحجاب لا احتشاما ، وانما رغبة في التجمل ، وفي محاكاة المرأة المسلمة التي تفوقها حضارة فلبست الفرنجيات الحرير والسترات الشرقية الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي اتخذت الحجاب فيقول : وخرجت مسفرة غدا شأنه التصمر ، مسفرة عن وجه من عادته التخدر ... " (٤) ويقول ابن جبير في وصف عروس : تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ... ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات (الفرنجيات) يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ... (٥) .

وقد لبس الرجال اللباس العربي ، وهو القباء والشربوش ، فقد أرسل الكندهري الى صلاح الدين يقول : أنت تعلم أن لباس القباء والشربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة لك ، فأنفذ اليه السلطان خلعة ... فلبسها بعكا " (٦) .

ولنا أن نستند في تصديق ذلك على ما يذكره ستيفن رنسيمان عن ملابس الرجال والنساء فيقول : يرتدي الفارس في عدته وسلاحه برنسا من الحرير ويتخذ عمامة وعند القتال يرتدي فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس كما يجعل خوذته كوفيه على نحو ما يفعل العرب . أما السيدات فاتبعن الزي الشرقي التقليدي فيما اتخذنه من قميص طويل وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب وأحيانا بالجواهر ، فاذا خرجن من بيوتهن اتخذن الحجاب شأن النساء المسلمات ، لا من قبيل الاحتشام ، بل لوقاية الطلاء الذي على وجوههن " (٧)

---

(١) الروضتين ٢/ ٨٠ وانظر ٢/ ١٦٥ (٢) الفتح القسي ٤٩٣ وأنظر ٤٤٠ و ٤٦١
(٣) ألف ليلة وليلة ٧/ ٤ (٤) الفتح القسي ٢٠٥ وأنظر ٢٠٦
(٥) رحلة ابن جبير ٢٧٨ (٦) الكامل ١٢/ ٧٩
(٧) الحروب الصليبية ٢/ ٥٠٩

٣٠ تذوق الأطعمة العربية :

روى أسامة عن أحد الفرنج الذين بأنطاكية أنه " أحضر مائدة حسنة ، وطعاما في غاية النظافة والجودة ، ورآني متوقفا عن الاكل فقال : كل ، طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الفرنج ، ولي طباخات مصريات ، ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير " (١)

٤٠ اتخاذ الموسيقى العربية وسيلة للترفيه :

وقد استعملت في الغناء والأفراح ، ومن ذلك ما جاء في ديوان ابن القيسراني من أن جارية من مولدات انطاكية المحتلة تغني بالدف وتستميل قلوب المسلمين بقولها :

علقت بحبل من حبال محمد   أمنت به من طارق الحدثان (٢)

وهناك أداة أخرى غير الدف ، وهي العود استعملها الفرنج ، يقول ابن القيسراني :

اذا بدا أذعنت له حدق   وان شدا ملكته أسماع
يحدي أوتار عوده ، يبدد   ايقاعها بالنفوس ايقاع (٣)

ويصف ابن جبير عرسا افرنجيا في صور ، استعملت فيه جميع الالات اللهوية يقول : " وقد احتفل لذلك (العرس) جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها " (٤) .

٥٠ الأبنية والفنادق والقلاع والحصون واستعمال النار ليلا والحمام الهادي نهارا لنقل الاخبار (٥) .

٦٠ الاشياء الادارية ، فقد أعتمدوا على المسلمين،أو من تدرب عندهم لإدارة الديوان والنظر في شؤون القوافل ، يقول ابن جبير " ورئيسها (ضيعة ترب عكا)الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج .. " ويقول " .. وحملنا الى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلي ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها "(٦)

(١) الاعتبار ١٤٠ ، وانظر رحلة ابن جبير ٢٧٥
(٢) ديوان ابن القيسراني ورقه ٧٤   (٣) المصدر السابق ورقة٧٩
(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٨
(٥) انظر رحلة ابن جبير ٢٧٥ ، الفتح ٤٨٤ ، مفرج الكروب ٢ / ٣٠٣ ، وزكي النقاش في العلاقات الاجتماعية ١٦٢ ، واحمد عبدالجواد الدومي : صلاح الدين الايوبي ١٠٢
(٦) انظر العلاقات الاجتماعية ١٥٧

ثانيا : الحياة الإقتصاديـــة :

حظيت حياة الافرنج الاجتماعية باهتمام أكبر عند الأدباء العرب من الحياة الاقتصادية ، وسبب ذلك يعود الى خطورة النواحي الاجتماعية على بناء المجتمع الاسلامي فبرزت هذه النواحي في الأدب مرتبطة بالتنفير والاستغراب ، وثمة سبب آخر ، هو أن الحياة الاجتماعية ممارسات يومية معروفة ، في حين ان الحياة الاقتصادية قد تغيب ملاحظتها عن غير المهتم بها ، ولذلك جاءت ملاحظات أدباء العرب عن الحياة الاقتصادية غير وافية ، ومعظمها مرتبط بالاشياء الظاهرة ، وتنقصها سمة التعمق والاستقصاء .

موارد الافرنج :

تبين لنا فيما مضى أن الفرنج استمدوا مقومات وجودهم من دول وراء البحار ، وهذا يعني أنهم اعتمدوا في حياتهم الاقتصادية على الامدادات الخارجية ، فكانت كل حملة تأتي الى المشرق الاسلامي تتخذ اجراءات تكفل لها الامداد الاقتصادي ، إما عن طريق ما تحمله سفن تابعة للحملة أو عن طريق امدادات متوالية من سفن المدن التجارية كالبندقية وجنوا وبيزا .

ويظهر هذا الامداد في مواقف كثيرة ، فحين غزا الفرنج الاسكندرية رافقهم اسطول يحمل كل ما يحتاجه العسكر ، وبعد سقوط القدس بيد صلاح الدين جاء الجيش الالماني بعدته وعتاده ، وفي حصار عكا جاءت افرنجية متنفذة ، ومعها ثلاثمائة فارس ، معهم كل ما يحتاجون اليه .

الا انه كان للفرنج مصادر دخل أخرى منها :

١ . الضرائب :

وتشمل ما يؤخذ من البلاد الاسلامية التي تغلب عليها الفرنج ، وما يدفعه الافراد من المسلمين للفرنج بسبب بقائهم في بلادهم ، وما تدفعه القوافل لقاء دخولها في الاراضي التي يحتلها الفرنج .

ويتضح من تنوع الضرائب أنها كانت تشكل دخلا كبيرا للفرنج ، فعلى سبيل المثال قرر الفرنج على أهل صيدا نيفا وعشرين ألف دينار ، وكذلك على عسقلان وصور (١) .

وهذه البلاد لم تكن وحدها التي تدفع الجزاة مثل هذه الضرائب الكبيرة ، كما أن الضرائب النقدية لم تكن الضرائب الوحيدة التي تقدم لهم ، اذ كانوا يأخذون من المسلمين ضرائب عينية كذلك ، كما أوضح ابن جبير حين قال : " وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم " (٢)

(١) انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١

(٢) رحلة ابن جبير ٢٦٠

أما الضريبة التي كانت تدفع على القوافل ومن معها من مسافرين عدا التجـــار ، فقد كانت على أساس أن يدفع المسافر دينارا وقيراطا ، ويدفع التجار عن البضائع العشر في مواضع معينة ، منها حصن تبنين الذي يقول ابن جبير فيه : " موضع تمكيس القوافل ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار " (١) .

وقد فرض الفرنج ، في عصر قوتهم وسيادتهم ، على المناطق التي يسكنها المسلمون ضريبة على الانتاج ، مقدارها نصف الغلة ، مقابل السماح لهم بمزاولة أعمالهـــم بسلام ، وقد لاحظ ذلك الرحالة ابن جبير ، حين أجتاز بطحاء بانياس وتبنـين فيقول في بطحاء بانياس ان الفرنج " يتشاطرون الغلة على السواء ، ومواشيهـم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهم " (٢) ، ويقول في الثانية : " وسكانها (وهم من المسلمين) مع الفرنج على حالة ترفيه ــ نعوذ بالله من الفتنة ــ وذلك أنهـــم يؤدون لهم نصف الغلة ، عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولهم على الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ، وكل ما بأيدي المسلمين على هذه السبيل " (٣) .

ثم فرضوا على المناطق الزراعية البعيدة عنهم فضلا عن القريبة ضريبة المشاطرة بسبب مواقعها ، فيذكر ابن شداد أن طبرية شاطرت المناطق القريبة منها ، بل الـتي تبعد عنها ما يقارب مائة كيلو متر غلاتها الزراعية ، وهذا يؤكد ما ذكره ابن جبير سابقا ، ويقول ابن شداد : " وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم نصف فصل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحبانية والسواد ، وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران (٤) . وقد توقف هذا المعين حين رجحت الكفة الاسلامية .

٢ • **التجارة :**

ارتبطت الحركة الصليبية منذ توجهها الى المشرق الاسلامي ، بالمدن التجاريـة الايطالية ، وكان لهذا الامر آثار خطيرة على الحركة الصليبية نفسها ، فقد غيرت اتجاه حملة كان من المقرر أن تتوجه الى مصر باعتبارها العامل المهم في هزيمـة الفرنج في حطين ، ولكن العلاقات التجارية بين هذه المدن ومصر كانت طيبـة ، فأقنع التجار الفرنج بأن يهاجموا القسطنطينية التي تخلت عن الفرنج في بعـض معاركهم في مصر والشام ، ولكن الحملة فشلت ، ويدل هذا على تأثير المـدن التجارية في سير الحملات الصليبية .

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٤ (٢) المصدر السابق ٢٧٣
(٣) المصدر السابق ٢٧٥ (٤) الروضتين ٢/ ٧٩

على أن الصليبيين ومن خلفهم من الاوروبيين اتخذوا بعض المدن التجارية في الساحل الشامي مركزا لهم للبيع والشراء . ومن المدن التي اتخذوها لهذه الغاية مدينة عكا التي كانت محط القوافل وملتقى التجار من المسلمين والفرنج . يقول ابن جبير فيها : " قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطن الاقدام (١) ومثلها مدينة صور (٢) .

ولم تكن عكا أو غيرها لتغص بالزحام لولا كثرة التجار ، فقد اجتمعوا بيها من جميع الافاق ، وتوضيح ذلك ، أن القوافل كانت تختلف من مصر الى دمشق ، ومنها الى بلاد الفرنج ، كل ذلك دون انقطاع (٢) وكذلك كان تجار الفرنج يدخلون البلاد الاسلامية ، لا يمنع أحد منهم ولا يعترض (٣) حتى في أوقات المعارك ، وهذا ما يتضح من حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية ، حيث ذهب الى عكا ليبيع الكتان فيها وهي مع الفرنج (٤) ويتضح كذلك ، اذا أخذنا بالرواية ، من حكاية مريم الزنارية أن الفرنج دخلوا الاسكندرية ، واشتروا ما يريدون ، ثم عادوا الى بلادهم ومعهم مريم الزنارية الفرنجية (٥) .

وفي عهد بيبرس عقدت هدنة بينه وبين بيت الاستبار ، نصت على أن يكون التجار والسفار المترددون من جميع الجهات المذكورة آمنين من الجهتين (٦) .

ويظهر من النص الاخير أن التجار تميزوا بمعاملة خاصة من كلا الطرفين ، منذ وقت مبكر ، اذ يروى أسامة بن منقذ أنه اجتاز سوق عكا ، واذا امرأة فرنجية ، تعلقت به ظنا منها أنه قاتل أخيها ، فأجتمع عليه رجال الفرنج ، ولم يتخلص أسامة منهم إلا حين جاء أحدهم وقال : هذا رجل برجاسي (أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال ، فتفرقوا عنه (٧) .

وقد عين الفرنج نقاطا للحراسة على مداخل البلد التي تمر منها القافلة ، ونقاطا أخرى داخل المدينة ، وسبب هذه الحراسة فحص المواد المنقولة ومعرفة أصحاب السلع من غيرهم منعا للسرقات ، وكان يتم ذلك كله بالمعاملة الحسنة . يقول ابن جبير : "وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل .." (٨) .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٧
(٣) المصدر السابق ٢٦٠
(٤) ألف ليلة وليلة ٤/٧ وأنظر الكامل ١١/٥٣٩
(٥) المصدر السابق ٦/١٩٩
(٦) صبح الاعشى ١٤/٣٧ ، وأنظر محمد زغلول سلام/ ضياء الدين بن الاثير ١٥
(٧) الاعتبار ١٤٠ (٨) رحلة ابن جبير ٢٧٦

أما ان حدثت سرقة أو أخيذة ، فتغرّم الجهة التي سرقت عندها ، أو تحلف اليمين ، وقد جاء ذلك في الهدنة التي عقدت بين بيبرس وبين بيت الاستبار اذ نصت على أنه ان تعدى أحد من أصحابه (الاستبار) بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فان تكشفت الاخيذة ، أعيدت ، والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ..." (١) .

ويبدو أن التجار اتخذوا زيا خاصا بهم ، ففي زمن الصالح أيوب تحرك ملك فرنسا يريد مصر ، فعلم ملك صقلية بذلك ، فأرسل ابنه يخبر الصالح بعزم لويس التاسع على قصد مصر ، وكان ذهابه الى مصر في زي تاجر خوفا من الفرنج أن يعلموا مالاة الانبرطور للمسلمين ..." (٢) ، هذا ، وقد وردت اشارات عابرة عن المواد التي تاجر بها الفرنج ، وأهمها الفضة والاشياء الأثرية ، فقد ظفر المسلمون بمراكب لتجار العدو في حصار عكا ، يحمل معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة .. (٣) وأما الاشياء الأثرية ، فقد أخذوها من القدس ، وباعوها في صقلية (٤) .

أما التجارة الداخلية ، فقد كانت تتعلق بحاجات الجيش من ميرة وسلاح ، كما حدث مع ملك الألمان الذي فنيت أقوات جيشه وأسلحتهم بسبب ما لاقوه من مصاعب وقتال في طريقهم الطويل ، فاتفق مع ملك التركمان أن يتزود عسكره من أسواق السلاجقة .. ليعوضوا ما فقدوه ، يقول العماد : وأقاموا لهم الاسواق ، وعرض عليهم الأمتعة والاعلاق ، فساروا في رفقة ورفق ، وتقوبلا توق .." (٥) وكان أرناط يحصن حصنه في الكرك بما يشتريه من سوق العسكر (٦) ، هذا ، وقد استعمل الفرنج العملة الذهبية للبيع والشراء ، وكانت الوحدة المستعملة التي تحدث عنها الادب ، هي الدينار الصوري ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا (٧) ويصف القلقشندي الدينار الصوري فيقول : " دنانير يؤتى بها من البلاد الفرنجية والروم ، وهي معلومة الوزن ، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الاخر صورتا بطرس وبولس الحواريين (٨) .

ومن الأدلة التي تثبت استعمالهم للدنانير الصورية ، ما ذكره ابن جبير عن التمكيس حيث يقول : " والتمكيس بالدنانير الصورية " (٩) وما جاء في مضمار الحقائق من أن ابن بارازان الفرنجي بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار .. وابن القومصية افتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية (١٠) .

---

(١) صبح الاعشى ٣٤/١٤ وأنذار ٢٨ (٢) مفرج الكروب ٢٤٧/٤
(٣) الروضتين ١٨١/٢ (٤) الفتح القسي ١٤٢ (٥) المصدر السابق ٣٩٠
(٦) مفرج الكروب ٢٨٣/٢ (٧) رحلة ابن جبير ٤٧٤ (٨) صبح الاعشى ٤٣٧/٣
(٩) رحلة ابن جبير ٢٧٤
(١٠) مضمار الحقائق ١٧ ، والكامل ٤٥٦/١١ ، وصبح الاعشى ٣٤/١٤

٣• الزراعـة :

أشار الادباء الى بعض مزروعات الصليبيين في معرض حديثهم عن سيطرة المسلمين عليهم وتدمير زروعهم ، وقطف ثمار أشجارهم ، وهم لا يستطيعون دفعا ولا صـــداء يقول صاحب مضمار الحقائق في نزول صلاح الدين سنة ٥٧٨ على الكرك : "ووجد فيها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزل قريبا منهم ، فأذللناهم وضايقناهم ، حتى لاذوا بالجدار ، فاستولينا عليهم ، فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم ، وجعلنا نشـــن الغارات عليهم مدة عشرة أيام " (١) . وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر الـــى ملك الفرنج في طرابلس وأنطاكية : " قد علم القومص كيف فارقنا بلادك ، ومـــا بقيت فيها ماشية الا لدينا ماشية ، ... ولا زرع الا وهو محصود ، ولا موجـــود الا وهو منك مفقود ... " (٢) ويقول سبط بن التعاويذي :

جيوشهم بالرعب مفلولـــة وزروعهم بالسيف محصـــــــود (٣)

ولكن المزارعين — مع هذا — أعطوا حرية التنقل لتصريف منتوجاتهم ، ولعلهـــم نالوا هذه الميزة لأنهم اشتركوا مع التجار في النشاط الاقتصادي ، بل أصبحـت حرية التنقل اتفاقا معمولا به زمن الظاهر بيبرس ، فقد نصت الهدنة التي عقدهـا مع بيت الاسبتار على " أن يكون فلاحو بيت الاسبتار رائحين وغادين ومتصرفين في بيعهم وشرائهم لا يتعدى عليهم أحد ، وكذلك جميع فلاحي بلاد الاسماعيلية (٤)

٤• الحيوانات :

وقد اعتمد الفرنج عليها في غذائهم وتنقلهم ، فكانوا يستوردونها من الغـــرب ، أو يشترونها من المنطقة ، ثم يحافظون عليها ، ويقدمون لها ما تحتاجه من أعلاف وقد ورد ذكر الأدب للحيوانات في مجال سيطرة المسلمين على الفرنج . يقـــول صاحب مضمار الحقائق عن صلاح الدين : " وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخـــرب عليهم بل أحرق ديارهم " (٥) . ويقول العماد : " وانتهى الينا أن الفرنـــج ينتشرون في الارض وينبسطون في موضع القهض ، ولا يحتفظون في الرفع والخفـض ويحتطبون ولا يحتاطون ، ويحتشون ولا يختشون " (٦)
وقد اعتمد الفرنج على الاسماك مصدرا آخر من مصادر الغذاء ، ولكن قوة المسلمين المتصاعدة جعلت الفرنج يقدمون نصف أنتاجها اليهم ، كما نصت على ذلـــك الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين سنة ٦٦٥ هـ وقد جاء فيها " وتكون صيـــدة السمك الرومية مهما تحصل منها يكون النصف منها للملك الظاهر بيبرس والنصف الثاني لبيت الاسبتار ... " (٧)

(١) مضمار الحقائق ٩٢ (٢) صبح الاعشى ٨/ ٢٩٩
(٣) ديوان ابن التعاويذي ١١١ (٤) صبح الاعشى ١٤/ ٣٥
(٥) مضمار الحقائق ٣٣ (٦) الفتح القسي ٢٩٣ وأنظر النوادر ٢٠٠ والروضتين ٢/ ١٤١
(٧) صبح الاعشى ١٤/ ٣٣

هذا ، وقد ذكر الأدب بعض صناعتهم ، وهي صناعة حربية كصناعة الأبراج والاسلحة الخفيفة ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك .

ويلاحظ مما مضى أن دخل الفرد الفرنجي في بداية الحروب الصليبية كان عاليـا لتنوع مصادر الدخل ، مما جعل أحد امرائهم يمن فرسانه لضعفهم أمام المسلمين ، مع أن دخل الفرنجي يعادل دخل مائة مسلم ، قال لهم : " انتم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند (Sergeant) (يعني رجالة) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم ؟ ... " (١) .

ولكن هذا الدخل تناقص تدريجا ، بل حدثت أزمات اقتصادية خانقة فيما بعد ، بسبب تدهور الاحوال السياسية ، اذ انحصر ملك الفرنج في صور وأنطاكية ، فاجتمع الفرنج كلهم في هذه المناطق ، وباعوا ما لا يمكنهم حمله بأرخص ثمن كما قضى بذلك الاتفاق (٢) ، ثم قدمت الجيوش الفرنجية بأعداد هائلة عن طريق القسطنطينية ، وحين وصلوا انطاكية استهلكوا بضاعتها ، فارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا حتى بلغ سعر غرارة القمح اثني عشر دينارا . يقول العماد : " وكانت حينئذ انطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغلة ، وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة ، والغرارة تساوى اثني عشر دينارا ، والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا " (٣) . بل ان ابن شداد يذكر أن سعر الغرارة بلغ ستا وتسعين دينارا صورية (٤) .

وأما في عكا حيث اجتمعت الجيوش الصليبية ، فقد ازدادت الاسعار أكثر مما كانت عليه في انطاكية ، اذ بلغ ثمن الغرارة أكثر من مائة دينار . يقول العماد : "وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ، والسعر من الزيادة لديهم في استعار" (٥) وبسبب هذا الغلاء التجأت جماعة منهم الى المسلمين ، وماتت جماعات يقدرها ابن شداد بمائة ومئتين يوميا (٦) ، ويصور العماد حالتهم تلك فيقول : " وغلت الاسعار عند الفرنج ، واستمرت العلل ، وأعلتهم ما عراهم ، وبرتهم العلل ، وباءوا بالوباء وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم ، وقصرت عن الفرار بوعهم ، وأمحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعث الرعب على الهرب ، أو القحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ، واستنابوا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة " (٧) . ولم تكن حالتهم زمن بيبرس وقلاوون والاشرف بأحسن مما كانت زمن صلاح الدين ، بل ان حالتهم ازدادت سوءا ، لانهم زمن صلاح الدين وجدوا الحماس الاوربي يمدهم بما يحتاجونه من ميرة وأموال وسلاح ، ولكن هذا الحماس تضاءل زمن بيبرس حتى قضى عليهم نهائيا زمن الاشرف ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) الاعتبار ٦٧ (٢) الكامل ١١/٥٥٣ (٣) الفتح القسي ٢٥٩
(٤) النوادر السلطانية ١٤٦ (٥) الفتح القسي ٤٤ والروضتين ٢/١٦٥ والكامل ١٢/٥٤
(٦) النوادر السلطانية ١٥٤ (٧) الفتح القسي ٤٣٩

ثالثا : الحياة السياسيـــة :

أقام الصليبيون كيانهم السياسي في المشرق الاسلامي على شكل امارات منفصلة ، هي الرها وانطاكية والقدس وطرابلس ، وتشكل منها الاطار العام للحكم السياسي ، إذ كان الأدباء يبرزون الفرنج كلا متماسكا ، في بداية تأسيس تلك الامارات ، وربما خلط بعضهم بين الروم والفرنج ، ثم اتضحت الرؤية تدريجا ، وصار الأدباء ينسبون الفرنج الى مناطق وجودهم ، فيقولون فرنج انطاكية ، وفرنج الرها ، وهكذا ، ولكنهم مع هذا نظروا الى إمارة القدس نظرة خاصة ، لانهم أدركوا أن من اسباب الحروب الصليبية ، العامل الديني ، يضاف الى ذلك توجه كثير من الفرنج الى القدس للحج ، وتوسع الفرنج الذين فيها فـــي أرض الشام ومصر .

ولكن هذه الامارات ، وعلى رأسها القدس ، لم ترتكز على أساس متين ، فهي كانت قائمة على أساس الاتكاء على قوة الغرب الاوروبي ، مع أنهم جهدوا في بناء كيان سياسي منفصل عن الغرب ، ومقبول في الشرق الاسلامي ، فعملوا من أجل ذلك على التوســـع السريع لتكون البقعة الجغرافية صالحة لاقامة كيان مكتف متكامل ، يدر أنتاجا يضمن لهـم الاستغناء عن الجهات الاخرى ، كما أن الفرنج حاولوا الإستفادة من الاوضاع الداخلية للبلاد الاسلامية ، فتوسعوا في الارض الاسلامية ، وأمدوا أعداء الامة ، ولكن مسيرة الوحدة والجهاد كانت أسرع من عملياتهم ، فأوقفتهم أولا ثم حولتهم فيما بعد الى مرحلـــة الهجوم ، مما اضطر الفرنج الى المطالبة بوقف القتال على أن يعترف المسلمون بهـم بوصفهم جيرانا لهم . وراسلوا صلاح الدين في ذلك مرات ومرات (١) ، كما راسلوا قطز وبيبرس وقلاوون وغيرهم (٢) وكان جوابهم أن الارض ليست لهم ، ولكنها للمسلمين ، فــلا يستطيعون المفاوضة عليها ، حتى اكتملت التعبئة النفسية والعسكرية عند المسلمين ، مما مكنهم في النهاية من اجتثاث الغزاة من المشرق الاسلامي .

ولقد كان للتكوين الاجتماعي في المجتمع الصليبي أثر في نظمهم السياسيـــة ، فهم من طبقات شتى وأجناس مختلفة ، جمعتهم المطامع الخارجية والاستثارة الدينية ، فجاؤوا معا من أجل أن يقاتلوا ويبنوا كيانا لهم في المشرق ، فجاء هذا الكيان صورة عن الانظمة السياسية الغربية ، وأنتخبوا في القدس ملكا على الطريقة الغربية .

وقد اتخذ ملك الفرنج القدس عاصمة لهم منذ احتلالهم لها والى حين استعــادة المسلمين لها سنة ٥٨٣ هـ ، ثم اتخذوا عكا قاعدة لهم ، وقد تبعهم في ذلك أمراء المناطق التابعة للقدس ، وتبع الامراء الفرسان والفلاحون وبذا كان النظام المتبع نظاما اقطاعيا ، يكون الملك بموجبه على رأس الحكومة (٣) ، وهو الذي يصدر القوانين والتشريعـــات

---

(١) انظر الروضتين ٢/ ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١٩، ١٩٣، ٢٠٣، والحركة الصليبية ٤٦٥

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٧ ونهاية الأرب ٥/ ١٥٣

(٣) الحروب الصليبية ٢/ ٤٨٠

ويدل على ذلك ما فعله الملك فولك حين سرقت الداوية أغنام المسلمين ، فأمر الملك أن تعقد محكمة من الفرسان ، وأصدر حكم التنفيذ بعد المشاورة بالبراءة (١) ، دون الرجوع الى سلطات أخرى .

ولكن الملك لم يكن دكتاتوريا ، يتفرد بإصدار القرارات أو التشريعات ، وانما كان يطالب عقد مجلس شورى ، وله حق المصادقة على القرار . وأما تشكيل المجلس فقد كان يختلف من موقف الى آخر ، وقد كان أعضاؤه اما من الفرسان أو القسوس أو منهما معا ، وقد يكون من الامراء . وعدد الاعضاء قد يزيد عن الثلاثة ليصل الى عشرة ، ومن ذلك أن (مرّي) جمع أمراءه واستشارهم بصدد الذهاب الى مصر لأنه يتيح المجال لنور الدين " يتنفذ فيها لان أهلها يميلون اليه دون الفرنج (٢) .

وحين هاجم صلاح الدين طبرية ، اجتمع أمراء الفرنج ، وأشار ملك طرابلس بعدم التعرض له ، ولكنهم رفضوا اقتراحه وكان بينهم خلاف فاصطلحوا " وتآمروا فيما بينهم وتشاوروا " (٣) ، ويقول ابن شداد في قصد الفرنج الى القدس بعد سقوط عكا سنة ٥٨٧ هـ : " وانهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم ، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم (٤) .. " ويقول : " فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكّم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حُكم الثلاثة فما يأمرونهم به يُفعل " (٥) .

ومع أن الملك مصدر السلطات القضائية والتشريع ، إلا ان حكم الفرسان نهائي ولا يرده الملك . وهذا ما يفهم من تعقيب أسامة على الحادثة السابقة : " وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره أو ينقضه " (٦) ويؤكد ذلك ماذكره ابن شداد من أن القسوس قضوا بذبح أحد الجناة فتشفع بعضهم لدى الملك فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٧) .

تقدير الحكم :

نظر الصليبيون الى ملوكهم وأمرائهم نظرة تقدير واعجاب لما كانوا يتميزون به من فروسية وتضحية ، ولما كانوا يبذلونه من أموال ، لا سيما انهم الاقطاعيون الكبار . يقول ابن جبير في صاحب طرابلس وطبرية : " وهو ذو قدر ومنزلة عندهم ، وهو المؤهل للملك ، والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر " (٨) ، ويصف ابن شداد نظرتهم لملك فرنسا فيقول : وكان عظيما عندهم مقدما محترما ، من كبار ملوكهم ينقاد اليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع ... " (٩) ويقول العماد : وما زال

---

(١) الاعتبار ٦٤ (٢) الكامل ١١ / ٣٣٥ ـ ٣٣٦
(٣) الفتح القسي ٦٥ ، وانظر ٦٦ ، والكامل ١١ / ٥٣٤ ، من تاريخ الحرب المقدسة
(٤) النوادر السلطانية ٢١ (٥) المصدر السابق ٢١٨ ، وانظر مذكرات جوا
(٦) الاعتبار ٣٥ (٧) النوادر ١٢٦
(٨) رحلة ابن جبير ٢٨٢ (٩) النوادر السلطانية ١٥٦ ـ ١٥٧ وانظر ١٣٤

الفرنج في وهن وضعف ، وتوزن وخلف ، حتى وصل في البحر كند يقال له هري ، وهو عندهم عظيم القدر ، فكمل بمن وصل معه نقصهم ، وأحيا بمدد موت نفوسهم حرصهم ، وأفاض عليهم الاموال ، وحلّى شهيهم عاطلها الاحوال ... " (١) .

ومن مظاهر تقديرهم للحاكم بذلهم أرواحهم دونه ، ففي معركة حطين نصبوا لملكهم خيمة ، على تل بناحية حطين ، وأحاط به نحو من مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين ... " (٢) ويقول العماد في آخر : " وقاتل دونه جماعة من المقدمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ... " (٣) .

أما إن قتل أو أسر أو انهزم ، فإن ذلك يفت في أعضادهم ، ويثير حزنهم ، فحين أسر جوسلين " أصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين من بعده " (٤) . وحين قتل الكندهري " أكثر الفرنج عليهم التعويل عويلا ، وباتوا يندبونه نوحا ، ويذيعون سر تقدمه بوحا ... " (٥) وحين انهزم ملك طرابلس في معركة حطين قبل انتهائها " سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون " (٦) .

ولكن تقديرهم للحاكم ، وطاعتهم له لم يكونا مطلقين بلا حدود ، ودون اعتبار للمصلحة العامة ، فحين أسر ابن صاحبة الكرك اشترط عليها صلاح الدين أن تسلمه الحصن مقابل اخلاء سبيل ابنها ، فعادت الى سكان الحصن وتوسلت اليهم أن يرحلوا عن الحصن لتسلمه الى صلاح الدين ، فكان موقفهم قاسيا معها ، لأنها تجاوزت ما اعتبروه مصلحتهم العامة ، وخرجت عن المعهود في البذل والتضحية ، ولذا لعنوها ونسبوها الى موافقة الاسلام ، يقول العماد : " فلما وصلت قاطعوها ، ودافعوها عن حصونها ومانعوها ، وأعلنوا ذمها وخالفوها ، حيث ما ألفوها كما ألفوها ، وجنحوا وجمحوا ، واجترأوا عليها واجترحوا ، وعصوها وأقصوها ، وعددوا عليها الذنوب وأحصوها ، وأفحشوا لها في خطاب الخطاب ، وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب ، وسبوها وسبوها ، والى موافقة الاسلام نسبوها " (٧) * .

---

(١) الفتح القسي ٤١٢

(٢) الكامل ١١ / ٥٣٦ ، وانظر الروضتين ٢ / ٨٧ ، ١٩٢

(٣) الروضتين ٢ / ١٩١

(٤) الروضتين ١ / ١ / ١٨٣

(٥) الفتح القسي ٤١٥

(٦) الكامل ١١ / ٥٣٥

(٧) الفتح القسي ٢٠٧

* للمزيد من الأمثلة عن تقدير الحكام أنظر الفتح ١١٠ ، الروضتين ٢ / ١٦١ مذكرات جوانفيل ١٩٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤

الحكم الوراثي وحكم المرأة :

لاحظ الادباء بعض مظاهر الحياة السياسية ، ومنها الحكم ، وقرروا أنه كان حكما وراثيا ، لا فرق فيمن يتولاه بين ذكر وأنثى ، وهم في هذا ينطلقون من النظام الاقطاعي ، فقد ولوا أمرهم ولدا مجذوما ، وما كانوا ليولوه لولا النظام الوراثي ، يقول العماد : " لما هلك الملك أماري (سنة ٥٦٩) خلف ولدا مجذوما ، وكان مع الموجود معدوما ، قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه ، وطال بلاؤه ، فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا من أمراضه بأمراسه ... " (١) .

وما داموا قد ولوا أمرهم ولدا مريضا فلا غرو أن يولوا أمرهم امرأة ، وقد أجاز قانونهم ذلك ، ومارسوه فعليا بشكل لافت للنظر ، يقول العماد : وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده ، وسواء في هذا الميراث ، بين الذكور والاناث ، ويكون الملك بعد الابن ، اذا لم يخلف ابنا ، للكبرى ، فان توفيت من غير عقب ، كانت للصغرى " (٢) وجاء في الروضتين أن صاحب انطاكية خلف ابنا بعد مقتله ، فتزوجت أمه بيرنس آخر ليدبر الجيش حتى يكبر بوهمند الثالث (٣) .

وقد أحصى أحد الدارسين البيوت التي انتقل عن طريقها الملك ، فذكر أنه عندما تزوج فولك ميليند انتقل العرش الى بيت انجو (١١٣١–١١٨٦م) ثم انتقل العرش بزواج ايزابيلا للمرة الثالثة الى بيت مونتفرات (١١٩٠–١١٩٢) ودى شامبان (١١٩٢–١١٩٧) ثم عاد العرش الى بيت لوزيجنان (١١٩٧–١٢٠٥) ثم انتقل بعد ذلك الى بيت بريين (١٢٠٥–١٢٢٥) ثم أخذ ينتقل العرش بواسطة الاناث الى أن استقر في عام ١٢٦٩ في بيت لوزيجنان (٤) .

وقد كان هذا مثار انتقاد الامبراطور فردريك الذى تأثر بالثقافة الاسلامية فيروى ابن واصل أن الامبراطور سأل الامير فخر الدين عن الخليفة ، ما أصله ، فقال : هو ابن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه ... وهكذا ، فقال ما أحسن هذا ، لكن هؤلاء القليلي العقول – يعني الفرنج – يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب ، جاهلا فما يجعلونه خليفة عليهم ؟ (٥)

---

(١) الفتح القسي ٦٧ ، وأنظر ابن جبير ٢٨٢

(٢) الفتح القسي ٤٩٤

(٣) الروضتين ١/١/١٥٢ –١٥٣ وانظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ٦٦٨/٢

(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ورقة ٣١ رسالة ماجستير القاهرة ١٩٧٥

(٥) مفرج الكروب ٢٥١/٤

الخلاف بينهم :

أدى الصراع الى تماسك الصليبيين على اختلاف مشاربهم ، حتى تحققت لهم الانتصارات العظيمة التي أقاموا بها كيانهم السياسي . ولكن هذا الكيان حمل في طياته بذور فنائه ، ومن هذه البذور ، الحكم الوراثي الاقطاعي ، ومنها وجود عدة أجناس وفرق دينية . ولئن قدمت هذه الفرق جهدا عظيما في بناء الكيان السياسي للفرنج ، الا انها كانت تنقسم على نفسها ، وأصبحت فيما بعد دولا داخل دولة ، تعمل كل فرقة دون التنسيق مع غيرها مما سهل القضاء عليها فرقة فرقة (١) .

وقد رصد الادباء بعض الحالات التي وقع الخلاف فيها بين الفرنج أنفسهم ، ومنهم حين انهزم . أما عن الخلاف فيما بينهم ، فقد ظهر في أول حملة وصلت الى انطاكية ، اذ كان أمراء الحملة أمراء ، وأراد كل أمير أن تكون المدينة له ، فاختلفوا (٢) .. لكن هذا الخلاف في هذه الفترة كان قليلا ، يتلاشى بسرعة ، ولذلك يقول ابن القلانسي حين اختلفوا وهم على أبواب دمشق : " ونشبت المحاربة وقتل منهم جماعة من غير عادة جارية لهم بذلك (٣) " .

ولما استقرت الأمور ، وامتد الغزو الى مناطق واسعة ، وصل الخلاف بهم الى حد استنجد صاحب طرابلس بصلاح الدين . ويصف العماد هذا الخلاف بقوله : " وقد كان بينهم خلاف ، وبحث ، وخلف متكث ، ووقوع نفار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار " (٤) وحين جاء ملك الالمان ، خاف الفرنج على ملكهم منه ، فعملوا على اشهار أنفسهم قبل وصوله حتى لا يكون له الملك ، يقول العماد : " كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد ، وأنه ملأ الفضاء بالرجال والأبطال ، قالوا : إنه اذا جاء لا يبقى لنا ملك ، والصواب أن نشيع لنا قبل مجيئه اسما .. " (٥) ويقول : " وما زال الفرنج في حال ضعف ، وتنوع بينهم وخلف " (٦) .

وبعد أن احتلوا عكا ، توجهوا الى القدس فسبقهم اليها صلاح الدين وحصنها وخرب آبارها القريبة منها ، فلما وصلوا المنطقة اختلفوا في الصعود الى القدس ... (٧)

ثم تفاقمت الامور زمن قلاوون وابنه حتى تواترت الاخبار بغزو الفرنج بعضهم بعضا ، وأنهم ما بقيت تسعهم أرضهم ، وأنهم تفانوا بالحروب والملاحم ، وما بقي لهم مزاحم" (٨)

---

(١) الفتح القسي ١٦١ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧ ، ومذكرات جوانفيل ٢٢٦/٢٢٧
(٢) زبدة الحلب ٢/١٣٢ وانظر ص ٢١٥ ، ص ٢٤٧ ، ج ٣/٩٣
(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦
(٤) الفتح ٦٥ وانظر ص ٦٢ والكامل ١١/٥٢٧
(٥) الفتح القسي ٤٠٣ والروضتين ٢/١٦٠
(٦) الفتح القسي ٤١٣
(٧) النوادر السلطانية ٢١٧ ، وانظر أحمد بيلي المصري / حياة صلاح الدين ١٧٥ ، وانظر الروضتين ٢/١٩٦
(٨) تشريف الايام والعصور ٥٨

أما خلافهم مع الروم ، فيظهر من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الديوان ببغداد سنة ٥٧٨ ه يخبره بكتاب ورد من مصر بأن المسلمين كسبوا بطشة فرنجية كانت قد خرجت من القسطنطينية " لفتنة وقعت بين روما وفرنجها ، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي وأفلتت منهم بطش منها هذه البطشة ، وفيها رجال أكابر ومقدمون لهم ذكر سائر ..." (١)

وقد حدث خلاف آخر بين الروم والفرنج حين حاصروا دمياط ، ثم ما لبث أن عاد الروم ، ففشلت الحملة على مصر ، مما قطع العلاقات بينهم .

وبذلك أمن صلاح الدين من خطرين من جهة الروم : الاول أنه أمن حالفهم وصرف جهده لمقاومة الفرنج ، والثاني : أنهم كانوا يخبرونه بتحركات الفرنج التي كانت تنطلق من القسطنطينية الى بلاد الشام (٢) .

ونلاحظ أن هذا الخلاف كان سببا من أسباب نهايتهم في بلاد الشام ، وثمة أسباب سياسية أخرى للخلاف ، منها أن الفرق الكثيرة التي أنتسب اليها الكيان السياسي جعل بعض الفرنج يميل الى السلم دون اعلام الفرق الاخرى ، مما ساعد على التهيؤ النفسي لترك القتال ، بينما كان المسلمون يقبلون السلم ، ولكنهم يعدون العدة للجهاد والتخلص من الغزاة .

---

(١) الروضتين ٢/٢٢

(٢) النوادر ١٢٤ ـ ١٢٦ ، ١٣٢ ـ ١٢٣

الباب الثالث

التقويم الفني

الفصل الأول : الشعر

الفصل الثاني : النثر

موازنة بينهما

أدب هـــادف :

يقتصر التقويم الفني للشعر ، على ذلك النوع من الشعر الذي تصدى للأحـداث التي جرت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، وهذا يعني أن نسلط الأضواء على أدب التزم بالدفاع عن وجود الامة الاسلامية ، خلال هجمة عاتية عليها ، وهو بذلك يمثل ظاهرة الشعر الجماعي في الادب العربي على نحو ممتاز ، وذلك لان الشاعر العربي فـي هذه الفترة ، نفذ من الدائرة الذاتية الضيقة ، الى الدائرة الإسلامية ، عبر الدائـرة الوطنية ، فهو في مقاومته للمحتلين الصليبيين صور ما فعلوه في البلاد المحتلة من قتل وتشريد وتخريب وتدمير ، وناشد كل مسلم أن يهب للذود عن المحارم ، يقول الأبيوردي :

فأيهاً بني الإسلام إنّ وراءكـم — وقائع يلحقن الذرى بالمناسـم
أتهويمة في ظل أمنٍ وغبطـة — وعيش كنوار الخميلة ناعـم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم — ظهور المذاكي أو بطون القشاعـم
يسومهم الروم الهوان وأنتـم — تجرّون ذيل الخفض فعل المسالـم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى — تواري حياء حسنها بالمعاصـم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى — وسمر العوالي داميات اللهـاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة — تظل لها الولدان شيب القـوادم

الى أن يقول :

أترضى صناديد الأعاريب بالاذى — وتغضي على ذل كماة الأعاجـم
فليتهمُ ان لم يذودوا حميـة — عن الدين ضنّوا غيْرة بالمحـارم (١)

ويقول آخر فيما أحدثه الفرنج من مجازر ، مناشدا ذوي البصائر أن يهبوا للتصدي لها :

أمور لو تأملهن طفـل — لطفّل في عوارضه المشيـب
أتسبى المسلمات بكل ثغـر — وعيش المسلمين اذاً يطيـب
أما لله والاسلام حـق — يدافع عنه شبان وشيـب؟
فقل لذوي البصائر حيث كانـوا — أجيبوا الله ـ ويحكمُ ـ أجيبوا (٢)

وهم في انتصارهم ، انما يمثلون انتصار الحق على الباطل ، يقول ابن دنينير في استـرداد دمياط سنة ٦١٨ هـ :

الله أكبر جاء الحق يقدمـه — نصر المليك فلاؤان ولا جحـد
كم موقف لك ليس الله ناسيـه — والدين مهتضم ، والملك مضطهـد

---

(١) الكامل ١٠/٢٨٥ ، نهاية الارب ٥/٢٢٦ ، النجوم الزاهرة ٥/١٥١
(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

جلوت وجه العلى فيبدى شطب ماء المنية في متنهم مطـــرد (١)

ويقول العماد في صلاح الدين :

بعودك عاد الحق واتضح الهدى وهب نسيم النصر وانفرج الضغط (٢)

وهو انتصار المكارم والمناقب الحسنة ، يقول ابن القيسراني في عماد الدين زنكي :

نشرت الفضائل بعد الخمــول ألا ربما نبهت الخامــــل (٣)

ويقول ابن الدهان في صلاح الدين :

ولولاك مات الفضل هزلا وأصبحت رياض الاماني ذاويا عوطــــلا (٤)

وهو طرد للغزاة عن أرض يملكها أصحابها ، يقول ابن سناء الملك في مدح العزيـــــز عثمان سنة ٥٩٤ :

الشام للإسلام دار القــــــرار وكان من قبل طريق الفـــــرار
وكان في ظلمة ليل دجـــــت فجاء عثمان معا والنهــــــــار
وجاءه بالبرء بعد الضـــنى وجاءه بالأمن بعد الحــــذار
فيا أمان الكفر لا تأمنــــواه بدار ما الشام لكفر بـــدار (٥)

وأخيرا ، هو انتصار التوحيد على من لا يؤمنون بالتوحيد ، يقول ابن سناء الملك فـــــي صلاح الدين :

أقمت بها التوحيد لله وحـده وأنسيت فيها الروح والاب والابنا (٦)

تلك أمثلة سريعة نفذ الشاعر من خلالها الى الدائرة الواسعة في مقاومة الغــــزاة للمشرق الاسلامي .

اما التعبير عن روح الجماعة ، فيظهر في اهتمام الشعراء بقضية الامة المصيريـــة ، والتفافهم حول القادة المسلمين ، لا في منطقة العراق فقط ، بل حيثما كانوا في ديـــــار الاسلام (٧) ، اذ راح الشعراء يخففون من أثر الهزيمة حين تقع ويشيعون انبـــــاء الانتصارات بطريقة مثيرة ، ويبشرون بالمزيد منها ، بل ، ويرسمون طريقة الخلاص مـــــن

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٧ (٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ٢٩
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١ / ١٠٩ (٤) ديوان ابن الدهان ص ٤٥
(٥) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٨٣ (٦) المصدر السابق ص ٧٥٨
(٧) انظر كتاب د . عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٣٥ ـ ١٣٩

الاحتلال الاجنبي ، فيدعون للوحدة والجهاد معا ، ويربطون بينهما وبين النصر .

وتظهر الروح الجماعية في استعمال الشعراء لضمير المتكلمين ، ولفخرهم بالقوة الجماعية ، يبرزونها دون تفريق بين الافراد ، يقول ابن عنين :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ... ودينا ، وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا ... الينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا (١)

ويقول ابن القيسراني حين كسر الفرنج على أبواب دمشق سنة ٥٢٣ ، مصورا خطر الفرنج على السكان جميعا ، ودفع صاحب دمشق لهذا الخطر :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال في عدد ... يؤود حاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا ... أمواجه بأواسي اليأس تلتطم (٢)

وقد أضفى هذا الشعور الجماعي على الشعر العربي في تلك الفترة قيمة فنية ، تجلت في القوة اللفظية والمعنوية ، الناتجة عن الانتماء الجماعي ، وذلك بالاضافة الى القيمة التاريخية لما قدمه من تصوير المجتمع الاسلامي وعلاقاته الداخلية والخارجية مع الفرنج خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، كما أعطى صورة جيدة عن الحياة الاجتماعية والسياسية عند الطرفين المتصارعين .

وهذه القيم لا تعني أن الشعر أو الادب وثيقة اجتماعية أو سياسية أو تاريخية ، وانما هو فن أو رؤية خاصة للاحداث ، يمكن للدارس من خلالها أن يستخلص استنتاجات متعددة ، ويستفيد معلومات قيمة ، وان كانت هذه كلها ملونة بلون شعوري معين ، يضفيه موقف الشاعر من الأحداث التي يواجهها ويتفاعل معها .

شكل القصيدة :

من نافلة القول أن نتحدث عن شكل القصيدة العربية التقليدي : من وقوف على الاطلال أو ذكر المرأة أو ما يتعلق بها من رحيل وبكاء ، ومن نافلة القول كذلك أن نحاول تفسير هذه الظاهرة ، فقد تصدى لتفسيرها القدماء والمحدثون على السواء (٣) .

---

(١) ديوان ابن عنين ٢٩ ــ ٣٠ (٢) الروضتين ج١ ق ١ ص ١٤١

(٣) انظر على سبيل المثال كتاب د . حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية

وبالرغم عن ثورة بعض الشعراء ، مثل أبي نواس وبشار والمتنبي ، على المقدمات التقليدية ، إلا انهم لم يستطيعوا الاستغناء عنها كلية ... وفي هذا العصر ، نجد ثلاثة أشكال لاستهلال القصائد : أولها : البدء بمقدمات تقليدية ، وثانيها : البدء بمقدمات غير المقدمات التقليدية ، وثالثها : البدء دونما مقدمات ، وسنفصل فيما يلي الحديث عن كل منها ، ثم نتحدث عن اجزاء القصيدة وترابطها :

أولا : المقدمات التقليدية :

لم يقتصر الشعر العربي خلال الحروب الصليبية على وصف الحروب فقط ، وانما قيلت قصائد في سائر أغراض الشعر المعروفة ، ويهمنا من هذه القصائد ما تصدى لوصف الصراع بين المسلمين والفرنج ، أو الشعر الحربي بشكل عام .

ولدى دراسة شعر الحرب ، نجد قصائد معدودات استهلها قائلوها بمقدمات غزلية ، في حين نجد كثيرا من القصائد تدخل في الموضوع مباشرة دون مقدمات ، أو بمقدمات مرتبطة بجو الحرب .

وبما أن القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية قليلة ، فلا بد أن يكون لذلك تفسير ما ، وخير ما نفصل في البحث عن هذا التفسير ، هو أن ندرس جو القصيدة العام والمناسبة التي قيلت فيها ، ولنبدأ هنا بقصيدة لاسامة بن منقذ أرسلها من مصر الى معين الدين أنر حاكم دمشق ، يبين له فيها خطورة انقياده الى وزرائه الذين يزينون له التقرب من الفرنج ، يقول :

وُلّوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا ... فليتهم حكموا فينا بما علموا

. . . .

يا راكبا تقذف البيداء جسرته ... والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلّغ أميري معين الدين مألكة ... من نازح الدار ، لكنّ ودّه أمم *
وقل له أنت خير الترك فضلك ال‍ ... حياء والدين والاقدام والكرم

. . . .

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم ... حتى استوت عندك الانوار والظلم
باعوك بالبخس يبغون الغنى ولهم ... لو أنهم عدموك ، الويل والعدم
والله ما نصحوا لما استشرتهم ... وكلهم ذو هوى في الرأي متهم .. (١)

(*) مألكة : رسالة ، أمم : قريب

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٤٦

ويتضح من القصيدة أن الشاعر بعيد عن معين الدين أنر ، فالأول في مصر والثاني في دمشق ، ولذلك جاء النداء التقليدي " ياراكبا " مرتبطا مع نص القصيدة وجوها العام ، فهو يطالب من المسافر الى دمشق عبر صحراء واسعة أن يبلغ صاحبها أمرا بالغ الخطورة ، وهو نصح حاكم دمشق بأن يبتعد عن أولئك النفعيين الذين يحسنون له التفاوض مع الفرنج . وقد عبّر عن خطورة الموضوع وأهميته بعدة أمور منها ، الرحلة من مصر الى دمشق عبر الصحراء الواسعة ، ثم المسافر الجلد ، والعيس القوية ... ومن هنا يحس القارئ أن المقدمة لها دلالة خاصة ، تستثير القارئ الى أهمية ما يأتي بعدها ، وهو :

بلغ أميرى معين الدين : مألكة   من نازح الدار ، لكن وده أمم
هلا أنفت حياء أو محافظة   من فعل ما أنكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة   ولم يروّ سنان السمهري دم ...

فهو اخبار للأمير معين الدين أنر برسالة مهمة حملت اليه من مكان بعيد ، وهذا البعد يستبعد معه الحسد والبغض لاولئك المعيابين بالاخير ، ولذا ، فالرسالة رسالة ناصح ودود في نفسه تحنان الى وطنه الشام ، ومودة قريبة لصاحبها .

وبعد هذا التقديم الموجز البليغ ، يمدح أسامة " معين الدين أنر " ويضفي عليه صفات البطولة والدين والشجاعة والكرم ، ويحمل بطانته مسؤولية تزيين الاعمال السيئة له ، ويتهمهم بأنهم باعوه بالبخس ، لينالوا الغنى من الفرنج على حسابه .

وهاهنا قصيدة أخرى تبدأ بمقدمة غزلية في قصيدة لعرقلة الكلبي في مدح مجير الدين أبق صاحب دمشق أيضا ، ومطلعها :

عرج على نجد لعلك منجد   بنسيمها ، وبذكر سعدى مسعدى (١)

ونلاحظ أن القصيدة في مدح صاحب دمشق ، والمدح تناسبه المقدمة الغزلية التقليدية ، وكأنها أمر متعارف عليه ، وهذا ما يؤكده أبو الطيب المتنبي في ثورته على هذا النظام يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم   أكل بليغ قال شعرا متيم ؟

وبعد أن يبدأ عرقلة بمقدمة يتغزل فيها بأمرأة بدوية في جنان الشام ينتقل في البيت الثاني عشر من القصيدة الى الاشادة بالممدوح ، ويثني على أفعاله التي يحق لفاعلها الفخر حقا ، فقد أبلى في حرب الفرنج — الذين قصدوا دمشق بأعداد هائلة — بلاء حسنا ، وأظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره " (٢) ، يقول عرقلة الكلبي :

ما نشرت راياته يوم الوغى   الا انطوى جيش العدو المعتدي
من قاتل الافرنج دينا غيره   والنيل مثل السيل عند المشهد

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ص ٢٥ — ٢٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٨

ردّ الامان بكل ندب باسـل ... ومن الجياد بكل نهد أجـرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ... ومن العجاج بكل نقع أسـود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه ... وغدا بحفد من شريعة أحمد
طلق المحيا ، واضح ، متهلل ... مثل الصبا في الحمى ، طلق اليد ...

ويتضح مما مضى أن الشاعر لم يجعل موضوع القصيدة هجوم الفرنج على دمشق وبلاء مجير الدين في صدهم ، وانما كان موضوعها المدح ، ومن خلال المدح عرض شجاعته ودفاعه عن الاسلام ، وكرمه وبشاشة وجهه ...

ولو كان الموضوع هو الحادثة نفسها لوجدنا الامر يختلف ، ولنا من ابن القيسراني مثل على ذلك ، فقد جعل موضوع قصيدته موقعة شبيهة بهذه ، فدخل في الموضوع دون مقدمة غزلية ، يقول :

الحق مبتهج ، والسيف مبتسم ... ومال أعدا مجير الدين مقتسم
قد ت الجياد ، وصنت البلاد وأنصفت العباد ، فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ... معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لامن من الاقبال في عدد ... يؤوده حاسبة الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا ... أمواجه بأواسي اليأس تلتطم (١)

ولدى قراءة القصيدتين نحس بالفرق بينهما ، فقد اختلفتا في البناء والموسيقى لاختلاف طريقة التناول عند كل من الشاعرين .

ومن استقرائنا لعدد من القصائد التي قيلت في المدح ، نستطيع القول إن معظمها يبدأ بمقدمات غزلية .

ومن هذه القصائد المدحية التي ابتدئت بمقدمة غزلية كذلك القصيدة التالية التي مدح بها ابن القيسراني نور الدين ، قال في أولها :

يا ليت أن الصدّ مصدود ... أو لا ، فليت النوم مردود
الى متى تعرض عن مغرم ... في خدّه للدمع أخدود
قالوا: عيون البيض بيض الظبى ... قلت ولكن هذه سود
يخاف منها وهي في جفنها ... والسيف يخشى وهو مغمود (٢)

وبعد هذه المقدمة القصيرة ، يخرج الشاعر الى المدح ، فيصف نور الدين محمودا بالعدل والحفاظ على الاسلام ، والشجاعة في القتال ، ثم يذكر وقعته مع الفرنج في يغرى *

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١
(٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٤١
* وهم أبو شامة أنها بصرى .

وكانت الدائرة فيها على الافرنج ، فيقول :

واما الافرنج من بغيهـــا	عاد وقد عاد لهم بمســود
قد حصحص الحق لما جاحد	في قلبه بأسك مجحـــود
فكل مصر بك مستفتـــح	وكل ثغر بك مسـدود

ويلاحظ القارئ لهذه الابيات أن الوقعة جاءت دليلا على شجاعة نور الدين ولم تكن موضوع القصيدة الاساسي .

أما قصائده الحربية التي تكون الوقعة فيها موضوع القصيدة ، فلم يبدأها بمقدمات غزلية ، ولهذا جاءت خالية من المقدمات ، إلا هذه وقصيدة أخرى سنقف عندها بعد قليل ، وقد لاحظ الدكتور محمود ابراهيم ذلك ، وعدّ قصيدته السابقة خروجا عن عادته في الاستغناء عن المقدمات الغزلية في قصائد القتال (١) .

وفي القصيدة التالية لابن القيسراني ، ورد ذكر الوقعة دليلا على شجاعة نور الدين كذلك ، كما في قصيدته السابقة ، بل ذكر الشاعر في هذه القصيدة عدة وقعات ، لا وقعة واحدة ، وقد جاء في مقدمة القصيدة قوله :

اما وخيال زار من أحبـــه	لقد هاج من ذكراه مالا أغبـــه
اذا ما صبا قلب المحب الى الصبا	ذكرت نسيما بالثغور مهبـــه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجـــة	يحامي عليها مدنف القلب صبـــه
فلا تسألن الصب : أين فؤاده	فان فؤاد المرء مع من يحبـــه
وفي شهب الاكوار من هو عالم	غداة استطار البرق من طار لبـــه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها	سنا بشر نور الدين تنهل سحبـــه

ثم يتخلص الى مدح نور الدين بالكرم وجودة الرأي ، والحفاظ على الاسلام ، ويقدم الادلة على ذلك ، فيقول :

كيوم الرها الورهاء والها يانس	على برعي الهند واني خصبـــه
وشهباء هاجتها وفي مرخديسة	ثنا ءا ، وليل الحرب ينقض شهبـــه
وحارم يوما بالهزيمة فاقتــدت	كوادي ثمود اذ رغا فيه سقبـــه
وعاصي على العاصي بأرعن خاطب	دم الافلة حتى انكم النصل خطبـــه
بأنب لما اكسب المال وانثنى	بصاحب انطاكية وهو كسبه .. (٢) .. الخ

ويستمر في ذكر الادلة على شجاعته وما فعله بالاعداء ، وكلها ترتبط بشخصية القائد نور الدين الذي يستحق الثناء فعلا .

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٠٧

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٨

ويداول بنا المقام لو حللنا بقية القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية ، ولذلك نذكر مطالعها وموضوعاتها ، للاحاطة بها ثم مقارنة عددها بصورة تقريبية بعدد القصائد الحربية التي يمكن أخذ صورة عامة عنها من مطالعة الملحق الشعري .

يقول ابن رواحة الحموي ، وهو من شعراء الشام في مدح صلاح الدين بعد أن رد الفرنج عن دمياط ثم الاسكندرية سنة ٥٧٢ :

أقمت الموت لي رصدا فأخشى زيارته وان يك لم يزرني
كما رصد العدى في كل يوم صلاح الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسرى فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى مناشم ، لو يبيتهم بأمن (١)

ونلاحظ من هذه الابيات حسن تخلصه ويسر انتقاله .

وارسل ابن التعاويذي قصيدة الى صلاح الدين من بغداد يمدحه فيها ، ويهنئه بانتصاره على الفرنج في وقعة مرج عيون مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني فقف المطي برملتي يبرين

ومقدمتها الغزلية طويلة ، ينتقل بعدها الى الوقعة ، فيقول :

كمنوا وكم لك من كمين سعادة في الغيب تظهر من وراء كمين (٢)

ولعل بعد الشاعر عن الحادثة مكانيا وزمانيا جعله ينهج هذا المنهج .

ولما انتهى صلاح الدين من بعض العمليات العسكرية في منطقة انطاكية ، رجع الى حماة ومنها الى حمص ، فأتاه الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي ، وأنشده :

أما وجفونك المرضى الصحاح وسكر مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا كما أصبحت فردا في الصلاح

ثم يذكر اخضاعه للفرنج ، فيقول :

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا مالا يطاق من الكفاح (٣)

وقد مدح العماد الاصفهاني الامير تقي الدين عمر سنة ٥٨٢ بقصيدة مطلعها :

عفا الله عنك ، عن ذوي الشوق نفسوا فقد تلفت منا قلوب وأنفس (٤)

ثم يذكر ذهابه الى تونس ، ووقوفه في وجه الفرنج من هناك ، ثم يتمنى عليه أن يفتح القدس ويطهر البلاد من الرجس .

وقال في مدح حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين (ابن أخت صلاح الدين) يوم فتح القدس :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا (٥)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/٢٩٤ (٢) الروضتين ٢/١٠
(٣) المصدر السابق ٢/١٦–١٧ (٤) المصدر السابق ٢/٧١
(٥) المصدر السابق ٢/٨٨

وهنأ السلطان صلاح الدين بفتوحاته ، فقال :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا وتعتاض من ذكراكمُ وحشتي أنسا (١)

ومن الشعراء الذين استهلوا قصائدهم الحربية بمقدمات غزلية ابن دنينير ، ففي ديوانه عشر قصائد حربية ، ذكر بعضها فور انتهاء المعركة ، فتخلصت من المقدمات ، وقال ستة منها في مدح بعض الحكام والقادة فابتدأت بمقدمات تقليدية .

أما الاولى فهي في العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٤ وهي من شعره في الصبا ، ومطلعها :

إن كان أضمر قلبي عنك سلوانا لا كنت من مغرم صبٍّ ولا كانا (٢)

والثانية في الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني ، ومطلعها :

راح يخشى في حبه الرقباء ويسر الغرام والبرحاء (٣)

والثالثة في مظفر الدين كوكبوري بن علي بن بكتكين ، ومطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالم فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتم (٤)

والرابعة في الملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي ومطلعها :

بما بجفنيك من غنج ومن كحل صل مغرما ليس يصغي فيك للعذل (٥)

والخامسة في الملك الكامل بن العادل ، ومطلعها :

لهم حب قلبي ان تدانوا وان صدوا وان قربوا أو حال دونهم البعد (٦)

والسادسة في الاشرف موسى عند منصرفه من الجزيرة الى الشام ثم الى مصر ، ومطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيد ما بين منعرج اللوى فزرود ؟ (٧)

ومن هؤلاء الشعراء : ابن سناء الملك (٨) ، وفتيان الشاغوري (٩) ، ومهذب الدين سالم بن سعادة (١٠)

* * *

---

(١) الروضتين ٢/١٠١
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٣٨
(٣) المصدر السابق ورقة ١٢٢
(٤) المصدر السابق ورقة ٥٦
(٥) المصدر السابق ورقة ٢٤
(٦) المصدر السابق ورقة ١
(٧) المصدر السابق ورقة ٢٠
(٨) انظر ديوانه ص : ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٥٦١ ، ٥٤٥ ، ٧٥٨
(٩) انظر ديوانه ص : ١٤٨ ، ٢٥٧
(١٠) انظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ١٥٧

المقدمات التي تخلصت من الغزل :

تلك هي المقدمات التقليدية في القصائد العربية ، وهي وان بدت كثيرة (اذ بلغت خمسا وعشرين قصيدة) ، فانها تقل بكثير عن عدد القصائد التي تخلصت من المقدمات التقليدية .

وأما سبب تخلص الشعراء من هذه المقدمات التقليدية بأنواعها ، فلأنهم وصفوا أحداثا مهمة في جو حرارة تلك الاحداث ، فلم يشعروا بالحاجة الى التقديم لها ، لأن هذا التقديم من شأنه أن يضيع حرارة الانفعال ، ويبدد الاندفاع الشعوري ، ولهذا تعدد تبدايات هذه القصائد عند الشاعر الواحد ، وعند الشعراء المختلفين على السواء .

ولنأخذ مثالا على هذه القصائد ، قصيدة أبي المظفر الابيوردى ، التي قالها اثر سقوط القدس بيد الفرنجة سنة ٤٩٤ ، وفيها يتفجع ، ويقرع ، ويدعو الى الاستيقاظ ، ويأمل في الانتقام من المعتدين ، يقول :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام ، ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم؟
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم (١)

وهكذا تمضي بقية القصيدة : انفعالات متأججة صادرة عن نفس متحرقة متحسرة تعتب على النيام ، وتدعو الى دفع الاخطار قبل تفاقمها ، ولذا جاءت القصيدة في موضوع واحد ، وابتدأت باستهلال حزين مؤثر ، يعبر عن مشاعر أمة أضعفتها الخلافات وأوهنها التمزق .

ولعل القصيدة الثانية التي لم يذكر اسم قائلها ، تعبر عن مثل هذه المواطف ، وقد جاء فيها :

أحل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب

الى أن يقول :

أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين اذن يطيب
أما لله والاسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

---

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٢٦ ، الكامل ١٠/ ٢٨٥ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١

(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١

ولم يكن هذا الحزن والبكاء مرتبطا ببداية المد الصليبي فقط ، إذ إنه بعد أن انفرط عقد الدولة الايوبية ، وتحارب الاخوة ، واستنجد بعضهم بالفرنج مقابل التنازل عن القدس ، فعادت رنة الحزن والالم ، كما كانت أو أشد ، لأن من الصعب على الانسان أن يتحمل الضياع والهزيمة بعد القوة والنصر ، ولذلك كانت قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس زمن الملك الكامل الايوبي ، أشد وقعا وتأثيرا على النفس من القصائد التي قيلت بعد سقوط القدس بيد الفرنج للمرة الاولى ، يقول ابن المجاور :

أعينيّ لا ترقئ من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت باوكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الاقصى الذى جل قدره ... على موطن الاخبات والصلوات (١)

وتستمر القصيدة في هذا التدفق العاطفي الحار ، الصادر عن نفس متألمة حزينة

وفي غمرة الاحزان والضياع ، في بداية الحروب ، وقف بعض الامراء في الثغور موقفا مشرفا ، ومنهم الامير مجد الدين عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق ، كما وقف الادب مع هؤلاء يحضهم ، ويقوى من عزيمتهم ، فهذا ابن الخياط يحرض الامير المذكور على الجهاد ، فيقول في مطلع قصيدته :

تدتك الصواهل قبا وجردا ... وشم القبائل شيبا ومردا
وذلت لاسيافك البيض قضبا ... ودانت لأرماحك السمر ملدا
وقل لمن قام في ذا الزمان ... مقامك أن بات بالخلق يفدى
ألست أبر البرايا يدا ... وأندى من المزن كفا وأجدى
وأمضى حساما وأوفى ذماما ... وأحمى غماما اذا الغيث أكدى (٢)

والمتتبع لنص القصيدة يلاحظ أن موضوعها واحد ، وهو في استعراض أحوال المسلمين على ضوء الخطر الصليبي ، وتحريض البطل كي يقف في وجه الغزاة ، ولذا جاء مطلع القصيدة حماسيا في معانيه وألفاظه وموسيقاه ، ثم أخذت النبرات الحماسية تتحول الى تعداد صفات القائد ، وما لبثت أن عادت مرة ثانية حين نبه الشاعر الى الاخطار المحدقة بالمسلمين ، واستحثهم على العمل ، وحرضهم على الجهاد .

وقد وفق الشعراء باستهلال القصائد الحربية بما يتفق والجو الحربي الحماسي ، وقد اختلفت المقدمات من قصيدة الى اخرى ، ومن شاعر الى آخر ، ولكن ذلك لا ينفي أن يكون لهذه المقدمات صفات مشتركة تلتقي عندها ، ومن هذه الصفات ابتداؤها بضمير الشأن ، وهو من الضمائر التي تفيد التفخيم الذى يتناسب والجو الحماسي .

---

(١) الروضتين ٢/ ٢٠٥
(٢) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ــ ١٨٤

ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت في الافضل مقدم الجيش المصري :

هي العزائم من أنصارها القـدر ... وهي الكتائب من أشياعها الظفـر
جردت للدين والاسياف مغمدة ... سيفا تفل بهالاحداث والغيـر
وقمت اذ قعد الاملاك كلهـم ... تذب عنه وتحميه وتنتصـر
بالبيض يسقط فوق البيض أنجمها ... والسمر تحت ظلال النقع تشتجر (١)

ومنه أيضا قول ابن القيسراني في فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ :

هو السيف لا يغنيك الا جـلاده ... وهل طوق الاملاك الانجـاده
ومن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبي ... سناها وان فاتالعيون اتقـاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده (٢)

وكثيرا ابتداؤهم بأسماء الاشارة : وهي تفيد جلب الانتباه لامر جليل ، ومن ذلك قـول ابن القيسراني في انتصار نور الدين على الفرنج في منطقة انطاكية :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتـب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبـت ... تعثرت خلفها الاشعار والخطب (٣)

وقول الرشيد بن بدر النابلسي في فتح القدس :

هذا الذي كانت الآمال تنتظـر ... فليوف لله أقوام بما نـذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر أخبار ولا سير (٤)

وكثيرا ابتداؤهم بأدوات الاستفتاح والتنبيه والتساؤل ، وهي تفيد ما تفيده اسماء الاشـارة من جلب الانتباه لامور ذات خطر ، يقول طلائع بن رزيك مفتخرا بأعماله ضد الفرنج ومحرضا نور الدين على قتالهم :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم ... وتمضي لدى الحرب السيوف الصـوارم
وتستنزل الاعداء من طود عزهـم ... وليس سوى سمر الرماح سلالـم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها ... ويوطا حماها والانوف رواغـم
ويأبى الكرام الناذرون بذلهـم ... وان بذلت فيها النفوس الكرائـم (٥)

ويقول ابن القيسراني في فتح الرها :

أما آن ان يزهق الباطـل ... وأن ينجز العدة الماطـل
الى كم يغب ظباه الصـلا ... ل سيف بأعناقها كافـل
فلا تجفلن بصوت الذ ... ب ، وقد زأر الاسد الباسل (٦)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ١٦٥   (٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٢ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦
(٤) " نفسه ٢/ ١١٨
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٥ ، والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٦) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ١٠٨ ، والروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦

ويقول ابن دنينير في تخليص دمياط من الفرنج بعد اجتماع الجيوش الشامية والمصرية بقيادة الاخوة ابناء العادل ورئاسة الكامل :

هل قد بلغت الذي قد كان ينتظر   الله أكبر هذا النصر والظفر
قد صرح الخبر منك اليوم عن خبر   قد كان أنظار فيه نفسه النظر (١)

وقد يكون التساؤل لعظم النصر ، الذي يبهر العقول ، ويأخذ النفوس ، ويبعث الحيرة في النفس ، حتى ليتحير الشاعر ، وهو يتلمس الشيء الذي ينبغي أن يهنيء به ، يقول الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصر   القدس تفتح والفرنجة تكسر؟
وقمامة قمت من الرجس الذي   بزواله وزوالها يتطهر
وطيكهم في القيد مصفود ولم   ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشام وطهر القدس الذي   هو في القيامة للأنام المحشر (٢)

ويحس المرء حين قراءة الابيات أنها تعبر عن فرحة غامرة استولت على المشاعر والالباب ، فجاءت الحيرة ممزوجة بالفرحة ، ومعبرة عن هذا الشعور الدافق ، يقول ابن سناء الملك مخاطبا صلاح الدين بعد الفتوحات الكبرى :

لست أدري بأي فتح تهنى   يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول اني أولى   وهو أولى لانه كان أهنى
أنهنيك اذ تملكت شاما   أم نهنيك اذ تملكت عدنا ؟ (٣)

ومنها ابتداؤها بـ "كم" الخبرية ، وقد قصد بها التكثير ، وذلك للمبالغة في عدد الضربات التي أنزلها القادة المسلمون بالفرنج ، يقول العماد في هزيمة الفرنج على أبواب دمشق على يد نور الدين :

كم وقعة لك في الفرنج حديثها   قد سار في الافاق والبلدان
. . . .
قمصت قومصهم رداء ردى   وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم   بالذل في الاقياد والاشجان (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم لك فتح غير هذا خبي   فاستوف فتح الارض واستوعب

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤
(٢) الروضتين ٢/١٠٥
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٤) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٥٥

يا فاتح الحصن الذى تقصده | يأتي به شكرك من يثرب
حصن عظيم القدر في سيرة | لمن مضى قبلك لم يكتب (١)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح الحصن المذكور :

كم رام قبلك هذا الحصن من ملك | فطال عنه وما في باعه قصر
فرّ الاعادى حلم تحته هممم | لاشقر البرق من تجحيلها غرر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى | ماء المجرة في أرجائها نهر (٢)

ومنها ابتداؤها بالاستهزاء والتشفي ، والمستهزئ يكون عادة في مركز القوة ، حتى يستطيع أن يهزأ بالعدو ويزري بقوته ، وهذا من مستلزمات الحرب النفسية ، التي كانت وما تزال ترافق حرب السلاح ، يقول ابن منير في انتصار نور الدين على الفرنج في حصن فامية :

خنس الثعالب حين زمجر مصحر | ملأ البلاد همامها وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق | جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فتكاته | كالراء يلزم لفظها التكريرا (٣)

ويقول ابن مطروح في كسرة ملك فرنسا على دمياط :

قل للفرنسيس اذا جئته | مقال صدق من قؤول نصيح
آجرك الله على ما مضى | من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغي أخذها | تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم | ضاق به عن ناظريك الفسيح (٤)

ومن التشفي قول العماد في ملك الفرنج :

في باطن الغيب ما لاتدرك الفكر | فذو البصيرة في الأحداث يعتبر
مالي أرى ملك الافرنج في قفص | أين القواضب والعسالة السمر ؟ (٥)

ومنها ابتداؤها بذكر السلاح وأدوات القتال : وهي مرتبطة بجو المعركة أشد ارتباط ، لانها عنصر أساسي من عناصر القوة في الحرب ، كما أنها تثير مكامن القوة عند تصورها ، وادراك مفعولها ، يقول ابن القيسراني في هزيمة الفرنج امام نور الدين في يغرا :

تفي بضمانها البيض الحداد | وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ | فوارس من عزائمها الجلاد (٦)

---

(١) تشريف الايام والعصور ٨٢
(٢) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ١٢٥ ، وانظر مثلا آخر من ديوان علم الدين ابن محمد الصحيوى ص ١٥
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٢
(٤) ديوان ابن مطروح ١٨١
(٥) الروضتين ٢ / ١١٦
(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦

ويقول ابن منير في هزيمة الفرنج في حصن فامية على يد نور الدين :

أسنى الممالك ما أطلت منارها ... وجعلت مرهفة الشفار دثارها (١)

ويقول ابن أسعد الموصلي في مباغتة الفرنج للمسلمين قرب حصن الاكراد ، وسيطرتهم على الموقف ، واصرار نور الدين على الأخذ بالثأر :

دأبي المواضي وأطراف القنا الذبل ... ضوا من لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله ... عز وعزم وبأس غير منتحل (٢)

ونلاحظ أن هذه القصيدة في معركة خسرها المسلمون ، ومع ذلك فهي تتفجر قوة ، لان الشاعر يتهدد هؤلاء المنتصرين ويتوعدهم في يوم قريب ، فنور الدين لن ينام عن ثأر ، وقد حقق ثأره من الفرنج فعلا ، اذ هاجمهم بعد وصول الامدادات اليه ، وانتصر عليهم ، فعقب العماد على هذه القصيدة بقوله : " وهذا أحسن ما سمعته من مدح من كسر وعذر ، ولقد وافق العذر ما ذكر ، وانتصف بعد ذلك وانتصر " (٣)

ويقول ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط سنة ٦١٨ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا (٤)

ومنها ابتداؤها بالدعوة الى الوحدة والجهاد : ويتطلب ذلك قوة في التعبير ، وقدرة على التأثير ، اذ ان الصياغة الفنية هي التي تكسب الكلام سمات القوة والتأثير ، ومن ذلك طلب المهذب بن الزبير من طلائع بن رزيك أن يعمل للجهاد بالتعاون مع نور الدين ، يقول :

أعلمت حين تجاور الحيان ... أن القلوب مواقد النيران
يا كاسر الاصنام ، قم فانهض بنا ... حتى تصير مكسر الصلبان
فالشام ملك قد ورثت بلاده ... عن قومك الماضين من غسان
واذا شككت بأنها أوطانهم ... قدما ، فسل عن حارث الجولان

الى أن يقول :

وأعد ترسل ابن القسيم اليه في ... شعبان كي يتلاءم الشعبان
والفأل يشهد في اسمه أن سوف يغدو الشام وهو عليكما قسمان (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٠
(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢ ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٢٠
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢
(٤) ديوان ابن عنين ص ٣٠
(٥) الروضتين ١٤٧/١

ومنه أيضا، تحريض ابن دنينير لأمراء العسكر والأجناد على القتال عقيب هزيمتهم عن دمياط، وقد وصل الملك المعظم عيسى من دمشق لنجدة أخيه الكامل محمد، يقول ابن دنينير :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا ... فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
فريق الهدى، والله يظهر دينه ... على دين من قد أشركوا وتمردوا

ثم يقول :

فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد
فشنوا لدين الكفر غارات معشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد (١)

ومما يدخل في هذا كذلك، ابتداء القصائد بالتحذير والتهديد، كقول ابن القيسراني :

حذارها، وأنى ينفع الحذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر، لا بل جنده القدر (٢)

ويلاحظ القارئ لهذه القصيدة الحرارة الوجدانية الشديدة، وتزاحم الانفعالات فيها، وامتزاج التحذير بالتهديد، والاستحثاث والفخر ... ومنها ابتداؤها بذكر نتيجة المعركة، أو باستبشار الشعراء بالنتيجة التي يتمنونها، وبيان أن النصر لا يتحقق بيسر وسهولة، وانما يحتاج الى جهد كبير، والى صبر وعمل، اضافة الى ارتقاب عون الله لمن يجاهدون في سبيله. يقول العماد في امتلاك أسد الدين شيركوه مصر وطرد الفرنج عنها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
هذي العلى التي تزهى الملوك بها ... وهي المآثر لا المأثور في الكتب
فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ... ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (٣)

وفي زمن قلاوون، قال بدر الدين المنبجي البزاز في فتح طرابلس :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب ... ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة ... منك الجيوش على الأعداء بالرعب
فالله جارك أنى سرت من ملك ... وناصر لك من ناء ومقترب (٤)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٣) الروضتين ١/١٥٩، تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٤٥
(٤) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ص ٧٤٤

وقد قرن الشعراء في شعرهم الجد الانساني بالعون الالهي ، وافتتحوا بعض قصائدهم بهذا المعنى ، يقول الجويني في فتح القدس :

لك رب السماء خير معيـــن   وكفاه بما تحب ضميــــن
فلــه الحمد أي نصر عزيـــز   قد حبانا به وفتح مبـــين (١)

ويقول أيضا :

جند السماء لهذا الملك أعوان   من شك فيهم فهذا الفتح برهان (٢)

ويقول ابن عبد الظاهر في معركة حمص التي دارت بين المسلمين بقيادة المنصور قلاوون من جهة وبين الفرنج والتتار من جهة أخرى :

الله أعطاك لا زيد ولا عمـــرو   هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به   لم يبق ، والله ، لا شام ولا مصر (٣)

وقد بدأ بعض الشعراء قصائدهم بالحديث عن النصر بلفظه المباشر، ومن هؤلاء ابن دنينير اذ يقول في استرداد دمياط :

نصر من الله وافانا به الخبـــر   فلتهنك العزة القعساء والظفر (٤)

ويقول علم الدين بن الشاتاني في صلاح الدين :

أرى النصر معقودا برايتك الصفرا   نسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى
يمينك فيها اليمن ، ويسراك في اليسرى   فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرى (٥)

وقد حمد بعض الشعراء في مقدماتهم القادة ، وبينوا للناس أن طاعتهم واجبـــة ، لانهم دافعوا عنهم ، وعن معتقداتهم ، يقول شهاب الدين محمود في المنصور قلاوون حين فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكـــر   لأنك للاسلام يا سيفه ذخـــر
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا   الى من له في أمر نصرتك الامـــر
ولله في اعلاء ملكك في الــورى   مراد وفي التأييد يوم الوغى ســـر
نهضت الى عليا طرابلس الـــتي   أقل عناها أن خندقها البحـــر (٦)

---

(١) الروضتين جـ٢ ص ٩   (٢) المصدر السابق ٢ / ١٠٤
(٣) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ص ٦٧٧   (٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢١
(٥) مرآة الجنان ٣ / ٤٩٦
(٦) درة الاسلاك ورقة ١٤٥ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٣ ـ ٣٢٤

ومنها المقارنة بين حالة المسلمين وحالة الفرنج ، ويكون ذلك عادة حين تكون كفة المسلمين هي الراجحة ، وهذا يجعل المقدمة مرتبطة بموضوع القصيدة .
يقول ابن القيسراني في كسرة الفرنج على أبواب دمشــــق :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال أعدا مجير الدين مقتسم
قدت الجياد ، وحصنت البلاد وأمضيت الجهاد فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها معاقد الحزم في أوساطها الحزم (١)

ويقول ابن منير في انتصار نور الدين على صاحب انطاكية :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده من بعد ما غلبت دما عبراته (٢)

ويقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

بدولة الترك عزت دولة العرب وابن أيوب ذلت بيعة الصلب (٣)

ومنها التهنئة والدعاء : وهو نوع من أنواع المقدمات التي ترتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا ، فكان الشعراء يقدمون التهنئة بعد انجلاء الحرب عن النصر ، بأسلوب يختلف عن تقديمهم لقصيدة في ذكر الاحداث الحربية . ومن هذا الاختلاف ، نجد قوة التعبير ماثلة في القصيدة ، وهذا أمر طبيعي ، لان التهنئة مرتبطة بالنصر ، والنصر يحمل معاني القوة ، يقول الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان المراقي في تهنئة صلاح الدين بالنصر على الفرنج في بيت الاحزان :

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر ونيل الاماني الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا وحسن ثناء يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا سمو أبي لا ينام على وتر (٤)

وقد افتتح راجح الحلي قصيدته باللفظة نفسها ، والتي ابتدأ بها ابن نبهان المراقي ، وذلك حين انتصر الملك الاشرف موسى ، وأخوته على الفرنج في دمياط ، ولعل جو الفرح أملى عليه كما أملى على سابقه هذه المقدمة ، يقول :

هنيئا ، فان السعد راح مخلدا وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنا مبينا ، وانعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا (٥)

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١ (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٦
(٣) الروضتين ٢/ ٤٣ (٤) المصدر السابق ٢/ ١٢
(٥) الذيل على الروضتين ١٣٠ ، البداية والنهاية ١٣/ ٩٥ ، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤١

وما يتصل بهذا الجانب البدء بالبشرى ، يقول شرف الدين الانصاري مبشرا الملك المظفر تقي الدين بن المنصور صاحب حماة بانتصاره على الفرنج في منطقة حصن الاكراد :

أبشر بما شئت من نصر وتأييد   فسناك يروي حديث البأس والجود (١)

وهناك صور أخرى ابتدأ بها الشعراء قصائدهم بمقدمات تتفق مع موضوع القصيدة الحربي كأن تبدأ بالتكبير أو بالجمل الاخبارية القوية الالفاظ ، ومن ذلك قول العماد في فتوح صلاح الدين :

أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم   من غير تيه بها سلوى وامتنان
لهم فلسطين ءان يخرج عداتهم   عنها والا عدت بيض وخرصان (٢)

ومنه قول شهاب الدين محمود في فتح حصن المرقب :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر   هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذى كانت الامال ان طمحت   الى الكواكب ترجوه وتنتظر
فأنهض ، وسر ، والملك الدنيا فقد نحلت شوقا منابرها وارتاحت السور (٣)

وأما الجمل الخبرية القوية ، التي بدأت بها القصائد الحربية فهي كثيرة منها قول ابن قسيم الحموى في عماد الدين زنكي :

بعزمك أيها الملك العظيم   تذل لك الصعاب وتستقيم
اذا خطرت سيوفك في نفوس   فأول ما يفارقها الجسوم (٤)

ومنها قول أسامة بن منقذ الموجه الى طلائع بن رزيك على لسان نور الدين :

أبى الله الا أن يكون لنا الامر   لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
وتخدمنا الايام فيما نرومه   وينقاد طوعا في أزمتنا الدهر (٥)

وقد يقول قائل : إن هذه القصائد قد خلت من المقدمات الغزلية ، ومع ذلك فان فيها مدحا للقائد ، وهذا صحيح ، ولكن المدقق في موضوع القصيدة يجد أن موضوعها يدور حول حادثة أو حوادث ، يدللها القائد المدوح فهو عنصر هام فيها ، ولكن الحادثة هي محور القصيدة ، بينما لاحظنا في القصائد ذات المقدمات التقليدية أن القائد هو موضوع القصيدة ، والحادثة أو الحوادث فيها إنما أوردت باعتبارها أدلة على شجاعته .

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ص ١٧٨
(٢) الروضتين ٢/١١٦   (٣) النجوم الزاهرة ٧/٢١٧ - ٢١٨
(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ١/٤٧٠ ، والروضتين ١/٢٢
(٥) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١

ثالثا : المقطعات الشعرية :

تدور المقطعات الشعرية حول حادثة واحدة ، وموضوع واحد ، وقد تستوعب عشرة أبيات أو أقل ، أو أكثر من ذلك بقليل ، ولهذه المقطوعات دلالات خاصة بها ، اذ ان الوقت الذي نظمت فيه لا يسمح بإنشاء قصيدة طويلة ، فتكون المقطوعة الشعرية كالخاطرة أو كالدفقة الشعورية الحارة ، لان موضوعها واحد مثير ، والاستثارة تتباين أشكالها بتباين الموضوعات ، فالحزن غير الفرح ، والفرح غير المدح ... وهكذا .

وفيما يلي أمثلة منوعة على المقطعات الشعرية ، حسب نوع الانفعال المضمن فيها :

١ . سجلت المقطعات الشعرية الحزن الذي عاشه المسلمون ، لسقوط البلاد الاسلامية بيد الفرنج ، ومن ذلك المقطوعة التي نسبت الى مجهول في سقوط القدس ، والتي مطلعها :

أحل الكفر بالاسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب (١)

والقارئ لهذه المقطوعة يلاحظ أنها نفثة شعرية صادقة ، تنبعث من نفس حزينة لما أصاب المسلمين من ذل وخسارة وهوان ، وفي روح ثائرة تستصرخ المسلمين جميعا لكي يدافعوا عن دينهم وأعراضهم .

ومن هذه الخواطر الشعرية قول المعري أبي بشر بن الحواري في خراب معرة النعمان ، وقد استوحى الصورة من خراب داره بعد هجوم الفرنج على مدينة المعرة :

أهذي بين الذكرى وعرفاني مسارب الوعظ أم داري وأوطاني؟
جهاتها ولقد أبدت ملاعبها عهد الصبا بين أخواني وخلاني
فصحت أسأل بالندمع منسكب والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت قدما بجيرة نعمان ونعمان
وفي مدائن نو شروان معتبر للسائلين وفي سيف وغمدان
فاذهب لشأنك فالدنيا لنا دول تمضي وتأتي وكل بينها فان (٢)

إن القارئ لهذه الابيات ليحس كأنها كتبت بدموع الشاعر لا بمداده ، وهذا الحزن الذي تعبر عنه أبيات المقطوعة ، هو حزن جماعة الناس من البلد المنكوب لا حزن شاعر فرد فحسب ، ويؤكد ذلك ما وجدناه من مقطعات أخرى لشعراء المعرة ، ومنهم أبو سلامة محمود بن داوي الذي يقول :

أنا دون بلدة قضى الله بأن ... ح عليها كما ترى بالخراب
قتلوا أهلها وأدنوا ... من شيوخ وصبية وشباب (٣)

---

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٨٧/٢

(٣) المصدر السابق ١٠١/٢

ومنهم دحية بن عبد الله بن نصر الذي يقول :

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ ـه عليها كما ترى بالخـراب
وقف العيس وقفة وابك من كا ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليهـا فهي كانت منازل الأحباب (١)

ولو تجاوزنا هذه الفترة التاريخية الى زمن الكامل بن العادل لوجدنا النفحة الحزينة تنبعث ثانية ، لسقوط القدس بأيدي الفرنج . وفي هذه الحادثة المؤلمة يقول قاضي الطور :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع وأنجـم
ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه وشمر عن كفي لئيم مذمـم
فقلت له شلت يمينك خلهـا لمعتبر أو سائل أو مسلـم
فلو كان يفدى بالنفوس فديتـه بنفسي ، وهذا الظن في كل مسلم (٢)

٢ . وقد شارك الشعراء بمقطعاتهم الشعرية في تقريب وجهات النظر ، ورأب الصدع ، فحين تأكدت الوحشة بين نور الدين وقلج أرسلان السلجوقي ، أرسل طلائع الى نور الدين يقول :

نقول ولكن أين من يتفهـم ويعلم وجه الرأي ، والرأي مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها يوفق للأمر الذي هو أحـزم
وما أحد في الملك يبقى مخلدا وما أحد مما قضى الله يسلـم
أمن بعد ما ذاق العدى طعم حربكم بغيهم ، وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم وفيكم من الشحناء نار تضـرم
أما عندكم من يتقي الله وحده أما في رعاياكم من الناس مسلـم
تعالوا لعل الله ينصر دينـه اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـم
وننهض نحو الكافرين بعزمـة بأمثالها تحوى البلاد وتقسم (٣)

٣ . وقد تطرق الشعراء في مقطوعاتهم الى الموضوعات العامة من فخر ومدح ووصف ، ولكن الفرق بين القصائد والمقطوعات ، أن الاولى أطول من الثانية ، ولذا فقصد يتراوح الانفعال فيها بين القوة والضمور ، فضلا عن أن القصائد قد تحتوي عدة موضوعات ، في حين أن المقطعات تنبثق عادة عن انفعال شديد يصاغ في أبيات قليلة ، فلا تجد فيها الذبذبة الشعورية التي قد نجدها في القصيدة الطويلة .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/٢٠٠
(٢) شذرات الذهب ٥/ ٦٦
(٣) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ ، والكامل ١١/ ٢١٨

٤٠ وقد عبرت بعض المقطوعات عن الأماني الكامنة في النفوس ، فقد احتوت كتب الأدب عدة روايات تذكر أن بعضهم قد رأى في المنام قائلاً يقول شعرا أو يبشر بالفتح وانتهاء الأسر ، كتلك التي سمعها أحدهم في منامه تبين استرداد دمياط :

لا تيأسن لعسرة فوراءهـا ... يسران وعد ليس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها ... لله في أعطافها ألطاف (١)

ومنها ما قيل عما سمعه البوصيري في منامه من نشيد قبل فتح عكا ، جاء فيه :

قد أخذ المسلمون عكا ... وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم ... خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ... لا تركوا للفرنج ملكا (٢)

ومما يندرج تحت هذا ، تلك المقطعات التي كانت تكتب على الجدران ، ومنها ما وجد مكتوبا على عضادة محراب المسجد في الرها :

أصبحت صفرا من بني الأصفر ... أختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف حال بسمه ... ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني ... لولا جمال الدين لم أطهر (٣)

وجمال الدين هذا هو الذي شجع عماد الدين زنكي على فتح الرها ، وشبيه بهذا ما وجد مكتوبا على باب كنيسة في عكا :

أدمى الكنائس إن تكن عبثت بكم ... أيدي الحوادث أو تغير حال
فلطالما سجدت على أبوابكم ... شم الانوف جحاجح أبطال
صبرا على هذا المصاب فإنه ... يوم بيوم والحروب سجال (٤)

ولا بد أن القارئ لاحظ أن معظم هذه المقطعات لم يعرف اسم قائلها ، وهذا يعني أن الشاعر غير مشهور ، وأنه قد انفعل مع الاحداث التي عبرت به ، فعبر عنها بلفظ موجز ملتهب ، فحفظ القول ونسي القائل ..

ولا بد كذلك أن يلاحظ في هذه المقطعات سهولة الألفاظ ، وقرب المعاني وخلوها من التقليد الذي قد يذهب بحرارة القول .

---

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩
(٢) ديوان البوصيري ٢٣١
(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٥
(٥) درة الاسلاك ورقة ١٦١ ، وجواهر السلوك ورقة ٤٨

بناء القصيدة :

اتضح من خلال الحديث عن مقدمة القصيدة أنها أتخذت ثلاثة أشكال عامة • فالقصيدة التي تبدأ بالغزل يتحدث فيها قائلها عن المرأة • ثم ينتقل الى الممدوح • ويذكر صفاته • ويدلل على شجاعته بأمثلة عملية مرتبطة بالتصدي للفرنج • ثم يختم قصيدته بالمدح • وقد يبين للممدوح قيمة قصيدته بأن يمجد فنه الشعري •

وغالبا ما تكون القصيدة التي من هذا النوع طويلة • وقد تصل أحيانا الى مائتي بيت كما عند العماد ••• ولنأخذ مثلا شعريا واحدا على هذا النمط من القصائد ولتكن للشاعر ابن دنينير (١) • يقول هذا الشاعر في مدح الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل • ويذكر نزول الفرنج على دمياط :

لهم حبّ قلبي إن تدانوا وإن صدوا ... وإن قربوا أو حال دونهم البعد
صبابة قلب قد تفرد بالأسى ... بهم حين أقوى منهم العلم الفرد
أقم مأتم الأشواق ان كنت ذا هوى ... يرنحه بان ويذكره رند
فقد هب من أرض العراق نسيمه ... تضوع في أرجائها الطلك والند
فقوا بالحمى النجدي نزجي طلائحا ... من الشوق يحدوها من الوجد ما يحدو
وان رمتم وردا فيها فيض عبرتي ... لميكم إن مسها ظمأ ورد
فلي بين هاتيك القباب خريدة ... يطالبني في كل وقت بها الوجد
أحن اليها ما تألق بارق ... حنينا يُرى للنار من حره بسرد
ويطربني أن قام بالدوح نائح ... على عذبات البان من شجوه يشدو
سقى الله نجدا ما حللتم بأرضها ... فان غبتم عنها فلا سقيت نجد
جحدت الهوى خوف الوشاة فأعربت ... دموعي بما ألقى ولم ينفع الجحد
واني وان قامت قيامة عذلي ... على كل حال لهم لي منكم بد
أرى كبدي مصدوعة بعد بعدكم ... وفي كل عضو من فراقكم كبد
وما أنا بالباغي سواكم لخلة ... وان أسعدت سعدى وإن وصلت هند

فهو يبدأها بالغزل التقليدي • اذ يبكي على فراق الأحبة كلما هب النسيم أو لاح بارق من أرض العراق • ثم يأتي بالصورة التقليدية : صورة الظعائن • وما يكتنف الرحيل من حزن وحنين • ثم يلتقل الى مدح الملك الكامل • فيقول :

وركب تداعوا للسرى ثم انبرى ... ليبغي القرى بعد الهدى ، ذلك الوفد
فقلت لهم والليل طلق جرانه ... وقد ستر الآفاق من جنحه برد
فقوا حيث أنوار الهدى كاطمية ... ونار الوغى والمشركون لها وقد
فثم ترى الاسلام يسفر وجهه ... سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو
فلولا سمي المصطفى ووليه ... وهى الدين بل كادت قوى الحق تنهد

(١) ديوان ابن دنينير ورقه ١ ـ ٣

فما صافحت بيض الصفاح كفه ولا حملت ذاك المطهمة الجرد

ويستمر الشاعر في مدحه ، ثم يذكر ما قام به في الذود عن الاسلام ... وقد يكون من المفيد أن نتلمس علاقة المقدمة بالموضوع ، فابن دنينير كما يلاحظ من قصيدته ترك العراق، وجاء الى أرض الشام ، ثم الى مصر ليجد حظوة يتخلص بها من الفقر الذى لازمه ، فهو لم يعرض في حديثه عن الحب والشوق إلا للاسى والالم والدموع ، (الابيات : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٣) ثم ينتقل الى الممدوح فتذهب نبرة الحزن ، وتحل محلها نبرة القسوة ، ويستبدل بالصوت العاطفي الشجي ، صوتا هادرا قويا ، ويتصاعد هذا الصوت حتى يبلغ الذروة في الابيات التالية :

فقل لملوك الخافقين اليكم عن الملك أو سُدّوا من الأمر ما سدوا
مليك الورى أين الملوك عن الذى تصديت فيه للندى حين ما صدوا
أيطمع أقوام بنعمة عيشة متى عطشوا ، فالموت دونهم ورد
إلام التمادى والفرنج بجمعهم على جيد دمياطٍ كما أنتظم العقد
فوالله ثم الله حلفة صادق حشاه حشايا ملؤها الغيظ والحقد

لما طاب سكنى طيبة ، ولقد نبا بجنب النبي المصطفى ذلك اللحد

ثم تلين النبرات عندما ينتقل الشاعر الى طلب الرعاية من الممدوح ، فيقول :

ولست أرجّي غير خدمتك التي يتم بها بين الورى غد السعد
تركت بلادى ، وارتحلت أريدكم فدونك فضلاً حال عن جزره المد

ثم يختم القصيدة بمدح شعره ، فيقول :

فخذ ، واستمع مدحا تمد لسواه يد الدهر يرويه لرونقة الضد

ويلاحظ أن القصيدة تدور حول محور واحد ، وان تعددت جزئياتها ، فالبكاء والحزن ناشئان عن فقر الشاعر ، وذكر الظعائن يمثل الارتحال الى الممدوح للتخلص من الفقر ، اذ ان الممدوح يتصف بالكرم الى جانب الشجاعة وصفات عظيمة أخرى من أعمال الجهاد ومقارعة العدو ...

أما القصيدة التي تخلصت من المقدمات الغزلية فنجد طابع القوة فيها من البداية حتى النهاية ، وهي تدور حول بطل المعركة وحوادثها ، فتمجد القائد ، وتضفي عليه صفات القوة والعظمة ، أو تتحدث عن وقائع المعركة وجوها وأسلحتها ، أو تشيد بالنصر وتندد بهزيمة الفرنج .

ولنأخذ مثلاً غير منتقى على هذا الجانب وهو قصيدة ابن الساعاتي في فتح طبرية ، يقول :

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما يعزّ على العوالي أن يهونا

يقاتل كلّ ذى مُلْك ريــــاء | وأنت تقاتل الاعداء دينــــا
غدت في وجنة الأيام خالا | وفي جيد العلى عقدا ثمينــــا
فيا لله كم سرّت قلوبــــا | ويا لله كم أبكت عيونا ... (١)

تبدأ القصيدة بذكر النتيجة وهي الفتح ، واستقرار نفوس المسلمين باسترداد ما سلب من حقهم ، فهم في تلهف لرؤية المدينة المستردة ، واستنشاق هوائها . اذ ان للنصر عذوبة خاصة ، لأن استرجاع المدينة لم يكن أمرا سهلا ، أو بلا ثمن ، فالمدينة حصينة ، تردّ المهاجمين ، وكأنها المرأة العفيفة المحصنة ، التي تتأبى على الرجال فهل تترفع عن أكف اللامسين . ومع ذلك فان الإعداد السليم ، والتضحية ، جعلا هذه المدينة تلين ، وتفتح ذراعيها للقائد المجاهد ، إعجابا به ، وتقديرا له :

وما طبريّة الا هـــــــــديٌّ | ترفّع عن أكف اللامسينـــــا
حصانُ الذيل لم تقذف بســـوء | وسل عنها الليالي والسنينــــا
فضضت ختامها قسرا وســـن ذا | يصدّ الليث أن يلج العرينـــا
لقد انكحتها صمّ العوالـــــي | نكان نتاجها الحرب الزبونـــا
هناك ندىً أهل الارض طـــرّا | سواك ومعقل أعيا القرونـــا
قست حتى رأت كفّا فلانــــت | وغاية كل قاس أن يلينـــا

ثم ينتقل الشاعر الى ذكر أهمية الفتح للمسلمين ، وخطورته على الفرنج ، فتستولي عليه الفرحة ، ويطير من بلد مفتتح الى آخر ثم يختمها بالثناء على هذا البطل القائد ، فيرى فيه أعظم الابطال ، وان كان آخرهم زمنا ، ممثلا أن محمدا عليه الصلاة والسلام أعظم الانبياء وان كان خاتمهم :

وان تك آخرا وخســــاك ذم | فإن محمدا في الآخرينـــــا

وهي خاتمة رائعة لحادثة رائعة ...

* * *

أما المقطعات الشعرية ، فهي ومضات سريعة تحمل قوة الانفعال ، وسرعة العرض ، فأبياتها أقل من النوعين السابقين عددا ، وحرارتها متأججة ، وصورها قليلة مركزة

العواطــف :

تكسب العواطفُ التي تكتنف النص الادبي مادةَ النص حرارة تتناسب مع درجة انفعال الأدب . فاذا لم ترتفع درجة الانفعال في النص الادبي عن درجة الانفعال العادية التي يحس بها كل فرد ، فان هذا النص سيخفق كل الاخفاق (٢) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤

(٢) انظر حول هذا الموضوع كتاب سيد قطب ، النقد الادبي ص ٦٥

ويرى د . أحمد الشايب أن العواطف نوعان : ذاتية تقع في دائرة ضيقة ، وانسانية تستقطب مشاعر ابناء اللغة أو من يتفهمها ، لأنها تقدم الافكار بطريقة مؤثرة تستميل النفس وتسرب المعاني الى الذهن (١) .

ومن المسلم به أن نوع الانفعال يرتبط بمادة النص ، فالقصيدة الحربية التي تتحدث عن موقعة فاصلة ، تثير انفعالا حماسيا شديدا ، بينما القصائد الغزلية أو المقطعات الشعرية كتلك التي نظمها ابن القيسراني في الفرنجيات ، تثير نوعا مختلفا من الانفعالات يغيب فيها الاندفاع والعنف .

وبين قصائد الحرب وقصائد الغزل أنماط من القصائد تثير أنماطا مختلفة من الانفعالات ... ويصاحب هذه الانفعالات جرس موسيقي يتناسب عادة مع مادة النص كذلك ولنأخذ أمثلة على أنواع العواطف والانفعالات في شعر هذه الفترة ، وبين ارتباطها بالجرس الموسيقي الخارجي المتمثل في الوزن الشعري ، والجرس الداخلي المتمثل في موسيقى الالفاظ والحروف ...

١ . العاطفة الدينية :

تبرز هذه العاطفة في القصائد الحربية بشكل واضح . فما من قصيدة تخلو من ربط الحادثة أو بطلها بالشعور الديني ، وهذا أمر طبيعي ، لان الحروب الصليبية أتخذت في كثير من جوانبها شكل صراع عقائدي ، وقد أكسبت هذه العاطفة الشعر عنصر اثارة ، وحرارة ، نحس لفحها في قصائد كثيرة ، منها قصيدة ابن منير الطرابلسي ، التي نأخذ بعضها شاهدا على ما نذهب اليه ، يقول هذا الشاعر :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش دين محمد محموده ... من بعد ما علّت دما عبراته

ردت على الاسلام عصر شبابه ... وثباته من دونه ، وثباته

ويبدو من المقدمة أنها تحمل انفعالا دينيا قويا ، يتخذ شكل المقارنة بين الفرنج والمسلمين ، فأولئك أهل ضلال اندثر ، ولم يبق منه سوى رسوم تدل عليه ، وهؤلاء أهل الهدى الذي أهلّ وابتسم . وفي هذا الاطار من الاصطراع العقائدي ، يوضح الشاعر عمل نور الدين في تعزيز هذا الدين ، ويحرص الشاعر على أن يقدم هذه العاطفة في ظلال التحنان الى الماضي المجيد ، والمقابلة بين قوة في عهد نور الدين ، وضعف في عهد الحكام المتخاذلين الذين سبقوه .

ولو تابعنا ابن منير في قصيدته الطويلة هذه ، لوجدناه يلح على فكرة المقابلة بين المسلمين والفرنج ، مستعينا بالحركات السريعة لمقاطع البحر الكامل ليضع القارئ في جو لشدّ متحرك :

---

(١) انظر كتاب د . أحمد الشايب ، أصول النقد الادبي ، فصل العواطف .

حطّ القوامر فيه بعد قماصها ... ضرب يصلصل في الطلى صمقاتـــه
نبذوا السلاح لفيهم ، عاداته ... ترس الفوارس ،والقنا غايلتـــه
لحجزب عمرية غضهلتـــــه ... لله معتصمية غزواتـــــه ...

ثم يقول :

صدم الصليب على صلابة عوده ... تتفرّقت أيدي سبا خشباتـــه (١)

(٢) عاطفة الكراهية :

وهي عاطفة لا يكاد يخلو منها شعر قيل في الحروب ، وذلك من أجل استثارة الجند والناس ، للوقوف في وجه العدو ، ومحاولة القضاء عليه .
فلا عجب ، إذن أن نرى الشعراء العرب في هذه الفترة يحفزون بكراهية الغـزاة حين ينظمون شعرا يرتبط بالوجود الصليبي في البلاد . ومن خلال شعـــور الكراهية يحرضون قادة المسلمين ضد العدو ،ويشمتون به حين تلحق به الهزائـم . يقول العماد محرضا صلاح الدين على استرداد ما تبقى من الارض المحتلة ، بعد ان استرد القدس :

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإنْ فُتحتْ فاقصد طرابلسا
أثِرْ على يوم انطرسوس ذا لجـــب ... وابعث الى ليل انطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعـــه ... من العداة ومَنْ في دينه وكسا
ولا تدع منهم نَفَسا ولا نفســـا ... فإنّهم يأخذون النّفس والنفَسا (٢)

وقبل ذلك قال ابن منير في تحريض نور الدين على الغزاة :

أن الأُلى أمنوا وقاعك بعد هـــا ... غزوا ، وقد ركبوا الأغرّ غـــرورا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصى ... منهم ،ودمّر أرضهم تدمـــيرا
لا يلههم أن قد منت ، وشنّهـــا ... شعواء تصلي الكافرين سعـــيرا
باكر بركز قنا لتنسف أسهـــا ... والخيل صوركي تزيرك صـــورا
وتريك لامعة التريك بساحة الأ (م) قصى مطهرة لها تطهـــيرا (٣)

وتظهر هذه العاطفة في مواطن التحدى بدرجة أكبر ، ومن خير ما يمثل هذا الجانب قصيدة ابن عنين في فتح دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنـا

فمن أول بيت نحس بالشدة والصلابة والاعتداد بالنفس ،ولعل تتابع الاصـــوات المتشابهة في البيت يوحي بالتحدى والاعتداد معا .

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٦ ... (٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٢
(٣) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٢١٧

٣• عواطف الحزن والحسرة :

وقد تجلت هذه العواطف في أوقات النكبات التي مر بها المشرق الاسلامي كفترة سقوط القدس والمعرة ودمياط وغيرها •
ومن القصائد التي تمثلت فيها هذه العواطف قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس للفرنج سنة ٦١٠ ، اذ يبدأها بالبكاء والنداء الحزين لعينيه ، بأن تذرف الدموع وتواصل البكاء ، لعل الدمع يكون سبيلا لان يطفئ ما في القلب من حرقة ، يقول :

أعيني لا ترقيْ من العبرات … صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعلّ سيول الدمع يطفئ فيضها … توقّد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعرْ نار وجدك كلما … خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فمُ بحْ بالشجو منك لعله … يروّح ما ألقى من الكربات … (١)

ان النداء المتكرر ليوحي بالحسرة والتلهف ، كما أن القافية المكسورة المسبوقة بالمد يتناسب وقعها مع الجو الحزين ، وليس من العجيب أن تشترك قصيدة العماد في رثاء صلاح الدين مع هذه القصيدة في كثير من أدوات الحزن فيها ، يقول العماد في رثائه للبطل المسلم الراحل :

شَمِل الهدى ، والملك عمّ شتاتُه … والدهرُ ساء وأقلعتْ حسناته
أينَ الذي مذ لم يزل مخشية … مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا … مبذولة ، ولربه طاعاته
بالله ، أين الناصر الملك الذي … لله خالصة صفت نياته (٢)

أما الحزن والحسرة على سقوط المعرة فتمثلة مقطعة أبي بشر بن الحواري ، التي يبدأها أيضا بالاستفهام والبكاء والنداء ، ويتكرر فيها حرف المد وتنتهي برويّ مكسور

أهذه بين إنكاري وعرفاني … مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ، ولقد أبدت ملاعبها … عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فعجتُ أسألها ، والدمع منسكب … والقلب في لوعة من وجده عان (٣)

أمّا الحزن على دمياط ، فقد امتزجت فيه الشكوى بالتعريض ، وجاءت أدوات الحزن متكررة متنوعة • يقول الأمير جمال الدين الكناني في رسالة شعرية بعث بها من داخل دمياط المحاصرة :

يا مالكي ! دمياطُ ثغرٌ هدّمت … شرفاته ، كادت تجتّ أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية … كالمسك ، طاب دقيقه وجليله

(١) الروضتين ٢/ ٢٠٥ (٢) المصدر السابق ٢/ ٢١٥
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/ ٨٧ •

ويقول عن بعد ، وإنك سامع — حتى كأنك جاره ونزيلــه
يا أيها الملك الذي ما إن يُرى — بين الملوك شبيهه وعديلــه
أشكو إليك عدوّ سوء أحدقت — بجميعه فرسانه وخيولــه
فالبر قد ضمنت إليه طريقه — والبحر عز لنصره أسطولــه
فغنوه باد على أبراجنا — وحنينه وبكاؤه وعويلــه
والثغر ناداه الملك محدّق — ما ان يمل من الدموع همولــه
ولو استطاع لأمّ بابك لائذا — لكنه سُدّت عليه سبيلــه
ورسوله في أن تجيب دعاءه — دين الاله وخلقه ورسولــه
فقد انتهت ادواؤه وتحكمت — علاته ونحا عليه نحولــه (١)

ففي الابيات الأولى تأخذ الشاعر الغصة ويتهدج صوته ، ثم ينتقل الى مخاطبة الملك الكامل ويشكو اليه سوء الحال ، بسبب حصار الفرنج لدمياط ، ثم يعرض صورة مؤثرة تحكي ما يعانيه الثغر من ضيق ويكرر هذه المواقف والمعاني ، لكي تحرك مشاعر الكامل وتدفعه الى العمل ، وقد حصل ما توقعه فعلا ، اذ انه عندما وقف الكامل على هذه الابيات ، أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد ، وكان قد بعث الى أخيه الأشرف يستحثه على سرعة الحضور بأبيات مثيرة ، قال فيها :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفي — فانهض بغير تلبث وتوقـف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا — بتجشمي سيرها وتعسـف
واطو المنازل ما استطعت ولا تُنِخْ — الا على باب المليك الاشرف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه — ما بين كلّ مهنّد ومثقـف
أو تُبطِ عن انجاده ، فلقاؤه — يوم القيامة في عراص الموقف (٢)

وقد سبق الحديث من خلال المقدمات عن أنواع أخرى من العواطف الحافزة على قول الشعر ، ومن هذه : الاعجاب بالقائد ، والاحساس بالنشوة حين النصر ، وشعور الانتماء الى الامة ... الى غير ذلك .

ومن خلال الامثلة التي تقدم تحليلها في هذا القسم يمكننا أن نقول :

إن عواطف الشعراء في قصائدهم الحربية عواطف صادقة ، لانها تنطلق من احساس شديد بالاحداث ، وانتماء قوي الى المجتمع وعقيدته وحضارته ، وارتباط بالوطن ، واعجاب بالبطل ، الى غير ذلك مما سبقت الاشارة اليه ، ولذا فاننا نحس في كثير من الاحيان بتوهج الابيات ، بل اننا نحس بأننا نتفاعل مع الشاعر ، وكأنما ينقل الينا مشاعره بالعدوى واذا نحن وهو في وضع عاطفي واحد .

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٩
(٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٧

وهذا الصدق في التعبير هو صدق شعوري ، ولا يستلزم الصدق الشعوري دقـة وصدقا في نقل الوقائع ، إذ إن الشاعر ينقل لنا الوقائع والأحداث ملونة بمشاعره ، ومواقفه الخاصة ، وكذلك بأحاسيس المجتمع الذي ينتمي اليه ، مما يجعل النص أكثر تأثيرا .

وقد عرضنا ألوانا مختلفة من عواطف الشعراء ، فوجدنا أشدها تأثيرا وقوة مـا يرتبط بالتحدي والتحريض ، حتى ليجد الدارس النبرة الخطابية واضحة فيها .

ومن عوامل التأثير في الشعر ، العنصر الموسيقي ، المرتبط بالبحر والقافيـة والموسيقى الداخلية ، وبما أن الشعر الحربي في غالبه يعبر عن القوة فكان من المتوقـع أن تكون موسيقى القصائد الحربية توحي بالقوة ، ولعل الجدولين التاليين ، المرتبطـين بموسيقى الشعر الحربي الذي أخذته من الروضتين ، يعطياننا فكرة عن أشيع بحـور الشعر والقوافي التي استعملت في القصائد ذات السمة الحربية :

البحـور	الكامل	الطويل	البسيط	الخفيف	الوافر	المتقارب	السريع	المنسرح	الرجز	الرمل	الهزج
مجموع القصائـد											
١٢٨	٣٧	٢٦	٢٥	١٠	٩	٨	٥	٤	٢	١	١

وكانت حروف الروي كما يلي :

حروف الروى	الراء	الدال	الميم	النون	الباء	اللام	الحاء	التاء	القاف	السين	العين	الكاف	الهمزة	الضاد	الفاء	الجيم	الذال
مجموع القصائد																	
١٢٨	٢٤	١٦	١٤	١٤	١٢	١٠	٨	٦	٥	٥	٣	٣	٢	٢	١	١	١

ويلاحظ أن البحر الكامل قد تكرر استعماله في هذه القصائد سبعا وثلاثين مـرة ، وهذا أمر طبيعي لأنه يحتوي على ثمانية عشر مقطعا صغيرا واثني عشر مقطعا طويلا ، ولعل ما يوحي به البحر من حركة متصلة ، يتسق مع الانفعالات الشديدة التي ترافق الحـروب في المعتاد ، كما يصور جو المعركة وما فيها من حركة أيضا . أما البحر الطويل ، ففيـه عشرون مقطعا طويلا وثمانية مقاطع قصيرة ، فهو يتسع للموضوعات الجادة والمواقف الخطـيرة وقد استعمله قدامى الشعراء في شعر البطولة . (١) .

1- Mahmud Ibrahim, Martial Poetry under the Hamdanids of Aleppo. P.P 461-463 (PH.D 1965)

وانظر كذلك كتاب د . أحمد الشايب ، اصول النقد الادبي ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥

أما البحر البسيط الذى يأتي ثالثا ، فهو قريب من البحر الطويل ، إذ إن عدد الحركات فيهما يكاد يكون متساويا ، وكثيرا ما استعمل هذا البحر في الموضوعات الرصينة الجادة كذلك . على أنه لا بد من القول ، انه لا يوجد رابط حاسم متفق عليه ما بين موضوع القصيدة الشعرية وبحرها ، وإنما هي استقراءات تعتمد على مدى شيوع استعمال بحر ما في موضوع من الموضوعات .

وكما أن موسيقى البحور تضفي على الشعر جوا معينا ، فان حروف الروى تضفي مثل هذا الأثر كذلك على الشعر ، وقد لوحظ أن حرف الراء قد تكرر في أربع وعشرين قصيدة من القصائد التي استقرئت ، ثم يأتي حرف الدال في المرتبة الثانية ، وقد جاء في ست عشرة قصيدة ، ثم جرفا : الميم والنون في المرتبة الثالثة ، وقد تكررا في ثمان وعشرين قصيدة . ولعل هذه الأحرف الاربعة تمثل أصواتا تتناسب في وقعها على الاذن مع أجواء الحرب ، لا سيما أنها من الحروف التي كثر استعمالها في قوافي القصائد الحربية .

التصويــــر :

يختلف الناس بعضهم عن بعض في نقل الأفكار ، فمنهم من ينقل الفكرة مجـردة ومنهم من يخلفها بالصور الشائقة ، ومنهم من يصب عليها من قلبه ما يشيع الدفء والحرارة فيها ...

ثم ، إن تميز الشاعر عن بقية الناس بشدة الاحساس بالحياة وما يجرى فيها ، يجعله أقدر من غيره على التفاعل مع الأحداث وتصويرها تصويرا يحمل طابعه الذاتي ، وهذا التصوير يجعل كل كلمة في الفن الشعري تؤدي وظيفة معينة في نقل الفكرة ، ولذلك فإن للكلمة تأثيرا خاصا ...

ولعل الصور التي تثيرها الكلمة هي التي تبعث الحياة في النص الادبي ، وتكسبه القدرة الايحائية ، وهي التي تجعل القارئ يقبل على نوع من العمل الادبي دون نوع آخر .

ومن المسلّم به أن الصور الشعرية مرتبطة بالفكرة أشد ارتباطا ، لأنها تعبر عنها ولكن ذلك لا يعني أن تكون الصور في الشعر الحربي مشتقة من مناظر الحرب فقط ، بل ان مصادر الصور متنوعة ، يلجأ الشاعر في تكوينها الى معطيات البيئة المحلية ، والثقافة ، والتجارب الشخصية .

ويطول الحديث لو حللنا عناصر هذه المعطيات ، وضربنا لها الامثلة ، ولذا ، فقد يكون من المجدي اختيار أمثلة معينة ، وتوضيح مصادر الصور من خلالها ...

١ . يقول ابن دنينير في معركة دمياط :

١ . يا يوم دمياط قد راحت مسوّدة	منك الطروس وقد سارت بك السير
٢ . تهلل الدين والدنيا به فرحـا	واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَـر
٣ . لم تخشَ يثرب تثريبًا لفادحة	من بعده إذ سَرَتْ في ذكره السُّوَر
٤ . أنطقتَ خرسَ الاماني وهي صامتة	ورضتَ صعب المعاني فهي تبتدر
٥ . ألبستَ أهل الهدى من نصرةٍ حللا	والشرك قد حلّ منه الأزْر والأُزُر

٦ • في يوم ذي رهج لا وصف يدركه   يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
٧ • يوم تدين له الايام اذ خرست   عن فخرها وهو طول الدهر يفتخر
٨ • في حالة جمع الضدين في قرن   فالشرك منخذل والحق منتصر
٩ • قد عاد صبحهم ليلا تضيء به   زرق الأسنة فهي الأنجم الزهر
١٠ • والشمس طالعة فيه وغاربة   لكنها بظلام النقع تستتر
١١ • والدين قد تليت آياته فرحا   بنصره ، وصليب الشرك منكسر
١٢ • يا دين عيسى بموسى قد خذلت ولا   كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبر
١٣ • وافاك في جحفل ضاق الفضاء به   ذرعا ، فأنت لديه مهل له جزر
١٤ • أتى بجيش يوغ في الارض عسكره   وفي السماء قضاء الله والقدر
١٥ • فالبحر من تحتهم آذيه وعلى   رؤوسهم منك نار الحرب تستعر
١٦ • وزعتهم بين بيض الهند مصلتة   وبين سمر القنا والموت منتكر
١٧ • فللرماح قلوب منهم أبدا   وللسيوف الطلى والهام والقصر
١٨ • أموا الجسور الى دمياط تحصنهم   وما دروا أنه عمر به العبر
١٩ • راموا بحيث اطلخم الأمر سلمهم   وقد رأوا غارة هانت لها الغير
٢٠ • لم يطلبوا السلم إلا بعد علمهم   بأن سيفك لا يبقي ولا يذر
٢١ • أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا   ويل طويل وقد وافاهم الخبر
٢٢ • ان لم يكن حوصروا فيها فإن بها   من بؤس بأسك حصرا ليس ينحصر
٢٣ • يمشون همسا ، وايماء حديثهم   فيها لخوفك ، إن قالوا وان ذكروا
٢٤ • نهاهم الرعب عن عود فمنقصة   إن قيل عودوا ، نعد بالسيف ننتصر
٢٥ • ما يوم بدر بأعلى منه أو أحد   ولا حنين ، وإن عدوا وان شهروا (١)

ففي هذه القصيدة يرسم الشاعر صورة دمياط ، وقد تخلصت من الافرنج بعد معركة طويلة ، فقدم النتيجة على المعركة ، نظرا لأنها كانت معروفة ، ثم أخذ يصف قوة الفرنج ، ولكن هذه القوة لم تغن عنهم شيئا ، ولم تدفع كثرتهم الهزيمة ، بل سقطوا موزعين بين النار والماء ، والسيوف والرماح .

أما مصادر الصور فهي إما مأخوذة من حياة الناس وأقوالهم وممارساتهم كالتهلل والاستبشار (بيت ٢) والنطق (بيت ٤) والهمس والاشارة (بيت ٢٣) واللباس (بيت ٥) والتلاوة (بيت ١١) ، أو مستمدة من الجو الحربي كلمعان النصال ، والسيوف وغبار المعركة ، والجيش ، والمعركة البحرية والنار المحرقة ... (الابيات ٩ ـ ٢٣) ، أو من الحياة الدينية ، كمكة والحجر والحجر ، والمدينة المنورة (بيت ١ + ٢) والهدى والشرك (بيت ٥ ، ٨) وبدر وأحد وحنين (بيت ٢٥) ...

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤ ـ ١٥

٢ • ويقول فتيان الشاغوري في فتوح صلاح الدين :

أنشأت ملحمة تمل مقاتـل الـ ... فرسان بالعدو الذي لم يحصـر
اعرابها ضرب الحسام ونقطهـا ... وقع السهام وخطها بالسمهري
والحبر بحر دم تخطط موجـه ... إذ ليس ثم سوى الثرى من دفتر
والبيض تنثر وهي غير خواطب ... والسمر ناظمة وان لم تشعـر
والخيل مطربة كأن صهيلهـا ... شدو النحيلة في نسيب البحتري
نشوى تميد من السرور كأنمـا ... صبحت كؤوسا من شراب مسكر (١)

ومصادر الصور في هذه الأبيات متنوعة ، أبرزها الاعتماد على الثقافة اللغوية والادبية ممثلة في : الإعراب والنقط والخط والنثر والنظم ، وأدوات الكتابة من حبر وورق •
وقد اشتق بعض الشعراء الصور البيانية من اسماء الفرنج وقادتهم ، كما في أبيات العماد التالية :

لما رأى الداويّ راونـداه ... ولّى يطاعون بغير طعـان
طلب الفريري الفرار بطلبـه ... متباعدا من هلكه المتدانـي
والهنفري مذ هان فرّ مؤملا ... لسلامة ، والهون شأن الشاني
باروا فبارو نيّهم بفنائـه ... مود ، وسيرهم أسير عـان (٢)

وهذا يمكن تلخيص مصادر الصور الشعرية في شعر الحروب الصليبية ، بما يلي :

١ • الحياة الاجتماعية	٤ • جو الحـروب
٢ • الحياة السياسية	٥ • البيئة المحلية
٣ • الحياة الثقافيـة	٦ • الحياة الدينية

الصور التقليدية :

سادت الروح الاتباعية أدب هذا العصر ، فاتكأ شعراء الحروب الصليبية على التراث الأدبي السابق ، وأخذوا منه كثيرا من الصور ، بالإضافة الى التأثر بالجو العام للقصائد الحربية في العصور السابقة •
وقد ناقش الدكتور محمود ابراهيم في كتابه : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني " هذه الفكرة مناقشة وافية ، استعرض فيها أسباب هذه التهمة ، واستوفى أمثلة كثيرة من شعر ابن القيسراني في تأثره بالمتنبي وأبي تمام • (٣) •

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٢
(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٥٥ ، ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/٢/٥٧٩ و ٥٢٩
(٣) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٧٢ ـ ١٩٦

وليس من الضروري ، في هذا المقام ، استعراض كل صورة اقتبسها شعراء هـــذه الفترة من الشعراء الاقدمين ، فذلك يحتاج الى دراسة خاصة ، ولذلك فاننا سنعـــرض بعض الصور التي ترددت في شعر الحروب الصليبية ، وأخذها أصحابها من الشعراء السابقين ويمكن عرضها كما يلـــي :

١ - صورة الجيش الاسلامي يظلله جيش من الطيور :

وقد تكررت هذه الصورة في الشعر الحربي غير مرة ، منها قول فتيان الشاغـــورى في وصف جيش صلاح الدين :

خميسٌ له الرايات ظل وفوقـــه ... من الطير ظلّ يحجب الشمس سادل (١)

وقوله :

وجيش لهام ، حلّق الطير فوقـــه ... ستضحي لكم أحشاؤهن نواويسا (٢)

ويصف العماد تزاحم الطيور الجارحة في الجو وكأنها جيوش تتزاحم فرسانهـــا ، فيقع الصدام بينها ، يقول :

تزاحم فرسانها الضاريـــات ... فتصدم فيها النسورَ النسورُ (٣)

ويقول ابن دنينير في مدح الملك كوكبري بن علي بن بكتكين :

وما زلت في جيشين : جيش مقاتل ... وجيش على القتلى من الطير حائم (٤)

وقد وردت هذه الصورة في الشعر الجاهلي ، وردّها اسامة بن منقذ إلى الافـــوه الأودي إذ يقول :

وترى الطير على آثارهـــا ... رأي عين ثقة أن ستمـــار

ثم أخذها النابغة فقال :

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقهــم ... عصائب طير تهتدي بعصائـــب
جوانح ، قد أيقن أن قبيلـــه ... اذا ما التقى الجمعان ، أول غالب

ثم أخذها الحطيئة ، ثم حميد بن ثور ، ثم مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ثم أبو تمام والمتنبي ، إذ يقول الاخير :

له عسكرا خيل وطير اذا رمـــى ... بها عسكراً لم تبقَ الا جماجمُه (٥)

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٧ (٢) المصدر السابق ٢٢٤
(٣) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٢٩
(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٥٧
(٥) البديع في نقد الشعر ص ٢٢٤

٢ • صورة الجيش الاسلامي الكثيف المدجج بالسلاح :

وقد جاءت هذه الصورة في شعر الحرب الصليبي ، فاستفاد شعراء هذه الفترة من الصور القديمة وأوردوا في شعرهم وصفا للجيش الاسلامي ، فقالوا إنه يزحف كالجراد ، ويحمل من السلاح اللامع والسهام الكثيرة ما يشبه أغصان الشجر في الغابات ، كما وصفوا انقضاض السهام والرماح بانقضاض الشهب ، يقول سعادة الأعمى في وصف جيش صلاح الدين :

عرمرم كالدبى الطيار منتشر تحصى الرمال ولا يحصى له عدد
اذا انهمرت الى أرض العدو به لم يبق من مائها غمر ولا ثمد
تسمو عليه سماء من عجاجته مبنية من قناة تحتها عمد
وفي نواحيه نار من صوارمه تكاد تقطر ماء وهي تتقد (١)

ويقول ابن أسعد الموصلي متحديا الفرنج بعد تأكيد انتصارهم على نور الدين :

هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد سلوا الظبى تحت غابات من الأسل (٢)

٣ • صورة جيش العدو المنهزم :

وقد قدّم الشعر لهم صورة طريفة تحمل معنى الاستهزاء ، فهم لا يفرقون بين وخز السلاح ووقع حبات المطر الشديد تنوب أجسامهم ، وقد اعتمد ابن القيسراني في هذه الصورة حين قال :

صاب الغمام عليهم والسهام معا فما دروا أيما الهطالة الديم (٣)

على صورة المتنبي التي يقول فيها :

يتشابه مطر السحاب مفصلا بمهند ومثقف وسنان

٤ • التأثير بقصائد الشعراء السابقين عامة :

فقد اعتمد الشعراء على قصيدة أبي تمام البائية في وزنها ورويها وصورها ، ومن الشعراء الذين قلدوه ابن القيسراني في قصيدته التي مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب (٤)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١ / ١٤ ٤
(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٨٩
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١
(٤) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٢

وشهاب الدين محمود في قصيدته التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلب　　وعز بالترك دين المصطفى العربي (١)

وأخذ ابن دنينير من قصيدة ابي تمام البائية بعض الصور في قصيدته التي يصف فيها فتح دمياط ، ومطلعها :

ها قد بلغت الذى قد كان ينتظر　　الله أكبر هذا النصر والظفر

وفيها يقول :

هذا هو الفتح فتحٌ لا يقوم به　　نظم المديح ولا نثرٌ فيتكسر

فتح مبين وفي من كلّ موبقة　　لم يبق من بعده ذنب فيُغْتَفر

يا يوم دمياطَ قد راحت مسودة　　منك الدارون وقد سارت بك السير (٢)

ومن الشعراء الذين استفادوا من قصائد ابي الطيب المتنبي ابن أسعد الموصلي في قصيدته التي يعتذر فيها عن كسرة نور الدين ، ومطلعها :

ظبى المواضي ، وأطراف القنا الذُبل　　ضوامنٌ لك ما حازوه من نفل (٣)

فقد استفاد من قصيدة المتنبي التي يعتذر فيها عن كسرة سيف الدولة ، ومطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع　　إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

٥ - مقارنة الفتح بالفتوح السابقة ، ومقارنة القادة بالأبطال السابقين في تاريخ الاسلام :

وقد أصبحت هذه المقارنة ظاهرة من ظواهر شعر الحروب الصليبية ، ولعل ذلك يعود الى طبيعة الصراع الديني بين المسلمين والفرنج .

ومن الشعراء الذين أقترنت صورة الفتوح في أذهانهم بالفتوح الإسلامية السابقة ، أبو علي الحسن بن علي الجويني ، يقول :

هذى الفتوح فتوح الانبياء وما　　لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

. . . .　　. . . . .

فأين مسلمة عنها وأخوته　　بل أين والدهم ، بل أين مروان (٤) ؟

ومنهم العماد الاصفهاني ، إذ يقول في مدح صلاح الدين وتكسيره الصلبان في القدس :

نفى من القدس صلبانا كما نفيتْ　　من بيت مكةَ أزلام وأنصاب (٥)

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٨/ ١١٥ ، درة الاسلاك ورقة ١٥٤

(٢)

(٣) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٣٢٠

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٣

ويقول البهاء زهير في فتح دمياط :

فلله يومُ الفتح ، يومُ دخولهـــا — وقد طارت الاعلام منها على وكْـــر
لقد فاق أيام الزمان بأسرهـــا — وأنسى حديثا عن حنينٍ وعن بدر (١)

ويقول ابن دنينير في فتح دمياط :

ما يوم بدر بأعلى منه أو أحـــدٍ — ولا حنينَ وإن عُدوا وإن شُهروا (٢)

أما مقارنة القادة بالابطال السابقين أو الانبياء فتظهر في قول ابن الساعاتـــي اذ أقام علاقة بين صلاح الدين يوسف والنبي يوسف عليه السلام بجامع الاســـر والشهرة :

فكنت كيوسف الصديق حقـــا — له صوت الكواكب ساجدينـــا (٣)

ويقول الجويني فيه أيضا :

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا — ل الناس : داودَ هذا أم سليمان (٤) ؟

ويقول الجواني النسابة المصري في صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا يوسف الصديق أنت لفتحهـــا — فاروقها عمرُ الإمام الاطهـــرُ
ولأنتَ عثمانُ الشريعةِ بعـــده — ولأنت في نصرِ النبوّة حيـــدرُ (٥)

٦ • تشبيه المدن والثغور بالنساء المتمنعات :

فقد صور الشعراء تمنع المدينة على الفتح بتمنع الفتاة ، وقد سبق المتنبي الى هـذا الباب في استعمال الفاظ الغزل والنسيب في وصف الحرب (٦) •
ومن الشعراء الذين جاءت هذه الصورة في شعرهم ابن القيسراني ، اذ يقول فـي مدح نور الدين :

ما زفّت الحرب العوان بـــه — الا انجلت عن معقل بكـــر (٧)

ومنهم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، اذ يقول في فتح صلاح الدين للقدس :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا — يا كفأها ما المذر عن عذرائهـــا
زفّتْ اليك عروسُ خدر تجتلـــى — ما بين أعبدها وبين إمائهـــا
ايه صلاح الدين خذها غادة — بكرا ، ملوك الارض من رقبائهـــا
كم خاطب لجمالها قـــد ردّه — عن نيلها أن ليس من أكفائها (٨)

(١) ديوان البهاء زهير ١٢٣
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٣) الروضتين ٢/ ٨٥
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٦) يتيمة الدهر ١/ ٢٠٩
(٧) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٤٦
(٨) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٨٦

نعى كثير من الدارسين لهذه الفترة على الشعراء والكتاب استعمالهم الزائـــــد للبديع ، واستقصاءهم لصوره ، وقد غالى بعض الدارسين في نقد هذه الظاهرة حـــتى وصف العصر الذى ندرسه بالجمود والانحطاط بسببها ، وكأن الصنعة لم توجد الا فـــي أدب هذه الفترة فقط ، أو كأنها قد تمثلت في كل نص من نصوص هذا الادب .

ولا شك أن بعض هذه الاحكام لا يستند الى دراسة مستقصية دقيقة ، وانما هـــي خطف سريع لأحكام متأثرة بأحكام سريعة سابقة .

ومن المسلّم به أن البديع موجود في الأدب العربي قبل هذه الفترة ، ولكن درجات اهتمام الادباء به تختلف من واحد الى آخر ، ومن نمط من أنماط الأدب الى نمط آخر.

ولسنا معنيين بدراسة تحكّم البديع في الادب العربي عامة ، وفي شعر هـــذه الفترة خاصة ، لان ذلك يحتاج الى دراسة مستقلة ، وقد عالج د. زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري هذه الظاهرة (١) ، كما عالجها د. محمـــود ابراهيم في الشعر من خلال دراسته لابن القيسراني الشاعر (٢) وما نريد تأكيــــده هنا ، هو أن البديع ظهر في الأدب ، شعره ونثره ، بشكل بارز في هذه الفترة ، ولكـــن مواطنه في المديح والوصف ... أكثر منها في الموضوعات الاخرى .

ويمكننا التدليل على ذلك بملاحظة سريعة ، وهي أنه لو قارنا بين ما فـــــي الخريدة من شعر ، وبين ما في الروضتين من شعر ، لوجدنا اختلافا ملموسا مـــن حيث تحكم البديع ، والسبب في هذه الظاهرة هو أن شعر الروضتين يكاد يكون مرتبطـــا بالأحداث السياسية في عهدي نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، وهذا يعني أن الشعراء قد تحرروا بشكل عام من عقال البديع في موضوعات معينة ، فلم يطغ البديع على شعرهم ، بينما نجد شعر الخريدة تبرز فيه هذه الظاهرة بشكل يسترعي الانتباه ، لأن شعر الخريدة مجموع حسب المناطق الجغرافية ، اذ يعرض العماد شعر الشعراء الذين اختارهم بغضّ النظر عن الموضوع ، وقد تحكم ذوقه بمختاراته الشعرية ، فجاءت ممثلـــة لولعه بألوان المحسنات اللفظية .

وسنذكر فيما يلي بعض القصائد العربية موزعة على فترات حقبة الحروب الصليبية ، ثم تعرض للبديع الذى ورد فيها ، لنرى الى أي مدى كثر استعماله في هذا اللون مـــن الشعر ، فقصيدة ابن الخياط التي مطلعها :

قد تك الصواهل قبّا وجـــــردا ‌‌ ‌ ‌ وشم القبائل شيبا ومُـــرْدا (٣)

---

(١) انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري ص ٦٤ وما بعدها

(٢) أنظر : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٩٨ ـ ٢٠٢

(٣) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ، وانظرها في الملحق الشعري

لا يسيطر عليها البديع ، الا بشكل معتدل ، كالطباق في قوله : بيض — سمر ، شرقا — غربا ، غورا — نجدا ، هزلا — جدا ، الحر — عبد ، تأمون — اسهرتموهن ، والجناس في قوله : الأسد — الأشدا ، نائل — نائل ، جاعلا — عاجلا ، جدا ، جدا ، والتقسيم في قوله : فدتك الصواهل : قبا وجردا وشم القبائل : شيبا ومردا

أما مقطعة أبي بشر بن الحواري التي مطلعها :

أهذ مبين إنكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني

فلا يوجد فيها من البديع الا الطباق في البيت المذكور .

وكذلك الحال في قصيدة ابن قسيم الحموي التي يمدح فيها عماد الدين زنكي ، ومطلعها :

بعزمك أيها الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم

اذ يقل فيها البديع ويمكن حصره في عدد محدود من أمثلة الطباق والمقابلة والمبالغة ...

وأما قصيدة ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

ومقطعة ابن مطروح في هزيمة الملك لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧ التي مطلعها :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال صدق من قؤول فصيح

آجرك الله على ما مضى ... من قتل عباد يسوع المسيح

فهما بعيدتان عن الصناعة اللفظية ، مع انهما مختلفتان في الاسلوب من حيث القوه واللين كما أنهما قيلتا في وقتين متباعدين نسبيا .

ومع أن قصيدة شهاب الدين محمود في فتح عكا ، التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي

هي تقليد لقصيدة أبي تمام ، إلا أنها خلت تقريبا من الصناعة اللفظية ، علما بأن قصيدة أبي تمام فيها من الصنعة الشيء الكثير .

كل هذا يدل على أن الصناعة اللفظية لم تكن متحكمة تحكما كليا في جميع الشعر ولذا فلا يجوز تعميم الحكم على شعر الحروب الصليبية كله ... ومع هذا ، فأننا نجد بعض القصائد تستبد فيها الصنعة ، لا سيما في القصائد التقليدية ، وقد بين د . محمود ابراهيم ذلك في شعر ابن القيسراني (١) ، ولذلك سنعرض فيما يلي أمثلة أخرى من نظم شعراء آخرين ، فمن ذلك قصيدة ابن منير الطرابلسي التي مطلعها :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... وعلا الهدى وتبلجت قسماته

فان كل بيت فيها لا يخلو من البديع ، لان ابن منير عرف عنه ولعه بالزخرفة اللفظية . وأكثر ما استعمل من أنواع البديع :

المقابلة ومن أمثلتها : أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... البيت ، والبيت الثاني ، الجناس : وهو كثير ، ومنه : وثباته — وثباته — شذاته شذاته ... التجنيس بالاشتقاق وهو كثير أيضا منه :

---

(١) صدى الغزو الصليبي ص ٢٠٢ — ٢٠٨

* وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا ... إصلاته وصلاته وصلاتـــه
* حط القواص فيه بعد قماصها ... ضرب يصلصل في الطلى صمقاته
* نبذوا السلاح لضيفهم عاداته ... فرس الفوارس والقنا غاياتـــه
* يمسي قنانيه بنات قيونـــه ... فوق التوانس والقنا قينانـــه
* ومضى يؤنب تحت إنب همــة ... أمست زوافر غيها زفراته ... الخ .

الطباق : نار ـ ظلماته ، صبوح ـ غبوق ..
المبالغة : ومن أمثلتها :

* صبوحه خمر الطلى وغبوقـــه ... نطف النفوس تديرها نشواتـــه
* لم تنبت الآجام قبل رماحـــه ... شجرا أصول فروعه ثمراتـــه
* في كل يوم تستطيل قناتـــه ... فوق السماء ، وتعتلي درجاته

ثم قصيدة ابن سناء الملك التي مطلعها :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت ... عن النسل مما جرعته من الثكل

ومنها من أنواع البديع ما يلي :
ايهام التناقض كقوله :

* يكلفهم غزو الفرنج بدارهـــم ... ويسهل الا أنه ليس بالسهل
* اذا كنت من قتلاك تملأ سبلها ... فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل
* وكانت بهم تلك البلاد تنجست ... فناب دم منهم عن الماء في الغسل
* ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها ... وتصبح تشكو بعده غلة المحل

المبالغة : ومنها :

* عساكر أرواح العساكر شربهـا ... وليس لها غير الفوارس من أكـل
* جيادهم تخشى المثار من القنا ال ... قصيف وتخشى في الدماء من الوحل
* وما شرقوا بالماء والريق اذ رأوا ... جيوشك لكن بالفوارس والرجل

المقابلة ، ومنها :

* وصبحت أخرى صبحتك بأهلهـا ... ومستك إذ أمسيت وهي بلا أهـل
** أحسوا بطل للخريف فجاءهـم ... ربيع من النبل المدد كالوبـــل

* * * *

هذه نظرة سريعة في مدى وجود البديع في شعر الحروب الصليبية ، ولنا أن نتساءل : هل أدى البديع الى تضبيب الصورة أو اطفاء الانفعال ؟

قد يكون الجواب بالايجاب بالنسبة الى بعض القصائد التي سعى قائلوها الى تزيين شعرهم بالزخارف اللفظية كيفما اتفق ، ولكن المتصفح للملحق الشعري ، يجد أن البديع لم يكن طاغيا على كل الشعر ولا على اكثره ، ومما يقوم دليلا على ما ذهبنا اليه ، تلك الرسائل الشعرية التي تبادلها الشاعران :

: أسامة بن منقذ وطلائع بن رزيك ، اذ ان الشاعرين لم يحفلا كثيرا بالصنعـــة ، ولنضرب على ذلك مثلا واحدا من شعر كل منهما ، فقد كتب طلائع الى أسامة رسالـــة شعرية قال فيها :

قل لابن منقذ الـــذى   قد حاز في الفضل الكمـــالا
. . . .
كم قد بعثنا نحوك الا   شعار مسرعة عجـــــبالا (م)
مثل الحسان الغيد تا   هت في محاسنها دلالا
علا بذلت لنا مقـــا   لا حين لم تبذل فعـــالا
من أننا نوليـــك صب   را في المودة واحتمـــالا
ونبئك الاخبـــار ان   أضحت قصارا أو طـــوالا
سارت سرايا لقصـــ   د الشام تعتسف الرمـــالا
تزجي الى الاعداء جر   د الخيل اتباعا توالـــى
تمضي خفافا للمغـــا   ربها وتأتينا ثقـــالا
حتى لقد رام الأعـــا   دى من ديارهم ارتحالا ... الخ (١)

فأجابه أسامة بقوله :

يا أشرف الـــوزراء أخ   لاقا وأكرمهم فعـــالا
وأعزهم جارا وأمـــ   نعهم حمى وأعـــل آلا
نبهت عبدا طالمـــا   نبهته قدرا وحـــالا
وعتبته فألتـــه   شرفا ومجدا لن ينـــالا
أما السرايا حين تـــر   جع بعد خفتها ثقـــالا
ومسيرها في كـــل أر   ض تبتغي فيها المجـــالا
فكذاك فضلك مثل عـــد   لك في الدنى سار وجـــالا
فاسلم لنا حتى نـــرى   لك في بني الدنيا مثـــالا
واشدد يديك بود نـــو   ر الدين والقابه الرجـــالا
فهو المحامي عن بـــلا   د الشام جمعا أن يـــذالا
ومبيد أملاك الفـــر   نج وجمعهم حالا فحالا ... الخ (٢)

* * *

على أنه يسترعي الانتباه في شعر هذه الفترة عدة أمور أهمها :

أ . المبالغة في التصوير ، سواء في وصف الجيش الاسلامي أم الجيش الفرنجي أو في وصف القائد ، ولعل ذلك يعود الى طبيعة الظروف التي نظم فيها هذا الشعر وما يكتنفها من جو انفعالي .

---

(١) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٩٢
(٢) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٩٤

ب • تركيز الشعراء على ابراز صورة البطل أكثر من ابراز صورة المعركة ، وهذا يرجع الى طبيعة الشعر الذى يبحث دائما عن شخصية محورية تتمثل في البطل ، فضلا عن أن الشعر يضيق بالتفصيلات الواقعية ، يضاف الى ذلك ، ان الشاعر العربي رأى أن تمجيد القائد الاسلامي ، والقائد الفرنجي دلالة على ضراوة القتال المنتظر •

جـ • انخفاض مستوى الشعر الحربي زمن المماليك • فلو قارنا الانتاج الشعري في القرن الاول من الصراع الاسلامي الصليبي ، لوجدناه أرقى مستوى ، وأغزر انتاجا ، ولعل ذلك يرجع الى أن الصراع في ذلك القرن كان شديدا وحاسما ، بينما شالت كفة الصليبيين في القرن السابع الهجرى ، وأصبح موقفهم في الغالب موقف الدفاع ، فخفت حدة الصراع في الواقع وفي نفس الشاعر أيضا •

* * *

وبعد هذا العرض السريع ، قد يكون من المفيد التعرض لآراء بعض الدارسين لادب هذه الفترة ، ويمكن تصنيفهم في ثلاث فئات :

أ • فئة تتهم أدب الفترة عامة بأنه سطحي وعقيم •

ب • فئة معجبة به أشد الاعجاب •

جـ • فئة وقفت وقفة اعتدال بين الفئتين المتعارضتين ، وأتخذت لها موقفا توفيقيا ، فجاءت أحكامها معتدلة •

فمن يمكن أن يصنفوا في الفئة الاولى كل من د • أحمد الجندى ، و د • عبد العزيز الأهواني ، ود • زكي المحاسني ، وقد وصف د • أحمد الجندى شعر هذا العصر بأنه "سطحي يكرر نفسه في أفكاره وتعبيراته وصناعته ••• فقير في صوره وأخيلته ولمحاته الذهنية •••" (١) ، ثم أرجع بدء هذا الانحطاط الى أوائل القرن الخامس الهجري ، والتمس أسبابا لذلك ، فوجدها في ولع الشعراء بالمحسنات اللفظية ، نظرا لان الممدوحين من أصل غير عربي ، مما حدا بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ ، لتعجب اولئك الممدوحين (٢) •

أما د • عبد العزيز الاهواني فقد وصف عصر الايوبيين بالعقم والانحراف ، وقد استند في حكمه هذا على شعر ابن سناء الملك ، ووصفه بأنه عمل عقلي بحت ••• ثم عمم حكمه على شعر ابن سناء الملك على شعر العصر الأيوبي كله (٣) •

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ، المقدمة ص : ك

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ، المقدمة ص : ٦

(٣) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٠٢ وانظر ص ٧ ، ١٠

أما د. زكي محاسني فلم يدرس هذا العصر ، وانما درس شعر الحرب في العصرين الاموى والعباسي الى عهد سيف الدولة ، ومع ذلك فقد قال : " فاذا صح وصف التطور (في شعر الحرب) بأدوار ، فيكون شعر الحرب في العصر الجاهلي في طور التولد والبداوة ، وفي العصر الاموى في طور النمو والتحضر ، وفي العصر العباسي في طريق التكامل ... وفي عصر الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب الى درك التقاعس على الرغم من وفرة الاسباب المعنوية ، لان شعراء العرب في عهد هذه الحروب كانوا في دور ضعف وانخذال في اللفظ والاسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة في القول ، وصناعة تتسم بالكلفة ... " (١) .

ويخشى أن يكون في هذه الأحكام تعميمات خادعة ، انطلاقا من شواهد انتقائية ولنبدأ بقول د. أحمد الجندى : إن الشعر ساحي يكرر نفسه .

فإن الناظر في كتاب الروضتين يصعب عليه أن يحكم بالسطحية على شعر مرتبط بأحداث جسام خطيرة مرت بها الامة الاسلامية ، وقد صور الشعر هذه الاحداث بما احتوت عليه من صراع طويل بين أمتين وحضارتين . ثم ان التكرار الذى يراه الدكتور أحمد الجندى هو ظاهرة لا بد من وجودها على درجة من الدرجات ، في شعر نظم في فترة واحدة ، وفي ظل مؤثرات كبيرة واحدة أيضا ، وحتى مع ذلك ، فإنه يصعب اطلاق هذا الحكم دونما تحفظ على جميع الشعر الذى نظم في هذه الفترة ، لأن التلون موجود فيه مثلما أن قدرا من التماثل والتكرار موجود فيه كذلك .

أما تحديد زمن الضعف بالقرن الذى بدأت فيه الحروب الصليبية ، فهو حكم على النواحي السياسية في المشرق الاسلامي ، ولا يوجد دائما ارتباط بين الضعف السياسي وضعف الادب ، واذا وجد ارتباط بينهما فانه لا يمكن أن يظهر مباشرة في النصوص الادبية ، لان الظواهر الادبية لا تولد بين يوم وليلة ، بل هي تحتاج الى زمن كاف لكي تولد أو لكي تتبدل .

أما تعليله الضعف الادبي بوجود البديع ، فان ظاهرة البديع لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، بل هي قد وجدت قبل ذلك ، وأصبحت لافتة للانظار بشكل واضح خلال القرن الرابع الهجرى .

واما الحديث عن أعجمية الممدوحين ، فان العبرة في الامر ، هو التمكن من اللغة العربية ، وليس العرق ، بدليل أن كلا من ابن العميد ، والصاحب بن عباد في القرن الرابع كانا من غير العرب ، ولكن تمكنهما من العربية وتذوقهما لادبها ، جعلاهما من أعلام الادب العربي في عصرهما ، بل ومن عوامل النهوض بالادب مما كانا يقدمانه

---

(١) زكي مبارك ، شعر الحروب في أدب العرب ص ٣٤٠

من تشجيع ورعاية لأدباء عصرهما *.

ولو أننا جارينا د. أحمد الجندي حول كون الممدوحين من أصل غير عربي، مما دفع الشعراء الى تبسيط شعرهم، فان تبسيط الشعر لا يكون بالتلاعب اللفظي، لأن التلاعب اللفظي يعقد المعنى ولا يبسطه، ومعلوم أن البديع يحتوى الكثير من التلاعب اللفظي، فكيف يكون اعجاب الممدوحين من أصل غير عربي بشعر معقد، قد يصعب عليهم فهمه ؟.

أما وصف د. عبد العزيز الأهواني الادب في العصر الايوبي بالعقم والانحراف، فان فيه قسوة حتى على شعر ابن سناء الملك وحده، لوجود قصائد لهذا الشاعر لا ينطبق عليها الحكم القاسي الشامل الذى أصدره عليه الدكتور الاهواني، فكيف بالامر اذا عم هذا الحكم على جميع شعراء عصره، ومنهم من لا يسير في شعره على مدرسته، وبالتالي، فلا يجوز أن يشجب شعرهم بناء على مقاييس لا تنطبق عليهم ؟.

وأما حديث د. زكي المحاسني عن نزول الشعر العربي في هذه الفترة الى درك التقاعس، فان الرد عليه لا يختلف كثيرا عن الرد على الناقدين السابقين ...

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أقوال بعض من الدراسين الآخرين لهذه الفترة:

أ. يرى د. عبد اللطيف حمزة أن الشعر الصليبي يمتاز بالقوة والصدق، لأنه شعر الحماسة في محنة الحروب الصليبية، ثم إنه شعر الطائفة الذى يتصل بشعور ديني عميق في نفوس المسلمين (١).

ب. وصف "جب" هذا العصر بأنه العصر الفضي للأدب، وأنه يتميز بالابداع والعبقرية تدر امتيازه بالبراعة والصنعة أو المهارة الفنية (٢).

---

* أنظر عن تشجيع حكام العصر للأدب كتاب: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٥، وكتاب: المدخل في الادب العربي ص ١١٣، وانظر كذلك النجوم الزاهرة ٦/ ٥٨ ـ ٥٩

(١) أدب الحروب الصليبية ص ١٧٤ وانظر ص ١٩، وكتاب الشعر العربي في العراق ص ٣٠٥ وكتاب الادب في مصر والشام ص ٧٩٩

(٢) محمد زغلول سلام، ضياء الدين بن الاثير ص ٢٢ عن:

Gibb, Arbic literature p. 82

جـ • كما وصف جودت الركابي أدب هذا العصر بأنه محافظ على رونقه ، وتماسك في العصر المملوكي بعض الشيء ، ولكنه انحدر انحدارا واضحا في العهد العثماني (١) هذا ، وقد بالغ بعض الدارسين في تقرير شعر الفترة ، فذهبوا الى حد القول : ان الشعر في هذا العصر اتصل بالواقع اتم اتصال ودبت فيه حياة لم تكن تمهد قبل ذلك في الشعر العربي (٢) •

ولا بد أن نتساءل بعد أخيراً هل تأثر الادب العربي بالفرنج وأدبهم ؟ الجواب على ذلك بالنفي ، وذلك لأنه قد تبين أن الفرنج كانوا أدنى في مستواهم الحضاري من المسلمين ، ولان العداء المستحكم بين الطرفين طيلة هذه الفترة ، وقلة الاحتكاك الثقافي فيما بينهما ، بالاضافة الى اختلاف مصادر الادب العربي وأسسه وركائزه عن مصادر أدب الفرنج وأسسه وركائزه — كل هذه العوامل ، جعلت تأثر الادب العربي بأدب الغزاة يكاد لا يلحظ •

أما تأثير الفرنج عامة بسلوكهم وعاداتهم ولغتهم في الادب العربي ، فهو كذلك تأثير محدود ، وقد يتجلى بدخول بعض الالفاظ الجديدة في الشعر ، كالقومص ، والبرنس ، والسّير ، وبعض الاسماء كالداوية والفريرية والهنفري *•

كما أن بعض الشعراء قد أورد في شعره صورا وألفاظا مأخوذة من حياة الصليبيين ، مثل : هيكل ، قونة ، قديس ، قس ، بربارة ، مَدْرس ، برنس ، قداس ••• الخ • **

---

(١) جودت الركابي ، الأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ط١ مط زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر دمشق سنة ١٣٩٤ ص ٧

(٢) محمود مصطفى ، الادب العربي في مصر الى نهاية العصر الايوبي ٢٧٧

* انظر على سبيل المثال : الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٩ ، والخريدة قسم شعراء الشام ١/ ٥٩

** انظر ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ ـ ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠

الفصل الثانـــــــي

أولا : النثر الادبـــــــي :

شارك النثر الشعر في تقديم صورة الصليبيين ، بما قدمه من أوصاف دقيقة لبعـــض المشاهد ، أو سرد لبعض الحوادث ، ويمكن عرض الانماط الادبية التي شاركت في رســم صورة الصليبيين على النحو التالي :

١٠ التواليف الأدبيــة ٢٠ الرسائل ٣٠ الخطب ٤٠ نصوص الهدن

١٠ التواليف الأدبية :

عرف عن هذا العصر كثرة التآليف في مختلف ميادين الحياة الانسانية ، ويهمنا منها كتب الادب أو الكتب التاريخية الادبية ، وهي تتراوح بين الالتزام بالصور البيانية المختلفـة والانفكاك عنها . وخير ما يمثل النوع الاول كتاب " الفتح القسي في الفتح القدســي " للعماد الاصفهاني ، وهو مثقل بالسجع وأنواع البديع ، ومن خير ما يمثل النوع الثاني كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " لابن شداد ، وقد تخلى فيه صاحبه عن البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، ثم كتاب "الاعتبار " لأسامة بن منقذ ، وهو يمثل أسلوب المذكرات الشخصية ، فجاءت لغته ، في معظمها ، عادية ، وربما تنحدر أحيانا الى العاميـــة ، وكتاب " رحلة ابن جبير " ، وهو يمثل كتابة الملاحظات العامة التي يشاهدها الرحالة ، وقد يجنح أحيانا الى استعمال الصور البيانية ، ولكن هذا ليس هو النمط الكتابي الغالب عليه .

أ . الفتح القسي في الفتح القدسي :

لسنا معنيين هنا بتقويم الكتاب الا من حيث الصياغة الفنية ، فهو كما يبدو مـــن العنوان ، يستلهم نفحات قس بن ساعدة كاهن العرب وخطيبها ، ليعرض تاريخ الفتوح العظمى زمن صلاح الدين واهمها فتح القدس ، وهو يقدم مادته بلغـــة مسجوعة ، وألفاظا منتقاة ، قد تصل الى حد الغرابة ، ان اضطره السجع الــى ذلك .

ولكن مقدرته اللغوية سهلت له استعمال ألوان البديع ، فقد يشتق من الالفــاظ الاجنبية مفردات تجانسها ، يقول على سبيل المثال في وصف فرق الفرنج الـتي استعدت لمعركة حطين : " وللداوي دَوي ، وللاسبتاري هوي ، والباروني يقدم على البوار ، والتركبولي يلقي نفسه على النار ، وقد ثاروا والنار قد وَقَدَ ، والجو قد عقد وقد انصدع زجاج الزجاج ، وارتجز عجاج العجاج ، وانفض الفضـــــــاء ،

وأنقض القضاء ، وكادوا يفلون الجمع ، ويجمعون الفل ، ويحلون العقد ، ويعقدون ما انحل ... " (١)

ونلاحظ دقة الوصف في أوصافه مع أن كتابه حفل بأنواع البديع ، فالنص السابق محشو بالسجع ،والطباق ، والجناس ، والتجنيس بالاشتقاق اللغوي ، ويمكن أن نجد ذلك في أية صفحة من صفحات الكتاب .

ومن الأمثلة الأخرى للوصف الدقيق ، وصفه للخلاف الذى نشب بين امراء الفرنج ثم تصافيهم قبيل المعركة ، يقول : " وقد كان بينهم (الفرنج) حينئذ خلف منبعث وحليف منتكث ، ووقود نار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدنوا حين حينهم ، سعوا في اصلاح ذات بينهم ، ودخل الملك على القومص ، ليتقضى له بالود الأخلص ، ورمى عليه بنفسه ،واستبدل وحشته بأنسه ..." (٢) .

والذى يتابع نصوص العماد في الفتح القسي ... يلاحظ أنها مستقاة من مصادر مختلفة ، فبعضها مأخوذ من البيئة في انسانها وحيوانها ، كقول العماد عن البركيس : " وكان البركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه ، وأضرى سراحينه وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه ... وأعوى أعوانه ، وأخون إخوانه ، وأبشى بغاته وأرعى حماته ، ... وأروغ ثعالبه وألسب عقاربه ..." (٣) .

وبعضها مأخوذ من الحرب وما يرتبط بها من شؤون القتال وأدواته ونتائجه ، كقول العماد : " ... هذا ، والمنجنيقات ترميهم ،والمفوقات الموفقات تصميهم وتصميهم ، والقتال قائم ، والنزال دائم ، والصخور تفلق والصدور تقلق ، والاحجار تقلق ،والاحجار تقلقل ، والاسوار تحلحل ... والاوداج شاخبة كالعيون البواكي ،والأبشار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي ، وهناك العقل معزول بالتهور ، والرأي مشغول عن التدبر ، والحلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه ، والجرخي يبتدئ بنسم الله ، والمنجنيقي يختم بلا إله إلا الله ، والزراق بالنار يذليب القارورة ،ويحرق الساتورة ... فلم يسمع الا ضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد ، وجعجعة رحى الحرب ، وقعقعة أداة الطعن والضرب ، وصلصلة الزبر ، وولولة الزمر ،وحيعلة دعاة النصر ، وهيضلة رعاة الكفر ..." (٤) .

---

(١) الفتح القسي ٦٢
(٢) المصدر السابق ٦٥
(٣) المصدر السابق ١٠٢ وانظر ص ٢٤٠
(٤) المصدر السابق ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦

وقد توخذ هذه الصور من الحياة الدينية للمسلمين وخصومهم ، كما يتراءى في النص السابق ، وفي قول الكاتب نفسه : " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا ، وعيثت دركات النيران ، وحفت درجات الجنان ، وانتظر ما لك واستبشر رضوان .. " (١) وفي قوله : " وهو (الصليب) اذا نصب أقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ... " (٢) .

وثمة مصادر أخرى للصور البيانية التي استعملها العماد ، تستبين منها ثقافته الواسعة المتشعبة ، ولا مجال هنا لاستقصائها ... إلا أن أي قارئ لهذه النصوص لا تخفى عليه مقدرة العماد اللغوية ، كما لا تخفى عليه قدرته على استخلاص الصور البيانية من مصادر كثيرة متنوعة ، منها ما هو حسي ، ومنها ما هو ذهني ... وقد يتأتى عن الافراط في الزخرف البياني عند العماد ، أن تجور الصياغة اللفظية على وضوح المعنى وحرارة الانفعال .

ب. النوادر السلطانيـة :

وهو كتاب عن صلاح الدين كتبه قاضيه ابن شداد مستعينا بمشاهداته ، وما وصله من مشاهدات غيره وسماعهم ، وقد حرص فيها على تحديد الزمان والمكان دون تأنق زائد ، أو تصيد للالفاظ ، فجاءت كتابته سهلة ، تستقي من الوقائع ، وتعتمد على الحقائق في تحريك المشاعر ، دونما افراط في استعمال الصور البيانية .

وباستطاعة القارئ ملاحظة ذلك في معظم ما ورد في الكتاب من نقل للأحداث ، فها هو ذا يصف خروج الفرنج الى التلول المحيطة بعكا وصفا دقيقا ، ثم يصف تصدي المسلمين لهم ، فيقول : " فاعتدوا على التلال ، وساروا الهوينى غير خارجين في أنفسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك ، واقدام العدو عليهم ، تداعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان (قدس الله روحه) بالعساكر الاسلامية : " يا للاسلام " .

فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم ، وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل

(١) الفتح القسي ص ٧٨

(٢) المصدر السابق ٨٤

فيهم ، والسالم منهم جريح ، والطالب هارب ... يعثر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم ، حتى لحق الخيام من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم ... " (١) .

فهذا النص لوحة ناطقة ، تتضح فيها حركة العدو ، وتصدّي المسلمين لهم ، مع وصف الحالة النفسية عند الطرفين .

كل ذلك بلغة شائقة مأنوسة لا تبعد كثيرا عن الاستعمال اليومي ، وإنما فيها من الحرارة ما يمليه الموقف المثير ، وفيه من الفصاحة ما يتطلبه وصف موقف كهذا . وأما ما جاء فيه من سجع ، فلا افراط فيه ، وهو متماسك غير متخلخل ، وألفاظه ذات ايحاءات مثيرة ، اكتسبت من تواتر الاستعمال في سياقات معينة ، مثل قوله : وصاح السلطان : يا للاسلام " و "كان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم " .

ولكن ، مع حيوية الوصف وحرارته ، فان الكاتب لم يقدم صورة ذات تسلسل لاحداث المعركة ، شأنه في ذلك شأن العماد ، وذلك لان الكاتبين يقدمان صورة المعركة العامة ، بدلا من أن يسيرا مع المعركة خطوة خطوة ، الى أن يصلا الى نتيجتها . وقد يتعجل الواحد منهما في الوصف الى النتيجة كما فعل ابن شداد ، حتى وهو يصف حصار مدينة استمر سنتين كاملتين ، سيطر الفرنج خلالها على مشارف المدينة ــ عكا ــ من البر والبحر معا . في حين أن الآخر ــ العماد ــ يعرض لنا لوحة زخرفية حافلة بالصور الجزئية المعتمدة على التزويق اللفظي ، وهو يقدم لنا وصفا لوقعة عكا الآنفة الذكر ، يقول : " وأصبح الفرنج ، يوم الاربعاء العشرين من شعبان ، قد رفعوا الصلبان ، وزحف أسودهم في غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان ، وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح ، وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشفعوا بالتربية للتربية ، وتقدموا متزرين ، وعزوا مصممين ، وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل أمام الفرسان ، وزحفوا ، أرالبا ، وحفزوا طلائبا ، ودبوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب النيل الى المضمار ، وأجروا سيول السوابق الى القرار ... " (٢) .

والمدقق في هذا الوصف ، يجد أنه يتكون من قطع فسيفسائية ، تتعلق أجزاؤها الأولى بوصف لحركة الفرنج السريعة ، وهم مدججون بالسلاح على سوابق الخيل ، وأصواتهم تتردد بالتعريض والاستشارة ، ولكن المشهد

---

(١) النوادر السلطانية ١٠٧

(٢) الفتح القسي ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩

الأول سرعان ما يندفع في المشهد الثاني ، المتعلق بتقدم الفرنج نحو خصومهم : " وتقدموا معتزمين ، وعزموا مصممين ... " ثم يبدأ المشهد الثالث بالحديث عن حركة للجيش الفرنجي سرعان ما تتصاعد ، الى أن تصل قمة السرعة ، وعندها تنهمر الدماء سيولا في ساحة المعركة .

وهذه المشاهد الثلاثتكون معا صورة المعركة ، بما فيها من حركات وأصوات وأدوات قتال .

ولعل عدم توفيق الشعراء والكتاب في رسم صورة متكاملة للمعركة ، تتسلسل فيها المشاهد وتتتابع ، هو عدم وجود الكثير من الوصف العربي الدقيق في تراثنا الادبي ، وربما كان غياب الاديب كذلك عن مسرح القتال في كثير من الحالات ، عاملا من عوامل فقدان التسلسل والتتابع والتكامل .

جـ . الاعتبـــــار :

وهو كتاب مذكرات ، كتبها أسامة بن منقذ في شيخوخته عن مشاهداته وتجاربه ، وأراد بها تقديم العبرة لغيره ، فهو - لذلك - ان وصف معركة لم يكتف برواية أحداثها فقط ، وانما يذكر ، كذلك ، ما يتعلق وروح الاحداث ، وما يمكن استخلاص العبرة منه . يقول في موقعة بيت جبرين التي كان سببها اشمان أسامة وبعض فرسانه النار في بيادر الفرنج : " فاجتمع الفرنج - لعنهم الله - من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة ، وفيها خيل كثيرة للافرنج لمنادا ة عسقلان ومراوحتها ، وغربوا على أصحابنا ، فجاءني فارس يركض ، وقال : قد جاء الافرنج ، فسرت الى اصحابنا ، وقد وصلت أوائل الفرنج ، وهم - لعنهم الله - أكبر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية ووقفوا عليها وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء .. لا ينزل منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم .. " (١) .

فقد أراد بذلك التدليل على احتراز الفرنج ، بالرغم عن كثرتهم وقلة أعدائهم فلم ينزلوا عن الرابية خوفا من كمين أو مكيدة ، وقد أورد ملاحظات كثيرة في كتابة " الاعتبار " عن تأخر طبهم ، وعدم غيرتهم ... الخ .

ومن العبر التي يقدمها للقارئ أن القتال ودخول المعارك لا يقصر الآجال ، ويذكر على ذلك بعض المشاهدات ، منها : أن شابا فرنجيا جاء الى أسامة ليبصر فرسان المسلمين ، ويصفه بحسن الهيئة ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قدّته من مفرقه الى حكمته ، ومع ذلك ما زال حيا (٢)

---

(١) الاعتبـــــار ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ٦٩

أما لغة هذا الكتاب فهي سهلة لا تبتعد عن اللغة المحكية كثيرا ، بل كثيرا ما اتكأ على اللغة المحكية في وصفه ،مثل قوله عن سرعة فرسه بأنها : " مثل الطير " (١) وقوله على لسان الفرنج الذين سألوا بواب مدينة شيزر " ايش اسم هذا البلد " (١) وقوله عن فرنجي أراد اصطحاب ابنه (ابن اسامة) معه الى اوروبا بأن كلامه : " ما يخرج من رأس عاقل " (١) .

د . رحلة ابن جبير :

وهي مذكرات كتبها الرحالة ابن جبير حين مرّ ببلاد الشام ، فوصف بعض المناطق مثل حصن الكرك ، وبانياس ، وعكا .. ووصف علاقة الفرنج بالمسلمين في بعض المناطق .. كما سجل ما شاهده من سلوك الصليبيين ، وعاداتهم في الافراح ومن ذلك قوله عن معاملة أهل عكا من الفرنج للمسلمين : " ان المسلمين يعانون أهوالا ومشقات ، منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطاره ، لا سيما من أراذلهم ، وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير " (٢) . وعن معاملتهم للأسرى المسلمين ، يقول : " ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم ، أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد " (٢) .

ويلاحظ أن لغة الكتاب ترتفع عن لغة أسامة بن منقذ ، فهي بعيدة عن التعبيرات المحكية ، وقد يتأنق المؤلف أحيانا في بعض الفصول حتى يشيع الزخرف اللفظي والصور البيانية فيما يكتب (٣) .

ويلاحظ الباحث ، أيضا ، أن هذه المذكرات بأنواعها قد غذت الأدب العربي بمادة شائقة وأضافت اليه أبوابا جديدة ، وقد جاء بعضها مثقلا بالزخرف اللفظي ، في حين كان اكثرها بعيدا عن الصنعة والتكلف ، وهي في مجملها سواء منها المثقلة بالزخرف أو الخالية منه - تقدم صورة واضحة عن أوضاع كانت قائمة في تلك الفترة ، وتستمد هذه الصورة قيمتها من أنها وليدة المشاهدة لا السماع ...

---

(١) انظر الاعتبار على الترتيب ص ٤٠ ، ٤٨ ، ١٣٢ ، وأنظر ١٣٦ ، ١٤٨

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠

(٣) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ... الخ

٢ - الرسائــــل :

أدت الحروب المتوالية بين المسلمين والفرنج الى نهضة النثر ، لا سيما نثر الرسائل بما كانت تحمله هذه الرسائل من بشائر بالفتح أو تهنئة أو طلب نجدة أو أوامر عسكرية . ومن خلال هذه الاغراض يمكن للقارئ أن يخرج بمادة خصبة عن الفترة التي ندرسها .

وقد يكون من المفيد الوقوف على الرسائل الديوانية والاخوانية لنستشف من خلالها السمات الفنية لهذا النوع من النثر .

الرسائل الديوانية :

من الصعب على الباحث أن يحصر عدد الرسائل الديوانية لان كثيرا منها لم يصلنا ، ولان الكثير مما وصلنا لم يصل كاملا ، بل جاء نتفا ، نجد الكثير منها في كتاب الروضتين ، وفي مخطوطة " الفاضل من كلام القاضي الفاضل " ، والذى جاء منها كاملا عدد ضئيل موزع بين صبح الاعشى والروضتين ، ونهاية الارب ، ورسائل ابن الاثير

وسنتناول بالتحليل بعض هذه الرسائل لنقف على سماتها الفنية .

١. رسالة القاضي الفاضل الى الديوان العزيز ببغداد ، بفتح القدس وما معه ، واقتلاع ذلك من أيدى الفرنج ، واعادته الى ما كان عليه من الاسلام ، وهي :

" أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصرى ، ولا زال مظفر الجد بكل جاد ، غني التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر ، والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود ، والسحاب على الارض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل ، وان كان لا يلقى الا بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لا يمضي الا بنيل غوى ، وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله الى الاولياء أنواء الى المرابع وأنوارا الى المساجد ، وبعوث رعبه الى الاعداء خيلا الى المراقب وخيالا الى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للاقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، يسري للاسرار في اظهارها مسارب ، ولله في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمور الاسلام الى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهله دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الانفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفا ، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، فأدلجت السيوف الى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واسترد

المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون بهطيفا على النأي طارقا ، واستقرت على الاعلى أقدامهم ، وخفقت على الاقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم •

« ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفوها الحجر الاسود ببيت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه الا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤس الا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ، الا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعيها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الاخرة لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لان يجلي غمرة غامر ، والاقانّ القعود يلين تحت نيوب الاعداء المعاجم فتعضّها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضّها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعىٰ به حق الله في العباد ، ولا يوفىٰ به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم للعيسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الاطهر ونجلهم الاكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعلوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضبوا لما نظر ، بل وصل الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها والى الصفائح ما عبقت بمجيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا والنهار بصيرا ، والشرق يهتدي بأنواره ، بل ان أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه نور لا تكنّه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف •

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفه ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما لما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، وأضحت الارض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يروق في ماء الحديد لهم عصره ، ولا في فناء الاقنية لهم نصره ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدّل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة الى أيدي أصحاب الميمنة •

" وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الاولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكتــه فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يحيى معها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أنصاف مجسل ثانه تتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بهـا حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكـم فارسية ركض عليها فارسها السهم الى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنـم وقودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، واكد وصله بالدين وعلائقه : وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهـم يبسط لهم باعه ، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنهم تهافتت على نارهم فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه ...

" ولما لم يبق الا القدس ، وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصـم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها الى اللـه شافعتهم فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قـد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليه مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من جانب فاذا أودية ، ولجج وعرة غريقة (هكذا) ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل الى جهة أخرى، كـان للمطامع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقـب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فاذا هم لا يصبرون على عبودية الجد عن عتق الصفـح ، فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة ، وانتظارا لنجدة ، فعرفهم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصـون عصيها ، وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفـارق سهامها نصالها ، فصافحت السور باكتافه ، فاذا سهمها في ثنايا شرفاتها سـواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاده الى الارض، ويعلو علوه الى السماك ، فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة ، فأمكن النقاب أن يسفر الحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الـى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربـ

الاخرق الدال على لطافة أنطه ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته ، الى أن كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ، وفتح في السور باب سد من لجاتهم أبوابا ، واخذ نقب في حجره قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ..." (١) .

يجدر القول ، قبل الشروع في تحليل هذه الرسالة ، أن القلقشندي صاحب " صبح الاعشى " قد تحدث عن بدايات الرسائل الديوانية ، وحصرها في جملة أساليب ، فوجد أنها تبدأ بذكر الديوان العزيز والدعاء للخليفة (٢) ، وقد تكون البداية في صدر الرسالة ، وقد تكون بعد الآيات التي تستهل بها الرسالة .

وكما هو واضح ، تبدأ هذه الرسالة بالدعاء للديوان العزيز ، ثم تنقل البشرى بالفتوحات ، وما جرى فيها من أحداث انتهت بتسليم الفرنج وطردهم . وخلال ذلك يعرض الفاضل أحوال المسلمين قبل الفتح وبعده ، لتظهر قيمة الفتح والفاتح ، ومن هنا ندرك أن هذه الرسالة ، وغيرها من الرسائل الديوانية ، ملتزمة بطرائق معينة .

والرسالة تدور حول موضوع واحد هو معركة حطين وفتح القدس ، وقد ضمن القاضي الفاضل رسالته عدة أفكار ، هي : الدعاء للديوان ثم شرح حال المسلمين قبل الفتح وبعده ، ثم وصف الاحداث التي أدت الى الفتح ، ووصف خروج الفرنج ... على أن البارز في الرسائل الديوانية عامة ، ومنها هذه الرسالة ، الميل الى التصوير والتشخيص ، والاكثار من البديع ، والجنوح الى التكرار .

أما مصادر الصور في هذه الرسالة فهي :

١ . دينية :

ومن ذلك قوله : وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخره كما تشفى بالماء غللهم ، وقوله : " وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، وجعل الله ملوك الكفار لنار جهنم وقودا .

---

(١) صبح الاعشى ٦/ ٤٩٦ -٥٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٩٦ .

٢• حربية :

وتتجلى في النص التالي : " ... فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا ينهض معها بجمعية لله كفر ، وأسر منهم من أسرته السلاسل ، وقتل منهم من انتكث به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن انصاف محيل فانه تقلهم بالسيوف الافلاق والرماح الكسار ، فنيلوا بمثل من السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهله تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ... النص " . وفي النص صور أخرى يمكن الرجوع اليها .

٣• اجتماعية :

مأخوذة من حياة الناس ، وهي صور متعددة كتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية ، فمنها ما هو مأخوذ من البشرى، ومنها ما هو مأخوذ من البيع والشراء ، ومنها ما هو مأخوذ من العادات الاجتماعية كالسمر واللباس والمصافحة والتأثر ... ومنها ما هو مأخوذ من الحياة الزراعية .

٤• ثقافية :

وتشمل صور التعلم وأدواته كالاقلام والحبر ، والمعلومات التاريخية والمعلومات العلمية كالحديث عن الانواء والكواكب والشفاء والتداوي .

٥• بيئية :

مأخوذة من الطبيعة كالظل والسحاب والبحر ، والاسد والغابات والرياض ...

وقد مال الكتاب كثيرا الى التشخيص وبث الحياة في الجمادات ، كما فعل القاضي حين صور الصخرة بالقلب الذي حل في جسم الدين ، وهي بذلك تلتقي مع الحجر الاسود ثم صورها بالمرأة المجاهدة التي خلصت نفسها من عصمة الكفر ، كما صور الارض المقدسة كلها بالمرأة الطامث زمن الغزو الصليبي ، وأما بعد استرجاعها فقد تطهرت من طمثهم ، وكذلك صور القومص بالحيوان الشرس الذي يفغر فاه ليفترس عدوه .

على أن جمال التشخيص يتجلى في وصفه لتحصينات القدس ، وما قامت به المجانيق الاسلامية من نقب للاسوار وتحطيمها ، فهو يشبه السور المحيط بالقدس بالسوار المحيط باليد ، وتتخلل هذا السور الابراج المشرفة على المناطق المجاورة ، ثم يذكر نزول صلاح الدين عليها ، وقتاله لها ، وقصفه اياها بالمنجنيقات وأنواع الاسلحة الخفيفة ، فالسهام تصافح السور ، وتدخل في الشرفات كأنها سواك ، والمجانيق تقصف الابراج فتهزها بالصوت وتدمرها بالحجارة ، فيرتفع الغبار ، وتتناثر الحجارة ، ويتبرأ بعضها من بعض ،

ابن الخلال رئيس الديوان ، فسأله : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ، فرد عليه القاضي – كما يروي ابن الاثير في كتابه الوشي المرقوم – ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن ، وكتاب الحماسة ، فقال : في هذا بلاغ ... ثم أمره بملازمته ، ... حتى تدرب بين يديه ثم أمره بحل شعر الحماسة من أوله الى آخره مرتين ..(١) .

وهذا يدل على أن حل الشعر والقرآن والحكم والامثال والحديث أصبح من مستلزمات الكتابة الفنية في العصر الايوبي وما بعده . وفي الرسالة المورودة آنفا اعتمد القاضي على الاقتباس الحرفي والمعنوي ، ومن أمثلة ذلك قوله : " وصدق الله أهل دينه " ، وقوله : " وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين " (٢) وقوله : " فتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى " (٣) وقوله : وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا (٤) وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا (٥) وظنوا أنها من الله مانعتهم وان كنيستها الى الله شافعتهم (٦) فتقبل منهم البذول عن يد وهم صاغرون (٧) وقال الكافر : يا ليتني كنت ترابا (٨) فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور (٩) ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور (١٠) .

---

(١) انظر مجلة الهلال ، العدد التاسع – السنة الحادية والثلاثون ، ايلول سنة ١٩٧٣ مقال د . محمد أحمد خلف الله ، عن القاضي الفاضل ص ٤٢

(٢) اشارة الى الآية : " ليُظهِرَه على الدّين كلّه ولو كَرِهَ المشركون " . الصف ٩

(٣) = = " وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا " . التوبة ٤٠

(٤) = = " ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود " . هود ١٠٣

(٥) = = " وأولئك هم وقود النار " . آل عمران ١٠

(٦) = = " وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " . الحشر ٥٩

(٧) = = " حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون " . التوبة ٢٩

(٨) = = " ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا " . النبأ ٤٠

(٩) = = " قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفارُ من أصحاب القبور " . الممتحنة ١٣

(١٠) = = " حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور " . الحديد ٥٧

ومن التأثر بالحديث قوله : وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، ومن الحكم قوله : ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر .

٣ ـ الطباق :

وهو قليل في هذه الرسالة بالنسبة الى السجع ، ومن أمثلته : تقلص ـ المبسوط البؤسى ـ النعمى ، الاخرة ـ الدنيا ، سواد ـ بياض ، غابوا ـ حضر ، كسرة ـ جبر ... الخ .

٤ ـ الجناس :

وهو قليل أيضا ، ومن أمثلته : أنواء ـ أنوار ـ المراقب ـ المراقد ، العنان ـ العيان ... الخ .

أما الاطناب وتكرار المعاني فهما سمتان عامتان في الرسائل الديوانية التي تحمل انباء الفتوحات ، اذ يعبر الكاتب عن الفكرة في عدة جمل ، ويكرر المعنى في أشكال مختلفة ، ولو نظرنا في رسالة القاضي السابقة لوجدنا فيها هذه السمة بوضوح ، فهو يقول مثلا : وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصى ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ... " فالنص كله يدور حول معنى واحد ، وهو ضعف العدو ، وهذا المعنى تكرر من قبل في الفقرات السابقة أيضا ، كما تكرر في الجمل السابقة ، فتكسر رماحه وطيران فرقه ، وتثلم سيفه ... كلها تعني ضعف العدو .

ومما يتسم به أسلوب هذه الرسالة المبالغة ، فقد بالغ القاضي في كل شيء : وهو يزف البشرى ، وهو يصف الفتح ، وهو يصف اندحار العدو وهزيمته ... ، ويمكن للقارئ أن يرجع الى الرسالة ليجد الشواهد على هذه المبالغة ، ونجتزئ هنا فقط ببعض حديثه عن البشرى : " فانها بحر للاقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للاسرار في اظهارها مسارب ... "

والمبالغة في التعبير مما جنح اليه كتاب الدواوين عامة في هذا العصر ، ولعل حرص القاضي الفاضل على تعظيم النصر والمنتصر ، من الحوافز التي دفعته الى هذه المبالغة ، ولكنه أفرط ، وافراطه هذا لا يرجع الى تحكم السجع والزخرف اللفظي في كتابته ، فقد كان تمكنه من المادة اللغوية كفيلا بأن يخرجه من قيود البيان التي قد يتعثر بها من هو أقل منه معرفة باللغة " .

أما انفعال القاضي بما يكتب ، فأمر لا ريب فيه ، وهو انفعال يبعثه أولا أنه رجل من الأمة التي ابتليت بالغزو والاحتلال ، ثم استطاعت التخلص منهما ، ويؤ جججه بعد ذلك أن الكاتب لم يكن مجرد رجل عادي من صفوف الناس ، بل كانت له منزلة عند صلاح الدين لا تكاد تدانى ، حتى عده السلطان من صناع النصر في القدس ، والاسلوب الذى اعتمده القاضي في هذه الرسالة ، هو أسلوب شاعرى ينطلق فيه خيال الكاتب ، وتتدفق فيه عواطفه ، كما في أى نص شعرى .

ب. رسالة العماد الاصفهاني الى الديوان العزيز ببغداد بمناسبة فتح طبرية يقول :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون " ، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن اجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في الايام الامامية الناصرية زادها الله غرا وأوضاحا ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ، ومكن سيوفها في كل مازق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادى المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنتها لدماء الاعداء نوازح .

والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلابيب الظلماء وجدده ، وجعل بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهون الامر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : " ولقد مننا عليك مرة أخرى " : فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والاخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حرا ، فالزمان كهيئته استدار ، والحق بمهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الاسلام بمسومها ، وترادف نصره بمردفها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤ فيها ، فكم أقدم بهها حيزوم ، وركض فابده سحاب عجاج مركوم وضرب فاذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، ولولا فان الحروب انما عقدت سجالا ، وانما جمعت رجالا وانما دعت خفافا وثقالا ، فاما سيوف تقاتل سيوفا ، أو زحوف تقاتل زحوفا ، فيكون حد الحديد بيد مذكرا وبيد مؤنثا ويكون السيف في اليد الموحدة يغني بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يغني بالضرب مثلثا ، وذلك أنه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وان هذه النصرة ان رويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم ، وان رويت عن البشر فقد عرفت قبل مقاماتهم ،

فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ، ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه الصميخ ، فكم قرية كأنها هجرة الدوت وبها التاريخ ، وكم طمنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .

والحمد الله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا حبله ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله . والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما أنعم الله به — من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الاخر الى يوم الخميس منسلخه — وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار " فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية " ورايتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على الفرنج فقضت نحبها بحيرتها ، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة .

وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ، ورفعت بها أعلام الايمان ، وهي أم البلاد واخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الاسلام . وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت ماسور ، وقلب ملك الكفر الاسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان في الكفر يضرب وجه الاسلام ، قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهنا فلا تقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها ، بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضير ، وقد صارت البيع مساجد هم بها من آمن بالله واليوم الاخر ، وصارت المناصر مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر ، والبأس الامامي الناصري قد أمضى مشكاته على يد الخادم حتى بالدني في الكنائس ، وان عز أول الاسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس ... " (١)

أول ما يلفت النظر في هذه الرسالة أنها تبدأ بآية قرانية ، متلوة بالدعاء للديوان العزيز والسلطان صلاح الدين ، ثم ينتقل الكاتب الى وصف حالة الاسلام قبل الفتح وبعده ، ففتح القدس هو محور الرسالة الذى تدور الاحداث حوله .

وقد انتزع العماد صورة البيانية من الحياة الدينية والاجتماعية ومصادرهما ، ومن الطبيعة وأجواء الحرب . ومن السهل على الناظر في الرسالة أن يجد الشواهد على هذه الصور .

---

(١) صبح الاعشى ٦/٥١٧–٥٢٠ ، الروضتين ٢/٨٩

والعماد كالقاضي الفاضل ، يعتمد كثيرا على التضمين ،كما في قوله : " وغسل شحوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد " وفي قوله : "وقد أصدر هذه المطالعة وطليب الصليبوت مأسور ، وقلب الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ،والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ٠٠"

ويطغى البديع على هذه الرسالة كما يطغى على رسائل العماد عموما ، ولو أخذ القارئ أية فقرة لوجد فيها ألوان البديع ، ومنها السجع والاقتباس اللفظي والمعنوي والتضمين ، ومن أمثلة الاقتباس اللفظي قوله : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون (١) وقوله : "ولقد مننا عليك مرة أخرى"(٢) وقوله : "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" (٣) ٠ ومن الامثلة على حمل الايات القرآنية قول الكاتب : الحمد لله على ما أنجز هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد (٤) وقذف به على الباطل الزاهق (٥) وجعل بعد عسر يسرا (٦) وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا (٧) ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا (٨) ،وأتى بنيان الكفر من القواعد (٩) ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون الاخطلة (١٠) ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤ وفيها (١١) ، في فئتين التقتا (١٢) ٠٠٠ الخ ٠

---

(١) سورة الانبياء آية ١٠٥ (٢) سورة طه آية ٣٧

(٣) سورة الحاقه آية ٦٩

(٤) اشارة الى قوله تعالى : "لله الامر من قبل ومن بعد" " الروم ٤

(٥) = = = "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق" الانبياء آية ١٨

(٦) = = = " فان مع العسر يسرا " الشرح آية ٥

(٧) = = = "لا تدري لعلّ الله يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمرا " الطلاق ٦٥

(٨) = = = "قال إنك لن تستطيع معي صبرا " الكهف ٦٧

(٩) = = = "قد مكر الذين من قبلهم ،فأتى الله بنيانهم من القواعد " سورة النحل آية ٢٦

(١٠) = = = " ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين" سورة آل عمران آية ١٢٤

(١١) = = = "وكذلك أخْذُ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة " هود ١٠٢

(١٢) = = = "قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا ٠٠ " آل عمران ١٣

ومن الأمثلة على حل نصوص الاحاديث النبوية ، قوله : فهو قد أصبح حـــرا فالزمان كهيئته ، استدار ... ومن ألوان البديع كذلك ، الطباق ، ويبدو في الالفاظ التالية : مخلوق ــ خالق ، الحق ــ الباطل ، المغارب ــ المشارق ، عسر ــ يســـر الليل ــ النهار ، مذكر ــ مؤنث ، الموحد ــ المثلث ــ ضاحكة ــ باكية ، جديـــد جديد (البالي)... الخ .

ومنه الجناس ، ويتمثل في الكلمات التالية : سيرة ــ سرية ، جدد ــ جدد ، استدار ــ استنار ، بَحَيْرتها ــ بحيرتها ، نصره ــ نصله ... (١) .

وأما الاطناب والتكرار ، فاننا نجد منهما ما وجدناه من قبل عند القاضي الفاضل كقول العماد : الحمدلله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا حبله مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ... فهذه الجمل تؤدى معنى واحدا هو قوة الاسلام بعد الفتح .

ورغم هذا التشابه في السمات الفنية بين النصين إلا أننا نحس بعض فـــوارق في طريقة التناول ، فالعماد قسم الفتح على الأيام ووصف ما جرى في كل يوم ، ثم أن الجمل التي اعتمدها خاصة في نقل البُشرى ، كانت أقصر من جمل القاضي الفاضـــل ، وقد يشعر هذا القصر في الجمل بسرعة الحركة ، ثم إن العماد دخل في موضوع البُشرى مباشرة ، إذ قدم آيات الحمد المرتبطة بالفتح ، بينما أبتدا القاضي الفاضل رسالتـــه بالدعاء للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين .

وبعد ، فقد نتساءل : لو سقط اسم كاتب كل من الرسالتين ، هل يمكننـــا أن نتعرف عليه من خلال السمات الفنية لرسالته ؟ .

أغلب الظن أننا لن نستطيع ذلك ، لأن السمات الفنية مشتركة بين الرسالتـــين الى حد بعيد ، والواقع أنني حاولت فعلا ــ حين كنت أقرأ بعض الرسائل في كتـــاب الروضتين ــ أن أرد هذه الرسائل الى أصحابها فلم أستطع ، لأنني لم أجد المميـــزات الخاصة التي تضع حدا فاصلا بين رسائل أشهر كتاب الدواوين في هذه الفــــترة : القاضي الفاضل ، والعماد الاصفهاني ، وابن الاثير .

---

(١) انظر وصف العماد لرسالته بمناسبة الفتح ، يقول : وأوردت المعنى البلوغ في اللفظ الوجيز ، ووشحت ووشعت ، وشعبت وأشبعت ، وأطلت وأطلبت ... وأبدعت وأبدعت ، ورصعت وصرعت ، وطابقت وجانست ، ووافقت وآنست ... الفتح ١٢٣

ويقودنا هذا الى مناقشة آراء الذين ذكروا أن القاضي الفاضل ابتكر الطريقة التي سميت " الفاضلية " باسمه ، وهي التي تعتمد على نثر القرآن ، والتشخيص والاكثار من البديع (١) ، فقد تبين أن هذه المميزات الفنية مشتركة عند عدد من الكتاب الذين عنوا بالبديع زمن الفاضل وقبله ، مما يدل على أن القاضي لم يبتكر طريقة خاصة في الكتابة ،وانما كانت شهرته ومشاركته في الاحداث السياسية ، وارتباطه بشخصية صلاح الدين هي التي ساعدت على نسبة هذه الطريقة اليه دون غيره . ومعلوم أن القاضي الفاضل كان كاتبا زمن الدولة الفاطمية ثم زمن الدولة الايوبية ، وهو الذى كتب العهد لصلاح الدين بالوزارة ، لكنه حتى تلك الفترة لم يكن قد اشتهر بعد ،لانه لم يكن قد اضطلع بدور سياسي كبير ، وبقي الامر كذلك ، الى أن تمت الوحدة بين الشام ومصر على يد صلاح الدين ، فتولى تصريف الأمور في مصر في غياب صلاح ، وكان على اتصال دائم به ، واعتمد عليه صلاح الدين كثيرا ... واستفاد من قلمه ، حتى قال فيه : "ما فتحت البلاد بالعساكر ، وانما فتحتها بقلم القاضي الفاضل"(٢) .

ويمكننا القول ، إن رسائل القاضي الفاضل رسائل سياسية فكرية وجدانية تتصل بأعمال صلاح الدين وحياته اتصالا وثيقا ، بينما تقتصر رسائل العماد وابن الاثير على مراسلاته الرسمية " دون غيرها .

جـ. رسالة الملك المنصور قلاوون الى اليمن مبشرا بفتح " صافيثا " من انشاء محيي الدين بن عبدالظاهر ، يقول الكاتب :

" أعز الله تعالى نصرة المقام العالي ، المولوى ، السلطان الملكي المظفرى الشمسي ، وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتحل الحبى لاستطلاعها وتتهافت التواريخ والسير على استرقاعها ، وتتنافس الاقلام والسيوف على الافهام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولا مصرف أجر من قسمه ، ولا غرض هناء من سهمه ، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه ، سطر الملوك هذه البشرى والسيف والقلم يستمدان : هذا من دم وهذا من نقس ، ويمضيان هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاريان : هذا بالصليل ، وهذا بالصرير ، ويتناويان : هذا يستميل وهذا يستمير ، وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذى

---

(١) انظر الخريدة ١/ ٣٥ ، خزانة الادب ، ٢٤٠ ، الروضتين ١/ ٢٤٢ ، الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، أدب الحروب الصليبية ١٨٥ ، أمير شعراء المشرق ، ابن نباته المصري ص ٩١

(٢) مرآة الزمان ٨/ ٤٧٢

سمت اليه هم الملوك الاوائل ، ولا وسمت به سيرهم التي بدت أجيادها من حلاه عواطل ، ولا دار في خلد، أن مثله يتهيأ في المدد الطويلة ، ولا تشكل في ذهن أنه سيدرك بحول ولا حيلة ، وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا فيها المراحل وألقى بحور عساكرنا من بحر الحديد المالح الى الساحل ، وهجومنا على البلاد الفرنجية : وهي طرابلس وصافيثا وأنطرسوس ومرقية والمرقب ، كما يهجم الشهب ، وحلولنا صدورها كما يصدم الليث ، وسلوكنا منها حيث لم يبق حيث ، وما جرى في هذه الوجهة من اغارات أحسنت تقلب الأعنة ، وتسلق السيوف وحترق الاسنة ، وما تهيأ منها من فتوح صافيثا التي هي أم البلاد ، ومنتجع الحاضر والباد ، وكونها قدمت نفسها في جملة ما يقرى به الضيف ، وقالت : هذا فتوح حضر على هذا الفتوح لهذا السيف ، وتلطفت في مسح أطراف الامان ، وطلبت شكرا ومنا شكران ، وأحضرت الينا من أهلها الوقت وهدت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الاغلال ، وأنقت أيمان أهل الايمان من مصافحتهم لأنهم أصحاب الشمال ، فأطلقهم سيفنا وأقله يمتد الى من هو أعز منهم مالا ، وأكثر احتفالا ، وأبز مالا ، وأعز سيوفا قصارا ورماحا طوالا ، واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة الى غيرها من القلاع ، واستطال الى سواها من الحصون منهم الباع فلا حصن الا وافترت ثنيته عن نصر مسهل ، وفتح معجل ومؤجل ... الخ (١) .

بدأت هذه الرسالة بالدعاء لمقام المرسل اليه ، كتلك الرسائل السابقة ، ويجد القارئ في هذه ما وجدناه في تلك من سمات فنية ، فالسجع ملتزم به من أول الرسالة الى آخرها ، والطباق والجناس يشكلان عنصرا مهما من عناصر البيان فيها ، ولكن اعتماد الكاتب على حل القرآن والشعر أقل في هذه الرسالة مما هو في الرسالتين السابقتين ، وقد اكثر الكاتب من استعمال التشخيص ، فبعث الحياة في السيف والقلم ، وأنشأ مفاضلة بينهما على ما هو معهود في هذا العصر من مناظرات بين السيف والقلم ، ومنها مناظرة طويلة بينهما لجمال الدين بن نباته المصري (٢) .

ومن التشخيص كذلك وصفه لحصن الاكراد بأنه انسان متكبر يستطيع أن ينزل ضربته بالشام وقت ما يشاء ، ثم يصوره بأنه مقر للصقور ، ومربض للأسود ، يقول : " فمن ذلك حصن الاكراد الذى تاه بمحلقه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن يمتد الى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذبا بضبع الشام ، وآخذا بمخانق بلاد الاسلام ، وشللا في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد ، تنقض من عشه صقور الاعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمي تلك الاجام ، وتفوق من تسنه سهام تصمي مفوتات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون .... وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهي

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥

(٢) انظر المناظرة في كتاب : الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ٧٩

كالانامل ، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامـــل ... الخ

وفي الرسالة أيضا تشخيص لأدوات الحرب من مجانيق ورماح وسهام يقول : ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهق الجبال ، على رؤوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن الذى تقوم به هذه ، تلك به لا تقوم ، وأن ما منها إلا له من الأيدى والرؤوس مقام معلوم ، وجعل يرمى بها كل كمي مختلس ، وأروع منتهس ، وكل ليث غابة يحميها وتحميه ، فشكرا لأسود حتى غاباتها تفترس ، الى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب فصارت تميد من التعجب ، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب ... (١) .

* * *

هذا نمط من الرسائل الديوانية ، وهناك أنماط أخرى تتميز عن هذا النمط بسمة أو أكثر من السمات ، نظرا لاختلاف الموضوع أو اختلاف الكاتب .

أما اختلاف الكتاب فالمقصود فيه انتماؤهم الى كتاب الدواوين أو عدم انتمائهم وذلك لأن كتاب الدواوين تجمع بين رسائلهم سمات عامة مشتركة : كالسجع ، والتشخيص وحل القرآن والشعر ... الخ ، في حين أن الكتاب الآخرين قد لا يقيدون أنفسهم بقيود الزخارف اللفظية ، ولا يعنونها بالبحث عن الالفاظ والصور .

ومن الامثلة على ذلك رسالة السلطان الملك المعظم تورانشاه الى الامير جمال الدين موسى بن يغمور نائبه بدمشق يبشره بهزيمة الفرنج عن دمياط . يقول :

" الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

يبشر المجلس السامي الجمالي ، بل يبشر الاسلام كافة بما مَنّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والاهل والاولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة ـ تمم الله على الاسلام بركاتهـ ـ فتحنا الخزائن ، وبذلنا الاموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، واجتمع خلق لا يحصيهم الا الله تعالى ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا .

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، وانظر رسالة أخرى زمن الأشرف خليل تحمل السمات نفسها ، صبح الأعشى ٧/ ٣٦٨ .

ولما كان الليل تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا نهار الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الامان ، فأمناه وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته . "(١) .

فاذا ما قارنا بين هذه الرسالة والرسائل الديوانية السابقة نجد وجه التشابه اتكاءها جميعا على المادة القرآنية الى حد الاقتباس الحرفي .

فهي تبدأ بجملة آيات من سور مختلفة : " الحمد الله الذى أذهب عنا الحزن"(٢) "وما النصر الا من عند الله"(٣) ، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم"(٤) ، "وأما بنعمة ربك فحدث"(٥) ، "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" (٦) ، ومن الاقتباسات المعنوى قوله :" فنودوا لا تيأسوا من روح الله"(٧) ، وقوله : "فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق"(٨) ..

ولكن مع هذا التشابه اختلافا واضحا في نواح أخرى بين هذه الرسائل فالسجع في الرسالة الأخيرة قليل ، ويأتي دونما جهد وطلب شديد ، ويمكن حصره في أماكن محدودة : " ويشى العباد من البلاد والأهل والأولاد "، " فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق " .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١

(٢) سورة فاطر آية ٣٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٢٦ والأنفال آية ١٠

(٤) سورة الروم آية ٥

(٥) سورة الضحى آية ١١

(٦) سورة النحل آية ٧

(٧) اشارة الى قوله تعالى :"ولا تيأسوا من روح الله ،إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"، سورة يوسف آية ٨٧

(٨) اشارة الى قوله تعالى :"وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق"،سورة الحج آية ٢٧

" وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل " ، " ... غير من ألقى نفسه في اللجج وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج ... "

وثمة اختلاف آخر ، وهو ما تتسم به هذه الرسالة من سهولة الألفاظ وبساطة المعاني ، وقلة الصور البيانية ، دون أن ينشأ عن ذلك ضحالة في المعاني • فالرسالة تعرض ما جرى في دمياط من قتال مع الفرنج ، وتصور الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون ، من ذعر استشعروه في البداية ، ثم من ثقة ، استطاع السلطان أن يعيدها الى نفوسهم بعد ذلك ، كما تصور حالة الفرنج النفسية قبل المعركة الحاسمة وبعدهما ، مع ما رافق هزيمتهم من شعور المسلمين بالتشفي ، والحديث عن العدو بزراية وسخرية وكل ذلك في إطار أسطر قليلة •

واذ يختلف اسلوب النص باختلاف كاتبه ، فانه يختلف كذلك باختلاف موضوعه • وقد وضع شهاب الدين محمود نمطا عاما للرسائل ، وطلب من الكتّاب التقيد به ، فهو يقول : " ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه ، والتمسك به ، اعطاء كل مقام حقه ، فاذا كتب في أوقات الحروب الى نواب الملك عنه والى مقدمي الجيوش والسرايا ، فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد ، ويفصل الكلام بعضه عن بعض ، ولا تهويل لأمر العدو يضعف القلوب ، ولا تهوين لأمر يحصل به الاغترار ... واذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو الى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء العدو ، فليبسط القول في وصف العزائم ، وقوة الهمم وشدة الحمية الدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة وطي المراحل ... ويبرزه في أمتن كلام وأجلّه ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرقة ... " (١) ، وهذا ما لاحظه القلقشندي فيما بعد ، اذ يقول : " واعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكفر ومعاقلهم والاستيلاء على بلاد البغاة تكاد تكون على نسق واحد إلا ان مجال الكاتب في فتوحات بلاد الكفر أوسع ، من حيث عزة الاسلام على الكفر ، وظهور دينه على سائر الاديان" (٢) •

ومن الموضوعات التي برزت في الرسائل الديوانية التحريض والتوبيخ والرد على التهديد .... •

ومثال التحريض ما كتبه الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي الى أصحاب الثغور في طرابلس ، عند ظهور الفرنج في بحر تلك المنطقة ، يقول : " المرسوم بالامر العالي أعلاه الله تعالى ، لا زالت مراسمه النافذة تبلغ أهل العصابة المحمدية غاية الآمال ،

---

(١) نهاية الأرب جـ ٧ ص ١٨٩ ــ ١٩٠ ، وانظر حسن التوسل الى صناعة الترسل ص ١٣٤
(٢) صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٧٨

وأوامره المطاعة تقضي بكسر اللوسارية وشين الشوال ، أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة ، وأذل بسيوفهم الطائفة الكافرة ، بارتداء ملابس الجهاد ، والتحلي بحرارة الصبر على اجتلاء الجلاد ، وأن يجيبوا داعي الدين ، ويكفوا أيدي المعتدين ، ويفوقوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم ، ويشرعوا رماحهم ، ويحملوا سلاحهم ، ويومضوا بروق السيوف ، ويرسلوا نبال الحتوف ، ويهدموا بنيان الكفار ، ويطلعوا أهلة القسي بمد الاوتار ، ويهضموا جانب أهل العناد ، ويقابلوا البحر بسيل بحر من الجياد ، ويناظروا أمواجه بأمواج النصال ، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال ، ولا يمهلوهم بالنهار ولا بالليل ، ويعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، وينوروا بمصابيح الرباط في سبيل الله ظلام الدجنة ، وأن يصابروا ويصبروا فاذا استنفروا فلينفروا ، ويبالغوا في الغدو والرواح ليبلغوا الرعية من الأمن أمانيها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا ومافيها " ويعتمدوا القريب المجيب ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب ، وينافسوا في أمر الاخرة ، ويدعوا الدنيا ، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، ويشهدوا المواقف ، ويبذلوا التالد والطارف ، وليبرز الفارس والراجل ، ويظهر الرامح والنابل ، فان الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد ، ونقمته القائمة على أهل الشرك والعناد ، وهو من الفروض الواجبة ، التي لم تزل سهام أصحابه صائبه ، فواظبوا على فعله ولا تذهبوا عن مذاهبه وسبله ، واطلبوا اعداء الله برا وبحرا ، وقسموا بينهم النكات قتلا وأسرا ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ، وخذوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الربح الثمين ، ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة المشركين " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين " وسابقوا الاعنة ، وهزوا أعطاف الأسنة ، وشمروا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، واتخذوا الخيام مساكن ، واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ، وانصبوا الألوية والأعلام ، واتقوا جمرة الشرذمة الخاذلة للاسلام ، ولا تخشوا من جمعهم الاثل الى التفريق ، وحشدهم الذي سوعما قليل إن شاء الله تعالى غريق ، ولا تعبأوا بسفنهم البحرية ، فان سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ، ولا تنظروا الى مجاذيفهم الخشبية ، فان مجاذيفكم السيوف والرماح فاقلعوا قلوبهم ، وشتتوا جموعهم ، وأذهبوا الجنف والحيف ، وخاطبوهم بألسنة السيف ، وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز نارا ، وادعو الله أن لا يذر على الارض من الكافرين ديارا ، ونكسوا صليبهم المنصوب ، وبادروا الى حرب حزبهم المغلوب ، وارفعوا باليقين شك هذه المحنة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، واهجروا في ذات الله طيب المنام ، وانقلوا الاقدام الى الاقدام ، واكشفوا عنكم أستار الضلال والملام ، واهتموا بما يعلي كلمة الاسلام والسلام ، ليرفعكم الله الى منازل العز والتميز ، " ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز " (١)

---

(١) صبح الاعشى ٨/ ٢٥٠ ــ ٢٥١

ويتبين من الرسالة أنها " مرسوم " بالحركة لمواجهة الفرنج الواصلين بالبحر ، ... يض لاستئصال شأفة الفرنج ، فجاءت قوية الجرس شديدة الوقع وكأنها خطبة قائد في جنده قبيل المعركة - وتشترك هذه الرسالة مع الرسائل السابقة في معظم السمات الفنية ، وتتميز عنها بشدة الوقع لاختلاف الموضوع ، فالسجع فيها سمة بارزة تتراءى في الرسالة جميعها ، وكذلك الجناس والاقتباس بنوعيه الحرفي والمعنوي ، ثم التكرار والاطناب ، من أجل زيادة التأثير ، وشحن النفوس بالانفعالات المحركة .

ومع أن هذه الصفات مشتركة في الرسائل الديوانية ، إلا أن هذه الرسالة تتميز بالحرارة الشديدة ، والانفعال القوي ، وقد جاءت عباراتها قصيرة ، وألفاظها قوية موحية بالحركة ، واقتباساتها مرتبطة بموضوع القتال والجهاد .

وقريب من هذه الرسالة رسالة شهاب الدين محمود التي يقول فيها :
" أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن : يا خيل الله اركبي ، ويا ملائكة الرحمن اصحبي ما وفود التأييد والظافر اقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب الى العدى ، والهمم ... الى عدو الاسلام لو كان في ... ما بينها وبينه من مدى ... " .

فهي رسالة الى مقدم سرية كشف ، يطلب فيها أن يكون خفيفا سريعا ، فجاءت الرسالة قصيرة في حجمها وفي جملها ، مثيرة في أصواتها وايحاءاتها ...

ومثال التهييج والتقريع رسالة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الى ملك الفرنج في طرابلس وانطاكية ، يقول " :

" قد علم القومص الجليل ... - ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده وجعل النصيحة محفوظة عنده ، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ، ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الاولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الاشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - ان شاء الله تعالى - والستائر وكيف نهبت لك ولرعيتك الاموال والحريم والاولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الحريم وركب الماشي ، هذا وأنت تنظر نظر المغشي ... من الموت ، واذا سمعت صوتا قلت فزعا : علي هذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك ... ما كان ... الا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ... ، ولا جارية ولا سارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود إلا وهو منك مفقود ، وما منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا ... ولم يصبنا الى

مدينتك انطاكية خبر ،وكيف وصلنا اليها وأنت لا تصدق أننا نبعد فسنعود على الأثر ، وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم ؛ كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الاربعاء ، ونزولنا انطاكية في شهر رمضان ، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصروا ،وأسر من بينهم كند اسطبل ، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل الى المدينة ،فخرج هو وجماعة من رهبانك : وان رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ،وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الاول في الانذار والاخر ، فرجعوا به متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا الا وعنده شيء منهم ومنها ، فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وداماك وكل أربع منها تباع فتشرى من مالك بدينار ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل الاخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت وكنيسة بونص وكنيسة القسيان وقد زلت كل منهما وزالت ــ لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوتَ بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت ،ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، ولصارت شوانيك من شوانيك ، ولتيقنت انّ الإله الذى انطاك انطاكية منك استرجعها ،والرب الذى اعطاك قلعتها منك قلعها ومن الارض اقتلعها " (١)

فهي رسالة يقصد منها القضاء على الروح المعنوية عند العدو ،بما احتوت عليه من تهكم وتوبيخ وتقريع ، وتذكير بالهزائم ، وقد اتبع الكاتب في رسالته عدة وسائل لارهاب العدو ، والقضاء على إرادة القتال عنده ، منها تذكيره بالافعال السابقة التي قام بها الجيش الاسلامي في الارض التي كان يسيطر عليها الفرنج ، ومنها الاستهزاء به وبجيشه ، والمن عليه باطلاق سراح الرهبان ، بعد ما ذاقوا الخوف المريع الذى هو أشد من القتل ، ومنها التشفي بما أصابهم من ويلات ،ويرافق ذلك كله اظهار قوة المسلمين ،وسيطرتهم على الاعداء في جميع المجالات .

---

(١) صبح الأعشى ٢٦٩/٨ ــ ٢٠١

ومع ان هذه الرسالة موجهة الى الفرنج الا انها مسجوعة كالرسائل السابقة ، بل ان فيها من الجناس ما لم يوجد في بعض الرسائل ، وذلك لان السجع قد أصبح سمة فنية استحكمت في الادب عامة في هذه الفترة .

ومن السمات الفنية المشتركة الاخرى ، تكرار المعاني وحل الآيات القرآنية ... على ان الناظر في الرسالة لن تفوته ملاحظة إنها كتلة انفعالات متأججة ، يمتزج فيها الاستهزاء بالتوبيخ والتهكم ، وقد اعتمد الكاتب في اظهار هذه الانفعالات على الاستفهامات الكثيرة ، في جمل تتراوح بين الطول والقصر حسب طبيعة الانفعال ففي التشفي تطول الجمل مثل قوله : قد علم القومص ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الاعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ... " وفي التوبيخ والتقريع تقصر الجمل وتشتد حتى تصبح كالسياط الشديدة اللاذعة ، ومن ذلك قوله : وأخرناك وما كان تأخيرك الا لاجل محدود ، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ... الخ .

ويمثل الرد على رسائل العدو رسالة بهاء الدين زهير التي كتبها بناء على طلب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ردا على رسالة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، يقول فيها :

" أما بعد ، فانه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن ارباب السيوف ، وما قتل قرن منا إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك – أيّها المغرور – حدّ سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وأخرابنا منكم ديار الاواخر والاوائل ، لكان لك أن تعضّ على أناملك بالندم ، ولا بد ان تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فاذا قرأت كتابي هذا تكن منه على أول سورة النحل " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وكن على آخر سورة ص : " ولتعلمن نبأه بعد حين " ونعود الى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " (١)

ويلاحظ أنها رسالة قصيرة ، تحمل قوة التحدي والتهديد ، وقد استلزمت حرارة الظرف الذي كتبت فيه ان تقل فيها المحسنات نسبيا ، إلا ما كان من سجع واقتباس بالرغم من قصر الرسالة ، وقد ساعد هذا القصر على اكتناز الحرارة فيها ، كما ساعد على ذلك طبيعة الموضوع ومقتضياته ...

---

(١) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٧

الرسائل الاخوانية :

تختلف الرسائل الاخوانية عن الديوانية باصطباغها بالصبغة الشخصية ، وهي لذلك تعتمد على التأثير الوجداني على المرسل اليه ، ولا تقتصر على الشؤون العامة للدولة .

ومن أمثلة الرسائل الاخوانية رسائل القاضي الفاضل الى صلاح الدين حين شدد الفرنج حصارهم على عكا سنة ٥٨٦ هـ ، ومنها قوله :

" وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين ، الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق الى ما لا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج اليه ، وضياع فرصة ، واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الالسنة بالاراء ، وبخل الايدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون عذرا لهم في القعود ، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على الزوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الاجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهّله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوكُ غيرَ الله ينصرُها ، وغير مولانا يباشرُ النصرةَ ويحضرها ، فليس إلا التجرد للدعاء ، والتجلد للقضاء ، فلا بدّ من قدر مفعول ، ودعاء مقبول ، ومن الأمثلة المنظومة :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا يوم الهياج ، وان علوا لم يضجروا

معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ، ثم ينصره ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر ، واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه ، وهو لقاء الله ، فلأن نلقاه والحجة لنا ، خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون ، والله معكم ، وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، واشتدي أزمة تنفرجي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ، والله تعالى يُسْمِعُ الأذنَ ما يسرّ القلب ، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم ، فانه ما ابتلى إلا بذنب " (١) .

لقد عرض القاضي الفاضل أسباب ضيق المسلمين ، وتفرقهم ، وتحكم الفرنج وتنفذهم ، ولكنه مع ذلك لم ينس الحرص على رفع الروح المعنوية ، فطلب من السلطان التوجه الى الله بالدعاء ، والتجلد للقضاء ، ليقوي نفسه ونفوس الجند ، وقد راوح

(١) الروضتين ٢/١٦٦ ـ ١٦٧

الكاتب ما بين الصوت المتعقل الرصين ، ومخاطبة الضمير المؤمن في محاولة التسرية عن صلاح الدين ، فهو يقول : " اذ كيف يفتح الله علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ؟ .. ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر ...

وقد اتبع القاضي في عرضه اسلوبا موفقا ، فانتقل من الواقع المؤلم المتمثل في تعداده المنغصات والمثبطات ، الى غرس الثقة في نفس سيده ، واشاعة الطمأنينة في نفسه : " فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الأجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهله لأن ينصر ملة ، لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصر ويحضرها ... " كل ذلك بعيد عن التواكل والحزن واليأس والدعوة الى الاستسلام ، " فلا تعظم هذه الفتوق على قلب مولانا فتبهر صبره ، تملأ صدره ... "

وبعد أن عمل على إشاعة الأمل في نفس القائد ، وتقوية عزيمته لتحمل الشدائد صارحه بأن هذه البلوى لم تكن إلا بذنب ، وقد أوضح ذلك في رسالة إخوانية اخرى كتبها في المناسبة نفسها – اى خلال حصار عكا – إذ قال : " المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده الابطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع اليه ، والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه ، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله ان يكون حجة عليه في غضبه ... ولا يعرض المملوك لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في اتباعه ، وشيوع المظالم في ضياعه ... " (١) .

فهو يشخص الداء ، ويهون البلاء ، ويضع العلاج ، الذى هو ازالة المظالم ، واعادة النظر في مراعاة تطبيق الشريعة الاسلامية ، والزام تابعيه بتطبيقها ، كل ذلك دون أن يبعث الغم واليأس في نفس السلطان ، إذ إنه قد أحسن التأني في كل ما عرضه .

ويلاحظ القارىء أن الرسالة تنطلق من الوجدان ، وتعبر عن نفس منفعلة بما تقول ، فلا غرو ان انعتقت من البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، مع أن البديع قد ارتبط بأسلوب القاضي الفاضل الكتابي ارتباطا شديدا خلال هذه الفترة .

---

(١) الروضتين ٢/ ١٦٥ – ١٦٦

والرسالة بعد ذلك تشترك مع الرسائل الاخرى في الاقتباس والتضمين ، ومثاله : " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون " (١) ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه " (٢) ومن التضمين قوله : " اشتدي أزمة تنفرجي " ومن الامثال المنظومة قوله :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا يوم الهياج ،وان علوا لم يضجروا

أما مادة الرسالة ، فمصادرها مأخوذة من التاريخ .. والقرآن .. والشعر والأمثال ... وقد عرضت حالة المسلمين النفسية والاجتماعية ، خلال فترة حرجة من جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ،ولهذا فهي ذات قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية في آن واحد .

ومن الرسائل الاخرى* ذات الصبغة الديوانية الاخوانية المشتركة ، رسالة الملك الناصر داود الى العز بن عبدالسلام يطلب منه فيها أن يحث الملك الصالح نجم الدين أيوب على قتال الفرنج بعد غزوهم لمدينة نابلس . يقول الناصر :

" أحسن الله عزاء المجلس السامي العزّي في مصابه بالمسلمين ، وصبّرنا واياه على ما دهمت به حوزة الدين ، وأثاب الذين استشهدوا بما وعد به الشهداء من رضوانه ، وعوضهم عن منازلهم بمنازل الامن من قصور جنانه ،وسامحنا واياه بما أهملناه من حماية الدين وحفظ أركانه ، وما اعتمدناه من إغفاله وخذلانه ، ولا حول ولا قوة الا بالله قول معترف بتقصيره ، عن جهاد اعداء الله واعداء دينه ، ذاكرا جريمته جهرا بلسانه وسرا بيقينه ، وذلك بمصيبة المسلمين بمدينة نابلس التي قتلت فيها المشايخ والشبان ،وسبيت الحلائل والصبيان ،واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والنفائس ، وما جمعه المسلمون لازمنتهم في السنين الطوال ، فهو يوم ضرب فيه الكفر بجرانه ،وتبختر تيها بين أنصاره وأعوانه ، وزها على الاسلام برونق زمانه ،وهو اليوم الذي تقابلا فيه فأحجم الاسلام ثم تولى ،واقتسما فيه بالسهمان فكان سهم الكفر هو السهم المعلا ، فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون ، وهجمت على القلوب من أسماعها فودت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذت قبل سماعها مكانا قصيا ،أو ليت ربي لم يحصلني بعباده حفيا ، أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا :

ألا ليت أمي لم تطل عمرها فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد لبيب أديب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين " سورة آل عمران آية ١٣٩
(٢) الآية من سورة الأحزاب آية ٢١
* للمزيد/انظر الروضتين ٢/ ١٦٥ ـ ١٧٣ وصبح الأعشى ٧/ ٢٣ ـ ٢٤ وصبح الاعشى ٦/ ٥٢٨

ويا ليتها لما غدت بي حاملا أصيبت بما اجتنّت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت تشدّ الى الشدقميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم ولم أر في الاسلام ما فيه من خبل

فيا أيها العزّ الذي كنا نظن أن الاسلام يتزيد بسعيه عزا ، وأن رقى عزائمه تكون عليه من سحر الكفار حرزا ، تيقن أنه قد عم بالشام النفير ، ووجبت الغزاة على الحدث الطرير ، والشيخ الكبير ، وجاز للحرة أن تبرز للقتال بغير اشارة بعلها ، وللأمة أن تبارز برمحها ونصلها ، ووجب على المجاورين الاسعاد والانجاد ، وتعين عليهم في طاعة الله الجهاد ، فيا لسان الشريعة ، أين الجدال فيه والجلاد ، وأين مهند لسانك الماضي اذا كلت المهندة الحداد ، أتغمد سيف لسانك في جفنه وقد هجرت سيوف الكفار جفونها ، وأجرت عيون الانام على الاسلام شؤونها الا وان الاسلام بدا غريبا وسيرجع غريبا كما بدا ، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مسعدا ، فانا لله قولُ من عزّ عزاؤه في الإسلام وذويه ، وبذل في الدفاع عنه ما تملكه يده وتحتويه ، وصبرا في الله على احتمال الاذى وروية جافيه ، والله سبحانه يتلافى الاسلام بتلافيه ، ويحميه بحمايته وحسن نظره فيه ، إنه قريب مجيب (١) " .

ابتدئت الرسالة بالتعبير عن الحزن الشديد ، في معرض اعتراف الحاكم بالتقصير في الدفاع عن الشيوخ والشبان والنساء والصبيان ، وملك هذا الحزن عليه أقطار نفسه حتى إنه تمنى لو لم يولد ... ، ثم استحث المزّ بن عبد السلام على ان يستثير الناس للجهاد ، بعد أن ابتلي الاسلام بما ابتلي به من عدوان . وغني عن البيان أن في الرسالة من السمات الفنية ما في الرسائل الديوانية من سجع وتكرار واقتباس وتضمين ، وغير ذلك من السمات التي اتسمت بها الرسائل في هذا العصر .

٣ . الخطابة

لم يصلنا من الخطب في عصر الحروب الصليبية الا القليل ، مع أن المتوقع أن تروج الخطابة في جو الحروب ، لانها جو مواتٍ لها ، والجدير بالذكر أنه عندما تم فتح القدس ، أجتمع عدد كبير من الخطباء ، وتمنى كل واحد منهم أن يكون له السبق في القاء أول خطبة بعد الفتح ، يقول العماد : "وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة المتوشحون بالإصابة المعروفون بالفصاحة الموصوفون بالحصافة ..."(٢) . وما هذا الفتح – على أهميته – إلا حدث كبير من أحداث أخرى كبيرة

---

(١) الفوائد الجلية والفرائد الناصرية ورقة ٩٤ – ٩٥
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٨

شهدتها الأمة خلال هذه الفترة .

ومن أشهر الخطب التي وصلتنا في هذه الفترة خطبة ابن الزكي في اول صلاة جمعة أقيمت في القدس بعد استعادة المدينة على يد صلاح الدين . وقد ابتدأها بالآيات التي فيها حمد لله ، ثم قال : " الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على اظفاره واظهاره واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربّه ، وأشهد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك الذي أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " ، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

أيها الناس ، ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد ان امتد عليها رواقه واستمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فانه بني عليه ، وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام ، فهو مقر الانبياء ، ومقصد الاولياء ، ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزّل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله اليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن مرتبة عبوديته ، فقال تعالى " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله " وقال : " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " ، وهو أول القبلتين

وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا رحمكم الله النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عيناً الانبياءُ والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، اكثر من التهاني به بين أهل الغبراء ، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، الذي باركنا حوله ... " أليس هو البيت الذي عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟ ، فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى ، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لا هويتكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وازالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه اذ جعلكم من خير عباده ، واياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيّل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم

في مواطن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ،أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه فتكونو كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد ناءت الايام بالثارات الاسلامية ،والملة المحمدية ، الله أكبر فتح ونصر ،غَلَبَ اللهُ وقهر ، أذلَّ اللهُ مَنْ كفر ، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم ، وأبرزوها ، وسيّروا اليها عزماتكم وجهّزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟ ، وقد قال الله تعالى : " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" ، أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا معشرَ المسلمين بنصر من عنده ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده"(١)

عقد ابن الزكي مقارنة بين حال المسلمين وحال الفرنج المشركين ،ثم قاده ذلك الى الحديث عن الخلفاء الراشدين والقادة المسلمين ، لما قدموه من نصرة لهذا الدين ثم بين فضائل المسجد الاقصى ،وارتباطه بالدين الاسلامي والتاريخ الاسلامي، ونهى عن العدوان والبطر ، وحثهم على متابعة الفتوح وازالة الكيان الغريب .

هذه أفكار الخطابة أما بناؤها فقد ابتدأت بالحمد والثناء ثم الشهادتين ثم الموضوع والخاتمة ...

وأما مادتها فهي مأخوذة من التاريخ الأسلامي ، مثل إشارته الى أعمال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد ، والمعارك التي جرت من أجل اعزاز الاسلام مثل القادسية واليرموك وموقعة خيبر ، ومن التاريخ أيضا قصة الاسراء والمعراج وقصة موسى ودخوله الارض المقدسة ، وعيسى ويوشع عليهم السلام ... وهي معتمدة على القرآن والحديث ولهذا كثرت الصور الدينية في الخطابة كثرةً لافتة .

وتتميز الخطابة بكثرة الاقتباس الحرفي والمعنوي ، فمن الاقتباس الحرفي ، قوله "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"(٢) و " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " (٣) و " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله " (٤) و " لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم " (٥) و " سبحان الذى أسرى

---

(١) الروضتين ٢/١١٠ ــ ١١١ (٢) سورة الاخلاص ٣ ــ ٤
(٣) سورة النجم ١٧ (٤) سورة النساء ١٧٢
(٥) سورة المائدة ٧٢

بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله " (١) و " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين ... " (٢) و " إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده " (٣) .

ومن الاقتباس المعنوي ، وان لم يخل أحيانا من اقتباس حرفي جزئي ، قوله : " وأظهر دينه على كل دين ، القاهر فوق عباده فلا يمانع والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ... راحض الإفك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ... وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ... بيعوا أنفسكم في رضاه ... وجاهدوا في الله حق جهاده ... واللوما النصر إلا من عند الله ... فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ... والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

وأما تضمينه للأحاديث فيظهر في قوله : وهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه ... الامور بأواخرها ... ومن تضمينه لقول علي ابن أبي طالب : الجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم ...

كما يتضح في هذه الخطبة السجع وأنواع البديع الأخرى . أما السجع فهو متمثل في الخطبة جميعها ، ولعقيمة في الاداء ، اذ يكسب الخطبة ايقاعا مؤثرا لا سيما أن الجمل قصيرة ، حارة انفعالية ، توحي بالحركة ، واما أنواع البديع الاخرى فمنها الطباق ، ومنه : معز الاسلام — مذل الشرك ، مصرف الامور — مديم النعم ، باطن سره — ظاهر جهاره ، رافع الشك — داحض الشرك .... والجناس ومن أمثلته : الشك — الشرك ، واسترد هذه الضالة (القدس) من الامة الضالة (الفرنج) ، مجار — جار .

ومن السمات الفنية التكرار والاطناب ، إذ إن أفكار الخطبة محدودة ، ولكنه كررها بصور مختلفة ، ومثال ذلك ما ذكره من نعم الله على الانسان المسلم ، فقال : معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ... ومديم النعم للمتقين بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ... الـخ .

---

(١) سورة الأسراء آية ١
(٢) سورة الأنفال آية ٦٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٠

فهي صور متعددة لمعنى واحد .. ومثال آخر تجده في بيان فضائل المسجد الاقصى والقدس ...

وأخيرا يحس المرء بحرارة العاطفة وصدقها ، وتدفقها ، وهي عاطفة شخصية جماعية في آن واحد ، تعبر عن شعور الخطيب ومشاعر المسلمين المحتشدين في ساحة المسجد الاقصى بعد تسعين عاما من الاحتلال . كما تعبر عن لهفة الناس لرؤية القدس والمسجد الاقصى ، وعن نشوة النصر والفرح ، ولكل ذلك أطنب الخطيب وكرر القول . ثم دعا المسلمين الى تجنيد نصرهم ومشاعرهم وطاقاتهم فيما يرضي الله ، ويستكمل الفتح ، وينهي الوجود الغريب في البلاد ، يقول : والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، أنصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ... " .

* * *

ومن الخطب التي وصلتنا ، خطبة صلاح الدين في الجند اثناء حصار الفرنج لمدينة عكا ، يقول : " بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد وطيء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله تعالى ، وقد بقي من هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ان بقي وطال أمره الى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك " (١) .

يتضح من الخطبة أنها قيلت في أرض المعركة ، ولذلك جاءت قصيرة جدا بعيدة عن التكلف والتصنع والإطالة والتكرار ، فهي تدور حول موضوع واحد هو استشارة القوم في القتال بناء على الواقع الذى كان ماثلا أمامهم ، وقد حاول أن يقنعهم بما يرى دونما مبالغة ، وانما بتصوير الخطر ، وبيان واجب الانسان المسلم ازاءه ، وايضاح ما يقتضيه الموقف العسكري .

---

(١) الروضتين ٢/ ١٤٦

٤٠ الهدن

كثرت الكتابة في مواثيق الهدن ،والمواثيق السياسية ،لا سيما بعد رجحان كفة المسلمين . وقد تقبل الفرنج الهدن ترقبا لوصول نجدات من أوروبا ، وتقبلها المسلمون للتصدى للخطر المغولي القادم من الشرق ،أو لمعالجة المشاكل الداخلية ، ولهذا فقد اعتبروها ذات فائدة لهم .

اما النص المتعلق بالهدنة فقد كان كما يلي : القسم على الوفاء بما تضمنته الهدنة ، وطريقة القسم عند الفرنج تكون بأن يحلف مقدمهم بالله ، وبالمسيح وبالصليب وبالأقانيم الثلاثة والأنجيل ... ثلاث مرات على كل مقسم به ، وطريقة القسم عند المسلمين تكون بأن يحلف السلطان أو نائبه بالله ثلاث مرات (١) .

ثم يحدد المقسم عليه ، وهو موضوع الهدنة ، وفيه تفصيلات كثيرة جدا ، تشمل مدة الهدنة والأماكن الواقعة ضمن الهدنة ، والاشياء المتفق عليها ، لا سيما في معاملة التجار والفلاحين (١) .

ثم تنتهي بالعقوبات التي يلزمها كل لنفسه إن خالف ما جاء في الهدنة ... وهي لهذا ذات قيمة تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية ، بما تقدمه من معلومات عن الطرفين .

وقد فرضت كثرة التفاصيل على الهدنة ،أن تكون طويلة مفصلة ، ومثال ذلك ، الهدنة بين الظاهر بيبرس وبيت الاسبتار سنة ٦٦٩ ، ومنها :-

" استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، وولده الملك السعيد ناصر الدين خليل ، وبين الباشر المقدم الجليل أفريز أولدكال مقدم جمع بيت اسبتار سرجوان ، بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الاخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للأسكندر بن فيلبس اليوناني على ان تكون قلعة لد بكاملها وربضها واعمالها ، وما هو منسوب اليها ومحسوب منها بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان ، وما استقر لها الآن ، وما يتعلق بذلك : من المواضع والمصايد ، والملاحات ، والبساتين ،والمعاصر ، والطواحين ،والجزائر : سهلها وجبلها وعامرها وداثرها ، وما يجرى بها من أنهار ، وينبع بها من عيون ،

---

(١) انظر صبح الأعشى ٣١٢/١٣–٣١٣
(٢) المصدر السابق ٣٨/١٤–٦٢

وما هو مبني بها من عمائر ، وما استجد بها من القراح وغير ذلك ، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وانهارها ، وما بحدود ذلك من نهر بدرة الى جهة الشمال ، وما استقر لبلده من هذه الجهات الى آخر الايام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها ، وحصن برغين وما ينسب الى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة ـ تكون جميع بلاده وهذه الجهات خاصا الى آخر الزائد للملك الظاهر ، ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طالب بوجه ، ولا سبب الا حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها الى آخر الزائد ، ولا لاحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة ، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الاسبتار ، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ، ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى ـ لا تكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب ، ولا حق ، ولا رسم ، ولا شرط ، ولا طالب في جميع بلاد الدعوة : مصياف المحروسة ، والكهف والمنيقة ، والقدموس ، والخوابي ، والرصافة ، والعليقة ، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة يكون ذلك خاصا للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حديث ولا طلب ..." (١) * .

ونص الهدنة طويل جدا يقع في تسع صفحات من القطع الكبير ، لأنها تميل الى التفصيل والتحديد الدقيق للمعاني ، شأن النصوص السياسية ، لا سيما تلك التي يكون الطرف الآخر فيها أعجميا ، وهي مع ذلك لا تتكرر فيها المعاني ، لأن التكرار غير التفصيل ..

وواضح أن لغتها سهلة بعيدة عن السجع وأنواع البديع الأخرى ، فهي تقرر الحقائق ، وتوصي بتنفيذ المقررات ، دون إشارة أو تعريض ، أو تصوير فني ، ولذلك فهي ذات قيمة تاريخية وسياسية واجتماعية قبل أن تكون ذات قيمة فنية .

---

(١) صبح الأعشى ١٤/٤٢ ـ ٤٤

* للمزيد من الهدن انظر ج ١٤/٣٣ و ج ١٣/٣٢٧ وتشريف الأيام والعصور ص ٣٤ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ٦٨

وقد تصل البساطة في نصوص الهدن الى حد استعمال التعابير المحكية مثل ما جاء في هذه الهدنة من أن " الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير ، الذى هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس ، لا تكمّل (١) .

هذا ، وقد ذكر القلقشندي ثلاثة مذاهب لبداية الهدن : أولها أن تفتتح بلفظ : هذه هدنة أو نحو ذلك (٢) ، وثانيها : أن تفتتح بلفظ استقرت الهدنة بين فلان وفلان (٣) ، ومنها هذه الهدنة ... وثالثها : أن تفتتح بخطبة مبتدأة بالحمد لله (٤) .

كما بين شروط الهدنة عامة ، من خلال استقرائه لعدد كبير منها في الجزء الرابع عشر من صبح الاعشى ، فذكر أن يكون عاقدها الامام أو نائبه العام ، وأن تكون في مصلحة المسلمين ، وأن لا يكون فيها شرط يأباه الاسلام ، وأما مدتها فهي تتراوح ما بين أربعة أشهر وعشر سنين (٥) .

---

(١) صبح الاعشى ١٤/ ٥٠
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٩
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣١
(٤) المصدر السابق ١٤/ ٧١
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٧ ـ ٨

ثانيا : موازنة عامة بين الشعر والنثر :

اشترك الشعر والنثر في تسجيل الأحداث خلال فترة الحروب الصليبية ، ولكنهما اختلفا في طريقة تناول الاحداث من حيث واقعيتها وطريقة عرضها ، وتأثيرها والتفاعل معها ،

ونعرض فيما يلي نصوصا ثلاثة اشتركت في تسجيل معركة حطين وفتح طبريــة ، لنقف على الفروق بينها •

أ • يقول ابن الساعاتي مخاطبا صلاح الدين :

جلت عزماتك الفتح المبينــا … فقد قرت عيون المؤمنينــا
رددت أخيذة الاسلام لمّــا … غدا صرف القضاء بها ضمينــا
وهان بك الصليب وكان قدمــا … يعز على العوالي أن يهونــا
يقاتل كل ذي ملك ريــاء … وأنت تقاتل الأعداء دينــا
غدت في وجنة الايام خــالا … وفي جيد العُلا عقدا ثمينــا
فيا لله كم سرّت قلوبــا … ويا لله كم أبكتْ عيونــا
وما طبريّةٌ الا هــديّ … ترفّعُ عن أكفّ اللامسينــا
حصان الذيل لم تقذف بسوء … وسل عنها الليالي والسنينــا
فضضْت ختامها قسرا ومن ذا … يصد الليث أن يلج العرينــا
لقد أنكحتها صم العوالــي … فكان نتاجها الحرب الزبونــا
عناء ندى أهل الارض طــرا … سواك ، ومعقل أعيا القرونــا
قست حتى رأت كفاً ألانــت … وغاية كلّ قاسٍ أن يلينــا
تضيتَ فريضة الاسلام منهــا … وصدّقتَ الأماني والظنونــا
تهزّ معاطفَ القدس ابتهاجــا … وترضى عنك مكة والحجونــا
فلو أن الجهاد يطيق نطقــا … لناداك ادخلوها آمنينــا
جعلت صباح أهلها ظلامــا … وأبدلت الزئير بها أنينــا
تخال حماة حوزتها نســاءً … يخوضون الحديد مقنّعينــا
لبيض في جماجمهم غنــاء … لذيذ ، علّم الطير الحنينــا
تميل الى المثقفة العوالــي … فهل أمست رماحا أم غصونــا
يكاد النقع يذهلها فلــولا … بروق القاضبات لما هدينــا
فكم حازت قدودُ قناك منهــا … قدودا كالقنا لونا ولينــا
وغيد كالجآذر آنســات … كغيد نداك أبكارا وعونــا
ولمّا باكرتْها منك نعمــى … بنان تفضح الغيث الهتونــا
أعدت بها الليالي وهي بيض … وقد كانت بها الأيام جونــا

فليس بحادم مرعى خصيبـــا أخو سغب ولا ماء معينـــا
فلا عدم الشام وساكنـــوه ذهي تشفى بها الداء الدفينـــا
سهاد جفونها في كل فيـــح سهاد يمنح الغمض الجفونـــا
فالم بالسواحل فهي صـــور اليك وألحق الهام المتونـــا
فقلب القدس مسرور ولـــولا سطاك لكان مكتئبا حزينـــا (١)

ب. وكتب العماد الى الديوان بذلك الفتح رسالة ، وقد وردت مع الرسائـــل الديوانية فيرجع اليها (٢) .

جـ. وكتب ابن شداد في وصف معركة حطين ما يلي : " وكانت في يوم السبـــت الرابع والعشرين من شهور ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وذلـــك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله ايـــاه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في اقامة قانون الجهاد ، فسير الى سائـــر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا اليه بعشترا ، في التاريخ المذكـــور ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر من ربيع الآخر ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لا سيما أوقات صـــلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب الى الاجابة .

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ، ورحـــل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا ان الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم .

وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخـــر المذكور ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الاطلاب بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها فهجمها ، وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمـــت القلعة وحدها .

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤ ـ ٨٥
(٢) انظر الروضتين ٢ / ٨٩ وصبح الأعشى ٦ / ٥١٧

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحميـــــة ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلاميــة الامراء بحركة الافرنج ، فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ،ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين .

وحال الليل بين الفئتين فتباتا على مصاف شاكين في السلاح الى صبيحـــة الجمعة، في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وحملت الجالشية ، وتحركت الاصلاب والتحم القتال ، واشتد الامر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويــل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ،والفارس مع قرنه يتصادم ، حتى لم يبق الا الظفـــر ووقوع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والامور الجسيمة ،ما لم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ،ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضـــلا عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن مــن ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ،وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ،وأجراه على وفق ما قدره ، فحملـــت الاطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ،وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فالقى الله الرعب في قلوب الكافرين : " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " .

وكان القومص ذكي القــوم وألمعهم ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهــل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في اوائل الأمر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده ، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ،وأطلقوا عليهم السهـــام ، وحاكموهم بالصفاح ،وانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهـــم واحد ،واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الامر ، حتى كانوا يستسلمون للأســر خوفا من القتل ،فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهـم الملك جفري ، والبرنس أرناط ،وأخو الملك ، والبرنس — وهو صاحب الشوبك — وابـن

الهنفسرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الاستبار (١) .

* * *

يقدم النص الشعرى تصورا عاطفيا شموليا للحادثة دون الدخول في الجزئيات أو التفاصيل ، وهذا التصور جاء ممتزجا بشعور الفرح عند المسلمين وشعور الشماته بالفرنج كما يبدو في الابيات التالية :

فلو أن الجهاد يطيق نطقا … لنادتك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح أهلها ظلاما … وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء … يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء … لذيذ ، علم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة السوالي … فهل أمست رماحا أم غصونا

ثم يذكر الشاعر ما حازه المسلمون من غنائم ،وكان قد أعلن عن النتيجة في بداية القصيدة بقوله :

جلت عزماتك الفتح المبينا … فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما … غدا صرف القضاء بها ضمينا

وهذا يدل على أن الشاعر لم يلتزم بالتسلسل المنطقي للحادثة ، ولم يذكر تفاصيل ما حدث فعلا ،وانما ذكر ما هز شعوره وشعور المسلمين ، بينما تسلسل النثر في سرد قصة المعركة ، واذ يتحدث العماد عن المعركة ،فانه يبدأ بالحديث عن فتح طبرية ،موردا تاريخ الفتح ، ثم يتابع حديثه عن الاحداث اللاحقة :

" ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، واذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية ، ورأيتها الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبرية ، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة ، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا ... " .

وبالاضافة الى التسلسل التاريخي ، يدخل الكاتب في بعض التفاصيل عن الحادثة ،اذ يذكر ما جرى من حوادث خلال اسبوع : ففي الخميس الاول سقطت طبرية

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٥ ـ ٧٧

وفي يومي الجمعة والسبت نزل الفرنج في حطين ، وبعدها سارت الجيوش الى عكـــا ففتحتها ، ثم يجمل البلاد المفتوحة ويسميها فيقول : " والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفوله الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كبيرة ... " ولم نجد مثل هذا التفصيل في الشعر .

ويمكننا ملاحظة هذه التفاصيل ، وهذا التسلسل المنطقي في وصف ابن شداد فهو يتدرج مع الاحداث زمنا ومكانا ، وينقل جزئيات دقيقة ، لأن النثر يتحمل ذلك ، لما يهدف اليه من تقديم الوثائق والحقائق بشكل تقريري مباشر ، يقول : " فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف ، معهم ، فسار ونزل من يومه على طبرية ، عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب ، منتظرا أن الفرنج ، اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركـــوا من منزلهم ... " .

فالقصيدة الشعرية لم تلتزم بعرض الحقائق ولا ترتيبها ، كما لم تقدم عن مجريات الاحداث الا النزر اليسير ، ثم أن ذكر النتيجة في بداية القصيدة والعود الى الحديث عنها مرة أخرى في مكان آخر من القصيدة ، لا يتسق مع التطورات الطبيعية للأحداث ولا غرابة في ذلك ، لأن الشعر إنما يتصل أولا وقبل كل شيء بالحالة النفسية للشاعر ، الذي يختار أن يسلط الاضواء على مشاهد معينة منتقاة ، دون أن يلزم نفســه بقيود الواقع .

وكثيرا ما ينقاد الشاعر الى المبالغة ، وهو يعرض مادته الشعرية ، نتيجة تفاعل قوي مع مادته الشعرية ، وهو تفاعل كثيرا ما يؤدي الى التعميمات غير المنضبطـــة بضوابط الواقع .

أما النثر ، فغالبا ما يلتزم بعرض الحقائق ، كما يلتزم بالتسلسل المنطقـــي وقد يضفي كتّاب معينون ألوانا خاصة على ما يكتبون ، كما فعل العماد في رسالتـــه ... وقد تكون هذه الالوان حادثة غير صاخبة ، كما في وصف ابن شداد . وبديهي ان العرض الواقعي للحقائق يحتاج الى هدوء عقلي يتمثل في نثر الناثر ، أكثر مـــن تمثله في شعر الشاعر ، الذي يقيم عادة علاقات غير عادية بين الكلمات ، من أجل الايحاء والتأثير ، وكلا الايحاء والتأثير محتاج الى الصور ، ولذا كانت الصور عنصرا بارزا فـــي الشعر ، في حين أنها تقل عادة في النثر ، الا ما كان منه نثرا فنيا ، يقترب في اسلوبه والمهجة التي ينطلق بها الشعر كما هي الحال في أكثر نصوص العماد النثرية فـــي الفتح القسي ...

وقد يكون من المفيد أن نقارن بين الصور التي وردت في النصوص الثلاثة آنفة الذكر . فقد صور ابن الساعاتي طبرية بالمرأة السبية التي جاهد صلاح الدين من أجل تحريرها ... ، وصورها بأنها خال جميل في وجنة الايام ، ولذلك فهي تستحق الجهد الكبير الذى بذله ، ومثلها بالعقد الثمين في جيد الحلى ، وهذا يغرى البطل بأن يتحمل المشاق من أجلها ، ومثلها بالمرأة الحصان التي تترفع عن أكف اللامسين ، وتبتعد عن قالة السوء ، ومع هذه الصفات فقد تمكن صلاح الدين منها ، لانها بعد أن صدت وتمنعت رأت أن صلاح الدين ليس كغيره من الرجال ، فلانت له ورحبت به . ثم صور الاماكن الاسلامية المقدسة مشاركة في فرحة المدينة وفرحة المسلمين ، وصور الفرنج داخل المدينة وخارجها في حالة حسرة وعجز ، اذ هم لا يملكون الشجاعة الكافية للدفاع عنها بل هم نساء يلبسون ما يلبسه رجال الحرب ... كما قدم صورا للمعركة بما فيها من غبار وسهام ، وجثث وطيور .. تتحفز لأكل القتلى ..ثم صور السبايا الفرنجيات ، وشعور الارتياح عند المسلمين بعد خلاصهم من احتلال طال أمده .

أما العماد فقد صور انتصار الاسلام على الكفر الذى رد ما عنده ، كما صور جثث القتلى ، والبلاد الخالية . ثم تحدث عن تقدم الجيش الاسلامي في البلاد وتقهقر الفرنج أمامه . وفي هذه الصور تسجيل لعواطف الفرح والتشفي بالمحتل ، وقد جاءت هذه الصور في حوالي ثلاثة وعشرين سطرا .

وأما ابن شداد فقد عرض حقائق مفصلة ، فابتدأ بحركة الجيش الاسلامي نحو طبرية ، وحركة الفرنج في مرج صفورية ، ثم تقدمهم نحو طبرية بعد استعادة المسلمين للمدينة ، ثم وصف بداية المعركة بين الطرفين الى أن حجز بينهم الليل ، ثم العودة الى القتال صبيحة اليوم التالي ، ثم تباشير النصر ، الى أن هرب أمير طرابلس وتشتت شمل الباقين ، ووقعوا بين أسير وقتيل ...

ويلاحظ أن الانفعالات التي يثيرها هذا الوصف ، إنما هي وليدة الوقائع والاحداث ، وليست وليدة الزخرف البياني أو الصور اللفظية المثيرة .

(الخاتمـــة)

لما كان من الصعب دراسة جميع النصوص الشعرية والنثرية في فترة الحـــروب الصليبية لتنوعها ، وكثرتها ، ولطول الفترة التي ترتبط بها هذه النصوص ، فقـــد اخترت قضية محددة ، رغبت في أن أدرسها من خلال الادب ، وتلك هي "صورة الصليبيين في الادب العربي" .

وقد احتوت الدراسة على إطار تاريخي للحروب الصليبية تَبَيَّن من خلالـــه أن هذه الحروب كانت صورة أخرى على نطاق واسع لحروب المسلمين مع بيزنطة في الشرق ومع الاسبان في الغرب ، فضلا عن كونها تحقيقا لاطماع أوروبية في السيطرة على منطقـــة ذات أهمية دينية وتاريخية واقتصادية ، ولهذا تتبعت مسيرة الحركة الصليبية من أوروبـــا الى الشرق الاسلامي ، وبينتُ الحوافز التي كانت تدفعهم للمغامرة والمصابـــــرة ، والعوامل التي ساعدتهم على تثبيت أقدامهم في الشرق الاسلامي ، حتى اتحدت مصر والشام تحت قيادة قوية واحدة أنزلت بهم هزيمة ساحقة .

ولدى استقراء المادة الادبية من شعر ونثر ، ظهرت عدة أنواع من الصـــــراع أهمها : الصراع الديني ، وقد تجلى فيه تمسّك الطرفين بمعتقداتهم الدينيـــــة ، فالفرنج ، اتخذوا الصليب شعارا لهم ، في حياتهم اليومية والعسكرية ... ولكنهم مـــع هذا الشعار الديني كانوا قساة غلاظا ، وقد تصل غلظتهم الى حد الوحشية ... ، فلا يرعون عهدا ولا ذمة ... على النقيض من المسلمين الذين أظهرتهم النصـــوص الأدبية – في معرض المقارنة بينهم وبين الفرنج – بأنهم يحافظون على العهـــود ، ويعفون عند القدرة ولا يبالغون في الانتقام .

وفي إطار الصراع الحضاري ، وصف الادب الفرنج بأنهم متأخرون في علومهم ، وفي طرائق تعاملهم في شؤون القضاء والقانون ، ولكنهم متقدمون في شؤون الحرب مـن اختراع وتطوير لأدوات القتال الهجومية والدفاعية . وقد قدّم الأدب صورة مفصلــــة للصراع العسكري ، حين عرض علينا وصفا دقيقا للجيش الصليبي من حيث تكوينـــه ، وامداداته وأسلحته ، وخططه الحربية ، كما سلط الاضواء على حصون الفرنج وقلاعهم . وبين الادباء من خلال الشعر والنثر أن الفرنج إنما كانوا يستمدون مقومات وجودهـــم من المدد الذي كان يأتيهم من وراء البحار ، ومن فرقة المسلمين وعدم اجتماع كلمتهم .

ومن ناحية أخرى ، قدم الادب العربي صورة لهؤلاء الطارئين ، خلال الهدن وتوقف القتال ، فصورهم في أوقات السلم يمرحون ويلعبون ، ويفترسون الأرض ويجتنـــون ، ويستقبلون القوافل ويتّجرون ، تعج بهم الشوارع والأزقة ... ويعيشون في بلاد الشـــرق حياة تتناقض في طبيعتها كثيرا مع حياة السكان الأصليين .

وقد حرص الادباء وهم يقدمون صورة بغيضة للصليبيين ، على أن يحرضوا الحكام والقادة بأستمرار ويستثيروا عزائمهم بكل وسيلة ، لتخليص البلاد من الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي •

والدراسة الاستقصائية أو شبه الاستقصائية للنصوص الادبية التي كتبت خلال هذه الفترة مما وصل الينا بالفعل ، تكشف عن غزارة في الانتاج الادبي خلال القرن الاول من الغزو الصليبي ، وربما كان من عوامل هذه الغزارة ، ظهور شخصيات فذه خلال القرن المذكور ، في ميادين الحرب والسياسة والادارة ورعاية الادب ، أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين ، وبعض ابنائه • وقد يضاف الى ذلك شدة التحدي والصراع خلال القرن الاول من الصراع • ولا يخفى أثر الزخم الادبي القوي المنحدر من نتاج القرن الرابع الهجري السابق للقرن الذي ابتدأت فيه الحروب الصليبية •

وأما الاداء الفني في نصوص الشعر، فقد كان الى حد ما امتدادا لنظيره في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، فهو يجمع بين التقليد والاتباع من ناحية ، وبين التجديد في اغراض الشعر من ناحية أخرى ، ويظهر ذلك في شكل القصيدة ومضمونها ••• اذ وجدنا معظم القصائد تنهج نهج الشعر القديم في الاستهلال والصور والافكار ، في حين يخرج بعضها عن النهج المعتاد ، وبخاصة في التقدمة وفي الباس المعاني ثوبا زخرفيا بغية اخراجها في قالب طريف جديد •

وقد لوحظ أن البديع سمة فنية ظاهرة في شعر هذه الفترة ولكنها لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، اذ هي قد وجدت قبل ذلك ، ولكنها برزت بروزا قويا في هذه الفترة حتى بلغت حد الافراط عند بعض الشعراء •

وأما الاداء الفني في نصوص النثر ، فقد اتسم كذلك بالسمة الزخرفية ، لا سيما في الكتب الادبية المحضة ، أما الكتب التي تجمع بين الادب والتاريخ ، فقد تراوحت حسب اتجاهات المؤلف الادبية بين زخرف أدبي مفرط ، وبين اعتدال في هذا الزخرف ، قد يصل أحيانا الى حد التخلص منه •

هذا ، وقد قورنت رسائل القاضي الفاضل برسائل العماد الاصفهاني ورسائل ابن الاثير ، تبين أنه لا يوجد فرق واضح بين رسائل الكتاب الثلاثة ، مما يجعل المرء يتشكك في قول من رأوا أن للقاضي الفاضل مدرسة أدبية خاصة به تتسم بسمات فنية معينة •

ولدى الموازنة بين الشعر والنثر المرتبطين بالوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، لوحظ اختلاف متوقع في طرائق التعبير عن الموضوع الواحد ،

من حيث كيفية التناول والمعالجـة ، ومن حيث الأسلوب الأدبي كذلك ، فالشعر قلما يلتزم بالتسلسل المنطقي ، وسرد الحقائق المجردة ، وقلما يحفل بالتفصيل والتعليـل وإنما يعنى الحركة النفسية للشاعر ، وأصداء الأحداث في نفوس أبناء مجتمعـه ، وقد يعمد في تصوير ذلك كله الى المبالغة لأحداث تأثيرات معينة ، واستثـارة العواطف ، كما يلجأ الى تلوين الوقائع بلون معين ، تتبين فيه ذات الشاعر .

أما النثر فانه يقدم أول ما يقدم الوقائع والأحداث في إطار الحقيقة ، ويعمد الى التسلسل والتفصيل ، وما كان فيه من اثارة ، انما يعتمد بالدرجة الأولى على مجريات الحوادث نفسها . على أن الهوة بين الشعر والنثر ، قد تضيق أحيانـا الى حد كبير ، في نثر المتأدبين الذين تطغى النزعة الفنيـة على كتاباتهـم حتى تتحول في بعض الحالات الى شعر لا ينقصه إلا الوزن الموسيقي .

وأخيرا أسأل الله أن يكون قد وفقني في تقديم صورة الصليبيين كما رسمهـا الأدب العربي ، وأن يبارك لي في جهدي ، وأن يجعله ابتغاء مرضاتـه .

" والحمد لله رب العالمـين "

الملاحق

اولا : الملحق الشعري

ثانيا : معاني المصطلحات (مرتبه هجائيا)

ثالثا : جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية

رابعا : جداول بأسماء الحكام المسلمين والصليبيين

خامسا : الخرائط

فهرس باسماء الشعراء الذين وردت لهم أشعار في هذا الملحق

تابع اسماء الشعراء

تسلسل	اسم الشاعر	الصفحه	تسلسل	اسم الشاعر	الصفحه
٥٤	ابن كاسيويه	٣٨٧	٦٥	ابن منير الداربلسي	٣٣١
٥٥	الكامل بن الملك العادل الايوبي	٤٨٥	٦٦	المهذب بن الزبير	٣٦٧
٥٦	كمال الدين الشهرزوري		٦٧	الناصر داود	٤٨٦
٥٧	ابن المجاور نجم الدين يوسف بن الحسين	٤٤٠	٦٨	ابن نبهان العراقي	٣٨٨
٥٨	مجد الدين الاربلي	٤١٠	٦٩	نشو الدوله بن نفاذه	٤٣٩
٥٩	مجد الدين الحنفي	٤٦٥	٧٠	نصر الهيتي الدمشقي	٤٧٧
٦٠	مجد العرب الأمير	٣٠٢	٧١	ابن النبيه	٤٧٧
٦١	ابن محمد المجاور الرئيس ابو يوسف بن يعقوب	٤٧٥	٧٢	وحيش الاسدي	٣٧٦
٦٢	ابن مطروح	٤٨٨		أشعار لم يعرف قائلها	٥٢٢
٦٣	ابو المعالي بن المهذب	٢٩٧			
٦٤	ابن مماتي	٤٤٩			

له وقد وقف على داره بالمعرة بعد هجوم الفرنج :

أمنزلي بين انكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملاعبها ... عهدَ الصبا بين اخواني وخلاني
فعجت أسألها والدمع منسكب ... والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت ... فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت ... قدما بجيرة نعمان ونعمان
وفي مدائن نوشروان معتبر ... للسائلين وفي سيف وغمدان
فاذهب لشأنك فالدنيا لها دُوَلٌ ... تمضي وتأتي وكلٌّ بينها فان (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام جـ ٢ ص ٨٧

وله في المصرة :

هذه مصر بلدة قد قضى الله عليها كما ترى بالخراب
وقف العمر موقفة وأبك من كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوما إليها فهي كانت منازل الأحباب (١)

(١) شذرات الذهب ٥/٦٦

أبو سلامة محمود بن علـــوى –(٥٠٥)

له في المعـــــرة :

أنا من بلدة قضى الله يــــــا صـــا ع عليها كما ترى بالخـــــــــراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعـــــــــا من شيوخ وصبية وشبـــــــاب (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/١٠١ ، وانظر النجوم الزاهرة ٥/٢٠٠

أبو المعالي بن المهذب

له يصف الوباء والافرنج بالشام :

ولقد حللت من الشآم ببقعة | أغذ ربساكن ربعها المسكين
ونبت وجاورها العدو فأهلها | شهداء بين الطعن والطاعون (١)

(١) الخريدة ، شعراء الشام ٢/١٢٩

أبو المظفر الابيوردي

قال بعد دخول الفرنج القدس سنة ٤٩١ :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام : ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
اتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المسلمين قواضبا ... ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد بهن المستجن بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى ... وتغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم ان لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ حمي الوغى ... فهلا أتوه رغبة في المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا عند هذه ... رمتنا الى أعدائنا بالجرائم (١)

---

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٢٦ ، والكامل ١٠/ ٢٨٥

ابن الخياط ـ ٥١٧

قال يمدح الامير مجد الدين عضب الدولة أبق بن عبد الرزاق ، أحد مقدمي أمراء دمشق ويحضه على الجهاد :

فدتك الصواهل قبا وجردا … وشم القبائل شيبا ومردا
ودانت لأسيافك البيض قضبا … ودانت لأرماحك السمر ملدا
وقل لمن قام في ذا الزمان … مقامك أن بات بالشكر يفدى
ألست أبر البرايا يدا … وأندى من المزن كفا وأجدى
وأمضى حساما وأوفى ذماما … وأحمى غماما إذا النيب أكدى
وأكلأ إذا غيبت الأمر طرفا … وأورى إذا أظلم اليوم زندا
إذا التبس الرأي كنت الأسد … وإن غالب الخطب كنت الأشدا
وإن قصر الناس عن غاية … سبقت إليها من الناس فردا
ومن ذا يجاريك فضلا ونيلا … ومن ذا يساويك حملا وعقدا
سجية من لم يزل بالثنا … ء والحمد منفردا مستبدا
تجمل معاليه أن تستطاع … وتأبى مناقبه أن تعدا
حقيق إذا ما انتضى سيفه … بأن يجعل الهام للسيف غمدا
زعيم الجيوش لقد أعجزت … أياديك واصفها أن تحدا
وأمعن ذكرك في الخافقين … شرقا وغربا وغورا ونجدا
فصار مسير هلال السما … ء يزداد نورا إذا ازداد بعدا
فلو طبع الفخر سيفا لكنت … دون الورى حده والفرندا
وكم لك من نائل نائل … رقاب المآثر شكرا وحمدا
ندى يعتق العبد من رقه … ولكنه يترك الحر عبدا
وإني لمهد إليك القريض … يطوى على النصح والنصح يهدى
إلام[*] وقد زخر المشركون … بسيل يهال له السيل مدا
وقد جاش من أرض إفرنجة … جيوش كمثل الجبال تردى
تراخون من يجتري شدة … وتنسون من يجعل الحرب نقدا
أنوما على مثل حد الصفاة … وهزلا وقد أصبح الأمر جدا
وكيف تنامون عن أعين … وترتم فاسهر توطن حقدا
وشر الضغائن ما أقبلت … لديها الضغائن بالكفر تحدى
بنو الشرك لا ينكرون الفساد … ولا يعرفون من الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا … ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت … تدق من الخوف نحرا وخدا

---

* في الديوان : الى كم وقد زخر المشركون : وهو مكسور

وأمّ عواتق ما إنْ عرفـ ـن حَرّاً ولا ذقن في الليل بـردا
تكاد عليهن من خيفة تذوب وتتلف حزنا ووجدا
فحاموا على دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسدّوا الثغور بطعن النحور فمن حق ثغر بكم أن يسدا
فلن تعدموا في انتشار الامور أخا تدرا حازم الرأي جلدا
يظاهر تدبيره باسه مظاهرة السيف كفا وزندا
كمثل زعيم الجيوش المليّ بحزم يبيت له الحزم ردا
وعادات بأسكم في اللقا ء ليست تحول عن النصر عهدا
فدونكم ظفرا عاجلا لكم جاءكم سائر الارض مهدا
فقد أينعت روءس المشركين فلا تغفلوها قطافا وحصدا
فلا بد من حدّهم أن يفل ولا بد من ركنهم أن يهدا
فانّ ألب رسلان في مثلها مضى وهو أمضى من السيف حدا
فاصبح أبقى من الفرقد ين ذكرا وأسنى من الشمس مجدا
لعلكم أن تعيدوا من المـ آثر والمجد ما كان أبدا
وهذا ابنه قائما فيكم مقام المفاخر جدا وجدا
بخيل تنال غداة الكر طيرا تحملن غابا وأسدا
وطعن أمر من الموت طعما وضرب أحر من النار وقدا
اذا ما السيوف غداة الحتو ف نوّعت الضرب قطعا وقدا
ترى لمعا وقعا لا يز ن يخطفن برقا ويقصفن رعدا
غدو الباس من جاب من تركية له جنة ومن الدرع بردا
وليس السرد عن منكبيه حتى يصير مع الجلد جلدا
فما ينزع اليوم عنه الحديد من رام ان يلبس العز رغدا
وأيسر ما كابدته النفوس من الامر ما لم تجد منه بدا
بقيتم ولا زلتم في اللقاء بدورا توافق في الافق سعدا
ولا برح العز للمسلمين من نصركم أبدا مستمدا
فلسنا نرى بعد طول البقاء أتم منكم على الله وفدا
وقد قيل في الترك إن الذي يتاركهم أسعد الناس جدا (١)

---

(١) ديوانه صفحة ١٨٢ ـ ١٨٧

وقال يرثي السالار (القائد) قُول بن الامير عثمان ، وكان قتل في البقاح سنة ٥٠١ ، ويعزي به الامير عضب الدولة :

ليس البكاء وان أطيل بمقنعـــــــي ... الخطب أعظم قيمة من أد معـــــــي

ثم يذكر مناقبه باثنين وخمسين بيتا ، الى أن يقول :

لا يُطمِع الاعداء يوم مَرّهـــــــم ... ان الردى في طيّ ذلك المطمـــــــع
الثار مضمون وفي أيماننـــــــا ... بيض كنا طفقا لبروق اللامـــــــع

وذ وابل يهوى الى ثُغر العـــــدى ... توقّ العطاش الى صفاء المشـــــرع
قد آن للدهر المضلّ سبيلـــــه ... أن يستقيم على الطريق المهيـــــع
مستدركا غلط الليالي فيكـــــمُ ... متنصلا من جرمها المستفظـــــع
أفغركم ان الزمان أجركـــــم ... طولاً ببغيكـــم الوخيم المرتـــــع
هلاّ ومجد الدين قد عصفتْ بكـــــم ... عزماته با لفور عصف الزعـــــزع
وغداة علمانَ التي روتكـــــم ... بالبيض من سمّ الغراب النقـــــع
لا تأمنن صريمة عضبيـــــة ... من أن تقيم الحق عند المقطـــــع
بقسنا لغير ردائكم لم تقتنـــــل ... ونابي لغير بواركم لم تدابـــــع
يا خيرَ من تمشّى وأكرمَ من رجـــــي ... وابرّ من نودي وأشرف من دُعـــــي
إنا وان عظم المصاب فسلا الاســـــى ... فيه المصيّ ولا السلـــوّ بطيـــــع *(١)

ويختمها بتعزية الامير عضب الدوله بستة ابيات أخـــيره :

---

* انظر الخريدة بداية قسم شعراء الشام ٢١٥

(١) ديوانه صفحة ٢١٣ ــ ٢٢٠

الامير مجسد العسرب

قال يمدح الامير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ويذكر ظفره بالفرنج بعد عودة من الشام سنة ٥٢٤ :

أطاعك فيما ساء حاسدك الدهر ... ووالاك ما عادى معاديك العمر
ولا استعرت الا بحملاتك الوغى ... ولا سار الا تحت راياتك النصر
فأنت الذي أرضى عن الدهر قربه ... وجمّلت الايام أيامه الغر
. . . .
أتاك لما أعيا سواك من العلى ... بهن الطعان الشزر والنائل الغمر
وعربية شقر ، وماذية خضر ... وهندية حمر ، وخطية سمر
تصول اذا استمطرتها ذرت الطلا ... وخيل اذا استحضرتها أظلم الفجر
مصودة الا تجوس عمارة ... فترحل الاوحي من سكنها تقفر
هزمت بها جيش العدو مجاهدا ... فعز بك الاسلام ، وأقمعهن الكفر
ورويت بيض الهند من مهجاتهم ... فهن قوانٍ من دمائهم حمرُ ... الخ (١)

---

(١) الخريدة ، القسم العراقي ، ج ٢ ، ص ١٤٥

قال يمدح الوزير الافضل بن بدر الجمالي ويذكر تجريده العساكر الى الشام لمحاربة الفرنج بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصـة :

هي العزائم من أنصارها القـدر ... وهي الكتائب من أشياعها الظفـر
جردت للدين والاسياف مغمـدة ... سيفا تفل به الاحداث والغيـر
وقمت اذ قعد الاملاك كلهـم ... تذب عنه وتحميه وتنتصـر
بالبيض يسقط فوق البيض أنجمهـا ... والسمر تحت ظلال النقع تشتجـر
بيض اذا خطبت بالنصر السنهـا ... فمن منابرها الاكباد والقصـر
وذبل من رماح الخط مشرعـة ... في طولهن لاعمار الورى قصـر
يخشى بها غمرات الموت أسد شـرى ... من الكماة اذا ما استنجدوا ابتدروا
مستلئمين اذا شاموا سيوفهـم ... شبهتها خلجا مدت بها غـدر
قوم تطول بيض الهند أذرعهـم ... فما يغير ظباها أنها بتـر
اذا انتضوها وذيل النقع فوقهـم ... فالشمس طالعة والليل معتكـر
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربـا ... كأنما الدم راح والظبى زهـر
وان هم نكصوا يوما فلا عجـب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكـر
العود أحمد والايام ضامنـة ... عقبى النجاح ووعد الله منتظـر
وربما ساءت الاقدار ثم جـرت ... بما يسرك ساعات لها أخـر

ومنهـا :

لله بأسك والالباب طائشـة ... والخيل تردى ونار الحرب تستعـر
وللعجاج على صم القنا ظلـل ... في الدخان وأطراف القنا شـرر
اذ يرجع السيف يبدي خده علقـا ... كصفحة البكر أدمى خدها الخفـر
أما يهولك ما لاقيت من عـدد ... سيان عندك قل القوم أم كثـروا
هي السماحة الا أنها شـرف ... وهي الشجاعة الا أنها غرر ... الخ (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، القسم الرابع الجزء الاول ص ٢٦٥

قال يمدح الأفضل الجمالي بقصيدة مطلعها :

الحب مذ كان معنى يعجب الأدبا ... فإن تغزلت في مدح فلا عجبا

ومنها :

سارت له سيرة أدنى مناقبها ... قد عطر الأرض والأفواه والكتبا
تضمنت غزوات كلما ضحكت ... للإسلام منهن ثغر الكفر وانتحبا
أرضى المساجد والزهاد عنه الا ... لله ما أسخط الرهبان والصلبا
وللأذان سرور في مواطنه ... تبدي النواقيس منه الويل والحربا
ضمّر خيولك للنصر التي وعدت ... وثقف السمر حزما وانتضِ القضبا
أبشر فعادات وعد النصر قادمة ... كالهيم من بعد خمس وافت القربا
واسفك دما في طلى الأعداء منتظرا ... فلو أشارت له أسيافك انسكبا (١)

وقال يمدح الامام الآمر المنصور ، بقصيدة أولها :

بكم آل وحي الله يفتخر المجد ... وفيكم يسوغ المدح والشكر والحمد

ومنها :

ستأخذ للاسلام ثاراته التي ... تقاوم للكفر اللعين بها الضد
كما فعلت في يوم بدر سيوفكم ... وفي الشرك من دون القليب لها ورد
لك العزمات النافذات اذا أبرمت ... الى مقصد لم تمنع البيض والسرد
وان خفقت راياتك الحمر سبحت ... انصراء أعلاها ملائكة جند
ومخلية سمر وبيض صوارم ... ومسرودة زعف ومقربة جرد
وقوم منايا هم مناهم اذا انتضت ... رماحك ، وفي طيب الحياة لهم زهد
فقد شام ملك الشام برقا سيحتوي ... على ملك قسطنطين من سيله قصد
تزلزل ما خلف الفرنجة هيبة ... له فرواسيها تخر وتنهد
ولله سر فيك حان ظهوره ... ليوقن مرتاب ويرجع مرتد ... (٢)

وقال يمدحه بقصيدة مطلعها :

صلى الاله عليك يا ابن رسوله ... وهدى لطاعتك الورى لسبيله
فيك استقر الحق واتضح الهدى ... وأبان للثقلين وجه دليله
يا ابن الائمة من ذؤابة هاشم ... شرف سما بفروعه وأصوله

---

(١) ديوانه ص ٢٤ ـ ٢٨
(٢) ديوانه ص ١١٧

ومبيد ملك الروم بالنصر المـــــــــدى
قد شام منه الشام أعظم بـــــــــارق
بادر بيوم مثل بدر أن يكـــــــــن
قد حان حينهم وكاد لقربـــــــــه
لله جيش مثل جيشك معلـــــــــم
لولا النجيع لكاد يسمع ناصـــــــــت
وأجر الجياد فكل طرف سابـــــــــح
وشم السيوف اذا فكل مهنـــــــــد
فليثبت الافرنج منه لقســـــــــور
ما مالهم وحريمهم ودماؤهـــــــــم
فالبر مثل البحر من فرسانـــــــــه
جمعت بيت الطير فوق رماحـــــــــه
ضاقت به الكرة التي هو ملؤهـــــــــا

نطقت به الآيات من انجيلـــــــــه
يمحو الفرنجة منه بمضى سيولـــــــــه
لأبيك ذاك فان ذا لسليلـــــــــه
منهم يسمعنا صياح عويلـــــــــه
فالنصر يرحل دائما برحيلـــــــــه
صوت الملائك فيه من تهليلـــــــــه
شوقا لهذا النصر جل صهيلـــــــــه
لرقاب أهل الكفر فرط نحولـــــــــه
بعث الحتوف اليهم من غيلـــــــــه
الا وديعته بكف وكيلـــــــــه
والبحر مثل البر من اسطولـــــــــه
عدا لكثرته كان مقيلـــــــــه
حتى يكاد يشقها برعيله ...الخ (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٥٤ ــ ٢٦٠

قال يمدح صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي صاحب حمـــاه :

وما جاء كلب الروم الا ليحتـــوى ... حماةَ ، وما يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أنْ يملك الشام عَنـــوة ... وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما دام فيها العيش حتى صدمتـــه ... فعال جنان العيش وانكسر القلب
تولى وأطراف الرماح كأنهـــا ... نجومٌ عليه بالمنيّة تنصب (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي بقصيدة أولهـــا :

بعزمك أيها الملك العظيـــم ... تذلُّ لك الصعابُ وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لمّـــا ... تبين أنك الملكُ الرحيم
فجاء يطبّق الفلوات خيـــلا ... كأن الجحفلَ الليلُ البهيم
وقد نزل الزمانُ على رضـــاه ... فكان لخطبه الخطبُ الجسيم
فحين رمْته بك في خميـــس ... تيقّن أنّ ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشـــا ... فأحزَنَ لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهابُ نـــور ... توقّد وهو شيطانٌ رجيم
أراد بقاء مهجته فولـــى ... وليس سوى الحِمام له حميم
يؤمّل أنْ تجود بها عليـــه ... وأنتَ بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفـــوا ... وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرّعتها غصص المنايـــا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما أن طلبتهم تمـــنّى الـــمنية ، وسليمهم اللئيم
أتاه يطوي الآفـــاق حينـــا ... وأنت على مقاتله مقيم
فسار وما يعاد له مليـــك ... وناد وما يعاد له سقيم
اذا خطرت سيوفك في نفـــوس ... فأول ما يفارقها الجسوم
رأيتك ، والملوك لها ازدحـــام ... ببابك لا تزول ولا تريم
تقبّل من ركابك كل يـــوم ... مكانا ليس تبلغه النجوم
تود الشمسُ لو وصلت اليـــه ... وأين من الغزالة ما تروم
أردت فليس في الدنيا مليـــك ... وجُدت فليس في الدنيا عديم
وما أحييت فينا العدل حـــتى ... أميت بسيفك الزمن الظلوم
وصرت الى الممالك في زمـــان ... بموهبك الدنيا عقيم
تزخرف للأمير جنانُ عـــدن ... كما لعِدا استعر الجحيم

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣

أمرّ اللعين من مليك ... تخامر غير همته الهموم
فلا برحت لك الدنيا فداء ... وملكك من حوادثها سليم
وإنْ تلقى سبيل الله تشقى ... فعند الله أجرك والنعيم (١)

وقال يهنئ صلاح الدين بالعيد ويذكر ما وهبه إياه من العبيد والإماء سنة ٥٧٦ : مطلعها :

أيحسن بعد صدك حسن ظني ... فأجمع بين يأسي والتمني

وبعد مقدمة غزلية يقول :

أتمنع الموت لي رصدا فأخشى ... زيارته وإن يك لم يزرني
كما رصد العدى في كل يوم ... صلاحُ الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسري ... فلو هجعوا أتاهم بعدَ وهن
أبا دهم تخوفه فأمسى ... منازلهم لو يبيتهم أشجن
تملك حولهم شرقا وغربا ... فصاروا لا تتناهى تحت رهن
أطاف عليهم من كل فج ... قبائلَ يقبلونَ بغير وهن
أتاهم بآل أيوب رباطا ... رأت منه الفرنجُ مضيق سجن
فهم للدين والدين جبال ... رواس لا ترى أبدا كعهن
إذا اتبسوا له عزما ورأيا ... غنوا في الحرب عن ضرب وطعن
وإن نادى : نزال ، فلن يبالوا ... قتالهم لأسر أو لمن
ربما أقصى الملوكَ السلمَ عنهم ... ولهم جهدٌ في البأس يغني
وخافتهم ملوك الناس جمعا ... فلم تقلبْ لهم ظهرَ المجن
لهم من بأسه ركنٌ شديد ... ولو طلبوا لما آووا لركن
حوت آفاقَ مصرهمُ حصونا ... فكيف إذا أداروا كل حصن
فطارقة لهم سلطانُ عدل ... يمنّ لهم بكارمهم ويبني
. . . .
أرى داويةَ الكفار خافت ... بعداءَ يضعّف كل متن
أبوا نسلا مخافة نسل بنت ... تفارق دينهم أو تلقَ ابن
فقد عقموا به من غير عقم ... كما جبنوا به من غير جبن
ومن أفنادهمْ قدمًا حقيق ... بمحمد مثلما وجدوا ويثني
لقد خبر التجارب منه حزم ... وقلّب دهره ظهرا لبطن
فكف الكفر أن يلقى بكفر ... يحيّر كل ذي فكر وذهن
فساق إلى الفرنج الخيل بحرا ... وأركبهم على بحر بسفن
لقد جلب الجواري بالجواري ... يعدن بكلّ قدّ مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤسا ... فمرنان تنوحُ على مرن

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٢ والخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ والكامل ١٠ / ٥٦ والباهر ٥٦

فما من ظبيـــة تفدى بليـــث   ولا ليث فدى رشأ أغـــن
زهت اسكندرية يوم سيقـــوا   وباهت فما دُنيا بغبـــن
وخيرهما هناءًما أتاهـــا   بقرب الملك كل علىّ يهنـــي
فلو لبست به للفخر بـــردا   لجرّت فضل أذيـــال وردن
لقد سبق الندى منه السبايـــا   فكم عزب بأهل باتيهنـــي
واعجله السماح عن اذكـــارى   ولو ألقاه منّ بغير منـــن
فأسلحة تخاف لديه خزنـــا   وأموال تطير بغير شـــزن
وكيف يصون بحرا جود بحـــر   فيحمل منه لآلئ وشـــدن
وان الناصر الملك المرجّـــى   لأولى من ولي حيا بهـــتن
يبيد عداته ويشيد مجـــدا   لآل فهو يبني حين يفـــني
اذا لاقى العدى فأشد ليـــث   وان بذل الندى فاسح ـــزن(١)

وقال يمدح نور الدين :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهـــه   كالرمح دلّ على القساوة لينـــه
ووراء يقظته أناة مجـــرب   لله سطوة بأسه وسكونـــه
هذا الذى في الله صحّ جهـــاده   هذا الذى بالله صحّ يقينـــه
هذا الذى بخل الزمان بمثلـــه   والمشمخر الى العلى عرنينـــه
ملك الورى ملك أغرّ متـــوّج   لا غدره يخشى ولا تلوينـــه
إن حلّ فالقرآن التالي أنيســـه   أو سار فالنّفر المطرف قرينـــه
فالدهر خاذل من أراد عنـــاده   أبدا وجبّار السماء معينـــه
والدين يشهد أنه لمعـــزّه   والشرك يعلم أنه لمهينـــه
ما زال يقسم ان يبدّد شملـــه   والله يكره أن تمين يمينـــه
فتح الرها بالامس فانفتحت لـــه   أبواب ملك لا يزال مصونـــه(٢)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٤٦١ ـ ٤٦٦
والروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٩٥

أبو الحكم الأندلسي

قال يصف ما فعله الفرنج الألمان سنة ٥٤٣ بدمشق :

بشطيّ نهر داريا ... أمورٌ ما تواتينا

وأقوامٌ رأوا سفك الدّ (٢) ... ما في جلق دينا

أتانا مائتا ألف ... عديداً أو يزيدونا

فبعضهمو من أندلس ... وبعضٌ من فلسطينا

ومن عكا ومن صور ... ومن صيدا وتبنينا

اذا أبصرتهم أبصرْ ... ت أقواماً مجانينا

ولكن حرّقوا في عسـ ... جل العال البساتينا

وجازوا المرج والتسديد ... ل أيضا والميادينا

تخالهمو وقد ركبوا ... فطائرها جراذينا

وبين خيامهم ضموا الـ ... خنازر والقرابينا

ورايات وصلبانا ... على مسجد خاتونا

وقلنا إذا رأيناهم ... لعل الله يكفينا

صالهمُ معينٌ قد ... أعان الخلقَ والدينا

وفتيان تخالهم ... لدى الهيجا شياطينا

غدوا يتلون المرج ... من شرقيّ حمرينا

ولكن غادروا اليو ... م تحت الترب مدفونا

. . . .

ومنهم مائتا علج ... ونيلٌ نحو تسعينا

وباقيهم الى الآن ... مِن القتل يفرّونا (١)

---

(١) الروضتين ١ /١ / ١٣٩

ابن القيسراني – ٥٤٨ هـ

له من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزوري عند فتح الرها :

ان الغنائم يوم صافحت الرها … عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مظهر بتمامه … كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أية وثقة بدرية … نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر ، كمالَ الدين ، كنت لقاحه … كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة … بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقدموا ريح الصبا … جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تحصنت … ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعد ها … ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدا الى أرض الفرنجة بعد ها … ان الدروب على الطريق اللاحب
أغركم اثار رهن دمائكم … ما كان من أطراق لحظ الطالب
واذا رأيت الليث يجمع نفسه … دون الفريسة ، فهو عين الواثب (١)

وقال في تهنئة نور الدين بانتصاره على الفرنج يوم إنب :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب … وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت … تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحتيا بن عماد الدين ذروتها … براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدك يبني كل شاهقة … حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى ، وهمك ما … أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة … وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة … فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة … أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت مسامعها … قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم إنب والأيام دائلة … من يومنا ببعيد ، لا ، ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم … كم أسلم الجهل ظنا غره الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى … وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم … طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه … فالحرب تضرم والآجال تحتطب

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨

والخيل من تحت قتلاها تقر لهـا … قوائمٌ خانهنّ الركضُ والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقـد … كما استقل دخانٌ تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركـة … لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبلٌ هطال وليس لـه … سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقتـه … كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهـمُ … مصادرٌ ، أقلوبٌ تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديَهم … فاستسلموا ، وهي لا نبع ولا غرَب
كذاك من لم يوقّ الله مهجتَـه … لاقى المدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفُهم أوحى حتوفهـمُ … يا رُبَّ حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم … ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهـمُ … مسلوبة ، وكأن القومَ ما سُلبوا
أنباء ملحمة لو أنّها ذكـرتْ … فيما مضى نسيتْ أيامَها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبـا … من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليلُ معتكـر … إلاّ تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثـة … ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكرى من وقائعـه … شغْل ، فكل مديحي فيه مقتضب
من باتت الاسْد أسرى في سلاسلـه … هل يأسرُ الغلبَ إلا من له الغَلَب
فملّوا سَلَبَ الإبرنز قاتلَـه … وهل له غير انطاكيةٍ سلب
من للشقي بما لاقت فوارسـه … وان بسائرها من تحته قتب
عجبتُ للصعدة السمراء مثمـرةً … برأسه ، إنّ إثمارَ القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرّقتـه … أنبوبةُ في صعود أصلها صبب
ما فارقت عذبات التاج مفرقـه … إلاّ وهامته تاجٌ ولا عقب
اذا القناة أبتغت في رأسه نفقـا … بدا لتسلبها من نحره سرب
كنا نعد حص أداراتنا ظفـرا … فملّكتْك الظبا ما ليس تحتسب
عمتْ فتوحك بالعدوى معاقلهـا … كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق … كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض الى المسجد الأقصى بذي لجب … يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحلـه … فإنما انت بحرٌ لجّه لجب
يا من أعاد ثغورَ الشام ضاحكـة … من الظبا عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعهـا … حتى أتمتَ ، وانطاكيةُ ضلب
حللت من عقلها أيدي معاقلهـا … فاستعقلت ، والى ميثاقه الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزهـا … وكيف يثبت لا جوق ولا طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسهـا … جري الجفون أمرائها بالرُّ تحصب
وما ركزتَ القنا إلاّ ومنك علـى … جسر الحديد هزبر غيله أشب
فاسعد بما نلته من كل صالحـة … ياوي الى جنة المأوى لها عقب

إنْ لا يكن أحدُ الابدال في فلك الـــــــــــستوى فلا تمارى أنك القطـــــــــب
فلو تناسبَ أفلاك السما بهـــــــــا لكان بينكما من عفـة نســـــــــب
هذا ، وهل كان في الاسلام مكرمـــــة الا شهدْتَ وعَادُ الهوى غيــــب (١)

وقال عند دخوله انطاكية في رأهبــــــــة :

أشجْنةَ الصليب وددت أنـــــــــي ودين الله عندكم صليـــــــــب
اذا أقبلت تبلني حبيـــــــــب أسر به ميانقني حبيــــــــب
وهل بيني وبين المســــود فـــــرق يرى الا التفجعوا لنحيـــــــــب
حبيني صورة يحنى عليهـــــــا أجيب اذا دعيت ولا تجيـــــــب
فليصحيها طرف من فتـــــــاة من الرهبان قونتها أديــــــــب
فلو تديسها ناجاه لفظـــــــي لاًمسى ، والنسيب له نسيـــــب (٢)

ومن ذلك :

عرجا بالاشـــــــارب كـــي أقضـــي مآربـــــي
واسرقا نوم مقلـــــــتي من جفون الكواعـــــب
واعجبا من ضلالـــــــتي بين عين وحاجـــــــب
رب كأس حبابهـــــا من ثغور الحبايــــــب
اسكرتني فبت ملـــــــــــــــــقى على الترايـــــب (٣)

وقال في مدح نور الديـــن حين أسر جوسلين سنة ٥٤٥ هـ : المطلع :

أما وخيال زار من احبـــــــه لقد هاج منذكراه مالا أغبـــــه

---

(١) الروضتين ١/١/١٥٢ + الباهر في الدولة الاتابكيه ص ٩٣ + البدايه والنهايه ١٢/٢٢٦ + الكامل ١١/١٤٥
(٢) ديوان : ابن القيسرانــي ورقة ٦٤
(٣) ديوانه : ورقه ٧٨ والخريدة قسم الشام ١/١٥٦

ثم انتقل الى المديح :

مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
حمى قبة الاسلام بالخيل ، فاغتدت
فكم هبوة أو قمن بالكفر تحتها
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
وشهباء هاجتها وغى صرخديه
وحارم يوما بالمرية فاغتدت
وعاص على العاصي بارعن خاطب
بابنب لما اكسب الدال وانثنى
غداة هوى شطرين للسيف رأسه
على حين للخطي فيه عوامل
ووقائع محمودية النصر لم تزل
يقوم مقام الجيش فيها وحده
وحينا نتشتمعزة منقرابه
الى ان عصرتها كل بلدة
ولما نزا بالقمص عجب هوى به
فاصبح في الحجلين ينكر خطوه
تعاتبه البشرى باخذ حصونه
تناجي عزاز باسمثل باشر
فان يكن المعهود مثل عرشه
فقل لملوك الخافقين نصيحة
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا
رحيب فناء الحلم عند ات قدرة
عفو عن الجاني يكاد الذي جنى
امتخذ الاخلاص لله جنة
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة
اذا ذب عن اضغاث دنياه مالك
رأيت اتباع الحق خيرا مغبة
وأوضحت ما بين الفريقين سنة
وبينت نور الدين ما كان يختفي

الى الآن حتى لان وانقاد صعبه
واوتادها جرد الطمان وقبه
فما انقضت الا وللذل جنبه
ملئ برعي الهند واني ضعيبه
ثناها وليل الحرب تنقض شهبه
كوادي ثمود اذ رغا فيه سقبه
دم الاغلف حتى انكر النصل خطبه
بصاحب انطاكية وهو كسبه
وللرمح حتى توج الرأس قلبه
يعاقبه خفض الحسام ونصبه
غريبا بها عن موطن السيف غربه
وتفصل اعمال الكتائب كتبه
مضى وهو نصل والممالك قربه
فليس من الأسار مالا يرتبه
على أم رأس البغي والغدر عجبه
بعيد على الرجلين في السعي قربه
فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
فيلمنه لمن الصريع وسببه
فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
كذا عن طريق الليث يزار غلبه
بحكم الرذينيات والغرب غربه
فان القنا في ثغرة النحر دربه
اذا ضاق من صدر المملك رحبه
يكر به شوقا الى العفو ذنبه
ومن يعتصم بالله ، فالله حسبه
وللروم بالرها طالما غال خطبه
فانت الذي عن حوزة الدين ذبه
فاعرضت عن رأي يسرك غبه
بها عرف المربوب من هو ربه
دليلا بأن الله من انت حزبه (١)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٨٨

وقال بكنيسة أشمونيثا وهي للقرية والنصـارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثـا ... حتى ترى التوحيد والتثليثـا
لرأيت منا أعينـا طامحـة ... تستحسن التذكير والتأنيثـا
. . . . .
لما سألت غلالةً من ريقـه ... ملأ الزجاجة ثم جاء حثيثـا
قلت اسقني من فيك إنّ رضابـه ... قد ردّ أطيب ما حملت خبيثـا
قال . . . . المزاج نسيبـة ... ما عند تشرب يفهم الثالوثـا
وبدا يناظرني بها عن دينـه ... فقطعت ليلا بالجدال حثيثـا
. . . . (١)

وقال يمدح نور الدين زنكي سنة ٥٤٤ ويذكر وقعته بالفرنج يوم إنـب :

ألا لله درك أيّ درّ ... صريح جاء بالكرم الصريـح
وعسكرك الذي استولى سيحـا ... على ما بين فاميـةٍ وسيـح
ووقعتك التي بنت المعالـي ... صوادر عن قتيل أو جريـح
بإنب يوم أبرزت المذاكـي ... من النقع النزالة في مسـوح
غداة كأنما العاصي احمـرارا ... من الدم عبرة الجفن القريـح
وقد وافاك بالإبرنس حتـف ... أتيح له من القدر المتيـح
تملّكه شجاعة النفـس إذ لا ... يجود بنفسه غير الشحيـح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسـوا ... وليس سوى القشاعم من ضريـح
وعدت إلى ذرا حلب حميـدا ... سموّ البدر من بعد الجنـوح
فإن خليت بتركك الليالـي ... فكم لسناك من زمن مليـح
رويدك تمكن الهيجا فواقـا ... بحيث تريح من تعب المريـح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتـا ... فهمّك غير همّ المستريـح (٢)

وقال في الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق سنة ٥٤٥ وأثر الوحدة في الانتصار على الفرنج :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتـح ... وإن شئت صلحا عدّ من حزبك الصلـح
وهل أنت إلا السيف في كل حالـة ... تطورا له حدّ وطورا له صفـح
سقيت الردينيات حتى رددتهـا ... ترنّح من سكر فخلّ القنا تصحـو
وما كان كفّ العز إلا إشـارة ... إلى الحزم لو لم يخضب السيف والرمـح

---

(١) ديوانه ورقة ٧١ (٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٥

وقد علم الاعداء مذ بتّ جانحا … الى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو
اذا ما دمشق ملّكتك عنانها … تيقّن من في ايليا أنها الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى … فلا مهمه يحوي الضلال ولا سفح
اذا سار نور الدين في الجيش غازيا … فقولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركتَ قلوب الشرك تشكو جراحها … فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر غير مضيعة … فسيق اليك الملك يسعى به النجح
كأن القنا تجلو لوجه أميره … ولو أمهلت بلقيس ما عرفنا الصرح
بدولتك الغراء أصبح ضدها … بهيما ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا … موارد هذا العدل ما مسه قرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى … على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة … ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحو
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى … وأثمرت الآداب وأطّرد المدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلى … ودانت لك الدنيا وعزّ بك السمح
فلا قلب الا قد تملكته هوى … ولا صدر الا قد جلاه لك النصح
وما الجود في الأملاك الا تجارة … فمن فاته حمد الورى فاته الربح
ولم اختصر ما قلت الا لأنني … أعبر عما لا يقوم به الشرح (١)

وقال يمدح نور الدين :

تدارك ملكا للعرب ذبّا … الى أن عده منه مسند
وحلّ ذرى العلياء وهي نهبى … فأجلى الشرك حتى ليس يوجد
ثنى يده عن الدنيا عفافا … ومال بها عن الأموال زهد
رأى حسم المكوس عن الرعايا … فأصدر قبل ما أنشاه بعد
ومدّ لها رواق العدل شرعا … وقد طوي الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها … لدولته دعاء لا يرد (٢)

وقال يمدح نور الدين بعد هزيمته للفرنج بيصرى* ، مطلعها :

يا ليت أن الصدّ مصدود … أو لا فليت النوم مردود (٣)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٠
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٨ .
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ وانظر الكامل ١١ / ١٣٤ والباهر ٩٢
(*) وهم ابو شامة فظنها بصرى وهي عند ابن الاثير يصرى ، الكامل ١١ / ١٣٤

ثم خرج الى المدح فقال :

وكيف لا نثني على عيشنا الـمحمود والسلطان محمود

فليشكر الناس ظلال المنى | ان رواق العدل ممدود
ونيّرات الملك وهّاجة | وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينثني | إلا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة | إلا ونور الدين موجود
مظفّر في درعه ضيغم | عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما | فهو سليمان وداود
ترتشف الأغماد أسيافه | إنّ رضاب الغمر مورود
وكم له من وقعة يومها | عند ملوك الشرك مشهود
والقوم اما موهن صرعة | أو موثق بالقدّ مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها | قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثأر ضمنته الظبى | فكل ما يضمن مردود
والكر والفر مجال الوغى | فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بغيها | "عاد" وقد عاد لها "ثمود"
قد حصحص الحق فما جاحد | في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح | وكل ثغر بك مسدود

وقال فيه :

تفي بضمانها البيض الحداد | وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ | فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام | يشدّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو | ونور الدين في يده الزّناد
وجند كالصقور على صقور | اذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا | وان أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها | وظل يُنشى وأنت لها عماد
وان تتلُ التواني ما تلته | بإنبَ ما يؤنبها سناد
جرتْ بالنصر أقلام العوالي | وليس سوى النجيع لها مداد
ونالت أرؤس الاعلاج خصبا | فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا | ولا طعنٌ هناك ولا طراد
ولابرنس فوق الرمح رأس | توسّد والسنان له وساد
ترجل للسلام فغرسوه | وليس سوى القناة له جواد

غضيض المقلتين ولا نعـــاس ... وغائرها وليديه سهـــاد
ثمر واستوعب الدنيا فتوحـــا ... فلا ضعفت عناك ولا وهـــاد
وزر بني الوغى مثوى جبيـــب ... فما عزباب مسلمة زيـــاد
ولا في باب فارس غير تكلـــس ... بفارسها يضيء بها الحـــداد
لانطاكية يحمي ذراهـــا ... وقد دانت لسطوتك البـــلاد
واذعنت الممالك واستجابـــت ... ملبية لدعوتك العبـــاد (١)

وقال في جارية حسناء اسمها ماريا تنني بالدف ، خفيفة الروح في نهاية اللطف ومن أعواتهـا التي تغايظ بها النصارى وتستميل بها قلوب المسلمـين :

علقت بحبل من حبال محمـــد ... أمنت به من طارق الحدثـــان (٢)

فقال فيها بعد البعد عنهـــا :

ألا يا غزال الثغر هل أنت منشـــدي ... علقت بحبل من حبال محمـــد
ويا هل لذات اليوم في الدهر ليلـــة ... تعود ، ولو عادت عقيبا بعد غــد
فالتاك فيها هادي الكأس حاديـــا ... وحسبك من ساع بها ومغـــرد
الا حبذا عاري المحاسن عاطـــل ... محلى بأثواب الملاحة مرتـــد
اذا ما الأماني ما طلتني بوعدهـــا ... ذكرت له وصلا على غير موعـــد
وعهدي بماريا سقى الله عهدهـــا ... بما عندها من حاجة الهائم الصـــدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضـــة ... تنقط خديه العيون بعسجـــد
وقد غلب المصباح فيه على الدجـــى ... سنا قمر في جنح ليل مجعـــد
وكنت اذا عفت الزجاجة مـــوردا ... سقتني رضابا في اناء مـــورد
فيا لي من وجه كقنديل هيكـــل ... عليه من الصدغين محراب مسجـــد
لقد أسرتني حيث لا أبتغي الفـــدا ... فقل في أسير لا يسر بمفتـــد

وقال في فتح الرها سنة ٥٣٩ ومهنئا عماد الدين زنكـــي :

هو السيف لا يثنيك الا جـــلاده ... وهل طوق الاملاك الا نجـــاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبـــا ... سناها وان غاظ العيون اتقـــاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطولـــه ... ولم يك يسمو الدين لولا عمـــاده

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ ، وانظر أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ٩
(٢) ديوانه : ورقه ٧٤ ـ ٧٥ والخريدة قسم الشام ١ / ١٠١

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمهـــا ... عن الهدى لا يستطاع ذيـــاده
ليهنيني الايمان أن ترقّصـت ... رواسيه عزا واطمأن مهـــاده
وفتح حديث في السماع حديثـه ... شهي الى يوم المعاد معـــاده
أراع قلوبا طرن عن وكناتهـا ... عليها غوافي كلّ صدر فـــؤاده
لقد كان في فتح الرها لا لمـه ... على غير ما عند الملوك اعتقـــاده
يرجّون ميلاد ابن مريم نصـرة ... ولم يغن عند القوم عنـــه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجـة ... يفل حديد الهند عنها حـــداده
تنوت مدى الابصار حتى لو انّهـا ... ترقت اليه خان طرفا ســـواده
وجامحتعز الملوك قيادهـا ... الى ان ثناها من يعز قيـــاده
فأرسلها حر القراع مؤيـد ... بصير بتدوين الالد لـــداده
كأن سنا لمع الاسنة حولـه ... سرار ولكنّ في يديه زنـــاده
فأضرمها نارين حربا وخدعـة ... فما راع الا سورها وانهـــداده
فصدت صدور البكر عند افتضاضهـا ... وهيهات كان السيف حتما سفـــاده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحـه ... بمن كان قد عم البلاد فســـاده
غداة كأن الهام في كل قونـس ... كمائم نبت بالسيوف حصـــاده
فما مطلق الا وشدّ وثاقـه ... ولا موثق الا وحل صفـــاده
ولا منبر الا ترنح عـــوده ... ولا مصحف الا أنار مـــداده
فان يتكل "الابرنز" فيها حياتـه ... والا فقل للنجم كيف سهـــاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونهـا ... كما تتنزى عن حريق جـــراده
الى اين يا أسرى الضلالة بعدهـا ... لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشـــاده
رويدكم لا مانع من مظفـر ... يساند أسباب القضاء عنـــاده
مصيب سهام الرأي لو انّ عزمـه ... رمى سد ذي القرنين أصمى ســداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدهـا ... ممالكها ، انّ البلاد بـــلاده
كذا عن طريق الصبح أيتها الدجـى ... فيا طالما غال الظلام امتـــداده
فلو دون الافلاك عنه تحصنـت ... لأمسته صعادا فوقهن صعـــاده
ومن كان املاك السماوات جنـده ... فأية أرض لم تطأها جيـــاده
ولله عزم ماء سيحـــان ورده ... وروضة قسطنطينية مستـــراده (١)

وقال في جنيسة السيدة ، وهي قبة شاهقة للنصارى بانطاكيـة :

متى عجت يا صاح بالسيـــدة ... فسل عن فؤادي في الافئـــده
وقلبك حذّره عن انـــاد ... فان بها للهوى مصيـــده
وجوّ تباهي قناديلهـــا ... ببهجة نيرانها الموقـــده
ترى كل مستضعف خصـــره ... اذا ما دعا طرفه أنجـــده

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ / ٩٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٣ وانظر عقد الجمـان ج ١٢ ق ١ ورقة ١٥٥

وذات روادف عند القيـــــا   م تحسبها أنها مقعـــــده
وبدر ه من الشعر في غاســـق   يضاحك أبيضُه أسـوده
فيا لي من ذلك الزبرقـــا   ن اذا زرفن الليل او جعـــده
محل خيال اذا ما رأيـــت   أمرده قلت : ما أمــرده
به كل نشوانة لحظهـــا   يطرق بين يدي عربـــده
صوارم قاطعــة في الجفــو   ن فهي مجرّدة منغمـــده
فها أنا ومن في سبيل الغــرا   م أورده الحب مـــا أورده
فهل لدم فات من طالـــب   وهيهات أعجز يوم غـــده
وكيف يجازي بقتل النفـــو   س من لم يمد اليها يـــده (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

لله عزمك أي سيف وغـــى   طبعت مضاربه على القهـــر
ما زفت الحربُ العوان بـــه   الا انجلت عن معقل بكـــر
هل وجه نور الدين غير سنـــى   صدع الدجى عن خجلة البــدر
ملك مهابته طليعتــــه   ابدا أمام جيوشه تســرى
كم فلّ كيدهم بصاعقـــة   شغلت قلوبهم عن الفكــر
تركت حصونهم سجونهـــم   فالقوم قبل الأسر في أســر
عصم النواصم فهي ضاحكـــة   تجلو الظبى ثغرا على ثغـــر
فاذا سرايا خيله قفلـــت   نهضت سرايا الخوف والذعـــر
ورمى القلاع بمثل جند لهـــا   حتى استكان الصخر بالصخـــر
يا سائلي عن نهج سيرتــه   هل غير مفرق هامة الفجـــر
عدل حقيق من تأملـــه   ان يحيي العمرين بالذكــر
وشهامة في اللمخالصـــة   عقدت عليه تمائم الاجـــر
وندى يد ما ضــر واردها   الا يبيت مجاورَ البحـــر
هذا المخيم في ذرا حلـــب   وثناؤه أبدا على ظهـــر (٢)

قال يمدح عماد الدين زنكي سنة ٥٣٤ ه ويذكر هزيمة الفرنج قرب حصن بارين :

حذار منا وأنى ينفع الحـــذر   وهي الصوارم لا تبقي ولا تـــذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملـــك   من خيله النصر لا بل جنده القـــدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بهـــا   صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهـــروا
حتى اذا ما عماد الدين أرهقهـــم   في مازق من سناميرق البصـــر

---

(١) الخريده : قسم الشام ١/١٠٠
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٦ ه وانظر الدر الثمين ورقة ٥١ مخطوط

ولو تضيق لهم ذرعا مسالكهم … والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم … طول وان كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا … ينتاب والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة … فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا قتلوا او حاربوا حربوا … او طاردوا طردوا او حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم … حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف يفترع أبكار أنفسهم … ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيي العدل لامعة … كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته … بحيث كان وان كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة … كأنما حل في اكنافها عمر (١)

وقال في نور الدين عند قدومه الى حمص وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات سنة ٥٤٤ :

هذا الذي ولدت له الافكار … وتمخضت فالا به الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة … وردت وصفو ضميرها المضمار
وأتت به نذر القوافي برهة … إن القوافي وحيها إنذار
حَكَمَتْ سيفك بالممالك عنوة … حُكما لعمري ما عليه غبار
يا أيها الملك المطيل نجاده … بز يدين بهديه الأبرار
يا ابن السيوف وهل فخرت بنسبة … الا سما بك قائم وغرار
فارقت دار الملك غير مفارق … لك من علاك بكل أرض دار
في عسكر يخفي كواكب ليله … نقعا فيطلعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه … وأمامه بل جحفل جرار
تدني لك الغايات أكبرهمة … نورية دون الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة … دانت لنظم نظامها الاقطار
وملكت سنجارا وما من بلدة … الا تمنت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفا طالما … طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها … جري السيول وما سواك قرار
وثنى الفرات الى يديك عنانه … والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت … منها لعينك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها … قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة … وتود لو أن النجوم نثار
فأتمت كالشمس المنيرة إن نأت … عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنه … ليل السرى خفيت به الانوار

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ١١٦

فتجيبك الانجـــاد والاغــــــوار

تدعو البلاد اليك ألسنة الظبـــــــى
حتى عمدت الدين يا أبن عمـــــاده
وتقلت من أسفار جدّك قاد مــــــــا
يغشي البصائر نور وجهك بعد ما أعـــــــــــــ
حتى عمرت بكل قلب صـــــــــدره
ان تمس في حلب رياحك غضـــــة
وغدت جيادك بالشام مقيمـــــــة
هم سبقت بها الى مهج العـــــدى
وأرى صياح القمص كان غديمـــــة
سال الصنيع فغير محقوق بهـــــــا
حتى اذا ما غبت أقدم عاتبـــــــا
أضحى السلاح على عدوك بنيتـــه
فاحسم عناد ذوى العناد بجحفـــل
جند على جرد أمام صدورهـــــا
قد بايع الاخلاص بيعة نصـــــرة
ملك له من عد لو وفائـــــــــه
واذا الملوك تثاقلت من غايـــــة
واذا انتضته الى الثغور عزيمـــة

بقنا أسنتها عليه منـــــــــار
كالصبح ثم بقنوه الاسفــــــار
تركت على قسماته الأبصــــار
حين الصدور من القلوب تفــــار
فلها بأنطاكية اعصـــــــــار
ولها بأطراف الدروب مغـــار
صرف الردى ومسيرة احضـــار
فطغى وجار وليس ثمّ وجـــار
والخير يهدم ما بنى المختــار
أقدامهم لهيد ن منقعـــــرار
بالغدر يطعن في الوغى الغــدار
كالليل فيه من الصفيح نهــار
صدر عليه من اليقين صــــدار
ولكل هادي أمة أنصـــــار
جيش بمستفتح الامصـــار
وأرادها خفت به الاقـــــدار
قامت مقام جنود ها الاخبـــار (١)

وقال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار امرها ، ويذكر قتل البرنس ، وأسر جوسلين ، وأخذ بلاده :

دعا ما ادعى من غره النهي والامـــر ... فما الملك الا ما حباك به القهـــر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانهـــــا ... تصرف فيما شاء عن اذنه الدهـــر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلـى ... فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعـر
اذا الجد أمسى دون غايته المـنى ... فماذا عسى ان يبلغ النظم والنثـر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالــك ... زعيم بجيش من طلائعه النصـــر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكهـــا ... حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وانك نور الدين مذ زرت أرضهـا ... سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليهـا ... وخطب العلا بالسيف ما دونه ستـر
جلاها لك الاقبال حورية السنـا ... عليها من الفرد وس أردية خضـر
خلوب أتتك من هواك محبـــة ... نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهـر
فسقت اليها الامن والعدل نحلـة ... فامست ولا أسر تخاف ولا اصـر
فان صافحت يمناك من بعد هجرهـا ... فاحلى التلاقي ما تقدمه هجـــر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٧٤

وهل هي الا كالحصان تمنـــــت
ولكناذا ما قستها بصداقهـــــا
هي الثغر أمسى بالكراديس عابســـا
على أنها لو لم تجبك إنابـــــة
فاما وقفت الخيل ناقمة الصـــــدى
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغـــى
وجللتها نقعا أضاع شياتهـــــا
فلا النهر لما كاثر القصب القنـــــا
وقد شرقت أجرافه بدم العـــــدى
صدعتهم صدع الزجاجة لا يـــــد
فلا ينتحل من بعدها الفخر واثـــل
ومن بزّ انطاكية من مليكهـــــا
أخو الليث لولا عذره ه نزعت بـــه
أتى راسه ركضا وغود رشلـــوه
وقد كان في استبقائه لك منـــة
كما أهدت الأقدار للقمص أسـره
طغى وبغى عدوا على غلوائـــه
وألقت بأيديها اليك حصونـــه
وأمست عزاز كاسمها بك عـــزة
فسر ه واملأ الدنيا ضياء وبهجـــة
كأني بهذا العزم لافلّ حـــده
وقد أصبح البيت المقدس طاهـــرا
وقد أدت البيض الحداد فروضهـــا
وصلت بمعراج النبي صـــوارم
وإن يتيمم ساحل البحر مالكـــا
سللت سيوفا أثكلت كل بلـــدة
اذا سار نور الدين في عزماتـــه
ولو لم يسر في عسكر من جنـــوده
مليك سمت شم المنابر باسمـــه
فيا كعبة ما زال في عرصاتهـــا
خلعت حلى الايام من حلل العلـــى
وتوجت ثغر الشام منك بجلالـــة
فلا تفتخر مصر علينا بنيلهـــا
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيلـــه
وأطمعت في الافرنج من كان باســـه
واقحمت جرد الخيل أعلى حصونهـــا

دلالا ه وإن عز الحيا وغلا المهـــر
فليس له قدر وليس لها قـــدر
وأصبح عن باب الفراديس يفتـــر
لأرهقها من باسك الخوف والذعـــر
على بردى من فوقها الورق النضـــر
وأصدرتها والبيض منعلق شـــر
فلا شهبها شهب ولا شقرها شقـــر
مكاثرة في كل نحر لها نحـــر
الى أن جرى العاصي وضحضاحه غمـــر
لجابرها ه ما كل كسر له جبـــر
فمن بارز الإبرنز كان له الفخـــر
أطاعته ألحاظ المها للمقالة الشـــزر
الى الذئب ه إن الذئب شيمته الغـــدر
وليس سوى عافي النسور له قبـــر
هي الفتك لو لم تنتضب البيض والسمـــر
وأسعد قرن من حواه لك الأســـر
فأوبقه الكفران : عدواه والكفـــر
ولو لم تجب طوعا لجاء بها القســـر
تشق على النسرين لو أنها الوكـــر
فيا لافق الداجي الى ذا السنا فقـــر
وأقصاه بالاقصى ه وقد قضي الامـــر
وليس سوى جاري الدماء له طهـــر
فلا عهدة في عنق سيف ولا نـــذر
مساجدنا شفع ومساجدنا وتـــر
فلا عجب أن يملك الساحل البحـــر
بصاحبها حتى تخوفك البـــدر
فقولا لليل الإفك قد طلع الفجـــر
لكان له من نفسه عسكر مجـــر
كما زهيت زهوا به الانجم الزهـــر
مواسم حج لا يروعها النفـــر
ملابس من أعلامها الحمد والشكـــر
ترنت لها بغداد لو أنها ثغـــر
فيمناك نيل ه كل قطر بها مصـــر
ويا طالما أمسى ومسلكه وعـــر
تخوف اعتاده منهم نكـــر
ولولاك لم يهجم على كافر كفـــر

ومن يدّعي في تلك الشراك شركـــــــة إذا لم يكن عند القوافي له ذكـــــــر
هي القانتاتُ الحافظاتُ فروجهـــــــا فشاهدها عدل وراثقها سحـــــــر
ولو لم يكن في فضلها وكمالهـــــــا سوى أنها من بعد عمْر الفتى عمـــــر (١)

وقال عند دخوله انطاكية ، ومره بالمواصم يذكر مواضع استحسنها ، وهي الثغريات ، فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتّلـــــــة مثل المهاة يزينُها الخفـــــــر
من كلّ ساجدة لصورتهـــــــا لو أنصفت سجدتْ لها الصـــــــور
تديمةٌ في جهل عاتقهـــــــا طُولٌ وفي زنارها قصـــــــر
غرسَ الحياءُ بصحن وجنتهـــــــا وردًا ، سقى أغصانه النظـــــــر
وتكلمت عنها الجفون فلـــــــو حاورْتَها لاجابك الحَـــــــور
وجلَتْ مدارعُها غدائرهـــــــا فأراك ضفي ليلة قمـــــــر (٢)

وقال يصف أنطاكيـــــــة :

واحربا في الثغور من بلـــــــد يضحك حسنا كأنـــــــه ثغـــــــر
بقصور كأنها بيـــــــع ناطقة في خلالها الصـــــــور
هالاتُ طاقاتهن آهلـــــــة يبسم في كل هالـــــــة قمـــــــر
سوافرٌ كلما شعرن بنـــــــا برقعهن البهـــــــاء والخفـــــــر
من كل وجه كأن صورتـــــــه بدر ولكن ليله شَعَـــــــر
فهو إذا ما السلوّ حاربـــــــه كان لتلك الضفائـــــــر الظفـــــــر
فيا عذولي فيهن ، دع كلفـــــــي وانظر الى الشمس هل لها طُـــــــرر
وكن معيني على ذوي خُـــــــدَع ان سالم القلبُ حاربَ النظـــــــر
سرت وخلفت في ديارهـــــــم قلبا تمنيت أنه بصـــــــر
ولم أزل أغبط المقيم بهـــــــا للقرب حتى غبطت من أســـــــروا (٣)

ومن تثريانه قولــــــه :

. . . .
على أردافها قضبان بـــــــان تميس بفاتنات اللحظ حـــــــور
اذا انتصبت فأقطار الـــــــدراري وإن مالت فأفلاك البـــــــدور

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٥ ــ ١٨٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٧ والكامل ١١ / ١٥٥ ، والباهر ١٠٣
(٢) ديوانه : ورقة ٦٢ مخطوط
(٣) ديوانه : ورقة ٦٣ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٠٠

فلو خلقتها بحلى يديها ... جرت تلك الخصور على الخصور
سنمن من مكن بيوت شعر ... فأبرزن المحاسن في الشعور
وأمرجن النواظر في وجوه ... منزهة الخدود عن الخدور
تريك الحسن غير مرقعات ... ألا ما في البراقع من غرور
فلو خادعت طرفك لم تمن ... به إلا على قمر منير
فدعني من منازلة البوادي ... على شغل بسكان القصور (١)

وله في خمارة بجسر الحديد على باب أنطاكية :

إن كان لا بد من السكر ... فمن يد في خمارة الجسر
خمارة تطلع من نحرها ... جمارة بيضاء من نحر
تمشي فتمشي الراح في راحها ... تهدي سنا الشمس إلى البدر
حتى إذا دارت على شربها ... ألحاظها أغنت عن الخمر
ما زرتها إلا وباتت يدي ... أولى من الزنار بالخصر
وبت أسقى من جنا ريقها ... كأسا من الثغر على الثغر (٢)

وقال وقد اجتاز بمزاز من نواحي حلب وهي من الافرنج :

أين عزي من روحتي بمزاز ... وجوازي على الظباء الجوازي
والهمافير ساحبات المغافر ... علينا كالربرب المجتاز
بعيون كالمرهفات المواضي ... وقدود مثل القنا الهزاز
ونحور تقلدت بثغور ... زانها ذوب سكر الأهواز
ووجوه لها نبوة حسن ... غير أن الإعجاز في الأعجاز
كل خمصانة تشد طرف الزنار ... منسرة على هواز
ذات خصر يكاد يخفى على الفكر ... ومنه مواقف المهماز
لا حظتني فاعتقت منها على قلبي ... طرف له قوادم باز
وسبتني لها ذوائب شعر ... عقدتها تاجا على إبريز
من معيني على بنات بني الاصفر ... غزوا فإنني اليوم غاز (٣)

---

(١) ديوانه : ورقة ٦٦ مخطوط .
(٢) ديوانه : ورقة ٧٧
(٣) ديوانه : ورقة ٧٩ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٦ .

وقال في كنيسة بربارة وهي للافرنج خاصة :

بديعك يا قس بربارة ... وما بت تتلوه في الخندريس
أجزني من الصور الناطقات ... متى قمن حولك في مسدرس
اذا هن أقبلن وقت الصلا ... ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق أوساطها ... وضاقت بها حلل السندس
واجلسها ثقل أردافها ... فيا لي من ذلك المجلس
فلولا التحرج في ملتي ... لطالمت عليهن في برنس
وتمت لحن قد اشتهين (٢) ... غير بليد ولا أخرس
ولم تك فرسانها في الطعان ... باشجع مني ولا أفرس
الا حبذا ما استثار الهوى ... بتلك الكنائس من كنس
ترى كل فاتنة وجهها ... مضيء بشمس الضحى مكتس
تكاد التماثيل من حسنه ... تفور بنا طاقة الأنفس
فرنجية ساكن عقدها ... وزنارها قلق المجلس
إذا قبلت صورة أقبلت ... عليها بناظرها الأشوس
فيا ليتني عندها دمية ... تراني ولا ريب في ملبس
فاقسم لو انني استطيع ... تحولت صورة مرجرجس (١)

وقال في مولد من مولدي الافرنج أبصره بـ "ياعو" من بلاد الشمال :

وشحنة كالهلال في "ياعو" ... عيناه جند له وأشياع
وال وألبابنا ولايته ... ومقطع والقلوب أقطاع
اذا بدا أذعنت له حدق ... وان شدا ملكته أسماع
يحسن أوتار عوده بيد ... إيقاعها بالنفوس ايقاع (٢)

ولغي المكشوف :

كم لي بانطاكية من هوى ... لا انثني عنه بتعنيف
اذ لا أجيل العين إلا على ... جيد من الأقمار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ... ما عندها البدر بموصوف
تجري ثناياها التي ثمـــــا ... تلحظ طرفا غير مطروف
فالعين عن العين مصروفة ... عنها وما القلب بمصروف
هذا وكم وجه كشمس الضحى ... بالهيكل المكشوف مكشوف (٣)

---

(١) ديوانه : ورقة ٧٠ (٢) ديوانه : ورقة ٧٩ (٣) ديوانه ورقة ٦٢

وللشهاب بافرنجية يصفها بزرقة العـــين :

لقد فتنتني فرنجيـــة ... نسيم العبير بها يعبـــق
ففي ثوبها غصن ناعـــم ... وفي تاجها قمـــر مشـــرق
وان تك في عينها زرقـــة ... فانّ سنان القنـــا أزرق (١)

وهنأ عماد الديـــن زنكي بفتح الرهـــا سنة ٥٣٩ هـ :

أما آن أن يزهق الباطـــل ... وأن ينجز العدة الماطـــل
الى م يغيب ملوك الضـــلا ... ل سيف بأعناقها كافـــل
فلا تحفلـــن بصول الذئـــاب ... وقد زار الأسد الباســـل
كذا ما انثنت قطع الرمـــا ... ح او يتثنّى القنا الذابـــل
هو السيف إلا تكن حامـــلا ... لبزته يزك الحامـــل
وهل يمنع الدين الافتـــى ... يصول انتقاما فيستاصـــل
أبا جعفر ، أشرقت دولـــة ... أضاء لها بدرك الكامـــل
فاما نصبت لرفع اسمهـــا ... فانكما الفعل والفاعـــل
بل انقاد جامحها المصعـــبي ... وأخصب جانبها الماحـــل
ليهنك ما أفرج النصر عنـــه ... وما ناله الملك العـــادل
فتوح الفتوحات ، نظم القنـــا ... ة أعلى أنابيبها العامـــل
نقل للحقائق : الطريق الطريـــق ... فقد دلف القرم البـــازل
وجاهد في الله حق الجهـــا ... د محتسب بالعلى قائـــل
بجيش اذا الم ورد الثغـــور ... يروّى بها الأسل الناهـــل
اذا شمر البأس عن ساقـــه ... مضى وهو في نقعه رافـــل
فيا نعمة شمل الشاكـــرين ... فضلك ، وإفضالها الشامـــل
تخفض عزلها منجـــب ... فيا سعد ما وضعت حامـــل
غداة ، ولا ربح دون الطمـــا ... ن الا وعقر به شائـــل
ولا نصل الا لمبـــارق ... دماء الطلى تحتسو ابـــل
وقد قلدوا السيف تحصينهـــم ... ولكنّه الناصر الخـــاذل
وهل يمنع السور من طالـــع ... يشايعه القدر النـــازل
شققتم اليها بحـــار الحديـــد ملتطما موجها الهاطـــل
وخضتم غمار الردى بالـــردى ... وعن نفسه يدفع القاتـــل
فان يك فتح الرها لجـــة ... فساحلها القدس والساحـــل
فهل علمت تلك الديـــا ... ر أن المقيم بهـــا راحـــل
أرى القمص يأمل فوت الرمـــاح ... ولا بد أن يضرب السابـــل

(١) ديوانه : ورقه ٦٦ ، وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ٩٩

يقوي مقاتله جاهدا … وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف يضيع بواقي الجهات … لمن فات حسبته الحاصل
برايك في الحرب أم لفظك اسـ … ـتفاد إصابتها النابل
وعن حد عزمك في المشكلات … قضى فمضى الصارم القاصل
نشرت الفضائل بعد الخمول … ألا ربما نبهها الخامل
وحطت البلاد على نايها … كأنك في كلها نازل
اتحفو الممالك من حافظ … وصدرك من حفظها آهل
ولم لا تحيط بآفاقها … وفي يدك الصامت القائل
اذا ما علا الخمس في حومة … ففارس بهمتها راجل
يغيض على الطرس سحر البيان … كأن بنانك تصبابسل
متى ترك الجميد والمرهفات … فأحدها القاطع الواصل
بسابقة الملوفتا لأنام … وهل يدرك العالم الجاهل
إذا خطب الأكرمون الثناء … فأكرم اصهارك الفاضل
أبز الكفاة وتاج العراق … ومن كفها بالندى حافل
تأمل مطالع هذا الكلام … وإلا فكوكبها آفل
أرى القوم تلفح آمالهم … وحالي من دونها حائل
فهل لي على البعد من قربة … يزيل بها فضلك الدائل
فإن القماء صيد المنال … وفي كل فج له نائل
وأنت الزمان وأنت الأمـا … ن من كل ما يفرق الذاهل
وأنت الحلي على الكرمات … فلا وصفت أنها عاطل (١)

وقال يمدح نور الدين سنة ٥٤٤ هـ بقصيدة مطلعها :

أبدى السلو خديعة للائم … وحنى الضلوع على فؤاد هائم
يا أيها المغرى بأخبار الهوى … لا تخدعن عن الخبير العالم
اسأل هديت بالصبابة لمستقى … واسأل بنور الدين صدر الصارم
ومعطفات ترتمي بأجنة … ومثقفات تهتدي بلهاذم
ومسومات لمت تدري في الوغى … بقوائم يدركن أبعد قوادم
كل ابن سابقة اذا ابتدر المدى … فلغير غرته يمين اللاطم
يرمي بفارسه أمام طريده … حتى يرى المهزوم خلف الهازم
ينمى الى ملك اذا قسم الندى … والبارك ان المكتفى بالقاسم
متسربل بالحزم ساعة تلتقي … حلق البطان على جواد الحازم
ما بين منقطع الرقاب وسيفه … الا اتصال يمينه بالقائم
سام الشآم وما لها من صفقة … لولاه ما أتيت على يد سالم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت … فيها العواصم وهي غير عواصم

(١) الخريدة : قسم الشام ١/١٠٨-١١١ ، وانظر الروضتين ج١ ق١ ص١٢٦

تلك التي جمحت على من رامهـــا ... ودعوت فانقادت بغير شكائـــم

وإذا سادت تلك أحببت في دولـــة ... قام الزمان لها مقام الخـــادم

يا ابن الملوك وعصب أنصار الهـــدى ... ما عند رأيك من ظنون وعزائـــم

تم إذا انتضت السيوف أكفهـــم ... قلت الصواعق في متون غمائـــم

من كل منصور البيان بعجمـــة ... وهل الأسود الغلب غير أعاجـــم

أو مفصح يقرى الصوارم في الوغـــى ... أسخى هناك بنفسه من حاتـــم

حصن بلادك هيبة لا رهبـــة ... فالدرع من عدد الشجاع الحـــازم

وارم الأعادي بالعوادي إنهـــا ... كفلت بفل قديمهم والقـــادم

أهلا بما حملت اليك جيادهـــم ... ما في ظهور الخيل غير غنائـــم

واسأل فوارس حاكموك الى القنـــا ... في الحرب كيف رأوا لسان الحاكـــم

تلك الموامل أى أفسال المـــدى ... ما سكنت حركاتها بجـــوازم

هيهات يطمع في مآلك طامـــع ... طال البناء على يمين الهـــادم

كلفت همتك العلو فحلقـــت ... فكأنما هي دعوة في ظالـــم

قطنت بأوطان النجوم فكم لهـــا ... من مارد قذفت اليه براجـــم

أنشأت في حلب غمامة رأفـــة ... أمددت ديمتها بنشوء دائـــم

ألحقت أهل الفقر فيها بالغـــنى ... أمن المؤمل ثروة للمعـــادم

وأظن أن الناس لما لم يـــروا ... عدلا كعدلك أرجفوا بالقائـــم

فتهن أوصاف العلى منظومـــة ... فالدر أنفسه بكف الناظـــم

جاءتك في حلل النباهة حاســـرا ... تختال بين فضائل ومكـــارم

عربية أنسابها لو أنهـــا ... لحقت أمية لانتمت فـــي دارم

وتمل غرة كل فطر بعـــده ... متسربلا أسنى ثواب الصائـــم

لا زال وجهك في عقود شـــوره ... بدر التمام مقلدا بتمـــائم (١)

وله في مدح تاج الدين بوري سنة ٥١٣ :

الحق متبهج والسيف مبتســـم ... وبال أعداء مجير الدين مقتســـم

قدت الجياد وحصنت البلاد وأمـــ ... ـنت العباد فأنت الحل والحـــرم

وجئت بالخيل من أقصى مرابطهـــا ... معاقد الحزم في أوساطها الحـــزم

حتى إذا ما أحاط المشركون بنـــا ... كالليل ، يلتهم الدنيا له ظُلَـــم

وأقبلوا ، لا من الإقبال ، في عـــدد ... يؤود حاسبه الاعياء والســـأم

أجريت بحرا من الماذي معتكـــرا ... أمواجه بأواسي البأس تلتطـــم

وسست جندك ، والرحمن يكلـــؤه ... سياسة ما يسفي أثرها نـــدم

وتقتفي الجيش والأعلام خافقـــة ... بالنصر ، كل قناة فوقها علـــم

يحوطك الله هونا عن عيونهـــم ... والله يعصم من بالله يعتصـــم

حتى إذا بدت الآراء ضاحكـــة ... وأقبلت أوجه الإقبال تبتســـم

---

(١) الخريدة ، قسم الشام : جـ ١ / ١١٢ ـ ١١٤ وانظر الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٤٩

أتيست جنّ سراياهم مضمّرة   فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجموا
والنصر دان وخيل الله مقبلة   ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم
صابَ الحمام عليهم والسهام معا   فما دروا أيّما الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الأعمار فانتُهبوا   قتلاً ، ويغتنموا الاموال فاغتُنموا
وأقبلت خيلنا تردي بخيلهم   مجنوبة ، على آرماحنا القمم
وأدبرَ الملكُ الطاغي يزعزعه   حرّ الأسنة ، وهو البارد الشبم
وافوا دمشق فظنّوا أنها جددة   ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا من ضياء الصبح أنهم   إن لم يزولوا سراعا زالت الشيم
فغادروا اكثر القربان وانجلفوا   وخلفوا اكبرَ الصلبان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد   أغرى القنا بتمادي قطفهم نهم
لا يملك الجسم دفعا عن مقاتله   كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت   عن مسجد القدمِ الأقصى لهم قدم (١)

وله في كنيسة القيسان :

يا غزال الثغور بالقيسان   أنت من غال ذكره نسياني
أسأل السانحات عنك نهارا   فاذا الليلُ جنّ جنّ جناني
كيف يصغي الى السلوّ جماحي   بعد ما أطلق الغرام عناني
حبذا يوم باكرتنا الزنانيـ   ـرُ ترينا القضبان في الكثبان
وعلى موقف الأساقف ظبيٌ   يفرس الأسدَ من بني الفرسان
غصن كابت من المرمر المنضو   د في غير منبت الأغصان
....
فارى من أرانيَ الشمس شمسـ   ـسًا على الارض تاني الألحان (٢)

ولفي دير سمعان وهو على فرسخين من أنطاكية :

يا هل سمعتم بدير سمعان   وما به للعيون من عان
أموقفٌ للصلاة هيكله   أم منبتٌ من منابت البستان
في كل غصن تفاحتا خجل   تلقاك من مثلها ببستان
من ذات بشر يلوح في بشر   وذات جان يبدو على جان
يرمي فيصمي عن غير ناطقة   ما كل قوس ترمي بمرنان
....
تسجد للشمس وهي مرضعة   في الافق عن موج نيران
وانصرفوا والفؤاد أفئدة   من كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو أن كا   ن الدهر فيهم أعيادَ صلبان (٣)

(١) الروضتين : ج ١ ق ١ / ١٤١ (٢) ديوانه : ورقة ٦٧ (٣) ديوانه : ورقة ٧٢

وقال في ثغرياتــــــه :

اذا ما زرت ماريــــــا   فما سعــدى وماريّــــــا ؟
غتاة كقضيب البــــــا   زينيها الصّبا طيــــــا
تلوىّ كالمواعيـــــد   أطالت عمرها ليـــّـــا
لها وجه مسيحـــــيّ   ترى الدّنيه حيـــــا
اذا ما قابلت الشمـــس لم تبصر له فيـــــا
فيا أحسن مــا أعـــر   ض دلالا ومـــن حيّــــا
.... (١)

---

(١) ديوانه : ورقة ٧٦

قال يمدح نور الدين :

ويا يوم الفرنجة منك فذ ... فتحصر عدّه خطط الحساب
أجاش الاربعاء لهم خميسا ... بعيد النور ملتطم العباب
واحكم بالحطيم لهم حطاما ... أمرّ بريمه مرّ الضراب
مشوا متساندين الى صليب ... يرق هبوة الصم الصلاب
تلقتهم المنايا في الثنايا ... وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاعتهم كبشهم هناة ... فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا ... فكان المقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى ... وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف مسوق ... وأصعد وهو غاية الانتصاب
تكاهرما لقوامت وهو نضو ... ثناه مناه عن رجع الجواب
بعيدا من قراح واقتراح ... يؤوب له الى يوم المآب
وكم سوط بخيلك أقبلوه الصدور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بأرض الشام شاما ... لنافر تتقيه أو لناب
هتكت حجابه والشمس وسنى ... بشمس لا توارى بالحجاب
بأبيض من حبيك الهند صاف ... مصون المتن مبتذل الذباب
له سنة الشيوخ صفاء شيب ... وفي شطواته نزق الشباب
الا يا ناظر الدنيا بعين ... أرته علا بها خدع السراب
تبطنها فطلقها ثلاثا ... على عز التعلق والخضاب
فلا يأوي الى رأي شعاع ... ولا يثني الى أمل خراب
ترقى عن مجاوزة الاماني ... وحلق عن مخاطرة التصابي
صلاة الله كل ذرور شمس ... على مثوى أبيك من التراب
لقد ألقى الى الاسلام عضبا ... يطبق في النوائب غير نابي
تجيش له رواس كالرواسي ... تمد لها جفان كالجوابي (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح عزاز وغيرهما سنة ٥٤٥ :

ندى القلوب بألبابها ... وساق الملوك بأربابها
كتائب ترمي جنود الصليب منها بتقليع أصلابها
اذا ما أنشت من قراع الكماة ... كست وقدها ... أسلابها
تبرنس منها البرنس الشهاب ... وحلته وقع أسلابها
عشيتفنت على إنساب ... نفوس النصارى بمصابها
وقام لاحمد محمودها ... يجدع مسوارن أحزابها

(١) الروضتين ج ١ ق ١ / ٢٢٩

تجلى لهـا حيدري الصـــا　　ع أغلب مود بغلابهـــا
مورّث أركاسها ـــــن أب　　أكول الفوارس شرّابهـــا
همام اذا اصوصبتئبـــــوة　　دهاها بهاشم أعصابهـــا
مضى وجنى لك حلو الشهـــا　　د ما تمطّى من صابهـــا
واوصى بها لك من بعد مـــا　　تجرّع مقر أوصابهـــا
واقسم جدك الا يليـــــق　　بغيرك ملبس أثوابهـــا
صبحت دمشق بمشق الجيـــاد　　زبور الوغى بين أحدابهـــا
واطلعت رايك قبل الحســـام　　فغمد جمرة أجلابهـــا
فاعدلك ما لم تنلـــه يـــد　　وفازت رقاد بأصحابهـــا
وانتصرت فضل الزمـــا　　م من حمص تأخير ركابهـــا
تخوّنها الجور فاستدركـــت　　بحرك أغبار غيظابهـــا
وفاجات قورس بالشائـــــلات　　تمج القنا سم أذنابهـــا
فما رمت حتى رمستبيضهـــا　　اليك أزمة صرابهـــا
وعزت عزاز فاذ للتهــــا　　بمجر مضيق لأسهابهـــا
بأشمخ من انفها منكبـــا　　وأكثر من عد تورابهـــا
دلفت لميطاء أم النجـــو　　م في الامر ايطاء أترابهـــا
وعذراء مذ عمرت ما اهتـــدت　　قانون الليالي لإغرابهـــا
تفرعتها بفروع الوشيـــــسن　　مثمرة هام أوشابهـــا
وعوّ اذا انبعثت أغضـــت　　فكأن لارسال نشابهـــا
ومحدودبات تطير الخطـــوب　　مالفظ ألسن خطابهـــا
تصوّب عقبان ريب المنـــون　　متى زنّقتها بأعقابهـــا
وما ركعت حول شم الهضـــا　　ب الاسجد ن لأنصابهـــا
فاذنت بمعتصم بالكتـــاب　　وهوب الممالك أسلابهـــا
بمعتصم النصر والهــــدى　　هموس السرى غير هيابهـــا
محلى المحل بوصف الفتـــوة　　ووصف التهاني وأربابهـــا
وتعجز مداحه أن تحيـــط　　بآدابه ثلث آدابهـــا
بدائع لو رد دهر رمـــين　　بنات حبيب بأحبابهـــا
واين ابن أوس وآياتـــه　　من الله أودت بحسّابهـــا
من الله عاد عتيق لهـــا　　ورق عليها ابن خطابهـــا
فايامه منحبور تكـــاد　　يطير بها فرط أعجابهـــا
لك الفضل ان راسلتك الجيـــاد　　وتامت ادلة إنجابهـــا
اذا اعتسفت همم الجائريـــن　　أتيت السيادة من بابهـــا
أبوك أبوها وانت ابنهـــا الـ　　عريق ودمية محرابهـــا
أتول لموءجرة بالغـــرور　　تمطت هواها فا هوى بهـــا
حذار فمنه ابتسام النيـــو　　ث تخشى صواعق ألهابهـــا
ولا تخدعوا بافترار الليـــو　　ث فالنار في برد أنيابهـــا (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ٢٠٦

وانشده بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة أولهـــا :

المجد ما ادرعت ثراك هضابه   وتفقئت شمؤبموشما به
ملكٌ تكنّف دين أحمد كنّه   فأضاء نيّر موصاب شهابه
فالعدل حيث تصرفت أحكامه   والأمن حيث تصرمت أسرابه
متهللٌ والموت في نيرانه   يُرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه ه ومــا   حلت عقود تميمها أترابه
أسد فرائسها الفوارس والظبى   أظفارها والسمهرية غابه
طبع الحديدَ فكان منه جنانه   وسنا نهارها بموثيابه
وتهش إن كلب الوجوه كأنما   أعداؤه تحت الوغى أحبابه
نصرت بمحمود شريعة أحمد   وأرى الصحابة ما احتذاه صحابه
ما غاب أصلع هاشم فيهم ولا الـ   فاروق إذ بخطابه خطابه
ابناء قيلة قائمون بنصره   ان اجلبت من قاسط أحزابه
صبحوا محلقة البرنس بحالق   حرش الضباب من القلوب ضبابه
ما زال يغلب من يغالب ضلاله   حتى أتيح من الهدى غلابه
ملقى بوجه الاصفرين تزيلت   آراؤه وتزايلت آلابه
دون الارتد سخت به نجداته   ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درة تاجه يد ضيغم   لم تنجه من بأسه أسلابه
وأتته تحلب جوسلين جنائب   هبت فقل الى القتال ضبابه
أسرته لا منعت سراه وعزه   بالقاع إن رام الورود سرابه
يمشي فيسمحه وقائع قيده   هزجا تقيّده ما له أندابه
لا تل باشره ولا كيسونه   صدّت منى عنه ولا عنتابه
فمتى شقاوته سعادة صافح   غطى على إعناته إعتابه
ما زال يغدر ثم يغدر قادرا   حتى أتاه بحاسم أصحابه
تصر الاماني أن يملأ عصرك الأ   سلام مضروبا عليه حجابه
مجر يجرّ الى الغنائم قبه   وعلى يزار على الفتوح قبابه (١)

وقال يمدحه ويذكر ظفره بصاحب انطاكية وأصحابه :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته   وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده   من بعد ما علت دما عبراته
ردت على الاسلام عصر شبابه   وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده وقد عماده   سندا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا   إصلاته وصلاته وصلاته

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٨

رغبت لنور الدين نار عزيمة
ملك مجالس لهوه شداته
يغرى بحثحثة اليراع بنانه
ويروقه ثغر المدى قان دما
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه
فتح تحمت السماء بفخره
صبغت على الاسلام بيض حجوله
وانهل فوق الابطحين غمامه
لله يلجة ليله محجت به
حط التوامس فيه بعد قماصها
نبذوا السلاح لضيغم عاداته
لجرب عمرية غضباته
تحيا لنيق صفا ماء أسراوه
بين الجبال خواضعا أعناقها
نشرت على حلب عقود بنوده
روض جناه لها مكر جياده
متساندين على الرحال كما انتشى
لم تنبت الاجام قبل رماحه
فليحمد الاسلام ماجد حت له
وسقى صدى ذاك الحيا صوب الحيا
نصب السرير وطال عنه ومهدت
ما ضر هذا البدر وهو محلق
في كل يوم تستطيل قناته
وتظل ترتم في الضحى آساره
أين الألى ملأوا الطروس زخارفا
غدتوا بأعناق السواطل ما له
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه
يمسي تنانيه بناستقيونه
يلتان من دون الملوك تترها
تحدث بهم عن خطوه هماتهم
سكنوا مجففة الحصان واسكنت
لولا للطائي غرة فتحه
أوهنت المطهري طيب نسيمه
صدم الصليب على صلابة عوده
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
فانقاد في خطم المنية أنفه

رجعت لها عن طرفها ظلماته
ومشوقة بين الصفوف شذاته
ان لذ حثحثة الكؤوس لذاته
لا الثغر يعبق في لماه لثاته
نلف النفوس تديرها نشواته
وهفت على أغصانها عذباته
واختال في أوضاحها جبهاته
وسرت الى سكينها نفحاته
واليوم ذبح وشيه ساعاته
ضرب يصلصل في الطلى صفقاته
غرس الفوارس والقنا غاباته
لله معتصمية غزواته
وتغيض ماء شؤونها نقماته
كالذود نابت عن براعد اته
حلل الربيع تناسقت زهراته
واستوأرت حماله حمداته
ضرب أمالت هامه قهواته
شجرا أصول فروعه ثمراته
شربات غرس هذه مجناته
خير الثرى ما كنت أنت نباته
لمقر منصبك السرى سراته
ان الكواكب في الذرى ضراته
فوق السماء وتعتلي درجاته
مجدا والسنة الزمان رواته
عن نزف بحر هذه قطراته
من جوهر فاتتهم فذاته
سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
فوق القوانس والقنا قيناته
حركاته وتنيمها يقظاته
وسمت به عن قناوهم ثماته
زحل الرحال من السنها عزماته
باءت بحمل تاومباءاته
لاحتش من تاريخه حشواته
فتفرقت أيدي سبا شعباته
بالروم مقر ما جنتعد راته
يوم الخطيم وأقصرت سرواته

وضى يوثب تحت أنب همة
أسد تبوأ كالعرنف فجاته
دون النجوم ممنعا ولطالما
غبلوته تبكي الأصادق تحته
تمشي القناة برأسه وهو الذى
لو ذاق الميوق يوم رفعته
ما انقاد قبلك انفبخزامه
طيان خلف السرج طال زئيره
لما بدا مسود رايك فوقه
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت
ولى وقد شربت ظباك كماته
ترك الكنائس والكناس لنا هب
غلاب أروع لا يحيت عداته
للوحش ملتق بالسرا يقتاته
اليوم ملكك الفراغ فلاعه
وغدا تحل لك الحلائل أسهم
أوطأت أطراف السنابك هامه
لا زال هذا الملك يشمخ شانه
ما أخطأتك يد الزمان فدونه
أنت الذى يحلي الحياة حياته

أمست زوائر فيهما زفراته
فتبوأت طرف السنان شواته
أغضت وقد كسرت لها لحظاته
بدم إذا ضحكت لهشماته
نظمت مدار النيرين قناته
لأراك شامد خفضه إخباته
كلا ، ولا همت لها هدراته
نعلقت سطاك له غطال صماته
ميمن نصرك نكست راياته
مثل الكرين تقلصت كراته
تحت العجاج وأسلمته حماته
بالبيض ينهب ما حواه عفاته
داء المطال ولا تميش عداته
ما كان قبل بصيدة يقتاته
متسنما ما استشرفت شرفاته
متوزعات بينهن بناته
فتقاذفت بسيقها قذفاته
أبدا ويكفت في الحضيض شناته
من شاء فلتسرع اليه هناته
وتهب أرواح القصيد هباته (١)

وقال يمدح نور الدين :

أيا نور دين خبا نوره
رآك الصليب صليب القنا
تهم فتسلبه ما اتتنى
زنتهم أمس عن صرخد
يوم الفريقة أتبلتهم
حبيت مليكهم في الصفاد
وقبل أزرتهم في الرها
بقيت ترقع خرق الزمان
تثقف من زيغها التوى

ومن شاع عدلك فيه اتقد
ة أمين العثار متين المسد
وتدأت تشكلمه ما اتشد
فغضوا كأن نماما شرد
عراما تتغلب منها الأسد
وعفوك عنهم الصفد
موازن مزقن جرد الجرد
قياما لابنائه ان قعد
وتصلح من طبعه ما فسد (٢)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٦

(٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥

ولــه فيـــه :

أيا ملك الدنيا الحلاحل والــــذى ... له الارض دارٌ والبرية أعبـــد
وليست بدعوى لا يقوم دليلهـــا ... ولكنه الحق الذى ليس يجحـــد
أخو الفزوات كالعقود تناسقــت ... تحل بأجياد الجياد وتعقــد
لسان يذكر الله يكسو نهـــاره ... بهاء وحتى في الدجى ليس يرقـــد
وبذل وعدل أعرقا وتالقـــا ... فلا الورد مثمود ولا الباب موصـــد
مرام سمائي ، وحزم مســـدد ... ورأى شهابي وعزم مؤيـــد (١)

وله فيـــه :

أبدا تنكب عن ضلال ســــادرا ... بنقوب زندك او تدل على هـــدى
سدت الكهول من الملوك مراهقـــا ... وشاوت شيبهم البوازل أمـــردا
ان نشدوا صرحا أناف منــــاره ... او أسجدوا للكأس جُدد مسجـــدا
واذا استهزتهم قلائد معبـــد ... هزته موعظة تشرف معبـــدا
قسما لشام الشام منك مهنــــد ... أرضا مشهورا وراع عقولـــدا
وتمسك الاسلام منك بعـــروة ... اللابرم حبلها فاستحصــدا
اشفى فكنت شفاءه من حـــادث ... غاد اما رضمرد ى بالمـــردى
كنت الصباح لليله لما جـــن ... والغوث كنت لظاه حين توقـــدا
لله يوم أطلعتك به النـــوى ... يجتاب من مهج الاعادى مجســـدا
نشوان غنتك الظبى مفلولـــة ... وأمال عطفيك الوشيج مقصـــدا
في معرك ما قام باسك دونـــه ... الا أقام المشركين وأقعـــدا
ولكم مكر قمت فيه معلمـــا ... أرضى إلهك والمسيح وأحمـــدا
يوم العريمة والحطيم وحـــارم ... وشاب باسوطا وشاب وصرخـــدا
لا يعدم الاشراك جدك انـــه ... ماسل فيهم حاكما الا اعتـــدى
امددتهم من بعد ما مادوا المـــلا ... رجالا فهل كانت سيوفك مرقـــدا
طلعت نجوم الحق من آفاقهـــا ... وأعادها كسر النصور كما بـــدا
وهوى الصليب وحزبه وتبختر الا ... سلام من بعد التقاصف أيـــدا (٢)
مهق المجلي للخطي فرفـــه ... نسق بثم ، وقد رفعت بالابتمدا (٢)

وكتب الى نور الدين من حماةوهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول :

ابوك اب لو كان للناس كلهـــم ... أبا ورضوا وطء النجوم لقتـــدوا
وما مات حتى سد ثلمة ملكــــه ... بك الله ترمى ما رماه فتصـــرد
عدمت ابن ذى اللقدين فانحل عقـده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقـــد
يقلب خلف السجف عينا سخينـــة ... ويبكى باخرى ذات شتر ويـــسهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجــــده ... لكل يوم ثوب عجز يجـــدد
فيا راكبا إما عرضت فبلغـــن ... بيوتا على جيرون بالذل تعمـــد

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢ ٥

(٢) [illegible]

وقل لمير الدين وهو مجـــــيره ... بزعم لموجه الحقيقة أزيـــــد
حملت الصليب باغيا ، ونبذتـــــه ... وتفرى مطووس النبــــات وأدرد
وحاربت حزب الله والله ناصـــــر ... لناصر دين أحمد أحمـــــد
تنصرتحينا والبلاء موكـــــل ... ولا بد من يوم به تتهـــــود
وأتصرما ذاق اليهود بإيليـــــا ... وموضعها من بختنصر أسـ ـــود
كبعض الذى جرعتهفسر طتـــــه ... وأيد فيه من عماء المؤيـــــد
ولايته عزل اليك موجـــــه ... وتصحيفه تتل عليك مؤبـــــد
رماه بباقلا دمشق فلم تكـــــن ... سوى بقلة حمقاء بالحق تحصـــــد
وجالدت جلادا وأنت مؤنـــــث ... تذكرت والجلاد أدهى وأجلـــــد
تطاولت لانفس تسمـــــى ولا أب ... وراء زحفا أنما أنت مقعـــــد
أصماة نور الدين تبغي ودونهـــــا الأ ... سنة بتر والعوامل تعصـــــد
بمحمود المحمود سيفا وساعـــــدا ... حملت لقد ناجتك صما مؤيـــــد
وهل يستوى سار تأسد طاويـــــا ... ونشوان يحلى مصمما ويؤبـــــد
تنصرت أما بل تمجست والـــــدا ... وعقا ، فمرتك الكفر فيك مـــــرد
تخذت بني الصوفي أسراوأسـ ـــرة ... لكي يصلحوا ما في يديك تأفســـــدوا
لعمري لنعم العبد أنت تجهمه الـــــموالي وتواليه حوانا فيحمـــــد
اليكهني الضالات عن مقشـــــاوس ... له الشام مرفا والعراق مرفـــــد
وما مصر إلا بعض أمصاره الـــــتي ... الى أمرمتمص قباء وتحفـــــد
أنيبوا اليفهو أرحم قـــــادر ... لها لصفح دين ، واقبلوا النصح ترشـــــدوا
ولا ترشفوا نفث المؤيد إنـــــه ... عن الخير يزوى أو الى المين يسنـــــد
وفروا الى مولاكم والذى لـــــه ... عليكم أياد وشيها ليس يجحـــــد
ولا تكفروا انما أنتم لـــــه ... ومنهوم عند حوران يشهـــــد
غداة على الجولان جول وللظبـــــى ... رعود ، فريق الموت منهن يرعـــــد
ولما اكفهر اليوم وارتد وجهـــــه ... وعوف مرهون وفر مزيـــــد
وأيقن من بين السدير وجاســـــم ... بأن الجرار السود بالجرد تجـــــرد
ردتهم على بصرى وصرخد خيلـــــه ... وقد أبصرت بصرى رداها وصرخـــــد
وطاروا تهز المرهفات طلابهـــــم ... كما انصاع من أسد نعام مشـــــرد
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركـــــه ... ومارح نيران الوغى تتوقـــــد
رمى وأخو مغرب الشمس دونكـــــم ... بمشرقها غضبان يحدو ويسئـــــد
فقد ورد تماء الأرنط مفـــــذة ... أثار تبثورا فلة ليس تبـــــرد
أيا سيف شانئه يد الملك صارمـــــا ... فيمهد اذ يسري ، ويسري فيمهـــــد
دمشق ، دمشق : انما القدس سرحـــــة ... ومركزها سري عليها مـــــرد
حموها لكي يحموا وقد بلغ المـــــدى ... بهم أجل حتى هم متـــــد
متى أنا راء طائر الفتح صادحـــــا ... يرفرف في أرجائها ويغـــــرد ؟ (١)

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ١٩٧

وأنشده بحمص سنة ٥٤٦ قصيدة منها :

الدهر أنت وداك الدنيا ومـــن
وازمّا لاقدار طوع يديـــدك والا
نت الورى وعقدت ناصية المـــدى
تال أبانك فهل سليمان يـــرى
جلى وسدت مصليا لا يرفـــع الـــ
لم يختر جد نمـــاك ولا أب
شمخت منارك في اليفاع وأمّهـــا
وهبيت للاسلام وهو مـــوع
ونشأت بمرة صالبيمنيـــلم
خطمتهم فوق الخطيم لوافـــع
وردوا على الجولان منك بجولـــة
ولحا عظامهم بحرتقـــارق
وشللت بالروح السروح وفوقهـــا
وعلى عزاز عثوا وثل عروشهـــم
وبتل باشر باشروك فما فســوا
أودوا كما أودى بعاد غيهـــا
ان آلموا عقرا فانك صالـــح
وزعتهم فبكل مهبط تلعـــة
وصبحتهم بمصائب مل‌ء المـــلا
آثارها محمودة وأثارهـــا
لبست من أسطك في الكريهة ملبســا
وقصيرة الآجال طول باعهـــا
مطرورة الاصلاب مذ هززتهـــا
أشرعتها فعلى شريعة أحمـــد
ولكم نشرت ذوائبها في موقـــف
يجلو سناك ظلامه ويحل مـــا
في صبوة زحم السماء رواقهـــا
ضربت مخيمها فكان كماتهـــا
في كل يوم من فتوحاتمـــاديح
تهدى لمانقر كأسه فرغانـــة
فتراز سيفك للاحابش مجيـــب
لا تخل من هذا المقلد أمـــة
الورد ترّ والمسارح رحبـــة
والعيش أبلج مشرق القسمـات والاشـــ
والملك ممدود الرواق منـــور الا

في المد يمد مؤمل محمـــود
يام جندك والأنام عبيـــد
بمذمر الشعرى فأين تريـــد
في الدست مهد ملكـــه داود
معدوم ما لم يشفع الموجـــود
إن النباهة في الخليف خلـــود
من لم يسد فارته كيف يســـود
فاهتز أعضاب ورق نجـــود
نصب الأجنة يومها المشهـــود
نفس الارين لو أزهن بـــرود
توئيد ها نسر الضلال وثيـــد
ما زلت تمخض جوه فيبيـــود
زرع تحصّده الرماح حصيـــد
ملك مقيد من عداه مقيـــد
اشب الاساود حشوهن أســـود
وعقوا كما استغوى الفصيل ثمـــود
أو آلموا غدرا فانك هـــود
خد به من وازع أخـــدود
شتى وان خل البسالة عـــود
مشهودة وشعارها محمـــود
يبلى جديد الدهر وهو جديـــد
بوهساس هامها وقـــدود
تاه الهدى وتبختر التوحيـــد
مما جنته بوارق وعقـــود
تغريد صالي حره التغريـــد
عقدت قناه لواءك المعقـــود
والارض ترجف تحته وتميـــد
أوتاد ما القصوى وأنت عمـــود
مرج الغناء وطائر غريـــد
وتسيغ زبدة ما شد امزيـــد
ومثار نقعك للصعيد صعيـــد
ملقى اليه لرعيها الاقليـــد
والرفد مد والظلال مديـــد
جار غزو الأصائل فيـــد
فاق وشاء المنى محمـــود

في دولة مذهب نشر ربيعها … نشر الرفات وأشر البلمود
محمودة الاثار محمودية … كل المواسم عندها تبيد (١)

وله في مدح نور الدين وتهنئته في غزاة حارم :

ما فوق شأوك في العلى مزداد … فعلام يقلق عزمك الاجهاد
شم تضرين على السماء مرادنا … فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده … والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم الألد … وانجلى للأنفس الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها … أرج المهب ودوحها مياد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعها … فالبرق نجم والهشيم مراد
فالعيش الا في جنابك ميتة … والنوم الا في حماك سهاد
واذا العدى زرعوا النفاق وأحصدوا … كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالقربات كأن فوق متونها … جن الملا وكأنها أطواد
تدنى ومن وحي الكماة صفورها … فالزجر قيد والندى قياد
سحب اذا سحبت بأرض يلمها … فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها … بدر بسرجك نير وقاد
البستدين محمد يا نوره … عزاً له فوق السهاء إسناد
ما زلت تمسكه بعماد القنا … حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه … عدو يراعيه ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما … حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة … فلهم الى المرعى الوبي معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد … قامت به لظباكم الاشهاد
ملئ بأطراف الفرنجة كلك … دارفامضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا حوض الردى … حاموا براءة كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة … حرما بحارم والمصاد مصاد
ضجت ثما لهفا غرس جرسها … بيض تناسب في الحديد حداد
ومواعد ضربت بهن وبالقنا … من دون ملة أحمد الأحداد
يركزن في حلب ومن أفنانها … تجني فواكها ضمها بنداد
يا من اذا عصفت زعازع باسه … خمدت جحيم الشرك فهي رماد
عجباً لقوم حاولوك وحاولوا … عوداً غواتاهم اليه مراد
وراوا لواء النصر فوقك خافقا … فأقام منهم في السلوف سواد
تستنكر ان ينسف السيل الربا … وأبوه ذاك العارض المنقاد
او ان يبيد الشمس كاسفة السنا … نار لها ذاك الشهاب زناد

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢١٢ – ٢١٥

لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ ــعلياء حتى ترفع الأولاد
ملك يقيد خوفه ورجاؤه ولقلما تتظافر الأضداد (١)

وقال يمدح نور الدين حين أسر جوسلين :

شمس إذا ما الحرب زرّ جيوبها حلّ المعاقد كرّه وطراده
ألوى ألدّ حمى الشريعة جهده وأذلّ ناصية الضلال جهاده
صعق البرنس وقد تلألأ برقه وأطار ساكن جأشه إرعاده
ولى وقد سلت فسلت نفسه زبر تلقى فوق هن فؤاده
متلثما متصلبا لا عدة رد المنى عنه ولا استعداده
ولجوسلين احتثهن فأصبحت نهبى لهن بلاده وتلاده
جاءت به بعد الشماس عوابس تود يلين لمنتهن قياده
وتصيدته له السعود وقلما ينجو بخير من أردت صياده
دانى لقيناه أدهم كلما غناه طار شماته سواده
سلبت عزاز عزاء موقورة محجوبة فرشت له أقتاده
وبقل خالد يوم تل جبينها قلد الثرى بجبينه إخلاده
وغدا يباشر تل باشر قلبه باشر ما حمل القلوب سداده
منت أمانيه بشائرك التي عادت لهن مآتما أعياده
وحبوت ملكه من نظيم ثغوره حليا تتايه تحتها أجياده
لا يخدعنك فانما إصلاح من ينقض انتشاط خناقه إفساده
أنزلمحيث تضيق له غدراته واحله طغيانه وعناده
في حيث لا يأوى لمسجانه حنقا ويكشط جلده جلاده
وش فقدمت بني الضلال بهدمه وعدت تباداك عنوة عبّاده
فتكت به آيات من لمحمد ولدينه أبدا أو موقف سواده
أو أنشط البلد الحرام تسوءمت تثني عليك تلاعه ووشاده
ولو أن منبره أطاق تكلما نطقت بباهر فضله أعواده
نام الخليفة واستطال لذبه عن سدته واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه ما زان رونق بأسها أغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه ورأيت زرع الملك حان حصاده
أنى تميل الحادثات رواقه بهبوبها وابن العماد عماده (٢)

---

(١) الروضتين ١/١/٢٥٥ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقه ٢٦٧
(٢) الروضتين ١/٧٥ ج ١ ق ١ ص ١٩١

وقال يمدح نور الديـــن سنة ٥٤٣

غداك من صام ومن أفطـــرا   ومن سعى سعيك أو قصـــرا

وما الورى أهلا فتفدى بهـــم   وهل يوازى عرض جوهـــرا

عدل تساوى تحت أكنافـــه   مطافل العين وأسد الشـــرى

يا نور دين الله كم حـــادث   دجى وأسفرت له فانشـــرى

وكم حمى للشرك لا يهتـــدى الـــوهم له غادرته مجـــزرا

يا ملك العصر الذى صـــدره   أفسح من أقطارهـــا مصـــدرا

وابن الذى طاول أفلاكهـــا   فلم يجد من فوقـــه مظهـــرا

مناقب تكسر كسرى كمـــا   تقصر عن ادراكها قيصـــرا

ما عاقني أوصافها شاعـــر   الا رأى أوصافها أشعـــرا

لله أصل أنت فرع لـــه   ما أطيب المجنى وما أطهـــرا

ما حلب البيضاء مذ صنتهـــا   الا حرام مثل أم القـــرى

شيدت في معمور أرجائهـــا   لكل باغي عمرة مشعـــرا

فاصبح الشادي اذا ثـــوب الـــد   اعي له هلل أو كبـــرا

لا عدم الاسلام من كفـــه   كهفا لمن أرهق أو أحصـــرا

كانما ماحتـــه جنـــة   أجرت بها راحتـــه كوثـــرا

تصرم الشهر الذى كنت فيـــه   أوقاته من قدره أشهـــرا

جهاد ليل في نهـــار فقـــد   ان كنت فيه الاصبر الاشكـــرا

أصدق ما يرشفه سامـــع   ما حز من أوصافك المنبـــرا

أبقاك للدنيا وللدين مـــن   خولك في ليلها نيـــرا

حتى نرى عيسى من القدس قـــد   لبا الى سيفك مستنصـــرا (١)

وقال فيه من قصيـــدة :

خضر الثعالب حين زمجر مصحـــر   مذ ء البلاد مهامها وزئـــيرا

تركو مشاجرة الرماح لحـــاذق   جعلت مخافته القصـــور قبـــورا

لربيب حرب لم تزل فعلاتـــه   بالراء يلزم لفظها التكريـــرا

أسد اذا ما عاد من ظافـــر بمفـــتر، أحد لمثلها ظافـــورا

يتناذر الاعداء منه سطـــوة   ملء الزمان تغيظا وزفـــيرا

عرفوا بنور الدين وقع وقائـــع   ولى بها الاسلام أمس نـــذورا

أبدا يظافرك القضاء على الـــذى   تبني فترجع ظافرا منصـــورا

توضت فانتقع الظهائر ظلمـــة   وتغلت فاشتعل الدياجـــر نـــورا

وعلى العواصم من دفاعك عاصـــم   ينشي الرشيد وينشر المنصـــورا (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٧   (٢) الروضتين ١/١/١٦٣

وقال يمدحه بظاهر حمـــص :

هيهات يعصم مـــن أردتَ حـــذار ... انى ومن أوهاتــك الاقـــدار
طلمثعليك بجوسلين ذ ريعـــة ... لاسنّلَ أنشاها ولا إمـــرار
وسعادة ما زلت تمري خلفهـــا ... فيشف ، وهو النّاتقُ المـــدرار
غارتك ما يجني الوفي وفـــاؤه ... وأرته كيف يحيّن الفـــدار
عودّ امرّ على أباره طلمـــه ... فاحيل ذ اك البر وهو بـــوار
ما زلتَ تنموهو يكثر عاتيـــا ... والله يهدم ما بنى الكفـــار
حتى أتاح لقومه ماجـــرّه ... لثمودَ منعقرِ الفصيل قـــدار
أسرى ، فاصبح في براثن اســـر ... ما زال يدمي ظفره الأظفـــار (١)

وكتب اليه قصيدة من حماة وهو محاصر دمشـــق سنة ٥٤٦ :

أخليفةَ الله الذى ضمنت لـــه ... تصديق واصفه سراة المنبـــر
لا المستخيلُ بمصر ظلّ قصـــوره ... والمستطال اليمشقة صـــر صـــر
يا نور دينا للمواهبعمـــاده ... والكوثر بن الكوثر ابن الكوثـــر
عفر بحد السيف دار أشائـــب ... عقلوا جيادك عن بنات الاعفـــر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقـــدوا ... نارا تحشّر بهم غدا في المحشـــر
اذكوا بجلق حرها واستشمـــرت ... لفحاتها بين الصفا والمشعـــر
شردتهم من خلفهم مستنجـــدا ... ما ظاهر الكفار من لم يكفـــر
لا تمف ، بل شن الهدى نفس الذى أد ... رع الضلال على أغر مشهـــر (٢)
قلده ما أهدي علي لمرحـــب ... فلقد تهكم في الخداع لخيـــبرى
ما الفش ممن أتمنصرانـــة ... لم تختتن كالفش من مستنصـــر
اذكت لنا هذي المزائم لاخبـــت ... ما غار من سنن الملوك الغـــبّر
القاب اراء المعز وخفـــق را ... يات العزيز ويقظة المستنصـــر
شمّر فقد مدت اليك رقابهـــا ... لا يدرك الغايات غير مشمّـــر
أو لست من ملاء البسيطة عدلـــه ... واجتبّ بالمعروف أنف المنكـــر
حدب الأب البر الكبير ورأفـــة الأ ... م الحفيّة باليتيم الأصغـــر (٢)
يا هضبة الأسلام ، من يعصمهـــا ... يؤمن ، ومن يتولّ عنها يكفـــر
كانوا على صلب الصليب سرادقـــا ... أنهت بنيته بكل مذكـــر
آثارهم نجر إذا ل المسجـــد الا ... قصى فصُنْ ما د نسوه وطهـــر
جار الخليل ومن بغزة هاشـــم ... بلها لك المقدمتى المتمصّـــر
بصرمهم علمت رعاوعه عـــرى ... اسماع جيحون وسيف البربـــر
يفترّ عن ملك الملوك منحـــل الا ... موائل سعد السعود الاكبـــر

---

(١) الروضتين ق ١ جـ ١ ص ١٩٠

عن طاعن الفرسان غير مكـــــــذب   ويتم الاحسان غير مكـــــــدر
بدر الجحافل والمحافل فـــارس الا   ساد في غاب الوشيج الاسمـــــــر
ملك تساوى الناس في أوصافـــــه   عذر القل وبان عجز المكثـــــــر
يا أيها الملك المنادى جـــــوده   في سائر الآفاق هل من مجـــــــر
ان القصائد أصبحت أبكارهـــــا   في ظل ملكك غاليات الأمهـــــــر
ان كنت احييت ابن حمدان لهـــا   فأنا الذى غبرت في وجه الســــري
ولأنت أكرم من أناس نوهـــــوا   باسم ابن أوس واستخصوا البحـــترى
ذلت لدولتك الرقاب ولا تـــزل   ان تغز تغنم أو تقاتل تظفـــــر (١)

وقال يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس وبحصور سنة ٥٤٦ :

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكــــا   وتؤوب منه مؤيدا منصـــــــورا
تدني لك الأمل البعيد سواهـــم   صفت أظلتها وكن بـــــدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربـــ   في الجو مطلبها لكن طيـــورا
نبذت علائقها بحمص وأعلقـــت   سحرا بصرقد عرقتا لا تفـــورا
وعدون حاغيتاه لاح شوارهــــا   قد أتلعت عنقا إليك مشيـــرا
القلب انت فان تماص عن مـــدى   عضو أهاب به فعاد بصيـــرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهـــم   يفري بيا ادیمها الديجـــو را
أين الذبال من الغزالة أشرقـــت   وجها وطبقتا البسيطة نـــورا
غضبان أقسم لا يشيم حسامــــه   والأرض تحمل في الكفور كفـــورا
فصل المواصم من بن ادرانهـــم   واليوم رد به السواحل بـــورا
ليبق بين الحولتين وآمـــــد   وترا لضاغن ، ولا موتـــورا
أخلى ديار الشرك من أوثانهـــا   حتى غدا ثالوثهن نكيـــرا
رفع القصور على نشائد هامهـــم   من بعد ما جعل القصور قبـــورا
بشواحب الاليا طرتقطو في الظـــلا   م قطا وتهوى في الصباح نشـــورا
غادرت أنطرسوس كالطرس امحـــى   رسما وحمر دزعها يحمـــورا
وهي الرماد لفتنة كانت علـــى الا   سلام أحكم كسره اكسيـــرا
هتمت طرابلسا فأصبح ثغرهـــا الـــبسام من عز الثغور ثغيـــرا
أتليدها كانت ، وقد انطيتـــه   واسأل به معند شتمخبيـــرا
ان الألى أمنوا وقاعك بعد هـــا   غروا وقد ركبوا الأغر غـــرورا
القر العصا فيمن أطاع ، ومن عصـــى   منهم ، ودمر أرضهم تدميـــرا
لا يلهمهم أنقذ منتت ، وشنهـــا   شعرا تصلي الكافرين سعيـــرا
باكر بركز قنا تنسف أسهـــا   والخيل صوركي تزيرك صـــورا
وتريك لا ممتا لنريك بساحـــة الا   قص مطهرة لها تطهيـــرا

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ١٩٦

أوَلستَ من قوم اذا هزوا القنــــــا قتلوا مناصمهم لها تسويــــــــرا
واذا هم خطبوا اليراع عــــزيزة ساقوا الشفار على المهار مهـــــورا
ألقى قسيماهمْ اليك أزمة الـــــــــملك المطلّ على السّها تأثــــيرا
ضحكتْ لك الايام وأكتاب المـــــدا قلقا فجئت مبشرا ونذيـــــــرا
لا ملكَ الا ملكَ محمود الـــــــذي تنفذ الكتاب مظاهرا ووزيـــــرا
تمشي وراءحدوده أحكامـــــــه تأتيهن فيحكم التقديـــــــرا
يقظان ينشر عدله في دولــــــة جاءت لمطويّ السماح نشـــــــوارا
خلف الخلائف قائما عنهم بمــا عيّوا به ، الوى ، الدّ ، غيــــــورا
البرّ ، والمعصوم ، والمهدي ، والـــــمأمون ، والسفاح ، والمنصــــورا
يخروا به فعهود هم وعهادهـــم يمتحن تحت لوائه منشـــــورا (١)

وله فيـــه :

أيا سيفا أعز الدين منــــه الــــــنزار المضب والنوم الغــــرار
ملأتَ جوانح الاقطار رجفــــا كأن الارض خامرهــــا دوار
علاه حُلى على الدنيا فتــــاج بمفرقها وفي يدها ســــــوار
أنار ت شمس عدلك في دجاهــا فكلّ زمان ساكنها نهــــــار
تعرّت من عصاك وأنت مـــاء وتخرق من رجالك وأنت نـــار
ألا لله وجهك والمنايـــــــا مكحلة وللبيض افتــــــرار
هتكتَ حجابها والنصرُ غيـــبٌ وللهبوات طي وانتشــــار
يطعن القلوب بها انتظـــــــام وضرب للرؤوس بها انتشـــــار
تبادره كأنّ الموت غـــــــتم وما من عادة البدر البـــــدار
أنخت على الصليب مطا صليبـــاً به من سلهٍ مركه مـــــدار
بمشرفة المناكب مقربـــــات لهن بمقتكل وغى حضــــــار
جبين بأشب انب المناصـــــي وأضن وللقنا منها ثمـــــار
وفي هاب أصبحها فجـــــاءت كما أجلى من الكســــم الصوار
وكم في فج حارهن حريـــــم عققه فلا جدير ولا جـــــدار
وانطاكية اصتنت اليهـــــا فاجفل خيطها وله عـــــرار
وصهيل في عزاز بها عــــــزاز فانس وضو وعت او شبـــــار
يشق بها دجا الغمرات عسفــا جواد لا يُشقّ لمغبــــــار (٢)

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ٢١٦ (٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٢٨

وقال يمدح نور الدين بعد أن ملك حصن فامية سنة ٥٤٤ :

أسنى الممالك ما أطلّت منارها … وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها … رؤوف تكنّف عدله أقطارها
من هام سام الخافقين وحامها … منا وزاد هوى فخفّ نزارها
ضربة طبعت مضاربه وان … عدّته ذروتها أسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها … وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأمر ضجعتها وأثبت نيّها … وأساغ جرعتها وأثبت زارها
ملك أبوه سما لها تسما بها … وأجارها ضلت سهولها جارها
نهج السبيل له فأوضح خلفه … وشدا له يُمن العلى أبشارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد … من بعد ما شمل البلى أعصارها
ابجانات تدل السنان توائمها … أو نابت كان الحسام جبارها
فقلت من العصم السواصم مذ غدت … هذي العزائم أسرها وإسارها
وتقلّت الغيّم أنضيتها … في صونها أن تستردّ ضمارها
كدمت هواطلها ورقّ مطارها … ما أرهقت وتقفت آطارها
كم حاولت من كفّتيها غدرة … غلب الأسود فقلّمت أظفارها
أنّى وحامي سرحها من لو سمت … للفلك بسطته أحال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة … للدين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة تعبر المنابر ان غدا الـ … ـخطباء تنثر فوقها أقمارها
هِمَم تعجلت الملوك وراءها … بدم المثار وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوفز الآساد عن … نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفقا لـ…ـفري … بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغدت أفامية فما فهتمته … كبوار أجناها الأران بوارها
أرهقت رائك فوق رائك تحتها … فحططت من سعفاتها أعفارها
أدركت ثارك في البغاة وكنت يا … مختار أمة أحمد مختارها
تاريه الزمن المنير منالها … ملك المعير فاسترد معارها
زار الهزبر فقيدت عاناتها … عصر الفلاة وأسلمت أعيارها
شاءت جنوبك فوقها ولربما … باتت تناغيها النجوم سرارها
أمست من القصري العبور وأصبحت … شمراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم ترعت بقرباتك مثلها … تلماً وقلدت الكماة غفارها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها … عزاً وحلاّها سناك سوارها
خرّ الصليب وقد علت نغماتها … واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع أنطاكية … سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم تستند بهجيرها … من جوره وغدت تذمّ جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها … إن زرّ أطواق القباء وزارها

ماضٍ إذا قرع الركاب لبلـــدة ... ألقت لقبل القـراح إزارهـــا
وإذا مجانقهم كمن لصعبة الـــ ... ـملقاة أسجك كالجدير جدارهـا
ملء البلاد مواهبا ومهابـــة ... حتى استرقت آيه أحرارهـا
يذكي العيون إذا أقام لصونهـا ... أبداً ويفضي بالظبى أبكارهـا
أوما الى رمم الندى فأعاشهـا ... وهي لسابقة المنى فأزارهـا
نبوي تشبيه الفتوح كأنمـا ... أنصار مرجمت له أنصارهـا
أحيا لصوح سلامها سلطانهـا ... وأمات تحت عمارها عمارهـا
إن سار سار وقد تقدم جيشـه ... رجف يقطن في اللهى دعارهـا
أو حل حل حبا القروم يهيبـة ... سلب البدور بدارها أبدارهـا
وإذا الملوك تنافسوا دون العـلا ... أربى بنفس أشرعتـه خيارهـا
ونهى إذا هيضت تدل بخيرهـا ... وسطى تذل إذا عنت جبارهـا
تهدي لمحمود السجايا كاسمـه ... لولز فاعلة بها لآبارهـا
الفاعل الفعلات ينظم في الدجـى ... بين النجوم حسودها أسمارهـا
ساع سعى والسابقـات وراءه ... عنقا فمصفـر منتهاه غبارهـا
كالضرجي إذا يصرصر آيبـا ... خرس البغاث وهاجرت أوكارهـا
عرفت لنور الدين نور وقائـع ... يغشى إذا اكتحلت به أبصارهـا
مشهورة سطت وقد حاولتهـا الأ ... قدار عجزاً أن تشق غبارهـا
لله وجهك والوجوه كأنمـا ... حطت بها أوقار هيت وقارهـا
والبيض تخنس في الصدور صدورهـا ... هبراً وتكتحل الثغور شفارهـا
والخيل تدلى تحت أرشية القنـا ... جذب المواتح غاورت آبارهـا
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسـا ... متمليا صدر العلى وصدارهـا
في دولة للنصر فوق لوائهـا ... زبر تنمق في الطلى أسطارهـا
فالدين مومأة رفعت بها الصوى ... وحد يقضت يداك إبارهـا (١)

وقال أيضـا :

هي الخيل خير عتـاد الكريـم ... يحضر للهم إحضارهـا
ضففت فأدرت أفواههـا ... وسرت تقلمت أظفارهـا
الإم ولم تبق ما غزوت ... قلوبا تكابد أذعارهـا
أما في بفضل آي القـرا ... ع أن تضع الحرب أوزارهـا
عسى أن يحم لهذا الحمـا ... م أن يتوكر أوكارهـا
وما يوهمن غلته واحـد ... فتوعما للشنا شعارهـا
وأين القاول ما فعلت ... ولو شفع القطر إكثارهـا
فكم أجلبت خلفك الجائحـات ... فصلصل فخرك فخارهـا
أعدت بمصرك هذا الأنيـق ... فتوح النبي وأعصارهـا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٠ وانظر الكامل ١١/١٥٠ والباهر ١٠١

وكان مهاجرها تابعيـــك   وأنصار رأيك أنصارهـــا
تجددت إسلام سلطانهـــا   وعمر جدك عمارهـــا
وما يوم إنب الا كتيـــك ، بل طال بالبوغ أشـــبارهـــا
وأيامك الغر من بعــده   تعيد الى الطين اغوارهـــا
ولما هبيت ببصرى سكنــت   باهباخ ملك أبصارهـــا
وفي على الجون جون السـرا   ة عز فسخطها عارهـــا
صد متعريمتها صدمــة   اذا ابت من الماء أحجارهـــا
وفي تل باشر باشرتهــم   بزحف تسور أسوارهـــا
وانهد الكتهم لوا فقــد   شددت فصدقت أخبارهـــا
وشب التدامر حتى طلعــت   عليها فولت أدبارهـــا
مشاهد مشهورة نشرت   على صفحة الدهر أسطارهـــا
يلذ الاغاني ترجيعهـــا   وتستسفر السفر أسفارهـــا
بنيت لوفد المنى كعبـــة   تجير المسالك أستارهـــا
ملكت الاراضي مغبـــرة   تكاد تحدث أخبارهـــا
فما زلت تعدل حتى محـــوت   دجاها وشعشعت أنوارهـــا
وشكت فاعززت مسكينهـــا   وصلت فذلت جبارهـــا
وصنت حلى من على أحكمــت   على عنق الدهـــر أزرارهـــا (١)

قال يمدح عماد الدين زنكي ويهنيه بفتح الرها سنة ٥٣٩ :

وما يوم كلب الروم الا أخو الـــذي   أزحت به ما في الجناحين من نبـــل
أتاك بمثل الروم حشدا أزاره   ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمـــل
فقاتلته بالله ثم بعزمـــة   تصك قلوب العاشقين بما تسلـــي
توهم أن الشام مرعى ومـــا درى   بانك أمضى منصفي الشزر والمجـــل
قطار وخير المغنمين ذمـــاؤه   اذا رد عنه منهم المال والأهـــل

. . . .

أيا ملكا ألقى على الشرك كلكـــلا   أناخ على أماته كلكل الثكـــل
جمعت الى فتح الرها سد بابـــه   بجمعك بين النهب والأسر والقتـــل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثـــه   وثوق مسطور الرواية والنقـــل
نفضت بمنقار الخواتم بعـــده   تجزيه جزاء الصدق عن خاتم الرســـل
تجردت للإسلام دون ملوكـــه   تبتك أسباب المذلة والخـــذل
أخو الحرب غذته القراع معظمـــا   يشوب بإقدام الفتى حنكة الكهـــل (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٩٣
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣ ، ص ١٠٠

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بالعود من غـــزاة سنة ٥٦٠ :

أخرست شقشقة الضلال ، وقد تـــه   قود الذلول أطاع بعد صيـــال
ورميت دار المشركين بصيلـــم   ألقحت فيها الحرب بعد حيـــال
وسمرت بين تريبهم وترابهـــم   ذعرا يشيب نواصي الأطفـــال
فوق الغطيم ، وقد خطمت زعيمهـــم   غربا سوابقه بغير توالـــي
غربا ملأت ترنجة من حـــره   رتبا ، به سيف الصقالب صالـــي
ويفمخ حارم أخرست لقراعهـــم   ثيم أغلق النوم غير حـــلال
عجبوا على جسر الحديد حديدهـــا   نبسا يماثه أديرة صـــال
زلزلت أرضهم بوقع صواعـــق   أعطيتنا أمنا من الزلـــزال
في مازق شمرت ذيلك تحتـــه   والنصر فوقك مسبل الأذيـــال
في دولة غراء محمود يســـة   سحبت رداء الحمد غير مـــذال
تنسي الفتوح بها الفتوح ، وتجتنـــي   زهر المقال بباشر الأفعـــال
ليمت بنور الدين نور حدائـــق   ثمراتهن غرائب الأمثـــال
ملك تجحب في السرير بـــزارة   زرت حواشيها على رئبـــال
تنجاب عن ذي لبدتين شذاتـــه   في بردتي بدل من الإبـــدال
رفع الرواق بروق أنطاكيـــة   فرض الخليل بروق البلبـــال
بدر لأربع عشرة اقتبس السنـــا   من خمس عشرة صورة الأنفـــال
نور المآل أخاف ما الطلـــى   وسواميقيد ماحتياز المـــال
تقسم بين القسمين المـــلا   عن عم عم أو مخايل خـــال
لا زلت تحتل من ثنايا جحفـــل   يقفو لواءك كاللوى المنهـــال
لك أن تحل على الكواكب راقيـــا   ولحاسديك بكى على الأطـــلال (١)

وأنشد نور الدين بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة منها :

لقد أوطأت دين الله عـــزا   أديم المشركين له رغـــام
دعاك وقد تناوشت الرزايـــا   له أشبا يوزعها الصـــدام
فقمت بنصره والناس فوضـــى   قيام ذم ما اقترفت نيـــام
جذ بتبنبسه منقصر يـــم   له من فوق مقسما لقطـــام
وملت على مقاتلهم فســـرت   ولاء مثل ما انتقد النظـــام
بصرخد والخطيم وفي عـــزاز   وتابين مز مشهد هـــا الأنـــام
ولو لم تعترف وتشم لاســـى   واصبح لاعراق ولا شـــام
صبت على الصليب صليب بـــاس   تواه تحت كلكلـــه حطـــام
ويوم بالعريمة كان حتفـــا   على الأشراك أنقرها لـــرام
لتواه كان ما سلوه سيـــح   وما اعتقلوه من خـــور تمـــام
وهاب وتورس ويكثر لاتـــا   ذممت وأنت للجلى ذمـــام

---

(١) الروضتين جا ق ١ ص ٣٥٧

صدقتهم بأرض مرجحـــــــن ... كأن مطار أنسره قيـــــــام
وأية ليلة لم تلف فيهــــــا ... لهم طيفا يروع به منـــــام
بنور الدين أنشر كل عـــــدل ... تنفت في الثرى منه الرمــــام
وقاد الحق بعد كلال حـــــد ... حمى من أن تراع له ســــوام
تألق عدله وذكت سطـــــاه ... فلا حيف يخاف ولا اهتضـــام
بقاء الخير ما يرجــــوه راج ... وأنفع ما يبل بـــــه أوام (١)

وله فيـــــه :

ملك كسا الاسلام من ذبـــــه ... بردا تبدد بين الظبا معلمــــا
من أصبح الشام به شامـــــة ... يقطر من قتل عـــداه دمـــــا
لو لم يقم منصلتا دونــــــه ... لم يلق في أقطارها مسلمــــا (٢)

وقال يمدحه ويذكر مواقعــــه :

غدا الدين باسمك سامي العلـــم ... أمين العماد مكين القـــدم
لذلك لقيت نورا لـــــــه ... وقد أغطش الظلم فيه الظلـــم
أضاءت بعدلك آفاقـــــه ... وفتت عرى الدين لما انفصـــم
ولم تعد زعموا لنصر الرهـــا ... ومثلك أدرك لما عــــزم
وبوصولها بعدت العصـــام ... على الهضب من ركنها فانهـــدم
وبحرن وصرخد لو لم تشـــر ... إليها لكانا رديفـــي إرم
وقد جيشك في التوطـــن فخر الصليب له ما نظـــم
وفي كفر لاثا وباب حلب ... تعد البرنس ببيض خــــذم
مودة أنها لا تســ ... ل الا متقسمة للسقـــم
ويوم سرفود جرعتهم ... أجاجا أغصهم واصطلـــم
وفوق العريمة غشاهم ... عرام يوشك سيل العـــرم
وانتبكلبهم في الكبول ... مباح الحريم مـــذال الحـــرم
وبارتهم إذ نت أنهـــا ... أبارتهم فليبوؤوا بـــــذم
بنوها وأعلوا ولم يعلمــوا ... بما خط في اللوح منه القلــم
وأنك خازم ما أحكمــوه ... ومن ديننا راتق ما انخـــرم
فترفع من بعد خفض هدى ... وتخفض من بعد رفع صنـــم
سمكت المدارس فوق النجــوم ... فكم منجم تحتها قد نجـــم

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ٢١٠

(٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٣٢

وعاش الحنيفي والشافعـــي … بما شدت منها وكانا رمـــم
وان لم تكن هاشمي الاصـــول … فانك فرع العزيز الهشـــم
ومن يدّعي في العلا ما ادعيـــت … وأنت ابن من عز لما احتكـــم
واقسمها غاب سيف سقمـــت … مدارسه عين مغنى القســـيم (١)

وقال ابن منير يمدح عماد الدين زنكـــي :

غدتك الملوك وأيامهـــا … رداء لنقضك إبرامهـــا
وزلت لهيبتك أقدامهـــا … وزال لبطشك إقدامهـــا
ولو لم تسلم اليك القلـــوب … حواها لما صح اسلامهـــا
أيا محيي العدل لما نعـــاه … أيا منسي البرايا وأيتامهـــا
ومستنقذ الدين من أمـــة … أزال المحاريب أصنامهـــا
ملكت لها تقتفيك الاســـو … د والبيض والسمر آجامهـــا
جزرت جزيرتها بالسيـــو … ف حتى تشاءمها شامهـــا
وصارت عوارف أكنافـــه … متى شئت أرخص مستامهـــا (٢)

وله في نور الدين يذكر وقعة الجـــولان وغيرها :

ما برقت بيضك في غمامهـــا … الا ونبت الدين لابتسامهـــا
محمود المحمود جدا وجـــدا … أرخص جلد الارض حكم عامهـــا
ملك أزال الروم عن علبانهـــا … دغاته وكب من أصنامهـــا
جال على الجولان أمر جولـــة … صفرت الادحي من نعامهـــا
والجون قد جرعها الجونـــه … وظل مشحوذا من اعتزامهـــا
وشد نوح الشد له مليكهـــا … تود عقود القوط في شبامهـــا
وفي الرضا صابت له سحابـــة … صاروا جناءك في التثامهـــا
وهب في هاب لعواصـــف … تبسمها ألهب من جهامهـــا
وكفر لا ثالاث في جبينهـــا … لثم ابا أبت على أشامهـــا
وقائل يرفل تحت وقعهـــا … نظم الثريا في غضا مصامهـــا
ساعقا لبيض اذا عددهـــا … سوط عذاب صب في أيامهـــا
واعجبا لصعب الشراك الـــتي … ليصب الرشد على أحشامهـــا
حكمة استواؤها في عيهـــا … في نقضها أحصد من ابرامهـــا
مثغر الرايات والـــرأي اذا (٣) … الحرب مشت تعثر في خطامهـــا
عدت به حد العلاء همـــم … حتى النجوم أو نواصي هامهـــا
جلت له الدنيا على زبرجهـــا … عفوا فلم تلـو على حطامهـــا
رأته وهو الليث يحدمي ظفـــره … أنفذ في المشكل من حكامهـــا

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٢٤ (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٨٩

وله في نور الدين :

عزت سيوفك ، فالعراق عراقها … والشام غير مدافعات شامها
ان أغمدت حل العزائم حلها … أو جردت حرم الكرى احرامها
شخبت عداك بها ، فلا اشراقها … بمفازة منها ، ولا اعتامها
سربت نصيحتها بها يقظانها … هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء ، الا أن في رشفاته … نارا حشاشات النفوس ضرامها
خفت على أيمانك أوزانها … يوم الوغى ، واستثقلتها هامها
حتى أحلن الشاما صرصرت … فيه جنادبها وصدح حمامها
وركضن أدران الجزيرة بعدما … نمرت بها وهدانها واكامها
شطارا أبرت ، ومثله أنارته … وقع الغضاوب تكرها أيامها
بالخابلات الغاب ، تزأر أسده … والمجتلي الحي اللقاح صيامها
أوردتها أجمات أنطاكية … عنقا وقد شب الصدا اجامها
تلقى المشافر في مراشف ، كلما … بردت بها الاكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراح سراحها … وتوزعت في كنسها آرامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل الا … ذان من رجع الاذان صلامها
وغدا يخللها الخليل سواجبا … عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضبا لدين الله خض جناحه … بغيا وأدمى صفحتيه لدامها
فالان رد النور فيه نوره … وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما اذا … خام الكماة وزلزلت أقدامها
الفالج الكرب المظام تفاجمت … أشداقها وفرى القلوب ضخامها (١)

---

(١) الروضتين ق ١ ص ٢٣١

تتوجته العز في مرتبة — تمنطق الجوزاء في نظامها
عيان للاسلام لا يغيظه اسـ — ـتسلامها للقسر من اسلامها
خط على مثل أب طاعت لـه الأ (٢) — ماق واستشرف لاغتشامها
تسرب الدنيا على إيثاره — عراقها مستردة بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى — واقتصد الفائز من تمامها
وأعجلته ماءكة رواضن — يقصر باع الدهر عن فطامها
وعار كالجمر الجمار وصلا — من أهله الاشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى فـي حمى — من مؤلم الارواء أو لمامها
تلبس بيت الله وشي يمن — يقرأ آياته من اعلامها
فانما الدين رحى قطبتها — وبازل يمكنه من زمامها
أمت بنا الامـال منك كعبة — سلم الليالي آية استسلامها
وأرشفتنا بك ثغر نعمة — لا نسأل الله سوى دوامها (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي ويهنئه بفتح الرها :

بعماد الدين أضحت عـ — ـزة الـ — ـدين منصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة الـ — ـمقسمين ارغام كيد المارقين
ملك أسهر عينا لم تزل — همها تشريد نوم الراقدين
لا خلت من كحل النصر فقد — قذيت غيظا عيون الحاسدين
كل يوم من أياديه — فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه — كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا — مثل ما خطت له أيدي السنين
ان أناة الشرك في أكنافه — يهزؤ الوثنا بمؤمنين
وقعة طاحت بكلب الروم من — تدلفة ابين الى قطع الوتين
ان حمت مصر فقد تاه لها — واضح البرهان إن الصين صين
دون الدهر عليها مصرا — لم يد نسر بهرام الاثمين
والرها لو لم تكن الا الرها — اكفت قيلها لملك المتربين
ولكم من ملك حاولها — فتحلى الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلا أنها — منه نا النجم لرأي المبصرين
منيت منه بليث ثائر — بمران الفل آساد العرين
زارها يزأر في أسد وغى — تبدل الأسد من الزأر لاانين
صولجو البيض بضرب — نـ — ـثر الـ — ـهام في ساحاتها نثر الكرين
يا لها فتحة ثغر أضحكت — منه ثغر القلب ثغور الشامتين
برنست رأس برنس لـة — بعد ما جاست حوايا جوسلين

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٢

وصروف مذ وجت أسراجـــــــه … فرقت جماعتها عنها عضـــــــين
تلك أثقال رماها الله مـــــــن … عزمه الماضي بخير الفاتحـــــين
شام منه الشام برقا ودقـــــة … مؤمن الحتوف مثيف الآمنـــــين
كم كنيسة كنست قد رامهـــــا … منه بعد الروم في ظل السفـــين
دنت الآجال من آجالهـــــــا … فأحلتها القطا بعد القطـــــين
ومنار يجتلي صلبانـــــــــه … بين بيض تتبارى في البريـــــن
قرعته البيض حتى بدلـــــت … قرعة الناقوس تثويب الأذيـــــن
بالقسيسات مقسوم الهـــا السد … ـر في علك لجين أو لجـــــين
سل بها حران كم حرى سقـــت … بردا من يوم ردت ما رديـــن
سمطت أسر سماط بهـــــا … نال جيش منهج للناظريـــــن
وغدا يلقى على القدس لهـــا … كالكل يد رسها د رس الدريــــن
تمقتص وتضحي عزمـــــة … ليس حصن إن نحته بحصـــــين
قل القوم غرهم أسهـــــــا … ستذوقون شذاه بعد حـــــين
انه الموت الذي يذرك مشـــــ … فرضه شحنا للقاتلـــــين
وهو يحيي مسكي عروتـــــه … انها حبل لمن تاب متـــــين
من يطع يفع ومن يعص يكـــــن … من غداة تبرة لأشريـــــن
بك يا شمس المعالي ردت الســـر … ون في الميتين من دنيا وديـــن
أتسم المجد بأن تبقى لكـــــي … تملك الأرض يمينا لا يمـــــين
وتفيض العدل في أقطارهـــــا … منسيا مؤلم عصفا الجائريـــن
لا تزل دارك كيف انتقلـــــت … كعبة محفوفة بالطائفـــــين
كل يوم يتحلى جيـــــدها … من نظيم المدح بالدر الثمـــين
كلما أخلص فيها دعـــــوة … لك قالت ألسن الخلق آمـــين (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

بجدك أصحب المجد الحـــــرون … واطلع بوجه الفتح المبـــــين
وفي كنفيك سولت الليالـــــي … وفاروق طبعه الزمن الخـــــؤون
ومنك تعلم القطن المواضــــي … وقد زينت بها الحرب الزبـــــون
وأنت السيف لم تمسه نـــــار … ولا شحذت مضاربه القيـــــون
ترقرق فوق صفحته الأمانـــــي … ويقطر من غراريه المنـــــون
وتبلى ما سمحت بذي فقـــار … يثير القتر كان ولا يكـــــون
ولا غيث سماوته سريـــــر … ولا ليث وسادته عريـــــن
ولا قمر لها الهيجاء هـــــال … ولا تاج له الدنيا جبـــــين
جبلت ندى وعفوا وانتقامـــا … وطاء كل مجبول وطـــــين

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠٠

وملكه من الاقطار قطرا   تأمرت الأوعاث والحزون
فلولاه تحته غرر الليالي   اذا الأيام عند سواك جون
وانت أتمت للجدوى منارا   يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب النعمى زلال   اذا عبقت مشاربها الأجون
تحكم في عطائك كل عاط   وقد شيدت من المنن المصون
لقد أضمرت بين الله عزما   تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى   ترى منه في الجلى أمين
رجعت ملوكهم ولهم خفوف   أسير في عقادك أو كمين
فبرنست البرنس لقاء خسف   وجرع من جوسك جوسلين
اذا ما الفصل عن تاج حذف   يتاح لمنتهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصـ(لهم)ـدى في أرضهم خف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا   فروتمنائه وفيه لين
وما خطرت بدار الشرك الا   هوى الناقوس وارتفع الأذين
مؤت عظام ساحتهم عظاما   فكل ما لقولك بمجرين
بأنب في القنا تجري نجيعا   كأن عيون اكعبها عيون
وبين جرار صرخد بين حمرا   له في كل جبجبة كمين
وقسين من المرية في غرام   لمثل جونها الأقصى وجون
وكم حرم لحارم قاد رتسه   ودارته لمسفها دين
وفي شرا قورس صفن شمرا   تدار على قراريه اللجون
وقائع عرن في صنماء طيرا   يوتحها على عدن عدون
نماه أب اذا عد انتسابا   تراقى مصعدا والناس دون
شمالا كان أملاك البرايا   وقد قيسوا به ودلو اليمين
تقى وتضاؤه في الارض حتما   وطاعة أهلها لبنيه دين
لهذا اليوم تنتخب القوافي   ويذخر نفسها الدر المصون
ونحن أحق منه بأن نهنا   اذا ترتبر رؤيتك السنون
سلمت لنا فإنا كل صعب   نوازيه بأن تبقى يهون
ترابطنا بمقوتك التهاني   ويغبطنا بدولتك القرون (١)

وقال يمدح نور الدين :

صفات مجدك لفظ جل معناه   فلا استرد الذي أعطاكه الله
يا حارسا بيمين الله قائمه   وفي أعالي أعادي الله حذاء
أصبحت دون ملوك الارض منفردا   بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته   جهلا وتقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي : ألا موتوا به كمدا   فالله خيبكم والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته   تقى وتسهر للمعروف يمناه

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٥

ما زال يسطو والأيام تخدمه　　فيما ابتغاه وتدنو ما توخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره　　قدرا وجاوزت الجوزاء نعماه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا　　وأين مما رووه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له　　مظلل أفق الدينا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج　　مطوية بفتيق المسك ريّاه
فتح أعاد على الإسلام بهجته　　فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهدي بمستعصم بالله فتكته　　حديثها نسخ الماضي وأنساه
ان الرزايا غير عمورية وكذا　　من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أنت الكواكب عزا ما بني أحد　　من الملوك لها وتعا غواشاه
حتى دلفت لها بالعزم شحذه　　رأي يبيت فويق النجم مسراه
شمرا وبنو الإسلام في شغل　　عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه　　وناشر الجود لما مات منعاه
يا نعمة الله يستصفي المزيد بها　　للشاكرين ويستقني عطاياه
أبقاه للدين والدنيا تحوطهما　　من لم يتوجه هذا التاج الا هو (١)

وله فـي نـور الديـن :

ملك ما أذن بالفتح أرضا　　قط الا أعزنا إتفاقه
والرمح في الرهاء أزجى اليها　　عارضا شيب الدجى إبراقه
جارت جارة اليه فحلى　　عاطلا من أعناقها إعتاقه
تلك بكر الفتوح فالشام منهـا　　شانة والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطلـ　　ق يرينا إضاءة إطلاقه
ممتنعها أبوه كلب السر　　وم لما أظله إرهاقه
شائقا قلبه الى أمل عـ　　جله دون نيله أشفاقه
قسمت راية المواضي القسيـ　　ـات وابتز من لهاه عراقه
وكذا أنت يا ابنه ما عدا من　　خالقه نيله خصلة خلاقه
وكفى البحر أنه ابن سحاب　　ما ونى سحه ولا إصعاقه
لم يمت من سددت ثلمته يا　　من على الدين كظه إشفاقه
رتبة لم تدع على الأرض قلبا　　خالف عد رينشق عنه شقاقه
كلما ظن ذكرنا منه في السمـ　　ـع يكفي في الآفاق نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يسأ　　ل له ركضه ولا إنفاقه
أي شأن أدركت يا نور دين الله　　أعيا على الملوك لحاقه
نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ　　ـكاه محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد　　ليس إلا الى المعالي سباقه
هل بصيرا كم اعتقت يوم بصرى　　من أسار الموت الزؤام عتاقه

(١) الروضتين ١ / ١ / ٩٩

كم غرام على الصريمة شبت ... ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم صبوة بهاب واختيت ... ها لها حكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو ... طا ولكن طواه عنه ارتفاقه
كان فيها ليث العرين حمى الأشبال منه غضبان كالنار ما تطاقه
وشبيه النبي يوم حنين ... اذ تلاقى أدواءهم ودراقه
وهي الحرب مثلها يحسن الكرة ان ضرباسها لا نياقه (١)

وقال فيه :

مظفر العزم ممدود الرواق على ... معالم الدين يرفعها ويبنيها
رد الفناء كنسا للهدى فخبت ... نار الضلال ووزتها أثافيها
وأورد الملحدا من إياته ... فاستنوأنترحبا في صوافيها
وبت الهوى أهرانا فما دبت ... واريدة منه إلا استوسقت فيها
يا بدر فيه أهرقت في الدمت فرتعه ... غيث الرعية واخضلت مراعيها
أتام أحمد من ممدودها هامسا ... به ادتقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت ... واستصبحت بعد اظلام مبانيها
ثابت دواعيه فيها مهابته ... حتى استقرت على سمتٍ سراريها (٢)

وله من أخرى :

أما الرعايا فانها رضيت ... الدنيا نحو عفا ثناياها
ملكت نهى العدل القويم لها ... فاعتدت دينها ودنياها
وكم أمنت خوفا فانها ... مقانه الخوف خوفه اللـه
لله أقطاره التي تطهرت ... لها مقاما الى مناياها
أثب في انبغوارسها ... تردي نقوى أولاء أخراها
أشجت لهاة البرنس هيبتها ... وكم عتا عاتيا فأشجاها
وجوسلين استماع نطاقها ... فاعتلب الذى تحت عنداها
وتعطرا من كل ما ملكت ... يداه أيدي ما غل صراها
جوين جاسقه أوبـ ... لارات بؤسا وجاد الحيا محياها
سرية لو تكون فارسها ... يومئذ ما انبعثت أشقاها
لا زال ظل النعماء عن ملـ ... ما الدهر كفءا له اذا باهى
والله جازيه عن عقيدة ... أعزها الله مذ تولاها
محمود المعتلي الى فلك الحمد وتيرا له ولاياها
اعداكه جداء المتون بالجد ونصر الله مغزاها
تعربوف عن الغنا طيبت ... نزهها الله يوم سواها
أنت الذى سلم الانام له ... يدني طباق القال ويسراها
وأنت مولى الملوك قاطبة ... من كل فنا خسرو وشاهنشاها
والدهر هذا لا أقول أحمده ... أوه بديل من قولتي وأسما (٣)

(١) الروضتين ١/١/١٢٧، ١٣١، ١٤٤ (٢) الروضتين ١/١/٢٣٠ (٣) الروضتين ١/١/٢٠٧

ابن الصيـــــاد

قال يمدح طلائع بن رزيك حين قتل مقدم خيل الفرنـــــج * :

عن سيف دين الله سل أرناطــــا ... حيث المنية كاسها يتعاطـــى
والمشرفية قد حكت في جيشـــه ... في الضال والنهل القطا الفراطــا
قد شام طير الكفر منه منســـرا ... أشفى وعاين مخلبا عطاطـــا
هو ملبس جثث العدى في الحرب مـــن ... حلل النجيع مجاسدا وربا طـــا
فجياده تشكو مزاحمة القنــــا ... وترد خرصان الرماح سباطـــا
هو فارس الاسلام يحفظ بالظبــــا ... من دينه الاطراف والاوساطـــا
كم قد أثار من الاسنة أنجمــــا ... لما أثار من العجاج غطاطـــا
فتخاله ملكا رمى بشهابـــــه ... في الزنج شيطان الحروب فشاطا (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ج ١ ص ١٤٣

(*) نسب الابيات أحمد بدوى الى ظافر الحداد (أنظر الحياة العقليه ص (١٢)
والصواب لابن الصياد (أنظر ديوان ظافر ص ٣٧٥)

قال :

توالت علينا في الكتائب والكتب ... بشائر من شرق البلاد ومن غرب
بشائر تهدي للموالي مسرة ... وتحدث للباغين رعبا على رعب
ففي كبد من حرها النار تلتظي ... وفي كبد أحلى من البارد العذب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت ... عليها عتاق الخيل كالنفنف السهب
فقد أصبحت أوعارها وحزونها ... سهولاً توطا للفوارس والركب
ولما غدت لا ماء في جنباتها ... صببنا عليها وابلاً من دم سكب
وجادت بها سحب الدروع من الصدا ... نجيعا فأغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها ... ولكن بحار ليس تعذب للشرب
فقد عمها خصب به من رؤوسهم ... بها ولكم خصب أضر من الجدب
وقد روعتها خيلنا قبل هذه ... مرارا وكانت قبل آمنة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها ... فماقت نواقيسهم الفرنج عن الضرب
وأبطال حرب من كنانة دوخوا ... بلاد الأعادي بالمسومة القب
وعادوا إلينا بالرؤوس على القنا ... وأغناهم كسب الثناء عن الكسب
وإنا بنو رزيك ما زال جارنا ... يحل لدينا بالكرامة والخصب
ونفتك بالأموال في السلم دائما ... كما نحن بالأعداء نفتك في الحرب (١)

كتب إلى أسامة بن منقذ :

بأبي شخصك الذي لا يغيب ... عن عياني وهو البعيد القريب
يا مقيما في الصدر قد خفت أن يسطو ... عليك القلب حرقة ووجيب
وأرى الدمع ليس يطفئ حر الـ ... ـوجد إن جاد غيثه المسكوب

ومنها :

قد علمتم بأن غيث أيادينا على الناس بالنضار سكوب
وبنا يدرك المؤمل ما يرجوه قدما وينقذ المكروب
نحن كالسحب البوارق والرعد لدينا الترغيب والترهيب
تارة نسعر الحروب على الناس وطورا بالمكرمات تصوب
كره الشام أهله فهو معقوق بألا يقيم فيه لبيب
إن تجلت عنه الحروب تليها ... خلفتها زلازل وخطوب
رقصت أرضه عشية غنى الرعد في الجو والغيم طروب
وتثنت حيطانه فأمالتها شمال بزمرها وجنوب
وأرى البرق شامتا ضاحك السن وللجو بالغيوم قطوب

---

(١) ديوانه ص ٥٨

ذكروا أنه تذوب بها السحب … فما للصخور أيضا تذوب
أبذنب أصابها قدرُ اللـه … فلله ترى كالأنام ذنوب
إنّ ظني والظن مثل سهام الـ … ـمرء منها المخطي ومنها المصيب
إن هذا لئن غدت ساحة القدس وما للإسلام فيها نصيب
منزلُ الوحي قبل بعث رسول الله … فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر … وبارى الناقوس فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا … زعموا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب النـاس قوم إلههم مصلوب
لهف نفسي على ديار من السكان أقوت فليس فيها عريب
ولكم حلّها فآنسته أوطان صباه والأهل يوما غريب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثات ضروب
هكذا الدهر حكمه الجور والقصد وفيه المكروه والمحبوب
إن تخصصكم نوائب ما زالت لكم دون من سواكم تنوب
فكذاك القناة يكسر يوم الـروع منها صدر وتبقى كعوب
ولعمري إنّ المناصح في الدين على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقول على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العالية في الأمرين مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعن ولا في الضراب يوما ضريب
وإذا ما حرضت فالشاعر المفلق فيما تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينكر أن التدبير منك مصيب
لك رأيٌ يقظان إن ضعف السرايُ على خاطر الصليب صليب
فانهض الآن مسرعا فبأمثالك ما زال يُدرك المطلوب
وألق عنا رسالة عند نور الدين ما في إلقائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليه … من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للدين شهاب وللحروب شبيب
والذي لم يزل قديما عن الإسلام بالعزم منه تُجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لاقوه يوم من الزمان عصيب
إن يوم نزف حقد عم فاه شطان قناه في كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضيه بفعل وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك فاوضح لنا الآن بماذا عن الكتاب تجيب
قصدنا أن يكون منا ومنكم … أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا … ق بأدناهم الفضاء الرحيب
ولدينا أن يستهل على الشام … مكان الغيوث مال صبيب
أو ترانا مثل السروب ترا … كله من دم العدى مخضوب
لطتين السيوف في فلق الصبح على هام أهلها تطريب

ولجمع الحشود من كل حصن ... سلباً تمهل لهم ونهب
ويحول الاله ذلك ، ومن ... غالب ربي فإنه مغلوب (١)

واجاب طلائع أسامة بن منقذ بقصيدة رداً على قصيدته الطائية ، وحرضه على الجهاد مطلعها :

هي البدر ، إلا الثريا له قرط ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ومنها :

صللنا بها البيض السيوف فإن يخف ... شباب الدجى لما بدا لمعها شمط
سيوف لها في كل درع وجنة ... اذا ما اعتلت قد أو اعترضت قط
ذخرنا سطاها للفرنج ، لانها ... بهم دون أهل الارض أجدر أن تسطو
لهم تسطيهم في الحرب منها ، وطالها ... عليهم لدى الهيجاء عدل ولا قسط
وقد كاتبوا في الصلح ، لكن جوابهم ... بحضرتنا ما ينبت الخط لا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم ... لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
وحرب لها الارواح زاهقة امها ... تباين والاصوات من دهشة لغط
اذا أرسلت فرعا من النقع فاحما ... أتيتا فأسنان الرماح لها مشط
كأن القنا فيها أنامل حاسب ... أجد بها في السرعة الجمع والقسط
رددنا بها ابن الفنش عنا ، وانما ... يثبته في سرجه الشد والربط
فقولوا لنور الدين : ايس لجائف الـ ... ـجراحات الا الكي في الطب والبسط
وحسم أصول الداء أولى لعاقل ... لبيب اذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة ... بها أبدا يخطي سواهم ، ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم ... قديما ، وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فانا قد أعنا بكل ما ... سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا
ودونك مجد الدين عذراء زفها ... اليك الوفاء المحض والكرم البسط
هدايا تهادى بين حسن وفائق ... وانما منا ، ذا التاج زان وذا القرط
على أنها تفتخران هي ما جلست ... (أجيرة قلبي ، ان تدانوا وان شطوا)(٢)

وقال قصيدة أرسلها الى أسامة مكتوبة بخط يده :

أيها المقتدى أنت على البعـ ... ـد صديق لنا ، ونعم الصديق
ليس فيما تأتيه من سر أغصا ... نك للطالب المحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتـ ... ـب تباط اليك مما يليق

(١) ديوانه ص ٦١ ــ ٦٥ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٥
(٢) ديوانه ٨٤ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٨

ونناجيك بالمهمات إذ أنـ ـت بالقائها اليك خليق
واهم الأمور أمر جهاد الكفـ ـر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فأشجا هم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم فأباد القـ ـوم قتل ملازم وحريق
وانتظارنا بزحفنا برء نور الديـ ـن علما منا بأن سيفيق
وهو الآن في أمان من اللـ ـه وما يعتريه أمر يعوق
ما لهذا المهم مثلك ، مجد الديـ ـن ، فانهض به فأنت شقيق
كل له : لا عدا رأي ولا زا ل لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفـ ـار ذاك المرجو والموثوق
فاغتنمها لجهاد أجرك كي تلـ ـقى رفيقا له ونعم الرفيق (١)

وأنشد قصيدة في وصف جيوشه وعدتها ومناعتها وأرسلها الى الامير أسامة بن منقذ :

قل لابن منقذ الذي   قد حاز في الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الأنـ ـام على فضائله عيالا
وقريضه عند الظما   ينسيهم الماء الزلالا
كالدر والياقوت ما   سكن البحار ولا الجبالا
لكن يجاور فيه إيـ ـمان   واحلاما ثقالا
ما كان ظني أن يجو ز منه لي السحر الحلالا
كلا ولا يشكو لحمد رسائل مني كلالا
كم قد بعثنا نحوك الأ   شعار مسرعة عجالا
مثل الحسان الغيد تا هت في محاسنها دلالا
بذلت لك الممنوع ثم   منحتها منك ابتذالا
وصددت عنها حين را مت من محاسنك الوصالا
ما كان من ملها وحقـ ـك يستحق بها الملالا
هلا بذلت لنا مقا لا حين لم تبذل فعالا
من أننا نوليك صبـ ـرا في المودة واحتمالا
ونبيك الأخبار إن   أضحت قصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصـ ـد الشام نعتسف الرمالا
تزجي الى الاعداء جر د الخيل أتباعا توالى
تمضي خفافا للمغا   ر بها وتأتينا ثقالا
حتى لقد راع الاعا   دي من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر   لو يجهدوا فيها القتالا
لما نأت عن يجسف   بها يمونا أو شمالا
نهضت اليها خيلنا   من مصر تحتمل الرجالا

---

(١) ديوانه ص ١٠٣ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٦١

والبيض لامعـــة وبيـــض الهند والاسل النهـــالا
فغدت كأن لم يسهـــدوا في أرضها حيّاً حـــلالا
هذا وفي تل العجـــو ل ملاءن بالقتلى التـــلالا
إذ مر مري ليـــس يلـــوي نحو رفقته اشتغـــالا
واشتاق عسكرنـــا لـــه أهلا يحبهم رجـــالا
وسرية ابن فريـــج الطـــائي طال بهـــا وصـــالا
سارت الى ارض الخليـــل فلم تدع فيها شـــمالا
فلو ان نـــور الديـــن يجـــمل فعلنا فيهـــم شـــمالا
ويسيّر الأجنـــاد جهـــرا كي ينازلهم نـــزالا
ويقي لنـــا ولأهـــل دولته بما قد كان قـــالا
لرأيت للافرنـــج طـــرّا في معاقلها اعتقـــالا
واذا أبـــى الاّ اطّـــراحاً للنصيحة واعـــتزالا
عدنا بتسلـــيم الأمـــور لحكم خالقنا تعالـــى (١)

وكتب بخط يده قصيدة الى أسامـــة :

أيها السائر المجدّ الى الشـــام تبارى ركابه والخيـــول
خذ على بلدة بها دار مجـــد الديـــن لا ريّن ربعها المأمـــول
وتعرّف أخباره واقتـــراه منـــا سلاماً فيه العتاب يجـــول
قل له : أنت نعم فخـــر الصديق اليـــوم ، لكنك الصديق الملـــول
ما ظننا بان حالك فـــي القـــرب ولا البعد بالملال تحـــول
لا كتاب ، ولا جواب ولا قـــو ل به للبقية منا حصـــول
غير أنا نواصل الكتب أذ تصـــدر منك البر الكريم الوصـــول
ذاكرين الفتح الـــذى فتـــح اللـــه علينا ، فالصنع منه جميـــل
لم يزل فعلنا لـــه عالمـــا وهـــو لما شاء في الأنام فعـــول
جاءنا بعد ما ذكرنـــا في كتـــب أتاكم بهن منا الرســـول
أن بحر الاسطول نال مـــن الافـــرنج ما لا يناله التأميـــل
صار في قلة ، وما زال بالملـــه وصدق النيات ينمي القليـــل
وبقايا الاسطول ليس لـــه بعـــد الى ساحل الشام وصـــول
فحوى من عكـــا وانطرطـــوس عدة لم يحط بها التحصيـــل
جمع ديوية بهم كانـــت الافـــرنج تسطو على الورى وتصـــول
تيد في وسطهم فقد منهـــم يهـــدى الينا ، وجيد مغلـــول
بعد مثوى بجماعة ملكـــت بالســـيف منها الغريق والمقتـــول
هذ منحة الإله وتعد يـــد أيادي الاله شيء يطـــول
بلغوا قولنا الى الملـــك العـــادل ، فهو المرجوّ والمأمـــول

---

(١) ديوانه ١٢٤ ـ ١٢٦

قل لمن : كم تماطل الدين في الكفار ، فاحذر أن ينصب المطول
سر الى القدس واحتسب ذلك في الله ، فاليسير منك يشفي الغليل
واذا ما أبطأ مسيرك فالله اذاً حسبنا ونعم الوكيل (١)

وقال إثر وحشة حصلت بين نور الدين محمود بن زنكي وبين قلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم أدت الى الحرب والتطاحن والتضاغن ، فعندما بلغ خبرها الى مصر كتب الابيات عنده الى قلج أرسلان ، ينهاه عن ذلك :

نقول ، ولكن أين من يتفهم
وما كل من قاس الامور وساسها
وما أحدٌ في الملك يبقى مخلدا
أمن بعدما ذاق العدى طعم حربكم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم
أما عندكم من يتقي الله وحده
تعالوا ، لعل الله ينصر دينه
وننهض نحو الكافرين بحزمة

ويسلم وجه الرأي ، والرأي مبهم
يوفّق للأمر الذي هو أحزم
وما أحدٌ مما قضى الله يسلم
بفيئهم ، وكانت وهي صاب وعلقم
وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما في رعاياكم من الناس مسلم
اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
بأمثالها تحوى البلاد وتقسم (٢)

وأرسل الى أسامة بن منقذ قصيدة صور فيها حال الغزاة ، وحرض فيها نور الدين على قتال الصليبيين :

الا هكذا في الله تمضي العزائم
وتستنزل الاعداء من طود عزهم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما
بعثناه من مصر الى الشام قاطعا
وناهيك من أرض الجفار التظى بها
وصارت عيون الماء كالعين عزة
فما ناله بعد الديار ولا شفى
يهجّر والعصفور في قعر وكره
اذا ما طوى الرايات وقت مسيره
تباري خيولاً ما تزال كأنها
فان طابت مصرا تساوين مرتعة
هي الدهم الوانا ، وحبّ عجاجة

وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وليس سوى سمر الرماح معالم
ويوطا حماها والانوف رواغم
وان بذلت فيه النفوس الكرائم
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
بجنبيه شبوب من القيظ باحم
اذا ما أتاها العسكر المتراحم
عزيمته جهد الظما والسمائم
ويسري الى الاعداء والنجم نائم
غدت عوضا منها الطيور الحوائم
اذا ما هي انقضت نسور قشاعم
قوادمها في جوها والقوائم
فان حاربت أعداءها فالادهم

(١) ديوانه ص ١٢٨ والروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٩٦
(٢) ديوانه ص ١٣٣ ، الكامل ١١ / ٣١٨

تصاحبها علما بأن سوف تقتدي … بها ، ولها في الكافرين مطاعم
كما أن وحش القفر ما زال منهم … مدى الدهر أعراس لهم وولائم
خيول اذا ما فارقت مصر تبتغي … عدىً ، فلها النصر المبين ملازم
يسير بها ضرغام في كل مأزق … وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ورنقتعين الزمان وحاتم … ويحيى ، وان لاقى المنيّة حاتم
مضى طاهر الاثواب من كل ريبة … شهيدا كما تمضي الهداة الاكارم
هنيئا له ، يسقى الرحيق اذا غدت … تحييه في الخلد الحسان النواعم
ولو أننا نبكي على فقد هالك … لقلت له منا الدموع السواجم
ولكننا بعنا الاله نفوسنا … ورحنا ، وما منّا على البيع نادم
تهون علينا أن تصاب نفوسنا … اذا لم تصبنا في الحياة المآثم
وما خام اذ لاقى همام وصنوه … عشية أصوات الرجال هماهم
(ويرتية) شاموا السيوف ، فلم تعش … ابارقها في ساحة الشام شائم
وأبناء جند لو توجه جمعهم … لرومة دالت عليها المقاسم
وجمع مماليك بأفعالنا اقتدوا … نكلهم بالطعن ، والضرب عالم
(وسنبر) قد شادوا المعالي بفعلهم … وليس لهم الا المعالي دعائم
و (ثعلبة) أضحوا بنا قد تأسدوا … فما لهم في المشركين مقادم
وان (جذام) لم يزل قط منهم … قديما لحبل الكفر بالشام جاذم
جيوش أعددناها اعتزاما ونجدة … فطاعننا منهم ، ومنا المزاحم
اذا ما أثاروا النقع فالنقع عابس … وان جردوا الاسياف فالثغر باسم
ولما وطوا أرض الشام تحالفت … فأضحت جموعا عربها والاعاجم
وواجهم جمع الفرنجة بعدما … تهون على الشجعان منها العزائم
فلقوهم زرق الاسنّة ، وانطووا … عليهم ، فلم ينجم من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها … اذا ما تلاقى العسكر المتصادم
يشتتهم من لاح جمعهم له … بلجّة بحر ، موجها متلاطم
وحسبك أن لم يبق في القوم فارس … من البيض الا وهو للرمح حاطم
وعادوا الى سل السيوف فقطعت … رؤوس ، وحُزّت للفرنج غلاصم
غلمينج منهم يوم ذاك مخبّر … ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم
كذلك ما ينفك تهدى الى العدى … وللوحش أعراس لهم ومآتم
وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا … بداهية تبيضّ منها القوادم
نقتلهم بالرأي طوراً ، وتارة … تدوسهمُ منا المذاكي الصلادم
وما الحازم المحمود الا الذي يرى … من الحزم في أحواله ، وهو حازم
وقد غرق الكفار منه بقطرة … سحاب انتقام عندنا متراكم
فكيف اذا سالت عليهم سيولنا … وجاست لنا تلك البحار الخضارم
وما نحن الاسلام للشرك هازم … ولكننا الايمان للكفر هادم
فقولوا لنور الدين : لا فلّ حدّه … ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
تجهزْ الى أرض العدو ، ولا تهنْ … وتظهرْ فتورا ان مضت منك صارم
فما مثلها تبدى احتفالا به ، ولا … تسيل عليها للملوك الاباهم

فعندك من ألطاف ربك ما بـه … علمنا يقينا انه لك راحم
أعادك حيا بعد أن زعم الورى … بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها … وحلت بها تلك الدواهي العظائم
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر … فسيقت سبايا ، وأستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشام وهلكه … ومن يحتويه أنه لك عادم
نعم ، واشكر الله الكريم بنهضة … اليهم ، فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم … ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تغتر عنهم … وليس ينجي القوم منها الهزائم
وأسطولنا أضعاف ما كان سائرا … اليهم ، فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأن نجتاح بالبهم بيه … وتحوى الأسارى منهم والغنائم
على أننا نلنا من المجد ما به … نفاخر أملاك الورى ونقاوم
ولكننا نهني المثوبة جهدنا … وطاقتنا ، والله معط وحارم
ونختم بالحسنى الفعال ، وإنما … تزين أعمال الرجال الخواتم (١)

وكتب الى أسامة بن منقذ في وصف غزو جيوشه للفرنج :

يا سيداً يسمو بهمـــته الى الرتب العليه
فينال منها حين يحسـم غيره أوفى مزيه
أنت الصديق وإن بعد … ت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيك أن جيوشنا … فعلت فعال الجاهليه
سارت الى الأعداء من … أبطالها مائتا سريه
فتبير هذى بكرة … وتعاود الاخرى عشيه
فالويل منها للفرنـــج فقد لقوا جهد البليه
جاءت رؤوسهم تلو … على رؤوس السمهريه
وبدائن قد قسمت … بين الجنود على السويه
وخلائق كثرت من الأسرى تقاد الى المنيه
فانهض ، فقد أنبيت مجـــد الدين بالحال الجليه
المؤثر الدين وأعلمـــه بهاتيك القضيه
فهو الذى ما زال يخلص … منه أعمالا ونيه
ويبيد جمع الكفر بالبيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة … يفني بها تلك البقيه
أما لنصرة دينه … أو ملكه أو للحميه (٢)

---

(١) ديوانه ص ١٣٥ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٢) ديوانه ص ١٧٢ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٠

قال حين سمع تأويل منام بإعلان الخلافة العباسية بمصر قصيدة منها :

لتهنك يا مولى الأنام بشـــــارة ... بها سيف دين الله بالحق مرهـــف
ضربت بها هام الأعادي بهيبـــة ... تقاصر عنها السمهري المثقـــف
بعثت الى شرق البلاد وغربهـــا ... جنودا من الآراء تحيي وتتلـــف
فقامت مقام السيف والسيف قاطـــر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعـــف
وقدت لها جيشا من الروع هائـــلا ... الى كل قلب من عداتك يزحـــف
ملكت به أقصى المغارب عنـــوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجـــف
ليهنك يا مولاي فتحا تتابعـــت ... اليك به صور الركائب توجـــف
أخذت به مصرا وقد حال دونهـــا ... من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبـــة ... يسابق التقى والدين منهم ويأنـــف
فطهرتها من كل شرك وبدعـــة ... أغر عزيز بالمكارم يشغـــف
فعادت بحمد الله باسم امامهـــا ... تتيه على كل البلاد وتشـــرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصـــره ... وكانت الى علياته تتشـــوف
تملكها من قبضة الكفر يوســـف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسـف (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٠

قال المهذب بن الزبير يمدح طلائع بن رزّيك بقصيدة : منها :

وما أضطهمت رماح الخط إلا ... مخافة أن يحطمها جبينا
وما تندق يوم الروع حتى ... يدق بها الكواهل والمتونا
عجبت لها تصافح من يديه ... وتوصف بالظماء بحرا معينا
ويوردها ولا يخطى بسراي ... نطافا من دروع الدار عينا
وهل يشفى لها أبدا غليل ... وقد شربت دماء الكافرينا
اذا لقيت عيون الروم زرقا ... حسبت نصالها تلك العيونا
وثائر في العداة له تبار ... ضغائن في العفاة المجتدينا
وأرغم به أبكى عيونا ... وأنعام أقر به عيونا ... (١)

وقال فيه أيضا ، يصف أسطوله ونصرته على الروم سنة ٥٥٣ :

اعلمت حين تجاور الحيان ... أن القلوب مواقد النيران ؟
يا كاسر الاصنام قم فانهض بنا ... حتى تصير بكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت تراثه ... عن قومك الماضين من غسان
فاذا شككت بأنها أوطانهم ... قدما فسل عن حادث الجولان
أو رمت أن تتلو محاسن ذكرهم ... فاسند روايتها الى حسان

ومنها في وصف الزلزلة :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك مما ... بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما ... أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود اذا غدا ... لسماك يسجد شامخ البنيان
ولقد بعثت الى الفرنج كتائبا ... كالاسد حين تصول في خفان
لبسوا الدروع ولم تحل من قبلهم ... أن البحار تحل في غدران
وتيمموا أرض العدو بقفرة ... جرداء خالية من السكان
عشرين يوما في القفار وليلة ... يسرون تحت كواكب الخرصان
حتى اذا قطعوا القفار بجحفل ... هو في الحديد ورمله سيان
أغرتهم بحمى العدا فجعلته ... بسطاك بعد المزدار نشوان
عجلت في تلك الحجول قراهم ... وشم لك الضيفان - بالذ يفسان
لما أبوا ما في الجفان قريتهم ... بصوارم سلت من الاجفان
وثللت في يوم العروبة عروشهم ... يشبا شراب صادق وطعان

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٠٥

الجاتهم للبحر لما أن جـــــرى   منه ومن دمهم معا بحـــــران
مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبـــا   في يوم حربهم من الأقـــران
ولأنت تخضب كل بحر زاخـــر   من تجارب بالنجيع القانـــي
حتى ترى دمهم وخضرة مائـــه   كشقائق نثرت على الريحـــان

ومنها في وصف الاسطول :

وكأن بحر الروم خُلِقَ وجهـــه   وطفت عليه مناهت المرجـــان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بمـــا   لم يأت في حين من الأحيـــان
أحبب الي بها شواني أصبحـــت   من فتكها ولها العداة شوانـــي
شبهن بالغربان في ألوانهـــا   وفعلن فعل كواسر العقبـــان
أوترتها عدد القتال فقد غـــدت   فيها القنا عوضاً من الأغصـــان
فأتتك موقرة بسبي بنيـــه   أسراهم مغلولة الأذقـــان
حرب عوان حكمتك من العـــدا   في كل بكر عندهم وعـــوان
وأتت رسل ابن القسيم اليه تسعـــى   شعبان كي يقضي الشعبـــان
والفال يشهد باسمه أن سوف يغـــدو   الشام وهو عليكما قسمـــان

ومنها في مدح نور الدين ووصف قتله للبرنس :

وأراك من بعد الشهيد أبا لـــه   وجعلته من أقرب الإخـــوان
وهو الذي ما زال يفصل في العـــدى   ما لم يكن ليسد في الإمكـــان
قتل البرنس ومن عساه أعانـــه   لما عتا في الغي والعـــدوان
وأرى البرية حين عاد برأســـه   مر الجني يبدو على المـــران
وتعجبوا من زرقة في طرفـــه   وكأن فوق الرمح نصلا ثانـــي
فليهنه أن فاز منه بسيـــد   أوفى برتبته على كيـــوان
قد صاغ من أرواحه لمآبـــه الإمـــارة أقراطا من الخرصـــان
والخيل تسلم في الكريهة أنـــه   قد حط هيكلها على الفرســـان
عجبا لجود يديه اذ يبني العـــلا   والسيل يهدم ثابت الاركـــان (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٢١٠ ، وأنظار الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٢٧٥

عرقلة الكلبي ـ ٥٦٧ هـ

قال يمدح الامير معين الدين أنر الطغتكي ، وقد وجّه يستنجد بالافرنج :

تضاعف وجدي بعد بعد الحبائب ... وقد حجبوا عني قسي الحواجب
وقد أفلت تلك الكواكب لم تزل ... موكلة عيني برعي الكواكب
فما آيب للهم عني برائح ... ولا رائح للهم عني بآيب
ونادبة ناحت سحيرا بأيكة ... فهيّجت الوسواس في قلب نادب
تنوح على غصن ، وأنوح لمثله ... وهل حاضر يبكي أسى ، مثل غائب
بواد ، بوادي الخوطتين ، ربوعه ... ربيعي ، ومن ذاك التراب ترائبي
يزيد احتراقي واشتياقي اليهم ... اذا صاح بي : عرّج على الدار صاحبي
وأهوى عواشا من رياض أنيقة ... تعترضني عنها صروف النوائب
تظل ثغور الاقحوان واحكها ... اذا ما يكتنفها عيون السحائب
كأن لموع البرق في جنباتها ... سيوف معين الدين بين الكتائب
فتى لم يعد حتى تعفر ترنه ... كأن نهايه الضرب ضربة لازب
حشيته سرج على ظهر سابح ... وحلته درع على غير ضارب
غدا في المعالي راغبا غير زاهد ... وفيما سواها ، زاهدا غير راغب
يظن صلاح الدين فرسان جلق ... كفرسانه ، ما الاسد مثل الثعالب
غدا تدلل الشام الفرنج بفيلق ... مسودة أبطاله للمصائب
رجال اذا قام الصليب تصلبت ... رماحهم في كل ماش وراكب
لها الليل نقع ، والأسنة أنجم ... فما غير أبطال وغير جنائب (١)

وقال يمدح الامير مجد الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين :

عز على نجد لملك منجدي ... بنسيمها ، ويذكري سعدى ، معهدي
بدوية الالفاظ دون خيامها ... خيل تروح الى الطعان وتغتدي
قد كان يغني لحظها وقوامها ... عن كل خطي ، وكل مهند
ياسائلي ، إن دمع عيني سائل ... دع الحديث عن الغزال الاغيد
من لي بمعسول الثنايا عذبها ... لدن كغصن البانة المتأود
أبداً شواه لي مقيم مقعد ... روحي فداه ، من مقيم مقعد
ولقد نعمت بوصله في سرب ... ألف الربيع بروضه الغض الندي
أزهاره من جوهر ، ونسيمه ... من عنبر ، وثماره من عسجد
وعلى الغصون من الحمائم قينة ... تغنيك عن شدو الغريض ومعبد

---

(١) ديوان صفحة ٥ ـ ٦

والماء في بردى كأن حبابه … برد جنته الربيع غير مسرد
بينا تراه كالسجنجل ساكنا … حتى تراه أجعدا كالمبرد
وكأنما أنفاس ريّاه تنسا … أبق الهمام الماجد بن محمد
ملك تشرفت المنابر باسمه … وعلت مناقبه فويق الفرقد
وعلى الأسرة من أسرة وجهه … شمس تجلت من بروج الاسعد
ما نشرت راياته يوم الوغى … الا انطوى جيش العدو المعتدي
من قاتل الافرنج دينا غيره … والخيل مثل السيل عند المشهد
رد الامان بكل ندب باسل … ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومنا السيوف بكل عضب أبيض … ومن السجان بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه … وغدا بحمد من شريعة أحمد
طلق المحيا واضح متهلل … مثل السها فهو المنى طلع اليد
كسد القريض وكان قدما نافقا … في ذا الزمان وعنده لم يكسد
أمير دين الله وابن جماله … والسيد بن السيد بن السيد
كم حاسد لك في الشجاعة والندى … والعلم لا قرت عيون الحسد
أضحت دمشق بحسن وجهك جنة … فيها الذي شناك غير مخلد
لا زلت للاسلام عضدا ما سرت … بعد الكرى شدنية فهو غدغد (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب :

الام الام فيك وكم أعادي … وأمرض من جفاك ولن أعادا
لقد ألف الضنى والسقم جسمي … وعيناي المدامع والسهادا
وها أنا قد وهى صبري وشوقي … اذا ما قلت الاشواق زادا
بقلبي ذات خلخال وقلب … تملئه غوى ما مني الفؤادا
مهفهفة كأن قضيب بان … تثنى في غلائلها ومادا
بوجه لم يزد الا بياضا … وشعر لم يزد الا سوادا
تعجب عاذلي من حر حبي … ومن يرد السلو وقد تمادى
ولا عجب اذا ما آب حر … بآب ومن جماد في جمادى
وقد أنساني الشيب الغواني … فلا سعدى أريد ولا سعادا
وهل أخشى من الانواء بخلا … اذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبق صلاحا … وللأموال لم يبق فسادا
هو المعروف بالمعروف حقا … جواد لم يهب الا الجوادا
به الاشعار قد عاشت نفاقا … وعند سواه قد ماتت كسادا

---

(١) ديوانه صفحة ٢٤ ـ ٢٦ الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٠

يحب الخمسة الأشباح دينـــــا ... وما يهوى زيدا أو زيـــادا
لئن أخطأ منور الدين حصنـــا ... فإن الله أعطاه البـــلادا
الى كم ذا التواني في دمشـــق ... وقد جاءتكم مصـــر تهـــادى
عروس بعلها أسد هصـــور ... يصيد المعتدين ولن يصـــادا
الا يا معشر الاجناد سيـــروا ... وراء لوائه تلقوا رشـــادا
وما كل امرئ صلى مـــن الناس ... مأمونا كمن صلى فـــرادى (١)

وقال يمدح صلاح الدين الأيوبي ، وقد وعده بألف دينار ان ملك مصر :

قل للصلاح ، معيني عند اعســـاري ... يا ألف مولاي أين الألف دينـــار
أخشى من الأسر ان حاولت أرضكـــم ... وما تفي جنة الفردوس بالنـــار
فجد بها عاضديات مبطـــرة ... من بعض ما خلف الطاغي أبو العـــار
حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكـــم ... عتقا ثقالا كأعدائي وأطمـــاري (٢)

وكتب الى صلاح الدين من قصيـــدة :

اليك صلاح الدين مولاي أشتكـــي ... زمانا على الحر الكريم يجـــور
ترى أبصر الألف التي كنت واعـــدي ... بها ، في يدي ، قبل الممات تصـــير
وديهات والافرنج بيني وبينكـــم ... سياج ، قتيل دونه وأســـير
ومن عجب الايام انك ذو غـــنى ... بمصر ، واني في دمشق فقـــير (٣)

---

(١) ديوانه صفحة ٣٠ ــ ٣٢ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٦ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٦ ورقة

(٢) ديوانه صفحة ٤٩ ــ ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشـــام جـ ١ / ١٧٨

(٣) ديوانه ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٢٠٨

قال يمدح شاوَر بعد أن رحل شيركوه عن بلبيس وعاد الفرنج الذين ساعدوا شاور الى ديارهم:

وأنقذت من مصر عدوا يمثلـــــــــه | فلله من ظفر ثلث ونصــــــــــاب
صدمت جموع الكفر والشام صدمــــة | أقمت بها للقوم سوق ضـــــراب
وقد جودت أجناد مصر عزائمـــــها | مضاربها في الصخر غير نوابـــي
تولوا عن الافرنج فادع قتلهـــــا | ودارت رحاها منهم بهضـــــاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلــــة | ثيابا لهم ، ما بدلت بثيـــــاب
وهم بين مطروح هناك وطـــــارح | وبين مصيب خصمه ومصـــــاب (١)

وقال يمدح طلائع بن رزّيك من قصيـــدة :

تيقنت الافرنج أنّك إن تــــــرد | ديارَهم لم ينجهم منك مهــــرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعمـــا | فجاءتك بالاسد الشرى تتغلـــب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهـــــم | ومن بعض ما أهدوا مجن ومقضـب
وذلك قال صادق أن عزمــــــم | بسيفك يا سيف الهدى سوف يُسلب (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٥ هـ :

منْ شاكرٌ والله أعظم شاكــــــر | ما كان من نعمى بني أيـــــوب
طلب الهدى نصرا ، فقال ، وقد أتــوا | حسبي ، فانتم غاية المطلـــوب
جلبوا الى دمياط عند حصارهـــم | عز القوي وذلة المغلــــوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربــــة | لو لم يجلوها أتت بكــــروب
فالناس في أعمال مصر كلهـــا | عتقاؤهم من نازح وقريـــب
ان لم تظن الناس قشرا فارغـــا | وهم اللباب ، فانت غير لبيـــب (٣)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٤ :

ملكٌ صلاح الدين ، لا توّضـــت | أطنابه ، ملك التقى والصـــلاح
سيرة عدل حسّنت عندنـــا | ما كان من وجه الليالي القبـــاح
سائر في الدنيا وأقطارهـــا | ذكر غدا عنه بهيـــــة وراح

(١) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧
(٢) النكت المصريه ص ١٧٦
(٣) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧ وانظار عقد الجمان جا ١ ق ٣ ورقه ٤٥٧

قل لابن أيوب ، وكم ناصـــح ... أنفى من هو شاكي السـلاح
حاربْ على مثل نجوم السمـــا ... فملك مصر ما عليه اصطـلاح
قولا لمن في عزمه فـــترة ... ارجع الى الجدّ وخلّ المـزاح
فالقدس قد أذن اغلاقـــه ... على يدي يوسف بالانفتـاح (١)

وله في صلاح الدين أيضا :

لك الحسبُ الباقي على عقب الدهـر ... بل الشرف الراقي الى قمة النسـر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سمـت ... بهمة العليا الى شرف الذكـر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضـة ... أقلتم بها الأقدام من زلة العثـر
كشفتم عن الإقليم غمته كمـا ... كسفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقـر
حميتم من الافرنج سرب خلافـة ... جريتم لها مجرى الأمان من الذعـر
ولما استغاث ابن النبيّ بنصركـم ... ودائرة الأنصار أضيق من شبـر
جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجـا ... وما اشتقت الأنصار إلا من النصـر
كتائب ، في جيرون منها أواخـر ... وأولها بالنيل من شاطئ مصـر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصـره ... أشاءت ، وكان الدين ليلا بلا فجـر
وآبت اليكم يا ابن أيوب دولـة ... تراسلكم في كل يوم من النصـر
حمى الله فيكم عزمة أسديـة ... فككتم بها الاسلام من ربقة الأسـر
أشد على الافرنج كل ثنيـة ... وقلتم لأيدي الخيل مُرّي على مُـرّ
لئن نصبوا في البر جسرا فانكـم ... عبرتم ببحر من حديد على بحـر
طريق تقارعتم عليها مع العـدى ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخـر
وأزعجه من مصر خوف يلـزه ... كما لزّ مهزوم من الليل بالفجـر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتهـا ... بسيفك لم تترك لغيرك من عـذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العـدى ... ولكنها بالجود جابرة الكسـر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكـم ... وأنت له خير الذخائر والذخـر
ومن كنت معروفا له فاستفـزه ... بمثلك تيه فهو في أوسع العـذر
فكيف أب أصبحت نار زنـاده ... وإلا كنور البدر من سنه البـدر
توفر وسط الندى كرامـة ... وتخمل عنه ما يؤود من الوقـر
وتخلفه حربا وسلمـا خلافـة ... تؤلف أضدادا من الماء والجمـر
وكم تمت في بأس ، وجود ، ورتبـة ... بما سرّه في الضرب ، والدست ، والنشر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقـم ... لنسرتكم بالمستحق من الشكـر
يد لا يقوم المسلمون بشكرهـا ... لكم آل أيوب الى آخر الدهـر
بكم أمّن الرحمن أعظم يثـرب ... وأمّن أركان الثنية والحجـر
ولو رجعت مصر الى الكفر لانطـوى ... بساط الهدى من ساحة البر والبحـر
ولكن شددتم أزره بـوزارة ... غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنيتم فتحا تقدم جلـه ... وبشرى أن الكلّ يتلو على الإثـر

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤١٤

وما بقيت في الملوك الا بقيــــــة ... تتمتها في ذمة البيض والسمـــر
وعند تمام الملك آتي مهنئــــــا ... وملتمساً أجر التهانئة والزجـــر
ولولا اعتقادي أن مدحك قربــــة ... أرجي بها نيل المثوبة والاجـــر
لما قلت شعرا بعد افناء خاطـــري ... ولي سنوات منذ تبت عن الشعـــر
فاوص بي الايام خيراً ، فانهــــا ... مغرية بالنهي منك وبالامـــر
وجائزتي تسهيل إذني عليكـــــم ... وملقاكم لي بالطلاقة والبشـــر (١)

وقال يمدح صلاح الدين أيضاً سنة ٥٦٦ هـ ويذكر غزوه للداروم بقصيدة منها :

لمن بني أيوب أن علوا بمـــــا ... تظلمت منه ان يرقوا ويشفقـــــوا
غزوا عقر دار المشركين بغـــزوة ... جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطـــرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعـــن ... يغيض إناء البر منه ويفهـــــق
وكانت على ما شاهد الناس قبلكـــم ... طرائق من شوك القنا ليس تطـــرق
وما عصمتهم منك الا معاقـــــل ... تأنوا على تحصينها وتأنقـــــوا
لبست لهم سورة الحرب ما التقـــى ... بوادره سور عليهم وخنـــــدق
واخربت من اعمالهم كل عامـــــر ... يمر به طيف الخيال فيفـــــرق
اضفت الى أجر الجهاد زيـــــارة الـــــخليل ، فابشر انت غاز موفـــق
وهيجت للبيت المقدس لوعـــــة ... يطول بها منه اليك التشـــوق
تنفس منهلقاك أعظم نفحــــــة ... تطيب على قلب الهدى حين تنشـــق
وغزوك هذا سلم نحو فتحـــــه ... قريبا ، والا رائد ومطـــــرق
هو البيت ، ان تفتحه ، والله فاعـــل ... فما بعد باب من الشام مغلـــق (٢)

وقال يرثي الدولة الفاطمية بقصيدة أولها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلـــل ... وجيده بعد حلي الحسن بالعطـــل

ومنها :

يا عاذلي في هوى ابناء فاطمـــة ... لك الملامة ان قصرت في عذلـــي
بالله زر ساحة القصرين وابك معـــي ... عليهما ، لا على صفين والجمـــل
وقل لاهلهما ، والله ما التحمـــت ... فيكم قروحي ، ولا جرحي بمندمـــل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلـــة ... في نسل آل أمير المؤمنين علـــي
هل كان في الامر شيء غير قسمة مـــا ... ملكتم بين حكم السبي والنفـــل (٣)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤١٢ وانظر الكتب المصرية ٢٦٩ ـ ٢٧١ والكامل ١١ / ٣٠٠

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩١ (٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٧٠

وقال يمدح طلائع بن رزّيك منقصيدة :

ولما تشكّى الحوف حيفا على الهدى — وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهدتَ الى الإفرنج تزجي كتائباً — تغلّ بها أعناقهم وتغال
تولّوا وقد أبقت عليهم نفوسهم — سباسب حالت دونهم ورمال
وأتبعتهمْ ركناً على كل سابح — اذا الريح كلّت لم يصبه كلال
جياداً اذا جردتها يوم غارة — فليس لها غير الوشيج ظلال (١)

وقال يمدح أمير الجيوش شاورا عند رجوعه من حصار بلبيس، والافرنج صحبته :

وتداركتْ بلبيس منك عواطف — بيع الزمان وأهله غفرانها
أقسمتُ لولا حسنُ رأيك لاغتدى الناقوس في بلبيس وهو أذانها
بلد لو انهدمت قواعد سوره — بيد النصارى لم يسد بنيانها ... الخ (٢)

---

(١) النكت المصرية ص ٣٠٧
(٢) النكت المصرية ص ٣٦٩

قال يمدح صلاح الدين عند وصوله إلى دمشق وملكها سنة ٥٧٠ بقصيدة أولها :

قد جاءك السعد والتوفيق واصطحبا — فكن لأمثال هذا النصر مرتقبا

ومنها :

لله أنت صلاح الدين من أسد — أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلّق ثغرا لا نظير له — فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها — وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد — أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الإسلام فاتضحت — سبيله ، وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور ، والإيمان قد هزمت — جيوشه ، كان فيه الجحفل اللجبا
أبت لك الضيم نفس مرة ويد — عالة ، وفؤاد قط ما وجبا
يستكبر المدح يتلى في مكارمه — زهدا ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والإسكندرية قد — أسارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست — آثاره وعفت آياته حقبا

ومنها :

هو الجواد ولكن لا يقال كبا — وهو الحسام ولكن لا يقال نبا
وهو الهزبر ولكن لا يقال طغى — وهو الغمام ولكن لا يقال خبا
فأنت إسكندر الدنيا ووارثها — فاقصد ملوك خراسان ودع حلبا (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٢٤١ ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦
وعقد الجمان ج ١١ ق ٢ ورقه ٥٧٠

قال يمدح صاحب بصرى بقصيدة أولها :

خانَ الصريم لواصفي آرامه ... وغزاله لمُتيّمٍ بجفائه

ومنها في المديح :

أسد ولكن من براثن كفه ... بيض الظبا والسمر من آجامه
لو لم يكن أحد الضراغم لم يكن ... كسر الكماة الشوس من الهامه
سائل به يوم الظليل فانه ... يوم تجلى عنه من أيامه
اذ جاءه جيش الفرنج منظما ... فسطا اليه فحل عقد نظامه
وغدا يحدث في الهجا مع كفرهم ... بالبأس والسطوات عن اسلامه
ولعبارض القدس فيهم وقعة ... سلبت ملوكهم لذيذ منامه
كم جحفل للشرك ثم بحربه ... فأحل حد الرمح صدر حمامه
فبنور شمس الدين قد كشفت من السكفر المروّع حالكات ظلامه
فالليث في سرباله والغيث بين بنانه والبدر تحت لثامه
طاء المنايا والمنى في كفه ... بحار ووثوق الطارق من أقلامه
حاز المفاخر والنهى في مهده ... وسما الى العلياء قبل فطامه
لاريحية والندى في عطفه ... فمل يقصر عنه فضل مرامه
وتهز عطفيه المدائح هزة ... كعواسل المران يوم زحامه
يغنيك في العام الجديب بجوده ... عن غيث ابحره وجود غمامه
كرم غدا هذا الزمان لكل ذى ... أمل يروض به نفوس كرامه (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ج ١ ص ٢٣٥

أنشد الملك الناصر صلاح الدين قصيدة منها :

سيُرْتَقُ فتقُ هذا المُلْكِ منه ... تواضُبُ ، للرؤوس بها انتصاب
ويمرع بالبوار جناب قوم ... لهم عن نصرة الدين اجتناب
فلا تقبلْ لهم ، ما عشتَ ، عذرا ... وإنْ خضعوا لديك وإنْ أنابوا
هم حشدوا عليك بكل واد ... عصائب ، بالضلال لها اعتصاب
وجيشا ظل دهائك على اغترار ... صلاح الدين ، عاجله الجواب
بأرعن مثل رعن الطود مجر ... تضيق به من الأرض الرحاب
خميس موكب ترضى البيض عنه ... اذ زأرت ضراغمه الغضاب
تكرّ على الصقور به أسود ... عليها القنا الخطيّ غاب
كأن نثار تسطلة عليهم ... اذا طلعت شموسهم ضباب
فلما أقدموا للطعن ولّوا ... ولما أيقنوا بالنجح خابوا
ظفرت أبا المظفر بالأعادي ... وقلّ منهم ظفر وناب
وكانوا كالحديد ، فحين أصلوا ... صلاح الدين ، نار سطاك ذابوا
أصابوا بالهزيمة مستحين ولصوا ... ولو وفقوا الغداة لما أصابوا
غداة هزمتهم ظلوا وتابوا ... غنيمتنا السلامة والإياب

ومنها :

وما ضحكت ثغور الشام إلّا ... وفيها من محاسنكم رضاب
بأوجهكم كواكبها الدراري ... وأيديكم مشاربها العذاب
عممتم بالمواهب كل ثغر ... بذبٍّ لا يقل له ذباب
أطرتم عنه عادية الأعادي ... كما طارت من الريح الذباب
وعلتم فالعذاب بكم نعيم ... وسلتم فالنعيم بكم عذاب
سيشكر منكم عنه رجال ... لهم فيكم دعاء مستجاب (١)

وأنشد في مجلس السلطان صلاح الدين يحرضه على الوحدة والجهاد ضد الأعداء سنة ٥٧١ هـ بقصيدة طويلة أولها :

لا يقصدنّك ما حلوا وما عقدوا ... هم الذئاب ، وأنت الضيغم الأسد
كم يخدعون بروقا ما بها مطر ... ويقصفون رعودا ما بها برد
والقوم قد قعدوا عما نهضت به ... من السداد ، فلا قاموا ولا قعدوا
فلا ثياب المعالي فوقهم جدد ... ولا طريق الأماني نحوهم جدد

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١ / ٤٦٦

إياك تغفل عنهم مثل ما غفلوا
ماذا الكرى يا صلاح الدين عن أرق
ولهان تزمز نار في جوانحه
لا يستطيع اهتداءً فهو مرتبك
مغيب السعي لا يقتاده ظفر
فكيف يرقى خوفا وهو مشتبك
لما رآك وقد أقبلت تقدمها
ألقى السلاح وما فلت ظبى قضب
وراح من بعد ذاك الجمع منفردا
يطوي الحزون فيطويه وينشره
وفي شباه الذي أغمدته فلل
وحول عزل لو أنهم تسددوا
خانوا فخانوا ، وما حازوا الذي طلبوا
لما دعوت أجبت القوم في لجب
حتى اذا ما رأوا في الدرع منك فتى
صدوا وما عطفوا ، الووا وما وقفوا
فرقتهم فرقا فاستحلوا فرقا
سددت ما شعبوا ، قطعت ما وصلوا
حقنت منهم دماء او تراق جسرت
عفت من قتلهم يوم الوغى فنجوا
فهم عبيدك إن لانوا وإن خشنوا
وإن أساءوا فأحسنت الصداة بهم
أوسعت فرعونهم لما طغى غرقا
حباية البيض والبيض الحداد له
اذا تلاحمن من السابغات به
عرمرم كالدجى الطيار منتشر
اذا تهددت الى أرض العدو به
تسمو عليه سماء من عجاجته
سماء نقع لشيطان العدو بها
وفي دياجيه نار من حوارمه
نار تشب على أيدي مطارفة
شم العرانين في أفعالهم رشد
ما جن عبقر جن كلما عزفوا
من كل أروع ، أما رمحه ثمل
في كل يوم جلاد لو ألم به
شم بالشآم سيوفاً من عزائمه

إياك ترقد عنهم مثل ما رقدوا
من قبل سيفك قد أودى به الصيد
يشبها القاتلان : الخوف والكمد
حيران فيه ، وفي آرائه أود
مضلل الرأي لا يقتاده رشد
أم كيف يملك أمرا وهو مفتقد
أسدا عرائنها الاقدام والعدد
تفري الرؤوس ، ولا دقت قنا ملد
ومن نجاك بجمع سوف ينفرد
حزن له منه وجد فوق ما يجد
وفي شباه الذي أفلقته ثمد
أضحى القنا وهو في لباتهم قصد
خابوا فآبوا وما نالوا الذي قصدوا
السيف ناصره والواحد الصمد
كأنه من ثبات في الوغى أحد
ولوا وما رجعوا ، ذلوا وما أسدوا
بظاهر القرن ، والأقران تطرد
قللت ما حشدوا ، حللت ما عقدوا
منها مدود لها من دمائهم مدد
ولو ترى القتل رأيا ما نجا أحد
وإن أتوا بما أوليت أو جحدوا
سنا يحدث عنه الناس والنجد
بزاخر : لجتاه النقع والنجد
شلو ، وأمواجه لما طغى الزبد
على الكماة عليه من دم زبد
تحصي الرمال ولا يحصى له عدد
لم يبق من مائها غمر ولا ثمد
مبنية من قناة تحتها عمد
من الاسنة شهب كلها رصد
تكاد تقطر ماء وهي تتقد
لا يبرق الجو الا كلما رعدوا
في النائبات وفي أقوالهم سدد
كالأسد بيشة أسد كلما حردوا
لا يستفيق ، وأما سيفه غرد
عمرو بن ود عليه الصبر والجلد
اذا [illegible] المواضي ليس ينغمد

ولا تخف فالعوالي شوكها شمـــــر ... حلو الجنا ، والمعالي صابها شهـــد
وأخطب بحدّ المواضي كل شامخـــة ... في أنفها شمم في جيدها غيـــد
فمن يكن بالمواضي خاطبا أبـــدا ... زفت اليه بلاد كلها خــــرد
هل يسد جلّق إلا أن ترى حلبـــاً ... وقد تحالل منها مشكل خـــرد
وقد أتاك كما تختار طائعـــة ... وقد عنا لك منها الحصن والبلد .. (١)

وقال يهنيء صلاح الدين بفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ :

حللت تكنت الالمعيّ المســــــدّدا ... وسرت فكنت القمري المؤيـــدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضـــــا ... فأقصدت أعداء ولم تخطيء مقصـــدا
تسوءت ضرب السيف والطعن بالقنـــا ... وكل أمريء مضى بما قد تعـــودا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبـــه ... فناداك حزب الله يا ناصر الهـــدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحـــه ... فأرضيت لما ان غضبت ، محمـــدا
فيا يوسف الخير الذي في يمينـــه ... من الخير ما قد غار غيثا وأنجـــدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغـــى ... ففقت جميع الناس بالباس والنـــدى
وقدت الى الاعداء جيشا عرمرمـــا ... اذا أبرقت فيه الصوارم أرعـــدا
فلم يبق للطغيان شملا مجمّعـــاً ... ولم تهق للإيمان شملا مبـــدّدا
فناهيك من جيش نهضت بعبئـــه ... فأقصدت لما أن نهضت به العـــدى
حملت ذبالا في ذوابل سمـــره ... فلما دجى ليل العجاج توقّـــدا
وزرت بما لحصن الذي لو تحصّنـــت ... فوارسه بالنجم أورده الـــردى
قسمت به سلب الصليب ورعـــه ... وشهدته لما غدا فتشهـــدا
هبيت اليه هبة يوسفيـــة ... تصيد ضباء كل ما كان جلمـــدا
وقرّبها قد فتّه من سهامـــه ... نواجذ ثغر الهنفريّ وقـــدّدا (٢)

وقال يصف غارته على غزة سنة ٥٧١ هـ وعوده من ذلك الغزو بالعزة بقصيدة مطلعها :

وقفت وأنضاء المطيّ ضحى تمطـــو ... وقوف بر وأنعى على قرية الشمـــط

ومنهــا :

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غـــزّة ... نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخـــط
رماها بآسد مالهن تربــــص ... ولا أجم إلّا الذي ينبت الخـــط
وطاحت نواحيها ضحى بكتائـــب ... من الترك ، لا روم طغام ولا قبـــط
رماهم بأمثال السراحين شزبـــا ... عليها أسود بل أساودة رقـــط
وطاحت على تلك الرمال جسومهـــم ... ففي كل سقط من جماجمهم سقـــط (٣)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٢

(٢) الروضتين ٢ / ١٢

(٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٦ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٦

وقال يصف دمشق ، ويحرض صلاح الدين على الجهاد بقصيدة طويلة أولها :

حييت من أطلال القدود بيانها … لما أنثنت قيماً على كثبانها

وبعد الغزل والوصف يقول في صلاح الدين :

وفتىً إذا زخرت بحار نواله … غرقت بحار الأرض في خلجانها
غيث يكرّ من الظبى بصواعق … ماء الردى يجري على نيرانها
بصوارم أجفانها قمم العدى … لا ما كساها القين من أجفانها
فضية ذهبية فلجينها … يختال يوم الروع في عقيانها
محمرّة بدم الفوارس خضرة … فالورد منثور على ريحانها
من كل لامعة بليل قتامها … كالنار لامعة بليل دخانها
تلك السيوف المرهفات بكفه … أمضى على الأيام من حدثانها
تنصبّ إذا اقترنت كواكب بيضها … بكريهة كانت ردى أقرانها
مهزوزة الضرب في يد ماجد … ضرب أطاح الروم عن أبدانها
ملك إذا جليت عرائس ملكه … رصعت فريد العدل في تيجانها
وإذا جحافله أثرن سحائبا … لمعت بروق النصر في أحضانها
من كل شهباء الحديد كأنما الأمواج ماشية على شجعانها
وكتيبة كم قد كتبن لها الظبى … كتبا يلوح النصر من عنوانها
وإذا ذوابله هززن رأيتها … والموت مشتمل على خرصانها
من كل جائلة بكل كريمة … رأى الفتى رأسا على جثمانها
سمراء لا يثني خطيا عند ردها … الا ومن نحر ثم للسانها
وإذا سواهله نزعن حسبتها … ما دقّ يوم الروع من أرسانها
من كل سلهبة ألمّ بها الطوى … حتى طواها الضمر طيّ عنانها
جرداء تتلو البروق إذا دنت … وتفوت ما قد فات من لمعانها
خيل هي العقبان في طيرانها … لا بل هي السيدان في عسلانها
فالشهب ما حملته في أرماحها … والغلب ما نقلته في عدوانها
كم قد ثنين أبا المظفر ثائرا … والأسد صائلة على عقبانها
متواثبات للطعان فأذكيت … تلك العتاق الجرد يوم طعانها
عقدت سنابكهن بالهمم التي … أشطانهن تنوب عن أشطانها
همم رقت بك فارتقيت من العلى … رتبا فكان الشمس دون مكانها
أقسمت ما تقذ من أركان الهدى … الا بما شيّدت من أركانها
فافخر فلو رنّت رومية بهم … خرّت كنائسها على رهبانها
أو لو بها سبّحت قسطنطينية … نقضت ما رفعته من صلبانها
فانهض إلى فتح السواحل نهضة … قاد قدتك الأعداء بعد حرانها
وأسلم مطاع الدين وابق لدولة … ذلت لدولتها ملوك زمانها
خضعت لها الشجعان عند نزالها … وعنت لها الأقران عند قرانها ... (١)

---
(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج١ ص٤٠٦ والروضتين ج١ ق١ ص٦٤٦

قال يصف توجه صلاح الدين الى حلب سنة ٥٧٠ وفتحها :

سرى ما بيننا سر النسيـــوب   يبشرنا بنصرك عن قريـــب
ركبت الى الحروب جياد عـــزم   مصرفة عن الرأى المصيـــب
تبسمت البلاد اليك أنســـا   وكانت قبل موحشة القطـــوب
لقد ولت شمال الشرك لمـــا   أثار الدين من أفق الجنـــوب
تركت صوارم الاعداء فيهـــا   مخرقة المدارع بالحريـــب
تكاد قلوبهم بالخوف منهـــا   تطير عن المساكن بالوجيـــب
وما سهرت رماحك فيـــه الا   لترتد في الترائب والجيـــوب
عصت حلب وقاتل ساكنوهـــا   وليس تقاتلهم الا بالمجيـــب
لانك ناصر الاسلام حقـــا   وشم رخط المنيرة أو شبيـــب
وقد قالت سعودك عن قريـــب   اليك أسوقهم سوق الجنيـــب
جهادك أن طلبت الغزو فيهـــم   أهم اليك من غزو الصليـــب
فزر باب العراق وما يليـــه   بكل مزنر طرب الكعـــوب
وفجر منبع الاوداج حتـــى   تخوض الخيل في العلق الصبيـــب
ترى الاسلام قد وافاك يعـــدو   الى لقياك مشقوق الجيـــوب
وقد نادى مؤذنهم ، فنـــادى   ليوث الغاب : حي على الحـــروب
أناسي دبت الاغلال فيهـــم   وليس لهم كسيفك من طبيـــب
وقد ولى الوزير وعن قريـــب   سينقلب الوزير الى القليـــب
أحاط بجمعهم في كل نـــاد   ظلام الكفر في ليل الذنـــوب
وقد أطلعت شمس النصل فيهـــم   على أعناقهم شفق الغـــروب
فلا يغرركم أن كفّ عنكـــم   فان الأُسْد تجثم للوثـــوب
اذا ابتسمت سيوف الهند يومـــا   فبسمها يدل على النحيـــب
وليذخرك نور الديـــن الا   لتدفع عنه نائبة الخطـــوب
فخلص ابنه بالسيـــف منهـــم   فقد حبسوه في بلد جديـــب
يبيت وقلبه المحزون أشـــوى   الى لقياك من غم الحروب
صغير بينهم ، لا بل أســـير   غضيض الطرف مجهول النصيـــب
تذكّر عهده وأحنق عليـــه   ونفّر عنه تضييق الكـــروب
ولا يغررك من يوليـــك ودا   ويلوى عنك أجفان المريـــب
أتيتك والرماح تخب نحـــوى   وخضت عجاجة اليوم العصيـــب
رأيت كواسر الابطال حولـــي   محددة المخالب والنيـــوب
وسرت اليك محزونا فلمـــا   رأيتك قلت للاحزان : غيبـــي

رأيت المارقين ومن يليهـــــــــم
اذا غنت صوا هلهم وأبــــــــدى
نرا شا عاينت نارا فأبـــــــــدت
فأوسع بلحن من عاداك ظلمـــــــا
أماتتني الهموم بأرض قـــــــوم
وها قد قمت من قبرى لتحيـــــــا
وقد هاجرت إنكارا لما قـــــــد
ولي دهر يراقبني فأرمـــــــد
وشمسي تحرق الحُسّاد كَبْتـــــا
علت في أوجها وحضيض حظـــــي

جميعا من عصي أو مجيــــــب
لها الخطي أخلاق الطـــــروب
تها لكها على جمر اللهيـــــب
كما وشّمت رزق المستثيـــــب
بما فعلوا وأخذ لني كروبـــــي
بقربك مهجة الميّت الغريـــــب
رأيت من المثالب والعيـــــوب
يلحظ منه الحافظ الرقيـــــب
وشيمي وصف ذي اللسن الخطيـــب
يجاذ بها بأرسان المغيـــــب (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤

الحافظ بن عساكر – ٥٧١ هـ

قال يمدح نور الدين سنة ٥٦٤ وكان نور الدين قد أعفى أهل الشام من المطالبة بالخشب:

لما سمحت لاهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا ... للاجر ، جوزيت خيرا غير محتسب
والاجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الحدباء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب
فاحزم الناس من قوّى عزيمته ... حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة ... عليه فأقصد العالي من القرب
فالجَدّ والجِدّ مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والادراك في الطلب
وطهر المسجد الاقصى وحوزته ... من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا ... وفي القيامة تلقى حسن منقلب (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١/١٧٧ ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٥

ابن الزغيلـــة

قال يمدح الصالح بن رزيك سنة ٥٥٤ بقصيدة مطلعهـــا :

أبنكما لو أن نائبة تعـــرو ... تفرج بالشكوى اذا غلب الصبـــر

ومنهـــا :

من القوم ان ابدوا اعادوا ، وان عدوا ... أبادوا ، وان أجروا الى غاية جـــروا
بحور اذا اجدوا ، بدور اذا بـــدوا ... ليوث اذا كروا ، غيوث اذا بـــروا
اذا قيل هذا صائل الدهر اقد مـــوا ... وان عرضت احدى الدنايا لهم فـــروا
تدين المنايا والاماني أمرهـــم ... فان حاربوا ساءوا وان سالموا ســـروا

أيا كاشف الغماء ان جل فـــادح ... ويا مصبح الظلماء ان مسنا غـــمر
حفظت ثغور المسلمين ، وصانعـــت ... صروف الردى عنهم مساعيك الغـــر
فلا دولة الا وانت مقيمهـــا ... ولا دولة الا وانت لها ذخـــر
ولا فقر الا وانت له غـــنى ... ولا عسر الا وانت له يســـر
فهنئت الايام منك بمالـــك ... به انتصر الاسلام وانخـــذل الكفر (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٢١٠

قال ابن سعدان يمدح السلطان ويذكر ما فعله على عسقلان ويهوّن عليه أمر كسرتها بقصيدة منها :

ترنّمت من عسقلان كل نائحة
ناحت النجيب عليها وهي معطلة
قل للفرنجة لا تغتر : رويدكم
ترقبوها من الثوار طالعة
كأنني بنواصيهم تقدّ بها
حسب العدى يا سنا الدين حسبهم
وهل يخاف لسان النحل ملتمس

باتت تقلّ بسو كاف من الأسل
فأصبحت مرتعاً للخيل والإبل
بالنار أو تخن الشعرى من الثمل
خوارق الأرض تمحو رونق الأسل
كأنهم من الجود عريان من النجل
أن يقرنوك بجرح غير مندمل
مرت على أسبحيه لذة العسل ؟ (١)

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٤

قال يمدح عز الدين فرخشاه في القاهره سنة ٥٧٤ :

أنت الذى جاهدت عن دين الهدى	فأعزّ نصرك ناصر لا يخذل
وأزرت أرض الشرك أطراف القنا	حتى غدت من خيفة تتزلزل
وبألسن الاغماد خاطبت العدى	فأجابها فتح أغر محجل (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/٥٥

هنيئاً صلاحَ الدين بالفتح والنصر   ونيلِ الأماني الغرّ والفتكة البكر
وما حُزتَ فيها من فخارٍ ومن علا   وحسن ثنا يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفيّة والقنا   سموَّ أبيٍّ لا ينام على وَتَر
وصلتَ بها جهل المفاخر مثلما   قتلتَ بها يوم الوغى دابرَ الكفر
سلكتَ بياض الصبح وهو صوارم   وخضتَ سوادَ الليل وهو دم يجري
وقد عرف الإفرنج بأسك في الوغى   وجرّعتهم منه أمرّ من الصبر
وظنوا بناء الحصن صونا لملكهم   فأصبح بالشحواء منهتك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر قحلّت   أناملها الا على صفقة الخسر
في الفتكة الغرّاء لا زلت قائما   بأمثالها في الدين في السرّ والجهر
وأصبح في أقصى خراسان ذكرها   وفي كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترضَ منهم بعدها بذل طاعة   فما بذلوا الا على شيمة الغدر
فسر واملك الارض التي لو تركتها   لأغضتْ عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا   بأيسرها تعلو على الأنجم الزُهر
اذا عُدّ أرباب الفخار فأنتم   ذوو الهبات الغرّ والنائل الغَمْر
وأنت الذي أصبحتَ بالبأس والتُقى   وبذلِ اللُّهى عالي السنا عَطِرَ الذكر (١)

---

(١) الروضتين ١٢/٢

الجمال الواسطي (أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرى)

قال يمدح السلطان بعد إخضاع ملك الأرمن ابن لاون سنة ٥٧٦ه بقصيدة منها :

لقد جعل الله ذلك الــــــوري ... بأوفى مليك وفيّ ضجـــــان
تهشّ الى نفحات السيـــــــو ... ف في الها لانفحات القيـــان
ازرت أبـــــن لاون لأواءه ... فأضحى به خبرا عن عيـــان
ودان من الذلّ لا يرعـــوي ... حذاراً من الراعفـــات اللـــدان
فلا تدم عنده للثبـــــا ... ت وليس له بعساكم يــــدان
وأخلى اليكم مناقـــيره ... وغادر للهدم تلك المبانـــي
وأرسل بالأسراء العنـــا ... ة يسأل إطلاقـــه فهو عـــان
رتقـــت بعزلك والمكرمـــات ... فتوقـــا من الأرتقـــيّ الهجـــان(١)

---

(١) الروضتيـــن ٢ / ١٦

أبو الحسن ابن الـذروى

قال في الحاجب لؤلؤ قائد الاسطول المصرى الذى لحق الفرنج حين غزوا الحجاز :

يا حاجب المجد الذى ماله ... ايمز عليه في الندى حَجَبُـه
ومن دعود لؤلؤاً عنده ... صحّت من البحر لـه نسبتـه
لله من تحمل من عالج ... فيه وما تظهر من حسبتـه
كفيتّ أهل الحرمين الصدى ... وذدت عن أحمد والكعبـة (١)

وقال أيضا فيـه :

مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرورَ الجماد
اذ أتى الحاجب الاجل بأسرى ... قرنتهم في طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الاعادى ... وسواه من اللآلي يُصاد (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر ملك الفرنج مرى بقصيدة منها :

ولكم أشمت الروم أشام بسارق ... أضحت مياه نفوسها من قطره
وأتاك بحر دروعها عن مدّه ... ومضى وقد حكمت ظباك بجزره
ولقيت مرّياً وطمع حياته ... حلوٌ ، فبدله القتال بمرّه
فأعقد اليه الرأيَ في عقب القنا ... وأحلل بها عجلا معاقد مكره
وأطرده من وكر الشآم فإنه ... قد طار منك بخافق من ذعره (٣)

وقال يمدح صلاح الدين بعد أنتصار حطين بقصيدة منها :

فرحت لصلاح الدين بالسمر والظبى ... من المجد معنى كان من قبل ينمض
وما كاد جيش الروم يرم كيده ... الى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت ... ثغورا بأمواه الحديد تمضمض
أسرت ملوك الكفر حتى تركته ... وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض (٤)

---

(١) الروضتين ٢٦/١
(٢) الروضتين ٢٦/١
(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٦
(٤) الروضتين ٨٢/٢

قال يصف نزول الفرنج على مصر ، ويمدح شمس الدين تورانشاه بن أيوب وآل أيوب :

ولما دُعوا من مصر لبّوا دعاءنـا ... على كل نهد لين السنق يعبـوب
فأروى كماة الروم شدة بطشهـم ... فهم بين مطلول الدماء ومطلـوب
فلست ترى في عصبة الشرك حاملا ... صليبا ولاعلجا لهم غير مصلـوب
وحسبهم ذاك الطعان الذي غدت ... بهم خُضِّداً فيهم صدور الانابيب
وظل عميد الروم من حذر السروى ... يؤم طريقا بينهم غير ملحوب
ونكب عن مصر وولى بمنكب ... جريح بأنياب النوائب منكـوب
وقد كاد دين الله يخفت نوره ... ويرمى بتبديل وشيك وتقليب
فحصّنتموه بالامنتوا لظبى ... وتصعيد آراء كفته وتصويب
فلست ترى الا محاريب في وغى ... حدوا بيضة الاسلام أو في محاريب (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١٧١/١

ابن أسعد الموصلي ٥٨١
(ابن الدهان)

قال :

أبدى عذارك اذا تبدى ... عذرى وصار هواك جدا

ومنها :

ملك أنامله على العـــافي من الانداء أندى

من آل غسان الألى ... فضلوا الورى بأسا ومجدا

حسن السريرة لم يزل ... لله ما أخفى وأبدى

ماض على الاعداء لا ... فلت له الاعداء حدا

ملأ الفضاء عليهم ... عددا وسد الارض سدا

كالبحر يجري خلفهم ... سفنا وفوق الأرض جردا

....

هول أشاب صغارهم ... وأتوا بشيب الرأس مردا

أغنيتهم وورثتهم ... مالا وملكتوولدا ... (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعها :

أما وجفونك المرضى الصحاح ... وسكرة مقلتيك وأنت صاح

ومنها :

ترنت شجاعة وتقى وعلما ... الى كرم الخلائق والسماح

وقد أثنت عليك ظبى الدواعي ... كما تثني بألسنة الرماح

وكم نتجت حروب القحتها ... سيوفك والنتاج عن اللقاح

وكم لظباك من يوم اغتباق ... من الاعداء أو يوم اصطباح

وكم ذللت من ملك عزيز ... وكم دوخت من حمي لقاح

تبيح حمى الملوك وتستبيه ... وما تحميه ليس بمستباح

وما خضع الفرنج لديك حتى ... رأوا ما لا يطاق من الكفاح

وما سألوك عقد الصلح ودا ... ولكن خوف معلمة رداح

ملأت بلادهم صهلا وحزنا ... أسودا تحت غابات الرماح

على معتادة جوب الدوامي ... دواج بالملا بيض الاداحي

فحلوا أرض نابلس وفيها ... تواح ليس تخلو من نواح

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠

فكانوا هولوا بالحشد جهــــلا ... وما تخشى الأسود من النبــاح
وهم في قولهم إنا نلاقــي ... صلاح الدين أكذب من سجــاح
ألا يا سيلُ مخجل كلّ سيــلٍ ... تظلّ المحجرات لفواضــي
ويا غيثَ البلاد اذا تشــرّت ... وضن الغيث في شهري تمــاح
تركتُ بني الزمان فلم أسلهــم ... ولم أر أدله أهل امتداح ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعهــا :

أعلمت بعدك وقفتي بالاجــرع ... ورضى طلولك عن دموعي الهمّــع

ومنها :

جمع الجيوش فشتّت شمل عداتــه ... ما فرق الاعداء مثل تجمــع
لهيبته عن نصره خافــاه ... عِلَم العدو و لابعاد الموضــع
بجحافل مثل السيول تدافعــت ... واذا السيول تدافعت لم تدفــع
متبّع نكمْ أرجتْ لهــا الحمد ... نما لطيب شذى لها متضــوع (م)
المرخين اذا تعوّذن مطمــع ... والمقبلين اذا دعوا في مفــزع
والناثرين الهاميرق بيضــه ... والخارقين خناعة ... سات الادرع
قوم اذا يقع الصريخ تبــادروا ... نحو الحمام بكل أبلــج أروع
لا يخزون الروم بعد ديارهــم ... ان الخليج لديك أقرب مشــرع
لو أن مثل البحر سبعة أبحــر ... من دونهم أزدتهم لم تمنــع
كم وقفة لك في الوغى محمــودة ... أبداً وكم جود حميد الموقــع
والطير من ثقة بأكل مشبــع ... تبعت جيوشك فوق غاب مسبــع
والناس بعدك في المكارم والعلــى ... رجلان : إما سارق أو مدّعي ... الخ (٢)

وقال يمدح طلائع بن رزيك سنة ٥٦٥ ه بقصيدة مطلعها :

أما كفاك تلافي في تلافيكــا ... ولست تنقم إلا فرط حبيكــا

ثم يقول :

يا كاشف الغمة الكبرى وقد نزلــتْ ... يشعب شمل العلا لولا تلافيكــا
برّزت سبقا فما دانات في أمــد ... خلق قديما ولا خلق يدانيكــا
أرثْ مساعيك سُبْل المجد جاهلهــا ... فلو سعى كان أيضا من مساعيكــا
ينافك الملك ناء عنه منزلــه ... ويقبر المرء عن بعد يجوكــا
يشكو اليك بنو الآمال فقرهــمُ ... فيثنون وبيت المال يشكوكــا

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ـ ٦٦ وانظر الروضتين ١٠ / ١٦ ومضمار الحقائق ٢٤٠

(٢) ديوانه ص ١٣١ ، مضمار الحقائق ٢٤٠

وفيلق يملأ الأقطارَ ذي لجب يضحي لهابت الأطواد مدكوكا
من كل أغلبَ تلقى عرشه حرما موقّرا وتلاقي المال منهوكا
سنّا الحديد عُليٌّ كالماء شيّمه مثل الحديد براه الله فتيكا
صمّ عن العذّام لا يأتون داعيَه فان دعوت الى حرب أجابوكا
بعثتهم نحو جيش الشراء فانبعثوا يرون أكبرَ غنمٍ أن أطاعوكا
ساروا الى الموت قدما كأنهم رأوا طريقَ فرارٍ قطّ مسلوكا
فأوردوا السمر شربا من نحورهمُ وأوطأوا الهام بالقاع السنابيكا
ضربا وطعنا يقدّ البيض محكمةً ويخرق الزرد الماذي محبوكا
وبات في كل صقعٍ من ديارهمُ نوح على بطل لولاك ما شيكا
أمسوا ملوكا ذوي أمر فصبّحهم أسد أتوك بهم أسرى مماليكا
ولم يفتهم سوى من كان معقله مطهّما حثه ركضا وتحريكا
يا كعبةَ الجود إن الفقرَ أقعدني ورقةُ الحال عن مغروضِ حجيكا
قد جاد غاديك لي جودا وأطمعني سماحةٌ فيك في استمناء ساريكا ٠٠ الخ (١)

وقال يعتذر عن كسرة نور الدين تحت حصن الأكراد سنة ٥٥٨ ، ويمدحه :

ظبى المواضي وأطراف القنا الذُّبل ضوا منَّ لك ما حازوه من نَقَل
وكافل لك كافي ما تحاوله عزّ وعزم وبأس غير منتقل
وما يعيبك ما نالوه من سلب بالقتل ، قد توتر الآساد بالحيل
وانما أخلدوا جبنا الى خدع اذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم لينفذَ القدرُ المحتوم في الأزل
حتى أتوكم ولا الماذيّ من أمم ولا الظبى كثب من موقف عجل
تناً لقيَّ وقسي غير موترة والخيل عازبة ترعى من الحمل
ما يصنع الليثُ لا نابٌ ولا ظُفُر بما حواليه من عُفرٍ ومن وعل
هلا وقد ركب الأسْدُ الصقور وقد سلوا الظبى تحت غابات من الأسل
من كل ضافية السربال ضافية السـ ـقذاف بالنبل فيها المقذف بالنبل
وأصبحوا غرقا في أرضهم بصدوا يجوس أدناهم الأقصى على مهل
وإنما هم أضاعوا حزمهم ثقة بجمعهم ولكم من واثق خجل
بني الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر في كلّ إنسانٍ أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى غاب سعيكم غير الأراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما يخلو من العين الا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم خير الأنام وفيهم خاتم الرسل

(١) الخريدة قسم الشام ١/٢٨٢ ـ ٢٨٤ وأنظر الروضتين جـ١ ق ١ ص ٦١٥ وديوانه ص ٢١٩

سيقتضيكم بضرب عند أهونـــــه ... البيض كالبيض والأدراع كالحلـل
ملك بعيد من الأدناس ذو كلــف ... بالصدق في القول والإخلاص في العمل
فالشمس ما أصبحت والشمس ما أفلت ... والسيف ما غل والأطواد لم تـزل
كم قد تجلت بنور الدين من ظلـم ... للظلم وانجاب للاضلال من ظلــل
وبلدة ما ترى فيها سوى بطـل ... غزا فأضحت وما فيها سوى طلـل
قل للموالين كفوا الطرف من جبن ... عند اللقاء وغضوا الطرف من خجـل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولـو ... لذتم بملككم لذتم الى جبـل
أسلمتموه ووليتم فسلمكـم ... بثبتة لو بناها الطود لم ينـل
مارعين ولم تنثل كنائنكـم ... والسمر لم تبتذل والبيض لم تـذل
ولا طرقتم بويل النيل طارقـة ... ولا تصافقت الأسياف في القلـل
فقام فردا وقد دلت جحافلـه ... فكان من نفسه في جحفل زجـل
في مشهد لو ليوث الخيل تشهـده ... خرت لأذقانها من شدة الوهـل
وحط المدى وحد مثبت الجنان وقـد ... طارت قلوب على بعد من الوجـل
يعود عنهم وبيدا غير مكتـرث ... بهم وقد كرّ فيهم غير محتفـل
يزداد قدما اليهم من تيقنـه ... أن التأخر لا يحمي من الأجـل
ما كان أقربهم من أسر أبعدكـم ... لو أنهم لم يكونوا منه في شغـل
ثباته في صدور الخيل أنقذكـم ... لا تحسبوا وثبات الضمّ الذلـل
ما كل حين تصاب الأسد غافلـة ... ولا يصيب شديد البطش ذو الشلل
والله عونك فيما أنت مزمعـه ... كما أعانك في أيامـك الأول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض ... وحزت من بلد منها بلا بـدل
وكم سقيت الموالي من طلى ملـك ... وكم قريت الصوافي من قرا بطـل
وأسمر من وريد النحر مورده ... وأجدل أكلته من لحم منجـدل
حصيد سيفك قد أغنيته زمنـا ... لو لم يطل عهده بالسيف لم يحل
لا أنكبت سهمك الأقدار عن غـرض ... ولا ثنت يدك الأيام عن أمـل (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ٢ / ٢٨٩ ـ ٢٩٢ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٢١ وديوانه ص ٧٠ ـ ٧٧

قال يمدح السلطان صلاح الدين بانتصاره على الفرنج في معركة قرب البقاع سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

لك رب السماء خير معين	وكفاه بما تحب ضمين
قبله الحمد أي نصر عزيز	قد حبانا به وفتح مبين
أدرك الثأر حين نازله المنصـ	ـور ، حيث الكفار ليث العرين
الهمام المظفر الملك الناصـ	ـر مولى الورى صلاح الدين
يا مليكاً أضحى الزمان يناجيـ	ـه بلفظ المذلل المسكين
قذفت أهلها الحصون الصياصي با	سك حتى عوضتهم بالسجون
وأراهم رب السما بأسك ما	فك ما لم يجل لهم في ظنون
لك قلب عند اللقاء مكين	وله من تقاه ألف كمين
يا مليكاً يلقى الحروب بصول الـ	ـله مستبطاً وصدق اليقين
إن هذا الفتح المبين شفاء	لصدور وقرة للعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين	سهل الله نصره في الحزون (١)

وقال في فتوحات سنة ٥٨٣ :

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما	له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده	صيداً ، وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استرخت بملكشاه طرابلس	فخاطبتها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نصر الإسـ	ـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تمضون عاما بلاد الله تصرخ والإسـ	ـلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم	بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذي الفتوح وما	سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا	ل الناصر داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً	فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وإخوته	بل أين والدهم ، بل أين مروان
وعدّ عما سواه فالفرنجة لم	يصدهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد	تنزلت فيه آيات وقرآن

---

(١) الروضتين ٢ / ٩

سبط ابن التعاويذي

قال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة أولها :

حتّامَ أرضى في هواك وتغضب ... وإلى متى تجني عليّ وتعتب

ومنها :

ذلّلت أخلاقَ الزمان لأهله ... فأطاع ، وهو المائل المتغضّب
وأتمتَ سوقاً للمدائح ربحها ... فإليه أغلاق الفضائل تجلب
ونهضتَ للإسلام نهضة صادقِ ... العزمات ، ترأب من بناه وتشعب
وغضبتَ للدين الحنيف ولم تزل ... في الله ترضى منذ كنت وتغضب
غادرتَ أهلَ البغيِ بين مجندلٍ ... لقي الحِمامَ ، وخائفٍ يترقّب
أو هاربٍ ضاقت عليه رحابها الأ ... رض الفضاء ، وأين منك المهرب
فأصبح بلاد الروم منك بغارة ... النصر فيها رائد لا يكذب
وأرم الكنائس من سطاك بصاعق ... فتأجج نيرانه تتلهّب
وأرفع بها للمسلمين منابرا ... باسم الخليفة ثم باسمك يخطب
واقرع بحيّ على الفلاح مسامعا ... تصبو اذا ذكر الصليب فتطرب
لا تبقِ زنارا يشد بها على ... علج ولا ناقوس دير يضرب
واحمل لحرب المشركين مهذبا ... بالسيف من بهواه لا يتهذب
لا تعفونّ اذا ظفرت بمجرم ... منهم فرب جريمة لا توهب (١)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر هزيمة الفرنج سنة ٥٧٠ :

فأصبحت بالدوّ أشلاؤهم ... يشبع منها النسر والسيد
جيوشهم بالرعب مفلولة ... وزرعهم بالسيف محصود
جهاد من لم يبق يوما له ... في نصر دين الله مجهود
ومن تبقّاه الردى منهم ... في الأسر مكبول ومصفود *
فأبشر بنصر عاجل يومه ... بالنصر في الأعداء مشهود
وأنصت لها عذراء بيت الدلـ ... بمثلها والفخر محسود (٢)

---

(١) مضمار الحقائق ص ١٩٣ – ١٩٤
(٢) ديوانه ص ١١١
(*) حذفت من الديوان خمسة أبيات وقد تعمد المحقق ذلك

وقال يمدحه أيضا :

يصلي الاعادي كل كريهة ... يشوي الوجوه حريقها المتضرم
يزجي لهم سحب الحمام رعودها ... زجل الكماة وصوب عارضها الدم
فزمانهم بالرعب منه ليلة ... ليلاء أو يوم عبوس أيوم

قال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطيّ برملتي يبرين

ثم قال بعد تمام الغزل :

ليت الضنين على المحبّ بوصله ... لقن السماحة من صلاح الدين
ملك اذا علقت يدٌ بذمامه ... علقت بحبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفى ... بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد ... خافقت صوارمه بغير جفون
لو انّ لليث الهزبر سطاه لم ... يلجأ الى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حللت بجوّها ... مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة في قدرة وتواضع ... في عزة وشراسة في لين
وأريتنا بجميل صنعك ما روى الـ ... ـراوون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحيي لنا أيامهم ... بالمكرمات فكنت خير ضمين

....

لله ما اشتملت عليه قبابهم ... يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها ... بالحسن غانية عن التحسين
خود ترى قمر السماء إذا بدت ... ما بين سالفة وبين جبين
غادين ما لمعت بروق ثغورهم ... إلّا استهلّت بالدموع جفوني

....

كاد الأعادي أن يصيبك كيدها ... لو لم تكدْكَ برأيها المأمون
تخفي عداوتها وراء بشاشة ... تنشق عن نظر لها مشفون
دفنت حبائل مكرها فرددتها ... تدوي بغيظ صدورها المدفون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم ... أفضت اليك بسرها المخزون
كمنوا فكم لك من كمين سعادة ... في الغيب يظهر من وراء كمين
فهَوَتْ نجوم سعودهم وتقضى لهم ... بالنحس طائر جدك الميمون (١)

---

(١) ديوانه ص ٤١١ الروضتين ١/ ١٠ ومضمار الحقائق ص ٢١

يا قبحَ أوجه عباد الصليب وقد . . . غدا يبرّقها شؤمٌ وخذلان

خزنت عند إله العرش سائر ما . . . ملكته وملوك الأرض خزان

فالله يبقيك للإسلام تحرسه . . . من أن يُضام ويلفي وهو حيران

وهذه سنة أكرم بها سنةً . . . فالكفر في سِنةٍ والنصر يقظان

يا جاحماً كلمة الإيمان تامّ من . . . معبوده دون رب العرش صلبان

اذا طوى الله ديوان العباد فما . . . يطوى لأجر صلاح الدين ديوان (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٤

كتب الى الملك الصالح طلائع بن رزّيك بعد أن استولى الفرنج على أمواله بعد عودته من مصر الى الشام قصيدة أولها :

غرّني لامع السراب ، وهـــذا البـــحر دوني عذب المياه شـــروب
سرت أستقرئ المحول وفـــي أر ضي مرعى رعين ، وواد قشيـــب
وسحاب منه تعلمـــت الســـحب ، وإن لم تشبهه ، كيف تصـــوب
سوء حظ أناى عن الملـــك الصـــالح ، والحظ ينتهي ويثـــوب
والى بابه مآلـــي وللآبـــق حسن القبول حين ينيـــب
. . . .
أنا أشكو اليك دهرا لحا عـــودي ، وأعراه ، فهو يبس سليـــب
وخطوبا رمى بهـــا حـــادثات الدهـــر سوادي ، وكلهن مصيـــب
أذهبت تالدي وطار فـــي الطـــاري ، فضاع الموروث والمكســـوب
فهو شطران بين مصـــر وبحـــر ذا غريق فيء ، وذا منهـــوب (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد مصاف عسقلان سنة ٥٧٠ هـ ، أولها :

تهنّ يا أطول الملوك يـــدا في بسط عدل وسطوة ونـــدى
أجراً وذكرا من ذلك الشكر فـــي الـــدنيا ، ومن ذلك الجنان غـــدا
لا تستقلّ الذي صنعت ، فقـــد قمت بفرض الجهاد مجتهـــدا
وجُشتَ أرض العدى ، وأفنيتَ مـــن أبطالهم ما يجاوز العـــددا
وما رأينا غزا الفرنج مـــن المـــلوك في عقر دارهم أحـــدا
فسر الى الشام فالملائكـــة الأبـــرار تلقاك بجمعهم مـــددا
فهو فقير اليك ، يا مـــلـــك أن تصلح بالعدل منه ما فســـدا
والله يعطيك فيه عاقبـــة النـــصر كما في كتابه وعـــدا
ما حباك الورى ، والهـــك الـــعدل ، وأعطاك ما ملكت ســـدى (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويهجو شاورا :

أقمتَ عمود الدين حين أمالـــه لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني ســـعد
وجاهدتَ حزبَ الكفر حتى رددتهـــم خزايا ، عليهم خيمة الذل والطـــرد
أغدت بما قدّمتَ ملكا مخلـــدا وذكراً مدى الأيام يقرن بالحمـــد
وذكراك في الآفاق يسري كأنـــه الصـــباح له نشر الألوة والنـــدا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٦٢

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٥ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٣ ورقه ٥٦٩

(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٥

وكتب الى معين الدين أثر لما لقي الفرنج في أرض بصرى سنة ٥٤٤ قصيدة يقول فيها :

كل يوم فتح مبين ونصر ... واعتلاء على الاعادى وقهر
صدق النعت فيك أنت معين الـ ... ـدين ، إن النعوت فأل وزجر
أنت سيف الإسلام حقاً فـلا كـ ... ـل غراريك أيها السيف دهر
بك زاد الإسلام يا سيفه المشـ ... ـهور عزا ، وذل شرك وكفر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا ... ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا ... ك هما الباقيان أجر وشكر
الندى مالك الهمام ، وما ... لك إلا الأجرد ويقر ، وسمر
عم أهل الشام عدل ... بعدنا ، وغاية البعد مصر... الخ (١)

وكتب ردا على قصيدة طلائع بن رزيك التي مطلعها :

أبى الله الا ان يدين لنا الدهر ... ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

قصيدة أشار بها عليه نور الدين وهي :

أبى الله الا أن يكون لنا الامر ... لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ... ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث ... وفي سائر الآفاق من بأسنا ذعر
بطاعتنا للأمر طوعنا الأنام ، فما يعصى لنا فيهم أمر

. . . .

وما في ملوك المسلمين مجاهد ... سوانا ، فما يثنيه حر ولا قر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ... ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
دماء العدا أشهى من الراح عندنا ... ورقص المواضي فيهم الناي والوتر
نواعلهم وصل الحبيب وذم عدا ... زيارتهم ينحط عنا بها الوزر
وثير حشايانا السروج ، وقمصنا الـ ... ـدروع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الارض مثل الأفق ، وهي نجومه ... وإن حسدتها عزها الأنجم الزهر
وتلك الملوك البيض والسمر كالدمى ... وهمتنا البيض الصوارم والسمر
سوابقنا حمر المضارب من دم ... قوائمها من جودنا نضرة خضر
نسير الى الاعداء والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر
فيا رب يذوب الصخر من حر ناره ... واحاد له بالماء ينبجس الصخر
وجيش اذا لاقى العدو وخلتهم ... أسود الشرى عنت لها الأدم والعفر
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه ... نفوذا ، فما يثنيه خوف ولا كثر
هم الاسد من بيض الصوارم والقنا ... لهم في الوغى الناب الحديدة والظفر
يرون لهم في القتل خلداً فكيف بالقـ ... ـاء القوم قبلهم عند هم عصر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٤

اذا نسبوا كانوا جميعاً بني أب — فحاصلهم شزر ، وضربهم الهبر
يظنون أن الكفر عصيان أمرنا — فما غدهم يوما لإنعامنا كفر
لنا منهم أتداؤهم وولاؤهم — ومنا لهم إكرامهم والندى الغمر
بنا أيد الاسلام ، وازداد عزة — وذل لنا من بعد عزته الكفر
قتلنا البرنس ، حين سار بجهله — تحف بها الفرسان والعسكر المجر
ولم يبق الا من أسرنا ، وكيف بالـ — بقاء لمن أخنت عليه الظبا البتر
وفي سجننا ابن الفنش خير ملوكهم — وإن لم يكن خير لديهم ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغما — وقد قتلت فرسانه فهم جزر
وسل عنهم الوادي بإقليد إنه — إلى اليوم فيه من دمائهم غدر
ثم انتشروا فيه لرد رعيلنا — فمن تربه يوم المعاد لهم نشر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن — ليخشى من الايام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه — بمال ، وكم ظن به يهلك الغمر
فلما استبحنا ملكه وبلاده — ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه ، نبغي الأجر في فعلنا به — وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر
ونحن كسرنا البغدوين وما لمن — كسرناه إبلال يرجى ولا جبر
فمله اللعين الحائن الغائن الذي — له الغدر دين فابه عنه الغدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها — فلم ينجه بر ، ولم يحمه بحر
أفي غدره بالخيل بعد يمينه — بإنجيله بين الأنام له عذر
دعته الى نكث اليمين وغدره — بذمته النفس الخسيسة والمكر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت — تعاد إلينا وهي من دمهم شقر
توهم عجزا حلمنا وأناتنا — وما العجز الا ما أتى الجاهل الغمر
فلما تمادى غيه وضلاله — ولم يثنه عن جهله النهي والزجر
وسرنا اليه حين شاب لقاءنا — وبان له من بأسنا البؤس والضر
تولى يباري عائرات سهامنا — وفي سمعه من وقع أسيافنا وقر
وخلى لنا فرسانه وحماته — فشطر له قتل ، وشطر له أسر
وما تنثني عنه أعنة خيلنا — ولو دار في أفق السماء بها النسر
الى أن يزور الجوسلين بما حمى — له في دياج ، ما لليلتها فجر
ونرتجع القدس المطهر منهم — ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكر
كأنا لنا في أرض من حان منهم — فلم يبق منها في ممالكهم شبر
اذا استغلقت شم الحصون فعندنا — مفاتيحها : بيض ، مضاربها حمر
وإن بلد عز الملوك مرامه — ورمناه ، ذل الصعب واستسهل الوعر
وأضحى علينا سهلها وللطيها — ووقي المذاكي الرعد والبرق والقطر
بنا استرجع الله البلاد وأمن الـ — عباد ، فلا خوف عليهم ولا قهر
فتحنا الرها حين استباح عداتنا — حماها ، وسبى ملكها لهم الختر
جعلنا طلى ... الفرسان أغماد بيضنا — وملكنا أبكارها النكة البكر
ونحن فتحنا تل باشر بعدما — وقد عجزت عنه الاكاسرة الغر

أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة ... إلينا ، ومسراهم الى بابنا شهر
وما كل ملك قادر ذو مهابة ... ولا كل ساع يستتب له الأمر
وكل عزاز ، سبّحته جيوشنا ... فلم تحمه عنا الرجال ولا الجدر
وملنا الى بيت الرصاص وإنه ... لكالسدّ ، لكنّ الرصاص له قطر
وأضحت لإنطاكية حائم شجى ... وفيها لها والساكنين بها حصر
وحصن كفر لاثا وهاب تدانيا ... لنا ، وذراها للأنوق به وكر
وفي حصن باسوطا وقورس ذلت الصعاب ... لنا والنصر يقدمه الصبر
وفامية والبارة استنقذتهما ... لنا دقة من دونها الفرغ والغفر
وحصن بسرفود وأتب سهلت ... لنا واستطال النصر وهو لنا يسر
وفي تل عمار ، وفي تل خالد ... وفي حصن سلقين لمملكة قصر
وما مثل راوندان حصن وإنه ... لممتنع ، لو لم يسهل له القسر
وكم مثل هذا من قلاع ومن قرى ... ومزدرعات لا يحيط بها الحصر
فلما استعدناها من الكفر عنوة ... ولم يبق في إقطارها لهم أثر
رددنا على أهل الشام رباعهم ... وأملاكهم ، فانزاح عنهم بها الفقر
وجاءتهم من بعد يأس وفاقة ... وقد مسّهم من فقدها البؤس والضر
ومرّ عليها الدهر ، والكفر حاكم ... عليها ، وعمر مرّ من بعده عمر
فنالهم من عودها الخير والغنى ... كما نالنا من ردّها الأجر والشكر
ونحن وقعنا الكفر عن كل بلدة ... فأصبح مسرورا بمتجرها السفر
وأصبحت الآفاق من عدلنا حمى ... تكدر قطاها لا يروّعها صقر
فكيف تسامينا الملوك الى العلا ... وعزمهم سرّ ، ووقعاتنا جهر
وان وعدوا بالغزو مطلا ، فهذه ... رؤوس أعاديهم بأسيافنا نثر
سنلقى العدا عنهم ببيض صقالها ... هداياهم ، والبتر يرهقها البتر
....
فقل لملوك الأرض : ما الفخر في الذي ... تعدّونه من فضلكم ، بل كذا الفخر (١)

وكتب الى صلاح الدين سنة ٥٧١ :

لا زلت يا ملك الإسلام في نعم ... تزينها السعدان : النصر والظفر
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم ... وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت إسكندر الدنيا ، بنورك تستعد ... تضاءل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد ... أظلها المهرطان : الشيب والكبر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن ... سحابه المغنيان : الدرّ والبدرُ
وسرت سيرة عدل في الأنام كما ... قضى به الصادقان : الشرع والسورُ
فقم بنصر على الكفار إنهم ... يُرديهم المهلكان : الغدر والأشر

---

(١) ديوانه ص ٢٠١ ـ ٢٠٦

تناهم إذ رأوا إقبال ملكهـم ... إليهم المزعجان : الخوف والحذر
وما الفرار بمنجيهم وخلفهـم ... من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يضغو غداً منهم بصارمه ... وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى شهلان أسلمهم ... لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
تغني بتفضيله عمن تقدّمه ... ما أستودع المخبران : الكتب والسير (١)

وقال في نصر بن الفضل :

وعميت البلاد بالسيف فاستصعب منها سهل وعزّ ذليـل
وقسمت الفرنج بالغزو شطرين : فهذا عان وهذا قتيـل
والذي لم يحن بسيفك من شو ... ك أمسى وعقله مخبول
مثل الخوف بين عينيه جيشا ... لك في عقر داره ما يزول
فالربى عنده جيوش وموج البحر في كل لجة أسطول
وإذا ما غفى أقضّ به المضجع في الحلم سيفك المسلول
فابق للمسلمين كهفا وللإفرنج حتفا ، ما أعقب الجيل جيل (٢)

وكتب اليه الملك الصالح :

أيها السائر المجدّ إلى الشا ... م تبارى ركابه والخيول

فرد عليه أسامة بقصيدة مطلعها :

أين سمعي عمّا يقول العذول ... أنا بالهجر والنوى مشغول

ومنهـا :

يا أمير الجيوش ، يا أعدل الحكّام في فعله وفيما يقول
أنت تقضي بالحق لست وإن زال جبال الأرضين ، عنه تزول
فبماذا قضيت ، يا سيّد الحكّام طراً على أني ملول
من يملّ الحياة أم من عليه ... من توالي أنعامه تثقيل
لا ترعني بالعتب ، فهو على قطع رسوم التشريف عني دليل
لي رسوم ، منها مواصلة الكتب وأنت البرّ الكريم الوصول .. (٣)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٤٥
(٢) ديوانه ص ١٩١
(٣) ديوانه ص ٤٠ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٦

وأجاب على قصيدة طلائع بن رزّيك اللاميّة بقصيدة منها :

يا أشرف الوزراء أخلاقاً وأكرمهم فعالا
وأعزّهم جاراً وأمنعهم حمىً وأجلّ آلا
فلذاك قد أضحى الأنا   م على مكارمه عيالا
وحمى البلاد بسيفه   عن أن تذال وأن تدالا
وأحلّ بالإفرنج خزي   برّ وفي بحر نكالا
نبّهت عبداً طالما   نبّهته قدرا وحالا
ونبّهته فانتبه   شرفا ومجدا لن ينالا
لكنّ ذاك المتعب يشغل في جوانبه اشتعالا
أسفا لجدّ الحال عنه إلى مساءته ومالا
أما السرايا حين تسر   جي بعد مقلتها ثقالا
فكذاك عاد وثمود بما   باك مثقلين نشا وصالا
وصيرها في كل أرض   تبتغي منها المصالا
فكذاك فعلك مثل عهد   ك في الدنى سارا وجالا
فأسلم لنا حتى نرى   لك في بني الدنيا مثالا
واشدد يديك بصوّد نصـ   ـر الدين والق بها الرجالا
فهو المحامي عن بلا   د الشام جمعا أن ينالا
ومبيد أملاك الفرنج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والدنيا بدولته اختيالا
جمع الخلائق الدامحا   تر فلم يدع منهم ضلالا
فإذا بدا المتناظرون رأيتهم الكمالا
فبقيتما للمسلمين حمىً ، وللدنيا جمالا (١)

وبعث إلى معين الدين أنر من مصر قصيدة يبيّن له فيها الدسائس التي يحوكها ساسة دمشق أولها :

ولّوا ولما رجونا عدلهم ظلموا   فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوماً بفكري ما يريبهم   ولا سعتْ بي إلى ما ساءهم قدمُ
ولا أضعتُ لهم عهداً ولا أخفرتْ   على وداعهم في صدريَ الذِّمَمُ
فليت شعري بمَ استوجبْتُ هجرَهُمُ   ملّوا فصدّهُمُ عن وصليَ السأمُ
حفظتُ ما ضيّعوا ، أغضيتُ حين جنوا   وفيتُ إذ غدَروا ، واصلتُ إذ صرموا
حُرِمتُ ما كنت أرجو من ودادهمُ   ما الرزقُ إلاّ الذي تجري بما القسمُ
محاسني ، منذ ملّوني بأعينهمْ   قذىً ، وذكريَ في آذانهم صَمَمُ

---

(١)   ديوانه ص ٢١٥ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٤

وعندُ لو قيل لي ماذا تحبّ ومـا   سواك من زينة الدنيا لقلت هـم
هم مجال الكرى من مقلتيّ ، ومن   قلبي محل الحشى ، جاروا أو احترموا
تبدّلوا بي ولا أبغي بهم بـدلاً   حسْبي هم أنصفوا في الحكم أو ظلموا
يا راكباً تقطع البيداء همّتـه   والعيس تعجز عما تدرك الهمـم
بلّغ أمير معينَ الدين مألكـةً   من نازح الدار ، لكن ودّه أمـم
وقل له : أنت خير الترك فضّلك الـ   ـحياء والدين والإقدام والكـرم
وأنت أعدل مَنْ يُشكى إليه ولـي   شكيّة أنت فيها الخصم والحكـم
هل في القضية يا من فضل دولتـه   وعدل سيرته بين الورى علـم
يضيع واجب حقي بعد ما شهـدت   بما النصيحة والإخلاص والخـدم

. . . .

لكنّ هاتك ما زالوا بسعيهـم   حتى استوتْ عندك الأنوار والظلـم
بأعين بالبغض يبغون الغنى ، ولهـم   لو أنهم عدموك ، الويل والعـدم
والله ما نصحوا لما استشرتهـم   وكلّهم ذو هوى في الرأي متّهـم
كم حرّفوا من معانٍ في سفارتهـم   وكم سعوا بفسادٍ ، ضلّ سعيهـم
أين الحميّة والنفس الأبيّـة إذ   ساموك خطّة خسفٍ عارها يصـم
هلاّ أنفت حياء أو محافظـة   من فعل ما أنكرته العُرْبُ والعجـم

. . . .

أسلمتنا وسيوفُ الهند مغمـدةٌ   ولم يروّ سنان السمهريّ دم

. . . .

هبنا جَنَيْنا ذنوباً لا يكفّرهـا   عذرٌ ، فماذا جنى الأطفال والحـرم
ألقيتهمْ في يد الإفرنج متّبعـاً   رضى عدىً يسخط الرحمن فعلهـم
هم الأعادي ، وقاك الله شرّهـم   وهم بزعمهم الأعوانُ والخـدم
إذا نهضت إلى مجد تؤثّلـه   تقاعدوا ، فإذا شيّدته هدمـوا
وإن عرتك من الأيام نائبـةٌ   فكلهم للذي يبكيك مبتسم ... الخ (١)

ورد على قصيدة طلائع التي مطلعها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائـم   وتمضي لدى الحرب السيوفُ الصوارم

قصيدة :

لك الفضلُ من دون الورى والمكارم   فمَنْ حاتم ، ما نال ذا الفخرَ حاتـم

. . . .

رميتَ العدى بالأُسْد في أَجَم القنـا   على الجُرْد ، تقتادُ الردى وهو راغـم
بخيل أتيّ السيل ، ضاق بها الفضـا   وضاق على الأعداء منه المخـارم
يباريه شهبَ القذف يحملن مثلهـا   من الحتف للباغي الرجيم رواجـم

---

(١) ديوانه ص ١٤٦ ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ الخريدة قسم شعراء الشام ج١ ص ٥٣٤

سرايا كمون البحر في ليل عثير … به من عواليهم نجوم نواجم
تسير جيوش الطير فوق جيوشها … لها كل يوم من عداها ولائم
فإن خفض الفرسان للطعن في الوغى … رماحهم انقضت عليها القشاعم
تخوض منها فوق غرة عارض … سحاب المنايا فوقه متراكم
فللنقع سحب والسيوف بوارق … وللدم وبل والنبات جماجم
بوارد منها الموت لا النيل يرتجى … أشائم لا يروى بها الدهر شائم
عليهم لراج غير عفوك ملجأ … وليس لعاص لم ينب منك عاصم
تنزهت عن أموال من أنت قاتل … فقد جهلت بين الجيوش المقاسم
فنهبك أرواح تنقلها الظبى … وسمر العوالي والبلاد مغانم

. . . .

يشن أبو الغارات غارات جوده … على ماله وهو المدابن المسالم
ويبعثها شعث النواصي كأنها … ذئاب الفلا تردى عليها الضراغم
تلظى بأرض المشركين كأنها … صواد الى ورد حوام حوائم
فويح العدى من بأسها إنما سرى … إليها ولم تشعر ردى وأداهم
لهم جزر للبيض والبيض كالدمى … سبايا تهادى والبلاد مغانم
غزوتهم في أرضهم وبلادهم … وجحفلهم في أرضها متزاحم
فأفنيتهم قتلا وأسرا بأسرهم … فما منهم مستسلم أو مسالم
فلما أبادتهم سيوفك وانجلت … عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
غزوتهم في البحر حتى كأنما الأسـ … ـاطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنها … على الماء طير ما لهن قوادم
يسيرها فرسانها باعنة … جرت حيث لم توصل بهن الشكائم
اذا دهموها تلك فرسان غارة … سروا بجياد ما لهن قوائم
يحوم أساطيل الفرنج إليهم … حمام وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر بحر سوائح … ودماؤهم في البر سحم جواثم
فلم يخش في فج من الأرض هارب … ولم ينج في لج من الماء عائم
وعاد الأسارى مردفين وسفنهم … تقاد كما قاد المهاري الخزائم
وقد شمر الملكان في الله طالبي … رضاه بحزم لم تعقه اللوائم
بجد ذوي العضب الحسام وحده … لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدين والله قائم … بنصرهما ما دام للسيف قائم
وما دون أن يفنى الفرنج وتفتح البـ … ـلاد سوى أن يمضي العزم عازم
فيا ملكا قد أحمد الله سعيه … ونيته والله بالسر عالم
تهن ثناء طبق الأرض نشره … هو المسك لا ما ضمنته اللطائم
ثناء به يحدو الحداة وينشد الـ … ـرواة وتشدو في الغصون الحمائم
يسير مع الركبان أنى تيمموا … على أنه في ساحة الحي ناجم ... (١)

---

(١) الروضتين ص ٢٢٤

وله في صلاح الدين قصيدة منها :

الناصر الملك الموفي بذمته ... ومن ندى كفه يغني عن الديم
ومن إذا جرّد البيض الصوارم في الـ ... ـهيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في أنـ ... ـتزاعه بشبا الهندية الخذم
وردّ طاغية الإفرنج يحسب ما ... رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت ... بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يتعدّون على ما فاتهم نفسا ... لو لافم البحر أضحى اللون كالحمم
وفي السلامة لولا جهلهم ظفر ... لمن أراد نزال الاسد في الأجم
وهم أسود الشرى لكن أذلهم ... ملك لديه الأسود الغلب كالنعم (١)

وكتب الى ابن عمه الأمير ناصر الدين تاج الدولة ابي عبد الله محمد بن سلطان بن علي بن مقلد يحثه على تخليص أخيه من أسر الفرنج ، يقول :

يا ناصر الدين ، يا ابن الأكرمين ومن ... يغني ندى كفه عن وابل الديم
....
تولي الجميل بلا منّ تكدّره ... لا كدّر الله ما أولاك من نعم
هذا ابن عمك في أسر الفرنج له ... حول تجرّم ، في الاغلال والظلم
يدعوك لا بل أنا الداعي نداك له ... يا خير من علقته كف معتصم
وأنت أكرم من تثنيه عاطفة القر ... بى ، ويرجوه للجلّى ذوو الرحم
ومن تكن أنت مولاه وناصره ... فكيف تسطو عليه كف مهتضم ؟ ... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

لهفي لفقد شبيبتي وزماني ... وترّوحي لفتوّة وطعان

ومنها :

يا ناصر الاسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الايمان
بك قد أعزّ الله حزب جنوده ... وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم الشيـ ... ـطان بالإلحاد والعصيان
جرّدت سيفك في العدى لا رغبة ... في الملك بل لطاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب وانثنوا ... بالسيف ما رفضوا من الصلبان
وغضبت لله الذي أعطاك فيـ ... ـصل الحكم غضبة ثائر حرّان
فقتلت من صدق الوغى وهزمت من ... نجّى الفرار بذلة وهوان
وبذلت أموال الخزائن بعد ما ... صرمت وراء خواتم الخزّان
في جمع كل مجاهد ومجالد ... ومبارز ومنازل الاقران
من كل من يرد الحروب بابيض ... عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥

(٢) ديوانه ١٤٩

ويخوض نيرانَ الوغى ، وكأنه ... ظمآن خاض مواردَ الغدران
قومٌ إذا شهدوا الوغى قال الورى ... ماذا أتى بالأُسْد من خفّان ؟
لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا ... أركانها بالبيض والخرصان
فيهم الذخيرة للوقائع بالعدى ... والفتح ما استعصى من البلدان ... (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٢٠

قال يمدح بعض ذرية صلاح الدين :

مليك من القوم الذين رماحهم   دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا موزرا   بعز في الآفاق كل موحد
وهم قهروا غلب الفرنج بيأسهم   فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد
وردوا الى البيت المقدس نوره   وقد كان في ليل من الشرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا   بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر أيلة   يخوضون في بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصرا الى دعوة الهدى   بعزم ورأي في العظائم مصمد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالندى   أعادوه منحة طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها   وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز الممالك واكتفوا   بسمر العوالي والصفاح المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم مضت   بحز مراد الله في كل أصيد
وصحف حديث العدل والبأس والندى   اذا كان عن أيامهم غير مسند (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧

قال يمدح صلاح الديـــــن :

دع مهجة المشتاق من أهوائهـــــــا ... يالائمي ، ما أنت من نصحائهـــــا

ومنهـــا :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحـــــا ... يا كفأها ما العذر عن عذرائهـــــا
زفّت اليك عروس خدر تجتلــــــــى ... ما بين أعبدها وبين إمائهـــــــا
ايه ، صلاح الدين خذها غـــــادة ... بكرا ملوك الارض من رقبائهـــــا
كم خاطب لجمالها تـــــــد رده ... عن نيلهـــا أن ليس من أكفائهـــا (١)

(١) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٨٥ ـ ٨٦

قال في فتوحات صلاح الدين :

أترى مناما ما بعيني أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي ... بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الامام الاطهر
ولانت عثمان الشريعة بعده ... ولانت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به ... يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه ... فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع ، حيث السيو ... ن خواشع ، حيث الجباه تعفر
غاراته جمن فان خطبت لسه ... فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لا ترى الا طلى بسنابك ... تخدى فصالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أنجاء الثرى ... فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدى عرجا ولا ... عرج بها لكنها تتعثر (١)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٥

العماد الاصفهانــــي ــ٥٩٧هـ

قال يمدح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة ٥٦١ هـ بقصيدة مطلعهـا :

يوم النوى ليس من عمري بمحســــوب … ولا الفراق إلى عيشي بمنســـــوب

ثم يقـول :

اخوك وأبنك ، صدقاً منهما ، اعتصمـا … بالله ، والنصر وعد غير مكـــذوب
هما حامان في يومي وغى وقــــرى … تسودا ضرب هام او عراقيـــب
غدا يشبان في الكفار نار وغـــى … بلفحها يصبح الشبان كالشيـــب
بملك مصر ونصر المؤمنين غـــدا … تحظى النفوس بتأنيس وتطييـــب
ويستقر بمصر يوسف وبـــــه … تقر بعد التنائي عين يعقـــوب
ويلتقي يوسف فيها باخوتـــــه … والله يجمعهم من غير تثريـــب (١)

وقال في تهنئة أسد الدين شيركوه ملك مصر سنة ٥٦٤ هـ :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعـــب … كم راحة جنيت من دوحة التعـــب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة مـــن … نادى ، فعرّف شير أبن بغــــيراب
جرى الملوك وما حازوا بركضهـــم … من المدى في العلى ما حزت بالخبب
تحلّ من ملك مصر رتبة قصــــرت … عنها الملوك فطالت سائر الرتـــب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بهـــا … ميسّراً فتح بيت القدس عن كثـــب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة مـــن … فتح البلاد ، فبادر نحوها وثـــب
أنت الذي هو فرد من بسالتـــــه … والدين من عرفه في جحفل لجـــب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجىً … والقلب في شجن ، والغمر في شجـــب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيــت … حمرُ المنايا بها مرفوعة الحجـــب
وإنها نقدّ من خلفها أســـــد … أرى سلامتها من أعجب العجـــب
لقد رفعنا الى الرحمن أيدينـــا … في شكرنا ما به الاسلام منك حبي
شكا اليك بنو الاسلام يتمهـــم … لقمت فيهم مقام الوالد الحـــدب
في كل دار من الافرنج ناد بـــة … بما دماؤهم ، فقد باتوا على نــدب
من شر شاور أنقذت العباد فكـــم … وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الافرنج في بلد الا … سلام حتى سموا للقصد والطلـــب
وإن ذلك عند الله محتســـــب … في الحشر من أفضل الطاعات والقـــرب
أن له الملك المنصور منتصـــراً … لمّا دعا الشرك : هذا قد تحزّبـــوا

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٦٩

وما غضبت لدين الله منتقماً ... إلّا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وأنت من وتشفي الكفر هيبتُه ... وفي ذويه وتوع النار في الحطب
وحين سرت الى الكفار فانهزموا ... نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محييَ الأمة الهادي بدعوته ... للرشد كل غويّ منهمُ وغبي
لمّا سعيت لوجه الله مرتقباً ... ثوابه ، نلت عفوا كل مرتقب
أعدتَ نقمة مصر نعمة ، فغدت ... تقول : كم نكتةٍ لله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها ... عدلاً ، وكنت لوزر غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسيّة ، ودع الـ ... ـدعي فيها يصادفْ شر منقلب
لا تقطعنّ ذنب الأفعى وترسله ... فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب (١)

وبعث الى الخليفة الناصر قصيدة يبشره بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أبشرْ بفتح أمير المؤمنين أتى ... وصيته في جميع الارض جوّاب
ما كان يخطر في بال تصوّره ... واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه الملوك الاقدمون وقد ... مضت على الناس من بلواه أحقاب
وجاء عصرك والايام مقبلة ... فكان فيه لقيد الكفر انضاب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه ... ايجازه ببليغ القول إسهاب
قرن الظبى بالظبى في الحرب يطربه ... لا قينة غنّت باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه ... لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للإسلام قد فتحت ... في قمع طاغية الإشراك أبواب
ففي موافقة البيت المقدس للـ ... ـبيت الحرام لتائيه وإعجاب
والصخر والحجر الملثوم جانبه ... كلاهما لاعتمار الخلق محراب (٢)

وقال يرثي السلطان صلاح الدين بقصيدة عدد أبياتها مائتان واثنان وثلاثون بيتا أولها :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشيّةً ... مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعتنا ... مبذولة ولربّه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق العدا أسيافه ... أطواق أجياد الورى منّاته
لم يجد تدبير الطبيب وكم ... أجْدَتْ لطبّ الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٣ وانظر تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١ ص ٤٥ وعقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقة ٤٢٣ (٢) الروضتين ٢/ ١٠٢

من في صدور الكفر صدر قناته ... حتى توارت بالصياح قناته
لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة ... روحاته ميمونة ضحواته
في نصرة الاسلام يسهر دائما ... ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد ... فممات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا ... أبداً اذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره ... لما خلت من بدره داراته
دمن السماح فليس ينبش بعد ما ... أودى الى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف ... أقوت تواه وأقفرت عرصاته
جهل تضعضع من تضعضع ركنه ... أركاننا وتهدنا هداته
ما كنت أعلم أن طودا شامخا ... يهدى ولا تهوى بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحرا طاميا ... فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل ... محفوفة بوفوده حفاته
من لليتامى والارامل راحم ... متكفل مفروضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لانزلت ... في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما ... رضوان ربّ العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب ... تمضِ لرحمة ربّه سقياته
وكمادة البيت المقدس يحزن الـ ... ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل اذ خلت ... من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأ لحزن مصابه ... إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في أغمادها ... لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الاسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الندى ... يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه ... أسد وإنّ بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ... فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به ... يبدي الثبات وقد بدت شياته
والبشر منبلج أنواره ... والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمه ... في سرقة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه ... لهم فقيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه ... واليوم هم حول السرير مشاته
وممالك الآفاق ساعية له ... فمتى تجيء بفتحهن سناته
تهدى مناشير الممالك تقتضى ... توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها ... هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جد وعرضه ... واذا أمرت تجدد نفقاته
والقدس طامحة اليه عيونه ... عجل فقد طمحت اليه عداته

والغرب منتظر طلوعك نحـــــــوه
حتى تفيء الى هداك بغاتـــــــه
والشرق يرجو عزب عزمك ماضيـــــا
في ملكه حتى تطيع عصاتــــــه
مغرى بأعداء الجميل كأنمــــــا
فرضت عليه كالصلاة صلاتــــــه
هل للملوك مضاء في موقــــف
شدت على أعدائه شداتـــــه
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهـــم
رجحت وقد نجحت به مسعاتـــــه
كم جاء بالتوفيق في وقعاتـــــه
من كان بالتوفيق توقيعاته ... الخ (١)

وهنا نور الدين بفتح منبج سنة ٥٦٢ وحرضه على فتح القـــدس :

بشرى الممالك فتح قلعة منبـــج
فليهن هذا النصر كل متـــوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به
في الملك يفتح كل باب مرتـــج
وافى يبشر بالفتــــوح وراءه
فانهض اليها بالجيوش وعـــرج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجـــا
ولتنبي لسواه كالأنمـــوذج
ما أعجزتك الشهب في أبراجهـــا
طالبا فكيف خوان في أبـــــن
والقدر من يسميك أحتر أن يســرى
أثر السبوء بوجهك المتبلــج
لكن تهذب من عصاك سياســـة
في ضمنها تقويم كل معـــوج
فانهد إلى البيت المقدس غازيــا
وعلى طرابلس وناباس عـــرج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة
مأثورة وسلكت أوضح مسلــك
وجمعت ما استقريت من سنن الهـــدى
جددت منه كل رسم مهيـــج (٢)

وهنا السلطان صلاح الدين بفتح الموصل وحثه على فتح القـــدس :

فالحمد لله الذي أفضالـــــه
حلو الجنا وعلى السنا وضاحـــه
عاد العدو بالمحق من ظلمـــه
في ليل ويل قد جنا صباحـــه
وجنى عليه جهلـه بوقوعـــه
في قبضة البازي فهيض جناحـــه
حمل السلاح الى القتال وصادري
أن الذي يجني عليه سلاحـــه
أضحى يريد مواصلي صدوده
وغدا يجيد رثاءه مداحـــه
ان أفسد الدين الفلاة بعقتهـــم
فالناصر الملك الصالح صلاحـــه
قد كان عزمك بالإله معتصمـــا
فيهم فلاح كما رأيت فلاحـــه
وكأنني بالساحل الاقصى وقـــد
ماست بنحر دم الفرنجة ساحـــه
فأعبر الى القوم الفرات ليشربوا السموت الأجاج فقد طمى طفاحـــه
لتفك من أيديهم رهن الرهـــا
عجلا ويدرك ليلها إصباحـــه
وأبغوا لحران الخلاص فكم بهـــا
حران قلب نحوكم ملتاحـــه
نبئوا البلاد من البلاء بعدلكـــم
فالظلم باد في الجميع صراحـــه
واستفتحوا ما كان من مستغلــق
فيها فربكم لكم فتاحـــه

(١) الروضتين ج ١١٥/١١٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٠

أنتم رجال الدهر، بل فرسانه   ولذي الحلوم الطائشات رجاحه
فتّاكه ، نسّاكه ، ضرّاره   نفّاعه ، منّاعه ، منّاحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه   مطعانه ، مقدامه ، جحجاحه
وإذا اغتدى في محفل فحييّه   وإذا غدا في جحفل فوقاحه (١)

قال يمدح نور الدين ويصف الزلزلة سنة ٥٦٥ه بقصيدة مطلعها :

هل لماني الهوى من الأسر فادي   ولساري ليل الصبابة هادي

ثم يقول :

جلّ رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأر   ض وهدّت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس   تركتهم صرعى صروف العوادي
خلفت في قلاعها كل عال   وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض   ظهر سرّ غيبه فهو بادي
آية أثرت ذوي الشرك بالهلك وأمن التوحيد بالارشاد
والأعادي جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد
أشركت في الهلاك بين الفريقين : دعاة الإشراك والإلحاد
ولقد حاربوا القضاء ، فأمضى   حكمه فيهم بغير جلاد
والإله الرؤوف في الشام عنّا   دافع لطفه بلاء البلاد (٢)

ومن قصائده قصيدة عدد أبياتها مائة واثنان وخمسون بيتاً أولها :

تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى   وبسطة أمر أغريت من تمردا
لسرعة فتح القدس سرّ مغيب   وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كحبال أبرمت لانسارنا   فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا   فبعناهم بالرخص جهرا على الندى
وجروا جيوشا كالسيول على الصوى   فأضحت غثاء في البطاح مبددا
وقالوا ملوك الارض طول تيادنا   اذا الكل منهم في القيود مبددا
وقد أقطع الكند العراق موقعا   فأودع سجنا وسط جلق موصدا
واقسم أن يسقي بدجلة خيله   فما ورد الأردن الا مصفدا
فكم واثق خجلان قهقه خصمه   وكم سائق عجلان قهقر مقصدا
أتى الكند من إسبان يحمي قمامة   فكان تقضي ملكه قبل يبتدى

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥١
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٨ ــ ٤٧٠ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٤٦ ــ ٥٠

فما عقد الرايات الا محلــــــلا ... ولا حلّل الرايات الا معقــــــدا
ووقعة يوم التل اذا قبضت بـــــــه ... جبابرة الإفرنج شيرى وشمــــــرّدا
عليهمْ من البلوى مواد ق ذ لـّـــــة ... ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيــــــدا
ترى المنسر الديويّ يلقي سلاحــــه ... كشلة عصفور من الريش جُــــــرّدا
فتلقى نصارى جلّقٍ في مآتـــــمٍ ... يسرّونها إلا أشجى وتنهّــــــدا
ألم تر للسلطان صدّقَ نـــــــذرَه ... دم الغادر الإبرنس فاقتيد أرمــــــدا
وباشره بالقتل وسط جنابــــــه ... وعاينه الكند المليك فارعــــــدا
وضاقت بنفس القمّص الأرض مهربــا ... فأدركه الموت المفاجي مكمـــــدا
وما طرق الاسماع من عهـــــد آدم ... كملحمة التلّ التي تلت المــــــدى
أتوا واديا ما زال ينفي خباثتـــــا ... ويمشي بمستقبل الدار طائفة الهـــــدى
به جئت أصحاب ليكة وهي فـــــي ... ذراه وذا فيه شعيب تأيـــــدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصــا ... لأمر صلاح الدين في الناس مخلــــدا
وأعدى جنود الرعب يردى عداتــــه ... وسلّم جمع المسلمين مجنّـــــدا
ومن عجب خمسون ألف مقاتـــــل ... سبتهم جيوش ليس فيها من ارتــدى (١)

وقال يمدح نور الدين بقصيدة مطلعهـــا :

لو حفظت يوم النوى عهود شــــا ... ما مطلت بوصلكم وعود شــــا

ومنهـا :

ان الرعايا منه في رعايـــــة ... ونعمة مستوجب مزيد شـــــا
لنومها يسهر ، بل لأمنهـــــا ... يخاف ، بل يخصبها بجود شــــا
بالدين والملك له قيامــــــه ... وللملوك عنهما قعود شـــــا
ودأبه لثم ثغور الكفـــــر ، لا ... لثم ثغور نافح برود شـــــا
قد أسبغ الله لنا بعد لـــــه ... ظلال أمن وارف مديد شـــــا
غدا ملوك الروم في دولتــــه ... وهم على رغمهم عبيد شـــــا
لما أبت هاماتهم سجود شــــا ... لله ، أضحى للظبا سجود شـــــا
إن فارقت سيوفه غمود شــــا ... فإنّ هاماتهمُ غمود شـــــا
كم مغلقات ، من حصون عزمـــه ... مفتاحها ، وسيفه إقليد شـــــا
وقد ودّت الافرنج لو قرّت نجـــــت ... منه ، ولكن روعها يبيد شـــــا
قهرتها حتى لودّ حيّهـــــا ... من ذلة لو أنه فقيد شـــــا
أباتها رعبك في حصونهـــــا ... كأنما حصونها لحود شـــــا
وإنّ مصرا لك تعنو بعد مـــــا ... لسيفك العضب عنا صعيد شـــــا
والحلة النرّاء خال بالهـــــا ... عالٍ سناها ، بك حالٍ جيدُ شـــــا

---

(١) الروضتين ١ / ١١٧

مفترة ثغورها ، ممنوعــــــــة	ثغورها ، محفوظة حدودهـــــا
وإن بغى جاوتها ضلالــــــــة	فانت في ادراكه داودهـــــا
يا ابن قسيم الدولة الـــــذي	خرت له من الملوك صيدهـــا
دع العدا بغيظها ، فإنمـــــا	يذيب أكباد العدى حقودهـــا
يا دولة نورية أمن الـــــورى	وتحسبها ، وجودها ، وجودهـا
ما تحل الدنيا لمن يجمعهــــا	بالحرص الا قرة ودودهـــا
انت الذي يرفعها عن قــــدرة	فلا يشوب زهــــده زهيدهـــا
ثابتة لنا يا ملكا ، بقــــاؤه	في كل عام للرعايا عيدهـــا
في نعمة جديدة سعودهـــــا	ودولة سعيدة جدودهـــا (١)

وانشد أسد الدين شيركوه فـــي سنة ٥٦٣ :

دمت في الملك آمرا ذا نفـــاذ	أسد الدين شيركوه بن شـــاذي
يا كريما عن كل شهر بحليفــا	والى الخير دائم الاغـــداذ
وملاذ الاسلام أنت ، فــلازلـــ	ـت لاهل الإسلام خير مـــلاذ
في نفوس الكفار رعبك قـــد حـــ	ـل بصدع الاكباد والافــــلاذ
لم تدع بالظبى ، رؤوساً وأصنامـــ	ـاً من المشركين غير جـــذاذ
أنت من نازل الدعيين فــي مصـــ	ـر لنصر الامام في بغـــداذ
وبلاد الاسلام انقذتهـــا أنـــ	ـت من الشرك أيما انقـــاذ (٢)

قال يمدح اسد الدين شيركـــوه سنـــة ٥٦٢ :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشــــر	ونلت ما عجزت عن نيله القــــدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت لــه	ومن له مثل ما أثرته أثـــــر
أسرت أم بسراك الارض قد طويــت	فانت اسكندر في السير أم خضـــر
أوردت خيلاً باقصى النيل صادرة	عن الفرات يقاضي وردها الصــدر
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لهـــا	الا حديثك ما بين الورى سمـــر
فانت من زانت الايام سيرتـــه	وزاد فوق الذى جاءت به السيـــر
لو في زمان رسول الله كنت ، أتت	في هذه السيرة المحمودة الســـور
أصبحت بالعدل والاقدام منفـــرداً	فقل لنا : أعلي أنت أم عمـــر
إسكندر ذكروا أخبار حكمتـــه	ونحن فيك رأينا كل ما ذكـــرا
ورستم خبرونا عن شجاعتـــه	وصار فيك عيانا ذلك الخبـــر
أفخر ، فإن ملوك الارض أذ هلهـم	ما قد فعلت ، فكل فيك مفتكـــر
سهرت اذ رقدوا ، وهجت إذ سكنـــوا	وصلت اذ جبنوا ، بل طلت اذ قصـــروا
يمته ظنون الذي أدركته عجبـــا	وذاك في جنب ما نرجوه محتقـــر

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٧

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٨٣

تمنى القضاء بما ترجوه عن كثب … حتماً ، ووافقك التوفيق والقدر

شكت خيولك إدمان السرى ، وشكت … من قلبها البيض ، بل من حملها السمر

يشرت فتح بلاد كان أيسرها … لغير رأيك اقفال فتحه عسر

قرنت بالحزم منك العزم ، فاتسقت … مآرب لك عنها أسفر السفر

ومن يكون بنور الدين مهتديا … في أمره ، كيف لا يتوى له الضرر

يرى برأيك ما في الملك يبرمه … فأنت منه بحيث السمع والبصر

لقد بذت نفثة الإفرنج فانتصفت … منها ، بإقدامك ، الهندية البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم … أشجار خط لها من هامهم ثمر

وسال بحر نجيع في مقام وغى … به الحديد غمام ، والدم المطر

أنهرت منهم دماء بالصعيد جرى … منها الى النيل في واديهم نهر

رأوا اليك عبور النيل اذ عدموا … نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا

تحت الصوارم هام المشركين ، كما … تحت الصوالج يوما خفت الأكر

أفنت سيوفك من لاقت ، فإن تركت … قوماً فهم نفر من قبلها نفروا

لم ينج الا الذي عافته من خبث … وخشية القتل ، وهو للمحذور منتظر

والساكنون القصور القاهرية قد … نادى القصور عليهم أنهم قهروا

وشاور شاوروه في مكائدهم … فكان ما الكيد لما خانه الحذر

كانوا من الرعب موتى في جلودهم … وحين أمنتهم من خوفهم نشروا

وإن من شيركوه الشرك منخزل … والكفر منخذل ، والدين منتصر

عول على ثقة عند اللقاء وثبت … وعد عن تركمان قبله غدروا

وكيف يخذل جيش أنت مالكه … والقائدان له التأييد والظفر

أجاب نبي اله الحق دعوة من … يطيب بالليل من أنفاسه السحر (١)

وقال في صلاح الدين ، وهي أول كلمة خدمه بها :

كيف تلتم بمقلتيه ثغور … وأراها بأن تغور تجور

ومنها :

لان بالنيل شاور مثل ترجو … ن ، فذل اللاجي وعز المجير

شارك المشركين بنيا ، وقد ما … شاركتها قريظة والنضير

والذي يدعي الإمامة بالقا … هرة ارتاح إنه مقهور

وغدا الملك خائفاً من سطاكم … ذا ارتعاد كأنه مقرور

وبنو المهتري هانوا فقروا … ومن الأسد كل كلب فرور

إنما كان للكلاب عواء … حيث ما كان للأسود زئير

وتليب عند الفرار سايب … فهو بالرعب مطلق ماسور

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢

لم يبقوا سوى الأصاغر للسبي ... فودّوا أنّ الكبير صغير
وحمى الإسكندرية عنهم ... ورحى حربهم عليهم تدور
حاصروها وما الذي بان من ذنبـ ... ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب طيبة قدماً ... ونبيّ الهدى بها منصور
فاشكر الله حين أولاك نصرا ... فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم أرجف الاعادي ، فقلنا ... ما لما تذكرونه تأثير
ورتبنا كالعيد عودك فاليو ... م به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف والى يعـ ... ـقوب بالتهنئات جاء البشير
فالأيوب من اياب صلاح الد ... ين يوم به توفّى النذور
ولكم عودة الى مصر بالنصـ ... ـر على ذكرها تمر العصور
فاستردوا حق الإمامة ممّن ... خان فيها فإنه مستعير
وافترعها بكرا ، لها في مدى الدهـ ... ـر رواح في مدحكم وبكور ... الخ (١)

وقال في وصف دمشق ومدح صلاح الدين :

مطلعها :

أجيران جيرون مالي مجير ... سوى عدلكم فاعدلوا أو فجوروا

ومنها :

وكم قد غلبت جموع الفرنج ... بحد اعتزام شباه طرير
بضرب تحذف منه الرؤوس ... وطعن تخسف منه النحور
وغادرت غادرهم بالعراء ... ومن دمه كل قطر غدير
يجرد عليها رجال الهياج ... كأنّ صقورا عليها صقور
من الترك عند دبابيسها ... صحاح الطلى والهوادي كسور
سهام كنائنها النائرات ... لهن قلوب الأعادي وكور
وعش لهم مثل صيد الصوار ... اذا حاولوا الفتح صيدا وصور
بجيشك أزعجت جأش العدو ... فما نفر منه الا نفور
تركت مصارع للمشركين ... بطون القشاعم فيها قبور
تزاحم فرسانها الضاريات ... فتصدر فيها النسور النسور
وان تولد بكر الفتوح ... اذا ضربت بالذكور الذكور ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٢ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٣٦

(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ١٩ ـ ٢٩

وقال يمدح صلاح الدين ويعزيه بمصر :

أيا يوسف الاحسان والحسن ، خير محسن … حوى الفضل والأفضال والنهي والامرا

ومن للهدى وجه النجاح برأيه … تجلّى ، ونشر النصر من عزمه افترا

حمى حوزة الدين الحنيف بحبوزه … من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا

أبوه أبي الآلاء ، وعمّه … بمعروفه عم الورى : البدو والحضرا

وطال الملوك شيركوه بطوله … وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا

بنو الاصفر الافرنج لاقوا ببيضه … وسمر عواليه مناياهم حمرا

وما أبيضّ يوم النصر واخضر روضه … من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرا

رأى النصر في تقوى الإله ، وكل من … تقوّى بتقوى الله لا يعدم النصرا

ولما رأى الدنيا بعين ملالة … أغذّ من الاولى مسيرا الى الاخرى

وقام صلاح الدين بالملك كافلا … وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا

ولما صبت مصر الى عصر يوسف … أعاد اليها الله يوسف والعصرا

فاجرى بها من راحتيه بجوده … بحارا ، فسامتا الورى أغلا عشرا

هزمتم جنود المشركين برعبكم … فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا

وفرّقتم من حول مصر جموعهم … بكسر ، وقاد الكسر من أهلها جبرا

وأمنتم فيها الرعايا بعدلكم … وأطفأتم من شر شاورها الجمرا

بعفكم دم حطتم دماء كثيرة … وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا

وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا … لكم من دماء الغادرين بها غدرا

فصبوا على الإفرنج سوط عذابها … بأن تقسموا ما بينها القتل والاسرا

ولا تهملوا البيت المقدس ، واعزموا … على فتحه غازين ، وافترعوا البكرا

تديمون بالمعروف طيب ذكركم … وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا

وانّ الذي أثرى من المال مقتر … وإنْ يغنه في كسب محمدةٍ أثرى (١)

وقال في إعلان الخلافة العباسية بمصر :

وأقمنا بها شعار بني العباس ، فاستبشرت وجوه النصر

وتركنا الدعيّ يدعو ثبورا … وهو بالذل تحت حجر وحصر

وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشميّ في أرض مصر

ولدينا تضاعفت نعم الله ، وجلّت عن كل عدّ وحصر

فاغتدى الدين ثابت الركن في مصر ، محوط الحمى ، مصون الثغر

واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغرّ

وبنو الأصفر التواعس منه … بوجوه من المخافة صفر

عرف الحق أهل مصر ، وكانوا … قبله بين منكر ومقرّ

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٥٤ وعقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقة ٤٣٩

قل لداعي مصر : حسبك ، فالله أقر الحقوق خير مقر
هو فتح بكر ، ودون البرايا — خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد ، والأجر والنصر ، وطيب الثنا ، وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهراً — للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقاً — تدعى بينهم لزيد وعمرو
والذي يدعي الامامة بالقاهرة انحط في حضيض القهر
خانه الدهر في مناه ، ولا يطمن ذو اللب في وفاء الدهر
ما يقام الامام الا بحق — ما تحاز الحسناء الا بمهر
خلفاء الهدى سراة بني العباس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظاهر ، مستقيم — الامر قوة ، قوي الظهر
كشموس الضحى ، كمثل بدور التم كالسحب ، كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد — وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس تثرى الرجال من ملك المال ، ولكنما أخو اللب مثري
ولهذا لم يختلف صاحب القصر ، وقد شارك الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بني العباس حتى يقوم يوم الحشر (١) .

وقال في تهنئة نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٤ :

عيدان : فطر وطهر — فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه — حقاً هناء وأجر

ومنها :

يا أعظم الناس قدراً — وهل لنظيرك قدر
وساهر حين ناموا — وقائماً حين قروا
ما أعقبته الأوفاء — وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو — المشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم — للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر — الى ابتسامك ثغر
روم به وفرنج — في شغلهم لك وتر
حرب هوان ونضج — على مرادك بكر
يمسي الاصاغر من خشية انتقامك صغر
لم يبق للكفر ظفر — لاكان للكفر ظفر
وما دجى ليل خطب — الا وعزمك فجر

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٢

أصبحت بالنصر عبستا ... وعنصه مالك عبير
اكبر كل يتيم ... اسماك بزاك جبير
في كل قلب جسود ... من حرّ باسلك جهير
تحل تطهير طسلك ... له الملوك تشير
يزهى سرير وتيجان ... به ود سمتا وصدور
وكيف يحمل للطا ... در المطهر طهر
هذا الظهور ظهور ... على الزمان وأمير
وذا الفتيان ختام ... بمسكه طاب نشر
رزقت عمرا طويلا ... ما دام للك نشر عمر (١)

وقال في فتوحات صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

في باطن الغيب مالا تدرك الفِكَرُ ... غدو البصيرة في الأحداث يصتبصر
مالي أرى ملك الافرنج في تفكٍ ... أين القواضب والعسّالة السمر
والاستتار إلى الداوية التاموا ... كأنهم سد ياجوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عذبا بسيرتها ... وفي المقادير ما تسلي به العبر
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب ... بجحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا ... تهودوا أبكار الطعن قد سكروا
ويا صريع شعيب ما طمحوا ... كمدين أم لقوا رجفا بما كفروا
حلّوا بحطين ملكا كانوا عجبا ... في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليوم صلاح الدين مفترسا ... وهو المظفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته ... كسرب طير حواها القانص الذكر
وانجز الله السلطان موعده ... ونذره في كفور دينه البطر
وناين الملك الإبرنسي في دمه ... فمات حيا وحقّ وهو يحتضر
رأى مليكاً ملوك الارض تتبعه ... والنجم يخدمه والشمس والقمر
اذا بدا تبهر الاعيان هيبته ... ويختفى وهو في الأذهان مشتهر
تقدّم الجيل في أخرى الزمان به ... على صدور على من قبلنا صدروا
أما رأيتم فتوح القادسيه في ... أكناف لوبية تجلى وذا عمر
والحق يسري والطغيان منتحب ... والكفر يطمس والايمان مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبيّ به ... في فتنة البغي للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت ... له الرواة بما لم ينوه أشر
وصنع ذي المرهف ابداع بلا سيف ... فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطر
بينا سباياه تجلى في دمشق اذا ... ملك الفرنج من الاتراك منتجر
ازاه زعماء الساحلين مصا ... مصفّدين بحبل القهر قد أسروا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٧٩

يتلوهم صلبوت سيق منتكسا … وحوله كل قسيس له زبر
ونحن في ذا وذا طير صحيفته … بفتح عكا التي سدت بها الثغر
تغزو أساطيلنا منها صقلية … فتذعر الروم والصقلاب والخزر
منذا يقول لصلح القدس منفتح … اليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها فخذ سفنا … من باب عكا الى طرطوس تنتشر
يسبي فرنجة من أقطارها ولـه … مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعض ابنائه بالقدس منتدب … وبعضهم رومة الكبرى له وطر
براية تخرق الارض الكبيرة في … جمع تقول له الاجسام لا وزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما … بدأت فالصب للمحبوب مذكر (١)

وقال فيه بعد ان اخذ حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز:

أعطاه رب العالمين دولة … عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلا ببأسه وجوده … وهو أحق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزا غني المـ … ـلوك في الجد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرا: رومها … أرغسها ، فرنجها ، انجازها
تفاخر الاسلام من سلطانه … تفاخر الفرس بأبراوازها
تهن من فتح عزاز نصرة … أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فانها … كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنثني كمشتكينها … كما انثنت بغداد من قيمازها
برزت في نصر الهدى بحجة … وضوح نهج الحق في ابرازها
كم حامل للرمح عاد مهديها … عجز عجوز الحي عن عكازها
ارض خطوطي من حضيض نقصها … وعد عن شمازها لمازها
والشعر لا بد له من باعث … كحاجة الخيل الى مهمازها (٢)

وقال يمدح تقي الدين عمر سنة ٥٨٣ بقصيدة تشتمل على مائة وأربعين بيتاً مطلعها :

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا … فقد تلفت منا قلوب وأنفس

ومنهـا :

رددت كراديس الفرنج وكلهم … لدى الأسر في غل الصغار مكردس
وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم … وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أفاد دم الانجاس طهر سيوفكم … وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجدا … فللنصر انية تتمجس

(١) الروضتين ٢/١١٦

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥٢

وكم كفى الاسلام سوءاً بملككم ... كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفتح البيت المقدس غيركم ... وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم في جهاد مثلث ... اذا نصروا التوحيد في مخمس
اذا ما تقى الدين صال تساقطت ... لأقدامه من عصبة الشرك أرؤس
وما عمر الاشبية سميه ... شديد على الاعداء ثبت عمرس (١)

وقال في يوم حطين والقدس :

يا يوم حطين والأبطال عابسة ... وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا ... معفرا خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد ... أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه ... كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوما بغدرته ... والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا
عرّى ظباه من الأغماد مرتقبة ... دما من الشرك ردّاها به وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس ... من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا ... وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

ومنها :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث الى ليل أنطاقية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا ... فإنهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى ... تقصد طرابلساً فانزل على قدسا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بفتح القدس وغيرها سنة ٥٨٣ : مطلعها :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا ... وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

ومنها :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا ... وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الارض سبعة أبحر ... ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى ... وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

(١) الروضتين ٢ / ٧١
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٨٣ ، ١٠٢

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا … ينير بما يولي ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم … عداتك جن الارض في الفتك لا الإنسا
فلم يستعد القدس غيرك في الورى … فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا … فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم … فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها … وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه … فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة … بأن أذان القدس قد بطل القدسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت … ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

. . . .

وقد طاب ريانا على طبرية … فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى
وعكا وما عكا فقد كان فتحها … لإجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها … بسيفك ألقى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف وتبنى وغزة … تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم … فمنظره بل أمره أربد وارجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم … فلا تبطئوا عنها وحثوهم حسا
توكل على الله الذى لك أصبحت … كلاءته ورعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم … فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تعترضك الشرق غربك غروبا … بماء الطلى من صاديات الظبى انغمسا
وان بلاد الشرق مظلمة فخذ … خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكراك فاقصد بلادهم … بعزمك واملأ من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم … وقد طاردت عنه ذئابهم الطلسا

ومنها :

صحبت على الاردن ردنا من القنا … ردينية ملدا وخطية ملسا
حطمت على حطين قدر ملوكهم … ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن … معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا … أساود تبغي من نحور العدى نهسا
أتوا عكس الاخلاق خشنا فلينت … حدود الرقاق الخشن اخلاقها الشكسا
طردتهم في الملتقى وعكستهم … مجيدا بحكم السيف طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤوسهم … ودابك في الإحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم أذ صح عزمك فيهم … ونكستهم اذ صار سعيهم نكسا
بواقعة رجت بها الارض جيشهم … دمارا كما بست جبالهم بسا
يطون ذئاب الارض صارت قبورهم … ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضي فراشهم … صلاء فزادت من خمود هم تبسا

وقد خشعت أصوات أبطالها فما ... يقي السمع إلا من صليل الظبى همسا
تقاد بدأماء الدماء ملوكهم ... أسارى كسفن اليم نطّت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها ... وقد شُريت بخسا وقد عرضت نخسا
يُطاف بها الأسواق لا راغب لها ... لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يبسا رأس البرنس الذي به ... تندّى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماضي الغرار لقدره ... وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت به ... وأطهر سيفا بعدما رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة ... فأشبه راسي رأسه العهن والبرسا
تبوّغ في أوداجه دم بغيه ... فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها ... فزار أمام ارناطها ذلك الحبسا
ولله ندب النصر جاء لنصله ... فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداويّ صلّ بضربة ... طرير الشبا عودا لمضرابه حسّا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل ... وأنت وهبت الغانمين به الخمسا (١)

وقال يمدح صلاح الدين :

سواك لمهم الملك لن يريشا ... فنال ربّ الملك أن تعيشا
من الناس بالبرّ صدت الكرام ... وبالبأس في البرّ صدت الوحوشا
وكسرت من مصر نحو العريش ... فهدّمت للمشركين العروشا
سرايا انبعثت قدامها ... من الرعب نحو الأعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العداة ... كما طيرت بالفلا الريح ريشا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بالنصر في دمياط سنة ٥٦٥ :

يا يوسف الحسن والإحسان يا ملكا ... بجدّه صاعدا أعداؤه هبطوا
حللت من ومحل العلياء في شرف ... ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت ... لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرّقة ... وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها ... فللمصالح من أيامه نمط (٣)

---

(١) الروضتين ج٢/١٠١ ، ٨٣ وأنظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٥٠ ــ ٥١

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٤٣

(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقه ٤٥٨

وقال في صلاح الدين قصيدة طويله مطلعهـــــــــا :

عفا الله عنكم ، ما لكم أيها الرهـــــــط قسطتم ، ومن قلب المحب لكم قسـط

ومنهـــا :

لتبك دما عين العدو فقد جـــــرى على الأرض من أوداجه دمه المبـــط
منعت حمى الاسلام للنصر محاميـــا غداة عوت من دونه الأذؤب المعـــط
وصلت وكم فرجت عنا ملمـــــة بسهم الرزايا في الكرام لها لمـــط
بعودك عاد الحق واتضح الهـــدى وهب نسيم النصر وانفرق الضغـــط
وانت أجرت الشام من شؤم جـــاره ولم يكف رهط الكفر حتى يفى رهـــط
أجرت وقد جاروا ودنت وقد عـــدوا وصلت وقد خاروا ولنت وقد لطــــوا
فلا يحبأ المولى بمن ملء جاشــــه هوى ويقوم حشو جيشهـــــم زط
كثير تعديهم ، قليل غناؤهــــم ودم لا أصابوا رشدهم رهط رهـــط
عدلت فلا ظلم ، وطلت فلا مـــدى وقلت فلا مين ، وجدت فلا قحـــط
....
فدم ظافرا أيا المظفر بالعـــــدى حليف قبول لا يكـون لها حبـــط
بقيت ولا زلت عداك غيـــــدة سمودا ولا تحمر صمودا ولا هبـــط
ولو كنت جارا للمعري لم يقـــل لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطـوا (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح قلعة جعبر سنة ٥٦٤ :

اسلم لبكر الفتوح مفترعـــــــا ودم لملك البلاد منـــــــتزعـا
فإن أولى الورى بها ملـــــــك غدا بعبء الخطوب مضطلعـــــا
ان ضاق أمر فغير همتـــــــه لكشف ضيق الامور لن يسعـــا
يا محيي العدل بعد ميتتـــــه ورافع الحق بعد ما اتضعـــــا
ونور دين الهدى الذي قمع الشـــــــــرك ، وعفى الضلال والبدعـــا
أنت سليمان في العفاف وفي الـــــــــملك ، وتحكي بزهدك اليسعـــا
حزت البقا ، والحياء والكـــرم الـ محض، وحسن اليقين ، والورعـــا
.... الخ (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٢ :

فديتك من ظالم منصـــــف وناهيك من باخل مســـرف
أيبلغ دهري تعدي وقـــــد قصدت بمصر ذرا يوســــف
ويوسف مصر بغير التقـــى وبذل الصنائع لم يوصـــف

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٥ ـ ٣١ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٧

فسر وافتح القدس واسفك بـــــــه دماً متى تجرها ينظـــــف
وأعمد الى الإستبار البتـــــــا زوبــدّ السقوف على الأسقـــــف
وخلّص من الكفر تلـك البـــــلاد يخلّصك الله في الموقــــف (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعهـــا :

يروقني في المها مهفهفهــــــا ومن قدود الحســـان أهيفهـــا

ومنهـــا :

كم جحفـل بالعراء ذي لجـــب بالصف منه يضيق صفصفهـــا
كالبحر طامي العبـاب لاجبـــة بوجهه للريــاح أعصفهـــا
كتيبة تنتمي مهنّدهـــــا الى الردى مشرقاً مثقفهـــا
غادرتها للنسور مأكلـــــة حيث بأشلائها تضيّفهـــا
منتصفاً من رؤوس طاغيـــةٍ بباترات الظبى تنصفهـــا
وحطت دمياط إذ أحاط بهـــا من برجوم البلاد يقذفهـــا
لاقت غواة الفرنج خيبتهـــا تزداد من حسرة تأسّفهـــا
فرّ فريرها وأزعجهـــا نداء داويّها تلهفهـــا
يطير طارانها المذاب كمـــا يودى بهدّ السقوف أسقفهـــا
تكبيرُ صلبانها وتنكسهـــا من القنا للدماء تنزفهـــا
وليتها سفكها فحاملهـــا عاملها والسنان مشرفهـــا
تمسّفت نحوك الطريق فمـــا أجدى سوى ملكها تعسفهـــا
وحسبها في الحمى تهافتهـــا بل لسهام الردى تهدفهـــا
يمضي لك الله في قتالهـــم عزيمة للجهاد ترعفهـــا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ١٩١ ، وانظر مفرج الكروب ٢ / ٥٧

ان أظلمت سدفة أنزتَ لهـــــا ... أبهى ليالي البدور بعد فهـــــا
بشائر الدين في إزالتـــــه ... قواعد الله ليس يخلفها ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الظاهر غـــازي :

هم الملوك ذوو بأس وكرمـــــة ... إنْ سالموا أمنوا أو حاربوا خيفـــوا
أغنا هم التدبر عن قول الورى فتحـــت ... عكا وصيدا وبيروت وأرســـــوف
جيهان الفرنج إذا لاقى سوابقهـــم ... كأنه جبل بالريح منســـوف (٢)

وله في صلاح الدين :

يا لملك الناصر استنـــــارت ... في عصرنا أوجهُ الفضائـــــل
عليّ من حقه فـــــــروض ... شكرا لما جاد من نوائـــــل
يوسف مصر الذي اليـــــه ... تشدّ آمالنا الرواحـــــل
أجريت نيلين في ثراهـــــا : ... نيل نجيع ونيـــل نائـــــل

ومنهـــا :

يا مخجل البحر بالأيـــــادي ... قد آن أن يفتح الســواحـــــل
فقدّس القدس من خبـــــائث ... أرجاس كفر غتم أراذ ل (٣)

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بملك مصـــــر :

بملك مصر اهنئ مالك الأمـــــم ... فاسعدْ وأبشرْ بنصر الله عن أمـــم
أضحى بعدلك شمـل الملك ملتئمـــا ... وهل بعدلك شيء غير ملتئـــم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلـــف ... ونولَ العرف عن خلق بلا ســـأم
رواقما ثلم ثغر الكفر تحجمـــه ... لا لثَم ثغر شنيب واضح شبـــم
لله دَرّك نور الدين من ملـــك ... بالعزم مفتتح بالنصر مختتـــم
آثار عزمك في الاسلام واضحـــة ... وسره لك باد غير مكتتـــم
بما من العدل والإحسان تنشـــره ... تخاف ربك خوف المذنب الاثـــم
أوردت مصر خيول النصر عادمـــة ... ثنى الأعنّة إقداماً على اللجـــم
فأقبلتْ في سحاب من ذوابلهـــا ... وقضبها بدماء الهام منسجـــم

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٩ ــ ١٢ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢

تكّن الرعب في قلب العدوّ بهـــــا ... تكمن النار بالإحراق في الفحـــم
سرت لتقطع ما للكفر من سبـــب ... واه ، وتوصل ما للدين من رحـــم
مستسهلات وعور الطرق في طلب العلـــياء ، مقتحمات أصعب القحـــم
وجاعلات من الإفرنج غلّهـــم ... والقيد في موضع الأطواق والحـــزم
لقد شفت غلة الاسلام وانتقمـــت ... من العدو بحدّ الصارم الحـــزم
أطاتها الله في إطفاء جمـــر أذى ... من شر شاور في الاسلام مضطـــرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتهـــا ... للأمن والعز والاقبال كالحـــرم
والسنّة اتسقت ، والبدعة انمحقـــت ... وعاود تدولة الاحسان والكـــرم
ملوكها الك صاروا أعبدا ، وغـــدا ... بها عبيدك أملاكا ذوي حـــرم
أنبت عنك بها قرما ينوب بهـــا ... في البأس عن عنترٍ في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملـــك ... عدل لحفظ أمور الدين ملـــتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتهـــا ... بكشف دولتها لحما على وضـــم
فالنيل ملتطم ، جار على خجـــل ... جارا لبحر نوال منك ملتطـــم
أغز الفرنج ، فهذا وقت غزوهـــم ... وأحطم جموعهم بالذابل الحطـــم
وطهّر القدس من رجس الصليب وشُب ... على البنيات وثوب الأجدل القطـــم
فملك مصر وملك الشام قد نظمـــا ... في عقد عزّ من الاسلام منتظـــم
محمودٌ ، الملك الغازي ، يسومهمـــا ... بالفضل ، والعدل ، والأفضال والنعـــم
بالشكر كل لسان ناطق أبـــدا ... محمودٌ الملك محمود بكل فـــم
فاشك مصرَ وأظهرْ عز سنتهـــا ... كم تقتفي ، وإلى كم تشتكي ، وكـــم (١)

وقال حين علم بوفاة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٧ :

توفّيَ العاضد الدعيّ ، فمـــا ... يفتح ذو بدعة بمصر فمـــا
وعصر فرعونها انقضى ، وغـــدا ... يوسفها في الامور محتكمـــا
وانطفأت جمرة الغواة ، وقـــد ... باخ من الشرك كل ما اضطرمـــا
وصار شمل الصلاح ملتئمـــا ... بها ، وعقد السداد منتظمـــا
لما غدا معلنا شعار بني العبـــاس حقا ، والباطل اكتتمـــا
وبات داعي التوحيد منتصـــرا ... ومن دعاة الإشراك منتقمـــا
وظل أهل الضلال في ظلـــل ... داجية من غيابة وعمـــى
وارتبك الجاهلون في ظلـــم ... لما أضاءت منابر العلمـــا
وعاد بالمستضيء مجتهـــدا ... بناء حق قد كان منهدمـــا
واعتلت الدولة التي اضطهـــدت ... وانتصر الدين بعد ما اهتضمـــا
واهتز عطف الاسلام من جـــذل ... وافترّ ثغر الإيمان وابتسمـــا
واستبشرت أوجه الهدى فرحـــا ... فليقرع الكفر سنّه ندمـــا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤٣

عاد عريسم الاعداء منتهسك الـ... حمى ، وفوه الطغاة مقتسمسا
تصور أهل القصور أخربهسا | عامر بيت من الكمال سمسا
أزعج بعد السكون ساكنهسا | ومسات ذلا وأنفه رغما (١)

وقال مهنئا السلطان صلاح الدين بفتح بعلبك :

بفتوح عصرك يفخر الإسسلام | وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبت | هذي الممالك واستقام الشام
يبكي الحسود دما ، وثغر الثغر مـ | فرح بنصرك للهدى بسام
ـن تسنم في الصيام ، كأننا ، | شكرا لما منح الإله صيام
من ذا رأى في الصوم عيد سعادة | حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يـدا | بنوا لهما سوق الرجاء تقام
فتمم فتحك ، واقصد الفتح الـذي | بحصوله لفتوحك الإتمام
دم للعلا حتى يدوم نظامها | وأسلم يعز بنصرك الاسلام (٢)

وقال يمدح السلطان سنة ٥٦٨ بقصيدة تنيف على مائة بيت منها :

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها | بني أصفر بالراعفات اللهاذم
تسبى فلسطينا وتجبى جزائرا | وتملك من يونان أرض الأعاجم
وتعنو لها الاملاك شرقا ومغربا | بذا حكمت حذاق أهل الملاحم (٣)

وقال يهنئه بالعافية سنة ٥٨٢ وهو على حمص :

فيا ملكا لم يبق للدين غيره | وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشوم فريق الشرك في الشام طائر | فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فسمم المدى ردى | فأنهم يأجوج أفرغ بها ردما
اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ ... | مقدس فاطهر فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الاقصى وهمتك الملـ... | وعزمتك الأقصى ورميتك الصما
فما هو إلا أن تهم وقد أتت | فتوح كما فاض الخضم الذي طما

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٦ وأنظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٥
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٣١
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٦

وأزارها الضلالة الضل المذي ... أهدى لهم شللا الى الأذهان
ولى وجوههم سواد وجوههم ... نحو السواد، رآذنوا بهوان

ومنها يذكر القادة :

حملت عليهم من جنودك فتية ... لم تدر غير حمية الفتيان
زخرت بهم أمواج آجلة في الوغى ... غزوا وطم بهم عباب " طمان "
وتذمموا من حربائن " محمد ... وتهيبوا الحملات من " عثمان "
وسيف " جرديك " المجرد غودروا ... بدماء أهل الغدر في غدران
وحسين دولتك الذي تذمته ... فقئت عيون الكفر والكفران
واليارقية أرتهم في الدجى ... بسهام كل حنيئة مرنان
أجفانهم نفت الفرار كما انتفى ... ماضي الفرار بهم من الأجفان
حملوا معسكر بحابك وأبصروا ... من جند بصرى بشره كل جمران
وكأنما الأكراد فوق جيادهم ... عقبان ملحمة على عقبان
ولطالما مهرت على نصر الهدى ... أنصارك الابطال من مهران
لم يترك الاتراك فيهم غاية ... بالفتك والارهاق والإثخان
من كل رام سهمه بن وهمه ... أهدى الى أنسان عين الراني
ولك المماليك الذين بهم غنت ... أملاك مصر لمالكي بغدان
هم كالصحابة يوم بدر حاولوا ... نصر النبي ، ونبت عن حسان
الحائزون من السباق خصاله ... في ملتقى حرب ، وفي ميدان
من كل مبسوط اليدين يمينه ... ما تعتلي إلا بقبض يمان

ومنها في تعميقمن حضر من الفرنج الملاعين خذلهم الله تعالى :

لما رأى الداوي راونداه ... ولى بطاعون بغير طعان
طلب الفريري الفرار بطالبه ... متباعدا من ملكة المتداني
والهنفري مذ هان فر مؤملا ... لسلامة ، والهون شأن الشاني
باروا نبارونيهم بفنائه ... مود ، وسيوهم أسير عان

ومنها وصف ما اعتمده نور الدين في ذلك اليوم ، حيث أنفذ سرية الى بلاد القوم فأحرقت ونهبت ، وكبست أهلها وكسبت ، وذلك من طريق مخاضة الاحزان :

أخلوا بلادهم فحل بأهلها ... منك الغداة طوارق الحدثان
أنهضت ، حين خلت ، اليها عسكرا ... أخلى قواعدها من البنيان
وشغلت جاشهم بجيشك عندهم ... فجنى ثمار النصرة الجيشان

وملاءت بالنيران أربُعَ أهلهـــــــــا ... فتعجّلوا الاحراق بالنــــــيران
عادوا وحين رأوا خراب بيوتهـــــم ... يئسوا من الأوطـــار والأوطـــان
باءوا بأحزان وخاضـــوا حولهـــا ... مما لقوا بمخاضـــة الاحـــزان
وقد استفاد المشركون تمازيـــــا ... والمسلمون تهاديا بتّهـــــان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكـــــــه ... لكنْ ، وثقت بنصرة الرحمـــن

ومنهـــا :

دانت لك الدنيا ، فتاميهـــا إذا ... حققتــه لنفاذ أمــــرك دان
ثمن العراق الى الشام المحمى ذرى ... مصر الى قوص الى أســــوان
لم تله عن باقي البـــلاد وإنمــا ... ألهاك فرض الغزو عن همــــذان
أذعنت لله المهيمن إذ عنـــــت ... لك أوجه الاملاك بالاذعــــان
أنت الذي دون الملـــوك وجدتـــه ... ملآن من عرف ومن عرفــــان
عمران عدلك للبلاد كأنمـــــا ... قد عاش في أيامــك العمـــران
خلّدت في الآفاق ذكرا باقيـــــا ... أبدَ الزمان بهذل طال فــان (١)

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين عمر لما أبداه من شجاعة يوم معركة الرملة سنـــة ٥٧٣ منهـــا :

بنو أيـوب مثل قريـــش مجـــــدا ... وأنت لها كأنزعها البطـــين
ويوم الرملة المرحـوب بأســــا ... تركت الشرك منزعج التدلـــين
وكنت لعسكر الاسلام كهفـــــا ... أوى منه الى حصن حصـــين
وقد عرف الفرنج سطاك لمـــا ... رأوا آثارنا عـــين اليقـــين
وأنت ثبت دون الدين تحمــــي ... حماه أوان ولى كل ديـــن (٢)

---

(١) الخريدة ، بداية قسم الشام ٥٣ ، والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٩

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٢

قال يمدح الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة مطلعها :

أمن اللواحظ أن يفوّق أسهما ... ريم براءةَ مارق حتى رمى

ومنها :

كم بلدة للمشركين بناؤها ... بسطالتي يوم المنار تهدما
وشننتَ منتقماً بساحل بحرها ... جيشاً حكى البحر الخضم عرمرما
أسدلت في الآفاق من صبواته ... ليلاً وأطلعتَ الأسنّةَ أنجما
وحميت أرض طلا الكماة براحة ... بني العجاج لنجم صارمها سما
وغدا لترقيص الجماجم صارم ... بلسانه كم شق من كلم فما
سيف هو النهر الذي في سيفه ... تضحى نفوس بني الأصفر عُوّما (١)

---

(١) مفرج الكروب ٣/١٤٩ ـ ١٥٠ .

قال يمدح صاحب حماه الملك المنصور بقصيدة مطلعها :

المجد يدرك بالصالة الذبل … والمشرفية لا بالوعد والأمل

ومنها :

أسهرت عينك في كسب العلا ولكم … من بات يسهرها في اللهو والجذل
جاهدت في الله طوعا والملوك غدوا … يستهترون بذات الحلي والحلل
أغمدت بيض المواضي في الرقاب وقد … حليت عاطلها ضرباً من القُلل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك … لهم آجالا يبقى الى أجل
فاكسر صليبهم عن سلب حصنهم … وارفع لمجدك اعلاما على جبل
صفدهم عاجلا واجعل حصونهم … سجونهم فهم في غاية الفشل (١)

---

(١) مفرج الكروب ٣/١٤٤ وانظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢

قال يمدح صلاح الدين بعد فتح حصن بيت الأحزان :

هلاكُ الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفُها ... لما عمرت بيت أحزانها (١)

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١١ وأنظر الكامل ١١/٤٥٧

قال في فتح يافا ، وذكر الهدنة من ملك الانجليز قصيدة أولها :

الوقت أضيق من مطال قصيدة ... موسومة لصفات أغيد أهيف
الجد في هذا الزمان مبين ... والهزل فيه من الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي السمي ... سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ ... ـمنصور والمستظهر البر الوفي
هدت قوى أركان ملة أحمد ... وتجملت بجهاده في الموقف
ملك اذا أمّ الملوك جنابه ... لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه ... وثنوا بأعظم من يصول وأرأف
مولى غدا للدين أكرم والد ... حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه ... أعظم به من سارق ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم ... وأقام في الانجيل حد المصحف
متمرن بتجريح الرجال لأنه ... يروي أحاديث العوالي المرّهف
ملك له في الحرب بحر تفقه ... وله غداة السلم زهد تصوف
وعليه نزل في الجهاد مفصل ... فلذاك يقرأه بسبعة أحرف
عزم وحلم أنسيا ما كان من ... عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه ... وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة اذ درّست ... ساحاته عن نصراء المصرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة ... ذبحت بمهجة كل علج أقلف
آفاتهم وانت بأخذك منهم ... يافا فكم من حسرة وتأسف
أوما رأى الاعلاج حين دعوتها ... بلسان سيف في الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت ... منقادة طوعا ولم تتخلف
فامتدح جارتها وثق بأختها ... وكذاك حتى الاربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ ... بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الاخضر استفتحته ... فزهى بثوب من علاك مسجف
أحييت دين محمد وأقمته ... وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل ... من عامل وبمشرف من مشرفي
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني ... وبناظر الرأي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها ... واستاد فرضي جزية ووظيف
واقبض على الدنيا بكف زهادة ... وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود اللتطلب ثأرها ... وستدور عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقك موقنا ... ان الاله بما تؤمله حفي
هم فتية الاتراك كل مهفهف ... يغشى الكريهة فوق كل مجفف
قوم يخوضون الحمام شجاعة ... لا ينظرون اليه من طرف خفي

ان صبّحوا الاعداء في أوطانهم — تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنتا صطفيتهم لنصرة ديننا — لله در المصطفى والمصطفي

ومنها :

يا صاح قل للانكتير الكلب دع — عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع — كلا ولا نور الاله بمنطف
والمسجد الاقصى فمنه تقرص من — وقع الدبابيس الاليمة تصرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح — واترك متابعة اللجاج المتلف
وأعجب لرمح بالرؤوس متيم — وأطرب لسيف بالدماء مغلف
قد قلت لما قيل صلح قد جرى — هذا حديث مخرف ومحرف
سلف تولى السيف عقد شروطه — أحببتْ به من مسلم ومسلف
ذلوه سلما ودنو في أرواحهم — سلَمٌ الى أجل لهم متخلف (١)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٣ و ٢٠٤

وله فيه أيضاً :

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة ... قد أقسموا بنزاح الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم في وصف ربهم ... وصدّق الوعد فأمونا معوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما ... يعيي الزمان وأهليه تحمّله
دان الفرنج وقد خاروا المقتنيه ... فاستنفروا كل مرهوب تنقّله
لما سبى القدس قالوا : كيف نتركها ... والرب في حفرة منها تمثله
نكم مليك لهم شق البحار سرى ... لينصروا القبر ، والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلاً ... الى الشوام ألقاه ترحّله
استصرخوا الأهل والصدوى تمزقهم ... واستكثروا المال والهيجا تقلّله
هم الفراش لهيب الحرب تحرقه ... وكلما لجّ صدّ ما جلّ مقتله
سيف أبان فلسطين يرى أمما ... خلف البحار لقد أعياه صيقله
كم قد أعدوا وكم قد فل جمعهم ... من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في ... جيش العدو فيسبيهم تخيله (١)

---

(١) الروضتين ج ٢/١٥١

وقال يمدح صلاح الدين عند فتح القدس بقصيدة منها :

أبا المظفر أنت المجتبي لهـدى ... أجرى الزمان على تقدير بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلى عمر ... في تلة التل تقضي كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس في ولـه ... أبو عبيدة فدّى من مسرته
غداة جزّوا النواصي وتمـه ... وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على ... عهد الصحابة في استمرار ملته
وأنت كأسلك صدّيق وصاحبه المـ ... ـلك المظفر سام في مبرته
وفي الثلاثة عثمان يؤيـده ... علا علي على إيثار نصرته
وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفا ... وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتح ما بين البزاة لقسى ... ملك الفرنج أخيذا بين عترته
أما رأيت معالي يوسف نسقت ... حتى رمت كل ذي ملك بحسرته
أضحى لنصر الهدى في فتح منهجه ... وبات يطوي العدى في مد شرته
واستتبع الرجس منوا بمشهده ... فاستفتح القدس محشوّا بزمرته
لكن بآل صلاح الدين أنهلهم ... بوقعة التل واستشراء سورته
يحيي الجوارح والفرسان وهو على ... بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى علىّ بهم ... وقاتل الجيش لا يحصى بكثرته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع ... على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة ... تحكي النبوة في أيام فترته (١)

وله فيه من قصيدة طويلـه :

أبو المظفر يأوي كل مضطهد ... بحلمه ونداه يضرب المثل
مهما يمل جائر أو عائث نقمة ... فسد عدل صلاح الدين يعتدل
أحيا بها الله مصرا فهي ناضرة ... وانتكها من عدو ما يقتبل
كم للفرنج بها وردا ومنتجعا ... ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأمّنا الناصر المنصور جذوتهم ... وأدبروا بقلوب شفها وجل
ملك تقلد ملك الملك منتظما ... وقال للمال هذا منك لي بدل
تفرق المال جمعا للقلوب به ... وحسبه فيهم إدراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم ... لم يخزنوا المال ، بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة ، فالأجناد لو علموا ... بخل المليك وجاءت شدة خذلوا (٢)

---

(١) الروضتين ١٠٣/٢
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤١٥

قال يمدح صلاح الدين بعد هدنة سنة ٥٨٨ مع ملك الانجليز ، بقصيدة منها :

منعت عَلياء المنحنى بأسوده ... وأشد ما أشكوه فيك ظِباؤه
فسلت بنا وهي السديق لحاظها ... كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتير فان في ... خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع ... وأسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما ... لترنم الناقوس في أفنائه (١)

وقال يمدحه بقصيدة منها :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا ... فلقين طوداً لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعد ما ... طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وانما ... عند الزحاف تحركت سكناته
أشفقت الاعداء وهي جحافل ... عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما في الحروب مسددا ... لا زينه يخشى ولا هفواته
أحصن بالبيت العتيق ويثرب ... ولك الفضائل كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه ... لبكائهن تبسمت حجراته (٢)

وقال يمدح الملك الظاهر وسيرها في رجب سنة ٥٩٤ أولها :

كم بين أكناف العذيب وحاجر ... منا صريع نواظر ومحاجر

ومنهـا :

لا تفخرن أمامه بفضيلة ... فهو المنقيق بكل فضل فاخر
من رمحه الخطي أفصح ناطق ... وحسامه الهندى أبلغ ناثر
بحر من الانعام يملك سمعه ... شكرا المديد على نداه الوافر
هو خافض الاعداء ينصب نفسه ... لبناء علياء ورفع محاجر
يحلي ويضحك في خلال عطائه ... كالبرق يضحك في الغمام الماطر
ملك اذا نشرت ملاءة نقعه ... بوقى فما وجه الصباح بسافر
نشرت حياة البيض بيض سيوفه ... والخيل تسبح في النجيع الماثر
وبنى منقفة القنا معوجة ... فسرى الردى منهن فوق قناطر
وكم أضرمت نار الحطام وغمادرت ... عمرا ضرايا دون ملك عامر
درت مواهبه ثلاثة عدم الورى ... حلب السماح لغائب ولحاضر

---

(١) الروضتين ج ٢ /٢٠٤ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ٢ ص٨٦
(٢) الروضتين ٢ /١٠٦

أخلى الجسوم من النفوس حسامه … فاليوم ساكنها كأمس الدابر
فمعاقل الكفر أي معاقر … وجزائر للسيف أي جزائر
صدمٌ يحز على الاعادي شجبه … أبداً وكنز ما له من جابر
من معشر ورثوا — وان رغم العدى … شم الممالك كابراً عن كابر
لبسوا من الغدران أيّ سوابغ … وعلوا من الغلجان أي بواتر
وعلى الضمائر يقدمون شجاعة … ما ذلك الادراك فوق ضمائر ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد تخريبه حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

بجدك أعطاف القنا تتعطف … وطرف الاعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب … وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه … لموقف حق لايوازيه موقف
فلم يبد وجه الارض بل حال دونه … رجال كآساد الشرى وهي ترجف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف … وأبيض هندي ولدنٌ مثقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة … الى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة … وشاد به دين حنيف ومصحف
صليب عباد الصليب ومنزل الـ … ـنزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة … تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والدين في النصح واجب … ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف (٢)

وقال يحرّض صلاح الدين على فتح حلب ، من قصيدة :

لولا مساعي صلاح الدين ما صلحت … شم الممالك بعد الزيغ والميل
ولا اغتدت ألسن العلياء مفصحة … من بعد ما كنّ رهن العي والخطل
فانهض الى حلب في كل سابغة … سروجها قلل تغني عن القلل
ما فتحها غير أقليد الممالك والـ … ـداعي اليه جميع الخلق والملل
وما ممتنعة لكنه غضب … عالم أعملتها أهالها مبتذل
غارت وحقك من جاراتها فشكت … ما بالها فيصلي غير متصل
. . . .
فليعلم القدس أن الفتح منتظر … حلوله ، وعلى الآفاق فليطل (٣)

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات :

أعيّاً ، وقد عاينتم الايةالعظمى … لاية حال نذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق … وشاع الى أن أسمع الاسل الصما
تحل به الاعداد ، والمنظ واحد … فكم سر قلبا في الانام وكم غما
حبا مكة الحسنى ، وثنى بيثرب … وأطرب ذيالك الضريح ، وما ضما

---

(١) ديوانه ج ١ ص ١٧١
(٢) الروضتين ٢ / ١١ وانظر الكامل ١١ / ٤٥٧ وديوانه ج٢ ص ٤٠٩ والبداية والنهاية ١٢ / ٢...
(٣) عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقة ٣ وانظر ديوان ابن الساعاتي ج٢ ص ٣٨٢ والروضتين ٢ / ٣...

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها   فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتي الفتحين : مالا وبلدة   فلم يبق نصرا ما حواه ولا غنما
ففي لهوات الشرك أرسلها تجي   وفي جبهة الأيام غادرها وسما
وما كان الا الداء أعيا دواؤه   وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما   وألسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته   فما كان الا ساحة صادف اليما
تجاوزت يا أعيا الجبال منالـه   فهل يقظة كانت مساعيك أم حلما (١)

وقال يمدح الملك المعز فتح الدين أسحق بن صلاح الدين ، بقصيدة أولها :

أن حجبتم أشباحكم والمناما   فابعثوا لي مع النسيم السلاما

ومنها :

ما نداه طلا ولا جوده الفيـ   ـاض قطرا ولا السحاب جهاما
واهب المرهفات من عشقه الهـ   ـام نجائبا والمرهفات جساما
ويرد الخميس طعنا فان لم   يسع ضربا فان أبى فصداما
كاتبا بالسيوف في جبهات الصيد   لم يأل بالقنا أعجاما
شاعر ينظم القلوب ولا ينـ   ـثر الا نظم المالي والهاما
ويجر الأرزاق أو يرفع الاقـ   ـدار منا أو ينصب الأعلاما
واذا صلت السيوف فللهـ   ـام سجود لهن كان اماما
في الوغى والندى حربا وسلما   شنف في ذا كلما وفي ذا كلاما
فاذا لم يكن مجال لسيف   سل آراءه وشام الحساما
لا يسام المخوف بدر محياه   وعادى مجده لا يسامى
غثناه كالمسك طاب شميما   وحجاه كالحلم طال شماما
حبذا عرفه النمو وما أحـ   ـببت من قبل عرفه نماما

. . . .

بك فتح الدين الحنيف أذل السـ   ـيف عز الصليب والازلاما
ما شكا جفنه الجريح الى كفـ   ـك سهدا حتى أنمت الانا ما
خاف عن حولها ارماح ولولا المـ   ـازق الضنك ما بعثت السهاما
فالتي زغفيك جنة واصطبارا   وحسا بيك صارما واعتزاما
فلقد كلت الظبى الضرب والسمـ   ـر من الطعن والجياد الصداما
واستحال الهجير ظلا ونار الـ   ـكفر صارت بردا لنا وسلاما ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٦ ، ديوانه ١ / ٣٨٥ .
(٢) ديوانه جـ ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٦ .

وقال يمدح الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦٠٠ بقصيدة أولها :

سقيت حيا جفني يا بانة الحمى … وان كان ماء أنت عبرته دما

ومنها :

فتى أفصحت عنه مخايل مجده … ففي مهده طفلاً بهن تكلما
يريك ربيعا كل وقت جنابه … ويأبى نداه أن يكون محرما
سلوا السن الاعلام عن فتكاته … وقب المذاكي والوشيج المقوما
حمى القدس من رزق الاعادى بسمرها … فما تجد الخطي الا تحطما
شكا أهلها دائي محول وخيفة … فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ربها ماء النجيع سيوفه … ففي غيرها لا يستجيز التيمما
فلم يبق في ساحاتها غير مسلم … ولولاه لم تبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحل وأختها … ولكنه صان الحطيم وزمزما
اذا سل ه بالبيض الحداد مراشمست … وان كف ثوب الصبح بالنقع عتما
يضيء بحياه وللركن هبوة … فتلقاه فيها سافرا متلثما
وما جلق في المدن الا كغيرها … اذا لم يحطها ظاعنا ومخيما
سقى الله عهد النيربين عهاده … وعيشا لنا بالغوطتين تصرما
فلم أر ظلا سابغا غير ظله … ولم أر وردا غيرها ينقع الظما … الخ (١)

وقال في فتح طبرية :

جلت عزماتك الفتح المبينا … فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما … غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بها لصليب وكان قدما … يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء … وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت في وجنة الايام خالا … وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا … ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية الا هدي … ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء … ومل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا … يصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي … فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الارض طرا … سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفوا فلانت … وغاية كل قاس أن يلينا
تحيت فريضة الاسلام منها … وصدقت الاماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا … وترضى عنك قلة والحجونا

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٧٧ ـ ١٧٩

[illegible] ... [illegible]

جعلت عباد آملها ظلالـــــا ... وأبدلت الزئير بها أنينـــــا

دعاك حماة جوزتها نســـاء ... يخوضون الحديد مقنعينـــا

لبيضك في جماجمهم غنـــاء ... لذيذ علم الطير الحنينـــا

تميل الى المثقفة العوالــي ... فهل أمست رماحا أم غصونـــا

يكاد النقع يذهلها فلـــولا ... بروق القاضبات لما هدينـــا

فكم حازت قدود قناك منهـــا ... قدودا كالقنا لونا ولينـــا

وغيد كالجآذر آنســـات ... كغيد نداك أبكارا وعونـــا

ولما باكرتها منك نعمـــى ... بنان تفضح الغيث الهتونـــا

أعدت بها الليالي وهي بيـــض ... وقد كانت بها الايام جونـــا

فليهن بما دم مرعى خصيبـــا ... أخو سغب ولا ماء معينـــا

فقد عدم الشام وما كنـــوه ... أبى تشفى بها الداء الدفينـــا

سهاد جفونها في كل فـــج ... سهاد يمنع الغمض الجفونـــا

تألم بالسواحل فهي ـــور ... اليك وألجئ الهام المتونـــا

تقلب السور سرور ولـــولا ... سطاك لكان مكتئبا حزينـــا

أدرت على الفرنج وقد تلاقـــت ... جموعهم عليك رحى طحونـــا

ففي بيسان ذاقوا منك بؤســـا ... وفي صفد أتوك مصفدينـــا

لقد جاءتهم الأحداث جمعـــا ... كأن صروفها كانت كمينـــا

وخافهم الزمان فلا مـــلام ... غلبت بمهتدي زمنا خؤونـــا

لقد جردت عزما ناصريـــا ... يحدث عن سناه طور سينـــا

فكنت كيوشع الصديق حقـــا ... له صوت الكواكب ساجدينـــا

لقد أصبحت من طلب المعالـــي ... وحاول أن يؤسر المسلمينـــا

وان تك آخرا وخـــلاك ذم ... فان محمدا في الاخرينـــا (١)

---

(١) الروضتين ١ / ٨٤ وانظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٣٦ ـ ٣٧ وديوانه ج٢ ص ٤٠٦

قال يمدح صلاح الدين :

طالت فروع المجد فيه	كما زكت منه الاصول
راياته تحكي الاصيل	فرأيه الرأي الاصيل
حيث الخيول على العدو	ركباتها فيها الوعول
أنا وقد قصد الغزاة	وهنّت القرب النصول
وبكت به أم الصليب	وشد صارمه الصليل
وبدت له أرض الشآم	تهون اذ كانت تهول
فلسوف يفتح تغلها	من قبل أن يقع القفول
ويعيد ما فض الصدى	بكرا تزف لها الفحول
يا أيها الملك الجلي	الامر والملك الجليل
كم منة لك تستطير	ومنة بل تستطيل
ولكم صفحت عن الفرور	وقد تبطله الفلول (١)

وقال يمدحه أيضا سنة ٥٧١ :

يا صلاح الدين يا ملكا	مذ براه الله للأمم
أضحت الفسار في نقم	وغدا الاسلام في نعم (٢)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ١٠٨

(٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ١٠٦

قال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، ويهنئه بفتح حلب من عماد الدين زنكي بن مودود سنة ٥٧٩ :

بدولة الترك عزت ملة العرب / وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب / من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة / بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
مظفر النصر منصوت بهمته / الى العزائم مدلول على العزب
والدهر بالقدر المحتوم يخدمه / والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب
ويجتلى الخلق من راياته أبدا / ميضة النصر من صفرة الذهب
ان العواصم كانت أي عاصمة / مصونة بتعاليها عن الرتب
ما دار قط عليها دور دائرة / كلا ولا واصلتها نوبة النوب
لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته / ولو رماها بقوس الافق لم يصب
ولو أتى أسد الابراج مفترسا / حارت توائمه عنها ولم يثب
جليتا النجم في أعلى منازلة / وطالما غاب عنها وهي لم تغب
تلقى اذا عطشت والبرق أرشية / كواكب الدلو في بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب في صعد / الا العواصم تبغي السحب في صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه / يا طالب النجم قد أوغلت في الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته / لصير الرأس منه موضع الذنب
أتى اليها يقود البحر ملتطما / والبيض كالموج والبيضات كالحبب
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا / عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب
جعالهم من مغزيهم إذا قفلوا / حطّ القنا لصبي لا حطّ القنا لعطب
فلك منها بركن لا يقبله / الا أسنة أطراف القنا السلب
وحل من حولها الاقصى على فلك / ودار من برجها الأعلى على قطب

. . . .

لو لم تجب يوسفا من قبل دعوته / لعاد ظاهرها كالجوسق الخرب
خافت وخانت وغر المالكون بها / فالمدن في رهب والقوم في رعب
ثم استجابت فلا حصن بمتنع / منها عليه ولا ملك بمحتجب
وأصبحوا منه في غم وشبحهم / وهم سكارى بكأس اللهو والطرب
تفرغوا لنسيم الصيف واشتغلوا / عن الثغور بلثم الثغر والشنب
أرى الجزيرة لم تظفر بمالكها / بمالك فطن أو سائس درب
مالك لم يدبرها مدبرها / الا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت / من الفساد كما صحت من الوصب
واستحصل الجد فيها غير مكترث / بالجدّ حتى كأن الجدّ كاللعب ... (١)

(١) ديوانه ص ٩ ـ ١٦ والروضتين ٢ / ٤٢

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين وكان عازما على المضي الى أفتتاح المغرب سنة ٥٨٢ :

لنيراك حتى تملك الغرب بالغلب … قد اجتمعت زهر الكواكب في الغرب
وما اجتمعت الا لتنجد عسكرا … بسعدك يغني عن مساعدة الشهب
وباسمك من قبل الوغى تهزم العدى … وباسمك قبل الحرب تنصر بالرعب
ولكن أرادت أن تفوز بخدمة … تشرفها من بعد ذا منك بالقرب
وتأوي الى حزب المظفر أنه … يظفر من يأوي الى ذلك الحزب
وتبذل فيه ما اقتضته طباعها … فتكشف عنه شمسها ظلمة الخطب
ويجلو لها البدر المنير مسالكا … فيسهل منها كل مستوعر صعب
ويسعد بالبرجيس في السلم مثلما … يساعده المريخ في حومة الحرب

. . . .

لك الجحفل الجرار للبيض والقنا … تخط خطوط النصر حتى على الترب
به كل وثاب الى الموت باسل … ومن ذا يرد الاسد عن عادة الوثب
يعفون عن كسب الغنائم في الوغى … فليس لهم غير الفوارس من كسب
ويشغلهم بسبي الاسود عن المهى … ويلهيهم نهب النفوس عن النهب
لهم معجز في الطعن والضرب باهر … فلا طعن في طعن ولا ضرب في ضرب
ويرهب من أسيافهم قبل سلها … ورب سيوف قطعت وهي في القرب
فمن الاعادي غير متقد المنى … يهم وتراهم غير آمنة السرب
وكم ملك بالتاج يعصب رأسه … أتوه فحازوا ذلك العصب بالعضب

. . . .

هنيئا لك الملك الذي أنت ربه … ببذلك جهد النفس في طاعة الرب
وحربك للكفار دائمة الشبوب … تسوق الى السلطان قاصمة الصلب
وسطك كنا تشهد السحب أنها … وقد صدقت أندى بنانا من السحب
وادناؤك الظمآن للجود والندى … من المنهل الفياض والمورد العذب
وتقريبك المظلوم من غير حجبة … وان كنت من نور الجلالة في حجب
وسيرك فينا سيرة عمرية … فروحت من قلب وفرجت من كرب
وردك فينا من سجيك سنة … فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب
فيا مصر تيهي واستطيلي بملكه … وقولي له حسبي بملكك من حسب
ولا غرو أن تاهت بملكك وازدهت … ولا عجبا أن أسرفت بك في العجب (١)

وقال يمدح الملك العزيز عثمان سنة ٥٩٤ حين رد الفرنج الالمانيين عن تبنين :

الشام للاسلام دار القرار … وكان من قبل طريق الفرار
وكان في ظلمة ليل دجت … فجاء عثمان ضحا والنهار
وجاءه بالبر بعد الضنى … وجاءه بالامن بعد الحذار
فيا أهل الكفر لا تأمنوا … مدار ما الشام لكفر بدار

---

(١) ديوانه ص ٢٦ – ٢٧

ويا عماد الدين يا من لـه ... كل مهار في الأعادي مهـار
وجئت لتهنين ومن حولهـا ... قوم كأعداد الحصى للحصـار
سدوا عليها الطرق حتى لقد ... كادوا يسدون طريق القطـار
يجوزها الطائف ولكن على الأخـطار أو أما ليه الخطـار
ساق إليها الكفر أجناسه الـمطار قادتها الملوك الكبـار
من كل من يزأر من غيظه ... كأنه من مغرب الشمس نـار
إنما على البراق راكضها ... أو يجتاح القلع في البحر طـار
وطبقوا البحر سفيناً فما ... بانوا ساروا فوقها في قفـار
وأموا الثغر وطافوا بـه ... وأحدقوا كالظل لا كالسـوار
واجتمعوا حولا ومن حولـه ... مدوا كسيل وأحاطوا كنـار
وكان ذاك الثغر من أهلـه ... وقبل أن يحصره في أستضـار
وكان أهل الكفر في جسـرة ... فعندما أظللت طاروا شـرار
وانهزموا للبحر إذ أبصروا ... بحروش تغرق فيه البحـار
وعذرهم إذ هربوا واضـح ... هل يثبت الليل أمام النهـار
أقسم ما شدوا إزارا لهـم ... إلا لأن الليل مرخي الإزار
لولا سرى القوم بعجيلهـم ... عجلت في القوم شقاء الشفـار
وظلمة الشهر إذ تمهـم ... فليشكروا منه ليالي السـرار
وكان للنبيت يد عندهـم ... لأنه منك لهم قد أجـار
لولم يحق سيفك ما سح من ... هام وطير سح هام مطـار
عجوا وطاحوا عن طريق الردى ... فما شكوا من غور أو شـوار
وبعضهم يهيمه من خوفـه ... فما حديث القوم إلا سـرار
وانقلبت بالذل أزياؤهـم ... فصار ذو المغفر ذات الخمـار
أمنت ذاك الثغر من عقـره ... ومنك لم يقدر عليه تـدار
ومن حصار الكفر خلصتـه ... بالبأس بل من حلقات الأسـار
وما سمعنا قط قطعتنا جـرى ... ما فيه لا بل ما عليه غبـار
غزوا ولا عار عليهم بـه ... إن فرارا منك ما فيه عـار
رأى الرأي اجتناب الوغـى ... وهو لهم قد أحسن الاختيـار
يا ملك تهزم أعـداؤه ... بالرعب هذا وأبيك الفخـار
تفهمت حتى الشام إذ زرتـه ... منا مرا أهوائك تلك النمـار
وذل ملك الكفر فيه فقـد ... أضحى دم الجبار فيه جبـار
فارجع إلى مصر فقد شفهـا ... إليك شوق وشجاها أوكـار
وانتظرت عودك مشتاقـة ... ما أصعب المشتاق بالانتظـار
تشتاق منك البدر والليث والغيـث ووهاب الألوف النضـار
ومن إذا ما حل في موطـن ... حل بها العز وإن سار سـار
والشام قد أوسعتها رحمـة ... وآن أن ترحم مستذى الديـار

ومصر أهل الملك وهي التي ... أجنت يد الإسلام تلك الثمار
فمد ولا زلت لنا عائدا ... بالفضل والبسطة والاقتدار
والدهر لا زلت به لابسا ... عمرا طويلا في ليال قصار
تبقى مدى الدنيا وأمثالها ... طولا وهذا القول مني اختصار (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ويهنئه بفتح عسقلان سنة ٥٨٣ بقصيدة مطلعها :

بانت معانقتي ولكن في الكرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ومنها :

بلغ السماء معالياً ومنارما ... ظهرت ويعلو فوق ذلك مظهرا
فضل الملوك فصار يُسْنُ فاضلا ... كبُروا لديه فصار يدعى الأكبرا
ويحث ألوية الملوك وأنه ... متكبر عن أن يرى متبخترا
فيقوده حد الحسام مغلما ... ويرأيه خد الهزبر معفرا
الرأي أبيض واليراع مسوّد ... فيقوم في حرب العدو مشهرا
جملت براعته الكلام الفاضله ... عبدا ولكنا نراه محررا
وسقى الندى من راحتيه يراعه ... فلذاك أزهر بالبيان وأثمرا
كسر الصليب بسيفه من رأيه ... فسل العدى من كان أغلب كسرا
ولقد أقر الله عين نبيه ... بمطهر جعل الشآم مطهرا
ما زال أو جعل الكنيسة جامعا ... والإنجيل المخفوض منها منبرا
فتح الشآم به وقال زمانه ... إن كنت فاتحه فلن يتغيرا
الشام دارك لو أردت أخذته ... بالإرث عن آبائك الشم الذرى
منه بزغت وكنت بدرا نيّرا ... وبه طلعت وكنت صبحا مسفرا
وله ملكت فلا برحت مملكا ... وبمظفر فلا برحت مظفرا
من مبلغ بيسان سيدة القرى ... أن الهناء أتاك من أم القرى
فلو استطاع البيت أرسل حجره ... وغدا وأرسل بالهناء المشعرا
ولقد أعدت لعسقلان روحه ... ورفعت شاهقه وكان مدمّرا
وأدمت راحته لدمت مخلدا ... وعمرت ساحته فعشت معمّرا
كفر الشآم وعسقلان مؤمن ... حاشاه وهو عرينه أن يكفرا
ولكان مؤمن آل فرعون بهم ... إذ كان يضمر ضعف ما قد أظهرا
لأعزّت مصر به وأيسر حقها ... أن لا افتقار وحقها أن تعذرا ... (٢)

---

(١) ديوانه ص ٢٨٣ ـ ٢٨٩ (٢) ديوانه ص ٣٥١ ـ ٣٦١

وقال يمدح الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، بقصيدة مطلعها :

تنزه طرفي بين زاه وزاهر … على أن طرفي أي ساه وساهر

ومنها :

يؤم العدى في عسكر من جنوده … وقد سبقت أخباره في عساكر
يبادر للأقران قبل بدادهم … ولا يدرك العلياء من لم يبادر
وتسري الى النصر المبين رماحه … فتعبر من أجسادهم في معابر
فضلاته لا تتقى بسوابغ … وفضلاته لا تتقى بالمغافر
له الله ما أمضاه حد عزيمة … وأثبته بين اختلاف البواتر
يطل بوجه ضاحك الثغر باسم … أمام نهار كالح الوجه باسر
تراه الى الهيجاء أول وارد … وعنها الى الأوطان آخر صادر
تخر الجبال الشم خوف خيوله … وتنداح رعباً قبل وقع الحوافر
سنابكها بين الحزونة وعزة … ويشبرها بين العذيب وحاجر
يزور الأعادي في حصون شوامخ … وينقل منها عن طلول دواثر
ملوك عداه ما لها من مساكن … وقتلاهم ما أن لها من مقابر
فكم من قلوب في صدور مغالب … وألسنة أفواهها من مناسر
اذا تغلت أجناده فجمالها … مغاني الغواني بل قصور القياصر
يبيتها منه بأحنق ثائر … ويصبح منه عند أكرم آسر
يلوذ بغفار الجرائر صافح الـ … ـسرائر غلاب المقادير قادر
كريم فما ينفك مقدم مصدم … حليم فما ينفك عاذر عاثر ... (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ، بقصيدة مطلعها :

الا فانتبه من أفقها طلع الفجر … وحاشاك نمعن وجهها ضحك الثغر

ومنها :

أبانوا برفع الفاضل الندب فضلهم … وأعلوا له قدراً فصار لهم قدر
وما فاته إلا الجيوش يجرها … وقد جر منها ما يضيق به البر
ولا فرق لولا اللون بين سلاحهم … فآراؤه بيض وراياتهم صفر
وخاض بهم في البر بحرا من الردى … طرائقه سود وأمواجه حمر
وجاز طريقا يرهب النسر قطعها … على أنه نسر الكواكب لا النسر
ويطلع فيها الصبح والليل بعده … وفي قلب ذا خوف وفي صدر ذا ذعر
تهاب الرياح الهوج مقتربها … فما ناله ذل السؤال ولا الأسر

(١) ديوانه ص ٣٦٢ — ٣٧٠

وجاز وأنف الكفر في الترب راغــــم ... وما زال من إيمانه يرغم الكفــــر
تحف به من خلفه وأمامــــه ... مهندة بيض وخطية سمــــر
تحرسه من جنده البيض والقنــا ... وتحرسها منه التلاوة والذكــــر
وآب كأوب النصل للغمد سالمــا ... على أن ذاك النصل ما فاته النصــر
فأقرب شيء بعد رؤيته الغنـــى ... وأبعد شيء بعد رؤيته الفقــــر
وأنهض شيء من أناملها المهـــى ... وأعجز شيء من مدائحه الفكــــر
فليس يوفي كنهة الوصف جاهــدا ... وليس يؤدي حق نعمته الشكر ... (١)

وقال يمدح الملك العادل بقصيدة مطلعها :

ما ضر من أهدى إلى الخيــــال ... لو أنه أهدى إلى الخيــــال

ومنهــا :

آنسني القرب ويوم النـــــوى ... دواهب العادل يوم النــــوال
الأخذ الاقران بعد الوغـــى ... والواهب الآلاف قبل الســــؤال
والطالب الاطلاب والسالــب الا ... سلاب والقاتل يوم القتــــال
والواسع الصدر لدى موقــف ... ضاق على الراجل فيه المجـــال
يسير سير السيل في موكـــب ... يريك أنموذج سير الجبــــال
أخلى ديار الكفر أو لم يــدع ... فيها خلالا حين جاس الخـــلال
وأوثق الأسرى فقد أصبحــت ... غدائرُ القتلى لهم كالحبـــال
سيف نضاه ذو العلى المعتلـى ... كما جلاه للمهدى ذو الجــلال
أعلى بعالم هوادي الهـــدى ... كما به هد ظلال الضــلال
فأنزل الشرك بدار الـــردى ... وصير الكفر بيال الوبـــال
فأصبح الاسلام في نضــرة ... قد طال في غرته واستطـــال
والخلق من نعماه في جنـــة ... ومن قضايا عدله في ظــلال
أعمارهم بالخير معمـــورة ... منه كما الأحوال منه خـــوال
يا ملكا لا ينبغي ملكـــه ... إلا له وُتيت عين الكمـــال
.... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر نزوله على الكرك وانصرافه عنه وفتحه بعد ذلك نابلس بقصيدة مطلعهــا :

وسنه والأنصي يماند في العــذل ... تكنت أبان ز'وكان أبا جهـــل

ومنهــا :

إذا راسل الاعداء يوما فانمـــا ... كتائبه كالكتب والخيل كالرســل

(١) ديوانه ص ٣٧٨ ــ ٣٨٥ .

(٢) ديوانه ص ٥٤٤ ــ ٥٤٨

له صارم يشفي به الدين صدره … ويعجز وعد النصر منه بلا مطل
ينيب خنا لونه بنجيعه … فما يتحلى سيفه حلة الصقل
فلا تحسبوا بالكف جرد نصله … ولكنه قد جرد الكف بالنصل
ظباه كمثل البقل لونا وأنها … لترعى الصدى رعي الظبى ورق البقل
حداد عداة للحديد تقده … من البعد حتى كل غمد بلا نصل
تكاد تقد الهام من قبل ضربها … وتخرج من سجن الغمود بلا سل
يجردها من يضمد الجور عدله … ويقوى بها من يضعف الفقر بالبذل
ويحملها من حمل الدين كله … عليه وما يشكو سوى خفة الحمل
هل الدراة الثكلى بأولادها أنتهت … عن النصل ما جرعته من الثكل
وكانوا لها كالعقد لكنه وهى … واضحى لها جيش ابن أيوب كالنمل
أتاهم بمثل الرمل ينقل خيلهم … الى الافق ما فوق الطريق من الرمل
عساكر أرواح العساكر شربها … وليس لها غير الفوارس من أكل
وما طال درع الذمر منهم تحصنا … ولكن ليندوا دارفه منه في جل
إذا ما انحنوا للحمل حاكوا قسيهم … على أنهم للموت أجرى من النبل
يكلفهم غزو الفرنج بدارهم … وسهل الا أنه ليس بالسهل
اذا كنت من قتلاك تملأ سبلها … فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل
جيادهم تخوض العثار من القنا الـقسيف وتخوض في الدماء من الوحل
وما خالفت الجرد قط وإنما … لتلحق من عاديته وهي في الشكل
وأرجلها لو قطعت لمرت بمتن … عليها لهم والمهل يمشي بلا رجل
جنى أهل تلك القلعة الشر اذ راوا … تواديها كالباسقات من النخل
غدا بعلها الابرنس يلعن عرسه … بها وهي لا تنفك من لعنة البعل
يرى الخيل والفرسان يغشون روحه … فيضطر لامتعالها غفلة الشغل
وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت … لشيخ لعين كافر جاهل رذل
فماتت وما قد مات يفني ملكه … فناقتها تبكي الفروع على الأصل
وصبحت أخرى صبحتك بأهلها … ومستاء اذ أمسيت وهي بلا أهل
فنابلس لما نزلت بربعها … أقامت بهم حق الضيافة والنزل
أحسوا بظل للخريف فجاءهم … ربيع من النبل المسدد كالوبل
ولم أر أرضا جادها النبت قبلها … وتصبح تشكو بعد مغلة المحل
وما شرقوا بالماء والريق اذ راوا … جيوشك لكن بالفوارس والرجل
شببت وقود الحرب بالبيض والقنا … عليهم فقد أضحت دماؤهم تغلي
وما أغمدت عنهم سيوفك أو أتت … على النسر والشيخ المغفل والكهل
يدانك في قتلاهم فيه عابد … صليبا بلا حب له عابد العجل
أبدت النصارى واليهود بعسكر … وما جاء هذا قط في سالف النقل
وكانت بهم تلك البلاد تنجست … فغاب دم منهم عن الماء في الغسل
ولم يبق الا من سبى الجيش منهم … وإن كان يسبى الجيش بالحدق النجل
عذارى أسارى كبلت بشعورها … فجرحها في الساق والمعصم العبل

وقد شغلت عن أهلها بأسارهــــا ... وأنت بشكر الله في أشغل الشغـــل
تكبر فيها الله في الجامع الـــذي ... جمعت به بين الفريضة والنفـــل
وصليت فيها جمعة بجماعــــة ... تناديك للإسلام يا جامع الشمـــل
وعدت بفضل الله للخلق مالهـــا ... وأي زمان لم تعد فيه بالفضـــل
فقد شغل الأملاك عن شكر ربهـــم ... سوى أنت بالريحان والراح والنقـــل
يقولون ما لا يفعلون أما استحــوا ... من الملك المغني عن القول بالفعـــل
لك الحكم في الدنيا وما هو بالهدى ... مع الجود بالدنيا وما هو بالهـــزل
فدياك مأثور على كل مسلـــم ... ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، بانتصاره على الفرنج قرب بانياس ، بقصيدة أولها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى ... ووجدي بها أن أجمع الجفن والجفنا

ومنهـــا :

أنام بني الإسلام في كهف أمنـــه ... وأوسعهم عدلا سيكتبه عدنـــا
وعوضهم من بعد سخطهم رضـــى ... ومد لهم من بعد خوفهم أمنـــا
وما شاقه صوت الحمام إذا شـــدا ... ويطربه صوت الحمام إذا غنـــى
له النصل يجلى والقناة بكفـــه ... تقوم والقوس الشديد له يحنـــى
أقام بدار الكفر تجبى لما جـــزا ... وتودى له القتلى وتسبى لما اعتنـــى
يشن عليها غارة بعد غـــارة ... فقد أصبحت من شن غاراته شنـــا
عفت وخلت من ساكنيها ديارهـــم ... فلا معقل يغشى ولا منزل يغنـــى
زمان على تلك المعاهد قد مضـــى ... ودهر على تلك المنازل قد أخنـــى
أماكن وشتى بين عكا وعرفـــة ... تطاير دا ساعة وهو قد أسنـــى
أتمت بها التوحيد لله وحـــده ... وأنسيت فيها الرب والأب والابنـــا
ولما رأوه أدبروا حين عاينـــوا ... أعنة خيل لا تعود ولا تثنـــى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهـــم ... وقطف رؤوس منهم آن أن تجنـــى
ثبت لهم والسيف قد كره الطلـــى ... وجالدتهم والقرن قد حطم القرنـــا
بضرب يذيب الشمس في الأفق حـــره ... ويحرق ما بين القلوب من الشحنـــا
مضى ملكهم في أول الأمر هاربـــا ... يحس تقفاه الطعن فيه ولا طعنـــا
عتيق عتاق ما نجا من نجابهـــا ... ولا فاز من كان الفرار له حصنـــا
وما زال أخفى العين والقلب فانثنـــى ... وقرح العوالي قد أصم له الأذنـــا
وقد أنفت منه الدواهي لجبنـــه ... فلما نجت حوباه شكر الجبنـــا
ولم يغن الناقوس بعد انهزامـــه ... ولكنه من بعده قرع السنـــا
وأضحى أسيرا بادويل وغيـــره ... قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنـــا
أسارى حيارى ، لا يرجون فديـــة ... ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنـــا
وهل زادهم السجن ضيقا عليهـــم ... وقد جعل الأرض الفضا لهم سجنـــا

(١) ديوانه ص ٥٥٦ ـ ٥٧

بكى الكند والسكند لا وحشةً لهم ... ولكن على نفسيهما أسبلا الجفنا
يروعه الصبح المنير اذا بدا ... ويوحشه الليل البهيم اذا جنا
ويشرب لكن ان جرى دمعه دما ... ويطرب لكن ان شدا تيده امننا
وقد ربما زنت عليه تيوده ... فحنت وأنّت مثل ما حن وأنا
وقد أسبح الاسلام والكفر كلما ... بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنا
وقد أسبحت ما سرت مسر واهلها ... كمثنى بلا افك ولفك بلا مثنى
غدت مثل يعقوب النبي وقد نأى ... سميه عنه تشتكي البثّ والحزنا
وما أنت الا الشمس أظلم بعدها البلاد (٣) ... والا السحب قد أقلعت عنا
فواهى لعين أبصرتها وبعدا ... محله من مثوى ومثناك من مغنى
فلا زلت تبقى للنبي ودينه ... وأنتم يفني الزمان ولا تفنى (١).

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بكسر الفرنج وملك بلاد الشام :

لست أدري بأي فتح تُهنّى ... يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول أني أولى ... وهو أولى لأنه كان أسنى
أنهنيك اذ تملكت شاما ... أم نهنيك اذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا ... اذ فتحت الشام حصنا فحصنا
ان دين الاسلام من علم الخلـ ... ـق وانت الذي على الدين منا
أنت أحييته وقد كان ميتا ... ثم أعتقته وقد كان قنا
فاشكر الله ما صنعت على العصـ ... ـر وفي عرصة الملائك أثنى
لك مدح فوق السماوات ينشا ... ومحل فوق الأسنة يبنى
شاق جبريل بيته بيت جبريـ ... ـل فوافى اليه شوقا وحنا
يخبر الساكنون منه ورب البيـ ... ـت في بيته أحق بسكنى
شهد الناس أنهم شاهدوا جبريـ ... ـل رد الاقران قرنا فقرنا
فلكم ضربة ولم تر ضربا ... ولكم طعنة ولم تر طعنا
ملاه جنده بالملائكة الغـ ... ـر فرادى جاءت اليه ومثنى
كم تأنى النصر العزيز عن الشـ ... ـام ولما نهضت لم يتأنا
قد تمنيت حين أحببت وجـ ... ـه الله بالحرب والحب معنى
ولعمرى من حاز فتحا جليلا ... وتمنى فانه ما تمنى
تمت في ظلمة الكريهة كالبـ ... ـدر سنا والبدر يطلع وسنا
لم تقف قط في المعارك الا ... كنت يا يوسف كيوسف حسنا
تجتني النصر من ظباك كأن الـ ... ـعضب قد صحّفوه أو صار غصنا
قصدت نحوك الأعادي فرد اللـ ... ـه ما أملوه عنك وعنا
حملوا كالجبال عظما ولكن ... جعلتها حملات خيلك عهنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركا ... نا فمن قد فارسا هد ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـ ... ـك لاقيتهم بلادا ومدنا

---

(١) ديوانه ص ٧٥٤ ــ ٧٦١

كل من يجعل الحديد لــه ثــو ... با وتاجا وطيلسانا وردنا
يدّعون الغنى من الناس لكــن ... أنت بالنصر كنت أغنى وأقنى
خانهم ذلك الصلايج فلا الرمـ ... ـح تثني ولا المهند طنّا
واستحالت شقاشق الكفر صمتا ... حين عادت تلك الشجاعة جبنا
أشجع القوم فيهم جاعل العد ... ـو هروبا والفرار مجنا
ليحليقوا الهروب ضعفا وعجزا ... هل يحليقوا الهروب عقرى وزمنى
وتعيد تهم بحالة ضيد ... تجمع الليث والغزال الاغنا
وجرت منهم الدماء بحارا ... فجرت فوقها الخزائر سفنا
صنعت منهم وليمة وحش ... رقص الشرفي فيها وغنى
ظل معبودهم لديك أسيرا ... مستضاما فاجعل لها النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم ... من رأى بعد صلبه قط أغنى
وحوى الاسر كل ملك يدانيـ ... ـه الدهر يغني وملكه ايس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسير ... يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النور يقظة ويظن الشـ ... ـمس طودا ويبصر الشمر دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه ... فتمنى لو أنه ما تمنى
ظن ظنا وكنت أصدق نفس ... اللـ ... ـه يقينا وكان أكذب ظنا
رق من رحمة له القيد والغل ... عليه فكلما أنّ أنا
والعيون الابرنس أصبح فوبسو ... حا فتمنى لم يعد اليوم يمنا
أنت ذكّيته فوفيت نذرا ... كنت قدمته فجوزيت حسنا
وتهادت عرائس المدن نحوك ... وشار الآمال منهن تجنى
لا تعنى الشام قبله التهاني ... كل عقس وكل قطر تهنى
قد ملكت البلاد شرقا وغربا ... وحويت الافاق سهلا وحزنا
وتفردت بالذي هو أسنى ... وتوحدت بالذي هو أسنى
وأعدى الوصف في علاك حسيرا ... أي لفظ يقال أو أي معنى
وسمعنا الاله قال أطيعو ... ه سمعنا لربنا وأطعنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٨١٢ ـ ٨٢٠

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتح :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر ... فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح ، لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر أخبارٌ ولا سِيَرُ
حين به حان هلك المشركين فيما ... لله طيب المشايا منه والبكر
مدوا كما مد فيض البحر ملتطم الامـ ... ـواج حتى اذا قابلتهم جزروا
لقد فتحت عصاها من ثغورهم ... لولاك ما هدّ من أركانه حجر
تركت أرضهم من طول ما عمرت ... منهم بلاقع لا أنثى ولا ذكر
نقضت ما أبرموا ، أبرمت ما نقضوا ... عمرت ما هدموا ، هدمت ما عمروا
الآن قرت جنوب في مضاجعها ... ونام من لم يزل حِلفاً له السهر
الآن طابت الى البيت المقدس كالـ ... ـبيت المحرم أحرامٌ ومعتمر
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الاسـ ... ـلام من بعد طيٍّ وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت ... بعد الصليب بها الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به ... وبين ذي منطق يُصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له ... شمُّ الذُرى، وتكاد الارض تنفطر
يا مالكا الارض مهدها فما أحد ... سواك من قائم للمهد ينتظر
ما أخضر هذا الطراز الساحلي ثمرا ... الا لتحلو به أعلامك الصفر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة ... فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة ... على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها ... حتى لقد ضجرت من وعدهم سقر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم ... وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
مراكز ما اختطاها الخوف مذ ماثة ... عاما ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أسرّ أسماء البلاد فقد ... أسهبت والقائل المنطيق يختصر
يثنيك أجمال قولي عن مفصله ... في لفظة البحر معنى تحته الدرر (١)

وقال حين قصد الافرنج القدس سنة ٥٨٧ من جملة قصيدة له :

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أو ما ... فيهم لبيب على الحالات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذ انتظموا ... وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب ... ان عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
ان يحوك فلا بدع لجهلهم ... تسعى الى الأسد في غاباتها الحُمُرَ
زاروا نسورا ولا تغني وقاحتهم ... اذا أسود الوغى أبطالهم زاروا
فحام عن حوزة البيت المقدس لا ... خوف ، وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما ... فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستنفر الايام هفوتهم ... وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ٨ ، ١ عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقه ١٨٠ (٢) الروضتين ٢ / ١٩٤

وقال يمدح العادل حين حاصر كوكب سنة ٦٠٦ وخربها بقصيدة أولها :

وقى لك المسعدان النصر والظفـــر وطاوع العاصيان الدهر والقـــدر

ومنها :

خطب طرى وطغى حتى شهدت لـــه فلان جامحه اذ أسهل الوعـــر
وشامخان رفيعا الاون يحسر عـــن ان يستطيعهما التأميل والنظـــر
في ذروتي مشمخر العز دونهمـــا من أن ينالا تنال الانجم الزهـــر
أوردت حصنك من تلك الحصون منى لولاك عز على وراد ها الصـــدر
وكان أهلاهما قد أكدا حلفـــا أن ليس ينقض من أمريهما المـــر
يا ويحهم أو غرتهم بغي شمخـــت من اعتزالك واستغوتهم جـــدر
ولو صدمت به السد الذى أطادت قطراه لاندك منه القطر والزبـــر
أو رام شامخه الاجرام حل بهـــا ما ليس تبقي غواديه ولا تـــذر
بل لو دعوت النجوم الزهر لابتـــدرت اليك من جنبات الافق تبتـــدر
لقد رأى كوكب في نفسه عجبـــا وكاد كوكبه الدرى ينكـــدر
أشرت جذوة بأس في جوانبـــه أنفاسها في نفوس الشرك تزدفـــر
وطوقته مجانيق يلين لهـــا قلب الحديد ولا يستمسك الحجـــر
هوت عليه بمثل الشهب قاذفـــة تخدّه بصعيد الارض منعفـــر
أضحت مخانيق في أعناق هضبتـــه عقود خيلك مسدودا بها الثغـــر
بادرتهم برجال لا ينهنههـــم من رأيك الحزم أو من كفك البـــذر
مودين قراع الموت قد ألفـــوا أن لا يروعهم خوف ولا ذعـــر
جيش اذا جاش طامي لجه غرقـــت في جنب تياره الأفهـــام والفكـــر
لقد بطشتهم بطشا لو انهـــم صرف المقادير أو أحداثها خـــتروا
فاستشعروا الذل جلبابا وقاد هـــم قسرا اليك سطى للأسد تقتســـر (١)

وقال يهنيء السلطان صلاح الدين بالفتح بقصيدة وأنشده أياها بمرج عكا ءأولها :

حدق الفانيات في القلب أنكـــى من شفار الظبى وأعظم فتكـــا

ومنها :

ما لجيش الفلاة في بحر دمـــك لا يحيلون المنجا منه فكـــا
صاح فيهم داعي البـــوار فللأقصـــين أقذى ، وللمسامع سكـــا
فتراهم من التضاؤل كالوحـــم وكانوا تلى المناكب يمكـــا
بيض سود يبض يرون بهـــا الايـــام مسودة اللون حلكـــا
بهم يا همام قد ضاقـــت الا رض فأوسعتهم بوارا وهلكـــا

---

(١) عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقه ٢٢٨

أيقنوا بالبلاء منك وقــــد كــــان يقين الاوغاد من قبل شكــــا
وعدتهم بل أوعدتهم نفـــوس كان ميعادها غرورا وأفكـــا
ولبيض الهند الرقاق وسمــر الخط آتت رؤوسهم دون عكـــا
فقتيـــل معفر ليـــس يـــودى وأسير مكبـــل لن يفكـــا
أنجاة وقد طرحت عليهـــم كلكلا يهدم الجبال ويركـــا
وتوخيتهم ببيض ظبـــاة كلها يهتك الضرايب هتكـــا (١)

---

(١) عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ١٧٨ـ ١٧٩

يبعث الى الخليفة العباسي حين نزل الفرنج بأرض الطور :

قل للخليفة لا زالت عساكـــــره ... لها الى النصر إصدار وإيــــراد

إن الفرنج بأرض الطور قد نزلـــوا ... لا يخذلن فحصن الطور بغــداد (١)

(١) الذيل على الروضتين ١٠٣

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أطلَّت على أُفقك الزاهر ... سعودٌ من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدى ... تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم ... حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة ... فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها ... فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم ... فتعسا لجدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآم ... وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة ... فناجزْ متى شئت أو صابر
فكلهم غرق هالك ... بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى في العدى ... فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ... فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهدا صابرا ... فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم ... وترفل في الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجها ... د على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حفظ من ... سيرضيك في بعثك الماطر
فتحت المقدس من أرضه ... فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى ... فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى ... وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو ... ح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه ... بها لاصطفائك في الآخر
محبتكم ألقيت في النفو ... س من يذكر لكم في الورى شاكر
فكم لهم عند ذكر الملو ... ك لمثلك من مثل سائر (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٥

قال حين أمر المعظم عيسى بتخريب القدس * :

مررت على القدس الشريف مسلّمـــا على ما تبقى من ربوع وأنجـــم
ففاضت دموع العين مني صبابـــةً على ما مضى من عصرنا المتقـــدم
وقد رام علج أن يعفّي رسومـــه وشمّر عن كفي لئيم مذ مـــم
فقلت له شلت يمينك خلّهـــا لمعتبر أو سائل أو مسلّـــم
فلو كان يُفدى بالنفوس فديتـــه بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (١)

---

(١) الذيل على الروضتين ص ١١٥ – ١١٦

(*) ذكر محمد زغلول سلام أنها قيلت بسبب تدمير التتار لها ، وهو غير صحيح ولا يستند الى رواية علمية (الادب المملوكي ج ٢ / ١٢٣)

قال يمدح الوزير صفي الدين أبا عبد الله بن علي بقصيدة أولها :

ذكر الصبا منه لي هاجت صبابات　　　سهامها في الحشا منها إصابات

ومنها :

ملك لصارمه والرمح في نحر الأ　　　عداء بالنصر ضربات وطعنات
يردي بأسهم يوم النزال فما　　　تردّ عن الدروع السابريات
فالملك لا أود فيه ولا خلل　　　يوماً فدامت له ما شاء دولات
قل للفرنج الأولى في عقر دارهم　　　غزوا فجاست خلال الدار غارات
عودوا الى حصركم فالسيف الذي زهقت　　　به نفوسكم يدعو بأن تأتوا
قد أصبح ابن علي راقيا رتبا　　　حسّاد من علي البأو السماوات
صوداً لفعال الخير قدّمه　　　قدّامه فله في الخير عادات
للأولياء ولايات بها لبسوا الأيـ　　　ـسات منه وللأعداء ويلات
يا ناصر المذهب الميمون ناصره　　　أبشر فبالفتح جاءتك البشارات (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاثا　　　وأباد من عبد الصليب وعاثا
يا أيها الملك الذي عزماته　　　جعلت بزاة المشركين بغاثا
لما سبيت نساءهم وقتلتهم　　　ود الذكور بأن تكون اناثا
أمدادهم التثليث للتوحيد يو　　　م لقيتهم فقسمتهم أثلاثا
للسبي والبيض الرقاق والقنا　　　ملك الممالك لا تزال تراثا
عزلتهم أطماعهم حتى اذا　　　ما استيأسوا نقضتهم أنكاثا
حتفتهم آجالهم فسقتهم　　　بسلاف كاسات المنون حثاثا
لم يحفروا تلك الخنادق حولهم　　　الا لتجعلها لهم أجداثا (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣ :

تبنى الممالك بالوشيج الاسمر　　　والبيض تلمع في العجاج الاكدر
وبكل أجرد شيظم يعدوا السبـ　　　ـهيجا بمقتحم المهالك أسمر

---

(١)　ديوانه ص ٥٣

(٢)　ديوانه ص ٥٩

والعدل والاحسان والمعروف مملوء الحياض لموسر ولمعسر
كهمال مولانا علاء الدين ذي   المجد القُدامى والعلاء الكوثر
أعيتْ وأعجزَتِ البليغَ صفاته   فالمسهب المنطيق مثل المقصر
خلعت عليه خلعة الملك التي   زيدت بَهاءً بالطراز الاخضر
أهدى علاء الدين للإسلام اذ   أردى قبيل الكفر ما لم يكفر
رب الملاحم لم يَرَ مثلها   الملماء قدما في قديم الأعصُر
من رام من كل الملوك مرامه   تخفقْ مساعيه ويكب ويعثر
من سنجر وأقل ملوك لمنه   أعلى وأغلى قيمة من سنجر
يغزو الملوك الرعب قبل مسيره   في عسكر ما أغناه به من عسكر
هو كاسر كسرى ومتبع تبعنٍ   ذلا أحاط به وقاسر قيصر
فلجيشه ولعزمه متماثل   جيش الهرقل وعزمة الإسكندر
راياته صفرا تردن وتنثني   حمراً تمن تجبين آل الاصفر
لم لم تدِنْ شوسُ الملوك له وقد   ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة   من كل ذي نجس بكل مطهّر
كم سابح من خيلهن رسفه   تاجٌ لملكٍ في التراب معفّر
كم رد من ملك عزيز أصغر   يدعى بمملوك ذليل أصغر
ان الاقاليم التي هي سبعة   دانت لقسرا بسبعة أبحر
والسبعة الافلاك تخدم جده   حتى قوى كيوانها والمشترى
لم يألُ مشتري الثناء بماله   حسنا فنعم المشتَرَى والمشتري
تنهل يمناه بجدواه فخمس بنانه للخلق خمسة أنهر
كالنيل في مصر وسيحون وجيحون ودجلة والفرات الاكبر
فليهنه الفتح الذي سدت به   عن ملكه أبواب غدر الادهر
فتح تدانا كل فتح دونه   والشمس تكسف كل جسم نيّر
يا ناصر الاسلام فزت بمورد   حسن الثنا في العالمين ومصدر
البحر أنت لك السواحل بالشما   سحب الحيا جودا وقاذف جوهر
انشات ملحمة يمل بقاتل الفرسان بالعذو الذى لم يحصر
إعرابها ضرب السباع ونقطها   وقع الهام وشكلها بالسمهرى
والحبر بحر دم تنقطت موجه   اذ ليس تم سوى الثرى من دفتر
والبيض تنثر وهي غير خواطب   والشمر ناظمة وان لم تشعر
والخيل مطربة كأن صهيلها   شدو النحيلة في نسيب البحترى
نشوى تميد من السرور كأنما   صبحت كؤوسا من شراب مسكر
فلقد وأدت الشرك يوم لقيتهم   وغدوت للإسلام عين المنشر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه   بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا   عمرو فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر

فلتفخر البيت المقدس كفوءها ... الحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنه انسان عين صورة ... يلقاه أسوده بمنى أنور
جاءت جيوش الشرك يوم لقيتهم ... يتداعون على متون الضمر
وكأنهم بحر تدافع موجه ... بنابس وزعف محكم ومسور
أوردتها ثارات الرماح صدورهم ... فولغن في علق النجيع الأحمر
فهناك امير غير نجم ثاقب ... في أثر عفريت رجيم مدبر
ولوا وعقبان المنون مسفة ... والخيل تعثر بالقنا المتكسر
لا ينظرون سوى حسام مشهر ... ومن الدماء كأنه لم يشهر
رنقت سماء من سنابك خيلهم ... مسودة ارجاؤها من عثير
فالقوم نهب للسباع تنوشهم ... من كل ذي ناب وصاحب منسر
فمنا الذي من جيشهم لم يخترم ... تبا ومن من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت ... بالسبي بالثمن الأخس الأحقر
من كل حوراء عطبول موشح ... كالغصن مياد أثقيل مؤزر
وأوانس مثل الدمى سوافرا ... من كاعب مثل الغزال ومعصر
آضت أسود هزبر ثعالب ذلة ... منهم غرائر كل ليث تسور
ماتوا بخيلتهم وأروى منهم ... بيض الصوارم بالدم المتسنجر
صرعى كأنهم تماثيل من الـ ... كافور من دمهم رءوس بعنبر
ما قوبلوا بجحافل بل قوتلوا ... بملائكة حضرت بأيمن محضر
شكت الفيافي ثقل وطء جيوشه ... فبنا لهم رصفا كبسط المرمر
فالخيل لا تمشي بها الا على ... هام منضد توشحوا أشقر
نهبت عفاة الطير من حدث بها ... زرق فصوصا من نفيس الجوهر
كم أودعت دوية صحراء داوية ... صرعوا بها في المعترك المتوعر
جعلت لها الثارات في آنافها ... أرج العرار وطيب عرق العنبر
بالسيف رد السيف بحرا من دم ... ينبوعه من هامة أو منحر
بحر صوارمه القنا وقلوعه ... راياته والسفن من كل مضمر
حض الخوافي والقوادم من جناحيهم ... وشق القلب بالقلب الجسري
حشدوا وكان الغدر بذرهم فقد ... درسوا به وذروا بأوخم بيدر
ما ان ترى إلا صاكنتهم وحمهم ... صرعى الصوارم بالسباب المقفر
سقت الممالك الكرام ملوكهم ... كأسا به سقت اللئيم المفتري
ضمت الملوك ولم تنل عشر الذي ... اوتيته من منجح أو مفخر
وبذاك آثار الاله عليهم ... يا مؤثرا أوزعت شكر المؤثر
أرسلت من خلل العجاج صواعقا ... تهمي عليهم من غيوث كنهور
وعجمت عود صليبهم فكسرته ... وسواك الناه صليب المكسر
أغلى الاداهم من أسرت وأرخصت ... بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الارض يحسد غربها ... بل فهو داع دعوة لمستنصر
يرجو شفاء عليله ويؤمل الا ... يتاح فيه بمغن ومسفر

غت المدائح يا صلاح الديـــن فاعـــــــــــنذر المبرز في الفصاحة فاعـــــذر
نبم العفاة يشبهونك في النـــدى والبأس جارت نكرة المتفكـــــر
كم خازن لك مثل ألفي حاتـــم كرما وسلوك كألفي عنـــتر
أفلاذ أكباد العباد طحا بهـــا رب العباد الى سناك الأبهـــر
واستعظم الاخبار عنك معاشـــر فاستصغروا ما استعظموا بالمخبـــر
ما كل ملك عند ما أوتيتـــه الا قلامة بعض ظفر الخنصـــر
لا ينكر منك المسلمون نكـــم يــد أوليتهم مبرهان ينكـــر
أمنت سربهم وصنت حريمهـــم ود رأت عنهم قاصمات الأظهـــر
لم تخل سمعا من دعاء مهنـــئ للمسلمين ومن سماع مبشـــر
ما إن رأى الله الا آمـــرا فيهم بمعروف ومنكر منكـــر
متواضعا لله جل جلالـــه ومنه اضمحلت سطوة المتكبـــر
كم بالندى عان فككت وبالـــردى عات كففت بخوفه أمن البـــري
هل تعجزن صور مليكا ناصـــرا لله أين يسر يسر وينصـــر
حتى لخلنا أنه إن يلتمــــس نثرا لمنتظم الثريا ينثـــر
ما سور صور عاصم منه وهـــل سور المعاصم عاصم لمســـور
فلينحنك البحر درة تاجـــه اذ رعته بخميسك المتفجـــر
بحر زعاق ماؤه يتكـــدر يعنو لبحر طاب غير مكـــدر
فانهد لصور فهي أحسن صـــورة في هيكل الدنيا بدت لمصـــور
لما ملكت حصون انطاكيـــة يثوي الصليب وحزبه من مطهـــر
أرديت كل مثلث متكبـــر بدوجد متواضع فمكبـــر
برزت الى (نرزية) عزمتك التـــي مدت يدا عن مطلب لم يقصـــر
فتناولته بأيدها مـــن باذخ في الافق ذي مثل يروح مسيـــر
هن عمر نور يا ابن أيوب وكـــن ملكا سليمانا وجاهد وأظفـــر
تبنوك كالاسباط كل منهـــم في الملك يبلغ عمر سبعة أنســـر
غازت تداعكم وكل ملوكهـــا بدر فليس مبسرا للمبصـــر
لا زال ملككم الظليل ولاخلـــت من ذكركم في الدهر ذروة منبـــر (١)

وقال أيضا يمدحه بقصيدة مطلعها :

لحاظ المهى لا بابل تنفث السحـــرا وخمر اللمى ينسي صريفين والقصـــرا

ومنهـــا :

فجودك عم العالمين وخصهـــم ولم نر جودا قبله ملأ الدهـــرا
أبى لك الثم المسراعالك السمـــرا ورشف ثغور البيض ان تملقا لثغـــرا
وخم الحصان البكر ركضك في الوغـــى حصانا عليه تنتك الفتكة البكـــرا

---

(١) ديوانه ص ١٤٠ والروضتين جـ٢ ص ٨٤ ، ١٨ ، ١٣٢

وحيّاك تطنيب الخيام مقوضـــــا | خيام العدى بالقسر أن تألف القصـــرا
وايرادك الرايات صفرا سواد يســـا | واصدارها ريّا تمجّ دما حمـــرا
فمثيلك تمشى الروح شمسا ضوامـــرا | شوازب قد عوّدتها الفتح والنصـــرا
ترى الحرب روضا والدروع بها أضـــى | وسمر القنا دوحا وفرسانها زهـــرا
سنابكها عزت بالا لاك السـدى | غداست خدودا كن من عزها صعـــرا
وكم قلعة أنكحتها السلم عاصمـــا | وطلقت منها بعد عصمتها الكفـــرا
غغنى بها الاسلام راتب صوتـــه | يفرد ، والاعداء تنظرها شـــزرا
وما أنكحونا طائعين فتاتهـــم | ولكنّ نكحناها بأسيافنا قســـرا
وجاشت جيوش الشرك تطلب ثارهـــا | لديك فكانوا المهديّ ينتظر النحـــرا
أتوك وأفواه المنايا فواغـــر | لتطعمهم شزرا ، وتضربهم هبـــرا
ضربت الشتا في أخدعيه مجاهـــدا | فغادرت سهلا منك ما لم يزل وعـــرا
فجيفك ما يتيقيظ عن الســـدى | ولا خائف من صغو ولا هاب حنبـــرا
صبور كان الصبر آزر يشـــوره | اذا ما رأت أعداؤك الصبر الصبـــرا
قلوب الالى خلف الفرنجة كلهـــم | وأنت بأرض الشام ، طائرة ذعـــرا
جزاك إلهُ الناس خير جزائـــه | وخوّلك الدنيا وأوزعك الشكـــرا
فلا يوم الا فيه فتح مجـــددة | تريد به بشرا وتهدي لنا بُشـــرى (١)

وقال يمدح الملك موسى بن الملك العادل وكان نازلا على الطور للغزاة :

هنيئا لقد أوتيت سؤلك يا موســـى | بجدّ وجدّ كلمه الدهرَ ما يُوســـى
وجيش ظلام حلّق الطير فوقـــه | ستضحي لكم أحشاؤهن نواويســـا
ورمي سهام عن قسي ينبضهـــا | تغادر من راسته في الترب مرموســـا
كأن كماتا لتراك عند نزالهـــم | ملائكة بالشهب ترمي الأباليســـا
وقد جالت الاكراد بالسمر والظبـــى | تصيد الملوك الصيد والاسد الشوســـا
اذا الحربُ الشم الانوف تنمـــروا | به كان كل بالمقدّ دعيســـا
وليس لموسى من عصا غير صـــارم | تكب على الاذقان ضرباته الروســـا
وثعبانه الرمح الاسمر اسانـــه | ينضنض في سم المنية مغموســـا
ويزجي سحابا من سنابك خيلـــه | بلمع الظبى والبيض تجلو الحناديســـا
فيرمي انكبارا بانكدار الى لظـــى | ويركب من في قصر المنية مركيســـا
اذا أشرقت للأشرف النيل رايـــة | تنكست الصلبان بالكسر تنكيســـا
وقد تعلقت بالنصر بيض سيوفـــه | كما أخرست رقاتهن النواقيســـا
ثعالب أطراف الرماح بلمن فـــي | أضمى الزرَد الضافي على الاسد ملبوســـا
هو البحر لولا البحر فيه ملوحـــة | هو الليث لولا أن في الليث تعبيســـا
هو الخضر المشهور نشرا وســـؤددا | ويوسف حسنا والف موسى تجد موســـى

---

(١) ديوانه ص ٢١٢

ويحمده عيسى على فتكاتـــه   بجحفله في أمة عبد تعيسى
وما زال يرضي الله سرا وجهرة   ويسخط في كل المواطن أبليسا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل   ولو كان تطبيقا يروح وتجنيسا
الى جود ماشكو من الكرب التي   أؤمل أن ألقى لها منه تنفيسا
فلا ترضى في حكم الزمان فانني   أرى حكمه في أهله صار معكوسا
ففيه الذنابى الرأس والرأس أصبح الـــذنابى من الطير الذى ليس طاووسا
هو الهازم الالاف في الروع وحده   ومعطي ألوفا فضة تملأ الكيسا
فما جنده الا أسود خفية   تخذن لها سمر القنا اللدن عريسا
فكلهم (أبن المرد بيش) شجاعة   أجل وهم عند النوال ابن باديسا
فكم من رحى حرب أدار بها سقى   بها لسمر والبيض الرقاق الدباييسا
هو الاسد الحامي الحقيقة قد مسا   ومن ذا يرد الليث عن منعه الخيسا
على الطور ناجى الله موسى بنصره   فيا لطور ثغر السلم أصبح محروسا
عمارته خريب أعمار تابدى الصـــليب وفيه أشهر النصر تأسيسا
علا مشمخرا في السماء بنساؤه   يرد تسبيحا هناك وتقديسا
مظفر دينا للماحدى تدومه   الى القدس أمنا لايزال وتأنيسا (١)

وقال يمدح الملك الأفضل نور الدين علي بقصيدة مطلعها :

أريقك أم صهباء في الكأس اسفنط   وثغرك أم درّ تضمنه السمط

ومنهـا :

وهل عنه نهاد الصليب وخيله   سواهم ومن تحت العجاج لها نحط
حكوا بلة الضأن المرق شطهـا   سراحين من فرسانه في الوغا معط
فما عطفتهم عند ذلك رحمة   ولا رحم لما استبيحوا لهـا أط
فمنهم قتيل أو أسير ومنهم   جريح ومستول على جنبه المسط
فإن بكر الصائون أغنامهم الرضى   فمن بأسه العادون أغنامهم السخط (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ، ويذكر نزول الفرنج على دمياط وهزيمتهم عنها : مطلعها :

لاجفانك المرضى الصحاح التواتـل   فواتك فينا وهي للسحر بابـل

ومنهـا :

تذل ملوك الارض خاضعة لـه   فكل عظيم عنده متضائـل
جحافلها سد تزأر في الوغى   وما غيلها الا القنا والقنابـل

---

(١) ديوانه ص ١١٣   (٢) ديوانه ص ٢٥٥

يسير بجيش يرجف الارض باسه   وتبدو لها في كل قطر زلازل
تظلله الرايات ظلا وفوقه   من الطير ظل يحجب الشمس مسادل
تراطن فيها العجم من كل جانب   وترتجز العرب الكرام البواسل
دروعهم سحب تلوح خلالها   وجوههم فهي البدور الكوامل
هم الاسد الا أن غيصهم اذا   سروا مشرفيات وسمر ذوابل
أسنتهم والليل نقع نجومه   رجوم بأكباد الاعادي أوافل
اذا ما اشتكت يوما أسنتهم صدى   فليس لها الا الدماء مناهل
متى عاينته المشركون تقطعت   لهيبته أكبادهم والمفاصل
ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة   ولو لم تصد لم يبق للفرنج ساحل
وقد علموا لو أنهم ثبتوا له   اكانوا كما سرا رعته المناصل
وطارت رؤوس منهم وقوانس   الى حيث صارت في الهياج القساطل
لقد ألفت أعداؤه أن حظهم   لديه رماح أشرعت وسلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا   وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم   ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونها أسدا بأيديهم القنا   وبيضا رقاقا احكمتها الصياقل
سيوفهم فيها نسور قشاعم   ونبش لاشلاء الملوك أواكل
وداروا بها في البحر من كل جانب   ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها   فخاب مناه الملك والروم خاذل
فأضحى عقاب المؤمنون مرامها   وأنى ينال الدون المتناول
فعادوا على الاعقاب منها هزيمة   كأنهم فلا نعام جوافل
فلا رأى الافيه بالضرب صارم   ولا صدر الافيه بالطعن عامل
اذا الله يوما كان ناصر معشر   فليس لهم في سائر الخلق خاذل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم   لتعصمهم ما رأوه المعاقل
فيا أيها البحر الذي عم جوده   وقام بما لم تستطعه الاوائل
وحارب حتى قيل أفنى عداته   ونول حتى قيل لم يبق سائل
وطبق سهل الارض والحزن عدله   بمصر فقالوا لم يكن قبل عادل
سحاب على الاعداء تمطر نقمة   وفيه لمن والاه جود ونائل
فكل لسان دار في فم ناطق   له بالدعا والشكر لله جاهل
فيوسف أيوب بمصر سماحة   ليوسف يعقوب النبي مساجل
فما نيل مصر جاريا غير كفه   وأحسانه ان ضنت السحب وابل
هو السيف لا تخشى له الدهر نبوة   ولا مثله يوما يقلب ذابل
حليم عليم بالديانات صدره   فقصر اديه إن تكلم باقل ... الخ (١)

---

(١) ديوانه ص ٣١٥ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقه ٤٥٧

وقال يمدح الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، بقصيدة مطلعها :

أنا بالغزلان وبالغـــــــــــزل عن عذل العاذل في شغـــــــــــل

ومنهـــا :

وبي الاتيان على النهـــــــــوات الى الاقتاب على الابـــــــــل
فالخيل تعثر بالتجـــــــــــــا ن وبالاشلاء وبالقلـــــــــــل
أبوى بالساحل بحـــــــــــرك فالبحر لديه كالوشـــــــــــل
وسطا التأييد بالانصـــــــــار حجن وبانيـــــــــاب صـــــــــل
فالغزاة مقال منخـــــــــذل والسلم مدال ذو جدل ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الأمجد مجد الدين صاحب بعلبك بقصيدة مطلعها :

أوضح البرق بعلياء منـــــــــــين موذنا بالنصر والفتح المبـــــــــين

ومنهـــا :

كانت الافرنج أصناما وكـــــــــم من حنيف راغ ضربا باليمـــــــــين
وفتاة دونها الشمس علـــــــــى خوط بان فوق تل الياسمـــــــــين
دامة بل دمية في هيكـــــــل الـــــــــبيعة الروم لديها ساجديـــــــــن
يمسك الأسقف في تقريبهـــــــــا قلبه خوفا عليه أن يبـــــــــين
ألزا التوحيد في حبي لهـــــــــا وترى في الحب رأي المشركـــــــــين
وساعتدي عليها الملـــــــك الامـــــــــجد المسعود في دنيا وديـــــــــن
أسأل الباري أن يملكهـــــــــا ثم يحبوني بها ، قولوا أمـــــــــين
فهو بالعدل وبالاحسان والجـــــــــد دقوا الانصاف في الحكم قمين ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين ج١ ق ٢ ص ٣٢٧
(٢) الروضتين ج١ ق ٢ ص ٤٨٣ ، ديوانه ٤٨٥

كتب الى الملك الكامل الابيات التاليه وألقاها اليه بسهم نشاب لان الفرنج كانوا يحاصرون دمياط وهو فيهـا :

يا مالكي ، دمياط ثغر قد مضت ... ه رفاته ، كادت تجث أصولـه
تقريك من أزكى السلام تحيـة ... كالمسك طاب دقيقه وجليلـه
ويقول عن بعد وأنك سامـع ... حتى كأنك جارمونزيلـه
يا أيها الملك الذي ما ان يـرى ... بين الملوك شبيههو عديلـه
هذا كتاب مؤذن من حالـتي ... ما ليس يمكنني لديك أقولـه
أشكو إليك عدو سوء أحدقـت ... بجميعه فرسانه وخيولـه
فالبر قد منعت اليه طريقـه ... والبحر عز لنصره أسطولـه
فخضوعه باد على أبراجـه ... وحنينه وبكاؤه وعويلـه
ولو أستطاع لأم بابك لائـذاً ... لكنما سدت عليه سبيلـه
ورسوله في أن تجيب دعـاءه ... دين الاله وخلقه ورسولـه
فقد انتهت أدواؤه وتحكمـت ... علاته ونحا عليه نحولـه
وبقي له رمق يصير يرتجـى ... أو يشتفي لما دهاك عليلـه
فاحزم حماه بعزمة تشفي بهـا ... داء لمثلك يرتجى تعليلـه
فالله أعطاك الكثير بفضلـه ... ورضاه من هذا الكثير قليلـه
فالعذر في نصر الاله ودينـه ... ما ساغ عند المسلمين قبولـه
والثغر ناظره اليك محـدق ... ما ان يمل من الدموع همولـه
ولئن تعدت عن القيام بنصـره ... جمعت نضارته وبان ذبولـه
ووهت قوى القرآن فيه ورفعـت ... صلبانه وتلى به أنجيلـه
وعلا صدى الناقوس في أرجائـه ... وخفي على سمع الورى تهليلـه
هذا وحقك وصف صورة حالـه ... حقا وجملته ، وذا تفصيلـه
وكفاك يا ابن الاكرمين بأنـه ... أضحى عليك من الورى تعويلـه
حقق رجاء فيك يا من لم يخـب ... أبدا لراجي جوده تأميلـه
وادخر ليوم البعث فعلا صالحـاً ... الله ضامن أجره وكفيلـه (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩

قال في رثاء القدس سنة ٦١٦ هـ :

أعيني لا ترقي من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت بأوكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لسامع ... يرى ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره ... على موطن الأخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى ... على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي ... أنافت بما في الارض من صخرات
على القبلة الاولى التي اتجهت لها ... صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبني لخير بغاة
وما زال فيه للنبيين متعبد ... يوالون في أرجائه السجدات
هنا المسجد الاقصى المبارك حوله الــــرفيع العماد العالي الشرفات
هنا بعدما قد كان للخير موسما ... وللبر والاحسان والقربات
يوافي اليه كل أشعث قانت ... لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها ... توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالاحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أخته ... وتشكو الذي لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عنا وغور بهدمها ... ويا طالما كادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها ... وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مبدا بالغ الشرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره ... لهم عظم ما نالوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم ... بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم ... وهل ثمر الا من الزهرات
فمن لي بنواح ينوح على الذي ... شجاني بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله ... يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات* (١)

---

(١) الروضتين ٢/٢٠٥ وانظر مفرج الكروب ٤/٢٤٦

(*) نسبها د. عبد اللطيف حمزه الى ابن الجوزي (الأدب المصري ص ٦٢)

ست الفخر (مغنية الملك الاشرف)

قالت تمدح الملك الاشرف وتذكر كسرة الفرنج في يوم دمياط سنة ٦١٨ :

ولما طغى فرعون عكا وقومـــــــه   وجاء الى مصر ليفسد فـــــي الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصـــا   فغرّقهم في اليمّ بعضاً على بعـــض

فقامت مغنية الملك الكامل وغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظـــروا   لما قد جرى في وقتنا وتجـــــددا
أعبّاد عيسى إنّ عيسى وقومـــه   وموسى جميعاً ينصرون محمـــدا(١)

---

(١) مفرج الكروب جـ ٤ / ١٠٥ ، المقريزى جـ ١ ق ١ ص ٢٠٩

قال يمدح السلطان موسى الاشـــرف :

للذة العيش والافراح أوقـــات ... فانشر لواء له بالنصر عـــادات
أمام جيشك أنّى سار أربعة ... نصل ونصر وآراء ورايـــات
تحت ظل القنا أساد معركـــة ... لها ثبات وفي الهيجاء وثبـــات
أهلة في سماء من منافرهـــا ... لها الكتائب أفلاك وهـــالات
تهتز أعطافهم يوم الجـــلاد إذا ... غنت لهم من بنات القين قينـــات
صفائح هي ان دب المنون بهـــا ... صحائف كتبت فيها المنيـــات
ان من شمس الضحى من لمعها رمـــد ... كحلتها بالعجاج الأعوجيـــات
جرد كرائم تلقى عن فوارسهـــا ... شبى الأسنة أعناق ولبـــات
مستشرفات بآذان موكلـــة ... لها الى الثغر من دمياط حاجـــات
الويل للروم والأفرنج من ملـــك ... لمن النصر والتأييد عـــادات
أين المفر لسرب الروم من أســد ... ضار لمن رماح الخط غابـــات
دمياط طور ونار الحرب موقـــدة ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقـــات
الق العصى تتلقف كل ما صنعـــوا ... ولا تخف ما حبال القوم حيـــات
طاهم بجيشك لا تحفل بكثرتهـــم ... كأنهم لبنات الطير أقـــوات
أنت الصباح فمزق ليل كفرهـــم ... وأصبر ورابط فللأعمال نيـــات
زلزل بغارتك الشعواء دارهـــو ... فشيمة النجب الغر الأغـــارات
أصبتهم بسهام الرأي من حلـــب ... وللمكائد من بعد إصابـــات
فطهر الله ذاك الثغر من قلـــح ... أصابه وانجلت تلك الثنيـــات
تذكروا يوم صفين وما لقيـــت ... من حد سيفك عربا والقليبـــات
تقتلا وسبيا وأسرا وأنتهاب ثـــرى ... لله كم أحسنت تلك الاســـاءات
شننتها غارة كالنار محرقـــة ... للكفر وهي على الاسلام جنـــات
للمن تفر دمياط وبرزخهـــا ... فتح له تفتح السبع السمـــوات
شرحت صدر رسول الله وانحســـرت ... بنصرة الدين والدنيا غمـــات
يوم على الروم ينشى ريحه سحبـــا ... أمطارهن سبيات سبيـــات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمهـــا ... ليت له في بيوت الشعراء بيتـــات
فللرماح كلاهم أو صدورهـــم ... وللصوارم أعناق وهامـــات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهـــم ... والنقع ترقصه تلك المســـرات
ثناء لوا أن عيسى نصرة لهـــم ... ثقلت بينهما فرق وأشتـــات
هذا تموت به أحياؤكم أبـــدا ... وذا تحيا به في الترب أمـــوات
بوادر وهنوا من من صدمتهـــا ... فكيف لو قد أتت منها النهايـــات
تق يا أبا الفتح بالفتح المبين فلـم ... تنسب لغير أبيهن الفتوحـــات
عكا وصور الى رؤيات عاطشـــة ... فانهض فقد أمكنت منهن خلـــوات

واستخبر الصريح عنها اذ تسيره ... اليك فهو سالم أو تحيات
الله أكبر ان تمسى مزامره ... تتلى وتنسى من القرآن آيات
وان يخور على القربان عجلهو ... جهرا ويخفى آذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها ... ورانقت سعيها سادات (١)

وقال يمدح الأشرف ويرثي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ويمدح ولده الملك العزيز ثم يعود الى مدح الأشرف ويهنيه بالعيد ويحرضه على قتال الفرنج ، بقصيدة مطلعها :

هويته رشأ الطرف والجيد ... بدر ما بين تصفيف وتجعيد

ومنها :

يا قاصد الأشرف أمسك عن سؤال فتى ... إلى المكارم صب القلب معمود
أغر يلقاك بالاحسان معتذرا ... عذر المسيء على مطل ترديد
الماتد الرأي في أعلام عسكره ... فان نشرن فعن نصر وتأييد
القائد الجيش كالبحر الخضم لها ... أمواجه غير صيد أو صناديد
هوس اذا اعتقلوا المران خلتهمو ... أسدا تأبطن أمثال الأساويد
تجلو لهم في ظلام النقع غرته ... مواقع الطعن من نحر وتوريد
وتستعير مواضيهم عزائمه ... فما يدعن وريدا غير مورود
يا مخلفا ظن كيكاووس حين أتى ... يغزو معاقل اسلام وتوحيد
في جحفل عذبات الكفر خافقة ... من جانبيه يمشي غير مسعود
فاستقبلته من الاسلام شرذمة ... فبددت شمله في المهمه البيد
نجا وأسلم للغربان أسرته ... فسيد القوم رزق النسر والسيد
لو شاء شاه * أرمن ما فاته دمه ... لكن عفا عن أسير القلب مطرود
ورد أسراه بعد السلب في نعم ... ولو أطاق لأحيا كل مفقود
هذا هو الجود لا تسبان من لبن ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود (٢)

وقال يمدح الملك العادل ويذكر بناءه لقلعة الطور ، بقصيدة مطلعها :

تنقبت بالنَّوْرِ والنُّـور ... واعتجرت لكن بديجور

ومنها :

يا ليلتا لوصل أستقري وسيرا ... سيرة سلطان الورى سيري
الملك العادل من أمة ... فقد رأى موسى على الطور

---

(١) ديوانه ص ٥٥
(٢) ديوانه ص ٦٢
(*) في الديوان : شاه وينكسر الوزن بذلك

ان كان قد دك قديما فقد   عمرته أحسن تعمير
كأنما على مفرق   اذا استدارت شرف السور
يزاحم النجم له منكب   كالنجم في الرفعة والنور
كأنما أوقفته حارسا   ينظر من عكا الى صور
فكلما لاح له بارق   يرتعد الصخر من الـدور
بني سليمان بأعوانه   وأنت بالنصر الجماهير
تعافى الاحجار أيديهم   لا ترتضي لمس الدنانير
وانت لك الدنيا وسكانها   ما بين آمار ومأمور
تجرى المقادير بما تشتهي   ما بين تعسير وتيسير
سعادة ليس لها آخر   ولا ليوم النفخ في الصور
هل يقدر الأعداء أن يمسحوا   ما خط في لوح المقادير؟
يا ملكا تنسخ أيامه   ما خط من أفك الاساطير
أسهره الذب عن الدين لا   عشق ربيبات المقاصير
مؤيد الرايات والرأى في   حالة تدبير وتدمير
ان جنحوا للسلم فاجنح لها   ما خدع الحرب بتقصير
كم لك في يافا وفي الرمن من   وقائع غر مشاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم   ما بين مقتول ومأسور
طهرت بيت القدس من رجسهم   وكان مأوى للخنازير
يا ذاكراً لله يا ناسيا   للعرف من كثرة تكرير
الى محل الأجر والشكر يا   اكرم مأجور ومشكور (١)

---

(١) ديوانه ص ١٠ ــ ١٢ وانظر مفرج الكروب ٣/١١٦ ــ ١١٧ وتاريخ ابن الفرات مجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤ ــ ١٢٥

قال يهنئ أبناء العادل الذين اجتمعوا وطردوا الفرنج من دمياط سنة ٦١٨ :

هنيئا فان السعد راح مخلـــــدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعـــــدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنــــــا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤيـــــــدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبـــــه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسـودا
ولما طغى البحر الخضم بأهلـــه الــــــطغاة وأضحى بالمراكب مزبـــدا
أقام لهذا الدين من سل سيفـــه ... صقيلا كما سل الحسام مجـــردا
فلم تر إلا كل شلو مجـــــدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيـــــدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعـا ... عقيرته في الخافقين ومنشـــــدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبـــــه ... وموسى جميعا ينصران محمدا * (١)

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩ ـ ١٣٠ وأنظر النجوم الزاهرة ٦/٢٤١
وابن كثير البدايه والنهايه ١٣/٩٥
(*) نسبها المقريزى الى هبة الله بن محاسن (السلوك) ج١ ق١ ص ٢٠٩

قال يمدح المعظم عيسى ويذكر يوم دمياط ، بقصيدة مطلعها :

عسى البارق الشامي يهمي سحابـــه ... فتخضلّ أثباج الحمى ورحابــه

ومنهـا :

ويستخبر عنا وما من جهالـــة ... كشف الغطا عنه تزال ارتيابــه
وأذكرته أيام دمياط بيننـــا ... وبين العدى والموت تهوي عقابــه
وجيشا خلطناه رحاب صـــدوره ... بجيش من الأعداء غلب رقابــه
وقد شرقت زرق الأسنة بالدمـــا ... وأنكر حد المشرفي ترابــه
وعرد إلا كل ذمر مذامـــس ... ونكّب إلا كلّ زاك نصابــه
تركناهم في البحر والبر لحمـــة ... تقاسمهم حيتانه وذئابــه
ويوم على القيمون ما جت متونــه ... بزرق أعاديه وغصّت شعابــه
نثرنا على الوادي رؤوسا أعـــزة ... لكل أخي بأس منيع جنابــه
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنــا ... فذل لنا من كل قطر صعابــه
فكم أمرد خط الحسام عـــذاره ... وكم أشيب كان النجيع خضابــه
وكم قد نزلنا ثغر قوم أعـــزة ... فلم نرتحل حتى تداعى خرابــه
وكم يوم هول ضاق فيه مجالنـــا ... صبرنا له والموت يحرق نابــه
يسير بنا تحت اللواء ممـــدح ... كريم السجايا طاهرات ثيابــه
نجيب كصدر السمهري منجب الســـرايا كريم الطبع صاف لبابــه
من القوم وضاح الأسرة ماجـــد ... الى آل أيوب الكرام انتسابــه
تفرج ضيق القوم عنا طعانــه ... وشتت شمل الكفر عنا ضرابــه
وأصبح وجه الدين بعد عبوســـه ... طليقا ولولاه لطال اكتئابــه
جهاد لوجه الله في نصر دينـــه ... وفي طاعة الله العزيز احتسابــه
حميت حمى الاسلام فالدين آمـــن ... تذاد أقاصيه ويخشى جنابــه
وما بغيتي الا بقاؤك سالمـــا ... لذا الدين لا مال جزيل أثابــه (١)

وقال يرثي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سنة ٦٢٤ بقصيدة مطلعها :

يا دهر ويحك ما عدا مما بــــدا ... أرسلت سهم الحادثات فأقصــدا
أغمدت سيفا مرهفا شفراتـــه ... قد كان في ذات الإله مجـــردا
فافعل بجهدك ما تشاء فانـــني ... بعد المعظم لا أبالي بالــــردى
ما خلته يفني وأبقى بعـــده ... يا بؤس عيشي ما أمر وأنكـــدا

(١) ديوانه ص ١٩ ــ ٢٢

لهفي على بدر تغيب في ثرى ... رمس وبحر من ضريح الحدا
أبقيت لي يا دهر بعد فراقه ... كبدا مقرّحة وجفنا أرمدا

ومنها :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الاسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته ... عن نصرها لتمكنت فيها العدى
ولأمستا لبيض الحرائر أسهما ... فيها السبايا والموالي أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة ... تجتاب ما بين البقيع الى كدى
ويشنر دمياط فكم من بيعة ... عبد الصليب بها وكانت مسجدا
أنقذتها من خطة الخسف التي ... كانت أحلّتها الحضيض الأوهدا
أجليت ليل الكفر عنها فانطوى ... وانرت في عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدتك يوم قيساريّة ... والشمر قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الا بـ ... ـران أحكم بالصفيح وشيدا
فجعلت عاليها مكان أساسها ... والنت للأخشاب فيها الجلمدا
قل للأعادي أن فقدنا سيدا ... يحمي الذمار فقد رُزقنا سيّدا
الناصر الملك الذي أضحى بروح القدس في كل الأمور مؤيّدا
أعلى الملوك محلة وأسدّهم ... رأيا وأشجعهم وأطولهم يدا
ماضي العزيمة لا يرى في رأيه ... يوم الكريهة حائرا مترددا
يقظ يكاد يريه ثاقب فكره ... في يومه ما سوف يأتيه غدا(١)

وقال يمدح بني أيوب بمصر ويذم العجم بقصيدة مطلعها :

أرى شانيك شانهم انبجاس ... تجنب فلتيك له النحاس

ومنها :

ملوك دأبهم شرف ومجد ... ودأب سواهم طرب وكاس
فلولا آل أيوب بن شاذي ... لكان لمعهد الجود اندراس
يدافع عن حماهم كل قرم ... له في غمرة الموت انغماس
هم تركوا صليب الكفر أرضا ... يداس وكان معبودا يباس
وارغم بأسهم آناف قوم ... تجنّبها لعزّتها العطاس
أولو عدل يموت الليث منه ... طوى ويجنب مأواه الكناس
بأحلام موقرة اذا ما ... تزعزع يذبل ودنا قساس
بنوا في ذروة العلياء بيتا ... لمجد هم حوا ليه ارتجاس
فمن سمر الرماح لهم عماد ... ومن بيض الصّفاح لهم أساس(٢)

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ــ ٦٢

(٢) ديوانه ص ٣٢ ــ ٣٤

وقال يمدح الملك الأشرف موسى :

تسما بمن ضمت أبا طح مكة	ومن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى ينصر محمد	لسلا على دين الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله	في ثغر دمياط وعز المصحف (١)

وقال يمدح الملك الاشرف موسى بن العادل بقصيدة أولها :

جعل العتاب الى الصدود توصلا	ريم رمى فأصاب مني مقتلا

ومنها :

ملك غدا جيد الزمان بجوده	حالٍ ولولاه لكان معطلا
يا أيها الملك الذي إنعامه	لم يبقِ في الدنيا فقيرا مرملا
لقد اتقيت الله حق تقاته	ونهجت للناس الطريق الأمثلا
وعدلت حتى لم تجد متظلما	وأخفت حتى صاحب الذئب الطلى
ورفعت للدين الحنيف مناره	فعلا وكنت بنصره متكفلا
لولاك لا نفصمت عرى الإسلام في	مصر وأخمل ذكره وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت	أعلامها محراب عمرو هيكلا
حاشا لدين أنت فيه مظفر	ان يستباح حماه أو أن يخذلا
أنت الذي أجليت عن حلب العدى	وحميت بالسمر اللدان الموصلا
كم موقف ضنك فرجت مضيقه	وطريقه لنجائه قد أشكلا
كم يوم هول قد وردت وطيسه	مر المذاق كريه نار المصطلى
ونثرت بالبيض المهندة الطلى	ونظمت بالسمر المثقفة الكلى

فالله يخرق في بقائك عادة الدنيا ويعطيك البقاء الاطولا (٢)

وقال يمدح الكامل ويذكر وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة ٦١٦ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا	اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا	من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة	ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت	جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مفاضة	ولا من كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا	الينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم	بأطرافها حتى أستجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى	وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

---

(١) ديوانه ص ١٤ ــ ١٥

(٢) ديوانه ص ٩ ــ ١١ وانظر مفرج الكروب ٤ / ٢٢٠ وعقد الجمان جـ ٨ ق ١ ورقه ٥٨

لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلاً فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرا ... فالقوا بأيديهم الينا فأحسنا
وما بين الاحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الابنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... ولوطاً ولكنا ملكنا فأسجحنا
وقد جربونا قبلها في وقائع ... تعلم غمر القوم منا بها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره ... وكم من أسير من شقا الاسر أطلقنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا ... لما ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرب ما لقينا هجيرة ... بستر وتر ما طلبنا له كنا
فان نسيم الملك في شطف القنا ... ينال وطلو الشر من مره يجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد ... أبى عزمه أن يستقر به مغنى
كريم الثنا عار من العار باسل ... جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
لسراه ما آيات عيسى خفية ... هي الشمس للاقصى سناء وللادنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع ... نجيب يرى ورد الوغى المورد الاهنا
فاجلى علوج الروم عنها وأفرحت ... قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه ... همام يرى كسب الثنا المغنم الاسنى
مآثر مجد خلدتها سيوفه ... لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها فيها فان عادوا عدنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٩ وأنظر مفرج الكروب ٤/١٠٠ والسلوك جـ ١ ق ١ ص ٢١١

أرسل الملك الكامل الى أخيه الاشرف موسى يستحثه على سرعة الحضـــور :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفـــي ... فانهض بغير تلبث وتوقـــف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفــا ... بتجشمي سهلا وتعسـف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنـخ ... إلا على باب المليك الأشـــرف
واقر السلام عليه من عبد لـــه ... متوقع لقدومه متشــوف
وإذا وصلت الى حماه فقل لـــه ... عني بحسن توصل وتلطــف
ان تأت عبدك عن قليل تلقـــه ... ما بين كل مهند ومثقـــف
أو تبط عن إنجاده فلقـــاؤه ... يوم القيامة في عراص الموقـــف (١)

---

(١) المقريزى جـ ١ ق ١ ص ١٩٧

كتب الى العز بن عبد السلام وقد أغارت الفرنج على نابلس* :

ألا ليت امي ايم طول عمرها … فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد … لبيب أديب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا … فما بشرت يوما بانثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا … اصيبت بما أجتنت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت … تشد الي الشد قميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم … ولم أر في الاسلام ما فيه من خل (١)

---

(١) الفوائد الجليه في الفرائد الناصرية ورقه ٩٥ وورقه ١٠٤ ـ ٢٠٥

(*) ينسبها ابن الوردى للعز بن عبد السلام وهو خطأ اذ ان القطعه للناصر داود كتبها الى العز بن عبد السلام (أنظر تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ١٩٩) .

قال يمدح ابن الناصر صلاح الدين من جملة قصيـــدة :

ملك بهوأبيه يفتخر العـــلا … ويفوق فخره ما السهى والفرقـــدا
ما يوسف ما يقاس بحاتـــم … (   )وقد وهب الحصون وأصفـــدا
أو أن يقال كأنه يوم الوغـــى … والروع كالاسد الهصور اذا عـــدا
أو من يشبه جوده بغمامـــة … أو من يقال لمثله عمـر المـروى
بل مالك الدنيا ومالئ رحبهـــا … خيلا ورجلا ناصر دين الهـــدى
ومخلص البيت المقدس بعد مـــا … رفع الصليب على ذراه ومجـــدا
ومن الملوك الصيد يلقاهـــم اذا … رفع السرادق راكعين وسجـــدا
وبه أتى البيت الحرام وفـــوده … من كل فج آمنين من العـــدى
من بعد ما درست معالم سبلـــه … دهرا وعز لخوفها أن يقصـــدا (١)

وقال في فتح دمياط سنة ٦١٨ يمدح الملك المعظم :

سرى الملك المولى المعظم في الدجى … فأطلع نجم النصر بعد مغيبـــه
ورد على الإسلام بعد كآبـــة … سرورا وأوى الدين بعد شحوبـــه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بهـــا … فريدا وأضحى بحرها من نصيبـــه (٢)

---

(١)   الروضتين ٢ / ١٠٧
(٢)   الذيل على الروضتين ١٢٦

قال عندما أسر الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل الفرنسيس وأعتقله بدار فخر الدين بن لقمان وقيده بقيد من ذهب ووكل به خادما يسمى صبيحـــا :

قل للفرنسيس اذا جئتـــــه   مقال صدق من قؤول نصيـــح
آجرك الله على ما مضـــــى   من قتل عباد يسوع المسيـــح
قد جئت مصرا تبتغي أخذهـــا   تحسب أن الزمر يا طبل ريـــح
فساقك الحين الى أدهـــــم   ضاق بمن ناظريك الفسيـــح
رحت وأصحابك أودعتهـــــم   بقبح أفعالك بطن الضريـــح
خمسون ألفا لا يرى منهـــم   الا قتيلٌ أو أسيرٌ جريـــح
فردك الله الى مثلهـــــا   لعل عيسى منكم يستريـــح
إن كان باباكم بذا راضيـــا   فرب غش قد أتى من نصيـــح
فاتخذوه كاهنا انـــــه   أنصح من شق لكم أو سطيـــح
وقل لهم إن أضمروا عـــودة   لأخذ ثار أو لقصد صحيـــح
دار ابن لقمان على عهدهـــا   والقيد باق والطواشي صبيح (١)

وقال حين أسترد الملك الناصر داود القدس الشريف ثانية من الافرنج :

المسجد الاقصى له عـــادة   سارت فصارت مثلا سائـــرا
اذا غدا للكفر مستوطنـــا   أن يبعث الله له ناصـــرا
فناصر طهره أولا   وناصر طهره آخـــرا (٢)

---

(١) ديوانه ١٨١ وأنظر المختصر في تاريخ البشر ١٨٢/٣ والالمام ١٧٥/١
(٢) ديوانه ١٨٢ والروضتين ٢٠٦/٢

قال يمدح الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني، ويذكر وقعته مع الفرنج على يافا، ويذكر له أن قوما قد ساءهم قربه منه ، وذلك سنة ٦٠٨ : مطلعها :

راح يخشى في حبه الرقبـاء ... ويسرُّ الغرام والبرحـاء
ويفيض الدموع حتى لقد أصبـح ... بين الأحباب منه عـزاء (١)

مقدمة غزلية فيها بكاء على فراق الأحبة ورحلة في طلب الممدوح ، عدد أبياتها (٢٣) بيتـا ثم يقـول :

وإذا ما سألت يافا أجابـت ... بلسان غادرته فأفصـاء
شهدت منك موقفا صعقت منـه ... وقد كان أن يهدّ البنـاء
فاختلطت النفوس حتى لقد غـا ... درت ذربا بجموعهم أشـياء
ظلت في معرك تحط على الـرو ... م من الموت صخرة صمـاء
نزعت الغداة الذين فيهـا ... بطوال المثقفات لـواء
وأتمت الصلاة في ذلك الـدر ... ب وقد كانت الصلاة بكـاء
وتلوت القرآن فيها فظل الـسـرّ ... (م) وم حتى تخيلوه غنـاء
وبعلت الصليب منعفرا فيـهم ... وقد كان عزّة عـ..ـاء ..الخ

وقال يمدح الملك الكامل بن العادل ، ويذكر نزول الفرنج على دمياطه وتقاعد الملوك عن النجدة ، وقد كان أتصل بخدمته سنة ٦١٤ مطلعها :

لهم حب قلبي إن تدانوا وإن صدوا ... وإن قربوا والحال دونهم البعـد (٢)

وبعد مقدمة غزلية استغرقت أربعة عشر بيتا يتخلص إلى المدح فيقـول :

وركب تداعوا للسرى ثمت انبـرى ... ليبغي القرى بعد الهدوء ذلك الوفـد
فقلت لهم والليل ملق جرانـه ... وقد ستر الآفاق من جنحه بـرد
تفوا حيث أنوار الهدى كامليـة ... ونار الوغى والمشركون لها وقـد
فثم ترى الإسلام يسفر وجهـه ... سرورا ونجم الحق في أفقه يبـدو
فلولا سمي المصطفى ووليـه ... وشمس الدين ، بل كادت قوى الحق تنهـد

---

(١) ديوانه : ورقة ٢٠
(٢) ديوانه : ورقة ٢

فما صافحت يمنى الصفاح كفه … ولا حملت ذاك المطهمة الجرد
ورى زند ذا الدين الحنيف برأيه … ورايته من بعد ما قد كبا الزند
وجده أثواب المنى فانثنى الغنى … يروق على قصاد مثل ما يغدو
تجمعن فيه أرض نبوة … تأثل منها عنده الفخر والمجد
جلال سليمان ، وبهجة يوسف … وأخلاق داود ومن أحمد الحمد
اذا منعت أجفان ملك رقادها … عن الملك أضحى حشو اجفانه السهد
وان وهبوا المال طريفا وتالدا … فجود هم في بحر احسانه ثمد
فلو جاز في الدنيا خلود لخالد … على حسن ما يأتي لحق لها الخلد
خصائص أيوبية عاد لينة … شددت بها الدين فوق الذى شدوا
فروع زكت في المكرمات وانما … سمت بهم الاعلام والحسب العد
فلولاهم لم ينبت الخط للوغى … وشيدا ولم تطلع صوارمها الهند
فقل لملوك الخافقين اليكم … عن الملك أو سدوا من الامر ما سدوا
مليك الورى : أين الملوك عن الذى … تصديت فيه للعدى حين ما صدوا ؟
أيطمع أقوام بنيل عيشة … متى عطشوا ، فالموت دونهم ورد
إلا بالتمادى والفرنج بجمعهم … على جيد دمياط كما انتظم العقد
فو الله ثم الله حلفة صادق … حشاها حشايا ملؤها الغيظ والحقد
لما طاب سكنى طيبة ولقد نبا … بجنب النبي المصطفى ذلك اللحد
وأقسم لولا طود بأسك ما علا … منار الهدى حقا ولا سعد الجد
ولا تاه يبغي نصرة الحق قائم … من الناس لولا سيف عزمك والحد
أيا ملكا أجهدت نفسي بمدحه … اليه رجاء أن سينفعني الجهد
قصدتك لا ألوى على الناس كلهم … سواك عسى يرعى لنا ذلك القصد
أؤمل أن أبقى بقية مدتي … لديك وعيشي ناعم عندكم رغد
ولست أرجي غير خدمتك التي … يتم بها بين الورى عندي السعد
تركت بلادى وارتحلت أريدكم … غدونك فضلا حال عن جزره المد
فخذ واستمع مدحا تمد لسواه … يد الدهر يرويه لرونقه الشهد
فها انا يا ملك الملوك وأنتم … وها مصر لكن النصيب لكم عبد
فهذا يرجى بعد ان جاء نحوكم … مليكا ومن ذا يستطاع له رد ؟

وقال فيه (الكامل) عقيب الهزيمة عن دمياط ، واختلاف العساكر ، ووصول المعظم وغيرها يحث الاجناد والامراء على القتال :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا … فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
فريق الهدى والله يظهر دينه … على دين من قد أشركوا وتمردوا
فلله ألطاف عليكم خفية … فان تنجدوه من لظى النار تنجدوا

---

(١) ديوانه : ورقة ٢ ـ ٣

أرى الآية الكبرى من النصر قد جرى   بها الفال فالافراح فيها تجدد
وبا بيبد المشركين بانه   تجمع للاسلام عيسى وأحمد
عسى اللمان ياتي بموسى فانني   أرى كبدي شوقا اليه توقد
ليظهر ان الحق حق مجيد   وكل نبي بالذي قلت يشهد
فلا تجزعوا من حادث جاء قاد جيما   فذا الذين للرحمن في نصره يجهد
فبينوا الذين الكفر غارات مبشر   لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكم   متى تتركوها آن للنار تخمد
فذا الدين ما أربى قواعد حقه   لدى الناس الا ذابل ومهند
فحزبكم حزب الاله وانهم   دم النا لهون الشرك ، والمدود أحمد
هل الدين ملهوس جهل وشهية   فنيلكموها اليوم أو يصف النهد
وهل فر من نار القتال أخو حجى   ليبقى ، وفي نار الجحيم يخلد
أطيعوا مليكا يشتري الحمد بالندى   ويرقد في جفن الردى وهو أرمد
له عزمات الدهر ان دام بالعدى   وكالنبت يهوي صوبه وهو موعد
له دوحة منها عاد ليته   وللمجد منها كل وقت مجدد
فللحق منه خير ركن وملجا   وللعدل والاسلام سيف مهند
اذا جئته تلقى السماح مجسدا   بكف طوال الدهر يعطي ويرتد
وان تقرى العافي اذا أمل له   جداول تجرى والسديف المرشد
لقد سطرت من يسره ونواله   أحاديث جود عنعنوها وتسند
فيغني ولم يسبق عطاياه موعد   ويغني ولم يسبق رداه التوعد
ومن وهب الأموال أو قتل العدى   لمشري بذاك الشكر والحمد ، يحمد
وكان عليه أن يحوز مدى العلى   ألية مبرور وحلف مؤكد
أقام عمود الدين حقا محمد   كما بدأ الدين الحنيف محمد
فاشرق بدر الحق في أفق الهدى   وقد غاله قطع من الكفر أسود
نزلت وحاجاتي بباب محمد   فاذ هل عني زمان منكد
وقد كان ظني أنني أقطع المدى   به ، فهو سيف في الرزايا مجرد
تجاوزت أقوبا على أعزة   اليمن بوسي بنعما مينقد
فلم يك لي في الله ذا عنابة   فيمرف فضلي ثم يثني ويحمد (١)

ثم يختمها بشكوى الزمان وطلب الرعاية بخمسة أبيات :

---

(١) ديوانه : ورقة ٤ ـ ٥

وقال في المعظم ، وقد اجتمع هو وأخوه الملك الاشرف ، وجمعا العساكر من البلاد كلها لنصرة الكامل وتخليص دمياط من الفرنج ، فعجل الله لهم افتتاحها ، وكسر المشركين . يقول :

ها قد بلغت الذي قد كان ينتظر … الله أكبر ، هذا النصر والظفر
قد صح الخُبْر منك اليوم عن خَبَر … قد كان أنظرَ فيه نفسه النظر
أكذبت ظن الاعادي بالذي كملت … بما اعتادت قواصل بك الخطر
غالت ظنونهم في الفال وابتُدِلَت … من بارح سانح الطير الذي زجروا
أعدت عود الهدى غضا وقد يبست … أغصانه وهو لا ظل ولا ثمر
هذا هو الفتح فتح لا يقوم به … نظم المديح ولا نثر فيبتكر
فتح مبين وقي من كل موبقة … لمينة من بعد مذنب فيغتفر
يا يوم دمياط قد راحت مسودة … منك الطروس وقد سارت بك السير
تهلل الدين والدنيا به فرحا … واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَر
لم تخش يثرب تثريبا لقادحة … من بعده اذ سرت في ذكره السور
أنلقت عن الاماني وهي داهية … ورضت صعب المعاني فهي تبتدر
اليست أهل الهدى من نصرة حللا … والشرك قد حل … الازر والازر
في يوم ذي رهج لا وصف يدركه … يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
يوم تدين له الايام إذ خرست … عن فخرها وهو طول الدهر يفتخر
في حالة جمع الضدين في قرن … فالشرك منخذل والحق منتصر
قد عاد صبحهم ليلا تضيء به … زرق الأسنة فهي الانجم الزهر
والشمس طالعة فيه وغاربة … لكنها بظلام النقع تستتر
والدين قد تليت اياته فرحا … بنصره ، وصليب الشرك منكسر
يا دين عيسى ، بعيسى قد خذلت وذا … كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبر
واناك في جحفل ضاق الفضاء به … ذرعا ، فانت لديه بل له جزر

اتى بجيش وغى ، في الارض عسكره … وفي السماء قضاء الله والقدر
فالبحر من تحتهم آذيه وعلى … رؤوسهم منك نار الحرب تستعر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتة … وبين سمر القنا ، والموت مستكر
فللرماح قلوب منهم أبدا … وللسيوف الطلى والهام والقصر
أتوا العبور الى دمياط تحصنهم … وما دروا أنه عبر به العبر
راموا بحيث أطلهم الامر سلمهم … وقد رأوا غارة دانت لها الغير
ليطلبوا السلم الا بعد عامهم … بان سيفك لا يبقي ولا يذر
أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا … ويل طويل وقد وافاهم الخبر
إن لم يكن حوصروا فيها فانهم … من بؤس باسك حصرا لهم ينحصر
يمشون همسا وايماء حديثهم … فيها لخوفك ، إن قالوا وإن ذكروا
نهاهم الرعب عن عود فمنقطة … إن قيل عودوا نعد بالسيف ننتصر

ما يوم بدر باعلى منه او أحـــد ... ولا حنين وان عدوا وان شهروا
لا يوم أحسن منه منظرا وسنـه ... سمر القنا وسيوف الهند تشتجر
جنيت فيه رؤوس القوم يانعـة ... لكن ذوت بعدها الاغصان والشجر
فلتشكرنك بنو العباس بعد همـ ... لا بل تريثر توءدي الشكر بل ضـر
ألبستهم عز تعصناه د شرذمـ ... من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا
كم آية لك يا عيسى ومعجـزة ... يقل هزمهم فيها وان كثروا
أنت المليك الذي لو عيب في ملأ ... ما عابه الناس الا انه بشـر
أحييت ميت العلى والمكرمات بمـا ... أوليت اذ لا يوازي بعضه المطر
مناقب حسنت أخبارها وزهـت ... حتى لقد صار مهجورا بها السمر
يا معدن الفضل والاحسان هاأنذا ... ومن ورائي جميعا كلنا صبـر
الله يعلم أني في انتظاركم ... قد مسني الضر بل اودى بي الضرر
يكفيك مني ادنى ما أشير بـه ... انا ليس من عاد في الاكثار والهذر
خذها تأتيك حبيبا لو يروم لهـا ... وزنا لحاضره في فكره الفكر
ولا تضع لاستماع بعدها أبـدا ... ما كل مختلف الوانه زهر (١)

وقال أيضا يمدحه ويعاتبه وكان جماعة قد تكلموا فيه عنده فأثر ذلك (فيه) ويذكر فيهما وقعـة :

ان العرين الذي يحتله الأسد ... دار المليك وفيها العيشة الرغد
سرادق المجد مضروب على ملـك ... لا لاوءه في عراص العز مقتصـد
ربن من الملك محور وأفنيـه ... بها العلى والندى والباس والجد
يا حسن ذو الله روح الله قد كملت ... به السعادة واستعلى له الامد
هو الحسام المرجى صوب عارضه ... والصارم المنتضى والفارس النجد
عضب العزيمة ماضي الوهم متلـ ... شواهر الحزم بالآراء منفرد
يمضي حوزته والشرب فاغرة ... في حين لا تختفي يمنى ولا زرد
ما حل ارضا ولم ينهد الى بلـد ... الا تضم روضا ذلك البلد
صاف وفيه على أعدائه كـدر ... والغيث منه يكون الماء والزبد
يا زايغ القلب ان السيف مطلـع ... على القلوب فكذا ما للذي تجد
هذا هو الأسد الرادي براثنه ... عليه من زغف ما ذنبه لبـد
التي على أفق الدنيا كلاكله ... فالقرب في ... سيان والبعد
الله أكبر جاء الحق يقدمـه ... نصر المليك فلا وانٍ ولا جحـد
يا أيها الملك المرسي بعزمته ... طود الخلافة لما مسه الأود

---

(١) ديوانه : ورقة ١٤ ـ ١٥

كم موقف لك ليس المناسيه … والدين مهتضمٌ والملك مضطهد
جلوت وجه العلى فيه بذي شطب … ماء المنية في متنيه مطرد
يهتز في وجه إفرند تخاله … كأنه حية في متنها رسد
فكان مجدك موجودا لطالبه … والمجد في الروع موجود ومفتقد
أججت للكفر من كفيك ملحمة … أضحى بها الموت في حوبائه يضد
نشرت راياتك الصفر التي وسمت … بالنصر فهو لها تحت الوغى صدد
لاقيتهم ووجوه الخيل عابسة … والبيض ضاحكة والموت محتشد
في فتية من نتاج الحرب قد غمست … أسيافهم للمنايا انها تسرد
حييتهم ببنات الحدّ يفرسها … رزء ممرسهن القلب والكبد
من كل أسمر تستقي المنون به … من القلوب دما ما إن لها قود
وقد تيقن أن لا صبر يسعدهم … وان صبرك لا تحصى له المدد
خانوا بأنفاسهم ما ألم بهم … فهم يظنون ربما أنها رصد (١)

ثم يختمها بمدحه ويطلب منه أن يعينه على نوائب الدهر (وذلك في ثلاثة عشر بيتا (٢) .

وقال في الأشرف موسى بن العادل عند منصرفه من الجزيرة والشام الى الديار المصرية لنصرة الكامل ، ويذكر له وقائع بالفرنج والروم : مطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيد … ما بين منعرج اللوى فزرود (٣)

وتبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (١٣) بيتا ثم يمدحه بالكرم وحسن السيرة بعشرة أبيات ثم يقول :

وطريدة الاسلام أنت أعدتها … من بعد طول تشرد ونـدود
أيام صاغيها يقصر دونها … وصف البليغ بخطبة وقصيد
بددت جمع الكفر وهو مؤثل … منهم بحزم في الأمور رشيد
ونهضت اذ عجز الأنام بأرعن … ملأ الملأ عددا بغير عديد
ثاروا من الاسلام يهدا قتوة … فأعدته من حفظ وجديد
وسقيتهم كأس المنية بعدما … شربوا بكأس النصر والتأييد
والروم راموا نصرة فجعلتهم … ما بين مقتول الى مصفود
أغناك باسك عن تراكم كتيبة … او نشر رايات وخفق بنود
علموا بأنك كالدجى لا مهرب … منه ، ويدرك شاؤ كل شريد

(١) ديوانه : ورقة ١٦ ـ ١٧
(٢) ديوانه : ورقة ١٨
(٣) ديوانه : ورقة ١٨

فاستسلموا ملوا الأمواه بعد مسا   أسكنت أكثرهم بطون لحود
وفتحت ما افتتحوا بعزم قاهر   قاعدت عدوها الى موجود
واتيت اذ د مياط بذل ربعها   كفرا عن الايمان والتوحيد
تلقى جيوش المشركين بعزمة   عظمت عن التكييف والتحديد
فرعون كفرهم طغى فأتاهم   موسى لاغراق ببحر جنود
جاءت غواربه بموج مزبد   متلاطم آذيّه بحديد
موسى وعيسى ارسلا لمحمد   ومحمد بالنصر والتأييد
فالله يشكر منكم السعي الذي   يرضيه بين إقامة ونهود
يا أيها الملك الذي اخلاقه   رصفت وقد وصفت نظام عقود
يا كعبة إن كان تقبل حجتي   فلها ركوعي دائما وسجودي
ما بال مثلي خائفا من بعد ما   قد كان في ظل الملاء عمودي
أيجوز لي خوض الخضم وأنثني   عن مائة دتيمها بصعيد
ان كان قل النيل يجدد ربه   فالمستنيل لذاك غير حميد
كانت تمنى الدهر ذلك جهد ما   لا ظل زنكي ولا مسعود
والاشرف المنصور أشرف دعوة   من ان أراني ليس يورق عودي
خذ واستمع مني نظام قريبة   جاءتك بالتعظيم والتمجيد
حليت بمدح الملك في سمع فما   تنفك بين ترنم ونشيد
ولئن تأخر عصرها فلها السما   حرثت بفنامي جرول ولبيد
عذبت على الافواه حتى أطربت   بحدائها بزل المطايا القود
لله أنت غريبة وحيدة   في مغرب في بأسها الجمود
كفل الاله له بطول بقائها   لرضى محب او لكبت حسود (١)

وقال فيه أيضا بعد فتح دمياط وهزيمة الفرنسيين :

نصر من الله وافانا به الخبر   فلتهنك العزة القعساء والظفر
فتح قريب وماله قد خصصت به   جرى به قبل تكوين الورى القدر
هذا الرجاء الذي كنا نؤمله   قد وفيت لك في تيسيره النذر
قد صمت لله شكرا اذ سمعت به   واستبشرت بالذي حدثته البشر
احرزته وسيوف الهند جائلة   من دونه والقنا الخطي مشتجر
فما خلا الدهر من يومي ندى وردى   جود يسيل لديه أو دم هدر
لله باسك يوم الروع شقيت   منك الجماجم بالهندي والقصر
فتحت فتحا عظيم الخطب كم ملك   قد رام إحرازه دهرا فما قدروا
راح افتتاحك بين الورى مثلا   وسيرت الفلك تيسيرها السير

---

(١) ديوانه : ٢٠ ـ ٢١

نهضت للدين بالهندي منصلتـا   والله عونك والأملاك والقدر
أبديت في ظلمات الدهر نورَ هدى   لقصّرتْ عن مداك الشمس والقمر
اتيت دمياط اذ اعيت رياضتها   كل الورى وتنائي البدو والحضر
فكنت اذ زرتها مفتاح مقفلها   فالحق منتصر والشرك مندثر
صدمتهم بخميس لو صدمت به   وجهَ البسيطة كادتْ منه تنفطر
من بعد ما كان في آمالهم طولٌ   يوم الكفاح وفي أعمارهم قصر
أوردت أنفسهم حوض الردى فغدا   ورودهم بارتواءٍ ما لهم صدر
أنزلت أفئدة منهم بسنان ردى   زرق الاسنة في أطرافها زهر
ما أنبتا الخط طول الدهر من أسل   غادرته وله من هامهم ثمر
لما أتيتهم قالوا بأجمعهم   هذا القضاء فلا يبقي ولا يذر
عاد النهار لهم ليلا بقسطلة   دجت ووجهك في ظلمائها قمر

...

جاءوا وراءك يا موسى فصمّمهم   بحر بأمرك مهما شئت يأتمر
يوم غدا دونه يوم الكلاب فلا   عمرو رأى مثله يوما ولا عمر
كلا ولا يوم ذات الدوم يشبهه   أو يوم تغلب إن قالوا وإن فخروا
حفظتَ ملك بني السباء وانحفظت   بك الشريعة اذ غيرتْ بك الغير (١)

ثم يمدحه بتسعة عشر بيتا ويختمها بشكره ، يقول :

كم قد شكرتك في الدنيا لدى ملك   شكرا تنشّر منه للورى حبر
وقلتَ ان ذكروا موسى فليس يرى   لغيره في العلى ناب ولا ظفر
وحسن رأيك تغنيني بوادره   عن شرح حالي فاستغني وأختصر

وقال في الملك الناصر قلج ارسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الايوبي ويذكره انه كان كاتبا لأبيه وأهله ويحرضه على قتال الفرنج ونصرة الاسلام والجهاد، مطلعها :

بما بجفنيك من غنج ومن كحل   صل مغرما ليس يصغي فيك للعذل (٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها ستة عشر بيتا ، ثم ينتقل الى مدح قلج ارسلان فيقول :

ملك له عزمة ذلّ الزمان لها   وجحفل باش يريك النار في رجل
مؤيد الرأي إلا انّ همته   أمضى من البيض والخطية الذبل

---

(١)   ديوانه : ٢١ - ٢٢
(٢)   ديوانه : ٢٢

طوفان راحته بالجود لا أحـــــد   إنّ ثمّ قائل آوى الى جبــــل
كلا ولا عاصمٌ من بأسه أبـــــدا   يوم الوغى بظبى الهندية القصـــل
ما أعمل الفكر في يومي نــــدى وردى   إلا لتعجيل رزق منه أو أجـــــل
كأننا من قريش جاهليتنـــــا   في الجود عاكفة منه على هبــــل
أكذبت ظن السحاب الجون من نعـــم   رويت منها الورى بالعل والنهـــل
جود يعمّ البرايا منك متصـــــل   وما طلّ الغيث حينا غير متصـــــل
فانهض الى نصر دين الله في جحـــفل   في جحفل شرق بالخيل ذي زجــــل
جيش يجيش بأبطال اذا برزوا   قال الردى للعدى موتوا على عجـــل
من كل أغلب في عرنينه شمـــم   ضخم الدسيعة مرد غير محتفـــل
وكل مدرع للصبر مؤتـــــزر   بالحزم ملتحف بالعزم مشتمـــل
أبناء حرب غدوا فيها ومنشأهـــم   بها ولم يحكوا قولا بلا عمـــل
فالله جارك والأفلاك دائـــــرة   بما تؤمله في أوضح السبـــل
قد سدت كل ملوك الارض قاطبـــة   وشدتها دولة تسمو على الـــدول
يا أيها الملك الميمون طائـــره   وابن الملوك ونجل الســادة الأول
سمعا لشكواي من دهر حواد ثـــه   لا تنقضي بصنوف المكر والحيـــل
ما زلت عند بني أيوب في نعـــم   موفورة ونوال غير منتقـــزل
أرعى رياض الندى من فيض نعمهـــم   وأسرح الطرف بين الخيل والخـــول
وعشت في عزة قعســاء عند هـــم   موفر الحظ في الأفراح والجـــذل
أرعى التفضل وما حصلت مــن أدب   ومن علوم ولا أرعى من الهمـــل
وكان لي الملك المنصور أعظم مـــن   يعلي محلي ويدني مسرعا أملـــي
فخانني الدهر في حظي وأعد مـــني   من كان أضحى عليه الدهر متكلـــي
تكنت لي عوضا عن كل من ذهبـــوا   عيني وجئتك أسمى جد مختتـــل
قصدت بابك والآمال تلعب بـــي   واعتضت بالجم عن نزر من الوشـــل
فاسلك مسالك أهليك الكرام معـــي   ولا نكن عن قضاء الحق في شغـــل
فان جودك يكفي كل حادثـــة   وحسن رأيك لا يؤتى من الزلـــل
قد صار كفيك رب العرش عن قـــدر   للمشرفية والتوقيع والقبـــل
وان بابك يولي قاصديه علـــى   كأنما الشمس منك الدهر في الحمـــل (١)

وقال في الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين وهي من أشعاره في الصبـــو،
وكان قد اجتمع به في القاهرة سنة ٥٩٤هـ مطلعها :

ان كان أضمر قلبي عنك سلوانـــا   لا كنت من مغرم صبّ ولا كانـــا (٢)

---

(١) ديوانه : ٢٤ ـ ٢٦
(٢) ديوانه : ٣٨

تبدأ بمقدمة غزلية من ١٨ بيتا ، ثم ينتقل الى مدح العزيز عثمان بالكرهشانية أبيـــــات ثم يقـــــول :

كم موقف لك والخطيّ مشتجـــــر — والبيض تكسي نجيع الهام أجفانـــــا
يرضى به الله والاسلام مبتهـــــج — منه وعاد نبيّ الله جذلانـــــا
للمشركين على الايام نكمـــــدة — كما حَطَمْتَ اناجيلا وصلبانـــــا
شرعت للسيف شرعا في رقابهـــــم — كما لاكباد هم أشرعت شرعانـــــا
اني وإياك والامثال أضربهـــــا — ذكر كما قال رب العرش تبيانـــــا
نصر وفتح قريب باجتماعهمـــــا — نبغي من الله رضوانا وغفرانـــــا (١)

وقال يمدح الملك المعظم كوكبري بن علي بن بكتكين ويذكر وقائعه ويعرض بكسر العجـــــم ، مطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالـــــم — فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتـــــم
أم القلب إثر الظاعنين صبابـــــة — دعي فأجابته الدموع السواجـــــم (٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (١٨) بيتا ، ثم ينتقل الى المدح فيقـــــول :

مليك به وجه الخطوب مقطّـــــب — وثغر الندى والدين والعدل باســـــم
حسام أمير المؤمنين وما سمـــــي — بذلك الا وهو للخطب حاســـــم
به نُصر الاسلام في كل موطـــــن — وحلت بأهل الزيغ منه القواصـــــم
لئن عجزت وُطُفُ الغوادي بجـــــوده — لقد خجلت منه البحار والخضـــــارم
فمن مجده حوض المدائح مـــــترع — ومن جوده بحر المنائح راســـــم
مليك له الاقدار تجري على الـــــورى — فليس قضاء غير ما هو حاكـــــم
تجليت منا الدهر ثوبا من السلـــــى — ففي عصره كل الزمان مواســـــم
اذا عجز الوصاف عن حصر مدحـــــه — وأوصافه أثنت عليه المكـــــارم
وما أنصفوه بالمعظم اذ غـــــدا — عظيما ، وقد هانت لديه العظائـــــم
ومن أين يلفى للمظفر مشبـــــه — اذا اشتد مثل الدارعين الملاحـــــم
وكم سوق حرب للأعادي أقمتـــــه — وموت لهم أيقظتموه حالـــــم
وكم شهدت منه الفرنج مواقفـــــا — وبحر المنايا موجه متلاطـــــم
دعوت بها بيض السيوف فأقبلـــــت — تجيبك في هام الكماة الصـــــوارم
لدى معرك لم يلف في جنباتـــــه — اذا الروع الآصــــــارم أو ضــــــارم

(١) ديوانه : ٤٠
(٢) ديوانه : ٥٦

وما زالت في جيشين : جيش مقاتل ... ويمشي على القتلى من الطير حائم
ولو سئلت أرض الفرنج شهادة ... أجابتكم صيدا ويافا وحارم
فكم خلست فيها لدى الحرب أنفس ... وكم قسمت اذ ذاك منها الغنائم
وكم من صريع من مخافة بأسكم ... وما نفعت فيه الرقى والعزائم (١)

ثم يختمها بالمدح بالكرم ويطلب منه أن يتخذه كاتبا له (في ٦٦ بيتا) .

---

(١) ديوانه : ٥٦ ـ ٥٧

قال يمدح السلطان الكامل محمد بن العادل ، ويذكر انتزاعه ثغر دمياط من الفرنج :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر　　وردّت على أعقابها ملة الكفر

ومنها :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها　　لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
ولو لم يقم بالله حق قيامه　　لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية　　لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء لمكة　　ويثرب تنهيه الى صاحب القبر
فقل لرسول الله ان سميه　　حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر
هو الكامل المولى الذي ان ذكرته　　فيا طرب الدنيا ويا فخر العصر
به ارتجعت دمياط قهرا من العدى　　وطهرها بالسيف والملة الطهر
ورد على المحراب منها صلاته　　وكم بات مشتاقا الى الشفع والوتر
وأقسم ان ذاقت بنو الاصفر الكرى　　فلا حلمت الا بأعلامه الصفر
عجبت لبحر جاء فيه سفينهم　　ألسنا نراه عندنا ملك القصر
ألا انها من فعلة لكبيرة　　سيطلب منها عفو حلمك واليسر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا　　تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
صبرت الى أن أنزل الله نصره　　لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها　　بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها　　ولا غرو ان سميتها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم　　بسابحة دهم وسابحة غبر
أساطيل ليست في أساطير من مضى　　بكل غراب راع أفئدة من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة　　وان زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله　　لآل زهير لا ولا لبني بدر
وباتت جنود الله فوق ضوامر　　بأوضاحها تغني السراة عن الفجر
فما زلت حتى أيد الله حزبه　　وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا　　وأشبعت منهم طاوي الذئب والنسر
وجاء ملوك الروم نحوك خضعا　　تجرر أذيال المهانة والصغر
أتوا ملكا فوق السماك محله　　فمن جوده ذاك السحاب الذي يسري
فمنّ عليهم بالأمان تكرما　　على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله دمياط المخافة انها　　لمن قبلة الاسلام من موضع النحر
وما طاب ماء النيل الا لانه　　يحل محل الريق في ذلك الثغر
فلله يوم الفتح يوم دخولها　　وقد طارت الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها　　وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر (١)

(١) ديوانه ص ١١١ ، وانظر مفرج الكروب ٤ / ١٠٣

قال يمدح الملك المنصور (صاحب حماة) ويصف ما يعانيه في الصيد ، بقصيدة مطلعها :

أكملت كل المناقب – يا خير ماش وراكب

ومنها :

أتدمت بالسيف صلتا – والسيف أكرم صاحب
حتى قهرت الاعادي – بما منا غير عائب
فالقوم بين قتيل – وبين عان وهارب . (١)

وقال يمدح الملك المظفر صاحب حماة ويهنيه بالظفر على الافرنج :

بمجدك فقت أملاك البلاد – فأذعن عاصيهم بعد العناد
وبالبيض القواضب مخلصات – لودك ، أخلصت زرق الاعادي
علوتهم بسوط من عذاب – أعاد أبيهم سهل القياد
وحجبتهم سيوفك حين صلت – فالجمهم جدالك في الجلاد
عرضت لهم بخيل عوضتهم – بقبح الطرد عن حسن الطراد
رعاك الله ، يا محمود ، ليثا – وبحر ندى يفيض ، وبدر ناد
أعد للبرق عصاما ، فنيطت – حمائله على القمر النجاد
ليفدك بالاكارم من بنيه – زمان رائع ، برضاك ، غاد
فيا للنص يصافي من تصافي – وبالبؤس يعادي من تعادي
اليك زففتها بكرا تحلت – بدر من صفاتك ، مستفاد .... (٢)

وقال فيه أيضا :

أبشر بما شئت من نصر وتاييد – فعنك يروى حديث البأس والجود
وأنت ليث وغى تدمى مخالبه – في نحر كل طويل الباع صنديد
.... – ....
ملك اذا سر الاملاك في قنص – فصيده غلب آل الاصفر الصيد
وان سبتهم ذوات الحسن مال به – قطع الطلى عن وصال الخرد الغيد
وان تلذذوا بشرب الراح قال دما – بني الحروب ولا بنت العناقيد
.... – ....
كم عزة لك لاتنفك عن ظفر – فالجد منك لجد منك مسعود

(١) ديوانه ص ٩٥ ـ ٩٨ (٢) ديوانه ١٧٨

وكم سطى أعربت عنها الصروية مسن ... مقول أبطالك الغر المناجيد

كانوا الجلاميد في بأس وفي جلد ... فوق الجلاميد ترمى بالجلاميد

كتائب خدمت في كل مملكة ... حتى لقد خلتها كتبا بتقليد

فكم جبان غدته بأس ذي لبد ... وكم شبان كسته ثوب رعديد

أما الفرنج فقد أخمدت نارهم ... ولم تزل ذات إضرام وتوقيد

من بعد ما جاد أملاك الطوائف عن ... حفظ البلاد وألقوا بالمقاليد

رجا بنو الأحمر الكفار عودهم ... بالفوز عن رب أعلام وتوحيد

تباكروا في كثيف الحشد ذي لجب ... تبيد في ساحتيه ساحة البيد

مستشعرين سحب نقع من شمائمة ... ونقمة ذات إبراق وترعيد

فما جنحت إلى سلم على غبن ... ولا تنمت بإرغاب وتهديد

أتيتهم رحب صدر ليس يحرجه ... ضيق الميدان وقلبا غير مزؤود

وسابحا سلمت بالنصر عزته ... ما سار في الحرب أقداما بتشريد

وحد عضب عليهم منه صاعقة ... كنفخة الصور كل عنده مردود

وزعتهم بشتيت فل جمعهم ... بضرب ورب وطعن كالأخاديد

تنودروا بين مجروح ومنشبل ... يبكي على هالك منهم ومفقود

أن يخبروا عنك بالبأس الفظيع لقد ... قام البيان بتصديق الأسانيد

ساروا قبالك إذ راموا القطائع للقسـ ... ـوا على البيض في حججها الوثنى السود

فلا تدع غزوهم في عقر دارهم ... ومضوا إلى الزود من نوم وتفنيد

وأسلم فإنك الملك قصروا عليك ولا ... زال الورى تحت ظل منك ممدود (١)

وقال يمدح الملك المظفر الثاني (تقي الدين محمود بن الملك المنصور صاحب حماه) ويهنيه بعيد النحر بقصيدة أولها :

ارتق لدايت المالكية ، اذ سرى ... ولولاه ما سامحت عيني بالكرى

ومنها :

وكم عاد من كسر الفرنج مسلما ... سوى ثلم عضب أو وشيج تكسرا

تلقاهم شهم الجنان يمده ... بوان رضرغام ، اذا ما تنمروا

فدى لك يا محمود كل مذمم ... بغيض السجايا ، يحسب المرء منكرا (٢)

---

(١) فوق الكروب ٤/٣٠٢ ، وانظر عقد الجمان جـ ١٨ ق ٢ ورقة ١١٧
ديوانه ص ١٥٦ـ١٥٨
(٢) ديوانه ص ١٩٥

وقال يمدح الملك المظفر الثاني ويهنئه بقدوم من غزاة بقصيدة أولها :

ونرت يداك ، ودمت يا خير الورى ... ملكا على كل الملوك مظفرا
وقدمت أغنم قادم ضمنت له ... عز العزائم أن يفوز وينصرا
من بعد ما جاشت جيوش الروم في ... أرياض خرشنة القديمة والقرى
وتأشبت بفوارس لو أنها ... عرضت لطيف أبي فراس ما سرى
أغناك عن فتكات جيشك فيهم ... جيش كثرت به العديد الاكثرا
غررت حتى ظن أنك موقن ... أن الحتوف تحيد عمن غررا
وهززت من أعطاف رمحك بينهم ... غصنا بها مات الفوارس مثمرا
يوم تضمن كل يوم قبله ... مجدا " وكل الصيد في جوف الفرا "
صاد منهم طودا ، ورعتهم ردئ ... ومضيت مصماما ، وصلت غضنفرا
وغدا مليك الروم منك لبعد ... حقنت دماء كماته أن تهدرا
قابلت عسكره قتالك واحدا ... ولقيته فردا فظنك عسكرا
ورآك في سلم فأقبل مقبلا ... ولو أنه في الحرب أسرع مدبرا
ما زال يسمع عنك أمرا هائلا ... حتى رآك ، فهاله ما أبصرا
أخجلته علما وعزما ماضيا ... فأصاب منك الخضر والاسكندرا
وفضلت مشكور الصنائع في الندى ... والاقربين ، وحقها أن تشكرا
همم بعثت ، فكلفتك عظائما ... كلفتهن المقربات الضمرا
تختار منها كل بحر سابح ... ليشق بحرا من نجيع أحمرا
لولا غرامك بالحروب وخوضها ... بارت ، ورب نفيسة لا تشترى
فمن الوغى ، أو صد عنها ، انه ... باد هواك ، صبرت ، أو لم تصبرا
وأراك أشجع ذا الانام وليس في الاقوام الا من يراك كما أرى ... الخ (١)

وقال يمدح الملك المنصور الاول بقصيدة مطلعها :

أيروم قلبي من هواك تخلصا ... ان زاد لومي لائمي ، أو نقصا ؟

ومنها :

رعت الفرنج بجحفل متماقد ... يأبى العلا لكماته أن تنكصا
لم تغزهم الا وأنك رائد ... رعب يصد عن الفرار القوصا
فاذا بدوت لليل باطله صنعا ... واذا بدا لنهار حقك حصحصا
تغزوه بدء وعيده ، فاذا رأى ... طمعا كذوبا سامه فتلصصا
حتى اذا وافاك فرّ كأنه ... كلب ، اذا زأرت ليوثك بصبصا

---

(١) ديوانه ص ٢١٧ ــ ٢١٩

دم للعلا ، يا خير من نسرا الرجا … سار له وعلى علاه نصَّصا
واستجلها بكرا نتيجة ليلة … تومئ بناظم سمطها كل الرصا
أحكمت مهدأ نسجها ونظامها … ونسيبها ومديحها والمخلصا (١)

وقال يمدح الملك الامجد بهرام شاه ، ويهنئه بكسر الفرنج بقصيدة مطلعها :

أهلا باقبال سعدى بعد اعراض … وبرء جسمي بها من بعد أمراض

ومنها :

تجاهل الناس في مصر وجارتها … قدر القروم ، فلم تخفض باخفاض
حتى غزا الكفر " دمياطا " بطاغية … أمد ظهر الهدى منها بانقاض
فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم … ما ليس يطمع ، في أبطاله ، قاض
فاسرع ابن معز الدين عزمته … من بعد أحكام تدبير وامضاض
بكل ضرب ربيط الجأش مشتمل … بكل عضب مضيء في الوغى ماض
وكل أجرد يخطير تصرفه … يسار ليث الى الهيجاء ركاض
وكل أسمر عسال يسيل من المـ … ـاذى بحر دم للحقد رحراض
وكل صفراء مرنان مفترة … تبرى العروق اذا ثارت لانباض
فسلموا ثغر دمياط بلا عوض … وطالما شودوا عنه بأعراض
أجلاهم عن حماها بأس ذى لبد … في السلم والحرب رقاع وتقاض
أعاد للدين ما غيظ العدو به … وعاد ، والله عن أفعاله راض
شكرا لدهر ثلاثاني باوبته … من الفراق وأغنى بعد انفضاض
قد كان يمنحني داورا ويمنعني … فاليوم قد نلت منه كل أغراضي (٢)

وقال يمدح المظفر الثاني بقصيد أولها :

صحبت هواكم في أمان من العذل … ومن ذا الذى يلحى على مثلكم مثلي

ومنها :

وربعت ملوك المشركين بسطوة … سقتهم سمام الموت علا على نهل
فاكرم بيوم فيه زاحفت آمدا … فكل الورى مما تحملت من كل
وقد مطرت سحب العجاج صواعقا … من الصخر مزجاة بوبل من النبل
وصابرتها يوما أمد بليلة … تكابد فيها ما يمر لما يحلي
الى أن حباك النصر حد مهند … تكفل تدما فتح ما شئت من قفل
فرويت من أوداجهم يابس الثرى … وأوضحت من أسلابهم غامض السبل
وعدت ، وقد حزت الفخار بفعلة … ترغب في الهيجاء من ظنها تسلي

(١) ديوانه ص ٢٧٦ (٢) ديوانه ص ٢٨٣

فيا قاطع الاقران ، دامت لك العلا   قرينة ملك غير منقطع الحبل
فأنت جواد لا يشق غباره   سوى نجلك المنصور قدّس من نجل
تبارك من أنشاه شبهك في العلا   فبورك من فرع ، وبوركت من أصل (١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي الامدى بقصيدة طويلة أولها :

أقسمت : ما خده القاني من الخجل   أرق من دمعي الجاري ، ولا غزلي

ومنها :

أما الفرنج فقد مزقت شملهم   بجد مستتر بالحزم مشتمل
وجحفل شاب منهم طفلهم فرقا   وعاد فيه الضحى فالنقع كالطفل
فكم كشفت خفايا من مكايدهم   رفلت من أجره والشكر في حلل
وكم أحلت الى حوض اباءهم   الله أكبر لولا أنت لم يحل
وكم خميس به لم تبق من أحد   منهم سليما من الباساء والنيل
تقاد أسرا وحرنا رد سائلهم   في قبضة اليتم والتأتيم والثكل
يحز جيشك والهيجاء جائشة   رعبا ، وتأمن والالباب في وجل
أنت الفتى لم يرعه الغي عن رشد   ولا شريت علوم الملك بالجدل ... (٢)

وقال يمدح الملك الامجد بهرام شاه بقصيدة مطلعها :

هوىً هو البرء من سقمي به لاما   يهدى اليه من السلوان من لاما

ومنها :

ورب أمة شرك حين أمهم   شروه أنفسهم من قبل أن ساما
وجحفل جفل الاعلام بدّ لمه   بجحفل يحبس الاعلام أعلاما
تماطلوا فأطعمتهم قواضبه   عن التماطم أجلالا وأعظاما
كأنما قسمت للثم هامهم   بين السنابك والاقدام أقساما
فللسنابك منها ما تبادله   سيل الدماء وللاقدام ما حاما
كأن ما جهلت من عرفن طاعته   غلف القلوب وعته الهام الهاما
فأعتده ذل مختار فرفعها   على رؤوس القنا عزا واكراما
مهابة وجمال صوراه لنا   في السلم بدرا وفي الهيجاء ضرغاما
أباد أعداءنا سداوا ، وكان لنا   هدى ، فأتقننا ظلما واظلاما
ما دام الناس دام الناس في دعة   فدام حرزا لاهل الدهر ما داما
وحي العام نسناه وأبلغ من   حناه بالشام من حنا به الشاما (٣)

---

(١) ديوانه ص ٣٦٦
(٢) ديوانه ص ٣٩٩ ـ ٤٠٣
(٣) ديوانه ص ٤٢٩

وقال يمدح الملك المظفر الثاني بقصيدة أولهـــا :

لمن المنازل ؟ عنّ لي من عينهـــا   رغدٌ ضنيتُ صبابة بضنينهـــا

ومنهـــا :

وممالك أنزلت صيد ملوكهـــا   بالقهر عن صهوات حصن حصونهـــا
وحماة لو لم يسر طالب وصلهـــا   سارت اليك ربوعها بقطينهـــا
ولقد دلفت لفتح آمد بعد مـــا   راع الورى ما شاد من تحصينهـــا
زاحفتها سميا كأنك ضيغـــم   قصد الغزالة آخذا بقرونهـــا
عجز الملوك عن القرار بوهد مـــا   وعلوت مستويا على عرنينهـــا
أمكنت منها ثم عدت مشرفـــا   مغنى حماة غزدت في تمكينهـــا
نصرت ودان له الزمان وأهلـــه   بسطى مظفرها ابن ناصر دينها (١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي بقصيدة أولهـــا :

غزال والاسود له رعايـــا   وملك والملوك له رعايـــا

و
ومنهـــا :

متى تغز العدى تعد بغنـــم   وان وافوا رددتهم غزايـــا
حدوتهم بحد السيف لمـــا   أتوك بأكبد الابل البلايـــا
وثقت عليك يا ابن أبي علـــي   تنائي بالندايا والسجايـــا
وجودك عم كل الناس لكـــن   لي المرباع منه والصفايـــا
وان كان الذي أهديت نـــزرا   فان مدائحي أسنى الهدايا (٢)

---

(١) ديوانه ص ٤٦٧
(٢) ديوانه ص ٥٢٣

قال يمدح السلطان الملك الكامل ، ويذكر أيام دمياط ، وقصد الفرنج لها ، وظفره بهم :

كم منّة لأبي المعالي الكامل السلطـــــــان في عنق الهدى لا تجحـــد
أيامَ قال الشرك بغيا للهـــدى ... دمياط لي ولك الغداة الموعـــد
وأتى بما ملأ البسيطة كثـــرة ... والله ربك عالم ما شيـــدوا
جيش إذا سحت يداه بقسمـــة ... جف المياه بها وذاب الجلمـــد
كالسيل إلا أنه لا ينثنـــي ... والليل إلا أنه يتوقـــد
وأتى بك الإسلام وعداه موقنـــا ... أن سوف تهزم جمعهم وتبـــدد
حتى إذا التقيا ظلمت عليهمـــا ... بالنصر تُشقي من تشاء وتُسعـــد
غودرت شمس الشرك وهو مرمـــل ... خزيا ، ودين المصطفى مؤيـــد
حكمت بأسك فيهم فمكلَّـــم ... ومجدل ومشرد ومصفـــد (١)

---

(١) ديوانه ص ١٥

قال في فتح طرابلس يمدح الملك المنصور قلاوون :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب   ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة   فتاك الجيوش على الأعداء بالرعب
فالله جارك أنى صرت من ملك   وناصر لك من ناء ومقترب
للهول مرتكب للحق منتصر   للغزو محتسب للأجر مكتسب
بالسيد الملك المنصور شيد علا الا   سلام وانهد دين الشرك والصلب
أحرزت ما فات قدماً من طرابلس   جمع الملوك ذوي الإرعاب والرهب
أتعبت نفسك في ذات الإله بها   فيا لها راحة وافت من التعب
فتح يتيه على كل الفتوح به   عصر غدا منتشي الأعطاف من طرب
فكم لها في حبال الكفر من حقب   مرت ولم تنجُ تعليقا على حقب
أغضت على الذل أحيانا وما برزت   بالوجه طالبة بعداً من الحجب
حتى اذا ما رأت كفءاً لخطبتها   دعت فلبيتها في جحفل لجب
أصدقتها كل ثبت القلب ترعد من   أقدامه أسُدُ الآجام من رعب
آساد معركة ، عقبان ملحمة   فرسان ملحمة للموت لم تهب
من كل قطر أحاطوا محدقين بها   كما أحيط على الأحداق بالهدب
لو كنت شاهدهم والشمس طالعة   من شقة النقع يوم الزحف في نقب
خلت الأسنة شهبا لحن في غسق   والمشرفيات برقا شيم في سحب
قل للملوك التي أعيتهم فقعدوا   عمرا وكلّ إليها الدهر ذو أرب
تهدى العرايس من شم الحصون الى   من بات يخطبها بالسمر والقضب
غادرتها بمناجيق نصبن لها   وفي أبراجها خفقن بمنتصب
فأصبحت ذات اصحاب وكم حجبت   على مرادك من جار لها جنب
أجريت فيها بحارا من نجيعهم   فكل سابحة سبحا الى الليب
لم تخل الشمس فيها بعد ذاك على   غير الشنديا من القتلى ولم تغب
. . . .
أذقتهم بعد عز مرّذ لهم   وبعد أمن كؤوس الخوف والوصب
يا رافعا علم الدين الحنيف ومن   أصاب بالخفض دين الرجس والصلب
تهنئ ما أعجزت عهد الملوك بما   أدركت من فتحها الميمون عن كثب
غاية السيف كم من آية نسخت   وطلعة الشمس كم أخفت من الشهب
جزاك ربك عن كل بها لحسنة   وكف عنك أكف الخلق في النوب (١)

(١) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٧١١

وقال يمدح الأشرف خليل بن قلاوون :

بلغت في الملك أقصى غاية الامـــــل
وحزت رق العلى بالجدّ مجتهـــــدًا
ونلت بالحَوْل دون الناس منفـــــردا
فدانَ بدولتك الميمون طائرهـــــا
فكم بلغت مرادا بتّ تأملـــــه
وكم فتحت حصونا طال ما رجعـــــت
أنت الذى لم تدَعْ الكفر من بلـــــد
حررت من عكة الغراء ما عجـــــزت
عقيلة المدن أمست من حصانتهـــــا
كم قد دعتها ملوك الارض راغبـــــة
صدت عن السيد لا تلوى فلم تدلل الا
حتى أمرت فأمست وهي طائعـــــة
ما زال غيرك فيها طامعا وعلـــــى
فتح تطاول عن نشر يحوط بـــــه
تصدتها فأضحت بعد ما فرعـــــت
في جحفل لجب كالليل أنجمـــــه
تمم المهابة من وقرون أكـــــم
تخالهم وجيادهم الحين تحتهـــــم
لا تنظر العين منهم إن هم لبســـــوا
قدمتها بجيوش لو قدمت بهـــــا
فأصبحت بعد عز الملك خاضعـــــة
أمست خرابا وأضحى أهلها رممـــــا
تسلب بزتها عنها وقد عطلـــــت
ومحو آثارها منها وقد خربـــــت
بالأشرف السيد السلطان زال عنـــــا
تدبير ذى حلم في عز منتقـــــم
راحت وقد سلبت أرواحهم لشبـــــا
هدّمت ما شيدوا فرقت ما جمعـــــوا
وعند ما أصبحت قفرا بلا دمـــــم
رحلت عنها ولكن كم أتت بهـــــا
لا زلت ذا رتب في المجد سامية

وفتّ شأو ملوك الأعصـــــر الأوّل
وجزت غاياتها (جهرا) على مهـــــل
ما لم تنله ملوك الارض بالحيـــــل
فانها غرة في أوجه الـــــدول
بعزمك الباتر الماضي من الفلـــــل
للبأس عنها الملوك الصيد في خجـــــل
يأوي اليه ، ولا للدين من أمـــــل
عنه الملوك بعزم غير منتقـــــل
وصونها من ليالي الدهر في عقـــــل
وعطفها عنهم بالتيه في شغـــــل
ودام منها الى وصل ولم تصـــــل
بعد الاباء لامر منك ممتثـــــل
يديك قد كان هذا الفتح في الازل
وصفًا وعن نظم شعر محصد طـــــول
في أهلها من أسود النيل بالنيـــــل
تبدو لرائيه من قضب ومن أســـــل
وضقت الأرض من سهل ومن جبـــــل
للبأس في الروع آسادا على قلـــــل
لا مات حربهم يوما سوى القلـــــل
شم الجبال أزالتها ولم تـــــزل
من ذلّه الملك طول الدهر في سمـــــل
وسطرتها يد الايام في المثـــــل
ألذ للطرف من حلي ومن حلـــــل
أشهى إلى النفس من روض الربى الخضل
التثليث وابتهج التوحيد بالجـــــدل
وعمر مقتبل في رأي مكتهـــــل
الهندى أموالهم من حملة النفـــــل
نقضت ما أبرموه غير محتفـــــل
من السواحل بعد الاهل في عطـــــل
من خوف بأسك جيشا غير مرتحـــــل
وسؤدد بنواحي الشهب متصـــــل (١)

(١) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ / ١١٤

قال في فتح عكـــا :

يا أشرف الدنيا تهنّ فإنه ... فتحٌ سواك بمثله لم يحلم
أشبهتَ معتصم الخلائف همّةً ... فالروم منك ديارهم لم تعصم
فأريتَ عكا ما بعمّورية ... ذات الفوارس بالزمان الأقدم
قابلتَ بُلقَ جيوشه بسوابق ... غرّ عليها الريحُ لم يتقدم
ولأنت من شُهْبٍ وليلٍ لم تزل ... تُردي الكماةَ بأشهبٍ وبأدهم
كم رُعْتَها بسوادِ ليلٍ أليلٍ ... فصدَمْتَها ببياضِ يومٍ أيْوَمِ
وأعدْتَها للمسلمين ولم يكن ... منهم ترى التطهير إلا بالدم
ولئنْ صالح الدين بكراً نالها ... فالبكر في التجْريب غير الأيّم
بالجُمْعة الغرّاء كان صباحُها ... وَجْهُ الزمان بمثله لم يُرْقَم
لم تملْ خندقها وقد داروا به ... طعنًا بغير شظى القنا المتحطم
وغدتْ ومن فيها بما أوليتَها ... خبراً يُقصّ لمنجدٍ ومتهمِ* (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٤٨

(*) نسبها محمود سليم الى ابن الصائغ (عصر سلاطين المماليك ٨/٥٧)

قال في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم لك فتح غير هذا خبـــي ... فاستر ح فتح الأرض واستوعب
يا فاتح الحصن الذي فتحه ... يأتي به شكرك من يشرب
حصن عظيم القدر في سيرة ... من مضى قبلك لم يكتب
اذا بدا والغيم من حوله ... تقول نجم لاح في غيهب
ولن تلح للعين أبراجه ... يقال هذا موكب الكوكب
أنشبت حربا فيه كم رامها ... قبلك سلطان فلم تنشب
قد رحت منه تمتطي صهوة ... لم يبق حصن ثم لم يجنب
أخذت حق الدين من بعد ما ... مضت سنون وهو لم يطلب
وذات خطوكم لها وثبة ... عظيمة المسرى إلى المسرب
قد سقتها غابا وآسادها ... تحملها في ضيّق المذهب
كم نصب الاعداء من هول ما ... راوه منها رشي لم تنصب
وكم لها قالوا وقد ركبت ... أي حصين بذه لم يخرب
كأنما الأعناق أمست لها ... منابت الأملد والأرطب
وكم نقوب فيه صيرتها ... صما لكا تأتيك بالمطلب
أبكارها ما أفتضها معسول ... الا انثنت كالحابل المقرب
فاهنأ بفخر منه قد حزته ... أشبار من طيبها تجتبي
وليهن حصن بعدها تابع ... في الأبعد النائي وفي الأقرب
واعلم بأن السعد قد قال ذا ... وقال نصر الله بالموجب (١)

وقال في فتح حصن عكار سنة ٦٦٩ هـ :

يا مليك الأرض بشرا ... ك فقد نلت الإراده
إن عكار يقينا ... هو عكا وزياده (٢)

وقال في انتصار المنصور قلاوون على الفرنج والتتار والارمن سنة ٦٨١ :

ألله أعطاك ، لا زيد وعمرو ... هذا العطاء ، وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذي لو لم تحل به ... لم يبق ، والله ، لا شام ولا مصر
. . . .
يا عزمة ما رأى الراؤون شبهها ... ووقفة سار في الدنيا لها ذكر
لما بنى جيش أبغا في تجاسره ... ولن يعد لولا القنا جسر
واستجمع المغل والتكفور واتفقوا ... مع الفرنج ومن أردى به الكفر

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٨٠
(٢) تاريخ ابن الوردي ١/ ٢٠٧ وانظر المختصر في تاريخ البشر ج ٣/ ٦

جاءت ثمانون ألفا من بحوثهم ... لأرضي حمص فكان البحث والنشر
وافى الخميس في يوم الخميس ضحى ... وامتدت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركع والأعلام راكعة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تغتدي إلا على جثث ... والسهل من أروس القتلى به وعر
والبيض تغمد في الأجفان من مهج ... والسمر ناحية يا ما تفعل السمر
فجاء في رجب عيدان من عجب ... للسيف والرمح هذا الفطر والنحر (١)

ومما كتب في جواب البشارة عن المولى السلطان الملك الاشرف (بفتح حصن المرقب)

يا ملك الأرض الذي جيشه ... يملأ من غرب الى مشرق
هنئت بالحصن العظيم الذي ... لفتحه غيرك لم يسبق
حصن بما التتار قالوا ترى ... من بعد هذا أي شيء بقي
وقال كل منهم ليتنا ... لمثل هذا اليوم لم نخلق
فأهنأ به فتحا فكم مثله ... في باب عكا بكم يلتقي (٢)

وقال في طرد الفرنج من عكا سنة ٦٩٠ :

يا بني الأصفر قد حل بكم ... نقمة الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم ... فأبشروا منه بصفع متصل (٣)

وقال يرثي الظاهر بيبرس من قصيدة :

تقرأ عليك تحية وسلام ... يا قبر من فجعت به الانام
الظاهر السلطان من بمصابه ... هد الهدى وتأثر الإسلام
قبر الذي لو أنصفته قلوبنا ... ما أصبحت بمصرة تشتام
....
هذا الذي قاد الملوك لربه ... قل يا رسول وما عليك ملام
هذا الذي هزم التتار فأصبحوا ... تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذي قهر الفرنج فكلهم ... ترديهم من رعبه الأوهام (٤)

وقال يمدح الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ :

اي يوم بنصره قد حبينا ... وبه الله قد أقر العيونا
يوم جزنا ببلاد سيس وقلنا ... أي نصر من ربنا قد جزينا

ومنهـا :

كم أذلوا القروم نهبا وأسرا ... في انتصار وكم أعزوا القرونا

---

(١) عقد الجمان جـ ٢٠ ، ق ٤ ورقة ٦٧٧ (٢) تشريف الايام والعصور ص ٨٢

(٣) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٤ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٦٦

(٤) تاريخ ابن الفرات مجلد ٧ ص ١٤٣

فتحوا المدْن والحصون وكنّـــــوا ... كافريها وسلّموا المسلمينـــا
بمطى سيد الملوك ومن قـــــد ... صار حصنا للمسلمين حصينـــا
ركن دين الله بيبرس الظـــاهـــر ... خير الملوك دنيا ودينـــا
أسد الله في الوجود أتاهــــا ... بالمطى منه أخذ الظالمينـــا
وتولى ليفون منه حســـيرا ... خائبا خائفا لمينا مهينـــا
وكذاك التتار خوفا ورعبـــا ... قد تولوا من بأسه هاربينـــا
آه لو أنهم أقاموا فقالـــوا ... أي يوم لشرّه قد حيينـــا
أنذروا بالجيوش أبغا فولـــى ... هاربا لا يكذّب الناقلينـــا (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ ٥٥

يقول في الرد على النصارى واليهود :

خبرونا أهل الكتابين مــــــن أيـــــن أتاكم تثليثكم والبَـــــداءُ
ما أتى بالعقيدتين كتــــاب واعتقاد لا نص فيه ادعـــــاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليهـــــا بينات أبناؤها ادعيـــــاء
ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا حد نقص في عدكم أم نمـــــاء
كيف وحدتم إلهاً نفـــى التو حيد عنه الآباء والأبنـــــاء
أإله مركب ما سمعنـــــا بإله لذاته أجـــــــزاء
ألكل منهم نصيب من الملـــــك فهلا تميز الأنصبـــــاء
أم هم حلّلوا بها شركة الأبـــــدان أم هم لبعضهم كفـــلاء
أتراهم لحاجة واضطـــــرار خلطوها وما بغى الخلطـــــاء
أم جميع على الحمار لقد جـــــلّ (٢) حمار بجمعهم مشّـــــاء
أم أردتم بها الصفات فلِـــمْ خصـــــت ثلاث بوصفه وثنـــــاء
أم هو ابن لله ما شاركتــــه في معاني النبوة الأنبيـــــاء
قتلته اليهود فيما زعمتـــــم ولأمواتكـــــم به إحيـــــاء
إن قولاً أطلقتموه علـــــى اللــــه تعالى ذكرا لقول هُـــــراءُ (١)

ويذكر أقوال اليهود وقبلها يصف الاسلامية :

وأخوا الضلالة قال عيسى ربـــه ونبيه فأخو الضلال مُذَبْـــذَبُ
ويقول خالقه أبوه وإنـــــه رب وإنما ان ألا فتعجبـــــوا
أبهذه العورات جاءت كتبهـــم أم حرّفوا منها الصواب وبدّلـــوا
فاعوجّ منها ما استقام طلوعــــه فكأنها بين النجوم العقـــــرب
عجبا لهم ما باهلوه ولم ابـــت أحبار نجران الذين ترهّبـــوا
ولقد تحدّى بالبيان لقومـــــه واليهم يُعْزى البيان ويُنْسَـــب (٢)

واتفق أن الشيخ شرف الدين البوصيرى رأى في منامه قبل أن يخرج الاشرف الى عكا قائلاً ينشد :

قد أخذ المسلمون عكـــــا واشبعوا الكافرين صكـــــا
وساق سلطاننا إليهـــــم خيلاً تدك الجبال دكـــــا
وأقسم الترك منذ ســـــارت لا تركوا للفرنج ملكـــــا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٥
(٢) ديوانه ص ٤٦
(٣) ديوانه ص ٢٣١

وقال يمدح أيدمر عزّ الدين والي القاهره ويعزيه في سيف الدين :

فطهّر الأرض من أهل الفساد فــلا ... عين لهم بقيت فيها ولا أثــر
ودبّر الملك تدبيرًا يُقصّر عـن ... إدراك أيسره الأفهام والفكــر
وحين طارت الى الاعداء سمعتـه ... مات الفرنج بداء الخوف والتنصـر
فما يبالي بأعدائه قلوبهـم ... فيها تمكّن منه الخوف والذعـر
وكلّ أرضٍ ذكرناه بها غنيـت ... عن أنْ يُجرّدَ فيها الصارم الذَّكَرُ (١)

وقال في مدح الملك المنصور قلاوون بمناسبة بنائه المارستان المنصوري الكبير سنة ٦٨٤ منها :

لقد جهلت داويّة الكفر بأسـه ... وغرّهم بالمسلمين غــرور
فلا يوركوا من اخوةٍ إنّ أمهـم ... وإن كثرت منها البنون نـزور
يظنون خيل المسلمين يصدّهـا ... عن العدو في أرض العدو دجـور
أما زلزلت بالعاديات وجاءهـا ... من الترك جيش لا يعدّ غفيـر
أتوا بحليرّاتٍ من الجرد سُيّرت ... ورجْلٍ لهم مثل الجراد طمـور
فلم يرتقبوا من صوب ما ما ن مرتبـا ... بهامته برد السحاب تكسـور
وصب عليهم عارض من حجـارة ... ونبلٍ وكلّ بالعذاب مُطيـر
وسامُوه خسفًا من نقوبٍ كأنهـا ... أثافٍ لها تلك البروج قـدور
فذاقوا به مرّ الحصار فأصبحـوا ... لهم ذلك الحصن الحصين حصيـر
يصيحون أعلى السور خوفًا كأنـه ... نفى عنه نوم المقلتين سفيـر
وماذا يرد السور عنهم وخلفـه ... من الخيل سورٌ والصوارم سـور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجـأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصيـر
فلما احتوا بأس أغلب همـة ... غدوا إليهم بالردى وتكسـور
دعوه وشمل النصر منهم ممـزق ... أمانًا وجلباب الحياة بقصيـر
أطارهم افرنسيسُ تلك وسيلـة ... رأى مستجيرا عِبّها وسعيـر
غدى نفسه بالمال والآن وانثـنى ... تطير به من حيث جاء طيـور
فلا تذكروا ما كان بالامس منهـم ... فذاك لأحقاد السيوف مثيـر
فلو شاء سلطان البسيطة ساقهـم ... لمصر وتحت القارسيّين تسيـر
تُبشّر مصر دائما بقدومهـم ... اذا فصلت منهم لغزة عيـر
تسرّهم عند القفول بضاعـة ... وتحفظ منهم إخوة وتميـر
ولو شاء مد النيل سيل دمائهـم ... ورنّت نحورٌ ماءه وسحـور
بصيدٍ كصيد النحر يا حسن ما يُـرى ... به من علوجٍ كالعجول جـزور
فولوا وسوء الظن يلوي وجوههـم ... فتحسبها صورا وما هـي صـور
وقد شغرت منهم حصون أواهـل ... وما راعها من قبل ذاك شغـور
فلله سلطان البسيطة إنـه ... مليك يسير النصر حيث يسيـر

---

(١) ديوانه ص ٨٨

ويغمد في هام الملوك حسامـــه ... ويرهب من هام الملوك غفيـــر
ويجمع من أشلائهم متفرقـــا ... بصارمه جمع الهشيم خطيـــر
فأخلق بأن يبقى ويبقى لملكـــه ... ثناء حكاه عنبر وعبيـــر . . . (١)

ويقول عن سقوط النصارى : من قصيدة يمدح بها الصاحب شمس الدين بن الصاحب برهان الدين :

إن النصارى بالمحلة ردهـــم ... لو كان جامعها يكون كنيســـا
أترى النصارى يحكمون بأنـــه ... من باشر الأحبار صار حبيســـا
إن عاد إسحق إليها ثانيـــا ... ضربوا على أبوابها الناقوســـا
صرف الإله السوء عنك بصرفـــه ... فاصرفه عنا واصفع القسيســـا (٢)

وقال قصيدة سماها المخرج والمردود على النصارى واليهود :

جاء المسيح من الإله رســـولا ... فأبى أقل العالمين عقـــولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعـــوا ... من جهلهم لله فيه حلـــولا
وعصابة ما صدقته وأكثـــرت ... بالإفك والبهتان فيه القيـــلا
لم يأت فيه مفرط ومفـــرط ... بالحق تجريحا ولا تعديـــلا
فكأنما جاء المسيح إليهـــم ... ليكذبوا التوارة والإنجيـــلا
فاعجب لأمته التي قد صيرت ... تنزيهها لإلهها التنكيـــلا
أسمعتم أن الإله لحاجـــة ... يتناول المشروب والمأكـــولا
وينام من تعب ويدعو ربـــه ... ويروم من حر الهجير مقيـــلا
ويمسه الألم الذي لم يستطـــع ... صرفا له عنه ولا تحويـــلا
ياليت شعري حين مات بزعمهـــم ... من كان بالتدبير عنه كفيـــلا
هل كان هذا الكون دبر نفســـه ... من بعده أم آثر التعطيـــلا (٣)

وله قصيدة أخرى تسمى " ذخر المعاد في وزن بانت سعاد " منها :

فأخسر الناس من كانت عقيدتـــه ... في طيها لظهور الحق تعطيـــل
وأمة تعبد الأوثان قد نصبـــت ... لها التصاوير يوما والتماثيـــل
وأمة ذهبت للعجل عابـــدة ... فنالها من عذاب الله تعجيـــل
وأمة زعمت أن المسيح لهـــا ... رب غدا وهو مطلوب ومقتـــول
فثلثت واحدا فردا نوحـــده ... وللبصائر كالإبصار تخييـــل
تبارك الله عما قال جاحـــده ... وجاحد الحق عند الله مخذول (٤)

---

(١) ديوانه ص ٩٦ ــ ٩٨
(٢) ديوانه ص ١١٤
(٣) ديوانه ص ١٢٧ ــ ١٢١
(٤) ديوانه ص ١٧٣

قال في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ

الحمد لله زالت دولة الصلب	وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت	رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها	في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها	دهرا وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت	في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
كانت تخيلها آمالنا فترى	أن التفكر فيها أعجب العجب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا	شاب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران : بر وبحر حول ساحتها	دارا وأدناهما أنأى من القطب
مصفح بصفاح حولها أكم	من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تهدي من صواعقها	بالنبل أضعاف ما تهدي من السحب
كأنما كل برج حوله فلك	من المجانيق يرمي الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يقدمها	غضبان لله لا للملك والنشب
ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم	يدعون رب الورى ـ سبحانه ـ بأب
كم رامها ورماها قبله ملك	جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل في أوائله	نال الذي لم ينله الناس في العقب
لم ترض همته إلا التي قعدت	للعجز عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة	ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم	عار وراحتهم ضرب من الوصب
تسنموها فلم يترك ثباتهم	في ذلك الأفق برجا غير منقلب
أتوا حماها فلم تدفع وقد وثبوا	عنها مجانيقهم شيئا ولم تثب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت	به الفتوح وما قد خط في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما	عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم	والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم	لله أي رضى في ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتدرت	طلائع الفتح بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على	ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت	ببشره الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض سير الريح سمعته	فالبر في طرب والبحر في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء وما	أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وقاس زرق القنا في زرق أعينهم	كأنها شطن تهوي إلى قلب
توقدت وهي تروى في نحورهم	فزاد منها الري في الإشراق واللهب
أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم	فراح كالراح إذ غرقاه كالحبب

وذاب من حرّها عنهمّ حديدُ هـــم ... نقيّدتهم به ذُعْراً يدُ الرّهـــب
تحكمت فسحلت فيهمْ قواضبهـــا ... قتلاً ، وعفّتْ لحاويها عن السّلـــب
كم أبرزتْ بطلاً كالطود قد بطلـــت ... حواسّه فغدا كالمنزل الخـــرب
كأنه وسنان الرمح يطلبـــه ... بين هوى ووراءه كوكب الذنـــب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفـــتْ ... بك الممالك واستعلتْ على الرتـــب
ما بعد عكا ، وقد لانت عريكتهـــا ... لديك شيء تلاقيه على تعـــب
فانهضْ الى الارض ، فالدنيا بأجمعهـــا ... مدّت اليك نواصيها بلا نصـــب
كم قد دعتْ وهي في أسر العدى زمنـــا ... صيدَ الملوك فلم تسمع ولم تجـــب
لبيّتها يا صلاح الدين معتقـــدا ... بأنّ ظنّ صلاح الدين لم يخـــب
أسلتَ فيها كما سالت دماؤهـــم ... من قبل أجرارها بحرا من الذهـــب
أدركتَ ثار صلاح الدين اذ غضبـــت ... منه لسرّ طواه الله في اللقـــب
وجئتها بجيوش كالسيول علـــى ... أمثالها ، بين آجام من القضـــب
وخطتها بالمجانيق التي وقفـــت ... أمام أسوارها في جحفل لجـــب
مرفوعة نصبوا أضيافها فغـــدا ... للجزم والكسر منها كل منتصـــب
ورضتها بنقوب ذللت شمـــما ... منها ، وأبدتْ محياها بلا نقـــب
وبعد صبّحتها بالزحف فاضطربـــت ... رعبا وأهوت بخديها الى التـــرب
وغنت البيض في الاعناق ، فأرتقصـــت ... أبراجها لعبا منها مع اللعـــب
وخلّقتْ بالدم الاسوارُ فابتهجـــت ... طيبا ولولا دماء القوم لم تطـــب
وأبرزت كل خود كاعب نثـــرت ... لها الرؤوس وقد زُفّتْ بلا طـــرب
بانت وقد جاورتنا ناشزًا وغـــدت ... طوعَ الهوى في يديّ جيرانها الجنـــب
ظنوا بروج البيوت الشمّ تعقلهـــم ... فاستعقلتهمْ ولم تطلق ولم تهـــب
فأحرزتهم ولكن للسيوف لكـــي ... لا يلتجي أحد منهم الى هـــرب
وجالت النار في أرجائها وعلـــت ... فأطفأت ما بصدر الدين من كـــرب
أضحت أبا لهب تلك البروج وقـــد ... كانت بتصليبها حمالة الحطـــب
وأثلتَ البحر منهم من يخبّر مـــن ... يلقاه من قومه بالويل والحـــرب
وتمّت النعمة العظمى وقد كملـــت ... بفتح صور بلا حصر ولا نصـــب
أختان في أنّ كلا منهما جمعـــت ... صليبةَ الكفر ، لا أختان في النســـب
لما رأت أختها بالامس قد خربـــت ... كان الخراب لها أعدى من الجـــرب
فالله أعطاك ملك البر وابتـــدأت ... لك السعادة ملك البحر فارتقـــب
من كان مبدأه عكا وصور معـــا ... فالصين أدنى الى كفيه من حلـــب
علا بك الملك حتى أن قبتـــه ... على الثريا غدت ممدودة الطنـــب
فلا برحتَ عزيز النصر مبتهجـــا ... بكل فتح قريب المنح مرتقـــب (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٥٩ ـ ٦٢ ، ابن كثير البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣
درة الاسلاك ج ١ ورقة ١٥٤ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٧ ـ ١١٨

وقال في فتح حصن المرقب من قصيدة :

ولقد ذكرتك والحياة كريهة　　　والموت يرقب تحت حصن المرقب
والبيض من خلل السهام كأنها　　　برق تألق في غمام صيب
والحصن من شفق الحديد كأنه　　　عذراء ترفل في رداء مذهب
سامي السماء فمن تطاول نحوه　　　للسمع مسترقا رماه بكوكب
والمنجنيق كأنه من رميه　　　حيث استدارت مركب في لولب
والموت يلعب بالنفوس وخاطري　　　يلهو بخمرة ذلك المستعذب (١)

وقال في فتح عكا وما معها من الحصون أولها :

الفتح أجلى وأنجلى ظلماته　　　والدين قرّ وأشرقت قسماته
والنصر ألوت بالفرنج رياحه　　　من بعد ما فتكت بهم نسماته

ومنها :

طمع العدو بأن عكا معقل　　　تبلى الدهور ولا تلين قناته
فرموهم بالزحف وهو الصدمة الاولى　　　فزلزل أرضهم صدماته
وتحكم السيف الصقيل فأحرزت　　　بالقتل أسراب الظباء ظباته
ومضى الى صور الحديث بجرمهم　　　اذ خلقت بدمائهم صفحاته
فوهت عزيمة من بها وتفرقوا　　　عن حصنهم ونفتهم أبياته
وسرت الى صيدا الجيوش وربهم　　　تغني طلائع جندهم طلعاته
فحلوا منازلهم وذل نحوسها　　　قد عبرت عن حزنه عبراته
وأتوا على البترون وهو محصر　　　بمراكب صفت بها صافاته
فعدوه أسرى وهل ينجو امرؤ　　　قد قيدت بسكوسه حركاته
وأتى على بيروت يوم ظالم　　　تربو على أعوامه ساعاته
أرداهم ما أضمروا من ظلمهم　　　والمرء يتبعه الردى تبعاته
وبحصن عثليث الذي كملت وما　　　كانت بغير الوهم تدرك ذاته
وكذاك انطرطوس أهلها العدى　　　ومضت تميل بصنته لفتاته
وجبيل ولى أهلها فرقا وكل　　　للفراق ترددت حسراته
غضب الاله لدينه فأتتهم　　　من حيث لم يتوهموا سطواته
وتفرقوا أيدي سبا وسباؤهم　　　جمعت برغمهم لنا أشتاته (٢)

---

(١) درة الاسلاك ورقة ١٢٥
(٢) جواهر السلوك ورقة ٦١ ودرة الاسلاك في دولة الأتراك ورقة ١٥٨

وقال في فتح حصن المرقب :

الله أكبر هذا النصر والظفر … هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت … الى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحلت … شوقاً منا بروقنا وارتاحت السور
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك … فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الايام مملكة … كانت لدولتك الغراء تدخر
عز المدى منه حلم تحته همم … لا أشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطفاً النسيم سرى … مثل السواصف لا تبقي ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى … ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه … وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت … منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف … والقلب قلب ومسود الدجى طرر
تعلو الرياح اليه كي تحيط به … خبرا وتدنو وما في ضمنها خبر
ويومض البرق يهفو نحوه ليرى … أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
وليس يروى بماء السحب معصمه … اليه من فيها لا وهو منحدر
ففاجأته جنود الله يقدمها … من بأسك المنذران : الخوف والخذر
وأضرمت حوله نارا لها لهب … من السيوف ومن نبل الوغى شرر
والجأته سهام الجـ[illegible]ـى … فاغتاله القاتلان : الحصر والحصر
وأمطرته المجانيق التي نشأت … ولم يكن قبلها يهمي به المطر
كأنها ومجانيق الفرنج لها … فرائس الأسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن ما يلقى فما أثرت … يا قلبها أحديد أنت أم حجر
وللنقوب دبيب في مفاصله … تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به … نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر
قد زال وانحل قواه عن قواعده … وخر أعلاه نحو الأرض ينتثر
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا … لديك من مضمرات النصر ما ستروا
فمال يهدى اليهم كل ليث وغى … له من البيض ناب والقنا ظفر
وقد تقلد من إشراق ملكك ما … به على أنجم الجوزاء يفتخر
رفعت أعلاه أعلاما مسودة … ان لا يزال بها الاسلام ينتصر
تبدو بها غرر الظلمات فالحسنة … من كل ناحية في وجهها قمر
ان لم يوف الورى بالشكر ما فتحت … يداك فالله والأملاك قد شكروا (١)

وقال في فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر … لأنك للاسلام يا سيفه ذخر
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا … الى من له في أمر نصرتك النصر

---

(١) درة الاسلاك جـ ١ ورقة ١٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧/٣٠١٧ ـ ٣١٨

ولله في اعلاء ملكك في الورى	مرادٌ وفي التأييد يوم الوغى سر
الا هكذا يا وارث الملك فليكن	جهاد العدا مما توالى به الدهر
نهضت الى عليا طرابلس التي	أتت عنادا أن تخندقها البحر
وقد ضمها كالطوق الابيقية	كنحر وأنت السيف لاح له نحر
منيعة بكر وهل في جموعها	تملكته الا منيعة بكر ؟
وكانت بدار العلم تعرف قبلها	فمن أجل ذا للسيف في نظمها نثر
ولما غدت لا فخر مثل افتتاحها	أبى الله إلا أن يكون لك الفخر
فكم مرّ من دهر وما مسّها أذى	وكم رام من عصر وما راعها حصر
وكم ليثُ غاب رامها في جيوشه	وغابَ ولم يحرز له ظفرا ظفر
فجاءتها بالجيش كالموج فانثنت	تميد وقد أربى على بحرها البحر
وظلّت لدى بحرين أنكاهما لها	وأقتله البحر الذي جرّه مصر
كأن المجانيق التي أوترت حصى	عليها لها في هدم أبراجها وتر
تحلق في جو السماء وترتمي	اليهم كما ينقضّ في حالق نسر
وليست بحسناء السرانين أن بدت	لناظرها يوما وفي قلبها صخر
لها شرر كالقصر ترمي به العدى	فما بين مستعص عليه ولا قصر
ومن تحتها تلك النقوب كأنها	اذا ما تمشّت في ضمير الثرى سر
فزلزلتها بالركن فانهدّ ركنها	ولم يبق من دون المنايا لها ستر
تقسّمهم شطرين غير فريقها	فللسيف شطر والقيود لها شطر (١)

وقال يمدح الاشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة أولها :

لك الراية الصفراء يقدمها النصر	فمن كيقباذ ان رآها وكيخسرو
اذا خفقت في الارض هدّت بنودها	هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وان نشرت مثل الاصائل في وغى	جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وان يممت زرق العدى سار تحتها	كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مثار النقع ليلٌ وخفقها	بروقٌ وأنت البدر والفلك البحر
لها كل يوم أين سار لواؤها	شديدُ تأييد يقدّمها الدهر
وفتح بدا في اثر فتح كأنما	سماءٌ بدت تترى كواكبها الزهر
فان رمت حصنا سابقته كتائب	من الرعب أو جيش تقدّمه النصر
ففي كل قطر للعدى وحصونهم	من الخوف أسياف تجرّد أو حصر
فلا حصن الا وهو حصن لأهله	ولا نشب الا لأرواحهم قبر

. . . .

وما قلعة الروم التي حزت فتحها	وإن عظمت الا الى غيرها جسر
طليعة ما يأتي من الفتح بعدها	كما لاح قبل الشمس في الافق الفجر
تسبّحتها بالجياد كالروض بهجة	صوارمه انهاره والقنا الزهر

(١) درة الاسلاك ورقه ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ ـ ٣٢٤

أداروا بها سورًا فأضحت كخاتـــــم   لدى خنصر أو تحت منطقة خصـــــر
وأرخوا إليها من أكفّ بحارهـــــم   سحابَ ردى لم يخلُ من قطره قطـــر
كأن المجانيق التي قمن حولهـــا   رواعدَ سخطٍ وبلها النار والصخـــر

. . . .

وشبت بها النيران حتى تمزقـــت   وباحت بما أخفته وانهتك الســــتر
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تجيـــب   رجاءهم لو لم يشُبْ قصدهم مكـــر
فأحرزتها بالسيف قهرا وهكـــذا   فتوحاتك فيما قد مضى كله قســـر
فيا أشرف الأملاك فزت بغــزوة   تحصّل منها الفتح :
وبشرت أرضيتَ المسيح وأحمـــدا   وإن غضب اليعفور من ذاك والكفـــر
فسر حيث ما تختار فالأرض كلهـــا   تطيعك والأمصار أجمعها مصـــر
ودُمْ وابقَ للدنيا ليحيا بك الهــدى   ويزهى على ماضي العصور بك العصر (١)

وقال يرثي الملك المنصور بقصيدة أولها :

مَلِكٌ مضى لسبيله ، وسبيلـــه   في نصْرة الاسلام حُكْمٌ يقتفـــى
الملك المنصور أكرم من جفـــا   طيب الرقاد الى الجهاد وأوجفـــا
سل يوم حمص عن الألوف وقد سطـــا   في   هل بعد ذاك تألفـــا
وانظر تجد تسعين ألفا منهـــم   ذهبوا كما حكمت صوارمه جفـــا
وغدوا وطاءً للورى فلكم تـــرى   من جائر قد داس خداً عترفـــا
والمرقب العالي الذي سامى السمـــا   فغدا على نهر المجرة مشرفـــا
وافى اليه بعزمة جاءت بـــه   يوم الإباء مُسلما مُتَسَلمــــا
وكذا طرابلس التي لم يرجُهـــا   ملك سواه اذا تنبّه أو غفـــا
وكم أباد عدًى وكم أبدى يـــدا   وندى وجدّد رسم مكرمة عفـــا
وأنال معتذرا وأغنى راجيـــا   وأعان ملتجئا وسامح مسرفـــا
طوبى له حازت يداه وقد مضـــى   ما اقترضا في طاعة أو أسلفـــا
فتلقت الأملاك مقدم روحـــه   بأجل ما كان فيه وأشرفـــا (٢)

---

(١) البداية والنهاية ١٣ /٣٢٣ فوات الوفيات ١ /١٥٥
(٢) درة الاسلاك ١ ورقه ١٥٠

أشعار لم يعرف قائلوها

قيل في هزيمة الفرنج سنة ٥٥١ ويذكر أحد قادة نور الدين :

ما رأينا فيما تقدم يوماً   كان للحسن غايةً في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم   ذلة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على السمر زفوا   بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزلهم ودينة ذكر   في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي   عند شن الإغارة الشعواء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل   بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان فيه   من فساد يجلهم واعتداء
لا عدمنا اللمشتكيهم من عداتٍ   بمواضٍ تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسرٌ   وجزاء الشكور خير الجزاء(١)

وقال آخر في سقوط القدس سنة ٤٩٢ :

أحل الكفر بالإسلام ضيماً   يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمىً مباحٌ   وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً   ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً   على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوقٌ   وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل   لطفل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر   وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق   يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا   أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

وجد على عضادة محراب مسجد الرها :

أصبحت صفراً من بني الأصفر   أختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف عان به   نائي عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني   لولا جمال الدين لم أطهر (٣)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ٢ ص ٢٧٣

مدح بعض الحلبيين أسد الدين :

إن كان آل الفرنج أدركوا فلحتا … في يوم يغفرا ونالوا منية الظفر
ففي الخطيم خلقت الكفر منصلتا … أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا وانتهبت لنا … على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدمت لنا … قواعد الكفر في ذل وفي صغر (١)

وسمع نائم قولا يقول قبل فتوحات صلاح الدين الكبرى :

ملك العياصي والنواصي ناصر … للدين بعد إياسه أن ينصرا
وسيفتح البيت المقدس بعد ما … يطوى الطراز له ويقتل قيصرا (٢)

وقال آخر بعد هزيمة لويس التاسع عن دمياط:

قل للفرنسيس إن كلا … له من المسلمين شاكر
لأنه محسن الينا … بقوده نحونا العساكر
ساق الى مصر ما اقتناه … آية عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب … صدره بالمنون آخر
أركبهم أدهما خضما … ورابح الشر فهو خاسر
ورام بابا هم أمورا … فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب … تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ولكن … قد عميت منهم البصائر
ولم يفد وقف فيلسوف … علمه كاهن وساحر
فإن يعد طالبا لثار … من أرض دمياط غادر
فذلك البحر تعرفوه … والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب … لمثلها ، انه لقادر
بحيث لم يبق للنصارى … من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيح منهم … من كل علج وكل كافر (٣)

وقال بعضهم في أخذ عكا :

مررت بعكا بعد تعليق سورها … وزند أوار النار في وسطها وار
وعاينتها بعد التنصر قد غدت … مجوسية الابراج تسجد للنار (٤)

---

(١) الروضتين ١/٥٨ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٤٩
(٢) الروضتين ١/١٠٤
(٣) فوات الوفيات ١/١٥٧
(٤) تاريخ ابن الفرات ٨/١١٥ وجواهر السلوك ٤٨

ثانيا ـ معاني المصطلحات (مرتبة حسب حروف المعجم)

(*) أتابـك : وتكتب أطابك ، أيضا ومعناها : الاب الامير ، وأول من لقب بذلـك عماد الدين زنكي صاحل الموصل . (صبح الاعشى ١٦٧/١)

(*) أيبـك : لفظة تركية معناها الامير القمر ، (أى : القمر ، بك الامـير ، (أحمد العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى ١٠٩)

(*) البركوس : جمعها : براكيس : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الابيض المتوسط في العصور الوسطى وهي أصغر حجما من البطسة ، وحمولة البركوس الواحد حوالي خمسة وعشرين رجلا وهي ماخوذة عن الايطاليـه Barcoro (ابن شداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص ١٤٤)

(*) الباشورة : جمعها بواشير : الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال (ابن شداد ، النوادر السلطانيه ، نشر الشيال ص ١٠٣)

(*) البطسة : أو البطسة ، ويقال أحيانا بطشة أو بطشة ، وقد تحرف الى بسطة وسطة والجمع بطس وبطسات ،وبطشات وبطش ، مأخوذ عن الاسبانيه ومعناها السفينة الكبيرة ،تستخدم أصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجارة ، تتسع في العادة الى ما بين ٣٠٠ ـ ٧٠٠ مقاتل (أبن شـداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص ٤٨)

(*) البيضـه : جمعها البيض ،وهي الخوذة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتهـا (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٣)

(*) تركبلـي : لفظة يونانية معناها سلالة الترك (مفرج الكروب نشر الشيال جـ٢ ص ١٤٨)

(*) الجـرخ : ماخوذة عن الفارسية ، والجمع جروخ ، وهو نوع من القوس الرامي الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، وهناك أربعة أنواع للقوس الرامي الـذى يشبه المنجنيق ، وهي قوس الزيار ، والقوس العقاد ، والجـرخ ، وهو يصنع من القرن ، وقوس الرجل ويقال للذى يرمي عن قوسه السـهام أو النفط (الجرخي) (النوادر السلطانية ص ٤٢ ، الروضتـين جـ ١ ق ١ ص ١٣٦)

(*) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها ، وخرج الجند جريـدة أي مسرعين من غير أثقال (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٧٢)

(*) الجاليش : في الاصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثـم أطلق اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعـة (النوادر السلطانيه ٦٢)

(*) الجنائب : في الاصل الخيول التي كانت تسير وراء السلطان أو الاميرفي الحروب استعدادا لاحتمال الحاجة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٤٥)

(*) الاحـداث: جماعات مسلحة من أهل المدن ، عظم شأنهم في بلاد الشام ، وخاصة في دمشق وحلب ، وأصبحوا ذوي الكلمة الاولى في الدفاع عن دمشق في عهد آل طغتكين ، كما أصبح لهم مسؤول يدعى رئيس الاحداث أو رئيس البلد ، يقرّ أختياره حاكم المدينة (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ١٢٨)

(*) الحمالـة : الجمع: حمالات ، وهي نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده ، والصناع ، والخدم الملحقين بالجيش والاسطول ، كما تستعمل في نقل الخيول (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) الحركـاة : الجمع الحركاوات ـ لفظ فارسي ، وهي نوع من الخيام تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من اللبد (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) دبابـة : جاء في اللسان : الدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ، ويقربونها من الحصن لينقبوه ، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم سميت بذلك لانها تدفع فتدب ، ومن حديث عمر ، قال : كيف تصنعون بالحصون ، قالوا : تتخذ دبابات يدخل فيها الرجال ، وجاء في وصفها ، بانها آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب .. وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر (النوادر السلطانيه ص ٤٢)

(*) الدبوس : آلة من حديد ذات أضلاع (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥)

(*) الرباط : في الاصل مكان تجمع المجاهدين المتطوعين لقتال العدو على الحدود ثم صار في أيام الايوبيين مكانا يتفرغ فيه للعبادة (الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٢)

(*) الزراق : والجمع زراقون ـ وهو الذي يرمي النفط من الزراقه ، وهي أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ، وتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن (النوادر السلطانيه ١١٨)

(*) الزنبورك : الجمع زنبوركات ـ قد تعني نوعا من القسي التي تُرمى عنها السهام ، وقد تعني نوعا من السهام ذاتها ، ويكون في سمك الابهام ، وفي طول الذراع ، وله أربعة أوجه ، وطرفه من الحديد ، وهو مريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتا وحيثما سقط فانه مؤكد الاصابة ، وقد يخترق الزنبورك أحيانا ـ في رمية واحدة ـ جسمي رجلين اثنين وقف أحدهما خلف الآخر ، واخترق في الوقت نفسه درع الجندي وملابسه ، ثم نفذ بعد ذلك واستقر في الارض ، وقد يصيب أحجار الاسوار ... (النوادر السلطانيه ص ١٤٨ ـ ١٤٩)

(*) الستائر: من أهم المعدات عند المسلمين في العصور الوسطى ، تتخذ من الجلود واللبود المبلولة بالخل ، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط (مفرج الكروب ٢/ ٣٠٣)

(*) الأسطول : وقد يرسم في المراجع العربية أصطول أو سطول - والجمع أساطيل كلمة يونانية الاصل ، وتطلق في المراجع العربية على السفن الحربية أو السفينة الواحدة ، ويقال للجندي الذي يعمل في الاسطول (أسطولي) . (النوادر السلطانيه ص ٨٤)

(*) الشحنة : الاصل فيها تطلق على مجموعة الخيل التي تحفظ البلد ، ولكنها أطلقت على رياسة الشرطة أو الامير المشرف على حراستها ، ويقال الشحنكية والجمع على شحن ، وشحاني . (النوادر السلطانية ص ٧٣)

(*) الشيني : أو الشاني أو الشينية أو الشونه .. والجمع شواني - السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الاسطول في الدولة الاسلامية ، وتتسع لمائة وخمسين جنديا بأسلحتهم ، وقيل انها تسير بمائة وأربعين مجدافا (النوادر السلطانية ص ٤٨)

(*) الطريدة : ويقال الطراد أو الطرادة أو التطريدة . والجمع طرائد ، وهي سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارسا (النوادر السلطانيه ص ٤٨) .

(*) الطوارق ، والطارقيات جمع طارقة ، وهو يطلق على نوعين من السلاح :
الاول : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال
الثاني : آلة حربية مكونه من جملة من الالواح الخشبية تستخدم كمتراس يختفي الجنود الرماة والصخور خلفها (النوادر السلطانيه ٢٨)

(*) الطلب : لفظ كردي معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين (النوادر السلطانيه ص ٢٤ ، ٦٢ جب /صلاح الدين الايوبي ص ٦١)

(*) الكباش : آلة حربية متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الاسوار لتهدمها ، والجمع كباش ، وكبوش وأكبش (الروضتين جـ ا ق ١ ص ٣

(*) الكوسات : صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدهما على الاخر بايقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسيه وكانت تسمى أيضا بالطبلخانة (النوادر السلطانية ٢٠)

(*) القنطاريات : نوع من الرماح وهي لفظ من أصل يوناني ، سميت هكذا لانها تصنع من الخشب الذي يحمل هذا الاسم باليونانية (مفرج الكروب ١/ ٨٣)

(*) القومـص: تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الامير ، ومعناهـا الاصلي في اللاتينية (الرفيق) لانه كان في بداية الامر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، وتعريبها ، كند ، كد ، وتجمع على كنـود (النوادر السلطانية ٧٧ والباهر ص ٤١)

(*) اللاءمة : الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لاءمة لاحكامها وجودة حلقاتها ، وقيل السلاح كله ، ولاءمة الحرب : أداته وجمعها لاءم ولوءم (النوادر السلطانية ص ٨٨)

(*) المنجنيق : بفتح الميم وكسرها ـ أو المنجنون ، والجمع مجانيق ، ومناجيـق ومنجنيقات ، لفظ أعجمي معرب ، وهو آلة الحصار في العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالي ، وان كانت قذائفه من الحجارة ، وصفـه القلقشندي بأنه : آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيهـا الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبـه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا الا أهلكـه . (صبح الاعشى ٢ / ١٤٤ والنوادر السلطانية ٢٦)

(*) النبل أوالسهام : واحدته نشابة ، والناشبة والنشابة قوم يرمون بالنشاب ، ويشترط فيها ان تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة ، وأمـا طوله وقصره فحسب مقادير الرامي (النوادر السلطانية ٦٣)

(*) النمجـاه : بالهاء ، خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارسي (نيمجه) ، ويقال أيضا : نمجا ، ونمجه ، ونمشا ، ونمشـه (النوادر السلطانية ص ٧٩)

(*) الوطـاق : لفظ معرب عن التركية ومعناه الخيمة ، أو مجموعة الخيام ، أو المعسكر أو الفرقة (النوادر السلطانية ١٢٩)

(*) اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٤٢ ، النوادر السلطانيه ص ١٠)

(*) اليلـب : الترس ، أو الدروع من الجلود أو جلود يخرز بعضها الى بعض لتلبس على الرؤوس خاصة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٢)

ثالثا : جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٥٠	٢٨	٢	١٠٥٨
٤٥١	١٧	٢	١٠٥٩
٤٥٢	٦	٢	١٠٦٠
٤٥٣	٢٦	١	١٠٦١
٤٥٤	١٥	١	١٠٦٢
٤٥٥	٤	١	١٠٦٣
٤٥٦	٢٥	١٢	١٠٦٣
٤٥٧	١٣	١٢	١٠٦٤
٤٥٨	٣	١٢	١٠٦٥
٤٥٩	٢٢	١١	١٠٦٦
٤٦٠	١١	١١	١٠٦٧
٤٦١	٣١	١٠	١٠٦٨
٤٦٢	٢٠	١٠	١٠٦٩
٤٦٣	٩	١٠	١٠٧٠
٤٦٤	٢٩	٩	١٠٧١
٤٦٥	١٧	٩	١٠٧٢
٤٦٦	٦	٩	١٠٧٣
٤٦٧	٢٧	٨	١٠٧٤
٤٦٨	١٦	٨	١٠٧٥
٤٦٩	٥	٨	١٠٧٦
٤٧٠	٢٥	٧	١٠٧٧
٤٧١	١٤	٧	١٠٧٨
٤٧٢	٤	٧	١٠٧٩
٤٧٣	٢٢	٦	١٠٨٠
٤٧٤	١١	٦	١٠٨١
٤٧٥	١	٦	١٠٨٢
٤٧٦	٢١	٥	١٠٨٣
٤٧٧	١٠	٥	١٠٨٤
٤٧٨	٢٩	٤	١٠٨٥
٤٧٩	١٨	٤	١٠٨٦
٤٨٠	٨	٤	١٠٨٧
٤٨١	٢٧	٣	١٠٨٨
٤٨٢	١٦	٣	١٠٨٩

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٨٣	٦	٣	١٠٩٠
٤٨٤	٢٣	٢	١٠٩١
٤٨٥	١٢	٢	١٠٩٢
٤٨٦	١	٢	١٠٩٣
٤٨٧	٢١	١	١٠٩٤
٤٨٨	١١	١	١٠٩٥
٤٨٩	٣١	١٢	١٠٩٥
٤٩٠	١٩	١٢	١٠٩٦
٤٩١	٩	١٢	١٠٩٧
٤٩٢	٢٨	١١	١٠٩٨
٤٩٣	١٧	١١	١٠٩٩
٤٩٤	٦	١١	١١٠٠
٤٩٥	٢٦	١٠	١١٠١
٤٩٦	١٥	١٠	١١٠٢
٤٩٧	٥	١٠	١١٠٣
٤٩٨	٢٣	٩	١١٠٤
٤٩٩	١٣	٩	١١٠٥
٥٠٠	٢	٩	١١٠٦
٥٠١	٢٢	٨	١١٠٧
٥٠٢	١١	٨	١١٠٨
٥٠٣	٣١	٧	١١٠٩
٥٠٤	٢٠	٧	١١١٠
٥٠٥	١٠	٧	١١١١
٥٠٦	٢٨	٦	١١١٢
٥٠٧	١٨	٦	١١١٣
٥٠٨	٧	٦	١١١٤
٥٠٩	٢٧	٥	١١١٥
٥١٠	١٦	٥	١١١٦
٥١١	٥	٥	١١١٧
٥١٢	٢٤	٤	١١١٨
٥١٣	١٤	٤	١١١٩
٥١٤	٢	٤	١١٢٠
٥١٥	٢٢	٣	١١٢١
٥١٦	١٢	٣	١١٢٢
٥١٧	١	٣	١١٢٣

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥١٨	١٩	٢	١١٢٤
٥١٩	٧	٢	١١٢٥
٥٢٠	٢٧	١	١١٢٦
٥٢١	١٧	١	١١٢٧
٥٢٢	٦	١	١١٢٨
٥٢٣	٢٥	١٢	١١٢٨
٥٢٤	١٥	١٢	١١٢٩
٥٢٥	٤	١٢	١١٣٠
٥٢٦	٢٣	١١	١١٣١
٥٢٧	١٢	١١	١١٣٢
٥٢٨	١	١١	١١٣٣
٥٢٩	٢٢	١٠	١١٣٤
٥٣٠	١١	١٠	١١٣٥
٥٣١	٢٩	٩	١١٣٦
٥٣٢	١٩	٩	١١٣٧
٥٣٣	٨	٩	١١٣٨
٥٣٤	٢٨	٨	١١٣٩
٥٣٥	١٧	٨	١١٤٠
٥٣٦	٦	٨	١١٤١
٥٣٧	٢٧	٧	١١٤٢
٥٣٨	١٦	٧	١١٤٣
٥٣٩	٤	٧	١١٤٤
٥٤٠	٢٤	٦	١١٤٥
٥٤١	١٣	٦	١١٤٦
٥٤٢	٢	٦	١١٤٧
٥٤٣	٢٢	٥	١١٤٨
٥٤٤	١١	٥	١١٤٩
٥٤٥	٣٠	٤	١١٥٠
٥٤٦	٢٠	٤	١١٥١
٥٤٧	٨	٤	١١٥٢
٥٤٨	٢٩	٣	١١٥٣
٥٤٩	١٨	٣	١١٥٤
٥٥٠	٧	٣	١١٥٥
٥٥١	٢٥	٢	١١٥٦
٥٥٢	١٣	٢	١١٥٧

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٥٣	٢	٢	١١٥٨
٥٥٤	٢٣	١	١١٥٩
٥٥٥	١٢	١	١١٦٠
٥٥٦	٣١	١٢	١١٦٠
٥٥٧	٢١	١٢	١١٦١
٥٥٨	١٠	١٢	١١٦٢
٥٥٩	٣٠	١١	١١٦٣
٥٦٠	١٨	١١	١١٦٤
٥٦١	٧	١١	١١٦٥
٥٦٢	٢٨	١٠	١١٦٦
٥٦٣	١٧	١٠	١١٦٧
٥٦٤	٥	١٠	١١٦٨
٥٦٥	٢٥	٩	١١٦٩
٥٦٦	١٤	٩	١١٧٠
٥٦٧	٤	٩	١١٧١
٥٦٨	٢٣	٨	١١٧٢
٥٦٩	١٢	٨	١١٧٣
٥٧٠	٢	٨	١١٧٤
٥٧١	٢٢	٧	١١٧٥
٥٧٢	١٠	٧	١١٧٦
٥٧٣	٣٠	٦	١١٧٧
٥٧٤	١٩	٦	١١٧٨
٥٧٥	٨	٦	١١٧٩
٥٧٦	٢٨	٥	١١٨٠
٥٧٧	١٧	٥	١١٨١
٥٧٨	٧	٥	١١٨٢
٥٧٩	٢٦	٤	١١٨٣
٥٨٠	١٤	٤	١١٨٤
٥٨١	٤	٤	١١٨٥
٥٨٢	٢٤	٣	١١٨٦
٥٨٣	١٣	٣	١١٨٧
٥٨٤	٢	٣	١١٨٨
٥٨٥	١٩	٢	١١٨٩
٥٨٦	٨	٢	١١٩٠
٥٨٧	٢٩	١	١١٩١

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٨٨	١٨	١	١١٩٢
٥٨٩	٧	١	١١٩٣
٥٩٠	٢٧	١٢	١١٩٣
٥٩١	١٦	١٢	١١٩٤
٥٩٢	٦	١٢	١١٩٥
٥٩٣	٢٤	١١	١١٩٦
٥٩٤	١٣	١١	١١٩٧
٥٩٥	٣	١١	١١٩٨
٥٩٦	٢٣	١٠	١١٩٩
٥٩٧	١٢	١٠	١٢٠٠
٥٩٨	١	١٠	١٢٠١
٥٩٩	٢٠	٩	١٢٠٢
٦٠٠	١٠	٩	١٢٠٣
٦٠١	٢٩	٨	١٢٠٤
٦٠٢	١٨	٨	١٢٠٥
٦٠٣	٨	٨	١٢٠٦
٦٠٤	٢٨	٧	١٢٠٧
٦٠٥	١٦	٧	١٢٠٨
٦٠٦	٦	٧	١٢٠٩
٦٠٧	٢٥	٦	١٢١٠
٦٠٨	١٥	٦	١٢١١
٦٠٩	٣	٦	١٢١٢
٦١٠	٢٣	٥	١٢١٣
٦١١	١٣	٥	١٢١٤
٦١٢	٢	٥	١٢١٥
٦١٣	٢٠	٤	١٢١٦
٦١٤	١٠	٤	١٢١٧
٦١٥	٣٠	٣	١٢١٨
٦١٦	١٩	٣	١٢١٩
٦١٧	٨	٣	١٢٢٠
٦١٨	٢٥	٢	١٢٢١
٦١٩	١٥	٢	١٢٢٢
٦٢٠	٤	٢	١٢٢٣
٦٢١	٢٤	١	١٢٢٤
٦٢٢	١٣	١	١٢٢٥

السنة الهجريه	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٢٣	٢	١	١٢٢٦
٦٢٤	٢٢	١٢	١٢٢٦
٦٢٥	١٢	١٢	١٢٢٧
٦٢٦	٣٠	١١	١٢٢٨
٦٢٧	٢٠	١١	١٢٢٩
٦٢٨	٩	١١	١٢٣٠
٦٢٩	٢٩	١٠	١٢٣١
٦٣٠	١٨	١٠	١٢٣٢
٦٣١	٧	١٠	١٢٣٣
٦٣٢	٢٦	٩	١٢٣٤
٦٣٣	١٦	٩	١٢٣٥
٦٣٤	٤	٩	١٢٣٦
٦٣٥	٢٤	٨	١٢٣٧
٦٣٦	١٤	٨	١٢٣٨
٦٣٧	٣	٨	١٢٣٩
٦٣٨	٢٣	٧	١٢٤٠
٦٣٩	١٢	٧	١٢٤١
٦٤٠	١	٧	١٢٤٢
٦٤١	٢١	٦	١٢٤٣
٦٤٢	٩	٦	١٢٤٤
٦٤٣	٢٩	٥	١٢٤٥
٦٤٤	١٩	٥	١٢٤٦
٦٤٥	٨	٥	١٢٤٧
٦٤٦	٢٦	٤	١٢٤٨
٦٤٧	١٦	٤	١٢٤٩
٦٤٨	٥	٤	١٢٥٠
٦٤٩	٢٦	٣	١٢٥١
٦٥٠	١٤	٣	١٢٥٢
٦٥١	٣	٣	١٢٥٣
٦٥٢	٢١	٢	١٢٥٤
٦٥٣	١٠	٢	١٢٥٥
٦٥٤	٣٠	١	١٢٥٦
٦٥٥	١٩	١	١٢٥٧
٦٥٦	٨	١	١٢٥٨
٦٥٧	٢٩	١٢	١٢٥٨

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٥٨	١٨	١٢	١٢٥٩
٦٥٩	٦	١٢	١٢٦٠
٦٦٠	٢٦	١١	١٢٦١
٦٦١	١٥	١١	١٢٦٢
٦٦٢	٤	١١	١٢٦٣
٦٦٣	٢٤	١٠	١٢٦٤
٦٦٤	١٣	١٠	١٢٦٥
٦٦٥	٢	١٠	١٢٦٦
٦٦٦	٢٢	٩	١٢٦٧
٦٦٧	١٠	٩	١٢٦٨
٦٦٨	٣١	٨	١٢٦٩
٦٦٩	٢٠	٨	١٢٧٠
٦٧٠	٩	٨	١٢٧١
٦٧١	٢٩	٧	١٢٧٢
٦٧٢	١٨	٧	١٢٧٣
٦٧٣	٧	٧	١٢٧٤
٦٧٤	٢٧	٦	١٢٧٥
٦٧٥	١٥	٦	١٢٧٦
٦٧٦	٤	٦	١٢٧٧
٦٧٧	٢٥	٥	١٢٧٨
٦٧٨	١٤	٥	١٢٧٩
٦٧٩	٣	٥	١٢٨٠
٦٨٠	٢٢	٤	١٢٨١
٦٨١	١١	٤	١٢٨٢
٦٨٢	١	٤	١٢٨٣
٦٨٣	٢٠	٣	١٢٨٤
٦٨٤	٩	٣	١٢٨٥
٦٨٥	٢٧	٢	١٢٨٦
٦٨٦	١٦	٢	١٢٨٧
٦٨٧	٦	٢	١٢٨٨
٦٨٨	٢٥	١	١٢٨٩
٦٨٩	١٤	١	١٢٩٠
٦٩٠	٤	١	١٢٩١

رابعا ـ جداول بأسماء الحكام المسلمين

١ ـ السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقة العظام

طغرلبك	١٠٣٧ ـ ١٠٦٣	بركيارق بن ملكشاه	١٠٩٤ ـ ١١٠٤
ألب أرسلان	١٠٦٣ ـ ١٠٧٢	محمد بن ملكشاه	١١٠٤ ـ ١١١٨
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ ـ ١٠٩٢	احمد سنجر بن ملكشاه	١٠٩٦ ـ ١١٥٧
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ ـ ١٠٩٤		

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨ ـ ١١٣١	محمد بن محمود	١١٥٣ ـ ١١٥٩
داود بن محمود	١١٣١	سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ ـ ١١٦١
طغرل الاول بن محمد	١١٣٢ ـ ١١٣٣	أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١ ـ ١١٧٧
مسعود بن محمد	١١٣٣ ـ ١١٥٢	طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧ ـ ١١٩٤
ملكشاه بن محمود	١١٥٢		

(ج) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤	ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ ـ ١١١٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ ـ ١١١٣	سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ ـ ١١١٧
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ ـ ١١٠٣		

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١ ـ ١٠٨٦	كيخسرو الاول (مرة ثانيه)	١٢٠٤ ـ ١٢١٠
قلج أرسلان الاول	١٠٩٢ ـ ١١٠٧	كيكاوس الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٠ ـ ١٢١٩
ملكشاه الاول بن قلج ارسلان	١١٠٧ ـ ١١١٦	كيقباد الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٩ ـ ١٢٣٦
مسعود الاول بن قلج أرسلان	١١١٦ ـ ١١٥٦	كيخسرو الثاني بن كيقباد الاول	١٢٣٦ ـ ١٢٤٥
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦ ـ ١١٨٨	كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥ ـ ١٢٥٧
ملكشاه الثاني	١١٨٨ ـ ١١٩٢	قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧ ـ ١٢٦٧
كيخسرو الاول	١١٩٢ ـ ١٢٠٠	كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧ ـ ١٢٨٣
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠ ـ ١٢٠٣	مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣ ـ ١٢٩٦
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ ـ ١٢٠٤	كيقباد الثالث	١٢٩٦ ـ ١٣٠٠

(٢) بنو أرتـــق

(أ) الاراتقه في حصن كيفا ثم في آمد

سقمان الاول بن أرتق	١١٠١ ــ ١١٠٤	محمد بن قرا أرسلان	١١٧٤ ــ ١١٨٥
ابراهيم بن سقمان	١١٠٤ ــ ١١٠٨	سقمان الثاني بن محمد	١١٨٥ ــ ١٢٠٠
داود بن سقمان	١١٠٨ ــ ١١٤٨	محمود بن محمد	١٢٠٠ ــ ١٢٢٢
قرا أرسلان بن داود	١١٤٨ ــ ١١٧٤	مودود بن محمود	١٢٢٢ ــ ١٢٣١

(ب) الاراتقه في ماردين

ايلغازى الاول بن أرتق	١١٠٨ ــ ١١٢٢	يولق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١١٨٤ ــ ١٢٠٠
تمرتاش بن ايلغازى	١١٢٢ ــ ١١٥٢	ارتق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١٢٠٠ ــ [illegible]
ألبي بن تمرتاش	١١٥٢ ــ ١١٧٦	غازى الاول بن أرتق أرسلان	١٢٢٩ ــ [illegible]
ايلغازى الثاني بن ألبي	١١٧٦ ــ ١١٨٤	قرا أرسلان بن غازى الاول	١٢٥٩ ــ [illegible]

(٣) بنو زنكـــي

(أ) أتابكة الموصـــل

عماد الدين زنكي بن آقسنقر	١١٢٧ ــ ١١٤٦	نور الدين أرسلان شاه الاول بن مسعود	١١٩٣ ــ ١٢١٠
سيف الدين غازى الاول بن زنكي	١١٤٦ ــ ١١٤٩	عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	١٢١٠ ــ ١٢١٨
قطب الدين مودود بن زنكي	١١٤٩ ــ ١١٧٠	نور الدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	١٢١٨ ــ [illegible]
سيف الدين غازى الثاني بن مودود	١١٧٠ ــ ١١٧٦		
عز الدين مسعود الاول بن مودود	١١٧٦ ــ ١١٩٣	ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني	١٢١٩ ــ [illegible]
		بدر الدين لؤلؤ وابنه ركن الدين اسماعيل	١٢٣٣ ــ ١٢٥٩

(ب) أتابكة الشـــام

العادل نور الدين محمود بن زنكـــي	في حلـــب ١١٤٦ ــ ١١٧٤ في دمشق ١١٥٤ ــ ١١٧٤	الصالح نور الدين محمـــود بن اسماعيل في حلب ضم حلب الى أتابكية الموصل وسنجار	١١٧٤ ــ ١١٨١ ١١٨١ ــ [illegible]

(٤) بنـو ايـوب

(أ) الايوبيــون فـــي مصـــــر

الناصر صلاح الدين يوسف	١١٧٤ ـ ١١٩٣	الكامل (الاول) محمد	١٢١٨ ـ ١٢٣٨
العزيـز عثمـان	١١٩٣ ـ ١١٩٨	العادل (الثاني) ابو بكر	١١٣٨ ـ ١١٤٠
المنصور محمـد	١١٩٨ ـ ١١٩٩	الصالح ايـوب	١٢٤٠ ـ ١٢٤٦
العادل (الاول) لمحمد	١١٩٩ ـ ١١١٨	المعظم توران شاه	١٢٩٠ ـ ١٢٥٠

(ب) الايوبيون في دمشـــق

الافضل نور الدين علي	١١٩٣ ـ ١١٩٦	الكامل الاول محمد	١١٣٨
العادل (الاول) احمد	١١٩٦	العادل الثاني ابو بكر	١١٣٨ ـ ١١٣٩
المعظم عيسى	١١١٨ ـ ١١٢٧	الصالح نجم الدين ايوب (المره الاولى)	١١٣٩
الناصر داود	١٢١٧ ـ ١٢١٩	الصالح اسماعيل (المره الثاني)	١١٢٩ ـ ٦٤٥
الاشرف موسى	١١١٩ ـ ١١٣٧	الصالح نجم الدين ايوب (المره الثانيه)	١١٤٥ ـ ١٤٦
الصالح اسماعيل (المره الاولى)	١١٣٧ ـ	المعظم توران شاه (صاحب مصر)	١١٤٩ ـ ١٥٠

(ج) الايوبيون في حلـب

العادل الاول احمد	١١٨٣ ـ ١١٨٦	العزيز محمـد	١١١٦ ـ ٢٣٦
الظاهر غازي الاول	١١٨٦ ـ ١١١٦	الناصر (الثاني) يوسف	١١٣٦ ـ ٢٦٠

(د) الايوبيون في حمص

الناصر محمد بن شيركوه	١١٧٨ ـ ١١٨٦	المنصور ابراهيم	١١٤٠ ـ ٢٤٦
المجاهد شيركوه الثاني	١١٨٦ ـ ١١٤٠	الاشرف موسى الثاني	١٢٤٦ ـ ٢٦٣

(هـ) الايوبيون في حمـاه

المظفر الاول عمـر	١١٧٨ ـ ١١٩١	المظفر الثاني محمود	١٢٢٩ ـ ٢٤٤
المنصور الاول محمد	١١٩١ ـ ١٢١٠	المنصور الثاني محمد	١١٤٤ ـ ٢٨٤
الناصر قلج ارسلان	١٢٢٠ ـ ١٢١٩		

(ز) الايوبيون في ميافارقـــين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥	الاشرف الاول موسى	١٢١٠ ـ ١٢٢٠
العادل سيف الدين أبو بكر	١١٩٤ـ ١١٩٩	المظفر شهاب الدين غازى	١٢٢١ـ ١٢٤٤
الاوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩ـ ١٢١٠	الكامل الثاني ناصرالدين محمد	١٢٤٤ ـ ١٢٦٠

(٥) سلاطين المماليك في مصر

(أ) دولة المماليك البحريه

شجرة الدر	١٢٥٠	السعيد ناصرالدين محمد بن بركه خان	١٢٧٧
المعز عزالدين أيبك	١٢٥٠		
المنصور نورالدين علي بن أيبك	١٢٥٧	العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩	المنصور سيف الدين قلاون	١٢٨٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الاول)	١٢٦٠	الاشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠

(٦) ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفرى دى بوايون (وصي على الدوله)	١٠٩٩ ـ ١١٠٠	هنرى دى شامبني	١١٩٢ ـ ١١٩٧
بلدوين الاول (اول ملك متوج)	١١٠٠ ـ ١١١٨	عمورى الثاني	١١٩٧ ـ ١٢٠٥
بلدوين الثاني	١١١٨ ـ ١١٣١	مارى (ابنه كونراد تحت الوصايه)	١٢٠٥ ـ ١٢١٠
فولك الانجوى	١١٣١ ـ ١١٤٤	حنا دى برين	١٢١٠ ـ ١٢٢٥
بلدوين الثالث	١١٤٤ ـ ١١٦٢	الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ ـ ١٢٥٠
عمورى الاول	١١٦٢ ـ ١١٧٣	كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠ ـ ١٢٥٤
بلدوين الرابع	١١٧٣ ـ ١١٨٥	كونرادين (ملك أسمي)	١٢٥٤ ـ ١٢٦٨
بلدوين الخامس	١١٨٥ ـ ١١٨٦	هيو الثالث ملك قبرس (الثاني)	١٢٦٩ ـ ١٢٨٤
جاى لوزجنان	١١٨٦ ـ ١١٩٢	حنا الاول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ ـ ١٢٨٥
كونراد دى مونتفرات	١١٩٢	هنرى الثالث ملك قبرس (الثاني)	١٢٨٦ ـ ١٢٩١

(٧) أمراء أنطاكية النورمـــان

بوهيموند الاول	١٠٩٨ ـ ١١٠٤	بوهيموند الثالث	١١٦٣ ـ ١٢٠١
تنكرد	١١٠٤ ـ ١١١٢	بوهيموند الرابع	١٢٠١ ـ ١٢١٦
روجر دى سالرنو	١١١٢ ـ ١١١٩	ريموند روبان	١٢١٦ ـ ١٢١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦ ـ ١١٣٠	بوهيموند الرابع (مرة ثانيه)	١٢١٩ ـ ١٢٣٣
ريموند دى بواتيه	١١٣٦ ـ ١١٤٩	بوهيموند الخامس	١٢٣٣ ـ ١٢٥١
ريجنالد دى شاتيون (أرناط)	١١٥٣ ـ ١١٦٠	بوهيموند السادس	١٢٥١ ـ ١٢٦٨

(٨) أمراء طرابلس

ريموند الاول (الصنجيل)	١١٠٥ـ١١٠٢	ريموند الثالث	١١٨٧ـ١١٥٢
وليم جوردان	١١٠٨ـ١١٠٥	بوهيموند الرابع (+أنطاكية)	١٢٠٣ـ١١٨٧
برتراند	١١١٣ـ١١٠٨	بوهيموند الخامس (+انطاكيه)	١٢٥١ـ١٢٣٣
بونز	١١٣٧ـ١١١٣	بوهيموند السادس (+انطاكيه)	١٢٧٥ـ١٢٥١
ريموند الثاني	١١٥٢ـ١١٣٧	بوهيموند السابع	١٢٨٧ـ١٢٧٥

(٩) أمراء أرمينية الصغرى

روبان الاول	+ ١٠٩٠	مليح	١١٧٥ـ١١٧٠
قسطنطين الاول	+ ١١٠٠	روبان الثالث	١١٨٧ـ١١٧٥
ثوروس الاول	١١٢٩ـ١١٠٠	ليون الثاني	١٢١٩ـ١١٨٧
ليون الاول	١١٣٦ـ١١٢٩	(تزوجت ايزابيل ابنة ليون الثاني من هيثوم صيرون	
ثوروس الثاني	١١٦٧ـ١١٤٤	الذى أصبح ملكا على أرمينية الصغرى).	
روبان الثاني (تحت الوصايه)	+ ١١٧٠		

(١٠) ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الاول	١٢٦٩ـ١٢٢٩
ليون الثالث	١٢٨٩ـ١٢٧٠
هيثوم الثاني	١٢٩٣ـ١٢٨٩
ثوروس الثالث	١٢٩٤ـ١٢٩٣
هيثوم الثاني (مرة أخرى)	١٢٩٦ـ١٢٩٤
سمباد	١٢٩٨ـ١٢٩٧
قسطنطين الاول	١٢٩٩ـ١٢٩٨

(١١) أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الاول كومنين	١١١٨ـ١٠٨١	اسحق الثاني + الكسيوس الرابع	١٢٠٤ـ١٢٠٣
حنا الثاني كومنين	١١٤٣ـ١١١٨	الكسيوس الخامس	١٢٠٤
مانويل الاول كومنين	١١٨٠ـ١١٤٣	تيودور الاول لاسكارس	١٢٢٢ـ١٢٠٤
ألكسيوس الثاني كومنين	١١٨٣ـ١١٨٠	حنا الثالث دوقاس	١٢٥٤ـ١٢٢٢
اندرونيق الاول كومنين	١١٨٥ـ١١٨٣	تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٨ـ١٢٥٤
اسحق الثاني أنجيلوس	١١٩٥ـ١١٨٥	حنا الرابع لاسكارس	١٢٦١ـ١٢٥٨
ألكسيوس الثالث أنجيلوس	١٢٠٣ـ١١٩٥	ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٨٢ـ١٢٥٩

د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص١٢٦٧ـ١٢٠٧.

المصادر والمراجع

أ . المخطوطات :

١ . الملك الأمجد الحسن بن الناصر داود بن عيسى بن نجم الدين أيوب ، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، مخطوط رقم ٢٢٩٣ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٢ . ابن الجزري ، محمد بن ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، مخطوط رقم ٤٧٥٧٥ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة

٣ . ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن حبيب ابو محمد بدر الدين ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ميكرو فلم رقم ٥٢٩ ، الجامعة الاردنية ، عمان .

٤ . ابن دنينير ، ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن علي اللخمي النابوسي ، ديوانه ، مخطوط رقم ٨٧٤٤ ، المكتبه الظاهرية ، دمشق .

٥ . العيني ، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الدين العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ١٥٨٤ ، تاريخ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٦ . ابن قاضي شهبة ، بدر الدين أبو الفضل محمود بن أبي بكر ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، ميكرو فلم عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقمها ١٢٦٧ تاريخ .

٧ . ابن القيسراني ، محمد بن نصر بن صغير ، ديوانه ، مخطوط رقم ١٤٨٤ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٨ . ابن نباتة ، محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ، الجزء من التاريخ المصري جمال الدين بن نباتة ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ، مخطوط رقم ٢٨٨٢ أدب دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٩ . النويري ، أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

ب . على الالة الكاتبة :

١٠ . عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

١١ ـ نادي نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة رقم ٩٠٢ ، القاهرة

جـ ـ الكتب المطبوعة :

١٢ ـ ابن الاثير ، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين ، رسائل بن الاثير ، تأنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٥٩

١٣ ـ ابن الاثير ، نصر الله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، القاهره ، سنة ١٩٣٩

١٤ ـ ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسين علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، الكامل في التاريخ ، ط دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦

١٥ ـ ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسين ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، بالموصل ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٦ ـ أحمد أحمد بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط مكتبة نهضة مصر ، مصر ، سنة ١٩٥٤

١٧ ـ أحمد أحمد بدوي ، صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ، دار القلم ، مصر ، سنة ١٩٦٠

١٨ ـ أحمد أحمد بدوي ، مأمون بني أيوب المعظم عيسى ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٥٣

١٩ ـ أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ، مط السعادة ، مصر ، سنة ١٩٢٢

٢٠ ـ أحمد الشايب ، أصول النقد الادبي ، ط ٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٥

٢١ ـ أحمد عبد المجيد الدومي ، صلاح الدين الأيوبي ، ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، سنة ؟

٢٢ ـ أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٦٩

٢٣• أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانـــي الشيزري ، الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، مط جامعة برنستـــــون الولايات المتحدة ،سنة ١٩٣٠

٢٤• أسامة بن منقذ ،البديع في نقد الشعر ، ت أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، مط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٩٦٠

٢٥• أسامة بن منقذ ، ديوانه ، ت احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، المطبعة الاميركية ، سنة ١٩٥٣

٢٦• ألف ليلة وليلة ، ت أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٢٧• ابن اياس ، محمد بن أحمد ابن أياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الامور ،المكتبة الشعبية ،بيروت ، سنة ١٩٧٠

٢٨• بدري محمد فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخيـــر ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، سنة١٩٧٣

٢٩• ابن بطوطة ، محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم ، رحلته ، دار صادر ودار بيروت ،سنة ١٣٨٤/ ١٩٦٤

٣٠• البنداري ، الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ،مصر ،سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠

٣١• بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي ، ديوانـــه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ،سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٤

٣٢• البوصيري ، محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بـــن صنهـــاج بن هلال الصنهاجي ، ديوانه ، ت محمد سيد كيلاني ، مطبعـــة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٣٧٤/ ١٩٥٥

٣٣• تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمـــة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغـــداد ، سنة ١٩٦٨

٣٤• ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف ، النجـــوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن دار الكتب ؟

٣٥• الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبـــي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ت محمـــد محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة سنة ١٩٥٦

٣٦ • جب ، السير هاملتون جب ، صلاح الدين : دراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف أنيس ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، سنة ١٩٧٣

٣٧ • جب ، السير هاملتون جب ، المدخل في الادب العربي ، ترجمة كاظم سعد الدين ، العراق ، سنة ١٩٦٩

٣٨ • جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، ط ، دار المعارف ، ط مصر ، سنة ١٩٦٨

٣٩ • ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي الشاطبي البلنسي ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، دار بيروت ، سنة ١٣٨٤ / ١٩٦٤

٤٠ • جودت الركابي ، الادب العربي من الاغدار الى الازدهار ، ط ١ ، مطبعة زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٣٩٤ / ١٩٧٤

٤١ • حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الشباب القاهرة ، سنة ١٩٧١

٤٢ • حسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٧

٤٣ • حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

٤٤ • حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٤٥ • الحسيني ، صدر الدين ابو الحسن علي بن السيد الامام ابو الفوارس ناصر بن علي الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ت محمد اقبال ، لاهور ، سنة ١٩٣٣

٤٦ الحنبلي ، ابن العماد ابو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ،

٤٧ الحنبلي ، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ، سنة ١٩٧٣

٤٨ • ابن خلكان احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان ، وفيات الاعيان ، ت احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت

٥٤٩ - ابن الخياط ، أبو عبد الله احمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، ديوان ابن الخياط ، ت خليل مردم بك ، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٧ / ١٩٥٨

٥٥٠ - ابن الدهان ، ابو الفرج الموصلي ، ديوان ابن الدهان ، ت عبد الله الجبوري ط ١ ، مطبعة المعارف ، بغداد سنة ١٣٨٨ / ١٩٦٨

٥٥١ - ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، مطبعة بولاق سنة ١٣١٠ / ١٨٩٣ .

٥٥٢ - رشيد الجميلي ، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ .

٥٥٣ - رئيف التميمي ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ، سنة ١٩٤٥

٥٥٤ - الزركلي ، خير الدين الزركلي ، كتاب الاعلام ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩

٥٥٥ - زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ط ٢ ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥٧

٥٥٦ - زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٥٥٧ - زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٥٥٨ - ابن الساعي ، علي بن أنجب ، الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد مطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، سنة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

٥٥٩ - ابن الساعاتي ، ابو الحسن علي بن رستم بن هردوز ، ديوان بن الساعاتي ، ت أنيس المقدسي ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٨ والجزء الثاني سنة ١٩٣٩

٥٦٠ - سبط بن التعاويذي محمد بن عبد الله ، ديوان سبط بن التعاويذي ، ت . د . س . مرجليوث ، مطبعة المقتطف ، مصر ، سنة ١٩٠٣

٥٦١ - سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، سنة ١٩٥١

٥٦٢ - ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ .

٦٣٠ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

٦٤٠ سعيد عاشور ، حضارة ونظم أوربا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٦

٦٥٠ ابن سناء الملك ، هبة الدين بن جعفر ، ديوان ابن سناء الملك ، ت محمد عبد الحق ، ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، حيد أباد الدكن ، الهند ، سنة ١٣٧٧ / ١٩٥٨

٦٦٠ سيد قطب ، النقد الادبي ، بيروت

٦٧٠ سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الامانة ، بيروت ط ١ ، سنة ١٣٩١/١٩٧٢

٦٨٠ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبو بكر ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط ادارة الوطن ، مصر ، سنة ١٢٩٩

٦٩٠ شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، سنة ١٩٧٢

٧٠٠ ابن شاكر الكتبي ، محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥١

٧١٠ أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، ت محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢

٧٢٠ ابو شامة المقدسي ، كتاب الروضتين ، مطبعة دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٣٠ أبو شامة المقدسي ، كتاب الذيل على الروضتين ، مطبعة دار الجيل ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٤٠ ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تبولس راويس ، مطبعة الجمهورية باريس ، ١٨٩٤

٧٥٠ ابن شاهنشاه الايوبي ، محمد بن تقي الدين عمر ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهناء ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨

٧٦• ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ت جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٦٤

٧٧• شرف الدين الانصاري ، ديوانه ، ت عمر موسى باشا ، مطبعة الهاشمية دمشق ، سنة ١٣٨٧/١٩٦٧

٧٨• شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ، حسن التوسل الى صناعة الترسل ، مطبعة أمين أفندي ، مصر ، ١٣١٥

٧٩• شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ط ٧ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩

٨٠• صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٨١• ابن طباطبا ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٨٦/١٩٦٦

٨٢• طلائع بن رزيك ، ديوانه ، جمع محمد هادي الأميني ، ط مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، العراق ، سنة ١٣٨٣/١٩٦٤

٨٣• ظافر الحداد ، ديوانه ، ت حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، ١٩٦٩

٨٤• عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٥١

٨٥• ابن الظاهر ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي محيي الدين ، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ت أحمد بدوي ، مطبعة الرسالة ، مصر ، سنة ١٩٥٩

٨٦• ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ت مراد كامل ، وزارة الثقافة ، مصر ، سنة ١٩٦١

٨٧• عبد العزيز الاهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، سنة ١٩٦٢

٨٨• عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، سنة ١٩٦٩

٨٩• عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ، وزارة الاعلام ، بغداد ، سنة ١٩٧٦

٩٠• عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

٩١. عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر

٩٢. عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين يوسف ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ١٩٦٧

٩٣. ابن العبري ، غريغوريوس بن توما الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٩٤. ابن العديم ، عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ت سامي الدهان ، الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٦٨.

٩٥. عرقلة الكلبي ، ديوانه ، ت أحمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ، سنة ١٣٩٠ / ١٩٧٠

٩٦. علم الدين أيدمر المحيوي ، ديوانه ، ت أحمد نسيم ، ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٥٠ / ١٩٣١

٩٧. العماد الاصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن هبة الله ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ، سنة ١٣١٩ هـ

٩٨. العماد الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، ت شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، ج ١/ ١٩٥٥ ، ج ٢/ ١٩٥٩ ، ٣/ ١٩٦٤

٩٩. العماد الاصفهاني ، الخريدة قسم شعراء مصر ، ت أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر القاهرة ، ١٩٥١

١٠٠. العماد الاصفهاني ، الخريدة القسم العراقي ، محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجمع العلمي ، العراق ، سنة ١٩٦٤

١٠١. العماد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ت محمد محمود صبح الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥

١٠٢. عمارة اليمني ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ت درتويج درنبرغ ، مطبعة مرسو في مدينة شالون ، سنة ١٨٩٧

١٠٣. عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦

١٠٤. عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك ، دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٧٢

١٠٥. عمر موسى باشا : أمير شعراء المشرق ، ابن نباته المصري ، دار المعارف القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٠٦ • ابن عنين ، ديوانه ، ت خليل مردم بك ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ،
١٠٧ • غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ ، دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦
١٠٨ • الفارقي ، أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ت بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦/١٩٥٩
١٠٩ • فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني ، حياته وشعره ، المطابع التعاونية ، عمان ، سنة ١٩٧٤
١١٠ • فتيان الشاغوري ، ديوانه ، ت أحمد الجندي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سنة ١٩٦٧
١١١ • ابو الفداء ، اسماعيل بن علي ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر ،
١١٢ • ابن الفرات ، محمد حسين عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ، سنة ١٣٨٦/١٩٦٧
١١٣ • ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ مجـ٨ ت قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ط الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٩/١٩٤٢
١١٤ • فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، نقل محمد مصطفى زيادة والباز العريني ط ٥ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٦٩
١١٥ • القرآن الكريم ،
١١٦ • القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٨٠/١٩٦٠
١١٧ • ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ، ذيل تاريخ دمشق ، ط الآباء اليسوعيين ، بيروت ، سنة ١٩٠٨
١١٨ • القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى ، مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ،
١١٩ • ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٤٨
١٢٠ • مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، تحقيق حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨

١٢١ • محمد راغب الطباخي الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، مطبعة العلمية ، حلب ، سنة ١٣٤٢ / ١٩٢٤

١٢٢ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٨

١٢٣ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠

١٢٤ • محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الاثير ، دار المعارف ، مصر ،

١٢٥ • محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي من ق ٥ ـ ١٠ ، دار المعارف مصر ، ؟

١٢٦ • محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

١٢٧ • محمد كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي مصر ، سنة ١٩٥٠

١٢٨ • محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٥٧

١٢٩ • محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ، ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان ، سنة ١٩٧١

١٣٠ • محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، مطبعة الاداب ، مصر ، سنة ١٩٦٥

١٣١ • محمود صداني ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الايوبي ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة ، سنة ١٩٦٧

١٣٢ • ابن مطروح ، الصاحب جمال الدين ، ديوانه ط ١ ، مطبعة الجوائب قسطنطينية ، سنة ١٢٩٨ هـ

١٣٣ • المقّري ، أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، احسان عباس ، دار صادر بيروت ، سنة ١٣٨٨ / ١٩٦٨

١٣٤ • المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٤

١٣٥ • **المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار** ، ط بولاق ، مصر ، سنة ١٢٧٠ هـ

١٣٦ • مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، المدعوة حرب الصليب ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، ط دير الرهبان الفرنسيان القدس ، سنة ١٨٦٥

١٣٧ • ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٩٥٦

١٣٨ • ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف ، أخبار مصر ، تصحيح هنري ماسين ، مطبعة المعهد الفرنسي ، القاهره ، سنة ١٩١٩

١٣٩ • المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، بيروت ، الدار المتحده للنشر ، سنة ١٩٧٤

١٤٠ • ناصر خسرو علوى ، سفرنامه ، ترجمة وتعليق يحيى الخشاب ، ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥

١٤١ • ابن النبيه ، علي بن محمد ، ديوانه ، المطبعة العلمية ، القاهره ، ١٣١٣هـ

١٤٢ • النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، الموسسة المصرية العامة ، دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ــ ١٩٥٥

١٤٣ • النويرى ، محمد بن قاسم الاسكندري ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ، اتين كومب وعزيز عطية مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، الدكن ، سنة ١٩٦٨

١٤٤ • ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ، ت جمال الدين الشيال ، الأميرية ١٩٥٣/١ ، ١٩٥٧/٢ ، ١٩٦٠/٣

١٤٥ • ابن واصل ، مفرج الكروب ٤ ، ت حسنين محمد ربيع وسعيد عاشور ، مطبعة الكتب ، سنة ١٩٧٢

١٤٦ • ابن الوردى ، ابو حفص زين الدين عمر ، تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، سنة ١٢٨٥ / ١٨٦٨

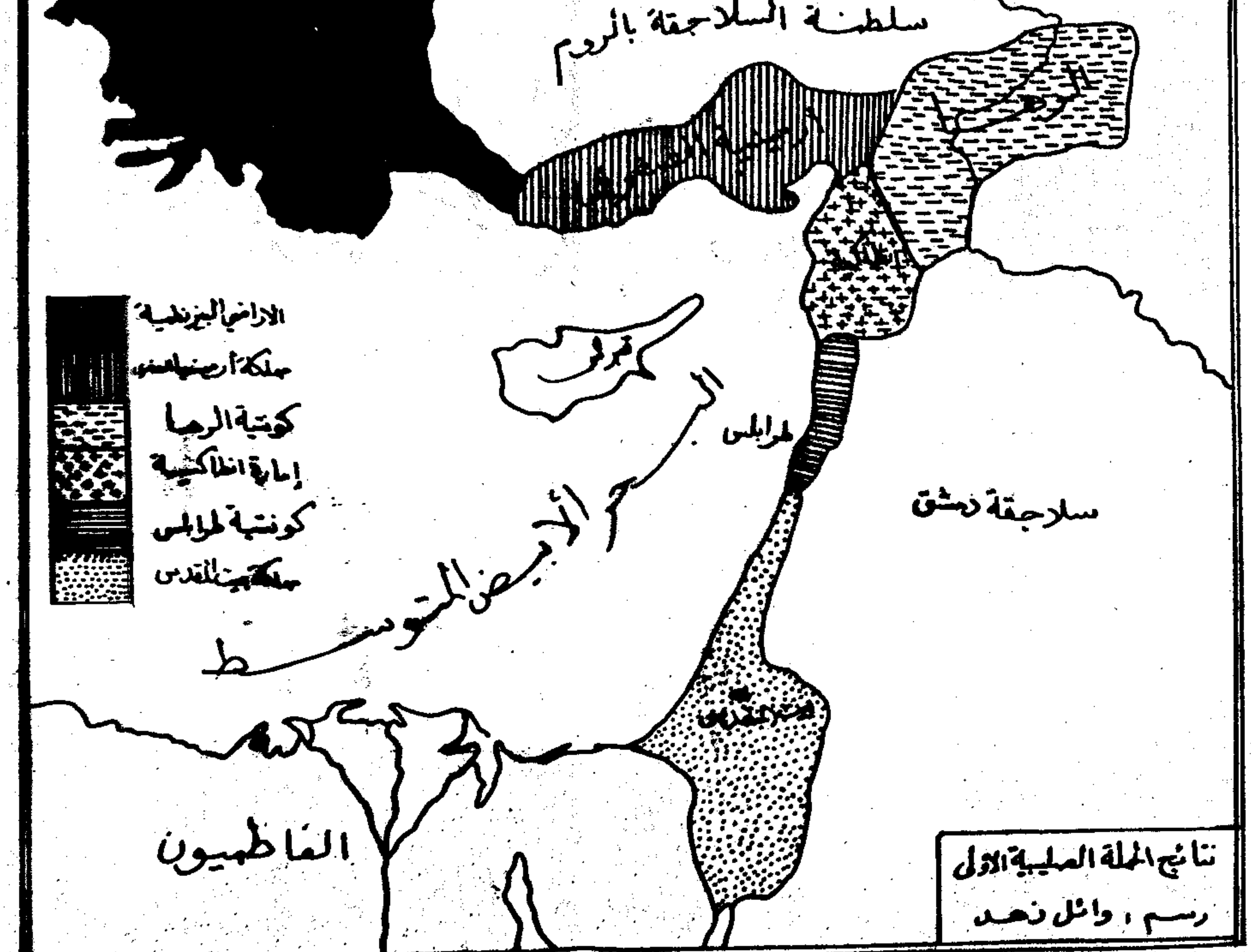
١٤٧ • اليافعي ، عبدالله بن سلامه بن علي بن سليمان ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر اباد والدكه ، ١٣٣٨

١٤٨ • ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، سنة ١٩٥٧

المحتوى



الحروب الصليبية
أرض مسيحية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض إسلامية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض وثنية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض انتزعها المسيحيون قبل ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)
روسيا
ألمانيا
فرنسا
المجر
بحر الشمال
البحر البلطي
المحيط الأطلسي
القوقاز
بحر قزوين
البحر الأسود
القسطنطينية
الأناضول
البحر الأبيض
تونس
مراكش
مصر
بلاد العرب
قشتالة
روما
صقلية
قبرص
كريت
دمشق
الموصل
المدينة

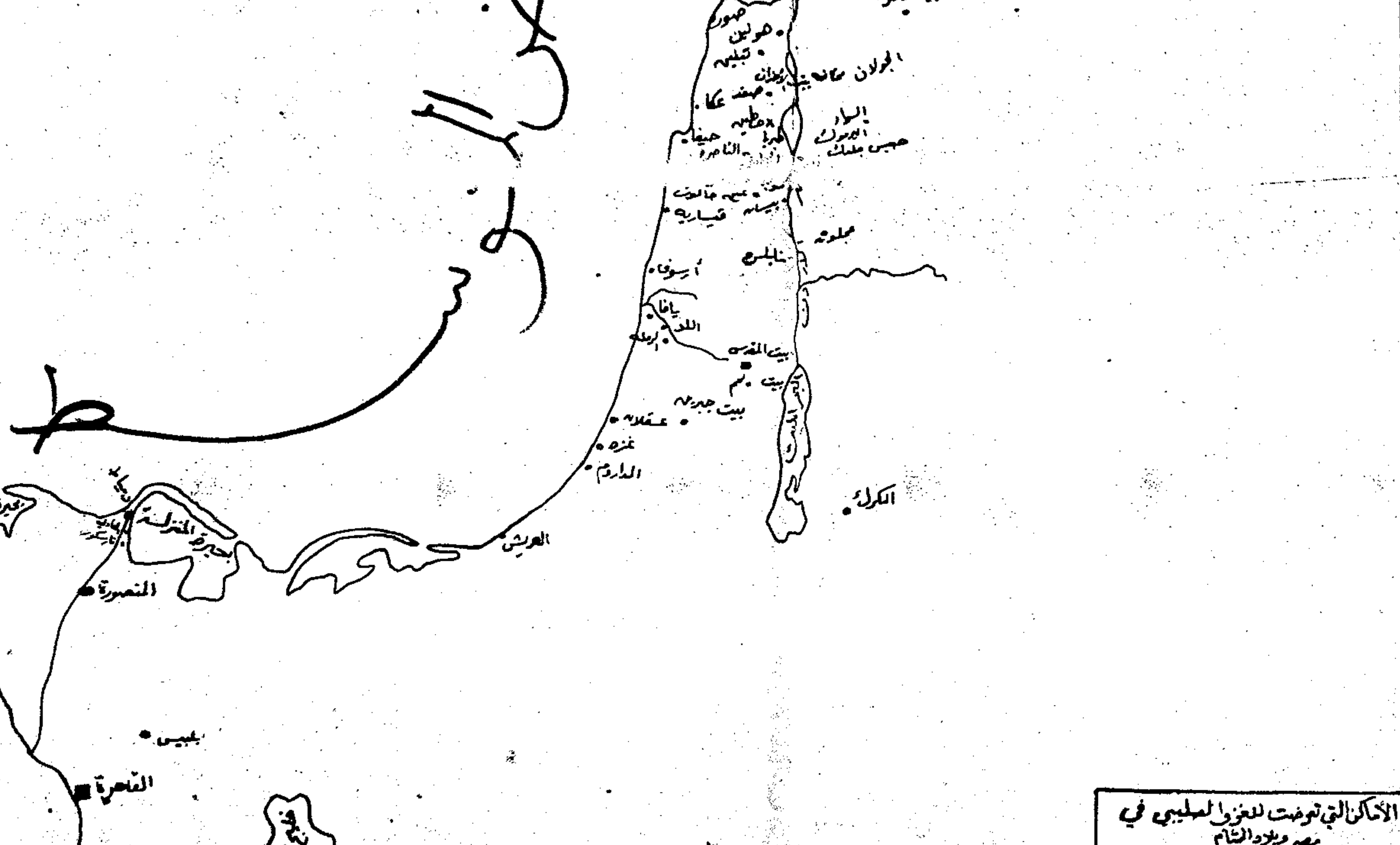


نتائج الحملة الصليبية الأولى
رسم ، وائل نهد
سلطنة السلاجقة بالروم
سلاجقة دمشق
الفاطميون
البحر الأبيض المتوسط
قبرص
طرابلس
الأراضي البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
كونتية الرها
إمارة انطاكية
كونتية طرابلس
مملكة بيت المقدس



نتائج الحملة الصليبية الثالثة
سلطنة السلاجقة بالروم
الامبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
إمارة انطاكية
قبرص
كونتية طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
عكا
مملكة بيت المقدس
امبراطورية صلاح الدين
بقايا الدول الصليبية


الامبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينية الصغرى
سيس
مرعش
قليقية
الأسكندرونة
بغراس
انطاكية
السويدية
قبرص
حلب
عزازه
عفرين
تل باشر
دلوك
قلعة الروم
البيرة
منبج
قنسرين
معرة النعمان
كفرطاب
أفامية
شيزر
حماه
سلمية
حمص
اللاذقية
جبله
بانياس
المرقب
مصياف
الخوابي
الكهف
القدموس
العليقة
رفنية
بعرين
انطرطوس
البقاع
القليعة
عكار
عرقة
طرابلس
البترون
جبيل
حارم
أرتاح
البارة
دانيت


الأماكن التي تعرضت للغزو الصليبي في
مصر وبلاد الشام
صور
هونين
تبنين
الجولان
عكا
طبرية
حيفا
الناصرة
السواد
اليرموك
بيسان
قيسارية
نابلس
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
بيت المقدس
بيت لحم
بيت جبرين
عسقلان
غزة
الداروم
الكرك
العريش
بحيرة المنزلة
المنصورة
بلبيس
القاهرة

وقال أسير على لسان القدس وأرسلها الى صلاح الدين :

يا أيها الملك الـــذي ... لمعالم الصلبان نكـــس
جاءت اليك ظلامـــة ... تسعى من البيت المقـــدس
كلّ المساجد طهـــرتْ ... وأنا على شرفي منجـــس (١)

وحكيَ أن فقيراً بات بالقدس فسمع قائلاً يقول في الليل :

إن يكن بالشآم قل نصـــيري ... وتهدّمتُ ثم دام هلوكـــي
فلقد أصبح الغداة خرابـــي ... سمة العار في حياة الملـــوك (٢)

وكتب على أبواب كنيسة في عكا بعد طرد الفرنج عنها سنة ٦٩٠ :

أدمى الكنائس أن يكن عبثت بكـــم ... أيدي الحوادث أو تغيّر حـــالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكـــم ... شم الانوف جحاجحٌ أبطـــال
صبرا على هذا المصاب فإنـــه ... يوم بيوم والحروب سجـــال (٣)

وقال بعض شعراء المشرق في صلاح الدين :

الله أكبر جاء القدس باريهـــا ... ورام أسهم دين الله راميهـــا
فكم لمصر على الامصار من شـــرف ... بيوسفين وهل أرضٌ تدانيهـــا
فبابن يعقوبَ هزّتْ جيدها طربـــا ... وبابن أيوب هزت عطفها تيهـــا
قل للملوك تخلي عن ممالكهـــا ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها (٤)

وقال بعض شعراء دمشق سنة ٦٥٧ :-

هلك الكفـر في الشآم جميعـــا ... واستجدّ الاسلام بعد دحوضـــه
بالمليك المظفر الملـــك الارْ ... وع سيف الاسلام عند نهوضـــه
ملك جاءنا بعزم وحـــزْم ... فاعتززنا بسمره وبيضـــه (٥)

---

(١) الانس الجليل ٣١٨ وزبدة كشف الممالك ص ٦٠
(٢) نهاية الارب جـ ٢٧ ورقه ٣٩
(٣) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، درة الاسلاك ورقة ١٦١
(٤) مرآة الجنان جـ ٣ / ٤٦٥
(٥) النجوم الزاهرة ٧ / ٧٧

د . المجـــــــلات :

١٤٩ . مجلة الهلال ج ٩ ، السنة الحادية والثلاثون ، سنة ١٩٧٢

١٥٠ . مجلة المعرفة ع ١٥٥ ، كانون ثاني ، سنة ١٩٧٥

هـ . الكتب الأجنبية :

١٥١ . Mahmud Ibrahim, Martial poetry under the Hamdanide of Aleppo. ph.D., 1965.

١٥٢ . Stanley Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, Frank Cass and Co. L.T.D., 1968.

١٥٣ . The Encyclopedia of Islam, Leiden-London, 1936.

الباب الثالث

التقويم الفني

(١٩٩ ـ ٢٩٢)

الملاحق:

The study I have chosen: " Crusaders' picture in Arabic Literature" is ustified on the basis that a more comprehensive study would be a difficult task, due to the fact that the poetry and prose written during the Crusades involve a wide range of variety.

This study contains three chapters. The first is the historical framework which deals with the conditions of the Islamic East in Iraq, Syria and Egypt before the Crusades. A special section about the European status before the war is added to clarify the motives behind the war. Then a survey of the wars from beginning to end. follows.

The second chapter is about the forms of struggle between Muslims and invaders. The most important aspect of this struggle was basically religious. This struggle was mainly characterised by the ruthless treatment Muslims received by Christian Europeans.

In the course of cultural struggle Europeans are to be shown backward in their sciences, administration and law, but progressive in war affairs such as in matters relevant to inventing and developing means of fighting, attacking and defence.

Literature has presented a detailed picture of the military struggle, displaying an accurate description of the Crusades army: regarding its construction, supplies, weapons and plans; and it shed light on the Europeans' castles and forts. Literature has also shown that Europeans got their needs for living from overseas supplies

On the other hand, Arabic literature presented a picture of those invaders during armistices and war breaks describing them as playing, cultivating the land gathering the crops, trading and leading different life altogether, presenting this picturo of the crusaders.

The writers intended to arouse the feelings of the rulers against the invaders hoping that they would succeed in putting an end to their presence. Research into the literary texts of this period reveals productive literary achievemont,

This phenomena was promoted by some eminent characters in the fields of war, politics, administration and litorature such as Nour id-deen Zinki, and Saladin and some of his sons, who faced the challenge with courage and strong conviction.

The third chapter is about technical performance in poetic texts, which was to some degree an extension of its equivalent at the end of the fourth and the beginning of the fifth Hegiran centuries. It combines tradition and innoration. This appears in the form and the content of the poem. Some poems were drawn upon old poetry as seen from the beginning of the poem and their decorative pictures. Meanwhile, some of them were produced in a new method especially in Introducing and overdecorating their diction.

It has been noticed that metaphors formed a populer aspect in the poetry of that era, but that was not a new

phenomenon in the 5th Hegiran century. The phenomenon existed before that time, particularly during that period when it reached the excess.

As for prose texts, they were also characterized by the decorative aspect especially in literature in the books that combined history and literature, decorative style, however, varied between excess and moderation.

The letters of AL-Qadi AL-Fadil were compared with those of Al-Imad Al-Asfahani and Ibn-AL-Athir, and it was found out that there were no differences between them.

This finding makes one suspect the view of those who said that Al-Qadi had a special literary school characterized by certain techniques.

When prose and poetry relevant to the crusaders' existence in the Islamic East were compared, a difference in the way of expressing the same subject was noticed, regarding the handling, the treatment and the literary style. As for poetry, it seldom committed itself to logical sequence for it recorded plain truth and analysis of details. It described the psychological movement of the poet and his social environment. In portraying this, poetry might use exaggeration to emit certain effects, and to arouse the emotions. It also colours the events in a way that reflects the poet's identity.

As for prose, it presents the factual incidents and uses sequences and details- Whatever motivation there is in prose it depends on the events themselves. However, the

gap between prose and poetry was sometimes so narrow that prose is changed, in some cases, into poetry which lacks musical.

The three chapters are followed by five appendices. The first contains poems related to the crusades; the second an explanation of some war idioms; the third a table transforming.

Hegiran years to Christian years; the Fourth, the names of Muslim and Crusaders' leaders; the fifth, maps showing places of battles. Some of the maps show the districts occupied by crusaders in the first ninety years of the war, and how their property began to decrease year by year, until, at last, the four emirates ended.